أمير الشعر في العصر القديم

إمرؤ القيس

تأليف

محمد صالح سمك

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

الفجالة - مصر

مطبعة نهضة مصر

أمير الشعر في العصر القديم

امرؤ القيس

تأليف

محمد صالح سمك

ملتزم الطبع والنشر

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

دعائى

اللهم : كن إلى جوارى فى كل ما تجرى به علىّ مقاديرك من حلو الحياة ومرها ، وخيرها وشرها ؛ حتى لا تبطرنى نعمة ، ولا تضجرنى محنة .

اللهم : اهدنى لأحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق ؛ لا يهدى لأحسنها إلاّ أنت ، وقنى سيء الأعمال ، وسيء الأخلاق ؛ لا يقى سيئها إلاّ أنت .

اللهم : اجعلنى غير متناسٍ لماضىّ ، ولامتجاهل لحاضر ، ولا متغافل عن قابلى . . . واجعلنى على الدوام عبداً ذاكراً . صابراً شكوراً . . واعف عنى ، وعافنى ، واغفرلى ، وارحمنى . . أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة . . توفنى مسلماً والحقنى بالصالحين . . يارب العالمين .

إهدائى

إلى كلية دار العلوم .

لزامًا علىّ أن أرد الفضل إلى أهله ، والفيض إلى نبعه ، وهذا الكتاب من (دارالعلوم) وحيه وهديه ، فإليها تقدمته وإهداؤه .

كالبحر يمطره السحاب وما له   فضل عليه لأنه من مائه

محمد صالح سمك

شعارى

الحياة معرفة الواجب . . . .
والألم والأمـــل باعثان لتلك
المعـــرفة . . . .
وخـير ما فى الحيـاة سمو المرء إلى
الفضائل وقيامه بعمل نافع . . .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم نابغة الأدب العربى

المغفـــــــــور له

السـيد / (مصطفى صادق الرافعى)

الوجه فى إفراد شاعر أو كاتب من المـاضين بالتأليف ، أن تصنع كأنك تعيده إلى الدنيا فى كتاب وكان إنساناً ، وترجمه درساً وكان عمراً ، وترده حكاية وكان عملا . وتنقله بزمنه إلى زمنك ، وتعرضـه بقومه على قومك ، حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقة إيجاد يخلقه العقل خلقة تفـكير .

من أجل ذلك لابد أن يتقصى المؤلف فى الجمع من آثار المترجم وأخباره ، وأن يحمل فى ذلك من العنت ما يحمله لو هو كان يجرى وراء ملـكى من يترجمه لقراءة كتاب أعماله كتابه فى يديهما ... ولا بد أن يبالغ فى التمحيص والمقابلة ، ويدقق فى الاستنباط والاستخراج ، ويضيف إلى عامة ما وجد من العلم والخبر خاصة ما عنده من الرأى والفـكر ، ويعمل على أن ينقـح ما انتهى إليه المـاضى فى أدبه وعلمه بما بلغ إليه الحاضر فى فنه وفلسفته ، وذلك من عمل العقل المتجدد أبداً والمترادف على هذه الحياة بمذاهبه المختلفة ، وهو يشبه عمل الدهر

المتجدد أبدا ، والمترادف بالليل والنهار على هذه الأرض . كل نهار أو ليل هو آخر وهو أول ، وكذلك العقول كلها آخر من ناحية وأول من ناحية .

والتجديد فى الأدب إنما يكون من طريقتين : فأما واحدة فإبداع الأديب الحى فى آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان ، وأما الأخرى فإبداع الحى فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة ، وأساليب الفن الجديدة . وفى الإبداع الأول إيجاد مالم يوجد ، وفى الثانى إتمام مالم يتم ، فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمة ، فلا جديد إلا مع القديم .

وإذا تبينت هذا وحقيقته أدركت لماذا يتخبط منتحلو الجديد بيننا ؛ وأكثرهم يدّعيه سفاهاً ويتقلده زورا ، وجملة عملهم كوضع الزنجى الذرور الأبيض (البودرة) على وجهه ، ثم يذهب يدعى أنه خرج أبيض من أمه لامن العلبة ... فإن منهم من يضع رسالة فى شاعر وهو لا يفهم الشعر ، ولا يحسن تفسيره ، ولا يجده فى طبعه ، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها ، ومنهم من يجدد فى تاريخ الأدب ولكن بالتكذب عليه والتهجم فيه والذهاب فى مذهب المخالفة ، يضرب وجه المقبل حتى يجىء مدبرا ووجه المدبر حتى يعود مقبلا ؛ فإذا لكل طريق جديد . وينسى أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق .

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض لا يكلفه ذلك إلا قولا يقوله وتلفيقا يدبره ، ولكن أكذلك كل من وصف دواء استطاع أن يشفى به ؟ .

* * *

وبعد فقد قرأت رسالة امرىء القيس التى وضعها الأديب الفاضل السيد (محمد صالح سمك) فرأيت كاتبها قد أدرك حقيقة الفن فى هذا الوضع من تجديد الأدب، فاستقام على طريقة غير ملتوية ومضى فى المنهج السديد ، ولم يدع التثبت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحصيف الرأى ، ولا قصر فى التحصيل والاطلاع والاستقصاء ، ولا أراه قد فاته إلا مالابد أن يفوت غيره مما ذهب فى إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجماً بالغيب وحكما بالظن .

فإن امرأ القيس فى رأيى إنما هو عقل بيانى كبير من العقول المفردة التى خلقت خلقها فى هذه اللغة ، فوضع فى بيانها أوضاعاً كان هو مبتدعها والسابق إليها ، ونهج لمن بعده طريقتها فى الاحتذاء عليها ، والزيادة فيها ، والتوليد منها ، وتلك هى منقبته التى انفرد بها والتى هى سر خلوده فى كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى مابقيت اللغة . فهو أصل من الأصول فى أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ؛ حتى لكأنه مصنع من مصانع اللغة لا رجل من رجالها . وكما يقال فى زمننا فى أمم الصناعة : سيارة فورد وسيارة فيات يمكن أن يقال مثل ذلك فى بعض أنواع البلاغة العربية : استعارة امرىء القيس وتشبيه امرىء القيس .

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر ، وتأريخ كلماته البيانية مما لا يستطيعه باحث ، وليس لنا فيه إلا الوقوف عندما جاء به النص .

ولقد نبهنا فى (إعجاز القرآن) إلى مثل هذا ؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء فى القرآن الكريم كان جديداً فى اللغة لم يوضح من قبله ذلك الوضع ، ولم يجر فى استعمال العرب كما أجراه ، فهو يصب اللغة صباً فى أوضاعه لأهلها لا فى أوضاع أهلها ، وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمائة سنة ما لا نظن فلسفة

الفن قد بلغت إليه فى هذا العصر ، إذ حقيقة الفن على ما نرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة فى ذات أنفسها ليس فى تركيبها إلا القوة التى بنيت عليها . فإذا تناولها الصنع الحاذق الملهم أضاف إليها من تعبيره ما يشعرك أنه خلق فيها الجمال العقلى ، فكأنها كانت فى الخامة ناقصة حتى أتمها .

وهذا المعنى الذى بيناه هو الذى كان يحوم عليه الرواة والعلماء بالشعر قديماً ؛ يحسونه ولا يجدون بيانه وتأويله ، فترى الأصمعى مثلا يقول فى شعر لبيد : إنه طيلسان طبرى . أى محكم متين ولكن لا رونق له : أى فيه القوة وليس فيه الجمال ، أى فيه التركيب وليس فيه الفن .

والعقل البيانى كما قلنا فى غير هذه الكلمة هو ثروة اللغة وبه وبأمثاله نعامل التاريخ ، وهو الذى يحقق فيها فن ألفاظها وصورها ، فهو بذلك امتدادها الزمنى وانتقالها التاريخى ، وتخلقها مع أهلها إنسانية بعد إنسانية فى زمن بعد زمن ، ولا تجديد ولا تطور إلا فى هذا التخلق متى جاء من أهله والجديرين به ، وهو العقل المخلوق للتفسير والتوليد وتلقى الوحى وأدائه واعتصار المعنى من كل مادة وإدارة الأسلوب على كل ما يتصل به من المعانى والآراء فينقلها من خلقتها وصيغها العالمية إلى خلق إنسان بعينه هو هذا العبقرى الذى رزق البيان .

* * *

وللسبب الذى أومأنا إليه بقى امرؤ القيس كالميزان المنصوب فى الشعر العربى ، يبين به الناقص والوافى . قال الباقلانى فى كتابه (الإعجاز) وقد ترى الأدباء أولا يوازنون بشعره (يريد امرأ القيس) فلاناً وفلانا ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه (توفى الباقلانى سنة ٤٠٣ للهجرة) وبين شعره فى أشياء لطيفة وأمور بديعة وربما فضلوه عليهم

أو فضلوهم عليه أو سووا بينهم وبينه أو قربوا موضع تقدمه عليهم وبروزه بين أيديهم (ا ٠ هـ٠)

ومعنى كلامه أن امرأ القيس أصل فى البلاغة ، قد مات ولا يزال يخلق ، وتطورت الدنيا ولا يزال يجىء معها ، وبلغ الشعر العربى غايته ولا تزال عربيته عند الغاية .

وعرض الباقلانى فى كتابه طويلة امرىء القيس[1] فانتقد منها أبياتاً كثيرة ليدل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه فى الصناعة والبيان هو قبيل آخر غير نظم القرآن لا يمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها ، فركب فى ذلك رأسه ورجليه معاً . . . . فأصاب وأخطأ ، وتعسف وتهدى ، وأنصف وتحامل . وكل ذلك لمكانة امرىء القيس فى ابتكاره البيانى الذى لا يمكن أن يدفع عنه . ولما انتقد قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

قال : « فقد قالوا عنى بذلك أنها كبيضة خدر فى صفائها ورقتها وهذه كلمة حسنة ولكن لم يَسبق إليها بل هى دائرة فى أفواه العرب » ٠ ٠ ٠ ألا ليت شعرى هل كان الباقلانى يسمع من أفواه العرب فى عصر امرىء القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر) ؟ !

على أن الكناية عن الحبيبة (ببيضة الخدر) من أبدع الكلام ، وأحسن ما يؤتى العتل الشعرى ، ولو قالها اليوم شاعر من لندن أو باريس بالمعنى الذى أراده امرؤ القيس — لا بما فسرها به الباقلانى — لاستبدعت من قائلها ،

---

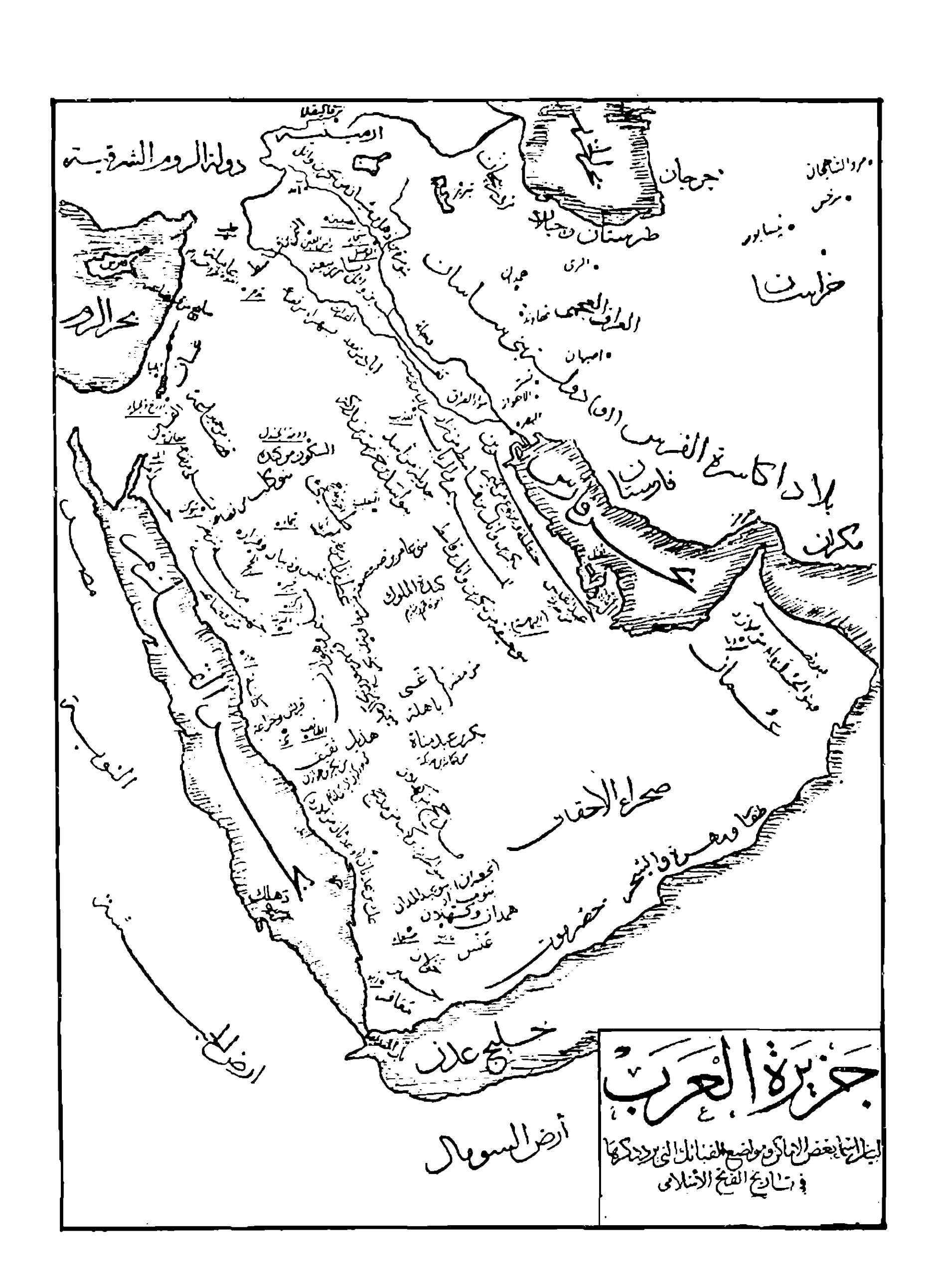
(١) أى معلقته وهذه القصائد التى تسمى المعلقات لم تكتب ولم تعلق كما سنبينه فى كتاب تاريخ آداب العرب .

ولأصبحت مع القبلة على كل فم جميل . بل هم يرون فى بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة فيكنون عن البيت الذى يتلاقى فيه الحبيبان (بالعش) وما يتخذ العش إلا للبيضة ... إنما عنى الشاعر العظيم أن حبيبته فى نعومتها وترفها ولين ما حولها ، ثم فى مسها وحرارة الشباب فيها ، ثم فى رقتها وصفاء لونها وبريقها ، ثم فى قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها ، ثم فى انصرافهم بجملة الحياة إلى شأنها وبجملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها ، هى فى كل ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجارح فى عشه ، إلا أنها بيضة خدر ، ولذلك قال بعد هذا البيت :

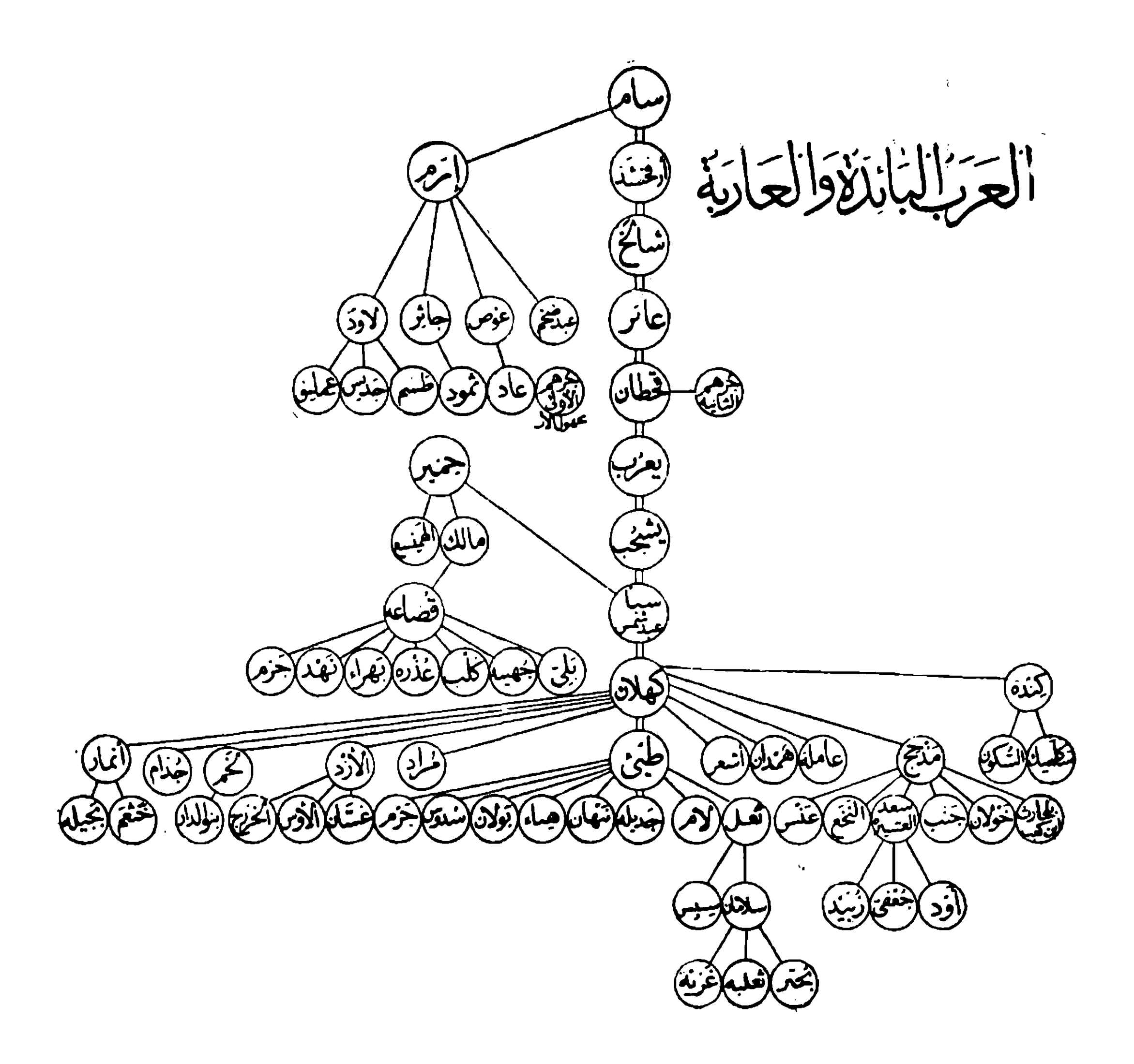
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً   علىّ حراصا لو يسرون مقتلى

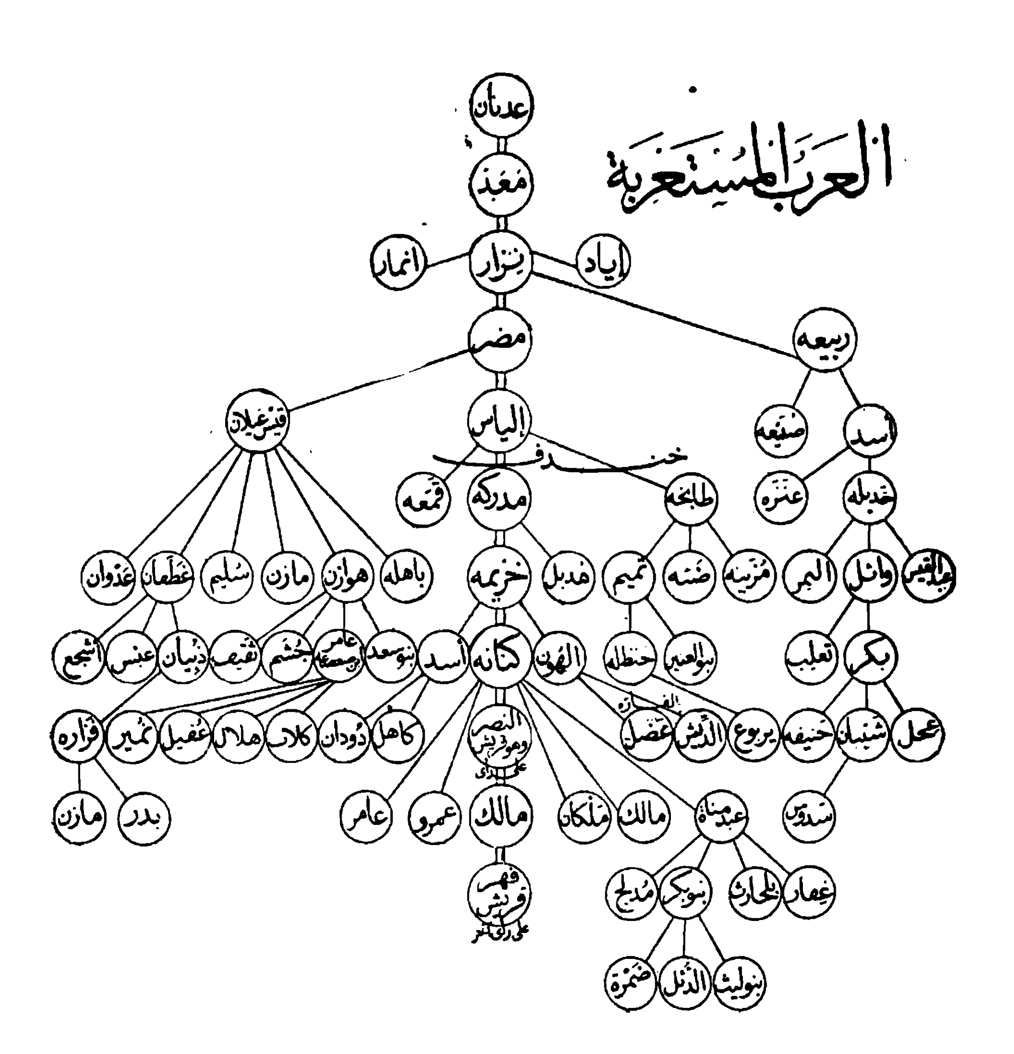
فتلك بعض معانى الكلمة وهى كما ترى ، وكذلك ينبغى أن يفسر البيان .

طنطا فى اغسطس سنة ١٩٢٩   مصطفى صادق الرافعى



جزيرة العرب
لبيان أسماء بعض الأماكن ومواضع القبائل التي يرد ذكرها
في تاريخ الفتح الإسلامي
دولة الروم الشرقية
بحر الروم
ارمينية
جرجان
طبرستان وجبالها
مرو الشاهجان
سرخس
نيسابور
خراسان
الري
همدان
نهاوند
العراق العجمي
اصبهان
الأهواز
البصرة
بلاد اكاسرة الفرس (دولة بني ساسان)
فارستان
مكران
كندة الملوك
غني
باهلة
هذيل
ثقيف
صحراء الأحقاف
حضرموت
نجران
همدان وكهلان
عنس
خليج عدن
أرض الصومال


العرب البائدة والعاربة
سام
ارفخشذ
شالخ
عابر
قحطان
جرهم الثانية
يعرب
يشجب
سبا عبد شمس
كهلان
إرم
عبد ضخم
عوص
جاثر
لاود
عمليق
جديس
طسم
ثمود
عاد
جرهم الأولى
حمير
مالك
الهميسع
قضاعه
بلي
جهينه
كلب
عذره
بهراء
نهد
جرم
كنده
السكون
السكاسك
مذحج
عامله
همدان
أشعر
طيئ
مراد
الأزد
لخم
جذام
أنمار
بجيله
خثعم
بنو الدار
الخزرج
الأوس
غسان
جرم
سدوس
بولان
هيماء
نبهان
جديله
لام
ثعل
عنس
النخع
سعد العشيره
جنب
خولان
الحارث بن كعب
سلامان
سنبس
بحتر
ثعلبه
غزيه
أود
جعفي
زبيد


العرب المستعربة
عدنان
معد
إياد
نزار
أنمار
ربيعه
مضر
أسد
ضبيعه
الياس
قيس عيلان
خندف
جديله
عنزه
طابخه
مدركه
قمعه
عبد القيس
وائل
النمر
مزينه
ضبه
تميم
هذيل
خزيمه
باهله
هوازن
مازن
سليم
غطفان
عدوان
بكر
تغلب
بنو العنبر
حنظله
الهون
كنانه
أسد
بنو سعد
عامر بن صعصعه
جشم
ثقيف
ذبيان
عبس
أشجع
عجل
شيبان
حنيفه
يربوع
الديش
القارة
عضل
النضر وهو قريش على رأي
كاهل
دودان
كلاب
هلال
عقيل
نمير
فزاره
سدوس
عبد مناة
مالك
ملكان
مالك
عمرو
عامر
بدر
مازن
غفار
الحارث
بنو بكر
مدلج
فهر قريش على رأي آخر
بنو ليث
الديل
ضمرة

منهج البحث

قبل الأخذ فى دراسة ذلك الشاعر يجمل بى أن ألم بشىء مما يجب أن يتبع فى دراسة أى شاعر من الشعراء ، لأجعل ذلك وسيلة موصلة لإدخال روح الطمأنينة وبشاشة اليقين على عقول القارئين فيما أورده عليهم فى هذا البحث .

أقول : إن ابن خلدون رسم فى مقدمته الخطة التى يجب أن يترسمها الباحث فى أحوال الجماعات والمتعاطى لتاريخ حياتها العامة . فأوجب عليه ألا يعتمد على مجرد النقل للأخبار من غير أن يتحاكم فيها إلى أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران ، ومذاهب الاجتماع .

وعندى أنه يجب على الباحث فى الأدب والشعراء أن يتبع هذا المنهاج ، مع إلمامه بشىء من الدراسات الضرورية لأجناس العلوم ، وقواعد الفلسفة ، وأصول الأديان ، ومع أخذه من كل فن بطرف — كما يقولون — وأن يضيف إلى ذلك كله شيئاً من الشغف الفنى الذى يتصل بنفسه ، فيخلق فيها روح الأدب ، ويكون لها مزاج الأديب .

ولئن كان للشعر صناعة وثقافة — كما يقول ابن سلام — فإن البحث فى الأدب أحرى أن يكون كذلك . وصاحب هذه الصناعة محتاج إلى التشبث بكل فن ، حتى ماتقوله النادبة فى المآتم ؛ والماشطة عند جلوة العروس .

وقد لا يغنى عن مؤرخ الأدب والباحث فيه استحسانه لنوع منه عند نفسه ، وعلى قياس ذوقه ، إذا انحرف عن هذه الثقافة ، ولم يدخل فى اعتبار تلك الصناعة . ولقد قال قائل لخلف الأحمر إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى

ما تقول فيه أنت وأصحابك . فقال له خلف الأحمر أرأيت إذا استحسنت أنت درهماً ثم قال لك الصيرفي إنه ردىء أكان ينفعك استحسانك له ؟ . فأسكته . ولقد قال خلاد بن يزيد الباهلى لخلف بن حيان — وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله — بأى شيء ترد هذه الأشعار التى تروى ؟ قال له هل تعلم أنت منها ما أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال نعم . قال أفتعلم فى الناس من هو أعلم منك بالشعر ؟ قال نعم . قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك مالا تعرف أنت .

وليس البحث فى الشاعر مقصوراً على أن نصفه بأنه نظم هذه القصيدة البارعة ، أو له تلك المعانى الرائعة. ولا أن شعره كان رقيقاً أو حوشيا. ولا أن نقول متى ولد ومتى مات ؟ . . . . . ولكن البحث الصحيح المنتج يتناول هذا الشاعر ، فيضرب حوله نطاقاً من أحوال بيئته الاجتماعية والسياسية والطبيعية ، ويتعرف ما كان للوارثة والمخالطة من آثار ظاهرة فى ملكات ذلك الشاعر ، ويتتبع الحوادث التى كانت منبعاً لشعره وموردا لقوله ، ويقف على حاله من حيث غناه وفقره ، ورفعته وضعته ، وعزه وذله ، ونعمته وخشونته ، وسراؤه وضراؤه ، وحضره وبداوته ، وحربه وسلمه ، وعلمه وجهله ، وكبره وصغره . . . . . فكل ذلك له أثر فى نفسية الشاعر وشعره . فالناشىء بين بيئة راقية له مسلك فى معانيه وبيانه وأخيلته غير مسلك النابت بين السوقة . وكذلك شعر الشريف الناعم غير شعر الوضيع البائس . وشعر الحاضرة غير شعر البادية . وشعر الشاب الصغير غير شعر الشيخ الكبير ، وشعر المسالم الوادع غير شعر المحارب الثائر ، وشعر الناسك الزاهد غير شعر الماجن العاهر . . . .

وقد لا يوفق الباحث إلى نقل الصورة المطابقة لحقيقة الشاعر إذا حاول أن يأخذه من كلامه وحده ، غير باحث عن العوامل التى أحاطت به ، فقد تحتجب

نفسية الشاعر لأمور سياسية ، أو لشهوات خاصة ، أو لأغراض أملتها عليه ظروف البيئة . والباحث يدور يبحث عن الشاعر في شعره فلا يجد له إلا ظلا ضئيلا ، لا يكاد يحمل من حقيقته شيئا ، بل قد لا يتصل بها في شيء .

وقد دلت التجربة مراراً على أن التباين قد يقع بين حقيقة الشاعر وبين ما يظهره في شعره . فأين حقيقة المعرى في قوله :

ألاحَ وقد أرى برقًا مُليحا سرَى فأتَى الحَمى نِضْواً طَليحا[1]
كما أغضَى الفتى ليذوق غمضًا فصادف جفْنــه جفنًا قريحا[2]
إذا ما اهتــاج أحمرَ مستطيرا حسبت الليـــلَ زنجيًّا جريحا[3]

وقوله :

ولاح هلال مثلُ نون أجادَها بجارِي النضَار الكاتبُ ابنُ هلال[4]

وأين حقيقة بشّار في قوله :

كأنَّ مُثار النقْع فوق رءوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوَى كواكبُه[5]

ونحن نعلم أن كلاًّ منهما كان أعمى كفيف البصر .

بل أين حقيقة بشار في قوله :

إنَّ في بُرْدَيَّ جسماً ناحلا لو توكَّأْت عليه لانْهدم[6]

---

(١) ألاح البرق أومض ولمع — سرى أى سار ليلا — النضو المهزول من السفر — الطليح المتعب .
(٢) القريح الجريح
(٣) اهتاج أى ثار — مستطيراً منتشراً
(٤) النضار الذهب
(٥) النقع الغبار
(٦) البرد الثوب

ونحن نعلم أنه كان ضخم الجثة ؛ طبق لحمًا واكتنز شحماً . ولكن الباحث إذا فتش عن تلك المؤثرات القائمة التى دعت الشاعر إلى أن ينتحى هذا المنحى ، ويسلك هذا المعنى ؛ علم أن تلك النفس الشاعرة تحدثت بغير خاطرها ، وتنكرت فى صورتها ، ولبست ثوبًا غير زيها .

* * *

وبعد فإنى لأرجو على ضوء هذا المنهج أن أوفى شاعرنا التاريخى العظيم حقه ، وأن أوفق فى تتبع حياته وشعره وأطواره ، ودراسته دراسة تحليلية تسد حاجتنا وتروى غلتنا .

ولست أدعى أنى فى ذلك بالغ مالا يبلغه غيرى ، لأنى أعلم أن فى الناس من يعرف ما لا أعرف ، والكمال لله وحده ... عليه توكلت وإليه أنيب .

اسرة امرىء القيس

يتصل نسب امرىء القيس[1] بملوك كندة ، وكندة هم سادة اليمن ، ومجدها القديم ، وشرفها العميم ، كما يقول دغفل نسابة العرب ، وهم بطن من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأصلهم من البحرين والمشقَّر ، ثم أجلوا عنها فى زمن لا يمكن تحديده ، وقد أقاموا هناك حيناً من الدهر على عهد التتابعة الحميريين ، وكانت إقامتهم فى بلد عرف باسمهم « كندة » مرتفع عن الأرض ومشرف على حضرموت ، ثم تحولوا إلى مهرة وأقاموا بدمون قصبتها الكبرى ، وكانوا على وفاق مع التتابعة الحميريين ، وهؤلاء الأخيرون اتخذوا منهم بطانة وأعوانا ، وأدخلوهم فى حاشيتهم ، واستخدموا خاصتهم وكبراءهم فى بعض مصالحهم — وقد ضاع أكثر أخبارهم — وأقدم من عرفت أخباره منهم حجر الملقب بآكل المرار ، وقد تولى حجر هذا ملك بعض القبائل العدنانية بنجد فى أوائل القرن الخامس الميلادى . وخبر ذلك : أنه حين غلب سفهاء بكر عقلاءها على أمر القبيلة ، وأكل القوى منهم الضعيف ، وتقاطعت أرحامهم فتشاور رؤساؤهم فيما

---

(١) اسمه حندج على وزن فلفل — وامرؤ القيس لقبه وبه شهر ، ولقب بالملك الضليل أيضا ، ويكنى أبا وهب ، وأبا زيد . وأبا الحارث (كنية الأسد) ، وذا القروح أخذا من قوله :

وبدلت قرحا داميا بعد صحة فيالك نعمى قد تحولن أبؤسا

وغير ذلك مما أطلق عليه ، ولكنه لم يشتهر إلا بلقبه أمرىء القيس ونعته الرسول صلى الله عليه وسلم « بحامل لواء الشعراء »

بينهم ، وقالوا الأفضل إلينا أن نملك علينـا ملـكا نعطيه الشاة والبعير ، ويأخذ للضعيف من القوى ، ويرد على المظلوم ما سلبه منه ظالمه ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا حتى لا يطيعه قوم ويخرج عليه آخرون فتفسد ذات بيننا ، ولكننا نأتى تبع اليمن (حسانا) فنملكه علينا . فقصدوه وذكروا له أمرهم ، فملك عليهم حجرا آكل المرار — لأنه كان ذا رأى ووجاهة — فقدم حجر إلى نجد ، ونزل ببطن عاقل ، ثم توجه ببنى بكر ابن وائل إلى ملوك الحيرة اللخميين وهم المناذرة ، فغزاهم بهم وغلبهم على أمرهم ، وردهم عما كانوا امتلكوه فى نجد ولا سيما بلاد بكر ابن وائل ، ثم غزا بهم أيضاً ملوك الشـام وهم الغساسنة وانتصر عليهم ، فأحبته بكر واجتمعت كلمتها على احترامه وطاعته . وما زال كذلك حتى مات فيهم ودفن بينهم ، وله من الولد عمرو ومعاوية الجون ، وقد قيل إنه خرف فى آخر حياته .

أما سبب تسميته بآكل المرار فإنه كان قد سار بجنده لغزو ربيعة ، وكان فى أيامه رجل يقال له زياد بن الهبولة بن عمرو القضاعي — رئيساً لقوم من العرب بأطراف الشـام — فلما سمع بغيبة حجر وجيشه ، أغار عَلَى ديارهم وأخذ كثيرا من أموالهم ، وسبى غير قليل من نسائهم . وكانت إحدى السبايا امرأة حجر وهى هند بنت ظالم ، ولما بلغ حجر خبر إغارة زياد ارتد عن غزو ربيعة فى طلب غريمه ابن الهبولة . وتعجل من جند حجر عمرو بن معاوية وعوف بن محلم الشيبانى وقالا لحجر إنا متعجلان إلى زياد لعلنا نأخذ منه بعض ما أصاب ، فلقياه دون عين أباغ ، فكلمه عوف بن محلم ، وقال له ياخير الفتيان أردد على امرأتى أمامه ، فردها عليه وهى حامل ، فولدت له بنتا أراد عوف أن يئدها فاستوهبها منه

عمرو بن معاوية ، وقال لعلها تلد أناساً فسميت (أم أناس) وتزوجها الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار فولدت عمرا ويعرف بابن أم أناس — ثم إن عمرو بن معاوية قال لزياد أيضاً وأنا ياخير الفتيان أردد على ما أخذته من إبلى ، فردها عليه وفيها فحلها ، فنازعه الفحل إلى الإبل فصرعه عمرو ، فقال له زياد لو صرعتم يابنى شيبان الرجال كما تصرعون الإبل لكنتم أنتم أنتم فقال له عمرو : لقد أعطيت قليلا ، وشتمت جليلا ، وجررت على نفسك ويلا طويلا . ثم ركض حتى صار إلى حجر فأخبره الخبر ، فأقبل حجر فى أصحابه ، حتى إذا كان بمكان يقال له الحفير — و هو دون عين أباغ — بعث سدوس ابن شيبان وصليع بن عبد غنم يتجسسان له الخبر ، ويعلمان علم العسكر ، فخرجا حتى وصلا الى عسكر زياد ليلا وقد أوقد نارا و نادى مناد له من جاء بحزمة من حطب فله فدرة[1] من تمر . فاحتطب سدوس وصليع ثم أتيا بما احتطبا إلى ابن الهبولة وطرحاه بين يديه ، فناولهما من التمر ، وجلسا قريبا من القبة ، ثم إن صليعا قال هذه آية وعلم مايريد حجر ، فانصرف إليه وأخبره بأمر زياد وعسكره وأراه التمر . وأما سدوس فقال لا أبرح حتى آتيه بأمر جلى ، وجلس مع القوم يسمع ما يقولون . ولما انقضى شطر من الليل أقبل رجالات من أصحاب زياد يحرسونه ، وقد تفرق أهل العسكر فى كل ناحية ، ودنا سدوس من القبة متخفياً بحيث يسمع ويرى . فإذا بزياد قد دنا من هند — امرأة حجر — فقبلها وداعبها ، وقال لها ما ظنك الآن بحجر ؟ فقالت ما هو بظن ولكنه يقين ، إنه والله لن يدعك حتى تدع القصور الحمر ، وكأنى به فى فوارس من بنى شيبان يذمرهم[2] ويذمرونه ، وهو شديد الكلب[3] سريع الطلب ، تزبد شفتاه كأنه

(١) الفدرة القطعة والكمية من كل شىء .
(٢) يذمرهم يحرضهم على القتال
(٣) الكلب الغضب والأسف .

بعير آكل مرار ، فالنجاء النجاء ، فإن وراءك طالباً حثيثاً ، وجمعاً كثيفاً ، وكيداً متيناً ، ورأيا صليبًا . فرفع زياد يده ولطمها . ثم قال لها ماقلت هـذا إلا من عجبك به وحبك له . فقالت والله ما أبغضت أحداً بغضى له ، ولا رأيت رجلا أحزم منه نائمًا ومستيقظًا ، إن كان لتنام عينه فبعض من أعضائه مستيقظ لا ينام . قال كيف ذلك ؟ . قالت كان إذا أراد النوم أمرنى أن أجعل عنـده عسا[1] من لبن . فبينما هو نائم ذات ليـلة وأنا قريبة منه أنظر إليه إذ أقبل أسودسالخ[2] إلى رأسـه فنحى رأسه ، فمال الثعبان إلى يده فقبضها حجر ، فمال الأسود إلى العس فشربه ثم مجه ، فقلت فى نفسى يستيقظ الرجل ويشرب اللبن فيموت فأستريح منه . ولما استيقظ من نومه قال على بالإناء ، فناولته إياه فشمه ثم أهراقه على الأرض ، وقال أين ذهب الأسود ياهند ؟ فقلت ما رأيته فقـال كذبت .

ذلك الحديث الذى تقصه هند على زياد بن الهبولة يسمعه سدوس ويعيه . فلما نامت الأحراس خرج سدوس يسرى ليلته حتى أصبح حجراً فقال له : —

أتاك المرجفون بأمر غيب على دَخَل وجئتك باليقين
فمن يك قد أتاك بأمر لبْسٍ فقـد أتى بأمر مُسْتبين

ثم قص عليه جميع ماسمع ورأى ، فجعل حُجر يعبث بالمرار يأكل منه وهو غضبان محنق لا يشعر أنه يأكله من شدة ما أصابه من الغيظ والكمد ، فسمى يومئذ بآكل المرار . ثم أمر حجر فنودى فى الناس بالرحيل ، فساروا إلى عسكر زياد واقتتلوا وإياهم قتالا شديداً ، وكان النصر حليف حجر وأجناده واستنقذت بكر وكندة ما كان بأيدى أعدائهم من الغنائم والسبايا ، وعرف

---

(١) العس الإناء

(٢) الأسود السالخ من ذكور الحيات العظام .

سدوس زياداً وحمل عليه فاعتنقه وصرعه وأخذه أسيراً . فلما رأى ذلك عمرو ابن معاوية حسد سدوساً على هذا فطعن زياداً فأرداه قتيلا حتى لا ينفرد سدوس بالفخر دونه ، فغضب سدوس من ذلك الفعل ، وقال لصاحبه قتلت أسيرى وديته دية ملك ! ! . . ثم تحاكما إلى حجر فحكم على عمرو وقومه لسدوس بدية ملك وأعانهم من ماله . وأخذ حجر زوجته هند فربطها فى فرسين ثم ركضا بها حتى قطعت إرباً إرباً ، ومزقت شر ممزق[1] ويقال إن حجراً أحرقها وقال فيها : —

لمن النار أوقدت بحفير ... لم ينم عنه مُصْطَل مَقْرور[2]

أوقدتْها هند الهنود وقالت ... أنت ذا مُوثق وثاقًا أسيرُ

إنَّ من غرّه النساء بشىء ... بعد هند لجاهلٌ مغرور

حُلْوة القول والحديث ومُرّ ... كل شىء أكنّ منه الضمير

(١) وجاء فى رواية أخرى أن حجراً سمى آكل المرار لأنه لما أتاه الخبر بأن (الحرث ابن جبلة) كان نائما فى حجر امرأته هند وهى تفليه جعل يأكل المرار — وهو نبت شديد المرارة — من الغيظ وهو لا يدرى ، ويقال بل قالت هند للحرث وقد سألها ما ترين حجرا فاعلا . قالت كأنك به قد أدركك فى الخيل وهو كأنه بعير قد أكل المرار ، والمرار نبات من أفضل العشب وأضخمه إذا أكلته الإبل قاصت مشافرها ، وإنما قيل لحجر « آكل المرار » كناية عن كشر كان به .

وسواء لدينا أكان صاحب القصة مع حجر وزوجته هو زياد بن الهبولة أم الحرث بن جبلة فإن القصة فى ذاتها ومع تعدد رواياتها تدل فى جملتها على أن السبب فى تسمية حجر بآكل المرار ما كان من زوجته وجعلها هواها مع عدوه وأنه كان به كَشَر .

(٢) المصطلى المستدفىء . والمقرور الذى أصابه البرد

كل أنثى وإن بدا لك منها آيةُ الحبّ حُبها خَيْتَعور[1]

وحكم كندة بعد حجر ابنه عمرو المقصور الذى اقتصر على ملك والده، أما معاوية الجون بن حجر فلقد كان ملكا على اليمامة.

وتولى حكم كندة بعد المقصور ابنه الحارث بن عمرو بن حجر، ومكث فى الملك خمسين عامًا (٤٩٠ — ٥٤٠ م) وكان شديد البأس، ذائع الصيت، كبير المطامع، وفى أيامه فتح الأحباش اليمن، وقضوا على دولة حمير، فضعف شأن كندة لأنها كانت حليفتها ومن خير أعوانها وأنصارها، ولكن الحارث كان سياسيًا حازمًا، وملكا بعيد النظر، فلم يغفل عن إعزاز ملكه وتقوية سلطانه، فولى وجهه شطر الأكاسرة كى يتخذ منهم أحلافًا يشدون أزره ويقوون ساعده، وكان الحارث هذا يحسد اللخميين على تقربهم من الأكاسرة، وأحب أن تكون تلك المكانة له من دون اللخميين ملوك الحيرة، فما زال يترقب الفرص، ويتهيأ للأمر حتى تنكر كسرى قباذ ملك الفرس للمنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة بسبب المزدكية. فإن المنذر جلس على العرش فى أواسط حكم قباذ وظهر فى أثناء ذلك (مزدك) ذلك الرجل الزنديق الذى ذهب إلى إباحة الأموال والحرم، ودعا الناس إلى مذهبه، فدخل فيه قباذ وتعصب لصاحبه، وحمل رجاله على اعتناقه راجيًا أن يستولى بذلك على ما بأيدى رعيته من الأموال فثار الأشراف فى وجهه، وأكبر المنذر هذه البدعة وأبى الدخول فيها ومناصرة أشياعها، فغضب عليه قباذ وشرده واستعان عليه بدولة كندة، وانتهز الحارث الكندى هذه الفرصة فوافق قباذ على المزدكية وشايعه عليها ابتغاء الوصول إلى غاياته؛ ثم غزا الحيرة وأخرج منها المنذر[2] وبذلك

---

(١) الخيتعور المتغير الذى لايدوم على حال

(٢) هذا وليعلم القارىء أن المنذر كان زوجا لهند الكبرى ابنة =

أصبح الحارث الكندى ملكا على الحيرة ، فعظم فى أعين القبائل ، وجعلوا يتقربون إليه ويفدون عليه ، يقدمون له الطاعة ويظهرون الولاء . ولما تفاسدت قبائل نزار ، وبدت بينهم العداوة والبغضاء ، ودب فيهم دبيب الفساد ، وآل أمرهم إلى التدابر والتخاذل ، أتى أشرافهم الحارثَ فقالوا له إنا نخاف أن نتفانى مما يحدث بيننا ، فوجّه معنا بنيك ينزلون فينا فيكفّون بعضنا عن بعض . فأجابهم إلى ما طلبوا ، وفرق أولاده فى القبائل ، فجعل ابنه حجراً — والد امرىء القيس — ملكا على بنى أسد وغطفان . وملّك ابنه شرحبيل — الذى قتل يوم الكلاب الأول — على بكر بن وائل بأسراها وبنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم من تميم والرباب ، وملّك ابنه معديكرب على بنى تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رقية ، وملك ابنه عبد الله على بنى عبد القيس ، وأمّر ابنه سلمة على بنى قيس .

بَيْدَ أن الحال لم تدم للحارث بن عمرو بل غالبه القدر ، وتنكر له الدهر ، فنكب فى ملكه وعزته ، ولم يطل سلطانه على الحيرة . فما هو إلا أن مات قباذ وتولى بعده أنو شروان وكان حانقا على المزدكية متبرما من مسلك أبيه ، فلقد كانت أمه يوماً بين يدى والده قباذ ، فدخل عليه مزدرك الزنديق فقال لقباذ ادفع إلىّ زوجتك لأقضى منها حاجتى ، فقال له قباذ دونكها . فوثب أنوشروان إلى مزدرك وطفق يتضرع إليه ، وما زال به يستعطفه ويرجيه

= الحارث الكندى أى أنه كان بين المنذر والحارث قرابة المصاهرة ولكن ذلك لم يحل دون منازعتهم وإشعال الحروب بينهم . وهذا يوقفنا على مدى القطيعة التى كانت بين القبائل العربية الجاهلية قبل أن يلم الإسلام شعثها ويجمع شتيتها ويجعل منها وحدة قومية وجبهة قوية .

أن يرجع عن أمه، ويكف عما يريد أن يفعله معها؛ حتى وصلت به الحال أن قبل رجله، فتركها مزدرك وكانت تلك فى نفس أنو شروان. فلما جلس على سرير الملك وفد الناس عليه، وكان فيهم مزدك، ثم دخل عليه المنذر، فقال أنو شروان لجلسائه إنى كنت تمنيت أمنيتين أرجو أن يكون الله قد جمعهما لى، فقال مزدك وما هما أيها الملك؟ قال تمنيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف (يريد المنذر) وأن أقتل هؤلاء الزنادقة (يريد مزدك وأشياعه) فقال مزدك أوتستطيع أن تقتل الناس كلهم؟ فقال له أنو شروان إنك لههنا يا ابن الزانية، والله ما ذهب نتن ريح جوربك من أنفى منذ قبلت رجلك إلى يومى هذا، وأمر به فقتل وصلب، وأمر بقتل الزنادقة، فقتل منهم ما بين حاذر إلى النهراوان إلى المدائن فى ضحوة واحدة مائة ألف زنديق وصلبهم، ثم أرجع المنذر إلى عرشه وغضب على الحارث بن عمرو — الذى تابع أباه قباذ على الزندقة حتى ولاه مكان المنذر — وجد فى طلبه، فبلغ الحارث ذلك وهو بالأنبار وكان بها منزله فخرج هاربا بماله وهجائنه وأهله فتبعه المنذر على خيل من تغلب وإياد وبهراء فلحقوا الحارث بأرض كلب (بين الحجاز والعراق) فانتهبوا ماله وهجائنه، وساقوا معهم ثمانية وأربعين نفساً من بنى آكل المرار فيهم عمرو ومالك من ولد الحارث، فقدم بهم على المنذر فضرب رقابهم فى ديار بنى مرينا، وفى ذلك يقول امرؤ القيس: —

ملوكٌ من بنى حُجر بن عمرٍو ... يساقون العشيّة يقتلونا
فلوْ فى يومِ معركةٍ أصيبوا ... ولكنْ فى ديار بنى مرينا
ولم تُغسل جماجِمهم بغسلٍ ... ولكن فى الدماء مُرمَّلينا[1]
تظلّ الطيرُ عاكفةً عليهم ... وتنتزعُ الحواجبَ والعيونا

(١) المرمل الملطخ بالدم

وجاء فى الأغانى أنه فى ذلك يقول عمرو بن كلثوم التغلبى :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مُصفّدينا[1]

أما الحارث فإنه نجا بنفسه ، ومازال هائما على وجهه حتى وافته منيته فى بنى كلب. واختلفوا فى موته : فقالت كلب نحن قتلناه ، وقالت كندة إنما خرج للصيد فألظ[2] بتيس من الظباء فأعجزه ، فآلى على نفسه ألا يأكل إلا منه ، فطلبت خيله الظبى ثلاثة أيام ، ثم جىء به إليه وقد هلك جوعا فشوى له بطنه فالتهم فلذة من كبده وهى حارة فكان فيها حتفه ، ونحن نميل إلى أن بنى كلب هم قاتلوه على أن كلتا الروايتين تحدثنا أن منيته كانت فى ديار بنى كلب .

وبعد أن هلك الحارث تشتت أمر بنيه ، وتفرقت كلمتهم ، فلقد سعى المنذر بينهم بالوشاية حتى بدت بينهم العداوة والبغضاء ، وتحاسدوا وتخاذلوا وتفاقم الأمر ، فجمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع ، وكان من أثر ذلك أن سلمة بن الحارث قاتل أخاه شرحبيل فى معركة تعرف بيوم الكلاب الأول ، وكان سلمة هذا قد جعل جعلا لمن يقتل أخاه ، فقتله رجل يقال له أبو حنش ، واحتز رأسه وبعث بها إلى سلمة مع ابن عم له يسمى أبا أجأ ابن كعب بن مالك بن غياث ، فألقاها بين يديه ، فقال له سلمة لو كنت ألقيتها إلقاء رفيقا ؟ ! فقال ماصنع به وَهو حى أشد من هذا ، وعرف أبو أجأ الندامة فى وجه سلمة والجزع على أخيه بعد أن علم أن المنذر هو المسبب لهذا كله ، فهرب أبو أجأ وهرب أبو حنش ، وقال سلمة يرثى أخاه وفيها يظهر الندامة :

---

(١) مصفدين موثقين

(٢) التلاظ التطارد

ألا أبلغْ أبا حنَش رسولا فمالَكَ لا تجىء إلى الصَّواب

تعلّمْ أنّ خيرَ الناس طراً قتيل بين أحجار الكِلاب

تداعت حوْلَه جشم بن بكر وأسْلمه جعاسيس الرباب (١)

قتيلٌ ما قتيلك يا ابن سلمى تضرُّ به صديقك أو تحابى

فأجابه أبو حنش :

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو حباء أبيك يوم صنيّعات

وكانت غَدْرة شنْعاء تهفو تقلّدها أبوكَ إلى الممات

وقال معد يكرب بن الحارث المعروف بغلفاء — وكان مسالما معتزلا عن جميع هذه الحروب — يرثى أخاه شرحبيل :

إنّ جنبِى عن الفراش لنابى كتجافى الأسير فوق الظِّراب (٢)

من حديث نمىَ إلى فلا ترقأ عينى ولا أسيغ شرابى

مرة كالزعاف أكتمها النا سَ على حرّ ملّة كالشهاب

من شرحبيل إذ تعاوره الأر ماح فى حال لذةٍ وَشباب

يابن أمى ولو شهدتُك إذْ تد عو تميما وأنت غيرُ مُجاب

لتركت الحسام تجرى ظباه من دماء الأعداء يومَ الكلاب

ثم طاعنْت من ورائك حتى تبلغَ الرحب أو تبزّ ثيابى

يوم ثارت بنو تميم وولّت خيلهم يتقين بالأذناب

---

(١) تداعت تجمعت ، وأسلمه خذله ، والجعسوس القصير الدميم

(٢) الظراب ما نتأ من الحجارة .

ويحكم يابنى أسيّد إنى ويحكم ربُّكمُ وربّ الرباب
أين معطيكم الجزيل وحابيكم على الفقر بالمئين اللباب
فارس يضرب الكتيبة بالسيف على نحره كنضح المذاب
فارسٌ يطعن الكماة جرىء تحته قارح كلوْن الغُراب

وخرج سلمة من تغلب ، والتجأ إلى بكر بن وائل فأذعنت له . فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى الطاعة فأبوا ، فحلف ليسيرنّ إليهم فإن ظفر بهم ليذبحنهم على قمة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض ، وسار إليهم فى جموع كثيرة فقاتلوه فهزمهم ، وأسر منهم يزيد بن شرحبيل الكندى وأمر به فقتل ، وقتل فى المعركة خلق كثيرون ، وأسرَ المنذرُ من بكر عدداً كبيراً أمر بذبحهم ، وكان ذلك بنجد حوالى سنة ٥٤٨ م

وبهلاك سلمة وشرحبيل ضعف شأن الباقين من أبناء الحارث الكندى وهم حُجر ومعد يكرب وعبد الله ، حتى إن بنى أسد تنكروا لحجر وأظهروا له العداء ، وتابعهم فى ذلك غطفان لأنه لم يحسن سياستهم ، فقد ضرب عليهم إتاوة أثقل بها كاهلهم ، ولكنهم كانوا يؤدّونها له على مضض مادام فى عز بأبيه وأخوته ، فلما علموا بنكبة أبيه وموته أولا ، وتطاحن أخويه وهلاكهما ثانياً ، شقوا عليه عصا الطاعة وأظهروا له العصيان ، وامتنعوا عن أداء الإتاوة وضربوا رسله، وحجر يومئذ بتهامة ، وظنوا أنهم قادرون عليه ، ولكنه جلب عليهم بخيله ورجله ، وجرّد لهم سيفه ، واستعان عليهم بأجناده من ربيعة وأجناد أخيه من قيس وكنانة ، وزج بطائفة من أشرافهم فى غياهب السجن ، وسامهم الذل وأنواع النكال ، وحرم على فريق منهم المقام بنجد ، فارتحلوا إلى تهامة . بيد أنه لم يطل عليهم أمد هذا الهوان فإن عبيد بن الأبرص استعطف حجراً وهو فى سجنه بقصيدة كانت شفاعة لقومه لدى الملك وفيها يقول : —

يا عينُ فابكى ما بنى أسدٍ فهمُ أهلُ الندامة
أهل القباب الحمر والنَّـــعَم المؤبَّل والمُدامة[1]
وذوِى الجياد الُجرْد والأسل المثقَّفة المقامة[2]
مهلا أبيْتَ اللعن مهـــلا إنّ فيما قلت آمة[3]
فى كُل وادٍ بين يثــرب فالقصورِ إلى اليمـامة
تطريبُ عانٍ أو صيا حُ مُحرّق أوصوتُ هامة
ومنعتهم نجداً فقد حلّوا عَلَى وحلٍ تِهامة
برَمَتْ بنو أسد كما برَمت ببيضتها الحمامة[4]
جعلتْ لهم عودين من نَشَم وآخرَ من ثُمامة
إمّا تركتَ تركْت عَفــــواً أو قتلتَ فلا مَلامة
أنت المليك عليهمُ وهمُ العبيد إلى القيامة
ذلُّوا لسوطك مثلَ ما ذلّ الأشيْقِرذواِلخزَامة

فأطلق الملك سبيلهم ، وعفا عنهم ، ولـكنهم يضمرون العداوة والبغضاء لحجر وأصحاب حجر لما أصابهم من هذا الذل وذلك الهوان ، فتمالئوا عليه ، وركبوا كل صعب وذلول ، وبيتوا له الشر ، وائتمروا عَلَى قتله ، وكان حجر قد بعث فى إثرهم كى يقبلوا عليه بعد فك إسارهم ، فساروا إليه حتى إذا كانوا على مسافة يوم من تهامة تكهن لهم كاهنهم وهو عوف بن ربيعة الأسدى ،

---

(١) المؤبل المكمل
(٢) الأسل الرماح والنبل . المثقفة المقومة المسوّاة
(٣) الآمة العيب
(٤) برم سئم وضجر .

فقال لهم : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب ، فى الإبل كأنها الربرب ، هذا دمه يتشعب ، وهو غداً أول من يسلب . قالوا من هذا ؟ قال : لولا أن تجيش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية . فما أدبر الليل وأسفر الصبح حتى جاءوا عسكر حجر وهجموا على قبته ، وأقبل علباء بن الحارث الكاهلى — وكان حجر قد قتل أباه فطعنه من خللهم فأصاب نساه فقتله ، وحينئذ قالت بنو أسد يامعشر كنانة وقيس أنتم إخواننا وبنو عمنا والرجل ليس منا ولا منكم ، وقد رأيتم ما كان يصنع بكم هو وقومه ، فانتهبوهم إنهم مأكولون . ثم شدوا على هجائنه فمزقوها ، ولفوه فى ريطة بيضاء وطرحوه على ظهر الطريق ، وانتهبت قيس وكنانة أسلابه .

وقيل إن بنى أسد ناهضوه القتال فلم يلبثوا أن هزموا أصحابه وأخذوه أسيرًا ثم حبسوه ريثما يتشاورون فى قتله ، فلما رأى ذلك علباء بن الحارث خشى أن ينجو حجر منهم فدعا غلاماً من بنى كاهل هو ابن أخته — وكان حجر قد قتل أباه — وقال يابنى أعندك خير فتثأر بأبيك ، وتنال شرف الدهر ، وإن قومك لن يقتلوك . فلم يزل بالغلام حتى أحمسه ، ودفع إليه حديدة قد شحذها ، وقال له ادخل عليه مع قومك ثم اطعنه فى مقتله ، فعمد الغلام إلى الحديدة فأخبأها ، ثم دخل على حجر فى قبته التى حبس فيها ، وانتهز الغلام غفلة من قومه ثم وثب عليه فضربه ضربة مميتة كان فيها هلاكه ، فوثب القوم على الغلام يريدون الفتك به ، فقال إنما ثأرت بأبى فخلوا عنه .

وهناك روايات أخرى فى مقتل حجر ذكرها الرواة ، ولكنها فى جملتها تتفق على أن بنى أسد هم الذين قتلوه وأوردوه موارد الموت .

وكان حجر ساعة احتضاره أوصى ودفع كتابه إلى رجل يثق به من بنى عجل يقال له عامر الأعور ، وقال له انطلق إلى ابنى نافع — وكان أكبر

أولاده — فإن بكى وجزع فألهُ عنه وتجاوزوه إلى غيره ، واستقرِ أولادى واحدًا واحدًا حتى تأتى امرأ القيس — وكان أصغرهم سنا — فأيهم لم يجزع فادفع إليه سلاحى وخيلى ووصيتى ، وكان قد بيّن فى وصيته من قتله ! وكيف كان خبره ؟ ! فانطلق الرجل بالوصية إلى نافع فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، ثم جاءهم واحدًا واحدًا ، فكلهم جزع وفعل مثل مافعل نافع ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه النرد ، فقال له عامر الأعور : قتل حجر ، فلم يلتفت إليه امرؤ القيس ، وأمسك نديمه عن اللعب ، فقال له امرؤ القيس اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ . فقال : ما كنت لأفسد عليك دستك ، ثم سأل الرسول عن أمر أبيه ، فقص عليه القصص ، فقال الخمر والنساء علىّ حرام حتى أقتل من بنى أسد مائة ، وأجز نواصى مائة ، وفى ذلك يقول :

أرِقْتُ ولَمْ يَأْرَق لِماَ بِى نَافُعٌ وهَاجَ لِى الشوّقَ الهُمومُ الرّوادِع

وبذلك أصبح أمرؤ القيس أحق بملك والده ، وأجدر بالأخذ بثأره على حسب وصية أبيه حجر .

مولد امرىء القيس

وشاعريته المتوارثة

ليس يصح لدى النظر الصادق أن يكون ماعرف به امرؤ القيس من براعته فى الشعر ، ونبوغه فى القريض جاءه على غير إرث من آبائه وأجداده ، بل لا بد أن يكون جاريًا فى ذلك على عرق من عروقهم وسليقة من طبائعهم ، فعمومته شعراء ، وخئولته شعراء ، والشعر وإن كان سليقة فى النفس إلا أن الوراثة لها أثر كبير فى تلك السليقة الشاعرية ، وقلّ أن نجد شاعراً ليس فى أحد من أصوله ملكة الشعر . ولقد رأينا فى نسب امرىء القيس فى جهة أبيه شاعرية متوارثة فى أجداده وعمومته الذين تلقَّوْها كابرا عن كابر وذكرنا من شعر جده حجر الملقب بآكل المرار قوله :

لِمن النارُ أوقدتْ بحفير لم ينم عنه مصْطل مقرورُ
أوقدتها هندُ المنود وقالتْ أنتَ ذا موثقٌ وثاقا أسيرُ
إنّ من غرّه النساء بشىء بعــدَ هندٍ لجاهلٌ مغرور
حُلوة القولِ والحديثِ ومُرّ كل شىء أكنّ منها الضمير
كل أنثى وإن بدَالكَ منها آيةُ الحبّ حبها خَيْتَعور

ومن شعر عمه سلمه يرثى أخاه شرحبيل ويندم على ما فرط فى جنبه [1] .

ألا أبلغ أبا حنشٍ رسولا فما لَكَ لا تجىء إلى الصواب

---

(١) وروى بعضهم هذا الشعر لعمه معديكرب .

تعلَّمْ أنْ خيرَ النـاس طرًّا قتيـلٌ بين أحجار الـكلاب
تداعت حولَه جُشم بنُ بكر وأسلَمَـه جعاسيس الرباب
قتيلٌ ما قتيلك يا ابن سلمى تضرّبه صـــديقَك أو تحابى

ومن شعر عمه معد يكرب يرثى شرحبيل أيضًا .

إنَّ جنبي عن الفراشِ لنـابى كتجافِي الأسير فوقَ الظِّراب
من حديث نمَى إليَّ فلا تَرْ قأُ عيني ولا أسيغُ شرابى
مُرَّة كالزعاف أكتمها النـا سَ على حرَّ مَلَّة كالشهاب
من شرحبيل إذْ تعاوره الأر ماحُ فى حال لذّة وشباب
يابن أمىّ ولو شهدتُك إذ تدْ عو تميما وأنتَ غـيرُ مُجاب
لتركت الحسام تجرى ظبـاه من دماء الأعداء يوم الـكِلاب
ثم طاعنتُ من ورائك حتى تبلغَ الرحْب أو تبزّ ثيـابى
يومَ ثارتْ بنـو تميم وولّت خيلهُم يتقّـــين بالأذناب
ويحـكم يا بنى أسيّد إنى ويحكم ربّـكم وربّ الرباب
أينَ معطيـكم الجـــزيل وحابيكم على الفقر بالمئين اللبـاب
فارس يضرب الـكتيبة بالسيف على نحْرِه كنضح المـذاب
فارس يطعن الـكماة جـرىء تحتـه قارحٌ كاون الغراب

أما ميراث امرىء القيس الشعرى من جهة أمه ، فإن خاله هو مهلهل ابن ربيعة التغلبى الذى قال عنه بعض الرواة : إنه هلهل الشعر ونقله من المقطعات إلى المطولات . وإنا لنجد فى شعر المهلهل بلاغة فياضة ، وفصاحة تنجاب دونها ألسنة المقاول . ومن قصائده : —

أليلتنا بذى حُسُم أنيرى إذا أنت انقضيْت فلا تَحورى[1]

فإنْ يكَ بالذنائب طالَ ليلى فقد أبكى من الليل القصير

وأنقذنى بياضُ الصبح منها لقدْ أُنقذتُ من شرّ كبير

كأن كواكبَ الجوزاءِ عوذٌ مُعطّفة على رُبع كسير[2]

كأن الجدْى فى مثناه ربق أسير أو بمنزلة الأسير[3]

كأن النجم إذْ ولّى سحيرا فِصال جُلْن فى يوم مطير[4]

كواكبها زواحف لاغبات كأن سماءها بيدَىْ مدير[5]

كواكب ليلة طالت وغمّت فهذا الصبح راغِمَة فغورى

وتسألنى بديلةُ عن أبيها ولم تعلَمْ بديلة ما ضميرى .

ويقول فيها أيضًا مشيراً إلى حرب البسوس التى كانت بين بكر وتغلب :

فلوْ نُبش المقابر عن كليب فيُخبرَ بالذنائب أىَّ زير[6]

بيوم الشعثمين لقرّ عينا وكيف لقاء مَنْ تحت القبور

وإنى قد تركتُ بواردات بجيرا فى دم مثلِ العبير

هتكتُ به بيوتَ بنى عُباد وبعض القتل أشفَى للصدور

---

(١) ذى حسم موضع . تحورى ترجعى

(٢) العوذ الحديثات النتاج . والربع ما نتج فى الربيع

(٣) المثناة المثنى . والربق الحبل

(٤) النجم الثريا

(٥) الزواحف المعييات التى لا تقدر على النهوض واللاغبات مثلها .

(٦) يقال هو زير نساء إذا كان يتحدث إليهن ويتبعهن ويهواهن ويخالبهن

وهمّام بن مرة قد تركنا عليه القشعمَيْن من النسور
ينوء بصدْره والرمح فيه ويخلِجُه خدبٌ كالبعير[1]
على أنْ ليْس عدْلاً من كليب إذا طُرد اليتيمُ عن الجَزُور
على أن ليس عدلاً من كليب إذا رَجَف العضاه من الدَّبور[2]
على أن ليس عدلاً من كليب إذا ما ضِيمَ جيران المجير
على أن ليس عدلاً من كليب إذا خِيف المخوفُ من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب غداةَ بلابل الأمْرِ الكبير
على أن ليس عدلا من كليب إذا برَزَتْ مخبَّأةُ الخدور
على أن ليس عدلا من كليب إذا علَنَتْ نجيَّاتُ الأمور .
فدًى لبنِي الشقيقة يومَ جاءوا كأسْدِ الغاب لجّتْ في الزئير
كأنّ رماحَهم أشْطانُ بئر بعيد بيْن جاليْها جَرور[3]
فلاَ وأبي جَليلة ما أفأنا من النَّعَم المؤبَّل من بعير[4]
ولكنّا نهكْنا القوْمَ ضرباً على الأثباجِ مِنْهُم والنُّحور[5]
قتيلٌ ما قتيلُ المرْءِ عمرٌو وجسّاسُ بنُ مُرَّة ذُو ضَرير
تظلُّ الخيْل عاكفةً علَيْهم كأنّ الخيلَ تدْحَض في غَدير

---

(١) ينوء ينهض ، ويخلجه يجذبه ، والخدب الضخم .

(٢) رجف تحرك حركة شديدة ، والعضاه كل شجر له شوك .

(٣) الأشطان الحبال ، وجال البئر وجولها ناحيتها وما يحبس الماء منها

(٤) أفأنا رجعنا

(٥) الأثباج الأواسط .

كأنّا غُدْوة وبنو أبينا ... بجنبِ عُنيْزة رَحَيا مُدير

فلولا الريح أسمع من بحجر ... صليل البيض تُقرع بالذكور[1]

ومن شعر المهلهل أيضاً يرثى أخاه كليباً ويتوعد أعداءه .

إنّ تحتَ الأحجار حَزْما وعَزْماً ... وقتيلا من الأراقمِ كهْلا

قتلته ذهْــل فلستُ براضٍ ... أو نبيد الحيّين قيساً وذُهْلا

ويطير الحريق منّــا شراراً ... فينال الشرارُ بكراً وعجلا

قد قتَلْنا به ولا ثأرَ فيه ... أو تعمّ السيوفُ شِيْبانَ قتلا

ذهَب الصُّلْحُ أو تردّوا كُلَيْبا ... أو تحلّوا على الحكومةِ حَلاّ

ذهب الصلح أو تردوا كليباً ... أو أُذِيقَ العَدَاةَ شيبان ثُــكلا

ذهب الصلح أو تردوا كليبا ... أو تنالَ العداةُ هونا وذلاّ

ذهب الصلح أو تردوا كليبا ... أو تَذوقوا الوَبال وِرْداً ونهْلا

ذهب الصلح أو تردوا كليبا ... أو تَميلوا عن الحلائلِ عُزلا

أو أرَى القتل قد تقَاضَى رجالا ... لم يَميلُوا عن السِّفاهَة جهلا

إن تحتَ الأحجارِ والترْبِ مِنْه ... لدَفِيناً عــــلاَ علاءً وجلاّ

عزّ والله يا كُلَيْبُ علينــا ... أن ترَى هامَتى دِهانا وكحلا

ومن شعر كليب أخى المهلهل وخال امرىء القيس أيضاً قوله يفتخر ويذكر واقعة خزاز التى كانت بين المضربين واليمنيين :

لقد عَرفتْ قحطان صبرى ونجدتى ... غداةَ خزاز والحقوق دوان

غداة شفيْتُ النفس من ذلّ حمير ... وأورثتها ذلاًّ بصدق طعانى

---

(١) بهذا البيت قالوا إن مهلهل أول من كذب فى شعره .

دلفتُ إليهم بالصفائح والقنا على كل لَيْث من بنى غَطَفان
ووائل قد جذّت مقادمَ يعرْب فصدّقها فى صَخْرها الثقلان

وقال كليب أيضاً بعد ما قتل لبيد بن عنبسة :

إن يكُنْ قَتْلُنا الملوكَ خِطاء أو صَوَابا فقَدْ قتلْنا لبيدا
وجعلْنَا معَ الملوكِ ملوكا بجيادٍ جُرْد تُقِلّ الحديدا
نسْعرُ الحربَ بالذى يحلف النا س به قومَكم ونُذْكى الوقودا
أو تردّوا لنا الإتاوة والفَيْء ولا نجعل الحروبَ وعيدا
إن تلمنى عَجائزٌ من نِزار فأرانى بعد فعلتُ مجيدا

ومن شعر ربيعة الزهراء أخت كليب ومهلهل وخالة امرىء القيس قولها تحرض أخاها كليباً على زوجها لبيد بن عنبسه[1] .

ما كنتُ أحسب والحوادثُ جمة أنّا عبيدُ الحىّ من قحطان
حتّى أتتنى من لَبيدٍ لطْمَةٌ فعشَتْ لها مِنْ وَقْعها العينان

(١) كان لبيد بن عنبسة هذا زوج الزهراء وعامل ملوك كندة قد ثقلت وطأته على بنى ربيعة فعتا وتجبر وأخذ فيهم بالعنف والظلم وأساء المعاشرة بينهم فزجروه فلم يزدجر وهو يزداد جورا ، فانكرت عليه زوجته يوما صنعه ببنى ربيعة فقال لها ما بال أخيك ينتصر لمضر ويتهدد الملوك كأنه يعز بغيرهم . فقالت ما أعرف أعز من كليب وهو كفؤ لها ، فغضب لبيد ولطمها على وجهها لطمة أعشت عينيها ، فخرجت باكية إلى كلب وهى تقول . ما كنت أحسب والحوادث جمة — الخ. فلما سمع كليب قولها ورأى ما بها من أثر اللطمة أخذته الحمية وسار إلى أبيات لبيد فهجم عليه وعلا رأسه بالسيف فقتله وعلى أثر ذلك شبت حروب بين اليمنيين والمضريين منها واقعة خزاز وواقعة السلان .

إن ترضَ أمرَةَ تغلب ابنةِ وائل تلكَ الدنيّـةَ أو بنو شيْبان
لا يبْرَحُوا الدّهرَ الطويلَ أذلةً هزْلَ الأعِنّةِ عندَ كلِّ رِهان

ذلك الشعر وغيره لعمومة امرىء القيس وخئولته أيضاً يوقفنا على بلاغتهم وشدة عارضتهم . ولاغرو بعد هذا إذا وجدنا امرأ القيس ينشأ شاعراً مفلقاً حاد القريحة ، ذكى الفؤاد ، فإن العرق دساس ، وهو مخول مُعمّ فى شاعريته ، تلقى من قبل أبويه ذلك الفيض الذى لاينضب معينة ، وتلك الشاعرية التى علَتْ علاء وجلت ، فكان من ذلك كله مددٌ لشعره ، ومورد لقوله ، ومنبع لفصاحته، ومنهل لبيانه .

ولقد كانت ولادة ذلك الشاعر التاريخى العظيم فى أوائل القرن السادس الميلادى ، وفى شعراء النصرانية أنه ولد عام ٥٢٠ م أو قبل الهجرة بنحو مائة سنة ، وجاء فى الشهاب الراصد أن رينان ذكر فى كتابه تاريخ اللغات السامية أن امرأ القيس أقدم شعراء المعلقات ولد حوالى سنة ٥٠٠ م .

أما الديار التى ولد فيها ذلك الشاعر فإنا نعلم أن أباه كان ملكا على بنىأسد وغطفان ، وملكه يحد غربًا بوادى القرى ، وشرقا ببلاد طىء ، وشمالا بأرض طىء أيضًا ، وجنوبًا ببلاد غنى وعامر بن صعصعة . ففى تلك الديار التى حددناها من بلاد نجد والتى تملك عليها حجر كان مولد شاعرنا . واسم أمه فاطمة بنت ربيعة ، وقيل تملك أخذا من قول امرىء القيس نفسه .

ألاَ هَلْ أتَاها والحوادِثُ جَمّةٌ بأنَّ امرأ القَيْسِ بنَ تَمِلكَ بَيقَرَا

والرأى عندى أن تملك لقب لفاطمة بنت ربيعة .

ولقد كانت وفاة ذلك الشاعر كما قال بعض الرواة والمؤرخين فى عام ٥٦٥ ميلادية .

نشأة أمرىء القيس

ببلاد نجد الواسعة، وفى رباها المعشبة، وأوديتها المتلاقية، وبين قبائل معد بن عدنان، كان امرؤ القيس صبياً يلهو مع لداته، ويمرح فى أعطاف الصبا بين رعية أبيه، وما كان يدرى أنه بعد قليل من الزمن سيفضى إلى الدنيا بسر من أسرار العظمة، ولا أنه سيضع على جبين الدهر ذلك الإكليل الفاخر من الخلود والشهرة ... فبين تلك الأدواح الظليلة، وفى خلال ربا العرار الشذى رسم شاعر التاريخ مدارك طفولته وملاعب صباه.

فى تلك الأرض التى افترت الطبيعة فيها عن بعض محاسنها وأكثر الشعراء من تواصف طيبها وجمال مصطافها ومتربعها نشأ امرىء القيس بن حجر، وما عرف سيرة أهله حتى وجدهم ملوكا تدين لهم ربيعة وأحياؤها ومضر فى أكثر عمائرها، وكندة وعشائرها.

نشأ على ما تنشأ عليه أبناء الملوك العرب الصيد فى ذلك العهد، وتعلم الفروسية، وشب على الشجاعة والنجدة، وكان كثير التردد على أخواله فى بنى تغلب حيث خالاه المهلهل بن ربيعة، وكليب.

كان لا يولى وجهه شطر جهة من جهات نجد وتهامها، وبلاد اليمن ومزارعها إلا ولأهله ولاية عليها، يأمرون فيها وينهون على قواعد من الاستبداد والملكية المطلقة ... فما بلغ مبلغ الفتيان حتى مد عينيه إلى تلك العزة الشامخة تحيط به من أطرافه، وذلك المجد الباذخ يتلقاه من قبل أبويه، فمضى فى غلوائه سالكا فى ميعة شبابه طريق أمثاله من أبناء الملوك، مؤثراً للذات القرائح، محبا للمجانة والعبث لا تشغله تكاليف الحياة عن الإمعان فى هذه الفتوة،

لجر مآزر اللهو ، وترنح فى سكرة الحداثة ، وصحب الفتيان يغشى بهم مناقع الماء ، ويرتاد أكنان الخلاعة والقصف ، ويتقلب بين قبائل وأحياء قد اختلط نساؤها برجالها ، لا رادع ولا حجاب سوى ما ارتكز فى تلك النفوس من وازعات الشمم ، وعلو المروءة وخوف العار . ويحضر مجالس أبيه ونوادى قومه يسمع ما يتلى فيها من الشعر وما يتناقل من أخبار الشعراء . وهو فى وسط ذلك كله غلام ذكى الفؤاد ، حاد القريحة ، قوى الفهم ، متوقد الذهن ، طلق اللسان ، ثبت الجنان ، مفتون باللهو ومجالس الشراب والصيد ، مغرم بالصافنات الجياد، مولع بمغازلة النساء ومفاكهتهن ، والتلعب بهن، والتغزل فيهن.

فما لبث أن تفتحت فى نفسه عيون هذه الغريزة الشاعرة المتوارثة من قبل عمومته وخئولته ، فسالت بألوان من الكلام جرى مع هذا المسلك الخليع من وصف النساء وذكر محاسنها ، وركوب الخيل وسرعة كرها ، ومجالس الشراب وأكوابها ، ودبيبه إلى معشوقته ومخاتلة أحراسها ، وجر بذلك فى شعره ، وغلا فى فجوره ، حتى أنف له أبوه من تلك الحياة الخليعة التى ارتطم فى حمأتها ، وألقى بنفسه بين أحضانها ، ولم يعد فى نظره صالحا لما كان يرشحه له من الملك بعده ، فأذله ثم أقصاه عنه وطرده ، فهام على وجهه شريدا فى نواحى الجزيرة العربية ، ولم يزده ذلك إلا استمراء لمذاق هذا العبث وتلك المجانة ، فمضى على سبيله تتناوح بركابه أحياء العرب ، ينزل مياهها ، ويتنقل بين مرابعها ، ومعه أخلاط من شذاذ طيىء وصعاليك كلب وذؤبان بكر بن وائل يتنقل بهم فى منازل العرب ، ويغير بهم على أحيائها ، ويقاسمهم ما تناله أيديهم من غنائم الغارة والسطو ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل

وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنته وإياهم قيانه ، ولاعبهم النرد ، وناشدهم الشعر .. ولا يزال كذلك كل يوم يغدو عليهم بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر ، حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، فينتقل عنه إلى غيره ، فتضرب له القباب وتنحر الجزور ، وتغنيه القيان .. وقد كان حبيباً إلى نفسه أن يتغنين له فيما يغنين بشعر مرة بن الرواغ فينشدانه قوله : —

إنّ الخليطَ أجدُّوا البَيْنَ فادَّلجُوا وهُمُ كذلك فى آثارهمْ لُجَج
عصْرَ الشباب يُغنينى مُصَلْصلة جَيْداءُ لا حجل فيها ولا رَنَجُ
وقد أقود الغيث لا أنيس به إلاَّ البعوضُ وإلاَّ الأزرقالهَزِجُ
نَهْد المراكِل يَطْويه ويرْكبُه حتّى يكفّت عن مُضْرانه العَفَجُ
بمثلِهِ كنتُ أعلُوالخيْلَ إذْ ركبتْ إذا الجيادُ كسا فُرْسانَها الرَّهَجُ

كل ذلك دواع انبعثت بها عين الشعر فى قريحة امرىء القيس فنطق به على سنة قومه فى عباب من بداوة العيش ، وطبيعة أرض كلها بين أودية وآكام ، وقد كان أول شعر أجراه على لهاته هو قوله : —

أذودُ القوافى عنّى ذيادا ذيادَ غلام جرىء جوادا
فلما كثُرْن وعنَّينه تخيّر منهن شتّى جيادا
فأعزل مرجانها جانباً وآخذ من درّها المستجادا

بيئات امرىء القيس

يجب أن لا ننسى تأثير البيئة التى نشأ فيها شاعرنا . فنجعله كل شىء ، ونضيف إليه كل شىء ، ونمحو تلك البيئة التى نشأته وكونتـه وتضافرت على تربية جسمه وعقله ومشاعره ، فهو فى حقيقة أمره ظاهرة من ظواهرها ، وأثر من آثارها ، تلقى على يدها ماجال بخاطره ، وأخذ عنها ما أوحت به شاعريته .

ولسنا نغالى فى إكبار تلك البيئة ، فنضيف كل شىء إليها ، ونستنبط كل شىء منها ، حتى نفنى الشاعر فيها ، ونتركه لا حول له ولا قوة بجانبها . إنمـا السبيل أن نقدر البيئة قدرها ، ونبوىء الشاعر مكانه منها ، ونحدد الصلة بينه وبينها .

ولذلك سأجتهد ما استطعت أن أبين فى صورة غير شوهاء ، تلك البيئات الطبيعية والاجتماعية والعلمية التى نشأ فيها امرؤ القيس وتأثر بها وقد كان له أثر فيها أى أثر ، فـكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه ، ومؤثر فيه .

البيئة الطبيعية

فى الجنوب الغربى من آسيا ، وبين البحر الأحمر والخليج الفارسى وبحر الهند تقع بلاد العرب ، التى قسمت فى عصر الجاهلية إلى خمسة أقسام جغرافية : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن ، وأكثر الشعراء من ذكرها ، وتواصف طبيعتها وجمالها .

وقد جابها امرؤ القيس من أقصاها إلى أدناها ، وضرب بجرانه فيها شرقاً وغرباً .

وتلك البلاد جديرة بالالتفات إليها من حيث طبيعة أرضها ، ومزاج قطرها ، فلقد كان لذلك أثر فى شاعرنا وفى غيره من الشعراء أيضاً .

هذه الجزيرة كانت ولا تزال مضرب الأمثال فى الجفاف والجدب ، تهامتها وحجازها ، ونجدها وعروضها ، ماعدا اليمن التى لم تحرمها العناية من ريها ؛ فاحتفظت بخصبها ، ولذا سميت من قديم الزمن « العرب السعيدة » .

وقد ذكر : « روبرتسون ، وهكسلى » فى بعض مؤلفاتهما (أن شبه جزيرة العرب — قبل عشرات الألوف من السنين — كانت ذات خصوبة وأنهار وعيون غزيرة) ولعلهما يقصدان بذلك بلاد اليمن السعيدة . لأن ذلك الوصف كان منطبقاً عليها دون غيرها من سائر أقسام بلاد العرب .

أما شبه الجزيرة فى غير بلاد اليمن : فقد كانت مجدبة قاحلة فى معظم أجزائها ، وقد وصف القرآن الكريم حجازها الواقع بين الجبال والبحر الأحمر (القلزم) بأنه واد غير ذى زرع .

وهى — كما تبدو إلى الآن — فى غربها وشرقها وشمالها ومعظم جهاتها الجنوبية صورة موحشة من صور الأرض الجبلية الصحراوية ، ذات النجاد المرتفعة ، والبلاقع المستوية المترامية التى تغطيها لجج الرمال الناعمة السافية.

جعلت الطبيعة منها أرضاً جرداء مقفرة ، وغبراء محرقة ، كما جعلت فدافدها ومفاوزها ، وكهوفها ومغاورها ، ونجودها وهضابها ، ووهادها وأغوارها ، مما يتيه فيه الخيال ، ويحار البصر .

وليست كل جزيرة العرب على هذا الحال من الجفاف والجفاء والجدب والإقفار ومظاهر الهلاك والعدم . بل إن فيها مواضع أخرى غير اليمن السعيدة أنعم الله عليها بفيض من ينابيعه واختصها بالخصب والخير . . كالطائف مثلا .

وليست المياه فى تلك الجزيرة معدومة ولكنها نادرة ، ومعظم هذا النادر مر الطعم لا يخصب أرضاً ، ولا ينبت زرعاً ، ولا يطفىء ظمأ . . والقلة من عيونها وينابيعها هى التى يستساغ ماؤها ، كعين أباغ ، وبئر زمزم ، والحوأب . . .

أما الصحارى فلا أثر فيها لماء ، ولا زرع ، ولا ظل . .

والشمس الساطعة تلفح أديمها . . . وتهب عليها — أحيانًا — رياح السموم ، فتكاد من وقدتها ، وشدة حرارتها ، تذيب دماغ الضب ، وتلهب الرمال ، وتصهر الصخور . .

وكثبانها مكسوة بشجر الغضا والسدر والأثل . وهى أشجار تكون فى أغلب الأحيان ملتوية معوجة .

ومما ينبت على ثراها بسقيا أمطارها الشيح والقيصوم والحسك والنلعلان ،

والربع الخالى خليق بأن يطلق عليه وادى الفناء . . فمنذ القدم كانت تعيش فيه قبائل موغلة فى الوحشية ، وقادرة لبعدها عن حدود الحياة البشرية أن تتحمل شظف العيش ومتاعب الحياة . . ويرى بعض العلماء أن هذا الربع الخالى كان قبل عصور التاريخ قاعا للبحر الذى كان يغمر الأرض من أعلاها إلى أسفلها ، ومن شرقها إلى غربها . . ولعل بحوث العلماء تؤدى فى العصر الحديث إلى الكشف عن متحجرات مائية تزيح الستار عن هذه الحقيقة العلمية .

إن الربع الخالى رقعة عجيبة بألوانها الحمراء ، وكثبانها الفنية بالرمال وتلالها المستديرة كأنها حدوة الفرس ، أو زورق الهلال — فى خيال ابن المعتز — وبجوارها سلاسل بيضاء متوازية كأنها جبال من حلب (لبن) متجمد فى جوف وعاء ضخم من النحاس الأحمر ، فإذا ما أمعن الناظر إليه بدت له أنها الرمال البيضاء المتماوجة على أرض تلك الرقعة العجيبة .

وفى ثنايا تلك المفاوز البيضاء والحمراء والهضاب الوردية والوديان الصفراء ، ذلك البحر السافى من تلك الرمال البيض المتماوجة الناعمة كأنها الزرور الأبيض ، تبتلع كل ما يطؤها من إنس أو حيوان أو أثقال . كأنما ورثت فيما ورثته من الطباع غريزة الإهلاك والإفناء .

عدم يكاد يكون مطلقاً فى تلك الصحارى المقفرة التى زادها الظمأ والجفاف إقفاراً وفقراً ، ونقلها من عالم الحياة إلى وادى الموت والعدم . . والرياح العاتية الهبوب تسفى الرمال بغير حساب ؛ فتغير معالم الأرض ، وتستبد بطبيعتها ، وتنقل كثبانها من مكان إلى مكان .

والهيا كل العظمية والجماجم النخرة للإبل والبشر تدل على أن الإنسان والحيوان قد مرا بتلك الفدافد عبر طرق القوافل التى كانت تخترقها . . ولقد

انعدمت هذه الطرق وضاعت آثارها بعد أن هجرها المسافرون والتجار ؛ إذ لا طاقة لهم ولا قبل بما تسفيه الرياح الشديدة العاصفة من الرمال بغير حساب مما يطمس المعالم ويجهل الدروب .

لعل تلك الفدافد والمفاوز فى جزيرة العرب كانت ذات أيام فى العصور الخوالى موطىء أقدام لعمّار عمروها ، ورحّل جابوها .. ولعلها تخفى فى أحشائها براكين عظيمة خامدة سكنت بعد ثوران ، وهدأت بعد غليان وفوران ، وانطفأت نيرانها التى كانت متأججة ، وخمدت حرارتها التى كانت متوهجة ، ولم تخلف بعد موتها سوى أحجار محترقة .. فهى على الحالين لا تنطوى إلا على الخراب بعد العمران ، والخمود بعد الهيجان ، والموت بعد الحياة . . ولئن كانت ثمة حضارة فقد اندثرت ، أو كانت نار فقد انطفأت .

ومن النفود تتفرع بطاح رملية ذات رمل لخفاح يستر صخوراً أصلاداً ، وتتكون من تلك الرمال آكام وكثبان متقطعة تصل بالمسافرين إلى الدهناء ومربط ومخبط وخب النوم وخب الرضم . . وتوقعهم تلك الدهناء فى حبائل وشباك وشراك وخيوط رملية ، وتندلع فيها ألسنة تمتد إلى فجوات حجرية .. وقد جردت الطبيعة فى وجه المسافرين — إن كانوا وأطاقوا السفر — أسيافا من الرمل جعلت حدودها حدوداً بين النفود الشمالى والنفود الجنوبى أو الربع الخالى .

أما جبال الحجاز فتجتاز الجزيرة على محاذاة الساحل الغربى وهو شاطىء البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب ، وتبدأ من شمال مدين إلى اليمن (العرب السعيدة) وقد أطلق علماء الجغرافية على هذه الجبال اسم السراة وسميت حجازاً : لأنها تحجز بين البحر الأحمر وبين النجاد الشرقية العالية .. وهذه الأرض تمتد إلى الغرب حتى تصل إلى تهامة وتبسط يدها إلى الشرق فتبلغ أرض نجد . . وبعد جبال الحجاز يرتفع فى الجزيرة جبال : شمر ، وأجأ ، وسلمى ؛ وهذه جبال

مؤلفة من أكام وهضاب ورءوس تفصل بينها أودية وشُعبان .. وأجأ : جبل ذَكَر ؛ لذا جعلته الطبيعة أعلى من سلمى ؛ وهى سلسلة جبال أنثى .. وهذه المنطقة منطقة شمر تزين السهل بهذين الجبلين الشامخين ، وبما يحيط بهما من الكثبان والآكام ؛ كأنها أسراب ضخمة من القطا الكامن فى أحضان ذلك السهل .

وإذا تعدّيت تلك الجبال وجاوزت هذا السهل ، فقد أنجدت ، وما نجد ـ التى اشتهرت بشعرائها ، وجمال نسائها ، وعتاق خيلها ووفائها وصحة أنسابها ـ إلا سلسلة من الواحات المتشابهة فى الشكل المختلفة فى الحدود والمساحة .

وإذا ما عدونا ربعها الخالى ؛ ذا المفاوز والأهوال ، وتعدينا تهامة والحجاز وأنجدنا ، فسوف نجدُ فى نجد سلسلة من الواحات المتشابهة فى الشكل — وإن اختلفت فى الحدود والمساحة — وقد انبسطت تلك الواحات على ربواتها ، وسقاها مضاعف الغيث العميم ، فطاب أديمها ، وزكا نبتها ، ونضر زهرها ، وأينع ثمرها ، وسطع أريجها ، وفاح عطرها .. ورفت على جوانب جوها ريح الصبا ؛ فهزت أعطافها ورنحت أغصان بساتينها ، ورنمت طيرها ، وأنعشت أهلها .. وضرعها .. وزرعها ..

وقد اشتهرت نجد منذ القدم بشعرائها ، وجمال نسائها ، وأصائل جيادها وصحة نسائمها .

أما اليمن — وهى الموطن الأصلى لقبيلة كندة التى ينتسب إليها شاعرنا أمرؤ القيس — فقد شاء الله لها منذ عصرها القديم السعيد ؛ أن تتدفق مياه الأمطار على جبالها ، وتجوس الأنهار والجداول المترعة خلالها ، وتزدهر فيها البساتين اليانعة ، وتمرع الحقول المخصبة .. مما كفل لها المجد والشهرة والمدنية التى كانت مؤتلقة مشهورة ، والمكانة التى كانت عظيمة مرموقة ..

كانت اليمن السعيدة أراضي خضراء تفوح من أدغالها روائح النبات الطيبة، وبها وديان كوادى الذهب ، وهو من أجمل الوديان وأخصبها . . . تزرع فيه الحنطة والشعير والذرة والعدس والحلبة والبن والقات ، فإذا سار المرء فى الوديان أو صعد فى العقبات السالكة فى الجبال العالية أشرف منها على مشاهد بهجة من السهول المزروعة والقمم الخضراء والجرداء ، ثم يدخل فى نجد الأحمر ؛ وهو بقعة من الأرض الحمراء تعلو صخورها سطح البحر بأربعة آلاف قدم ؛ فيجف الهواء ، ويثلج الماء ، ويشف النسيم ، وتتعدد من حوله الأزهار والرياحين ، حتى لكأنه على قنن لبنان . . .

وإذا ما ترك المرء وادى الذهب إلى وادى المرفد وجده يفوقه خصباً وجمالا؛ فيه أشجار البن التى تشبه أشجار الليمون بأوراقها وأزهارها ، وفيه الجوز واللوز والخرنوب وبساتين غضة من العنب والموز تجرى فى ظلالها مياه النهر الذى يتدفق من جبل سمارة ، فإذا صعد إلى قمة سمارة وهى أعلى ذروة فى اليمن رأى تحت قدميه قاع الحقل ؛ يتجلى له بمزروعاته المنوعة وما يتراءى فيه من مظاهر الحصاد ، والمناظر الخضراء والصفراء والبيضاء والسمراء مما يملأ العين بهجة والنفس مسرة .

هكذا جعل الله اليمن فى مكان من الأرض شاء له فاطره أن يكون ربيعه دائماً . إن هذه السهول المخصبة المخضلة ، وتلك الجبال المشرفة المشرقة ، وتلك الأنهار الجارية المتدفقة ، وهاتيك البساتين المزهرة المتألقة وتلك المياه المثلوجة المترقرقة ، وتلك السماء المسفرة الضاحية ؛ قد أنجبت مدنيتها العجيبة ، وهيأت لها الكثير من أسباب المجد والشهرة والعمران ، وجعلت لها تاريخاً حافلا ، وحضارة راقية ؛ قامت بين شمس المجوس ، وكواكب الأوثان ، وفيها تعددت الهياكل ، وتنوعت المعابد ، وعزت الآمال ، وقامت الحصون والقصور ،

والقلاع وسدود الماء كسد مأرب. . . .وكانت مملكة سبأ ، وكان بنو حمير ، وتبع ، وقحطان، كما كان المعينون من قبلهم، وكانت — وما تزال — صنعاء... ونشأ فيها العلماء والشعراء ، ونوابغ فنون التحصين والبناء .

هذه صورة ناطقة للجزيرة العربية ومن اليسير على من يقرأ الجغرافيا ويلم بوصف الأرض ، أن يرسمها رسماً يقرب من الحقيقة ، وإن كانت فى حاجة إلى التدقيق عند لزوم التطويل ، وتفصيل الإجمال ، وتوضيح الإبهام ، مما قد تحتمه وتدعو إليه فكرة الإلمام والإيجاز . . . على أن رسم الصورة مصغرة أو مكبرة هى من ألزم الضروريات لمن يريد أن يقف على حالة الجماعات البشرية التى عمرت تلك الأراضى الشاسعة : صحراءها ، وواحاتها ، وجبالها ، وسهولها ، وقراها ، ومدنها ، وسواحلها ، ونجودها ، ووديانها وهضابها .. وما إلى ذلك .

والتاريخ يشهد لليمن بمجدها الغابر ، وحضارتها العريقة التى قامت بين شمس المجوس ونيرانهم ، وكواكب الوثنيين وأصنامهم ، وفيها تعددت الهياكل ، وتنوعت المعابد ؛ بكهنتها وأسرارها . ولديها عزت الآمال ، وتحطمت المطامع ، ووهنت الأمانى ، فكانت مملكة سبأ ، وكان حمير وتبع وقحطان ، وقامت الحصون والقلاع والقصور وسدود الماء ، ونشأ فيها العلماء والشعراء ، ونوابغ فن البناء ..

وكتاب الإكليل للحسن بن أحمد الهمدانى فى محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثى حمير والقبوريات حافل بأخبارها وأمجادها ، وتاريخ ساستها وملوكها وعلمائها . .

* * *

وفى ضوء ما سبق يستبين لنا أن البيئة الطبيعية لبلاد العرب ، التى عاش فيها امرؤ القيس ؛ هى على جملتها غنية التربة ، مبسوطة الرقعة ، مجلوة الآفاق ، ممتدة

الجنبات ، وفيرة الوحش ، كثيرة الطير ، شديدة الحر ... فيها جبال وأودية ، ووهاد غائرة ، ونجاد عالية ، وكثبان متنقلة ، وعيون متفجرة ، ومسايل جارية ، وصحارى شاسعة ، وبقاع مخصبة وأخرى مجدبة . جوها صحيح الهواء ، وسماؤها ضاحية الشمس ، سافرة البدر ، ساطعة الكواكب ، يتراكم فيها السحاب شتاء ثم ينجاب عنها وقد نبت فى ثراها أنواع من الكلأ والمرعى ، ذات أشكال مختلفة ، وأفنان متعددة ، وأزهار متنوعة .. مساكن أهلها بيوت مشيدة ، أو خيام متنقلة على ظهور جمال بازلة ؛ يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويتخذون من أصوافها وأوبارها أثاثا ومتاعاً إلى حين .

وقد قابل امرؤ القيس تلك الطبيعة الباسمة وجهاً لوجه ، فطلعت عليه الشمس بأشعتها الذهبية المحرقة تصليه بشواظها ، وبدا له القمر مرسلا أنواره الفضية الوادعة يبهر لبه ويملك عليه مشاعره ، وسطعت النجوم ولا حائل بينه وبينها يرى سناءها ويبصر لألاءها ، ووقف على الديار المتقوضة والغدران الممتلئة ، وتراءت له الفلوات الواسعة .

بها العِين والآرام يمشين خِلْفة ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وعصفت من حوله الرياح العاتية تحمل من الرمال كثبانا ، أو تجرى رخاء وسلاما .

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا !

شمس تسطع ، وقمر يلمع ، ونجوم تتلألأ ، ورياح تهب ، وظباء ترتع ، وخيام تقوض فى جو فسيح كل ما فيه حر طليق .

الحق ! . إنها طبيعة تملأ القلوب هيبة ، والأفئدة رهبة ، وتدع فى النفوس شغفاً زائداً بها . وخوفاً شديداً من أهوالها ، واستجلاء لمظاهرها ، واحتراماً

لأحداثها ، وأحاسيس تملأ القلب وتشغل الجوانح ... فلاعجب إذا وجدنا امرأ القيس يمسك ريشته فيرسم بها تلك الطبيعة فى شعره ، ويتحدث عنها فى خياله . وسنقف على شىء من ذلك عند دراسة معلقته ، وقصيدته الثانية :

« ألا عم صـــــباحا أيها الطـــــلل البالى »

وليس بغائب عن البال أن امرأ القيس جال فى أنحاء الجزيرة العربية ورباعها ، وكثر تسياره وتطوافه فى بقاعها شمالا وجنوبا ، وفى شتى نواحيها شرقًا وغربًا ، طبقًا لما اقتضته ظروف حياته فى شبابه ورجولته ، بل إنه رحل إلى أوروبا ، ونزل ضيفًا على قيصر بالقسطنطينية يطلب عونه لتثبيت عرشه ، وتدعيم ملكه ، ونصرته على أعدائه ، مما سنذكره فى موضعه من الفصول التالية ولكل هذا أثر واضح فى شعره .

البيئة الاجتماعية

أولا : الجنس العربى :

الجماعات التى سكنت الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ هى من الجنس السامى الذى يشارك الجنس الآرى فى تكوين أهم النوع الإنسانى .

وقد زعم بعض الباحثين أن الجنس الآرى متميز على الجنس السامى بسعة الخيال ، وسمو الفكر ، وقوة الاحتمال ، والصبر على الشدائد ، والصمود للطبيعة ؛ والقدرة على الابتكار ، والتطلع إلى المجد ، والصلابة فى الهجوم والاعتداء ، واتخاذ الوسائل وشتى الذرائع لبلوغ السعادة بالسعى فى سبيل الحياة والتغلب على مافيها من الصعاب والمعوقات . .

وقالوا أيضاً : إن هذه المناقب التى امتاز بها الآريون دون الساميين ، إنما نشأت فى جبلة الآريين وغرائز أبنائهم كنتيجة حتمية لطبيعة الأرض التى عمروها واستوطنوها ؛ فإن تعدد المناظر ، واختلاف المناخ ، ورطوبة الأجواء ، وأهوال الحياة ، ومشقات العيش ، وصعوبة الحصول على الرزق ، وانعدام القناعة ، وحب المخاطرة ، وحوافز الجد والمثابرة ، كل هذه الظاهرات والصفات وما إليها ؛ هى التى تفاعلت واعتملت فى تكوين الشعوب الآرية تكويناً يخالف تكوين الشعوب السامية .

ومما لاح لنفر من الباحثين أن الجنس السامى أعرق فى القدم من الجنس الآرى ، ولكنه قد يغايره من حيث صفات أبنائه . فهو جنس يقطن من فجر التاريخ ومنذ نشأته بلاداً ذات مناظر متشاكلة تكاد أن تكون واحدة . .

وكأنما أرادت الطبيعة للساميين أن تكون حياتهم — ولا سيما فى جزيرة العرب — على وتيرة عقيمة غير أخاذة ولا صناع فى جوها وهوائها وأرضها وسمائها ، وليلها ونهارها ، وإصباحها وإمسائها ، وأصائلها وأسحارها ، وبكرها وعشيها ، وشمسها وقمرها ، ونجومها ومطالعها وأنوائها ، وجفافها وجدبها . . ولهذا كانت أخلاق أهل هذا الجنس على نمط من بيئته جفافاً وصلابة وذريعة ووسيلة . . فالإنسان رسم تصنعه البيئة على صورتها . .

وينبني على ما سبق إيضاحه أن خيال الآرى فسيح متسع ، وفكره عميق دقيق ، وأما السامى فخياله لماح غير مستأن ، وفكره سطحى بسيط عجول . . والفرق بينهما كذلك أن الآريين فى أخيلتهم يصعدون من الأرض إلى السماء حتى أنهم ليؤلهون أبطالهم ؛ أما الساميون فإن وحى الخيال يهبط عليهم من السماء ويتنزل من فوقهم إلى الأرض بين أيديهم وتحت أرجلهم .

وقد اختلف العلماء فى تعيين مهد الجنس السامى اختلافاً كبيراً ، وترجع مصادر علمهم فى هذا الشأن إلى : الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن) وإلى الآثار التاريخية ثم الأساطير . . وفى الكتب المقدسة نصيب كبير من التاريخ ، وإن كانت بعض الحوادث التاريخية الواردة فى بعض هذه الكتب أحياناً تختلف عن الحقائق التى وردت فى الآثار . . أما الأساطير فإن بعض الباحثين لا يعول عليها فى كثير أو قليل إذ يرى أنها من وحى الخيال والإغراق فى الابتداع . . ولكننا فى مذهبنا نقول بخطأ من يعتبرها على إطلاقها من وحى الخيال أو أنها فى جملتها وتفصيلها ثمرات لاختلاق الرواة والقصاصين والوضاع ، لأنها عند التعمق فى دراستها يبدو فى بعضها انطواؤه على جوانب متعددة من الحقائق ، وإن لم تكن هى الحقيقة بعينها ونصها وفصها ، فهى عَلَى الأقل رموز للحقيقة وصور لما يقرب منها وينطبق عليها .

ونعود إلى القول فى نشأة الجنس السامى : فنذكر أن بعض العلماء قالوا : إن الجنس السامى نشأ فى أرض كنعان (سوريا ولبنان — الآن) لأن الحضارة الكنعانية أقدم الحضارات ،.. وليس ثمة حضارة أقدم منها فى الوجود على ما ذهبوا إليه . . . وقالوا : إن اللغة الكنعانية أقدم اللغات ، وهم يرون — بطبيعة الحال — أن اللغة أهم مصدر من مصادر التاريخ العلمى ، لأنها تعد أعظم أثر وأقوى مستند فى سجل حياة الأمم .. وهذا الرأى لدينا مجانف للصواب ؛ لأن القائلين به جعلوا الكنعانيين أصل الساميين .. وغفلوا عما اهتدى إليه العلماء من وحدة الجنس السامى بالمشابهات العديدة المشاهدة فى اللغات السامية وهى : الكنعانية ، والنبطية ، والسامرية ، والعربية ، والعبرية ، والحبشية . . . وفاتهم أيضاً ما اهتدى إليه هؤلاء العلماء والباحثون من وحدة الأفكار التى تمليها حياة الأفراد والجماعات على اللغة وتتخذها مظهراً لها ووعاء تفرغ فيه مادتها .. فهذه الشعوب كلها يمت بعضها إلى بعض برابطة اللغة ورابطة الفكر .

ومن هنا سقطت النظرية القائلة بأن كنعان هى مهد الجنس السامى ؛ وتلتها نظرية تقول إن الجنس السامى نشأ أول ما نشأ فى بابل وأشور .. ولكن هذه النظرية البابلية الأشورية قد فشلت كسابقتها أيضاً ، وإن كان يبدو عليها مظهر يقتضى الجنوح إليها والثقة بها ، وسبب ذلك لدى أصحابها أن أهل بابل وآشور كانوا يتكلمون لغة سامية ، ويفكرون على طريقة سامية ؛ وإن كانوا يعيشون فى بلاد تحتم عليهم أن يكونوا آريين ، لأن بابل وأشور (العراق — الآن) بلاد متنوعة المناظر ، متعددة الأوضاع والأجواء والبقاع ... ولأن أهلها ما فتئوا يكتبون وينطقون لغة سامية ، ويفكرون بطريقة سامية .. وسبب هذه الظاهرة الغريبة هو أن البابليين والآشوريين — فى أصلهم — ساميون

من العرب النازحين من جنوب الجزيرة فى اليمن إلى بابل .. ثم عادوا بعد أجيال طويلة إلى وطنهم الأصلى فى قحطان بعد أن دخلت على لغتهم أشكال وصور جديدة مستفادة من وطنهم الجديد ، ولكن هذه الحياة الجديدة التى عاشوها فى بابل وآشور على ضفاف دجلة والفرات لم تقو على انتزاع فطرتهم السامية .

ويظن فريق من المستشرقين أن أصل الساميين من بلاد الحبشة ، وأنهم عبروا البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية من باب المندب فنزلوا باليمن ، ثم انتقلوا إلى الحجاز ونجد والبحرين ، ثم تفرقوا طوائف ؛ فطائفة نزحت إلى فلسطين ، وأخرى إلى العراق ، وثالثة إلى فينيقية .

وأقوى المذاهب وأصحها فى أرومة الساميين هو ما انتهى إليه العلماء والباحثون من أن جميع الأمم السامية عند ما كانوا أمة واحدة كان مهدهم هو جزيرة العرب نفسها ، وأنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة ، وأن اللهجات السامية انشعبت عن تلك اللغة الأم ، ثم ما زالت هذه اللهجات تنمو وتتسع حتى كان منها اللغات : السبئية فى الجنوب ، والعربية فى الوسط والشمال ، والآشورية والبابلية فى العراق وما بين النهرين ، والآرامية فى الشام الداخلية ، والفينيقية فى الشام الساحلية ، والعبرية فى فلسطين ، والأثيوبية فى الحبشة ..

وأصحاب هذه النظرية يقيمون الدليل على مذهبهم من نفس اللغة العربية القديمة التى ورثها العرب المستعربون عن العرب الأولى القديمة .. وهم يصورون جزيرة العرب كأنها مصدّر وموردّ للساميين ؛ ينزحون منها ويعودون إليها شرقا وغربا وشمالا وجنوباً ، فإليها جاء أقوام من شمال إفريقية وغرب آسيا ، ومنها نزح أقوام فى فجر التاريخ إلى العراق وإلى مصر وإلى أرض كنعان نفسها ، ومنهم من اجتاز مضيق باب المندب ، ومنهم من جاز صحراء سينا إلى

الأراضى الخصبة شمالا وغربا .. ومن رأى العلامة (بانون) الأمريكى والأستاذ (سايس) الإنجليزى و(وينكلر) الألمانى ، وكل من تعمّق فى دراسة أحوال الساميين وهجراتهم أن الأمم السامية هاجرت من جزيرة العرب فى أوقات مختلفة من عصور التاريخ فاستوطنت البلاد التى لجأت إليها وتناسلت فيها .

وقد أدى هذا الارتحال المستمر ، قبل استقرار الأمم فى مواطنها إلى الاختلاط حتى أن فرعاً واحداً من فروع الدوحة السامية يمكن رده إلى أربعة أصول ؛ وهذا الفرع هو النوع اليهودى الذين كانوا فى بداية أمرهم عرباً رحلوا فيمن رحل من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها ، وخرجوا منها إلى مصر ، ثم ارتدوا عن مصر إلى فلسطين حيث اتخذوا ديانتهم ، ونزح بعضهم عائدين إلى وطنهم الأصلى فى الجنوب .. ومن ثمّ نجد يهوداً فى اليمن ، ويهوداً فى خيبر ، ويهوداً فى يثرب ، وهم جميعاً لم يفقدوا عنصرهم الأول وهو العنصر السامى ؛ بل إنهم أضافوا إليه عناصر حيثية ، وهندية أوربية ، وطورانية .

أما النوع الذى احتفظ بذاته واستبقى شخصيته السامية كاملة غير منقوصة فهو النوع اليهودى العربى ، الذى يعيش فى جزيرة العرب ، فقد شاءت له الأقدار أن يدّخر ساميته .

فما لا جدال فيه أن عرب الصحراء منذ عصور ما قبل التاريخ — التى لا تعرف لها بداية — قد احتفظوا بجنسيتهم نقية غير مخلوطة ولا مهجنة .. وبعض الباحثين كالعالم « بوركهاردت سميث » فى كتابه ديانة الساميين يأبى أن يعدّ البابليين والفينيقيين فى مصاف الساميين . ولا يعترف لهم بالنسب السامى إلا فيما يتعلق بلغتهم ، فإن بينها وبين اللغات السامية قرابة ونسباً[1] ،

(١) ولعل من أسباب تفوق اللغة العربية على جميع اللغات بسبقها وجمالها كمالها أنها النبت البكر للغة الأولى التى كان يتكلم بها الساميون قبل اتساع =

ويقول : إن جميع الشعوب المنسوبة إلى السامية قد خولطت وامتزجت دماؤها بدماء أجنبية ماعدا الجنس العربي الذي يعيش عيشة البداوة في الصحراء .. وإن « بوركهاردت » الذي اتخذه بعض العلماء حجة في هذا الموضوع قد افترض أن ملايين من البشر يشبهون في مجموع أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم وطبيعتهم أهل البادية أو بدو الصحراء هاجروا منذ آلاف الأجيال من الجزيرة إلى مختلف الأصقاع والأقاليم طلباً للقوت والرزق ، وأن طبيعة الجزيرة العربية تدفع على كثرة النسل ، ولكنها لا تقوى على تغذية أبنائها وإعاشة ذويها ، فدفعت بهم الحاجة إلى الهجرة والغزو ، فانهالوا ألوفاً مؤلفة أشبه شيء بالسيول المتدفقة والأنهار الجارية على الشرق والشمال ، وقد كانوا مسلحين فغزوا ما استطاعوا للغزو سبيلا ، واستعمروا ما كان في طاقتهم وفي وسعهم أن يستعمروه من بلاد الشعوب الناعمة شِبَعا ورِيّا ، الضعيفه جِلاداً وكِفاحا بتأثير نعمة الشبع والدّعة والراحة .. ثم إن الهجرة السلمية الفردية ما تزال حادثة في ظلال الأمن والطمأنينة . فإن قبائل وعائلات لا تجد أمامها بداً من الرحيل من مرعى إلى مرعى ، وقد تجد نفسها مضطرة إلى أن تتعدى الحدود وتحتل بلاداً أخرى غير مواطنها فتعيش في تلك البلاد التي نزحت إليها ، وقد تحتفظ بدمائها نقية ، وقد لا تحتفظ .

وتلك الظاهرة هي التي غلبت على العرب القدامى ، فكانت جزيرتهم كالينبوع الذي تفيض مياهه والمنجم الذي تستخرج معادنه حتى تفيض عن

=مسافة الخلف بين لهجاتهم ، وقبل أن يتفرقوا في الأوطان والمعايش والحضارات ، فكمال اللغة العربية بالنسبة إلى أخواتها من اللغات السامية ناشيء عن عراقتها في القدم وتقدمها في مضمار التهذيب دهورا طويلة . . . وقد وصل العلماء إلى الحكم بأن العربية هي أم اللغات السامية ، وأن منزلة اللهجات السامية من اللغة العربية الأم هي منزلة الفروع من الأصل

حاجة أربابه فتصدر إلى البلاد الأخرى .. وقد وصل هؤلاء البدو العرب إلى إفريقية الوسطى واستعمروها وأقاموا فيها ممالك ودولا ما تزال باقية إلى أيامنا .

وما يفتأ البدو رابضين فى صحاريهم محتفظين بنقـاء دمائهم بعيدين عن حومة التاريخ إلى أن يرحلوا أو ينزحوا ويختلطوا بشعوب أخرى .

وخلاصة الرأى الراجح لدى العلماء والباحثين ، هو أن أواسط جزيرة العرب منذ القدم وعصر ما قبل التاريخ كانت آهلة بالسكان من نسل سام، وفى أكنافها تكونت الجماعة السامية الأولى ، ومنها ابتدأت هجرة الساميين إلى أطراف تلك الجزيرة العربية ، وإلى ما وراء هذه الأطراف فى مصر وإيران وقد انقسم العرب عبر التاريخ إلى ثلاثة أقسام :

(١) العرب العاربة وهم عاد وثمود والعمالقة ومن شابههم .

(٢) العرب المتعربة وهم القحطانيون ، ومنهم : حمير ، وسبأ ، والتتابعة ، وجرهم .

(٣) والعرب المستعربة وهم الإسماعيلية، والعدنانية ، نسبة إلى جدهم الأعلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، أو إلى عدنان أحد أجدادهم الأقربين من ولد إسماعيل .. وقد كانوا بالحجاز ، ودولة حمورابى ببابل ، والدولة المعينية باليمن

والعرب العاربة والمتعربة قطنوا الجنوب . والعرب المستعربة قطنوا الشمال .. وأهل الجنوب بسبب خصوبة أرضهم أحدثوا أنواعاً من الحضـارة الزراعية ، وانتهوا ببناء سد مأرب ، ولـكنهم لم يتمكنوا من تعميره بعد خرابه .

وقد حدثت لهم أحداث طبيعية ضربت أسباب حياتهم المعيشية فى الصميم ضربة قاضية أتت على ممالـكهم ودولهم ، فلم يكن أمامهم بعد تلك الأحداث من مناص إلا النزوح والهجرة ، فارتحلوا شمالا وشرقا وغربا .

أما عن الحضارة الإنسانية فإنها بدأت على يد الساميين فى مصر الفرعونية، ولدى البابليين والآشوريين ، ثم انتقلت السلطة العالمية وتحولت القوة الحربية والقدرة السياسية والمشعل الحضارى إلى بلاد فارس وهى أمة من الآريين .. وخلال هذين الدورين اللذين دالت فيهما دول وقامت دول ، ظهرت ديانات شتى بعضها منزل سماوى كاليهودية ، والمسيحية ، وبعضها وضعىّ إنسانىّ كالبوذية والكنفوشية والمانوية .

ثم استعد العالم للدور الثانى السامى وهو الحلقة الثالثة من حلقات الحضارة العالمية ، وذلك بنهضة العرب وظهور فجر الإسلام ؛ الذى أعاد القوة والنفوذ والسلطة إلى الجنس السامى ، وقد ظل الساميون بعد الإسلام يسودون العالم إلى بداية النهضة الأوربية حيث انتقل مشعل الحضارة وصولجان المدنية والتقدم إلى الجنس الآرى فى أوربا .

ثانياً : أخـــلاق البدو ، وظاهراتهم الاجتماعية : —

إن من أخلاق تلك البيئة التى عاش فيها امرؤ القيس : الشهامة والنجدة ، والشجاعة والنخوة ، والمروءة وعلو الهمة ، وكرم الخصال ، وشريف الفعال ، ولين الجانب وطيب الخلق وشدة البأس وقوة المراس ، وحدة الطبع ، والحلم والوفاء ، وإباء الضيم وعزة النفس .. وقد كان فى رجالهم أمثلة حية لهذه الخصال وعاها التاريخ وتحدث بسيرهم الرواة والمؤرخون .

على أننا لا نكذب التاريخ فنبرىء الأمة العربية فى جاهليتها كل البراءة ، وندعى أنها كانت سواء فى اكتساب المحامد وإطراح المآثم ؛ فذلك سبيل أهل الخيال الذين يأخذون من كل منهل أصفاه ، ويرون فى كل شىء غايته . فإن من العرب شذاذاً وصعاليك كانوا يقترفون الجرائر ، ويرتكبون الآثام ،

ويجترحون السيئات ؛ فيغدون على نساء مهينات مظلمات كنّ يتوارين عن الأنظار خارج المدائن والقرى ، وخلف مضارب القباب ؛ فإذا أرخى الظلام سدوله أسبل الرجل على آثار أقدامه إزاره ليعفى فوق الرمال معالمه ويعمى خطاه، وغدا إليها تحت جنح الدجى لا تدركه الأبصار . . أما بغاة الشرف وطلاب المجد فهم بمنجاة عن هذا ؛ حتى لقد بلغت الغيرة بهم أن كان الرجل يمد يده الأثيمة الظالمة إلى نفس وليدته الطاهرة التى بدأت تستقبل الوجود وتنهض فى الحياة على قدميها فيلقى بها فى حفرة من الأرض ثم يهيل على جسدها التراب ، ويدعها تعالج سكرات الموت تحت أطباق الثرى .

ويبدو أن مكانة المرأة كانت تختلف فى البادية عنها فى الحاضرة ، وفى كليهما بمكانها الطبقى فى المجتمع ، وتخضع دائماً لتقاليد تتفاوت من قبيلة إلى أخرى ، ومهما يكن من شيء فالمرأة عند الشعراء موطن تعظيم وإكبار ، ومناط إجلال وإعجاب .

ولعمرى إذا نحن أسدلنا الستار على تلك المظالم التى لم تعم جميع القبائل والأحياء بل اختص بها فريق دون آخر ، فإنا وجدون تلك المرأة البدوية مثار عاطفة ذلك الرجل العربى ، ومدار وجدانه ، وسرّ حياته ، ومصدر إلهامه ، ومناط آماله ، ومهبط وحيه ، وقبلة خاطره ، ومنتجع هواه ، ومجتلى قريحته ، ومطلع قصيدته ، بها غَناؤه ، وفيها غِناؤه ، تغنى بمحاسنها ، وتمدح بشمائلها ، ووقف عَلَى أطلال دارها ومعالمها ، وائتمر بأمرها ، وتقبل أحكامها ، ونزل فى غالب الأحيان عَلَى إرادتها ، وكثيراً ماتقبل رغبتها ، فهى نور الوجود فى ناظريه ، وكل شيء بين يديه ، هتفت به تحت ظلال السيوف فاستمد منها عزماً أكيداً ، وبأساً شديداً . ومن بين أحضانها خرج فتيان وفتيات نشأتهم منذ الطفولة عَلَى الشرف والسؤدد ، ولقنتهم آيات المجد والمحتد .

ولقد كان للعرب فى ذلك الحين مجالس وأندية يغشاها الرجال والنساء يتناشدون فيها الأشعار وَ يتبادلون الأخبار ، وكان لهم أسواق تقام للبيع والشراء، ويقف فيها الخطباء والشعراء ، يتنافرون وَيتناشدون ، ويتحاكمون فيها إلى قضاة عدول ؛ لهم بصر بنقد المنثور والمنظوم ، وَفى ذلك شحذ لأذهانهم ، وتنمية لأفكارهم ، وتهذيب للغتهم .

وكانت لهم أيضاً حروب مشهورة وأيام معلومة لما فطرت عليه نفوسهم من سرعة الغضب وَالجرأة عَلَى الشر وَحب الغزو وَالميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر . فلا تنفتح عيونهم إلا عَلَى سيوف تتألق . وَرماح تلمع ، وأسنة تشرع ، وجياد تصهل ، وَرءوس تتطاير ، وأشلاء تتناثر ، وطير يهوى ، ووحش يزمجر .. فرسخت فيهم صفات الفروسية ، وكثر بينهم الفتك والنهب .

وما كان لهم مقام بأرض ، وإنما كانوا يبتغون مناقع الماء ، ويرتادون منابت العشب ليرعوا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى حمولهم وشبعهم وريهم . . فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على النجعة ، ونشبت بينهم دواعى الخلاف ، وانتشرت العداوة والبغضاء ، وقامت الحروب ، وتفرقوا شيعاً وأحزابا يتخطف بعضهم بعضا . . والشعر فى تلك المواقع يقوم مقام الموسيقى ؛ إذ هو والغناء يحلقان كزوجى الطائر فوق رءوس الربا وبين خمائل الزهر ؛ يتناغيان بنجوى النفوس ، ويوقعان على أوتار القلوب ، تجيش به الأفئدة فى مثل تلك المواطن استنهاضاً للهمم وبكاء على القتلى ، وافتخاراً بالعصبية .. والشعر يوحيه الحب والحرب والموت والحزن والجمال .

أما ديانات العرب فى ذلك العصر فكانت على ضروب شتى ، فمنهم عابد الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والنار والحجر . . ومنهم من تهوّد أو تنصر، ومنهم من بقى على ملة إبراهيم يحج ويعتمر ، ويعظم الأشهر الحرم ، ومنهم

من كان مجوسياً يعبد مبدأ الخير والشر[1]؛ ومثل ذلك الدين المضطرب الواهن قد أسلم العرب إلى صنوف من العقائد ، وضروب من الهواجس ، رسخت فى نفوسهم ، وتمكنت من قلوبهم ؛ فهناك بين ثنايا الجبال وأعطاف المغاور صنوف من الحجر تطاول عليها القدم ، وقد تنوعت أشكالها ، وتعددت ألوانها؛ اتخذوا منها تمائم ورقى ؛ تجلب الخير، وتدفع الشر، بمالها من سر دفين وأثر مكين .

وإذا اعتزم الواحد منهم أمراً وأراد السفر طلب معرفة مآله قبل إقدامه بالتفاؤل والتطير ، وإن بدأ ارتحاله وكان مبغضاً إلى زوجته قامت إلى النار فأوقدتها حتى تحول دون مآبه ، وإن كان عزيزاً عليها أثيراً عندها ، قبضت قبضة من أثر قدميه واحتفظت بها لديها حتى يعود إليها سراعا ، سالماً غانماً ..

وإن من أفدح أثقال الظلم أن نرى الرجل منهم يعمد إلى شجرة عند سفره فيعقد بين غصنين منها ؛ فإن عاد وكان الغصنان على حالها زعم أنّ زوجته لم تخنه ، وإن باعدت بينهما أو فصلتهما وفرقت بينهما يد عابثة مثلا زعم أنها قد خانته ، كأن عرض المرأة بل عرض القبيلة مرتهن بتشابك الغصنين أو زوال تشابكهما نتيجة لما قد يحدث لهما من مصادفات عند عصف الريح بهما أو عبث الأيدى عند تناولها أو إمساكهما أو لمسهما مما قد يُحدث التفريق بينهما .

ولقد كان الجاهليون يعرفون الخير والشر ، والحق والباطل ، ولكن هذه المعرفة كانت لديهم على تفاوت بين أفرادهم وجماعاتهم . . وكانت حياة الإنسان لا قيمة لها فى نظر من يقتله ، وقد يكون الشأن كذلك بالنسبة لغير القاتل إلا من ناحية الأخذ بالثأر .

---

(١) سنعرض فى الفصل التالى بالتفصيل لوثنية العرب ومذاهبهم الدينية باعتبارها مظهرا من مظاهر حياتهم الثقافية والعامية .

ولذلك كانت الحروب تكاد تكون دائمة بينهم . . وكان المعتدى الظالم يُنظر إليه فى كثير من الأحوال بعين الهيبة والاحترام .

وكان دم الحر أغلى من دم العبد . . . وكان الرق من نظام حياتهم الاقتصادية . . وكانت كرامة المرأة تهدر أحياناً . . وكانوا يعالجون القتل بالقتل والأخذ بالثأر ، ويرون فى الاكتفاء بأخذ الدية عاراً يجاب الخزى والمهانة ويدل على الجبن والخوف والصغار والذل . . . وكان تعدد الزوجات — بلا نهاية ولا حد — نظاماً معترفاً به ومقرراً لديهم ؛ إلى جانب التسرى وأخذ الأخدان ، والاستمتاع بمن ملكت أيمان الرجال واستباحة النساء الأسيرات والسبايا . . . وكان تعدد الزوجات عند بعض القبائل يُعتبر لوناً من ألوان العظمة والسيادة والرياسة .

ومن آثار عهد الأمومة لدى بعضهم ؛ تعدد الأزواج للمرأة الواحدة ، وجعل عصمة المرأة فى يدها ، وحقها فى أن تطلق نفسها من زوجها وأن تلد غلامها فى دار أبيها ، وكان طلاقهن أنهن يحولن أبواب بيوتهن ، فإن كان الباب إلى المشرق جعلته إلى المغرب ، وإن كان الباب إلى ناحية اليمين جعلته إلى ناحية الشمال ، فإن رأى رجلها ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها .

والعرب فى جاهليتهم — فيما عدا قريش قبل الإسلام — كانوا أمة حرب ونضال وثأر وانتقام وغزو وقتل فى سبيل السلب والنهب والسبي ، حتى ليمكن القول بأنهم استمروا فى حالة حروب متواصلة منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، وقد أمضوا هذه الحقب الطويلة الكثيرة فى مناضلة الفاتحين والمغيرين ومنابذتهم ، أو فى محاربة بعضهم بعضا .

وقد كان العرب مغرمين بشرب الراح ، وفى الشعر الجاهلى ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر ، وكان من عاداتهم

أن للرجل أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء له الهوى . . . وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ؛ ومن هنا نشأت الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب — مما حرمه الإسلام وعده زواجاً ممقوتاً .

ومما لاشك فيه أن الحجازيين من العرب عانوا فى وطنهم ما صبغ حياتهم الاجتماعية بصبغة تخالف صبغة أهل اليمن والحيرة والشام ؛ لأن الحجاز إقليم يخالف فى طبيعته تلك البلاد ، فلم تقم فيه حياة إجتماعية متحضرة كالتى قامت فى اليمن والعراق ؛ بل غلبت على أهله البداوة ، وما يتصل بها من أخلاق وعادات ، وقد قعدت طبيعة الحجاز بأهله عن مجاراة غيرهم فى الحياة الاجتماعية وصرفتهم إلى مقتضيات الحياة المادية ، فكانوا بدواً معاندين أميين ؛ ألِفوا الظّعن والارتحال، جفاة لا ينقادون إلى الحق من قريب، وهذه الفوضى الاجتماعية هى التى نعاها عليهم القرآن وعابهم بها .

ويكاد الإجماع يكون منعقداً على أن العرب قبل الإسلام كانوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للعلم ولا للتفكير الصحيح فيها ، وقد استمرت الأمة العربية فى جاهليتها ملازمة فى كل عهودها للحياة القبلية حتى ظهر الإسلام فوحد بينها وجعل منها أمة واحدة .

ولم يكن فى إمكان بداتهم أن يقيموا حضارة ومدنية . فالحضارة لا تكون بغير علم وثقافة . والمدنية لا تكون بغير أرزاق مضمونة ومعايش مكفولة فى أرض خصبة وأن يكون الشعب على نصيب من المعرفة والفطنة والسلوك الطيب والاستعداد للتقدم . . . وقد كان عرب الجاهلية البداة مضرب الأمثال فى الحمق وسوء الفعال . وكانوا من الفاقة وسوء الحال فى معظم أوقاتهم بحيث يتوالى الجدب والقحط على القبائل سنوات عدة حتى يكادوا يهلكون جوعاً وظمأً . .

وكانوا جناة يبغى بعضهم على بعض .. يقطعون الطريق ؛ ويسطون على الضعفاء فيسلبونهم أموالهم ، ويسبون نساءهم ..

أما بلاد اليمن السعيدة فقد قامت فيها حضارة ومدنية؛ لأنها كانت ذات خصب دائم وأنهار جارية وعيون متدفقة ومياه عذبة وجنات من نخيل وأعناب .

كان الجاهليون فى بواديهم بصفة عامة قساة خشنين قسوة البداوة وخشونة البيئة الصحراوية وكانت تنقصهم اليقظة العقلية . فلا يصحون من نومهم الفكرى ولا يستيقظون من ثباتهم الذهنى إلا فى حالتى حبهم وحربهم .. وهم إذا صحوا وأفاقوا حملوا سيوفهم ورماحهم وأدوات قتالهم وانطلقت ألسنتهم بما تجود به قرائحهم .. وهم فى حالتيهم مبالغون متطرفون جامحون لا يعرفون الهوادة ولا يسكنون إلى الأناة .. إنهم شديدو الاندفاع والحماس والانفعال إذا أحبوا أو حاربوا ، ولكنهم فيما عدا هاتين الخصلتين خامدون هامدون نائمون حالمون .

ولكنْ هؤلاء الهامدون الحالمون قد ميزتهم الطبيعة بموهبة نادرة المثال هى قوة الإرادة إلى الحد الذى يستهينون معه بالحياة ويسترخصون الموت فى سبيل الحفاظ على كراماتهم أو شرفهم أو أعراضهم أو عقائدهم . ولقد كانت أرزاق هؤلاء البدو فى ظلال رماحهم وسيوفهم .. وكانت البداوة والأمية أثيرتين عندهم إلى حدّ أن من كان منهم فى جوار الفرس والرومان وعلى تخومهم وواقعين تحت تأثيرهم أجيالا لم يأخذوا أخذهم فى العلوم والفنون . ولم يشتهر فيهم فلكى أو فيلسوف أو (فنان) موهوب أو مصنوع ، ولم يصلنا منهم ولو صفحة واحدة باللغة العربية عن حياة حضارية أو ظاهرة علمية ؛ حتى مما له علاقة بالدين وهو أوضح ما تهتم به الأمم القديمة ..

أما بقية العرب — غير المتاخمين للروم والفرس — وهم السواد الأعظم فى سائر الجزيرة فقد كانوا يعيشون على حالة من البداوة والأمية بأوسع معانى هاتين الـكلمتين من يوم أن خلقهم الله حتى البعثة المحمدية الإسلاميـة .

قال الله سبحانه وتعالى : « وما آتيْناهُم من كُتب يدْرُسُونَها وما أرسلنا إليهِم قبلَك من نذير » .

وقال : « أمْ لـكمُ كتابٌ فيه تدرُسُون » .

وقال : « هو الّذى بَعَث فى الأُمّيين رسولا منهم يَتْلو عليهم آياتِه ويزكّيهم ويعلّمُهمْ الـكتابَ والحـكمَةَ ؛ وإنْ كانوا مِنْ قبل لَفِى ضلالٍ مُبين »[1].

وكانت حياة البدو فى بواديهم القاحلة حياة جهاد وكفاح من أجل القوت كانت حياة حرمان وجوع وترصد وتربص واقتناص وسلب ونهب لسد الرمق وإطفاء نار الحـاجة الملحة والشهوة الجامحة . . فالبدوى يطارد الحياة فى سبيل الحياة حتى يبغته الموت . . وما شعر يوماً قط منذ مولده حتى وفاته بميل إلى

---

(١) ومن هنا جاءت أهمية الإسلام فإن عقيدة التوحيد والإيمان التى جاء بها هذا الدين القيم والتى انبعثت فى قلب تلك الجزيرة العربية بمكة ثم بالمدينة ؛ والتى آمن بها العرب بعد جهاد نبيها وصحابته وأنصاره وأتباعه فى سبيلها ، حتى كتب لها النصر والعزة . . هذه العقيدة أخرجت البدوى من غمده ، وأبرزته للعالم الخارجى إنسانا قويا فى نضاله وعلمه وفهمه وأدبه وفقهه وتقدمه وتطوره . . فقد علم وتعلم ، وحارب وسالم ، وتألم وتنعم ، وتهذب وتحضر ، وظعن وأقام ، وتثقف وتفقه ، ونثر وشعر ، وحكم وعدل ، وساد وأفاد وأنصف وجار ، وأغنى وأقنى ، وأفقر وأفنى ، وأحب وكره ، وخاصم وحالف . . الخ

السعى المطمئن فى طلب العيش ، أو يميل إلى العمل العقلى أو البحث العلمى والمجهود الذهنى مما يقتضى حياة الجلوس والاستقرار .. وإذا اتجهنا نحو الجانب العملى فى حياة البدو لا نجد شيئا يحركهم ويستحثهم فى الحياة سوى الانفعال بحب المرأة ، أو الانشغال بالحرب وقتال الأعداء ، أو بإفراغ تجاربهم وعواطفهم وأحاسيسهم فى ذلك الشعر الغنائى الذى يصورون فيه اعتلاء صهوات جيادهم العتاق ، وإعمال سيوفهم البتارة وتسديد رماحهم المشرعة ، وتصويب سهامهم المراشة إلى غاياتها فى الصيد أو النزال والجلاد ، وحبك الشباك والحبائل لاصطياد الوحوش الضارية واتقاء أضرارها وأخطارها ، ودرء الطوارىء والعوادى عن حريمهم وعيالهم وحماية ذمارهم .. حياة معظمها مغامرة ومجازفة وصراع عنيف .. حياة جد لاهثة ، والقليل منها تشوبه مايشبه الهناءة الطارئة ، وافتناص الفرصة بالسعادة السانحة ؛ ولكنها غير غامرة ..

وقد لا ينام البدوى فى جو خيمته القاتم إلا ريثما تغمض عينه ويأخذ الكرى بمعاقد أجفانه ، فإذا بخطر داهم يحفزه للنهوض والدفاع عن نفسه وذويه .. كل ما يكنف البدو ويحيط بهم من الأجواء ، إنما هى قتام ملبد بالأحقاد والشهوات والزيغ والنزوات ، والاستهانة بمقومات الحياة مع الحرص على البقاء وامتداد الأجل ، والكفاح المرير فى سبيل القوت للإنسان وأنعامه ، والأثرة والقسوة التى بلغت حد الجنون فى وأد البنات ودفن الأحياء .

ويلوح لنا أن جنايات القتل والسرقة بالإكراه كالتى كان يقترفها تأبط شراً وسليك بن السلكة وغيرهما من طغاة القبائل وغربانها وذؤبانها ، لم تكن شائنة لدى البدو ، بل ربما كانت ترفع من أقدار هؤلاء الجناة فى نظر القبيلة كما هى الحال فى الجماعات الفطرية أو القريبة من الوحشية .

وفى الشعر العربى القديم مثل المعلقات ومختارات ديوان الحماسة لأبى تمام ومختارات ابن الشجرى والمفضليات للضبى وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى وأمثال ذلك شاهد عدل على هذه الصور التى رسمناها وأومأنا إليها فيما سلف .

وفى العرب البداة نماذج من البشر لا تكون إلا ثمرة التفرد والوحدة يسمونهم شياطين العرب كتأبط شراً وسليك بن السلكة والشنفرى وسواهم .. ومع وجود هذه النماذج المعدودة ، فإن العربى بصفة عامة كان بطبيعة حياته الاجتماعية مرغماً على مبدأ التماسك والاعتزاز بالانتساب إلى فخذ ، أو بطن ، أو عشيرة ، أو قبيلة ؛ ولم يكن فى كل حالاته معتزاً بوحدته ومفتخراً بنفسه وحده وإنما كان جل اعتزازه وافتخاره بقومه وذويه .

ولم يكن الجاهليون يعرفون شيئاً عن « الديمقراطية » فى مجالهم القبلى أو محيطهم الأعم الأشمل ، بالمعنى الذى نعرفه اليوم أو الذى كان يعرفه الإغريق القدامى المعاصرون لهم . . . ففى تاريخ عنترة — مثلا — أن أباه كان ينكره ولا يدعوه ابناً له ؛ أنفةً منه ، لأنه أسود اللون ابن أمة سوداء — هى زبيبة — وأبقاه عنده بمنزلة العبد . . وقد كان العرب فى الجاهلية إذا ولد لأحدهم ولد من أَمَةٍ استعبده ، فإن أظهر نجابة وتفوقاً اعترف به وألحقه بنسبه . . وفى شعر عنترة ما يدل على تعصب الجاهلية ضد الألوان ، وأن اللون الأسود كان يدعو إلى تجهيل النسب وإذلال ذلك الولد الأسود ، وكانت العبودية والاسترقاق مقترنتين بالسواد ، حتى إن العرب كانت تعنى بالعبد أنه الأسود ولو كان حراً ، ولا تعنى به أنه رقيق مستعبد ، وجعلوا العبد الحبشى (لأنه أسود) فى آخر درجات السلم الاجتماعى ، ونلمح ذلك الوضع لديهم من الحديث القدسى « من عصانى أدخلته النار ولو كان شريفاً قرشيًّا ، ومن أطاعنى أدخلته الجنة ولو كان عبداً حبشيا » أى ولو كان ذا لون أسود .

ومن أغربة العرب فى الجاهلية : خفاف بن عمر الشريدى وأمه ندبة ، والسليك السعدى بن السلكة .

ولم يكن ثمة بين الشعوب القديمة من يكاد يدانى العربى البدوى فى شجاعته حيال الموت ، واستصغاره لشأن الكوارث التى تحل بساكن الصحراء . . أو من يكاد يتجاوزه فى قدر استبساله من أجل تحقيق غايته التى فى سبيلها قد يلقى الردى وكأنه يلهو ويلعب . . فوق ما يمتاز به هذا البدوى من ذهن ألمعىّ ، ومزاج قوى ، وإرادة صلبة ، وثقة شديدة بالنفس ، واقتدار على تبرير الأعمال التى يزاولها ويقتنع بصحتها ، وأثرته التى هى من مميزات فرديته أو حياته القبلية . . وغير ذلك من الصفات التى تمهد له طريق الوصول لأعمال تحتاج إلى الجرأة والجلد والمضاء والعزم والقوة والإقدام .

أما عن مدى فهمه للعلوم وتشوقه للثقافات والمعارف وطاقاته الفلسفية ، فإن عقله فى قصور وعجز عن التعمق المعرفى والإدراك الفلسفى ، فرأسه مشغولة بآرائه وليس فيها من الفراغ الذهنى ما يمكنه من الخلاص من نفسه وذاتيته ليقبض على الفكر الخالص أو يفرق بين فرديته وما يحيق به من أسرار الكون ، ومن هنا كان عجزه عن فهم الطبيعة على حقيقتها .

ولم يكلف البدوى نفسه مشقة الدرس والبحث لتفهم قوانين الطبيعة الأزلية الخالدة . . فجاءت مجهوداته الذهنية التى خلق بها أدبه تحمل طابع التعبير عن ذاتيته ، وقد أدمج فيه شئون حياته الخارجية ، واستعصى عليه أن يواجه فيه حقائق الطبيعة وأسرار الكون وأوضاع الحياة بطريقة محسوسة تنبىء عن استبصار ذهنى وانفتاح عقلى .

وقد انتجت الحالة الاجتماعية وظروف الحياة المعيشية فى جزيرة العرب هذا النظام الخاص لتلك الظاهرة الاجتماعية ظاهرة الفتوة والصعلكة . . فقد كان لدى الجاهليين نوعان من الشباب : الأولون يمثلون الفتوة والآخرون يمثلون الصعاليك . .

والفتوة فى عرفهم تقوم على السخاء والكرم والحرية المطلقة وإتلاف المال فى الجد والهزل وعدم الاعتداد بالحياة فى السلم والحرب . . والفتيان إنما يكونون من (أبناء الذوات) وأولاد الأصول العريقة والسادة المرموقين مكانة كطرفة بن العبد، وامرىء القيس . . وكانت جماعات الفتيان يعيشون عيشة إباحية فيها خمر، وفيها غناء، وفيها نساء، وهم مع ذلك كرام، يكرمون كل من ينزل بساحهم من الضيفان ويغدقون عليهم من خيرهم وطعامهم وشرابهم ومتعهم . وقد صور طرفه فى معلقته مثلا من أمثلة الفتوة فى الحياة الجاهلية إذ يقول :

إذا القــومُ قالوا من فتًى ؟ خِلْتُ أنّنى
عُنيتُ فلم أكسَـــلْ ولم أتبلّدِ
أحلْتُ عليها بالقَطيــع فأجْذَمَتْ
وقد خبَّ آلُ الأمْـعَزِ المتـوقّـدِ[1]
فذالت كما ذالت وَلِيـــدَة مجْلس
تُرِى رَبّها أذيالَ سَـــحْلٍ مُمَدَّدِ[2]
ولستُ بحـــلّال التّــلاع مخافةً
ولكــنْ مــتى يَسْـتَرفِدِ القومُ أرْفِدِ[3]

---

(١) أحلت : أقبلت . القطيع السوط . أجذمت : أسرعت فى السير . الآل : ما يشبه السراب طرفى النهار ، والسراب ماكان نصف النهار . الأمعز : مكان يخالط ترابه حجارة وحصى

(٢) ذالت : تبخترت فى مشيها . الوليدة : الصبية والجارية . السحل : الثوب الأبيض من القطن ونحوه

(٣) الحلال : مبالغة الحالّ من الحلول . والتلاع جمع تلعة وهى ماارتفع من مسيل الماء وانخفض عن الجبال أو قرار الأرض وتجمع على تلعات أيضا . أرفد من الرفد والإرفاد بمعنى الإعانة ، والاسترفاد الاستعانة

فإنْ تَبغِنِى فى حَلْقَة القَوْم تَلْقَنِى
وإنْ تَلتَمِسْنِى فى الحوانيت تَصْطَدِ[1]

وإن يَلْتَقِ الحىّ الجَمِيعُ تُلاقِنِى
إلى ذِرْوَةِ البيت الشَّرِيف المصَمَّدِ[2]

والفتى من صفاته أيضاً أن يكون سمح الخصال موطأ الأكناف، يتناهى فى الحلاوة إن استدعته الظروف ذلك .. وأن يكون مراً صعباً صارماً إن استدعى الأمر ذلك .. وأن يأمر بالرشاد أحياناً وبالغى أحياناً يكون، مثله كما قال الشاعر :—

مِن الفِتْيان مَحْلُولٌ مُمِرٌّ وأمَّارٌ بإرْشادٍ وغَىٍّ[3]

أما الصعلكة، فهى مساوية للفقر والفاقة، والصعاليك شباب من (أبناء الفقراء)، ولكنهم ليسوا بأخسَّة فى الطباع، فهم لا يهجمون إلا على الأشحاء البخلاء من الأغنياء . فإذا وجدوا غنياً كريماً تركوه، وإن وجدوا غنياً شحيحاً هاجموه، . وأما فقراء القوم فهم بمنجاة من جرائرهم وسطوهم .. إنهم لصوص شرفاء من الشبان الفقراء، أمثال عروة بن الورد، وتأبط شرا، والسليك بن السلكة، والشنفرى .. ويسمون أيضاً ذؤبان العرب جمع ذئب، لأنهم يختطفون المال كما تختطف الذئاب معايشها .. ويسمون كذلك العدائين ؛ لأنهم كانوا مشهورين بسرعة العدو فى السلب والنهب .

فالحياة الجاهلية على ماترى كان فيها نوعان من الشباب : الفتيان، والصعاليك

(١) تبغنى : تطلبنى . الحوانيت : جمع حانوت وهو بيت الخمار
(٢) المصمد : أى المقصود لقضاء الحوائج
(٣) محلول : حلو . ممر : أى مر . أمار اسم مبالغة من الآمر . غى : هوى وباطل .

وتجمعهما جامعة الشباب والنجدة ،وهم يشتركون فى الكرم والحياة الشاردة الجامحة .. ولكنهم يختلفون فى الظروف الاقتصادية ، والفتيان أبناء سادة وحياتهم حياة دعة واستمتاع .. أما الصعاليك فمفلوكون أبناء عفاة ، حياتهم خشنة وظروفهم قاسية .. وثمة فرق آخر ، وهو أن الفتيان يعطون مايعطون وهم مترفعون ، والصعاليك يعطون ما يعطون وهم يستشعرون حاجة زملائهم الفقراء ، ويشاركونهم مشاركة وجدانية . ويعتقدون أنهم أمثالهم على سواء فى الحاجة والفقر وطلب القوت ..-أى أن الصعاليك كانوا يعطون مايعطون أداء لمايرونه واجبًا ، والفتيان كانوا يعطون مايعطون عطفًا وتفضلا .. ومهما يكن من شأن اختلافهما فالأساس فيهما متوحد الدعائم . لأن الفتوة يقوم بناؤها على الكرم مع النجدة ، والصعلكة كذلك يقوم بناؤها على الكرم مع النجدة .

ومن الصعاليك مَلحىّ ملعون مذموم حتى من قرنائه وفى هذا النوع يقول عروة بن الورد :

لَحى الله صعلوكًا إذا جنّ ليلُه   مُصافى المشاش آلِفًا كلَّ مَجْزر (١)

يعدّ الغنى من دهرِه كل ليلةٍ   أصاب قراها من صديق ميسَّر (٢)

---

(١) لحى : لعن . والمشاش رأس العظم اللين ، ومصافى المشاش مفضله وملازمه وعاقد عقد الألفة بينه وبينه والمعنى : لعن الله صعلوكا حقير النفس إذا أظلم ليله تحسس سقطا لطعام ، ولازم مكانه لا يبارحه

(٢) أى أن هذا الصعلوك إذا أصاب الضيافة من صديق غنى حسب ذلك من نفسه غنى ، أى أنه يرضى من عيشه بقرى ليلة من صديق

ينام عشاء ، ثم يصبح طاويا يحت الحصا عن جنبه المتعفر (١)
قليل التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجور (٢)
يعين نساء الحي ما يستعنه فيضحي طليحاً كالبعير المحسر (٣)

ويقول فيه حاتم الطائي :

لحى الله صعلوكا مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما (٤)
ينام الضحى حتى إذا الليل جنه تنبه مثلوج الفؤاد مورما (٥)
مقيماً مع المثرين ليس ببارح إذا نال جدوى من طعام ومجثما (٦)

ومنهم صعلوك محمود ينظر إليه بعين التجلة والاحترام من مجتمعه . . وفى مثله يقول عروة الصعاليك :

ولله صعلوك صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٧)
مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر (٨)

---

(١) يحت الحصا أى يفركه عن جسمه ، وهذا علامة خموله ودناءة همته ، فهو كثير النوم لا يسعى لرزقه

(٢) أى أنه إذا أمسى وشبع بطنه مما أعطاه الناس سقط على الأرض من التخمة كالكوخ الذى يتداعى ويسقط . والمجور الساقط

(٣) أى يقضى نهاره فى خدمة النساء والأعمال الوضيعة فيكون كالبعير الكليل

(٤) يلقى لبوساً ومطعما : أى يجد ما يلبسه ويأكله

(٥) مثلوج الفؤاد أى بارد القلب بليدا ، وموزما منتفخا من عدم إحساسه بتحمل مسئولية نفسه

(٦) جدوى فائدة ، ومجثما مكانا يقيم فيه

(٧) القابس طالب النار ، والمتنور الذى يطلب النار من بعيد

(٨) مطلا أى مشرفا على أعدائه يغزوهم فيزجرونه ويصيحون به كما يصيحون بقداح الميسر عند اللعب ليبعدوه

فإن بعدوا لا يأمنون اقترابه   تشوّف أهل الغائب المتنظر [1]
فذلك إن يلقَ المنيّة يلقها   حميداً ، وإن يستغنِ يوماً فأَجْدِرِ [2]

ويقول فى مثله حاتم :

ولكنّ صعلوكا يساورُ همّهُ   ويمضى على الهيجاء لَيْثاً مصمّما [3]
إذا مارأى يوماً مكارمَ أعرضَتْ   تيمّم كُبْراهُنَّ ثمّتَ صمّما [4]
فذلك إنْ يلقَ المنيَّة يلْقَهَا   حميداً ، وإنْ يستغن يوما فربَّما [5]

ومن صفات الصعلوك المحمود ؛ أن يفتدى لضر عدوّ أو لنفع صديق وأن يدرك الشرف ؛ مع أن رِداءه خَلِق وجيب قميصه مرقوع .

وقد تجنب الصعاليك أن يقعوا فى الخطأ الذى وقع فيه الأشحاء من الأغنياء ففرضوا على أنفسهم أن يفرقوا بينهمُ — معاشر الصعاليك والفقراء — ما جمعوه على سواء متحرين العدالة فى القسمة والتوزيع ، حتى لا يكون ثمة رئيس ولا مرءوس ، ولا غنى ولا فقير فكان مجتمعهم الخاص بهم مجتمعاً اشتراكياً تُطبق فيه قواعد العدالة .

وقد كثر عدد الصعاليك بسبب خروج بعض الأفراد على قبائلهم نتيجة لارتكاب جريمة من الجرائم لا ترضى عنها القبيلة فتخلعهم ، فلا يجدون

---

(١) أى إن بعد أعداؤه عنه لم يهملهم ولا يأمنون هجومه واقترابه منهم فهو فى لهفة على طلبهم كلهفة أهل الغائب وترقبهم عودته

(٢) أى إن يمت يمت حميدا ، وإن عاش واستغنى فما أجدره بالغنى لأنه ينفقه فى المحامد

(٣) يساور همه أى يواتيه ويدافعه

(٤) تيمم قصد وتعمد

(٥) فربما يعنى فربما حمد يوما أمره

أمامهم غير الصعلكة يداوون بها خلعهم ، وقد سموا لذلك بالخلعاء ، ومن أمثالهم : قيس بن الحدادية الذى خلعته قبيلته « خزاعة » وأبو الطمحان القينى وغيرهما . . وقد يلجأ الخليع إلى قبيلة أخرى ليكون فى حمايتها بعدما لفظه قومه ونبذوه .

ويعد عروة بن الورد رأس الصعاليك فى الجاهلية والمقدم عليهم[1] كان يتغنى بالصعلكة ، وينهى امرأته عن الاعتراض عليه وانتقاده فى مسلكه ، فهو إذا خرج للقتال لايصح لها أن تعترضه ، وإذا حصل على مال أو انتهبه وأراد أن يوزعه على الصعاليك أمثاله لا يرضى لها أن تلومه أو تراجعه وتعترض عليه كذلك . . وأكبر مزاياه أنه كان يشعر بالناس من حوله أكثر مما يشعر بنفسه ، وهو القائل :

أقسم نَفْسى فى جُسوم كثيرة   وأَحْسُو قَراحَ الماء والماء باردُ[2]

أما الشنفرى وهو ثانى الصعاليك المشهورين فإنه كان يصور فى صعلكته معنى الشجاعة والسلب والنهب ، بينما كان صاحبه عروة فى صعلكته المعنى الإنسانى أى أن عروة كان يمثل غاية الصعلكة ، أما الشنفرى[3] ، فقد كان يمثل وسيلتها . . وقد فقد الشنفرى توازنه الاجتماعى مع قبيلته حتى صار لايقام له وزن ، ويذكر فى شعره فقره وهزاله ونعايه المرقتين وثيابه البالية المهلهلة وحمله قربة الماء وتشرده فى الصحراء بين الوديان حيث

(١) روى أن معاوية بن أبى سفيان تمنى أن يصاهر عروة ، وأن عبد الملك بن مروان تمنى أن يلده عروة ، وهما من هما .

(٢) أقسم حطامى على الناس وأكتفى بالماء الخالص غير الممزوج باللبن فى الشتاء حيث الجسم أحوج إلى الغذاء .

(٣) سمى باسم الشنفرى لغلظ شفتيه .

تتجاوَب الجن . . كان شعر الشنفرى أكثره فى نفسه وكان شعر عروة أكثره فى غيره .

ومن شعر الشنفرى قصيدته المشهورة المعروفة بلامية العرب [1] التى يقول فيها :

أقيموا بنى أُمىّ صدورَ مطيَّكم فإنى إلى قوم سـواكم لأمْـيَل [2]
فلِي دونـكم أهلونَ : سِيدٌ عملَّس وارقطُ زُهْلول ،وعَرْفاء جَيْـئَل [3]
همُ الأهلُ ،لامُستودَع السّر ذائع لديهم ،ولا الجانى بما جرَّ يُخذلُ [4]

ومن قوله يصف نفسه :

قليل غِرار النوم أكبرُ همّه دمُ الثأر أو يَلْقَى كمِيًا مُسَفّعا [5]
قليـل ادخار الزاد إلا تعلة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا [6]

ومن شعر تأبّط شرا — وهو من مشاهير الصعاليك — قوله يصف نفسه .

---

(١) للطفرائى لامية قالها على شاكلة لامية الشنفرى وتسمى لامية العجم

(٢) أقيموا صدور مطيكم أى تهيئوا لمفارقتى والرحيل عنى

(٣) السيد بالكسر الأسد والذئب . العملس : الخبيث الجرىء الأرقط : يعنى النمر . الزهلول : الأملس . والعرفاء يعنى الضبع الجيئل التى تضلع فى مجيئها وعند مشيها

(٤) يخذل بالبناء للمجهول أى يتخلى عنه نصراؤه

(٥) غرار النوم قليله . الكمى : المحارب الشجاع . مسفعا : أى مطاردا

(٦) التعلة والعلالة ما يعتل به من قليل الطعام أو الشراب . نشز : ارتفع . الشرسوف : طرف الضلع المشرف على البطن .

شامسٌ فى القرّ حتى إذا ما ذكت الشعرى فبرد وظل[1]
يابس الجنبين من غير بؤس ونَدِى الكفين ، شهم مدل[2]
ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما حلّ حلّ الحزمُ حيث يحل[3]
غيثُ مزن غامر حيث يُجدى وإذا يسطو فليثٌ أبلّ[4]
مُسْبل فى الحىّ ، أحوى رِفلٌ وإذا يغزو فسِمعٌ أزَلّ[5]
وله طعمان أرْىٌ وشرىٌ وكلا الطعمين قد ذاق كلّ[6]

وفى هذه الأبيات وصف لكل صعلوك كبير . وقد أعجب بها الشاعر الألمانى « جوته » فترجمها إلى الألمانية .

وشعر الصعاليك كثير ، بعضه فى أشخاصهم وبؤسهم وبعضه فى إنسانيتهم وهو بنوعيه يصور لنا جانباً كبيراً من جوانب الحياة العربية الجاهلية . وربما كان من سماته وظاهراته أن أكثره مقطوعات لا قصائد مطولة — عدا لامية الشنفرى — وذلك مما يتواءم مع طريقتهم فى الخطف ... مواقفهم فى حروبهم خاطفة ، وخاطراتهم ونظراتهم الشعرية خاطفة . . ولهم فى شعرهم خواص أخرى منها : وحدة الموضوع ، والواقعية التى ألجأتهم إليها حياة السطو

(١) شامس : ممتنع شديد العداوة — القر : البرد . ذكت النار اشتد لهيبها .
(٢) ندى الكفين أى جواد كريم .
(٣) ظاعن : مسافر . حل بمعنى أقام واستقر .
(٤) مزن غامر : مطر كثير . يجدى يفيد وينفع . ليث أبل أى سبع ضار شديد ممتنع ألد
(٥) الأحوى : الأسود . الرفل : الواسع الثوب . السمع : ولد الذئب من الضبع . الأزل : السريع .
(٦) الأرى : عسل النحل . الشرى : الحنظل .

والسلب والنهب والتوزيع . وتجافيهم فيه عن مواقف الحب والغزل فقلما نجد ذلك فى شعرهم بل نجد فيه توجيه الخطاب إلى زوجاتهم ، وتنبيههن إلى عدم العتب عليهم فى سلوكهم وسيرتهم . . ونلاحظ فى شعرهم — أيضاً — التدفق والسرعة لأنهم عداءون يعدون بسيقانهم ويعدون فى أشعارهم . . وعلى الجملة كانوا فى شعرهم خير مثال لتصوير حياتهم فى بساطة وإخلاص .

ولولا الفتوة ونظام الصعلكة — ونعنى بها الصعلكة الشريفة النابهة — ماقام حلف الفضول الذى يستوجب تحقيق العدالة والتآسى فى المعايش والانتصاف للمظلوم من الظالم مهما يكن قوياً أو عزيز الجانب . . فقد جاء فى الروض الأنف للسهيلى : أنه حلف عقدته قريش بينها على نصرة كل مظلوم بمكة ، وقال ابن قتيبة إنه قد سبق قريشاً إلى مثل هذا الحلف جرهم فى الزمن الأول فتحالف منهم ثلاثة وهم : الفضل بن فضالة ، والفضل بن وداعة ، وفضيل بن الحارث ومن أجل تسميتهم كلهم بالفضل والفضيل سمى حلفهم بحلف الفضول ، وقد سمى حلف القرشين بهذا الاسم إحياء له . . ودليل اتصال حلف الفضول القرشى بالصعلكة أن عبد الله بن جدعان الذى عُقد الحلف بداره كان من الصعاليك النبلاء وكان معروفاً بإطعام الطعام وتفريق الأكل على الناس ، ففعاله فعال الخيار .

ثالثاً : مكة وقريش : —

مكة أكبر مدن الحجاز ومن أهم العواصم العربية القديمة ، وتبعد عن جدة بنحو خمسة وأربعين ميلا إلى الشرق ... وقد نشأت لأول عهدها لأن إبراهيم الخليل عليه السلام بأمر من ربه — سبحانه وتعالى — أسكن بها زوجته هاجر

وولدهما إسماعيل بواديها ذلك الوادى الضيق المجدب المحصور بين سلسلة جبلية، وشاطىء بحر عظيم، وهناك تأسست أسرة فقبيلة فدولة فدين لحضارة ..

نشأت مكة ببقعة من أعظم البقاع فى الجزيرة، وأصلدها صخراً، وأشدها قيظاً، وأحرقها شمساً ... جدباء قحلاء جرداء .. تحيطها تلال وهضاب ووهاد ونجاد، وقد حصنتها الطبيعة بالجبال والمفاوز .. وهى فى مركز الاتصال بين تهامة ونجد، أى ما بين الأرض المنخفضة على شاطىء البحر الأحمر (بحر القلزم) وبين قلب الجزيرة ووسطها . . وبذلك فقد فاقت فى موضعها الجغرافىّ جارتها وضرتها « الطائف » التى كانت تزاحمها فى القبض على زمام النقل والتجارة، ثم انهزمت أمامها على الرغم من خصبها وبساتينها وحدائقها وأعنابها وكرومها وخضرتها ومائها، فسلمت لها القياد، وأمست لها كالتابع للمتبوع. وقد كرت الأجيال والطائف فى مكانها على طريق اليمن ونجد ؛ ولكنها غير متصلة بتهامة، فهى تربط بين الشمال والجنوب من وراء حجاب، ولا تتصل بشاطىء البحر الذى يربط مكة بالشرق الأدنى والأقصى، وأما مكة فقد كانت محط رجال القوافل التى اعتادت أن تعود من رحلتى : الشتاء جنوباً، والصيف شمالاً ؛ بما خف حمله وغلا ثمنه .

وكانت مكة فى الجاهلية — وهى ما تزال — حرماً آمناً لكل من يهوى إليها، ولم يكن هذا البلد محرماً وكعبتها مقدسة فى نظر قبيلة واحدة كقريش أو جرهم أو العماليق، بل كانت تلك القداسة مستقرة فى أذهان مئات القبائل والعشائر والفصائل العربية، وتتجلى مظاهرها كل عام فى سلسلة من الحفلات والمواسم والأعياد والأسواق تقام كلها فى بطحاء مكة وظواهرها .. وفيها تمتزج المواسم الدينية ذات الشعائر والمراسيم ؛ بالتجارة والمساومة والبيع والشراء وعرض السلع وتداولها .. وكان للأدب مجال غير مضاع فى تلك المواسم،

فطالما خطب الخطباء وأنشد الشعراء ونطق الحكماء فى تلك الأسواق التى كانت فيها مواقف أشبه بمحافل العلم والأدب ، ومن أهمها عكاظ وذو المجاز ، ولكنها كانت مظاهر فطرية .. ومواقف بدائية .. وكان البدو يفدون بسلعهم — من الأدم ، وثمرات النخيل والأعناب ، وغيرها من بضائعهم وعروضهم التجارية — على أسواق مكة للبيع والشراء .. وكان المكيون أهل حذق وحرص ولباقة ، فيكرمون ضيوفهم وعملاءهم ، ويقيمون الولائم لهم ، وينصبون الجفان ، ويذبحون الذبائح ، ويشترون من البدو بضائعهم ، ويبيعونهم ما تجلبه قوافلهم المكية من الشام والحبشة واليمن .. فصار المكيون بذلك سادة التجارة فى الجزيرة ، وكان هذا الاستغلال هو ميزتهم التى امتازوا بها .

أما عن تقدير الزمن الذى تأسست فيه مكة كمدينة عامرة فإن بعض الباحثين يرون أن تأسيسها سابق على الإسلام بنحو ألف عام على الأقل[1]،

(١) كان حلول إبراهيم الخليل عليه السلام أرض الحجاز ، وتخليفه ولده وأمه هاجر بذلك الوادى القفر — واد غير ذى زرع — ثم تردده على بطحاء مكة لزيارة ابنه ، ثم بناؤهما للبيت الحرام بمكة ، وجعلهما إياه حرما آمنا محجوجا ومعبدا لدين التوحيد الذى جاهر به إبراهيم بعد أن أوذى فى سبيله ببابل .. كان ذلك كله عاملا فى نشأة مكة وقيامها . وقد ماتت هاجر قبل بناء الكعبة فلم تعاصر إنشاءها ، وكان عمر إسماعيل عند رفع قواعدها وإقامتها عشرين سنة كاملة .. وكانت رسالة إسماعيل إلى جرهم ، وهم العرب الذين صاهرهم وإلى العماليق الذين خالطهم بمكة . . فهو نبى محلى لا تعميم لرسالته . . ومثله فى ذلك هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود . . وكل هذه القبائل التى بعث فيها إسماعيل وهود وصالح كانوا غارقين فى الضلال والجهالة .

وذلك بالنظر فى أنظمتهم الاقتصادية والاجتماعية ودرجة الثقافة التى وصلوا إليها .. وفى مدى هذه القرون العشرة أو زهاءها تمكنت القبائل التى استقرت فيها وعمرتها من تكوين مظاهر حياتهم المادية والروحية ؛ فجعلوا الكعبة معبداً ومعرضاً لأصنامهم ، وجعلوا بلدهم سوقاً ناشطة بالتجارة وتحقيق المنافع والمكاسب .

وقد آوت إلى مكة منذ نشأتها بضع قبائل بعد أن تعبت من حياة التنقل والترحال ، وتطلعت إلى السكون والاستقرار فلجأت إلى تلك البقعة المقدسة من الأرض التى كانت وسطاً بين السهل والوعر ، والبر والبحر ، ولم تستطع تلك القبائل أن تأوى إلى مكة فى أكثر من فصلين فى العام ؛ هما الربيع والخريف .. أما الشتاء فكانت تلك القبائل الحديثة العهد بسكنى « الجدار » تقضيه فى جدة على شاطىء البحر ، كما كانت تقضى فصل الصيف فى واحة الطائف ، وقد اختارت تلك القبائل الإقامة فى مكة لأنها كانت مدينة عريقة فى قدسيتها ببناء الكعبة التى رفع دعائمها إبراهيم وإسماعيل ، كما كانت سوقاً زاخرة بالبضائع التى تفد عليها من أنحاء العالم كالهند وفارس والصين والشام ومصر ... وبعد أن حامت القبائل حول الكعبة وطافت بذلك البيت العتيق بدأ سراة المقيمين يبنون بيوتاً بالحجارة والآجر ، وقد استعمروا ذلك الوادى ، وهم يعلمون أنه غير ذى زرع ، وأنهم لن يستثمروا فيه مرعى أو زرعاً يقوم بأودهم أو يغذى أبدانهم وأنعامهم ، وأن ماءه المستنبط نادر وليس بالعذب ، ولا اعتماد لهم إلا على ماء المطر ، لكنهم أنسوا من أنفسهم القدرة على الكسب من غير الزرع والضرع ، وتدربوا فى الأسواق على مبادى التجارة وهى آخر درجة فى سلم الحياة الاقتصادية ، ومن الغريب أن تظهر التجارة فى بلد لم يتقن ذووه زراعة

ولا صناعة وهما الخطوتان السابقتان للتجارة ، ولكن الكعبة وجعلها محط رحال الحجيج والزائرين من سائر الأقطار هى التى ساعدت على النمو التجارى.

وكانوا يعمدون فى استيراد حاجاتهم لخبزهم من اليمامة فى الشمال الشرقى ، فلم يعهد عنهم أنهم زرعوا قمحاً أو شعيراً أو عدساً أو فولا .

وكان العماليق من أول القبائل التى وليت الحكم بمكة ، وقد هاجروا إليها من الجنوب ، ولكنهم ضيعوا حرمة البيت واستحلوا فيه أموراً عظاما ، فأدال الله منهم ، ورجعوا إلى موطنهم ، وتبددوا بأسباب اقتصادية ، ولم يكونوا صالحين لاستعمار الحجاز .. وقد كانت قبيلتا : جرهم[1] وقطور قد أجدبت بلادهم عليهم ، فخرجوا سيارة من اليمن ، وساروا بذراريهم ونعمهم وأموالهم وقدموا مكة ، فأقاموا مع العماليق .. وكان لا يخرج من اليمن قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم ، وكان ذلك سنّة فيهم ، ولو كانوا نفراً يسيراً ، فكان مضاض بن عمرو ملكا لجرهم ، وكان السميدع ملكا لقطور — والمقصود بالملك فى لغة القوم آنئذ ؛ زعيم القبيلة ورئيسها — فنزل مضاض بن عمرو أعلا مكة ، وصار يجمع العشور ممن يدخلها من أعلاها ، وجعل فى حوزته الكعبة وموضع زمزم.. أما السميدع فقد استقر هو وقومه بأسفل مكة .

ثم إن جرهما وقطورا كثروا على العماليق ، ثم أخرجوهم من الحرم . وأصهر إسماعيل إلى قبيلة جرهم ، وتزوج للمرة الأولى من عمارة بنت سعيد بن أسامة أحد أعيان قبيلة جرهم .. ثم تزوج للمرة الثانية من زوجته رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، ورزق منها اثنى عشر ولداً ؛ منهم نابت وقيدار وقد كان إسماعيل خليفة لأبيه فى ملة الحنيفية ونبياً لجرهم والعماليق .

---

(١) من أشخاص قبيلة جرهم التاريخيين : جرهم ، وعبد ياليل وخشرم ، وعبد المدان ، وثهيلة .

ولما مات إسماعيل فى سن متقدمة جداً ولى البيت بعده ابنه نابت ، ونُشر العرب من نابت وأخيه قيدار .. ومات نابت فى حياة جده مضاض بن عمرو الجرهمى ، فضم الجد إليه بنى نابت حفدته وبنى قومه جرهم وصار ملكا عليهم ، ونازعه السميدع على الملك ولكنه باء بالفشل .

ولم يزل أمر جرهم يعظم بمكة ، حتى أصبحوا ولاة البيت .. ثم أحدثوا فيه أحداثاً ، وطغوا فيه وبغوا ، وأكلوا مال الكعبة . ولما رأى مضاض بن عمرو ما يعمل قومه فى الحرم وما يسرقون من مال الكعبة سراً وعلانية عمد إلى غزالين من ذهب كانا فى الكعبة فدفنهما مع أسياف فى بئر زمزم ، وكان ماؤها قد نضب ومعينها قد غاض ، وذلك خوفا على الغزالين والأسياف من السرقة[1] .

ثم هبط مكة قبيلة قادمة من الجنوب على رأسها عمرو بن عامر بن حارثة بعد خراب سد مأرب .. ففاوض الجرهميين على الإقامة ببلدهم ريثما يستريح قومه ، وحتى يعود إليه رسله الذين بعث بهم ليرتادوا له أماكن فى الشام والشرق تصلح لهجرتهم ، فأبت جرهم أن يقيموا معهم ، وانتهى الأمر فيما بينهم بالقتال ثلاثة أيام ، فانهزمت جرهم ، واعتزل مضاض الجرهمى قومه ، ورحل هو وولده عن مكة ، واستتب الأمر فيها لثعلبة بن عامر وقبيلته فأقاموا بها وما حولها عاماً ، فانتشرت بينهم الحُمّى ، فخرج منهم جماعات من مكة .. وقصد فريق منهم عمان وهم أزدعمان ، وسار فريق آخر إلى وادى الأراك من بطن مر ، وخرج فريق ثالث إلى يثرب وهم الأوس والخزرج ، ورحل فريق رابع إلى بصرى وعوير بالشام وهم آل جفنة من غسان ، ورحل فريق خامس إلى بلاد

(١) هذان الغزالان وتلك الأسياف هى التى عثر عليها عبد المطلب عند حفر زمزم

العراق وهم آل جذيمة الأبرش وآل محرق .. ولم يبق من القوم بمكه إلا خزاعة التى انخزعت وأقامت بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عمر بن عامر وهو لُحَىّ ، فولى أمر مكة وحجابة الكعبة ، وكان من أولاده عمرو ابن لُحَىّ الذى أدخل عبادة الأوثان إلى جزيرة العرب .

ولما تولت جزاعة أمر مكة وصاروا أهلها ظهر بنو إسماعيل — وكانوا قلة — وقد كانوا على الحياد فى أثناء الحرب التى وقعت بين جرهم وقوم عمرو بن عامر الذين منهم خزاعة ، فلم يدخلوا فى هذا الصراع ، لذلك سأل بنو إسماعيل بنى خزاعة السكنى معهم ومن حولهم فأذنوا لهم بما أرادوا ، فأطمع ذلك مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى — الذى كان قد خرج من مكة بعد هزيمة قومه فى حربهم مع عمرو بن عامر وولده ثعلبة وقبيلهما — أن يستأذن خزاعة فى الرجوع إلى مكة والإقامة بجوارهم ، وظن أنهم مجيبوه إلى سؤله أسوة ببنى إسماعيل .. ولكن خزاعة لم تستجب إلى مطلبه ، بل حرّمت على الجرهميين كافة أن يدخلوا الحرم أو يطئوا أرض مكة : بطحاءها وظواهرها ، وقال عمرو بن لحىّ وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر (وحارثة هو أخو ثعلبة الذى افتتح مكة وغلب جرهم على أمرها بعد مفاوضته) لقومه فى هذا الصدد وهو زعيمهم « من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمه هدر » . ولم تكتف خزاعة بهدر دماء الجرهميين بل أباحت مصادرة أموالهم وانتهابها[1] .

---

(١) نزعت أبل لمضاض من مراتعها فى « قنونا » تريدمكة ، فخرج فى طلبها حتى وجد آثارها قد دخلت مكة ، فمضى على الجبال من نحو « أجياد » حتى ظهر على جبل « أبى قبيس » يتبصر الإبل فى بطن وادى مكة فأبصرها تنحر وتؤكل ولا سبيل له إليها ، فخاف إن هبط الوادى أن يهدر دمه ، فعاد أدراجه آسفا ، وقال قصيدته المشهورة التى منها : =

ثم رحل مضاض الجرهمى إلى اليمن بعد أن يأس من دخول مكة .

ولما استتب الأمر لخزاعة وصاروا حجاب الكعبة وولاة مكة تزوج لحىّ من فهيرة [٢] حفيدة مضاض الجرهمى ، فكان عمرو بن لحىّ ثمرة لزواج بين بيتين من بيوت الملك ، فأمه حفيدة مضاض ، وأبوه حفيد ماء السماء .

ولما آل حكم مكة إلى عمرو بن لحىّ أدخل عبادة الأصنام إلى مكة وقد نهض بالملك ونجح فى حكومته نجاحاً كبيراً .

وقد بقيت ولاية البيت الحرام فى أسرته وذراريه من بعده نحو خمسة قرون ، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب ، الذى تزوجت ابنته « حبّ » من « قصىّ » الجد الأعلى لمحمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

وقد آلت حكومة مكة وولاية البيت بعد حليل الخزاعى إلى قصىّ القرشىّ فأكمل التشريع الذى بدأه عمرو بن لحىّ وأولاده وحفدته من بعده ، ونظم الوظائف الحكومية .

وقد نشأ قصى بأرض قضاعة فى حضانة أمه بعيداً عن مكة موطن جده كلاب بن مرة بن كنانة . ولما بلغ أشده واستوى ارتحل إلى وطن آبائه ليقيم بينهم . . وكان قصىّ جليداً حازماً بارعاً ، واسع الحيلة قوى الإرادة ، ذا عزة

= كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العواثر
وبدلنا ربى بها دار غربة ... بها الذئب يعوى والعدو المحاصر
فكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بهذا البيت والخير ظاهر

(٢) هى فهيرة بنت عامر بن مضاض بن عمرو الجرهمى التى أولدها زوجها لحى ابنهما عمر بن لحى الذى كان له شأن كبير فى الوثنية الجاهلية .

وكرامة ومكانة بلغها بمواهبه وأخلاقه ، وقد تمكن بلباقته وكياسته ؛ وبحكم إصهاره إلى حليل الخزاعى من انتزاع ولاية البيت وحكومة مكة من يد الخزاعيين ، وتمت المصالحة بينهم وبينه على مقتضى الحكم الذى أصدره فى هذا النزاع يعمر بن عوف الكنانى فى فناء الكعبة ، واستتب الأمر لقصىّ ، وكان أول رجل من بنى كنانة أصاب ملكاً ، وأطاع له به قومه . . وقد جمع شمل قريش ، وظهر فيهم وأظهرهم ، وقد أنشأ دار الندوة لتقضى فيها قريش أمورها ؛ وبذلك أوجد مقراً للحياة العامة . . وقد قسم الوظائف الرئيسية فى مكة بين وَلديه : عبد الدار ، وعبد مناف ، فجعل لولده عبد الدار السدانة (الحجابة) ودار الندوة واللواء ، وجعل لولده عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة . . وقد أقر عبادة الأصنام ، وكان ينحر عند أساف ونائلة . ووضع نظام الحُمس ، وميز بينهم و بين الدخلاء والضيفان واللاجئين ، ويعنى بالحمس أبناء الحرم والمواطنين المقيمين الذين ينتمون إلى الكعبة والمقام ، وجعل لهؤلاء الحمس امتيازات يختصون بها على من سواهم من العرب . . وقد ابتدع هؤلاء الحمس فى الحج أشياء كثيرة ، حتى بات العرب فى وثنيتهم على مذهبين دينيين : مذهب أهل الحل ، ومذهب الحمس أهل الحرم .

والناظر فى حياة الجماعة المكية يكاد يحكم بأن أهل مكة عاشوا تحت نظام الأبوة أو سيادة الرجل ، وَهو النظام المعروف لعلماء الاجتماع باسم « البا — ترايار كا » يتلو عهد سيادة الأم أو « الما — ترايار كا » وَلا يمكن أن تكون الفترة بين النظامين أقل من ألف سنة . . وَمع هذا فإن بعض بقايا عهد الأمومة « ماترايار كا » كانت ظاهرة فى حياة بعض الجاهليين والمكيين ، فمنها احتفاظ المرأة بحق الطلاق من زوجها متى شاءت ، ومنها اتخاذ القبائل — فى الشمال والجنوب — نساء للكهانة ، ومنها استقلال المرأة فى تجارتها واستطاعتها

استخدام الرجال وجلب المال لحظيرتها؛ حتى إذا استغنت واشتهرت تزوجت ممن تختار من وكلائها، ومنها نفوذ المرأة فى كثير من الأحيان على الرجل حتى فى الحياة العامة .

وإذن فظهور المرأة بمظهر العامل المؤثر فى حياة عرب الجاهلية لم يكن نتيجة لحرية المرأة التى شرعها العرف أو حصلت عليها بجهودها فى الحياة الاجتماعية؛ بل كانت آثاراً باقية من نظام اجتماعى فطرى؛ هو نظام سيادة المرأة أو عهد « الماترياركا » وشتان بين هذين الوضعين ، فإن هذه المرأة الجاهلية التى تمتعت بامتيازات نظام سيادة المرأة كانت فى نفس الوقت مبذولة العرض فى أحوال كثيرة وكان تعدد الزوجات شائعاً ، والتسرى مباحاً ، . وأنواع الزواج عند الجاهلية متعددة ، مما يدل على سهولة الحصول على المرأة على أى مقتضى ، وقد كانت محرومة من الميراث .

وكان لأهل مكة ميزانيـة ودخل وخرج فدخلهم من رسوم الحج وضرائب شبه جمركية أو مكوس تفرض على واردات بيزنطة وغيرها . . وكانت تلك الدولة البدائية تجمع بعض المال من السكان لتنفقه فى ضيافة الحجيج أو فى شراء كسوة للكعبة من الحرير والخز والديباج من صنع اليمن والشام والعراق ومصر .

وكانوا فى الحرب يخضعون لقائد وفى السلم يخضعون للشورى وينظرون فى أمورهم فى دار النـدوة . . . وإذا قام نزاع بين متخاصمين ، فإنه يطرح للتحكيم أولا ، ثم على الكاهن أو الكاهنة . ثم يطرح على الأصنام لتفصل فيه ، فكان « هبل » هو الذى يحكم بقول « نعم » أو « لا » . وكان يختار للتحكيم كل من اشتهر بالعدل والفهم والرحمة ؛ وكان الأفضل لدى هؤلاء القضـاة فى أقضية القتل أن يحكموا بالدية .

ومما يستلفت النظر أن معاملة القرشيين التجارية أعَدَّتْهُم إعداداً خاصاً للحياة الاجتماعيةَ البدائية وأكسبتهم الحنكة والتجربة الواعية، فكان العظيم الغني منهم الذى يختار ليحكم بين الناس بالعدل على قدر من معرفة ما تكنه بعض الطبائع الإنسانية من حب المجاملة والمواربة والمداراة، فيقضى بين المتخاصمين على أساس هذا السلوك وتلك الخصال .

وقد أفادت قبيلة قريش التى أقامت بمكة من أسفارها فارتفع رجالها بثقافتهم نسبياً على مستوى الحياة البدوية قليلا وعلى مستوى حياة أهل يثرب بنسبة أقل .. فأهل يثرب كانوا ما يزالون فى الطور «الزراعى — التجارى» كأهل مكة — وكانوا محتفظين بفضائل وصفات انسلخ منها أهل مكة فى بيئتهم التجارية التى تعودت الأسفار ذات الجنوب وذات الشمال، وَمُشَرِّقين وَمُغَرِّبين مستخدمين إبلهم سفائن الصحراء فى نقل البضائع والمتاجر إلى سائر الجهات وشتى الناحيات .

وكان المكيون يصنعون الأصنام ويبيعونها للأعراب لينصبوها فى خيامهم ويعبدوها من دون الله، أو لتقربهم إليه زلفى . كما كانوا يعملون فى مختلف الصناعات التى تقتضيها حياة المدن فى الحرب والسلم، فكان منهم النجار والحداد والجلاد والحبال والحائك والوراق والصائغ والصَّيْقَل .. ومن تجرهم : الزيات والخمار والبزاز والمُرابِى .

وكان تجار قريش يفضلون أن يستثمروا أموالهم فى تجارة الإبل والأغنام والأقمشة والمعادن والجلود والعطور والأفاوية والأصباغ والجواهر والأصواف وأنواع الحرير والحلىّ والحلل والأثواب المنسوجة فى مدينة تنيس بمصر، والبصرة بالعراق، ودمشق بالشام، والمصبوغ المجلوب من منف وهرموبوليس

والعاج وريش النعام من الحبشة والسودان ، والأخشاب الثمينة من صور وصيدا ولبنان ، والقراطيس من الشام ونابوليس .

وزعماء قريش أنفسهم — وفيهم الخطيب والقائد ورئيس الندوة وسادن الكعبة — كانت لهم صناعات ومتاجر تدر عليهم الثراء والنعمة ، فكان عبدالله بن جدعان — صاحب الجفان الشهيرة — تاجر رقيق أى نخاساً ، وقيل إنه كان من كبار اللصوص واغتنى بأسباب غامضة ، وزعم بعض الزاعمين أنه عثر على كنز مدفون لأحد أغنياء جرهم . وكان أبو سفيان زعيم قريش فى الجاهلية زياتاً وتاجر جلود ، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة خياطاً ، وهكذا كان غيرهم على هذا النحو .

وكان هذا المجتمع الحضرى المكى يعيش فيه التاجر الثرى والدائن الغنى ، ويحيا فيه التاجر الصغير والعافى الفقير . . ومما ارتضوه شرعاً لهم ومبدأ من المبادىء التى يجرى عليها التعامل فيما بينهم ، أن ينزل المدين عن حريته إلى دائنه فيصير له عبداً ، ويتملكه كما يملك أى متاع . . أو ينزل له عن زوجته ، أو عن أمه ، أو عن بنته ، أو عن زوجة أبيه ؛ ليستمتع بها هذا الدائن ، أو يمتع بها غير نفسه من الرجال نظير جُعْل يتقاضاه منهم ويكرهها على البغاء ليقتضى بذلك دينه ، حتى إذا استوفاه أعادها إلى المدين الذى يكون قد برئت ذمته بهذا الاقتضاء .

وكانت سوق عكاظ تعج بتجارة الرقيق ؛ حيث يعرض النخاسون من أمثال ابن جدعان بضائعهم من الرقيق من كل الجنسيات : الحبش ، والروم ، والهند ، والفرس ، ومصر ، وأواسط آسيا . . كانت سوقاً رائجة للتجارة وتبادل السلع ، ومجالا من مجالات القول ، يقف فيها إلى جوار الشعراء والخطباء ، حكماء

ينشدون الحكمة ، وملوك وأمراء يبحثون عن المتاع ، ونخاسون وصعاليك ، وتجار ، ونساء غزلات ، ومؤرخون نسابون .

كان المال والمتاع لسادة مكة . . أما فقراؤها فلهم المهانة والمسغبة . وليس أمامهم من بدّ إذا رفضوا العبودية والعار سوى الهرب إلى البادية بعيداً عن ضجيج الحياة الفاسدة فى مكة ، ليقيموا مجتمع الفلاكة والصعلكة والسطو والنهب والسلب ؛ وليكونوا قطاع طريق ، يتربصون بالغادين والرائحين ، ويهاجمون القوافل ، وينتزعون لقمة العيش بحد السيف .

وقبيلة قريش مع ما كانت عليه من النقائص والنقائض ما انفكت ينظر إليها بعين التجلة والاحترام ، لا لشرف المحتد أو قوة الحرب أو سمو الفكر ، أو للكعبة المشيدة فى بلدهم والأصنام الجاثمة فى معبدهم فحسب ، ولكن لأن قريشًا ظهروا بمظهر الحذق والفطنة فى التجارة والبراعة فى ابتزاز أموال الغرباء واستدراج القبائل إلى معبدهم الكعبة ، وبئرهم زمزم ، وكانوا فوق ذلك مرغمين على حب السلم لأجل التجارة ، فانسلخوا بالتدريج من شوائب البداوة فكفوا عن الرحيل لرعى الغنم وتربية الإبل ، واستقروا وثبتوا ، ونظموا أسفارهم فى قوافل رتيبة على ظهور الإبل لجلب الخير الكثير والربح الوفير إلى موطنهم ، ولعلهم صاروا أميل قبائل العرب للسلم ، لأنهم ذاقوا حلاوة الأمن ولذة البعد عن العداوة والشحناء ، وَنشوة كسب المال واختزانه فى ظلال السكينة والبعد عن الصراع والصدام . كما ذاقوا حلاوة الهدوء العائلى وَلذاذة السفر فى سبيل الغنى وَطعم الحنين إلى الوطن وهم عنه ناءون ، وَلذاذة العودة إلى الدار والمرأة والولد ، ولقاء الأصحاب والأحباب ، واجتماع محافل السمر بعد النأى والاغتراب .. فرغبوا لذلك عن الغزو وزهدوا فيه ، وابتعدوا عن إثارة الأحقاد بينهم وبين جيرانهم ، بل اتخذوا من هؤلاء الجيران أحلافًا وأعوانًا

وأضيافًا ومضيفين يرحلون إلى بلادهم وينزلون بساحهم ، فى سبيل تحقيق مآربهم ، فيصلون إلى الشام شمالا ، وإلى اليمن جنوبًا ، وإلى نجد وتهامة ونجران ويعرون بالدهناء خفاف العياب ويعودون من دارين بجر الحقائب .

وأهل مكة عاشوا فى الجاهلية على المبادىء التى عاش عليها آباؤهم من قبل ، وقد أسس بنو كنانة جالية حول الحرم ، وكان موسم الحج الذى يحتفلون به فى شهر ذى الحجة من كل عام مصدر خير لجميع القبائل التى تقيم فى مكة أو على مقربة منها . . فلم يكن عيداً دينياً فقط ، بل كان موسمًا تصحبه حركة تجارية تدر عليهم أرباحًا طائلة . . كانوا يبيعون بضائعهم التى جابوها من رحلتى الشتاء والصيف إلى الوافدين على مكة ، ويشترون منهم منتجاتهم .

وكانت حياة المكيين تقوم على تجارتهم المحلية بأسواقهم ، وعلى تجارتهم الخارجية ، وقوامها المواصلات والقوافل . . وقد كانوا يسيطرون على وسائل النقل البرى بين موطنهم وبين الشام واليمن والعراق والحبشة ومصر والأناضول والفرس . . وقد صارت جزيرة العرب حيال هذه العاصمة الحجازية المقدسة مركزاً لحركة تجارية فى محيط الجزيرة الشرقى ، ولذا أثرت تلك البلدة « أم القرى » وأثرى أهلها القرشيون ، وادخروا الأموال والمعادن النفيسة ، وعرفوا أنواع الترف ، وتقلبوا فى ألوان النعمة والرفاهية .

روى الواقدى أن العرب استخرجوا الذهب من مناجم سليم ، وأحضروه إلى مكة ، فجعلوه حلياً وادخروه سبائك ، وكانت المنازل فى مكة تقوّم وتقدّر بالذهب وكذلك كان الشأن فى تقدير الجياد والثياب الغالية والإماء والجوارى .

ويقترن اسم مكة بقريش لأنها هى القبيلة التى استوطنتها واحتلت نواحيها وعمرتها . . وقد كانت قريش ثلاثة أقسام :

(١) قريش الأباطح أو قريش البطاح .

(٢) وقريش الظواهر .

(٣) وآخرون من قريش لم يطلقوا عليهم لقبًا ، وهم ليسوا من الأباطح ولا الظواهر ، لأنهم تنحوا عن مكة .

أما قريش الأباطح ، فهم : بنو عبد مناف ، وأسد بن عبد العزى بن قصى ، وزهرة ، وتيم ، وبنو مخزوم .. وأما قريش الظواهر ، فهم : بنو الأدرم بن غالب ، وبنو محارب ، وَبنو فهر ، وبنو معيص . . وَأما القسم الثالث من قريش الذين خرجوا من مكة وَتنحوا عنها فمنهم : أسامة بن لؤى بعمان ، وَجشم باليمامة .

ومما لا خلاف فيه تاريخياً أن قصياً هو الذى وضع هذا النظام القبلى العشائرى ، لأنه أدخل الأباطح معه فى بطن مكة ، وأسكن الآخرين بالظاهر ، وجعل الصنف الثالث يخرجون من مكة ويرحلون إلى مواطنهم الجديدة .

أما طبقات هذه الأقسام فهى ست : (١) الشَّعْب ، وهو الأعم كشعب خزيمة (٢) ثم القبيلة كقبيلة كنانة (٣) ثم العمارة كعمارة قريش (٤) ثم البطن كبطن قصىّ (٥) ثم الفخذ كفخذ هاشم (٦) ثم الفصيلة كفصيلة العباس .

والفصيلة تكاد تكون الأسرة الواحدة أو أكبر قليلا ووحدتها الأفراد .

والملاحظ أن الشعب ينشق إلى قبائل ، وأن القبيلة تنشق إلى عمائر ، وأن العمارة تنشق إلى بطون ، وأن البطن ينشق إلى أفخاذ ، وأن الفخذ ينشق إلى فصائل ، وأن الفصيلة وحدتها الأفراد ، فقد تطلق القبيلة على العمارة من باب التجوز كقريش مثلا .

أما عن مدينة « يثرب » وهي موطن شعب قحطانى من الأزد (الأوس والخزرج) يخالطه يهود قريظة وبنى النضير ، كما يتصل به يهود خيبر؛ فقد كانت الحياة الاجتماعية فيها مشاكلة لطبائع أهل الحضر ، وكذلك الحال فى مدينة الطائف وسائر القرى فى أنحاء الجزيرة العربية .. وكانت العداوة بالغة الضراوة بين الأوس والخزرج فى يثرب حتى أنقذهم الإسلام لحسم الشر بينهم، وألف بين قلوبهم ، وقد كان أهل يثرب بصفة عامة فيهم دماثة وظرف ونعومة عيش، وقد كان اليهود بين العرب من أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم .. أما النصارى فقد كان مُتَمَذْهِبُوهُم لا يعرفون ملتهم إلا معرفة سطحية وكانت ديانتهم تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب كثير الاستهزاء والسخرية بالمساتير (mysteres) .

وقد كان القارئون الكاتبون من العرب على الإطلاق قلة حتى لتكاد أن تكون ندرة ؛ إذ غلبت الأمية على أكثرهم وفشت فى جمهرتهم ولا سيما بين سكان البيد والمدر ، فوصفوا على جملتهم بأنهم أميون.. وكان اليهود والنصارى والمتحنفون يقرءون التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وينقلون عنها ما شاءوا كورقة بن نوفل الذى كان يتعيّش من نسخ النصوص الدينية للكتابيين .

وقد عاشت الجزيرة العربية فى قديمها حرة مستقلة ، ولم يقو أى غاز على فتحها واستعمارها .. يقول « ليون كايتانى » فى كتابه : مآثر الإسلام :

« قبل النبى بألف وأربعمائة سنة غزا بختنصر بلاد العرب فحاربه عدنان فى ذات عرق وتعادلت القوتان وانسحب الفاتح الأجنبى لما عاناه من جدب الأرض ووعورة المسالك ، وبعد أن أيقن أن ثمرات المغازى فى بلاد العرب لا توازى ما يبذل فى سبيلها ، فارتد على عقبيه راضياً من الغنيمة بالإياب ، ومؤثراً السلامة والعافية على الأسلاب ، ومنقذاً جنوده من الهلاك المحقق » .

فعدنان بطل ، وقد انحصر فيه نسل إسماعيل كله .. قال القلقشندى :

«وأعلم أن الموجودين من العرب من ولد إسماعيل كلهم من بنى عدنان بن أدّ » .. وقال ابن خلدون :

« ومن عدا عدنان من ولد إسماعيل قد انقرضوا ، ولم يبق لهم عقب ولذلك عرفت بالعدنانية » .

وكذلك باء أبرهة الحبشى بالفشل عند عدوانه على مكة وأرسل الله على جيشه طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

كما باء سواهم من سائر الغزاة بالهزيمة والخيبة ، والندامة والحسرة ، وحفظ الله للعروبة جزيرتها وصان استقلالها . وكتب لها النصر على أعدائها وغزاتها . ثم أعزها ونصرها بالإسلام الذى صانها وكتب لها حياة الخلود وعمر الأبد .

وتلك هى الصورة المكتملة الملامح من مظاهر هذه البيئة الاجتماعية التى درج فى عشها امرؤ القيس من المهد إلى اللحد ؛ نقدمها بين يدى القارىء لتطمئن نفسه ، ولتكون إليه هاديا .

البيئة العلمية

ونجلو فى هذا البحث ما كان عند الجاهليين من معارف وعلوم ، كما نبين فيه مدى جهودهم العقلية ، وقدراتهم الفكرية ، وبواعثها الطبيعية .

ومما لاريب فيه لدى الباحث أن كل ثقافة تستمد مقوماتها وألوانها من ظروف عصرها وما يحيط بها من البيئة الطبيعية والأحوال الاجتماعية والعمرانية . . . وهى تجرى على سنن هذه الأحوال عكساً وطرداً ؛ فتؤثر فيها وتتأثر بها .

وتأسيساً على هذا الناموس قد استمدت الثقافة العربية والعقلية الجاهلية تراثها الفكرى ، وألوان معارفها العامة من طبيعة الصحراء ، وقسوة الحياة ، وظروف البيئة فى هذا المجتمع البدوى الذى لم يُتح له أن ينتج من ألوان الثقافة وفنون المعرفة فى إبّانه إلا ألواناً بدوية ، هى به أشبه ، وهو بها أليق .

وليس العرب فى ذلك بدعاً ، لأن البداوة طور طبيعى اجتماعى فى حياة الأمم تمرّ به عندما تتجه فى سيرها نحو الحضارة ، وتأخذ فى أسبابها وبواعثها . . ولهذا الطور مظاهر عقلية خاصة ؛ أهم سماتها : الأمية ، وضعف التعليل ، وعدم القدرة على إدراك ما بين العلة والمعلول ، والسبب والمسبِّب ؛ من ارتباطات ومقتضيات ومستلزمات .

فليس من اليسير على هؤلاء البدو الرُّحَّل — وهم يعيشون فى البوادى ، وحياتهم الاجتماعية يسودها النظام القبلىّ العشائرى — أن تُهيىء ظروف هذه الحياة عقولهم إلى علم منظم ، أو تُنشط تفكيرهم ، وتوجه أنظارهم إلى بحث فيه

تعمق واستقصاء ، فالبيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ؛ قد تظاهرتا معاً على تكوين عقليتهم تكويناً خاصاً ؛ فيه سذاجة وبساطة ونفحة من الألمعية . . كما حدّدت هاتان البيئتان نظام معيشتهم ، وكوّنتا أخلاقهم على نظام معين من الطبائع والسجايا . وتحكمتا فى ظروف ثقافتهم وَمعارفهم ، والإنسان رسم تصنعه البيئة على صورتها . ولذلك جاءت لغتهم فى ألفاظها وآدابها ، وجاءت ثقافتهم فى ألوان معارفها وأمثالها ، وقصصها وأساطيرها الواهية ، نتيجة حتمية لتلك الحياة الاجتماعية ، وصورة صادقة لهذه البيئة الطبيعية .

فلم يكن لدى هؤلاء القدامى من العرب ؛ علم بمفاهيمه الدقيقة ، ومقاييسه الصحيحة ، ولا فلسفة مذهبية تقوم على أساس من التعمق والاستقصاء ، وإنما كانت لديهم ألوان من المعارف التجريبية ، والثقافة الحسية ، بنيت على التجربة والمشاهدة ، وخبرات الحياة التى اكتسبوها مما يمارسونه فى معايشهم ومما يزاولونه من شئون فردية أو جمعية ؛ فى مجتمعهم البدوى الصحراوى الأمىّ الفقير ، ومما يقبسونه نتيجة لمخالطة من جاورهم من الأمم والشعوب .

ومثل هذه الألوان من المعارف التى تقوم على أساس من السطحية ، وتنبنى على معلومات أولية ؛ توشك أن تكون فطرية ، لا يصح أن تسمى علماً ، ولا شبه علم .

أما ماجرى على ألسنة بعض شعرائهم وبلغائهم من الحكم ، فهى خطرات فلسفية حكمية ، لا يمكن أن تندرج تحت لواء المذاهب الفلسفية ؛ أو تدخل فى نطاقها من أى باب من أبوابها . فثمة فرق كبير بين المذهب الفلسفى والخطرة الفلسفية ، فالمذهب الفلسفى وليد البحث المنظم ، ونِتَاج التعمق الفكرى ، وهو يقتضى علة ومعلولا ، وإيضاحًا وبرهانًا ، ومراجعة للمخالفين وتفنيداً لمذاهبهم ، وهكذا ، وهذه منزلة لم يصل إليها العرب فى الجاهلية ،

أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك بكثير ، لأنها لا تتطلب من صاحبها إلا التفات الذهن إلى معنى من المعانى العامة التى تتعلق بأصول الكون ، من غير بحث منظم ، أو تعمق فكرىّ ، أو تدليل منطقىّ ، أو نقض أو تفنيد . وهذه درجة وصل إليها بلغاء العرب وفصحاؤهم فى جاهليتهم ، ولم يتجاوزوها إلى سواها .

ولقد كان يقال فى القديم عن العرب العدنانيين ، ومن لفّ لفّهم من البدو القحطانيين : الأمة الأمية ؛ لأنهم لم يكن لهم علم كعلم اليونان ، ولا حضارة كحضارة الفرس ، ولم يكونوا كاتبين قارئين ، قال الله تعالى عنهم — وهو أصدق القائلين ؛ « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مُبين» . وقد ظلوا على أميتهم دهراً طويلا ؛ مع أنه نمت من حولهم ؛ بل من بين شعوب من جنسهم ، وأمم من أرومتهم وأعراقهم ؛ حضارات لدول كانت محيطة بهم فى جزيرتهم ، ولأبنائها دراية خطيّة ، وآثار كتابية ؛ عثر عليها الباحثون والمنقبون ، وأرجعوها إلى ما قبل الإسلام بنحو ألف عام ، كدولة المعينيين ومن تلاهم من السبئيين والحميريّين فى الركن الجنوبىّ من الجزيرة العربية ، وقد كانوا يصطنعُون الحرف المسند فى كتابتهم ، ودولة الأنباط بالهلال الخصيب فى شمال الجزيرة مما بين النهرين ؛ وكانوا يصطنعُون الحرف النبَطىّ . ثم مملكة تدمر التى ازدهرت فى عصر ملكتها الزبّاء أو زنوبيا كما يسميها الفرنجة ، حتى صار سلطانها ممتداً من آسيا الصغرى إلى حدود مصر ، ثم مملكة سبأ فى الجنوب . وقد بَعُدَ صيتها ، وعلا سلطانها فى عصر ملكتها بُلقيس ، وقد كانت معاصرة لسليمان بن داود عليه السلام .

وسبب تخلّف عرب الجاهلية — ونعنى بهم العدنانيين عامة ،

والقحطانيين من غير ذوى الحضارات ، وأرباب الدول القديمة منهم — عن إخوانهم فى اتخاذ الكتابة ، واصطناع الحضارة ، هو إعراقهم فى البداوَة ، وبعدهم عن كل صناعة وفن . ولم يدخل الخط عند هؤلاء العرب إلا قبيل الإسلام ؛ حينما ازدهرت مملكتا الحيرة وغسّان ، والأولى من عرب بنى نصر اللخميين القحطانيين ، وهى دولة المناذرة ؛ وكانت فى جنوب العراق وعلى تخوم الدولة الفارسية ، وقد كانت داخلة فى منطقة نفوذهم ، ومتأثرة بحضارتهم . والثانية هى دوله الغساسنة من عرب غسان القحطانية فى حوران والبلقاء بالشام ؛ فى المنطقة التى تقع اليوم بالقسم الجنوبى الشرقى من سوريا وشرق الأردن . وقد كانت هذه الدولة فى نطاق نفوذ الدولة الرومانية ، وَمتأثرة بحضارتها .

وليس من شك فى أن العلم لا يزكو غراسه إلاّ فى رباع العمران ، ولا يُؤتى أكله وثماره إلا فى ظلال التمدن والارتقاء ، فهو والحضارة صنوان وإلفان متلازمان ، والكتابة بطبيعتها أهم أداة من أدوات المدنية ، وأرسخ دعامة من دعائم الرقى العلمى ، والنهوض الثقافى ، وبالعلم يتعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « علم بالقلم ؛ علّم الإنسانَ ما لمْ يَعْلَمْ ».

وعلى ضوء ما أوضحناه آنفاً من أمية العرب ، وضعف ملكة التعليل لديهم ؛ نتيجة لظروف حياتهم فى بداوتهم يتجلّى لنا التفسير الواضح لما جرت به ألسنتهم ، ونضحت به أفهامهم ، وصدقته عقولهم من أساطير وخرافات ؛ كانوا ينزلونها من نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم منزلة الإيمان الراسخ ، والمعتقدات الصادقة ، التى لا يتطرق إليها أدنى ريب منهم . ويتضح لنا أيضاً على هدى ما أومأنا إليه فيما سلف سبب التجائهم فى معرفة حوادث الماضى والحاضر والقابل ، إلى الكهانة والعرافة والعياقة وزجر الطير والطرق بالحصى ؛ حتى بات

ذلك نظاما مقرّراً لدى قبائلهم على الإطلاق ؛ وإن شذّ من بينهم بعض الأفراد بالشك فيها وعدم الثقة بها ؛ مع أن هذه الوسائل من المعرفة — التى توهّم الجاهليون صدقها ويقينها بصفة تكاد تكون شبه إجماعية — ليست فى كنهها أموراً منطقية رُوعى فيها بناء النتائج عَلَى المقدمات ، والمسببات على الأسباب ؛ وإنما هى فى حقيقتها أوهام تخيّلوها ثم خالوها ؛ ثم باتوا بها مؤمنين ، ولها مصدقين ؛ ولذلك لما جاء الإسلام ، ونزل القرآن ؛ ألزمهم بالتفكير والتبَصُّر والتعقل والتدبّر فى كل شىء حولهم .

وإن وجدنا فى أشعار هؤلاء القدامى ، أو أمثالهم ، أو قصصهم ؛ ما ينبىء عن فكرة راقية ، أو يدل على تعليل وربط بين العلة والمعلول ؛ فإن ذلك أيضاً يعوزه عمق التفكير ، ودقة التعليل ، لأن العقل العربى البدوىّ الأمىّ تغلب عليه الفطرة والطبع لا الاكتساب والجهد ، وإلى هذه الظاهرة بعينها يرجع ضعف المنطق فى أدبهم وشعرهم ، فالأفكار لا تتسلسل تسلسلاً دقيقاً ، ويقل ارتباط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً .

على أن هذه الظاهرة ، وإن كانت قد خفت بكفة أدبهم فى ميزان المنطق والتعمق ، وطبعته بطابع السطحية ؛ إلاّ أنها رجحت به فى موازين الرونق والجمال ، فأكسبته بهاء ألمعياً ، وجمالاً فطرياً ، وكسته ثوباً خاصاً وطابعاً من الروعة وحسن الأداء والوضوح والجلاء الذى يهز القلوب والمشاعر ، ولا تعيا به العقول والأفهام ؛ ذلك لأن هؤلاء الشعراء وأضرابهم من البلغاء كانوا يتعاورون على الشىء الواحد ، ويحصرون نظرهم وتأملهم فى جزئيات خاصة منه ، فيأتون فيها بالمعانى المختلفة من عدة وجوه مختلفة دون إحاطة ولا شمول ولا تعمق ؛ فامتلأ أدبهم بالحكم القصار الرائعة ، والأمثال الحكيمة ، وأتقنوا هذا النوع إلى حد بعيد ؛ غنيت به عقولهم ، فجرى على لهواتهم ، وانطلقت به ألسنتهم ،

حتى لينهض الخطيب فيأتى بخطبته كلها من هذه الأمثال الجيدة القصيرة ، والحكم الموجزة الممتعة .

ولو أن هناك أمة أخرى غير هؤلاء العرب فى بيئة مثل بيئتهم ، وأحوال مثل أحوالهم ؛ لكان لها عقليــة مثل عقليتهم ، ومعارف مثل معارفهم ؛ لأن البيئات المتشابهة المتماثلة ، تنتج أخلاقا متشابهة ، وعقليات متقاربة لا تفاوت بينها .

ولنمض فى بيان معارف الجاهليين وعلومهم . وهو فى جملتها لا تتعدى معلومات أولية يسيرة استمدوها من التجربة والمشاهدة أو مخالطة من جاورهم من الأمم ؛ واعتمدوا فيها عَلَى قوة النظر أو صدق الحدس .. ويمكن حصرها فيما يلى :

١ — العجامة :

لئن كان العرب الجاهليون قد حُرموا العلم المنظم ، والمعارف المدوّنة ، والثقافة المستبحِرَة ؛ فإن كتاب الطبيعة المفتوح أمام أعينهم فى ملكوت السموات والأرض ، وما انبسط من رقعة بلادهم فى تلك الآفاق المترامية الأطراف ؛ على مدى الصحارى والقفار ، والنجاد والوهاد ، وما تنوّع من أجوائهم ، وما تجلى لأعينهم فى حلهم وترحالهم ، وما أدركوه نتيجة لمخالطتهم غيرهم من الشعوب والأمم .. كلّ ذلك أرشد عقلهم الفطرى إلى تحصيل معلومات أوليه مبنية على قوة النظر ، أو صدق الحْدْس ، أو التقايد والمحاكاة استمدوها من التجربة ، أو المشاهدة ، أو المخالطة ؛ فعرفوا من علم الفلك والظواهر الجوية : النجوم ومواقعها ، والأنواء وأوقاتها ، والكواكب وصورها ، ومطالعها وغروبها ، وألوانها وأشكالها .. وتوصلوا بذلك إلى معرفة أوقات الخصْب والمحْل ، والريح والمطر ؛ كما اهتدوا بها فى ظلمات البر

والبحر . وقد كانوا فى هذا العلم أبرع منهم فى أى فن سواه ، فكانت العامة والخاصة تعرفه على السواء . ويقول ابن قتيبة فى تفضيل العرب على العجم : « إن العرب القدامى كانوا أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها » . وكانوا يستنبئون الأحوال الجوية بالأنواء والنجوم ؛ عند اختلافها وتعاقبها على منازلها طلوعاً ومغيباً ؛ ويرون أنها علة الأمطار والرياح والحر والبرد .

وأستدلوا على المطر بلون السحاب ، وعرفوا مَهابّ الرياح ، ووضعوا لها أسماءها .

ومعارف العرب فى علم الهيئة والنجوم مستمدة من الكلدانيين ؛ لاختلاطهم بهم ، فعرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ، ومنازل الشمس والقمر ، ولذلك اتفقت اللغة العربية واللغة الكلدانية فى أسماء الكواكب والبروج .

ومن أشهر العرب الجاهليين معرفة بالنجوم : بنو حارثة بن كلب ، وبنو مرة بن همام الشيبانى .

٢ — الميثولوجيا :

ومما يلحق بعلم النجوم فى معارفهم ، ويندرج تحت ما يسمِّيه الفرنج حديثاً بعلم (الميثولوجيا) تأليهم للأجرام والكواكب ، وعبادتهم إياها ، وتشخيصها وإنزالها منزلة البشر .. ومن أساطيرهم التى كانوا يتناقلونها فى ذلك ما روى عنهم من زعمهم أن الدبران خطب الثريا ، وأراد القمر أن يزوجه إياها ، فأبت عليه ، وولّت عنه ، وقالت للقمر : ما أصنع بهذا السبروت[1] الذى لا مال عنده ! ؟ فجمع الدبران قِلاصه[2] يتموّل بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدّامه ، يَعنون القلاص .

---

(١) السبروت هنا : الفقير

(٢) القلاص — بكسر القاف — جمع قلوص (كعجوز) الناقة الشابة .

ومن مزاعمهم أيضاً أن الجدى قتل نعشاً ؛ فبناته تدور به تريده ، وأن سُهيلا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو ، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وأن الشِّعرى اليمانية كانت مع الشِّعرى الشامية ففارقتها ، وعبرت المجرة ، فسميت الشِّعرى العَبور ، فلما رأت الشعرى الشامية فراقها إياها بكت عليها حتى غمصت عينها ، فسمِّيت الشِّعرى الغُمَيْصاء .

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشهورين من الملوك أو القواد أو الأسلاف واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة ، أو الجان ، فعندهم مثلا أن بلقيس كانت أمها جنية ، وأن جرهماً كان من نتاج مَلَك من الملائكة وبنت من بنات آدم ، وأن ذا القرنين من نتاج أم آدمية وأب من الملائكة . والأصل فى هذه الخرافات أنها منقولة عن شعوب أخرى كالهنود والفرس أو قدماء المصريين .

٣ — الطب البشرى :

ولقد عرفوا طبًا بشريًا ؛ أرشدتهم إليه تجارب قاصرة ؛ كانوا يتوارثونها جيلاً بعد جيل عن أشياخهم وعجائزهم ، كالحجامة ، والكىّ بالنار ، وبتر الأعضاء بمحمىّ الشِّفار ، والتداوى بالعسل ، وعصارات بعض النبات ، ونقيع بعض الأعشاب . وتارة كانوا يعالجون بالرُّقى والعزائم والتعاويذ يتلونها لأصنامهم ؛ لإخراج الجان والشياطين ممن أصابتهم . ومن قبيل الطب الوقائىّ عندهم أنهم إذا خافوا وباء نهقوا نهيق الحمير ؛ زعماً منهم أن ذلك يقيهم شر الوباء ، ويعصمهم من الإصابة به . وكانوا يعالجون حَوَل البصر ؛ بإدامة النظر إلى حجر الرّحى فى دورانه حتى تستقيم العين به . كما كانوا يرون فى شرب دماء الملوك شفاء من الخبل[1] . ومن أمثالهم الطبية : « المعدة بيت الداء ،

(١) الخبل ، كسبب : الجنون

والحمية رأس الدواء » ، وقولهم : « آخر الدواء الكى » .

وكانوا يستخدمون النار فى الطب الجراحىّ ، على أنها من عوامل التعقيم والتداوى ، ومقاومة مضادات الفساد للجراح ، وكانوا يعالجون فزع النساء وبرودة قلوبهن واضطرابها من الخوف بسقيهن الماء الحار .

وكانوا يمنعون الجريح من شرب الماء خشية عليه ؛ إذ يرون أن شربه الماء فيه موته وهلاكه .

وفى بعض تجاربهم الطبية ما يتفق مع بعض نظريات الطبّ الحديث ، كتعقيم الشفار بالنار ، وكمنع الملدوغ من النوم حتّى لا يستشرى خطر سريان السم فى بدنه ، وقد أشار النابغة الذبيانى فى شعره إلى تلك الظاهرة العلاجية فى قوله :

فبِتُّ كأنى ساورتْنى ضــئيلةٌ   من الرُّقش فى أنيابها السُّمُّ ناقعُ
يسهّــد من ليل التّمام سَليمُها   لِحَلْى النســاء فى يدَيْه قعاقع

ومن قوله هذا يســتبين لنا أن العرب كانوا يسهِّدون اللديغ ويَطبُّونه بوضع الحلْى فى يديه حتى تذود وسوستها النوم عن عينيه ؛ فلا يضْعُف مقاومته للسم ، ولا يشتد خطره عليه ، ولا يعجل بتجميد دمه وتجليطه . والرأى عندنا أن هذه الظاهرة الطبية فى علاجهم للّديغ وفى سواها ؛ مما يتفق مع الأصول العلاجية الصحيحة ، وإنما اهتدوا إليها بالتجربة ، دون أن يدركوا لها علة أو سبباً .

وفوق ما سبق ؛ فإن فى كتب اللغــة ومعاجمها كثيراً من أسماء العلل والأدواء والعقاقير والأدوية ، وأسماء أعضاء الإنسان والحيوان ، وصــفاتها التشريحية ، وبيان أحوالها : من قمة الرأس ألى أخمَص القدم ، وما كان ظاهراً من الأعضاء ، وما كان باطناً ، ومثل هذا الوضع اللغوى الدقيق ، لا بدّ أن يكون له أساس من الخبرة والتجربة ، والدراية والممارسة ؛ حتى لَيخَيّل للباحث

أن هؤلاء القدامى كانوا على بينة من الصفات التشريحية للأعضاء ، وأنواع الأمراض والتطبيب لها .

وقد كان أطباؤهم فى أول أمرهم من العرافين والكهّان ، ثم قام إلى جانبهم جماعة تعاطوْا الطبّ وحده ، واختصوا به ، وجعلوه حرفتهم ، ولُقِّنوا مبادئه عمن خالطهم من الروم والفرس فى القرن السادس الميلادى .

ومن أشهر أطبائهم بن حِذْيم التيميّ ، وقد ضرب به المثل فى حذقه للطب عند العرب — كما ضرب المثل بجالينوس عند اليونان — فكانوا يقولون فى كل نطاسيّ من الأطباء إذا أرادوا وصفه بالمهارة والحذق والتفوق فى صناعته : أطبَّ من ابن حذيم ، وقد جاء ذكره فى شعر أوس بن حجر حيث يقول :

فهل لكُمْ فيها إلىَّ فإنَّنِي بصير بما أعْيا النِّطاسيّ حِذْيما

ومنهم الحارث بن كَلَدة الثقفى المتوفى سنة ١٣ هـ وهو من الطائف ، قيل إنه رحل إلى فارس ، وفيها تعلم الطب على أيدى أربابه . ثم رجع إلى وطنه ، وكانت له شهرة واسعة ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يشير على أصحابه إذا اعتلوا باستشارته ، فيطبّ لهم .

ومنهم ابن أبى رومية التميمى ، وقد خصص نفسه للجراحات لحذقها .

ومنهم النضر بن الحارث بن كَلَدة ، وقد حذق الطب ، وتعلم الفلسفة على أيدى أربابهما فى ذلك العصر القديم ؛ من الكهّان والأحبار فى بلاد فارس وغيرها .

٤ — الطب الحيوانى (البيطرة) :

ومما يلحق بالطب البشرى ، البيطرة وهى علاج الحيوان ومداواته ، ولقد كان العرب على معرفة حسنة ، وبصيرة بينة ، ودراية شاملة بها ، ولا سيما ما كان متعلقاً منها بالخيل ؛ فقد عرفوا شياتها وعتاقها ، وما يستحب من صفاتها ؛ وما يتعلّق بنتاجها وبيطرتها ، حتى فاقوا فى ذلك غيرهم من الأمم التى كانت

تعاصرهم ، وقد دعا إلى تفوقهم فى ذلك شدة عنايتهم بشئون خيلهم ، لما لها من الأثر فى حياتهم ؛ فهم يستخدمونها فى قتالهم وكرهم وفرّهم ؛ فى مجتمع كثرت فيه الحروب وشنّ الغارات ، واشتدت فيه الفتن والعداوات .

ومن أشهر بياطرتهم العاص بن وائل السهمى وهو أبو عمرو بن العاص .

٥ — التاريخ :

أما معرفتهم بالتاريخ ، فقد لقّنهم أحبار اليهود وقساوسة النصارى الذين عاشوا بين ظهرانيهم فى جزيرتهم كثيراً مما فى التوراة والإنجيل ، كما حملت إليهم اليهودية والنصرانية بعض الأخبار والقصص عن اليهود والنصارى ؛ من أبناء شعوب أخرى ، وأمم مجاورة .

وكذلك وصلت إليهم أنباء الروم وقياصرتهم عن طريق دولة الغساسنة ، كما انتقلت إليهم أخبار الفرس وأكاسرتهم عن طريق الحيرة ، ودولة المناذرة .

وكان الجاهليون ولا سيما أهل المدن فى مكة ويثرب والطائف وغيرها يرون الوثنيين واليهود والنصارى يتحدثون إليهم ، ويسمعون منهم وعنهم . وكانوا يسمعون أحاديث الرواة وقصائد الشعراء وأخبار القصاص والجوابين عن قصور فارس وملوكها ، ومعابد العجم وسدنتها ، ونار المجوس المقدسة التى لا تنطفىء ، وحراسها المقنعين الذين لا يغمضون عنها ، ويسمعون كذلك عن بابل وعظمتها ، ونينوى ومعابدها ، وعن كلدة ومبانيها ، وعن سلع ومعابد الشمس فيها ، وعن تدمر وهيا كلها ، وأخبار الزباء ومكرها ، ويتفكهون بأنباء اليمن وأخبار الخورنق والسدير ، ونوادر الشام ، وقصور صنعاء وكنوزها ، وكنائس الحبشة ونجاشيها ، وجمال جواريها ، ونيل مصر ورقة أهلها وعجائب آثارها ، وسطوة الروم ونظمهم ، وسلطان الفرس وعدلهم . كل ذلك

كان يرويه الرواة وجوابو الآفاق على مسامعهم، فيؤثر ذلك إلى حد ما في أفهامهم ومعارفهم.

٦ — علم الأنساب:

وكانوا لقوة حافظتهم على علم تام بأنسابهم وأحسابهم وأصولهم وقبائلهم وألقابهم، حتى لا ينتسب أمرؤ إلى غير قبيلته، ولا يدخل في غير قومه، ولا يُدعَى إلى غير أبيه؛ وقد دعاهم إلى ذلك اعتزازهم بالعشيرة، ومغالاتهم في العصبية؛ لكثرة حروبهم، وتعدد قبائلهم، وميلهم إلى الفخر بأسلافهم، وأنفتهم بأن يكونوا خاضعين لأجنبي عنهم؛ أو يكون لأى غريب سلطان عليهم.

ومن أشهر نسابيهم دَغْفل بن حنظلة الشيباني، وصعصعة بن صُوحان، وزيد بن الكيّس النمري، وابن لسان الحُمَّرة.

٧ — قصص الحروب:

ولهم قصص تحدثوا فيها عن أيامهم وحروبهم ومعاركهم، كحرب داحس والغبراء بين عَبْس وذبيان، وحروب الفَجار بين قريش وكِنانة، ويوم الكُلاب بين تميم ومَذْحِج، ويوم ذي قار بين العرب والعجم. ولقد كانت هذه الحروب والأيام محوراً لكثير من أمثال العرب وقصائد شعرائهم؛ مما لم يفت المدوِّنين بعد ذلك تدوينها في كتب التاريخ والأدب، وإن كان قد شابها كثير من التَّزيد والاضطراب والإغراق.

٨ — القصص الغرامية والاجتماعية:

ومن قصصهم القصص الغرامية؛ كالذي حكوه عن المنخَّل اليشكري

والمتجردة زوج النعمان بن المنذر ؛ وقد ذكرها صاحب الأغانى فى الجزء الثامن عشر من كتابه .

ومنها قصص ذات طابع اجتماعى خاص؛ كقصة مقتل طرفة بن العبد ، ومقتل عمرو بن هند ، وكقصة المنذر فى يومى بؤسه ونعيمه ، وأمره مع شريك بن عمرو وحنظلة (الأغانى جزء ١٩) ،ولهذه القصة الأخيرة أصل يونانى معروف ، وأغلب الظن أن العرب أخذوا أفكارها وحوادثها عن اليونان ، ثم صاغوها فى قالب يتفق وذوقهم .

وكذلك من قصصهم قصة البنين السبعة من بنى ضبة الذين لجئوا إلى غار بأكلب صيدهم ، فهوت عليهم صخرة ، فكان فى ذلك هلاكهم (أمالى القالى الجزء الأول) وهذه القصة لها ما يشبهها من قصص المسيحية الأولى .

وفوق ذلك فإن العرب قد عرفوا كثيراً من القصص الفارسية ، وكانوا يرددونها ويتسامرون بها .

٩ — الريافة :

وكانت الريافة من معارفهم ؛ وهى استنباط الماء من باطن الأرض ، والاستدلال على وجوده بما تنم عنه رائحة نباتها ، أو شميم ترابها .

١٠ — الفراسة :

والفراسة هى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ، أو بظاهر الإنسان على باطنه وما خفى من أمره ؛ كالاستدلال بشكله وهيئته ولونه وكلامه وسحنته وظاهر أعضائه وغير ذلك من صفاته الجسدية على أخلاقه ومناقبه وفضائله ورذائله ، وسائر صفاته النفسية ؛ فيستدلون باتساع الجبين على

الذكاء ، وبعرض القفا على الغباء . وبضيق العين على الشحّ ، وبغلظ الشفتين على الإسراف فى الحب والبغض ؛ وغير ذلك .

١١ — القيافة :

وهى قسمان : قيافة البشر ، وقيافة الأثر ، فقيافة البشر هى الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه ، وقد كان عمر بن الخطاب فى الجاهلية قائفاً فطناً ؛ وقد روى المبرد صاحب « الكامل » أن قوماً وفدوا عليه زاعمين أنهم من قبيلة قريش ، وأنهم جاءوه ليثبتهم فيها ، فقال عمر : اخرجوا بنا إلى البقيع ، فنظر إلى أكفهم ، ثم قال لهم : اطرحوا العُطُف « واحدها عِطاف » ثم أمرهم أن يقبلوا ويدبروا ، ففعلوا ، ثم أقبل عليهم فقال لهم ليست بأكف قريش ولا شمائلها ، ثم أعطاهم فيمنْ هم منه ، وألحقهم بنسبهم الحقيقىّ .

وقيافة الأثر، هى الاهتداء بآثار الأقدام أو الحوافر أو الأخفاف فى الثرى والرمال على أربابها وصفاتها ومردّ فعالها ؛ بغيةَ الاهتداء إلى من يفر من الناس ، أوما يضلّ من الحيوان ، وَقد بلغوا فى ذلك من الأعاجيب مبلغاً عظيما ففرقوا بين آثار الأقدام للشاب والشيخ ، وَالرجل وَالمرأة ، وَالبكر وَالثيب ، والأعمى والبصير ، وذى العاهة والصحيح السليم . ولهم فى ذلك نوادر عجيبة ، منها ماحكوا من أن أولاد نزار ذهبوا إلى الأفعَى الجُرْهمىّ ليحكم بينهم فى ميراث أبيهم ، وبينما هم فى الطريق إذْ رأوا كلأً قد رُعى ، فقال مضر : إن البعير الذى رعى هذا أعور ، وقال ربيعة : هو أزْوَر(١) وقال إياد :

(١) أزور : أى معوج وسط الصدر ، أو أن أحد جانبيه مشرف على الآخر

هو أبتر ، وقال أنمار : هو شَرود ، وبعد قليل لقيهم رجل يَنْشُد[1] بعيره ، فوصفوه له طبق ما أدركوه من قيافتهم آثارَه ، فكان كما قالوا ، فتعلق الرجل بهم ، وقال لا أتركـكم حتى تردّوا علىّ بعيرى ، أو تدلّونى عليه وَترشدونى إليه ، وَنازعهم فى ذلك وَنازعوه ، ثم سار معهم إلى الأفعى الجرهمى ، ليقضى بينه وَبينهم فى مشكلتهم الجديدة ؛ التى جرها عليهم علمهم بالقيافة وَاستدلالهم على صفات البعير بآثاره . ولما عرض الأعرابىّ أمره على الأفعى مطالباً ببعيره ؛ أنكر أولاد نزار عليه مقاضاته إياهم ، وَردوا ظلامته وَادعاءه ، وَقالوا : نحن ما غصبنا بعيره وَلا رأيناه ؛ بل إنّا بآثار أقدامه عرفناه ؛ فوصفناه ، فقال الأفعى : حدثونى خبره ، كيف وَصفتموه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً وَيترك جانباً ، فعرفت أنه أعور . وَقال ربيعة : رأيت إحدى أماميّته ثابتة الأثر والأخرى فاسدة ، فعرفت أنه أزور ، وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً : فعرفت أنه أبتر[2] ، وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف ، ثم يجوزه إلى غيره ؛ فعرفت أنه شرود . فقال الأفعى لصاحب البعير : اطلب بعيرك عند سواهم . ثم عرضوا عليه قضيتهم فى ميراث أبيهم ، فقال لهم : أتحتاجون إلىّ فى هذه الحكومة ، وأنتم من بصيرة الفهم على نحو ما رأيت ؟ !

ومن أشهر زاجريهم وعيّافيهم وقائفيهم : أبو ذؤيب الهُذَلىّ ، ومرّة الأسدى ، وبنو مُدْلج من قبيلة كنانة ، وبنو لِهْب وهم بطن من الأزد .

١٢ — الكهانة والعرافة :

أما الكهانة والعِرافة فهما لمطالعة الغيب ، وكشف حُجُبه ، ومعرفة أسراره والإخبار بالحوادث الماضية والآتية . وقد يحصُّون الكاهن باستطلاع ما يأتى به

(١) ينشد — كينصر — بمعنى يبحث ويفتش .

(٢) أبتر : يعنى مقطوع الذنب .

الغد من الأحداث ؛ فلديه علم المستقبل ، ويخصّون العراف بعلم الماضى ، والكشف عن كل ما كان فيه من الأمور والأحوال . وكانوا يزعمون أن لكل كاهن وعراف ؛ رِئِىّ من الجن يتبعه ، ويسترق السمع ويأتيه بالأخبار ، ولذلك اشتد اعتقاد الجاهليين فيهم ، وكثر التجاؤهم إليهم ؛ يستشيرونهم فى المعضلات ، ويستقضونهم فى الخصومات ، ويستطبونهم فى العلل ، ويستعبرونهم الرُّؤَى ، ويرون فيهم القدرة على كل شىء ؛ فهم لدى قومهم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين . . وشأنهم فى ذلك شأن نظرائهم عند سائر الأمم القديمة ؛ فى بابل وأشور وفينيقية ومصر الفرعونية وغيرها .

ومن أشهر كُهَّانهم وعرّافيهم : شِقّ إنمار ، وسطيح ، وقد كانا شاذَّىِ الخلقة، فالأول كان شق إنسان ؛ أى كان بيد واحدة سليمة ، ورجْل واحدة صحيحة ، وعينٍ واحدة كذلك . وأما سطيح فكان فى عظامه لين ، قالوا عنه : إنه كان لحما يطوى ، وليس فيه من العظم المتماسك غير عظم الجمجمة ، وكان قصير العنق جداً إلى درجة التلاشى ، حتى لكأنّ وجهه قد استقر على صدره ، وقد عُمِّر طويلا .

وَمنهم أيضاً خُنافر بن التوءم الحميرى، والأبلق السعدى عرّاف نجد، ورَباح ابن عجلة عراف اليمامة ، وقد عناهما عروة بن حزام بقوله[1] :

جعلت لعراف اليمامة حُكمه وعرّاف نجد إنْ هما شَفَيانى

وسَواد بن قارب الدَّوْسى ، وطريفة الخير كاهنة اليمن ؛ وهى التى أنذرت بمجىء سيل العرِم ، وخراب سدّ مأرب .

ومن الكواهن أيضاً ؛ زبراء كاهنة الشِّحْر وحضرموت ومابينهما ، وسلمى

(1) فى قصيدته التى مطلعها : —

خليلىّ من عليا هلال بن عامر بصنعاء عوجا اليوم وانتظرانى

الهمْدانية ، وسلمى الحميريّة ، وعُفَيْراء الحميرية ، وفاطمة الخثعميّة كاهنة مكة ، وزرقاء اليمامة ، وغيرهن من ذوات التجلة والاحترام .

وبعض الكهان نسبوا إلى قبيلتهم أو بلدهم ؛ ككاهن قريش ، وكاهن حضرموت .

ولئن كان تعبير الرؤيا مما يدخل فى باب الكهانة عند القوم إلا أن كثيرين من غير الكهان كانوا يؤولون الأحلام ويفسرونها كأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان قبل الإسلام مشهوراً بتعبير الرُّؤَى .

وكان الكهان يصطنعُون لغة خاصة تمتاز بسجع غريب مؤثر فيه غموض وإبهام وتعقيد حتّى يكون كلامهم فى عمومه وإحاطته شاملا لتأويلات كثيرة وأمور متعددة مهما يكن من تناقضها واختلافها ، وبذلك تكون لغتهم المسجوعة صالحة للتعبير عنْ كل ما سيحدث ، وقادرة على صدق الدعوى بأن ما حدث أو يقع إنما هو ما تنبأت به وأشارت إليه .

وكان للكهان من المشورات والفُتيا فى كثير من الأحيان مايدل على عقل راشد ونظر ثاقب ، ومن الأمثلة التى نسوقها تدليلا على ذلك ؛ ماتحدثوا به عن عرّافة الحجاز — وكانت مقيمة بخيبر ، ولها فيما زعموا رِئىّ من الجن — فقد لجأ إليها القرشيون لاستطلاع غيبها ، وأخذ رأيها فى مشكلة عبدالله ابن عبدالمطلب بن هاشم وقصة فدائه ، عندما هم أبوه أمير مكة بذبحه ، بعد الاقتراع بالسهام على أولاده العشرة عند الصنم الأكبر « هُبَل » فى جوف الكعبة ، وفاء بنذره الذى كان قد أخذه على نفسه للآلهة حينما حاولت قريش منعه من حفر زمزم بعد ما طَمّتها[1] جرهم ، وكان القرشيون قد عيّروه فى أثناء اختلافه معهم على الحفر بقلة الولد .

(١) طمتها : ردمتها

ولما عرض الأمر على الكاهنة ، قالت لمن جاءها من قريش : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلدكم وَقربوا صاحبكم عبد الله ، وقربوا معه عشراً من الإبل ، ثم اضربوا القداح عليها وعليه ، فإن خرج القِدْح على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشراً فعشراً وهكذا ، حتى يرضى ربكم ، ويخرج القدح على الإبل ؛ بالغًا عددها مابلغ ، فانحروها عنه ، وبذلك يرضى ربكم ، وينجو صاحبكم .

فعادوا إلى مكة من حيث أتوا ، وفعلوا ماأمرت به ، حتى بلغ الفداء مائة من الإبل ، فخرج القِدْح عليها ، وأبى عبدالمطلب الشيخ إلا أن يطمئن إلى رضاء الآلهة عن فداء ولده الحبيب ، وقد كان أصغر إخوته ، فضرب بالقداح عليها وعليه ثلاث مرات ، فكان القدح يخرج فى كل مرة على الإبل . وإذْ ذاك اطمأن قلب عبد المطلب المؤمن بآلهته إلى رضائها ، ونُحرت الإبل ، وتركت لحومها ؛ ليطعمها الآكلون لايُصدّ عنها إنسان ولاسبع من الحيوان .

وبذلك نجا عبدالله من الذبح ، وقُضى فى المهد على سُنّة كان عبدالمطلب الهاشمى على وَشك أن يستنها للعرب ، بفضل مشورة تلك الكاهنة الجليلة الحصيفة .

(١٣) — الزجر والطرق بالحصى :

أما الزجر فهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ونتائجها ؛ تفاؤلا وتشاؤما ، فكان الرجل منهم يعمد إلى طائر يرميه بحصاة أو يصيح به ، فإن ولّاه فى طيرانه ميامنَه تفاءل به ، وإن ولاه مَياسِره تشاءم منه وتطيّر به .

وأما الطرق بالحصى فهو استخدامها وطرحها على الأرض وضربها للكشف عن الغيب واختراق حجبه ، ومعرفة ما وراء عالمه من أسرار وخفايا .

ومن العرب من لم يعبأ بالزجر والطرق بالحصى ، كالمرقِّش الأكبر ، ولبيد بن ربيعة العامرى ، ومن ذلك قوله :

لعمرُكَ ماتدرى الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطّيرِ ما الله صانعُ

(١٤) الشعر والحكم والأمثال والألغاز والماتنات : —

ما كان العربى إلا إنساناً فيه عاطفة ، وبين جنبيه نفس متأثرة تعشق الحْرية والعـدل ، وتحب الطبيعة والجمال ، طال إصغاؤها لتلك النغم المترددة فى أسجاع الطير ، وحنين الإبل ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر ، وهزيم الرعد ، وعصف الريح ، وصهيل الخيل ، وقعقعة السيوف ، وصلصلة الأصفاد ، وزمجرة الوحوش ... فما هو إلاّ أن حكى صداها ، وصار وتراً من أوتارها يشدو معها .. . ولقد ضرب العربى فى تلك البادية القاحلة ، على ظهر راحلته البازلة ؛ يبتغى من فضل الله ، ترقصه تلك الإيقاعات المتوالية ، فهدته نفسه الشاعرة أن يلقى على ضروبها من ألحانه الساذجة حداءاً لناقته ، وأنيساً له فى وحشته ... وما كان للناس عجباً أن يمتاز العربى بالشعر ، وأن يفوق فيه سائر الأمم ؛ إذْ لم يعرف عنه أنه مال إلى فلسفة أو نشط إلى علم أو زاول صناعة .. . وإنما كان اهتمامه مصروفاً إلى هذا الفن الجميل من القول ؛ حتى صار الشعر من أهم معارف الجاهليين التى وجهوا إليها جل عنايتهم ، وعظيم اهتمامهم . . فاتخذوه ديواناً لعلمهم وأخبارهم وحكمهم ، وجعلوه سجلا لحياتهم ومفاخرهم وأيامهم ، فأصبح مصدراً من مصادر معرفة أحوالهم وبيئاتهم ومعالمهم . فقد وصفوا فيـه طبيعة بلادهم وأطلالهم ودِمَنَهم ، ومصايفهم ومرابعهم ، وأجواءهم ، وخصبهم ومحلهم ، وجبالهم وسهولهم ، وصحاريهم وقفارهم ؛ حتى لـكأن هذا الشعر الذى جرى على لهواتهم هو لدى الباحث مرآة بحثه التى يشاهدهم فيها على سجاياهم وصورتهم .. . بل إنه عند الباحثين وثائق تاريخية جغرافية لـكثير مما يريدون معرفته من أحوالهم وأمورهم وحروبهم وخصالهم وطبيعة بلادهم .

وقد أجاد هؤلاء القدامى فى ضرب الأمثال لأنها توافق مزاجهم العقلىّ فى النظر الجزئىّ الموضوعىّ، لا الكلىّ الشامل، وهى لا تستدعى إحاطة بالعالم وشئونه، ولا تتطلب خيالا واسعًا مغرقًا، ولا تحتاج إلى بحث عميق وَنظر فيه تدبر وَاستقصاء، وَقوة تفكر وَاستقراء، وَإنما هى أمثال تستخلص من مرور الحوادث وتعاقبها. وتجارب الأمم ومصائرها.

وكانت لهم فى الحياة نظرات حكمّية، وخطرات فلسفية، هدى إليها العقل السليم، والفكرة الخاطفة، والنظرة العجْلَى، فلم يخرج ما أثر عنهم من ضروب الحكمة على أن تكون فى جملتها أشبه بالحقائق المجردة، والبديهيات المقررة، التى لا تبعد عن متناول الفطرة وإنتاج التجربة والمشاهدة.

والحكم والأمثال العربية شأنهما كشأن أخواتهما فى سائر اللغات السامية؛ لا تعتمد فى استخلاصها على أسس من النظريات المنطقية أو العلوم المدوّنة ولا على إجهاد الفكر فى التعمق والبحث والاستقراء والاستنباط، ولذلك امتازت بإيجاز ألفاظها ووضوحها، وكان تأثيرها تأثيراً عاطفياً فى فكاهتها وسخريتها، وعظتها وإنذارها، لأنها تستلهم كيانها من الوجدان أكثر مما تستلهمه من العقل وَالفكر.

وَقد شاع بينهم ذكر شخصية حِكْمِيَّة هو لقمان الحكيم. الذى اتخذوه مثال الحكمة، فنسبوا إليه كثيراً من الحكم وَالأمثال. وَقد ورد ذكره فى القرآن الكريم؛ وسُمّيت إحدى سوره باسمه.

ومن أشهر حكمائهم زهير بن أبى سلمى، وأكثم بن صيفى وغيرهما.

والمشهورون من شعراء الجاهلية وخطبائهم، وبلغائهم وحكمائهم كثيرون إلى حدّ يجلّ عن الحصر، حتى لقد بات كل امرىء منهم فى أجلاده خطيب،

أو شاعر ، أو بليغ ، أو حكيم ؛ ممن يؤرخ لهم تاريخ الأدب ، ويتناولهم فى مباحثه .

ومما يلحق بحكم العرب وأمثالهم أنواع أخرى ؛ ترتبط بهما غاية الارتباط ولها قيمتها الكبيرة فى الدلالة على ثقافة العرب ، وحياتهم العقلية ، وهى قصص الحيوان ، والألغاز والأحاجى ، والمماتنات[1] .

ومن أمثلة قصص الحيوان ، ما زعموه من أن الظليم ذهب يطلب قرنين فرجع بلا أذنين .. وأن الغراب ذهب يتعلم مشية القطا فلم يتعلمها ، ونسى مشيته ومن أجل ذلك فهو يحجل عند سيره .. وأن الضفدع كان بلا ذَنَب لأن الضبّ سلبه إياه .. وأن الهدهد لمّا ماتت أمه أراد أن يَبَرَّها فجعلها على رأسه ؛ فبقيت فيه إلى الأبد وقنزعته هى قبرها . وقد انتنت ريحها لذلك .. وزعموا أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح ؛ فما من حمامة إلا وهى تَنْشُده وتبكيه وتدعوه ، وما من سميع يسمع الدعاء ، ولا من مجيب يلبِّى النداء .

والأمثال الفرضية كلها من هذا النوع ؛ كالذى يزعمونه من أن أرنباً التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب ، فتنازعاها واختصما فيها ، فانطلقا إلى الضب ليحكم بينهما . فقالت الأرنب يا أبا الحِسْل ، قال : سميعاً دعوت ، قالت : أتيناك لنحتكم ، قال : عادلا حكمتما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال : فى بيته يؤتى الحكم ، قالت إنى وجدت ثمرة ، قال : حلوة فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغى الخير ، قالت : فلطمته ، قال : بحقك أخذت ، قالت : فلطمنى ، قال : حرّ انتصر ، قالت : فاقضِ بيننا ، قال : قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالا .

ومثل ما حكوه أيضاً من أن أخوين أجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما واد خصيب ؛ فيه حيَّة تحميه ، فهبط أحدهما الوادى ، مخالفاً نصيحة أخيه ،

(١) المماتنة . المباعدة فى الغاية .

فرعى فيه زمناً ، ثم نهشته الحية ، فقتلته ، فجاء أخوه الوادى يطلب ثأره . فقالت له الحية : هل لك فى الصلح ؟ أدَعُك فى هذا الوادى وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت على قيد الحياة ، فحلف لها ألاّ يؤذيَها ما وفت له بعهدها الذى عاهدته عليه . ومرت به الأيام فحسُن حاله ، وكثُرَ ماله .. ولـكنه لم ينْس مصابه فى أخيه ، وهاجته ذكراه ، فأخذ فأساً ، وتبع الحية ، فضربها ، فأخطأها ، وفرّت منه ، وأثرت الفأس فى جُحرها ، فقطعت عنه الدينار ، وأخذت منه الحيْطة والحذر ؛ فخاف شرها ، وندم على ما كان منه لها ؛ ثم أتاها معلناً ندمه وتوبته وقال لها : هل لكِ أن نتواثق ونعود إلى الودّ والمسالمة كما كُنَّا ؟ فقالت له : كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ ! فصار قولها مثلا ؛ يضرب فيمن لا يرعى ذمّةً ، ولا يفى بعهد .

أما عن الأحاجى والألغاز والمماتنات ، وما ذكره الرواة منها ، وما تحدث به الأخباريون عنهـا ، ولا سيما فيما يتعلق بالإلْغاز والِحْجاج الذى جرى بين أمرىء القيس وعبيد بن الأبرص ، وفيما يتعلق بالمماتنة التى جرت بين التوْءم اليشكرى وصاحبنا آمرىء القيس ، وكذلك فيما يتعلق بقصة إيلائه على نفســه بألاّ يتزوج آمرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنتين ، ما هى ؟ وما كان من غدر العبد الذى ألقى بهذا السيد فى القليب إلى آخر ما أحتوته هذه القصــة التى سَمَر بها عمر بن هبيرة الفزارى عند عبد الملك بن عمير .. كل هذا آلِحجاج والإلغاز سيرد فى مواضعه الخاصــة من مباحث هذا الـكتاب وأبوابه التى نتحدث فيها عن آمرىء القيس .

والمماتنات والأحاجى والإلْغاز هى من مظاهر الألمعية لدى الجاهليين ، وفيها من الدلالات ما ينبىء بقوة عارضتهم ، وسرعة بديهتهم ، وحدة خاطرهم وإشراق نفوسهم ، وصفاء أذهانهم .

(١٥) وضع اللغة وتهذيبها : —

إن الباحث المتأمل لمـا حوته اللغة العربية من سعة ألفاظها ودقة تعبيرها ، وغزارة معانيها ، وما امتازت به من الإعراب والترادف والتضاد والاشتقاق والتصريف وطرق الدلالة وكثرة الأفعال والأسماء للحسيات والمعنويات وغير ذلك مما يدخل فى مجالات الوضع اللغوى ، يدل بوضوح على مدى ما وصلت إليه العقلية العربية من ألمعية وخصوبة وذكاء فى الإنتـاج اللغوى التعبيرى ، وفى ذلك يقول المستشرق « نولدكه » : إننا ليتملكنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم ؛ إذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشئونها ، وتوحّد مناظر بلادهم ، واطرادها اطراداً يدعو إلى السآمة والملل ، وهذا يستتبع حتما ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم فى داخل هذه الدائرة الضيقة وضعوا لكل تغيرّ — وإن قل — كلمة تدل عليه ، وقد تضخمت معاجم اللغة بما استعمله الشعراء من كلمات . . . ويقول أيضاً : يجب أن نعترف بأن معجم اللغة العربية غنىّ غنىّ رائعاً ، وسيبقى دائماً مَرْجِعاً هاماً لتوضيح ما غمض من التعبيرات فى جميع اللغات السامية الأخرى ؛ وليست اللغة العربية غنية بكلماتها فحسب ، بل بقواعدها فى نحوها وصرفها أيضاً .

وحسب العرب فخراً أن يكون لهم هذا الصيت البعيد ؛ فيما قاموا به من مجهود لغوىّ فكرىّ عظيم ، تمخضت عنه هذه اللغة القديمة التى كُتب لها الخلود والبقاء .

وإن كانت اللغة العربية لا تظهر غناها المفرط وترفها العظيم إلا فى حدود ما رسمته لهم بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ؛ فيكفيهم فضلا أنهم لم يعيَوْا بتصوير مشاعرهم وعواطفهم وأفعالهم ، ووضع المسميات لمـا وقعت عليه أبصارهم ، وأدركته حواسهم وعقولهم .

وليس من شك في أن هذه المجهودات الفكرية التي اعتزت بها تلك الأجيال من العرب منذ آماد بعيدة ولا نزال نعتز بها نحن إلى أيامنا ، وستعتز بها الأجيال الآتية بعدنا ، ومنها ذلك الوضع اللغوى للمدلولات وللمسميات من المعنويات والمحسوسات . وما امتازت به من الإعراب والاشتقاق ، والتصريف للألفاظ والأفعال ، مراعاة للدقة فى مفاهيم الكلام وأداء المعانى ، كل ذلك من أروع ما أوتيه العقل العربى ، وما يؤتاه العقل الإنسانى بصفة أعم .

ومن البديهى أن اللغة لا يمكن أن تتولد فيها كلمة إلا للتعبير عن معنى قائم بأذهان أربابها ، مما يكون داخلا فى نطاق خبراتهم وتجاربهم وممارستهم كالملبوسات ، والمطعومات ، والمشروبات ، وأسماء الأدواء والدواء ، وسائر المرئيات والمحسات ، وأنواع العواطف والفضائل والسجايا ، والمعنويات والمدركات الفكرية .

واللغة العربية وسيعة الآفاق فى هذه المجالات ، بل هى أوسع اللغات القديمة الباقية على الإطلاق فى الألفاظ العمرانية والسياسية والطبيعية والوجدانية ، وغير ذلك من المدلولات التى احتوتها معاجم اللغة .

ومن البديهى أن الوضع اللغوى لا يأتى دفعة واحدة على ألسنة ذويه ، بل إنه يخضع لعدة عوامل تطورية يكون لها الأثر الفعال فى نمو اللغة واتساعها ، ووصولها إلى ما وصلت إليه ؛ حتى تفى بحاجات المجتمع ، وتقوم بمطالب العمران ومقتضيات الحياة ، وغير ذلك مما يبحثه علم « الفيلولوجيا » أى علم فقه اللغة .

ونشير بصفة خاصة إلى تلك الجهود التى بذلها العقل العربى ، واللسان العربى بصدد تهذيب اللغة ؛ لأن عوامل هذا التهذيب وممارسته ، مما شملته الحركة

الفكرية والأطوار الثقافية للعرب فى الجاهلية ، وهى من أهمّ الظاهرات الاجتماعية اللسانية العقلية فى العصر القديم .

وقد جاء هذا التهذيب نتيجة لاستفحال أمر قريش ، وعظم نهضتها الاجتماعية ، وتمكنها من بسط سيادتها العامة ، ونفوذها الأدبى على جمهرة القبائل العربية ، ذلك لأن قريشاً كانت فى مكة ، ومكة حاضرة العرب ، ولها موقعها الاقتصادىّ الفذّ ، ومكانتها الدينية المرموقة فى الجاهلية ، ثم فى الإسلام ، وفيها تلتقى القوافل عند غدوها ورواحها شمالاً وجنوباً ؛ فقريش كانت بحكم طبيعة بلدهم ، وظروفهم الاجتماعية ، أدنى إلى منازع المدنية من سواهم ، وكانوا أهل بيت تعظمه العرب ، وتحج إليه ، وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت : من الحجابة ، والسّقاية ، والرّفادة ، والنّدوة ، واللواء ؛ وكانت أسواق العرب التجارية الأدبية مطيفة ببلدهم ؛ فى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وكانوا فى بسطة من الغنى ، وسعة من العيش ، ينعمون بثراء طائل ، اقتضته ظروفهم الاقتصادية وتملكهم أزمة التجارة فى أيديهم ، وغدوهم بها على سائر أنحاء الجزيرة ، وإيلافهم فيها رحلة الشتاء والصيف ، فيرحلون إلى اليمن شتاء ، وإلى الشام صيفاً

وقد امتدت الحقب بالعرب قديماً — كما تمتد بالمسلمين حديثاً — ومكة هى مهوى أفئدتهم ، وقبلة عبادتهم ، ومطمح أنظارهم ، ومنتجع هواهم .. فما تجرؤ بقعة من البقاع فى جزيرتهم أو غيرها قديمًا وحديثًا ؛ على أن تنزع من مكة أمجادها ، أو تنال من الحظوة مثل ما كان ويكون لها عند العرب بخاصة والمسلمين عامة .

فالمناذرة قديماً حاولوا صرف العرب عنها إلى بيتهم الذى أقاموه بالحيرة ، كما حاول أبرهة الأشرم الحبشىّ أن يصرفهم عن كعبتهم فيها إلى كنيسته التى بناها بصنعاء ، ولكنهم فشلوا فى محاولاتهم ؛ وبقيت أفئدة العرب تهوى إلى

موطن قريش .. إلى مكة أم القرى .. إلى بيتهم العتيق الذى رفع قواعده خليل الله إبراهيم ؛ وجدهم العظيم إسماعيل ، عليهما السلام .. ثم من بعد إلى مهبط النبوة .

وفوق ذلك فقد خصّ الله القرشيين بصفاء أذهانهم ، ورقة حواسهم ، ولطف أذواقهم ، وعظم ملكاتهم ومواهبهم ، فكانوا بتظاهر هذه العوامل وتساندها على استعداد قوى لتهذيب لغتهم ، بأخذهم ما يروقهم ، وتركهم ما يجافى أذواقهم من لغات القبائل الوافدين عليهم ، أو الراحلين هم إليهم ، ثم التأثير فى ألسنة مخالطيهم ، فتسمو لهَوَاتهم عن الحُوشية والمُعاظلة .

كل هذه العوامل أدّت إلى سيادة لهجة قريش على سائر اللهجات العربية ، ثم اتخاذها اللغة الرسمية فى الشعر والخطب والمناظرات والوفادات .. وبذلك صارت لقريش زعامة العرب اجتماعياً واقتصادياً ولغوياً ودينياً قبل الإسلام بعدة قرون .

ثم كانت هذه الزعامة فى نهاية الأمر إرهاصاً وتمهيداً لمعجزة أتم وأكمل ، وهى نزول القرآن الكريم على النبى العربى الأمىّ « محمد صلى الله عليه وسلم » بلغة قريش ، فغدت الجزيرة فى وحدة عربية شاملة من أقصاها إلى أقصاها ؛ واكتملت سيادتها وزعامتها على العرب قاطبة ؛ بفضل القرآن الكريم والإسلام الحنيف ، والنبى الأمين .

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيز » .

(١٦) وثنية العرب ومذاهبهم الدينية : —

كانت النزعات الدينية عند العرب فى الجاهلية ترجع إلى ثلاثة أصول ، لها الأثر الأكبر فى نظمهم الاجتماعية ، وحياتهم العقلية ، وفى أخلاقهم وعاداتهم

وهذه الأصول الثلاثة هى : الوثنية ، واليهودية ، والنصرانية ؛ وكانت الأولى هى الدين الغالب إذ ذاك ؛حتى عمّت أكثر بقاع الجزيرة العربية .

وقد كان غير الكتابيين من هؤلاء القوم على نِحَلٍ مختلفة ، ومذاهب شتى ، فمنهم الصابئة عبدة الكواكب والأجرام السماوية ، ومنهم عبدة الأوثان والأصنام ، ومنهم عبدة الملائكة والجن .. كانت الشمس معبود حمير ، والقمر والدبران رَبّا كنانة ، والمشترى إله لخم وجذام ، وسهيل إلٓه طيّىء ، وعطارد إله أسد ، واللات إله ثقيف ، ومَناة إله هذيل وقضاعة ، ووَد إلٓه بنى كلب .. وغير ذلك من الكواكب والأصنام التى اختصت بعبادتها قبائل بأعيانها .

وإنه ليطول بنا القول إذا نحن أسندنا إلى كل قبيلة إلٓهها ، وتقصّينا جميع أسماء تلك الآلهة ؛ وعلى الجملة فقد جعلت العرب من النجوم والكواكب آلهة كثيرة ، فألهت الشمس والقمر والشعرى والثريا والجوزاء والجدى والحمل والدبران وسهيل والمشترى والعيُّوق وعطارد .. ومن أصنامهم التى عبدوها : ودّ وسواع ويغوث ويَعُوق ونَسر واللات والعزى ومناة وهُبَـل الأكبر وأساف ونائلة ، وغيرها مما ورد ذكره فى كتاب الأصنام .

ويقال إن عمرو بن لُحَىّ الذى ملك مكة حقبة من الزمن القديم ، كان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى بلاد العرب ،فقد أتى بها من البلقاء حين خروجه إلى الشام فى بعض شأنه ، ثم نصبها حول الكعبة ، وجاء بهُبَل الأكبر من «هِيت» بأرض الجزيرة فيما بين دجلة وَالفرات ، وَجعله فى الكعبة وَعنده سبعة قِداح ، وَبذلك غض من دين الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السلام ، وَصرف العرب عنها إلى الوثنية ، وعبادة الأصنام ، وَالاستقسام عندها بالأزلام ، ومع ذلك فقد بقىَ جماعة من العرب حُنفاء ، منهم قُسّ بن ساعدة الإيادى ، وَأميّة بن أبى الصلت ؛ وَزيد بن عمرو بن نفيل ؛ وَوَرقة بن نوفل ؛ وَعثمان بن الحارث .

وَقد شابت وَثنية العرب عقيدة التثليث ؛ التى كانت منتشرة لدى كثير من الشعوب فى العصور القديمة ؛ وَمِنْ قبل أن يعرف العرب عبادة الأصنام ؛ ففى الكعبة كان هُبَل الأكبر وإلى جانبيه أساف ونائلة ، كما قرنوا فى التقديس اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . وفى اجتماع أمثال هذه الأقانيم الثلاثة تقليد ومحاكاة لثالوث قدماء المصريين : إيزيس وأزيريس وحورس ، وثالوث الهند : كريشنا وسيفا وفيشنو ، وشبيه بذلك أيضاً ثالوث النصرانية : الأب والابن والروح القدس .

وقد كان فى الكعبة تمثالان لإبراهيم الخليل وولده إسماعيل ، وكل منهما قابض على نبال الكهانة ومعرفة المستقبل .

ومن شعائرهم الدينية القرابين ؛ يذبحونها على النُّصُب ، ويتزلفون بها إلى أصنامهم وآلهتهم ، وكانوا يحجُّون ويعتمرون ، ويَحْرِمون ويطوفون ، ويسعون بين الصفا والمروة ملبّين ، إلا أن كثيراً منهم كان يشرك فى تلبيته ، وكانوا يقفون مواقف الحج كلها ، ويهدون الهدايا ، ويرمون الجمار ، ويعظّمون الأشهر الحرم ، فلا يكون فيها عدوان ولا قتال ؛ إلّا قبائل طيىء وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب ؛ فإنهم ما كانوا يحرِمون ولا يعتمرون ، ولا يحرّمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام .

والعقائد الوثنية العربية غير محكمة التأسيس ، وغير قائمة على نظريات عقلية واضحة ، ومعتقدات عامة شاملة ، فقد اختلفت وجهة نظرها فى المبدأ الأول أو الخالق ، فتارة ترتكز على أساس من التوحيد ، وتقول بإله واحد هو الأكبر ، وأن الآلهة الأخرى ليست سوى وسيلة يتوسل بها إليه ، وأن عبادتها لا يقصد بها سوى التقرب من ذلك الواحد الأحد والزلفى إليه ، وطوراً وهو الشائع تخصّ كل إله بنفوذه الخاص ، وتطلب عبادته لذاته ، وهى مع ذلك فى

حالة اضطراب فى أمر المعاد ، فنراها أحياناً دَهْرِيّة لا يهلكها إلاّ الدهر ، وليس النّشر عندها بعد الموت سوى حديث خرافة ، كما نراها فى مواطن متعددة تؤمن بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب

وكما أن الوثنية كانت غير قائمة على نظريات عقلية واضحة ؛ كانت أيضاً غير مهذبة النواحى والتكوين العام ، لهذا لم تصل إلى تكوين ديانة راقية نوعاً ما ، بحيث تهذب النفوس ، وتؤثر فى تحديد نظم الاجتماع شأن الوثنيات الأخرى عند قدماء المصريين والجرمان واليونان والرومان ، وكان من جراء ذلك أن بقيت القبائل العربية بدوية فى حياتها الاجتماعية محافظة على أخلاقها وعاداتها المكتسبة من طبيعة البلاد ، معتزّة بمجد القدماء وشرف القبيلة ، جانحة للغزو والسلب وسفك الدماء لأوهى الأسباب .

وأجلى مظهر لضعف العاطفة الدينية عند الوثنيين العرب ؛ أنهم لم يكونوا على أمر جامع من عقائدهم ؛ شأن الذين لا عراقه لهم فى الدين ، وليست لأصنامهم هيئة ممتازة تسيطر على عقائدهم ؛ وتمدهم بالتعاليم التى تذكى نار العاطفة فى نفوسهم ؛ بل كانت وثنيتهم وثنية ساذجة لا تتجاوز تقليد الآباء ، واتباع الأسلاف ؛ قال تعالى : —

« إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّين . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُون »

« قالوا إنَّا وجَدْنا آباءَنا عَلَى أُمّة وإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُون »

« وإِذَا قِيل لَهُم اتَّبِعُوا ما أنزَل الله قالوا بل نتَّبع ما وَجَدْنا عَلَيْه آباءَنا »

لهذا كله كان فى الكعْبَة وحولها ؛ جميع أصنام العرب التى كانوا يعبدونها فدخل النبي — عليه الصلاة والسلام — مكة وحَوْل البيت (٣٦٠) صنما ، مع

أن أصنام قريش — وهم سكان مكة ، وسدنة البيت ، وزعماء التجارة فيها — لا تعدو أصابع اليد ، وأعظمها هُبل .

وقد رضيت قريش بإقامة كلّ هذه الأصنام فى الكعبة ؛ لأنها ليست لهم وحدهم ، بل هى بيت الأمة العربية جمعاء ، فلا بد من البحث عما يرضى كلّ قبيلة فى الأمة ، وإلاّ نقص رزقهم ، وخسرت تجارتهم .

فالكعبة كانت مجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم ... ومن عجيب الأمر أن البناء الذى شيده إبراهيم لتّمجيد الإله الواحد الذى اهتدى لتوحيده بوحى ربه وبتفكيره وتضحيته صار بعده وبعد ولده وأحفاده موضعاً لتمجيد الأصنام .

وقد كانت مقاليد الوثنية العربية،وأزمة أساطيرها بأيدى الكهنة والعرافين فكان العرب يعتقدون فى الكاهن : أنه قديسهم الدينى ، وقدوتهم الصالحة ، وعالمهم الحكيم ، وكانوا يرجعون إليه فى أمور الدين والدنيا ؛ وفى الطب فهو طبيبهم القادر على شفائهم ، وفى القضاء ، فهو قاضيهم الذى يرجعون إليه فى أمور الخصومات وتحديد المعاملات ، وكانوا يتلقون عنه قواعد الدين وأصول الشريعة ، ويستنبئونه عن المستقبل ، ويستفتونه فى كل ما يشكل عليهم ، وهم يؤمنون به فى كل ذلك إيماناً صادقاً ، فقوله عندهم غيب ووحى وصل إليه عن طريق الأرواح المشرفة على هذا الكون ، وأنها لا تبيح أسرارها إلا للكهنة ، وهى تظهر أحياناً فى الأصنام كما يزعمون .

والذى نراه من مظاهر العبادة الوثنية فى مكة أن سدنة الكعبة تمكنوا من استغلال هذه الأصنام ، وجعلوها تدفع أجر إقامتها واحترامها بطريقة منقولة عن مصر وعن اليونان وبابل والهند ، فكان من يأتى ليستقسم بالأزلام أو يستشير الأصنام — ولا سيما هبل الأكبر — عليه أن يدفع ضريبة من المال « لمحرك الوحى » كما كانت الحال فى طيبة بمصر ودلف باليونان ؛ فيدفع

للكاهن مائة درهم ويقدم إليه جزوراً .. وما كان السادن يقتنع من الزائر المستفتي بهذا ، بل كان يتقاضى منه رسماً على الزيارة ، وإنه لملزم بأن يشترى طعامه وشرابه وثيابه من مكة نفسها ، فكان الحاج المستفتي يخرج من ماله قدراً كثيراً في سبيل هذا الاستفتاء الوثني الذى كان بمثابة تجارة لمكة كلها .. ومن محركي الوحي غاضرة بن حبشة بن سلول بن كعب وهو صاحب قداح هبل التي يضرب بها على ما يريدون من نية سفر أو رغبة في أمر بعد أن يتقاضى منهم ضريبة الإنباء بالغيب .

وهذا الابتداع الديني الذى اعتز به عمرو بن لحى ومن جاءوا بعده ، واعتبروه إصلاحًا دينيًا — وما هو غير الضلال — لم يسخط عليه أحد ؛ مما يدل على أن العاطفة الدينية كانت لديهم ضعيفة ، فلم يغضب أحد للحنيفيّة ملة إبراهيم .

كان الوثنيون وهم السواد الأعظم من الأمة يصدقون بوجود الله — سبحانه وتعالى — ويعتبرون تلك الآلهة من الأصنام والأوثان شفعاءهم لديه .. وكانوا يحترمون الكهان والأصنام ، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم تتحقق عندهم أخبارهم بالمغيبات .. وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية .

يقول « كوسان دوبر سوفال » في كتابه : تاريخ العرب قبل الإسلام :

وكان من العرب من يعتقد بفناء الإنسان إذا رحل من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة . وكان هؤلاء إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها حتى تموت جوعاً ؛ معتقدين أن روح الميت بعد انفصالها عن جسده تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى — وهو نوع من البوم — ما تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة

ساجعة تأتيه بأخبار أولاده وأحبابه ، فإذا كان الفقيد قتيلا تصيح هامته وصداه قائلة أسقونى ، وما تزال تردد هذا الصياح حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه .. وكانت طبائع العرب وأخلاقهم تدل على أنهم شعب لا يكاد يتجاوز العتبة الأولى من عتبات الاجتماع » .

والدين الوثنى ملّة فاسدة حافلة بالأوهام والخرافات وسخافات المعتقد .. وقد كانَ بين العرب أفراد قلائل يعدون على الأصابع يدركون ما فى هذا الدين من ضلال وباطل ، ويشعرون فى أنفسهم بالحق ، ويتلمسون عقيدة مُثلى يستشعرونها فى ماضيهم الروحى على مقتضى ملة إبراهيم .. هذه الفئة القليلة التى تحنفت واعتصمت بالحنيفيّة التى أتى بها إبراهيم ، منهم : أمية بن أبى الصلت فى الطائف ، وزيد بن عمرو فى مكة ، وأبو قبيس بن أبى أنس وأبو عامر فى المدينة ، وآخرون سواهم ... كانوا هم البقية الباقية من دين إبراهيم ، وقد أطلقوا على أنفسهم اسم المتحنفين .

ومما لا شك فيه أن أهل مكة كانوا وثنيين بالفطرة وبالتقليد ؛ يقدسون ما كان عليه آباؤهم من العبادة .. ولاريب فى أن أهل مكة والمدينة والطائف وهى عواصم الحجاز الثلاث اتصلوا باليهود والنصارى ووقفوا على كثير من معتقداتهم المنزلة ، ولعل بعضهم لم تكن تشغله مطالب الحياة عن تقليب النظر فى صحف إبراهيم وموسى ، وإنجيل عيسى ، وزبور داود ومزاميره ، ومواعظ سليمان وأناشيده ، وقراءة سفر أيوب وحكمة لقمان .. ولكن هذه النظرات الخاطفة — إن وجدت لدى نفر من القوم — لا تكفى لحدوث حركة فكرية واعية ترمى إلى البحث والتفكير فى حقائق الأديان وتنى بتعليلها والتأمل فيها .. ولقد باتت الوثنية لدى جماهير العرب عبادة تقليدية يرثها الأبناء عن الآباء « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .. وكان فى كل بيت أو محل

وفى كل دار وخيمة ، صنم تؤدى له فرائض العبادة والقداسة . . وكان المثال أبو بجرات يصنعها ويبيعها للبدو الوافدين إلى مكة .. وقد تخيل الجاهليون أربابهم على صورة البشر ، وقالوا « إنما نعبُدهم لِيُقرّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى » .

وبالبحث الاستقرائى نستدل على أن الجاهليين عبدة الأوثان لم يكن عندهم وازع دينى ، ولا رادع أخلاقىّ ، لأن حياتهم كانت مادية أرضية محضة ، لا تحكمها شريعة عصماء ، ولا تكبح جماحها سنة غراء ، ولا يضبطها خصلة من ضوابط الاستقامة وقواعد الأخلاق الاجتماعية المهذبة الراقية .. فكانت الخمر والخيلاء والتجبر والعشق والفُجر والطغيان والميسر والحرب والسلب والفسوق، وما إلى ذلك من طباعهم وخصالهم ومقارفهم .. ولكن كان منهم بلا ريب طائفة ليست بالقليلة تخضع لمبادىء الشرف والفضيلة وحسن السمعة .

نعم .. كان العربى الجاهلى الوثنى يعتمد على نفسه ، ويثق بها ، ويعول فى كل أموره عليها .. وقد تجلت هذه الثقة العمياء فى حياة هؤلاء الوثنيين .. يمتطى أحدهم صهوة جواده ، أو يعلو ظهر ناقته ، ويتمنطق بسيفه ، أو يتقلد رمحه ؛ ويتوغل فى الصحراء المقفرة منفرداً وحيداً لا أنيس له غير ثقته بنفسه ، ولا اعتماد له إلا على شخصه وشجاعته واعتقاده فى قوة بدنه وثبات جنانه .. فإذا وقع فى محظور ، فسيفه منجده ، ورمحه منقذه ... لا يستسلم للقضاء ، ولا يخضع للقدر ؛ فإن عقله لا يدرك تلك الأحكام ، ولا يسلم بوجودها ، ونفسيته هوجاء جبارة ؛ قوامها الأثرة والمجازفة ، وقد تنقلب عليه روح المغامرة والمخاطرة فيضحى بنفسه فى سبيل الأسرة ، أو القبيلة أو القوت الضرورى لنفسه ، أو سبى امرأة يهواها أو يسترقها ، أو ناقة يعقرها .

ولم تكن للعقيدة الدينية الوثنية أثر كبير فى النفسية العربية الجاهلية ، لأن نفوس هؤلاء كانت ذات طبيعة قاسية مستقلة ، على رغم خضوعها أحيانا للأهواء

القومية التي تعصف بالنفوس كالعشق والفخر والأخذ بالثأر .. ولعل هؤلاء العرب الجاهليون على الاطلاق — وثنيون وغير وثنيين — لم يشعروا بالعاطفة الدينية إلا بعد ذهاب الشباب وحلول المشيب ، إذ يحس دنوّ الأجل ، ويعتريه الندم ، وتدركه الحسرة على ما فاته من سعادة الحياة وجمال الأيام التي مضت وانقضت ، وذهبت ولن تعود .. وحينئذ يخرج من أعماق نفسه المحترقة المفجوعة في الشباب والغرام والخمر وانتهاب اللذات ، يخرج من أعماقها صرخة طويلة جازعة ، وقد يفرغ هذه الصرخة في قالب شعري ، يرسلها قصيدة عصماء ، كالتي نظمها امرؤ القيس في التفجع على الماضي والتحسر على الشباب ، فيذكر الموت وفرقة الأحباب ، ويندب حظه بعد فراق الحارث وحجر ، ويترقب اليوم الذي تنشب فيه المنية أنيابها وأظفارها ، والقصيدة تنطوي على عظة التفجع والندم على العهد الذي انقضى وانصرم .

ولعل المقيمين في مكة كانوا أكثر العرب اكتراثاً للدين لأنه كان يدر عليهم أرزاقاً ، ولأنهم مقيمون بجوار الكعبة على مرأى ومسمع من الأصنام والسدنة والكهان ، وتجارتهم إنّما تدور حول موسم الحج والأعياد التي تسبقه وتلحقه ، والأسواق التي تصحبه أو تتلوه وتعقبه . . . كان في مكة في الجاهلية أربعون سوقاً أعظمها عكاظ . . وقد كان لهم بالدين الوثني مقاصد تجارية ومنافع مادية . . وما من رجل في قريش إلاّ في بيته صنم إذا دخل يمسحه تبركاً به وتوثقاً فيه ..

أما ما وراء الطبيعة ؛ فقد كان في أذهان الجاهليين علماً غامضاً ؛ لأن العالم في رأيهم عالم حافل بالجن المتداخلين في شئون البشر ، يحاربونهم ، أو يؤاخونهم ويوحون إليهم الشعر ، وينقلون إليهم علوم الغيب على ألسنة الكهان ، ويصاهرونهم ، ويؤمنون بمعتقداتهم أو يكفرون بها ، ويحتالون لهم أو يحتالون

عليهم ، وكانت عقيدتهم أن الروح البشرية بعد فراق الجسد تنقلب طيراً وهامة . وتظهر حيرتهم أمام عظمة الكون . . وكانوا يعتقدون أن الشمس تغرب فى بئر أو أن تنيناً عظيما فاغراً فاه يبتلعها عند الغروب . . . وكانوا ما يزالون يعتقدون فى السحر الأسود والشعوذة ، ويقنعون بكهانة الكهان ، ويلجئون إليهم لفض مشاكلهم ، وتقسيم مواريثهم . . فكانوا ذوى معقولية قاصرة محدودة مضطربة .

وقد تأصلت الوثنية فى نفوس العرب وتغلغلت فى أفئدتهم حتى أن بعضهم كان فى الإسلام يحن إلى مظاهر الحياة الوثنية فى الجاهلية .. كان لكفار قريش وسواهم من العرب الوثنيين شجرة عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » يأتونها فى موسم معين من كل عام ، فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون لديها ذبائحهم ، ويعكفون عندها يوماً . . وقد رأى الحارث بن مالك ونفر معه بعد إسلامهم فى أثناء سيرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، رأوا شجرة خضراء ، فقالوا للرسول الكريم والنبي العظيم : يا رسول الله اجعل لنا « ذات أنواط » كما لهم « ذات أنواط » فأجابهم الرسول غاضباً : « الله أكبر .. الله أكبر .. قلتم - والذى نفس محمد بيده - كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم قوم تجهلون » .

وأما عن اليهودية فقد دخلت بلاد العرب لقربها من مهد هذا الدين ، وأيضاً لأن اليهود طالما نزحوا إلى بلاد العرب مما يلى بلادهم ، إما فراراً من القتل ، أو التماساً للرزق ، وقد سكن كثير منهم بلاد العرب ، فانتشر دينهم ، حتى بلغ بلاد اليمن فى أيام ذى نواس الحميرى . . وفى السيرة لابن هشام أن اليهودية دخلت بلاد اليمن على عهد تبّع ، وأن بعض القبائل العربية فى غير هذا الإقليم قد عرفت هذا الدين قبل عهد تبّع .

.. كان فى اليمن يهود .. وكان فى بعض بلاد تهامة يهود ، وكان فى نجران وفى يثرب يهود . .

وفى اليمن انتحل « ذو نواس» أحد ملوك التتابعة الديانة اليهودية واعتنقها ودعا إليها بقية النصارى فى نجران ، فأبوا أن يرجعوا عن نصرانيتهم إلى اليهودية فعذبهم وأحرقهم - فكان هو وقومه أصحاب الأخدود كما تحدث عنهم القرآن الكريم - وبذلك كان فى نجران شهداء للمسيحية تحملوا الاضطهاد والإحراق . . وما زال هذا الجبار اليهودى يعذب ويحرق النصارى حتى غلبه على أمره نجاشى مسيحى فخاف من وقوعه فى يد عدوه فأغرق نفسه ، وصارَ حكم البلاد لأرياط الحبشى فحكم عشرين سنة .

ثم ولى الحكم من بعده أبرهة الأشرم ، وجعل عاصمته مدينة [صنعاء] .

وكذلك كان دخول النصرانية إلى البلاد العربية ، لمتاخمتها لفلسطين ، وهى المهد الأول للنصرانية كما كانت مأوى لليهودية بعد أن هاجر موسى وقومه إليها من مصر فراراً من بطش فرعون .

ويقولون : إن بولس الرسول كان أول من بشر بها فى الشام وما تاخمها ، فاعتنقها كثيرون من عرب الحيرة وغسّان وكندة وغيرهم . ويقولون أيضاً : إن القديس توما كان أوَّل من بشر بها فى بلاد اليمن .. وفى السيرة لابن هشام أن فيمون وحواريه عبد الله بن الثامر ، كانا فى طليعة المبشرين بها فى نجران .

ولما زاد اضطهاد المسيحية فى القرنين الثالث والرابع الميلادى فى مختلف الأقطار التى ناوأت المسيحية هاجر كثير من النصارى إلى بلاد العرب وأقاموا فيها .

أما عن مدى تأثير النصرانية على معتنقيها من العرب قبل الإسلام ، فقد كان ضئيلا من حيث الوعى اللاهوتى ، والإدراك العقيدى ، وذلك لأن

النصرانية كانت قد استمدت لاهوتها العقائدى من فلسفة اليونان ، ومن العسير على العقل العربى البدوى الأمىّ فهمها وإدراك كنهها . وفى ذلك يقول «دوزى» إن مسيحية ذلك العصر ـ الذى عاش فيه الجاهليون ـ فى عمومها وبما تحويه من الخوارق والأسرار ، وما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من إله مصلوب ، كانت قليلة الجاذبية ، يعزّ أن تسود فى شعب حتّى كالشعب العربى .

ويتحدث « مرجليوث » عن سبب ضعف تأثير النصرانية فى العرب ، فيقول : من الحقائق المدهشة أن هؤلاء النصارى من العرب لهم قسوس ورهبان وكنائس وصوامع ، وفيهم هراقطة ومبتدعون ، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نستدل بما لدينا من المصادر على ما كان عليه الكتاب المقدس ؛ أكان بأيدى العرب مترجما إلى لغتهم الأصلية المحلّية ، أم أن القساوسة اكتفوا بأن يكون لهم كتب دينية لا يعرف لغتها من بين العرب غيرهم ، وأنهم يكتفون عند تلقينهم ما يرون تعليمهم إياه من مبادىء الدين على قدرٍ من هذه التعاليم ؛ يصوغونها فى اللغة التى يفهمها هؤلاء الأعراب ، ثم يذكر مرجليوث أن الرأى الثانى عنده هو الأرجح .

ولئن كان أثر النصرانية على عقلية العرب الذين اعتنقوها ضئيلا من حيث العقيدة واللاهوت ، لقد كان لها أثر فى مظاهرهم التعبدية وبعض أحوالهم الاجتماعية ، إذ مال فريق منهم إلى الرهبانية والزهد ، والتأمل فى الكون والاعتبار بحوادثه ، وتذكّر البعث والحساب والجنة والنار .. ونجد مظاهر ذلك فيما روى من شعر عدىّ بن زيد ، وأميّة بن أبى الصلت ، والأعشى ، وأضرابهم .

ومن أثر النصرانية فيهم ـ أيضا ـ ظهور طبقة الموحِّدين الذين استنكروا

الأوثان ، ونفروا من الخضوع إلى الأصنام ، كورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو ابن نفيل ، وأمية بن أبى الصّلت ، وقُسّ بن ساعدة الإيادى ، وغيرهم .

ولم تتصل النصرانية بقريش اتصال الملاصق ، ولم تؤثر فيهم ، ولم تدخل إلى قلوبهم ، لأن ميولهم وعواطفهم كانت وثنية متعصبة حمقاء .. ولم يعلم عن مبشرين من النصارى حاولوا هداية هؤلاء الوثنيين . . نعم كان فى مكة بعض النصارى من أهل الكتاب ، ولكنهم كانوا ضعفاء لاحول لهم ولا قوة . . وكانوا فى هذا المجتمع الوثنى تابعين فى دورهم . . يعيشون بينهم كالمنبوذين . . أحدهم أعمى والآخر شيخ فان ، وثالثهم صيقل يصنع السيوف ، وثمة ثلة من الشعراء النصارى يرتزقون بأشعارهم ، ويرصعون نظمهم وقصائدهم بأسماء القديسين والأحبار وحكمة الأناجيل .. وهؤلاء جميعاً أقل وأعجز من أن يحاولوا نشر دينهم خوفا على أنفسهم من عبّاد الأوثان ، واكتفاء بالكفاف وقناعة الضمير . . وكان فى الجنوب نصارى من العرب لهم كنائس وبيع وأساقفة وقسس ؛ يقرءون كتاب دينهم بلسان أجنبىّ غير عربىّ ، لأنهم لم يقدروا على نقله إلى لغتهم ، ولأن من اتبع ملتهم كانوا قلة لا تستحق عناء الترجمة .. ولعل رجال الدين وحدهم هم الذين اختصوا بقراءة الكتاب المقدس بالآرامية أو اليونانية . . وقد كان فى نجران نصارى ، وفى جزيرة قريبة من عسير كنيسة .

هذا وليس فى شعائر اليهود والنصارى ولا فى كتبهم شىء من مجهود العقل العربى ، بخلاف الوثنية العربية فإن كثيراً من أساطيرها متأثرة بالفكر العربىّ وإن كان يغلب على أصولها عامل النقل والمحاكاة والتقليد .

وعلى حاشية هذه الأصول الدينية الثلاثة التى ذكرناها آنفاً ساق القدر إلى الجزيرة العربية دينا طفيليا ؛ لم يلق بين العرب رواجا ، ولم يجد منهم نفوساً تصلح لنمائه وانتشاره ؛ ذلك الدين هو دين الزّندقة ، ومهده الأول بلاد الفرس ،

ويعرف بدين المزدكية ، نسبة إلى الزنديق مزدك ، ذلك الرجل الفارسى الذي وُجدعلى عهد كسرى قُباذ ، وانتحل هذا المذهب ، وذهب فيه إلى إباحة الأموال والنساء والمتاع ، وجعل الناس شركة فيها ، فهو دين إباحىّ فوضوىّ ، وقد تعصب قباذ لصاحبه مزدك ، ودعا الناس إلى اعتناق مذهبه ، وحمل رجاله على التشيّع له ، راجياً أن يستولى بذلك على ما فى أيدى رعيته من الأموال والمتاع .

وكان ممن شايعه من العرب الحارث الكندى ملك كندة وجد الشاعر امرئ القيس ، فحمل هذا الدين إلى بلاد العرب ، لا مقتنعاً به ، ولا راضياً عنه ، ولكن لأمور سياسية ، وشهوات خاصة ، أهمها ما كان بينه وبين المنذر ملك الحيرة من عداء ومنافسة ، وكان المنذر قد حاق به مكر قباذ وشرّده فى البلاد حين ازورّ عن دين مزدك ، ولم يتشيع لمبادئه ، عندئذ وجد منافسه الحارث الكندى الفرصة مواتية لكسب صداقة قباذ وثقته ، وشفاء نفسه من أحقادها على المنذر على رغم ما بينهما من صلات المصاهرة والنسب ، فاعتنق هذا المذهب اعتناق المنافقين والانتهازيين .

على أن هذا الدين لم يكد يتجاوز عتبة الجزيرة العربية ، ويخطو فيها خطوة قصيرة ، حتى نكص على عقبيه ، وارتد خائباً مدحُورا ، فقد فعلت فيه السياسة من جديد أفاعيلها ، فقضت عليه وهو فى مهده فى فارس ، وفى بلاد العرب ، لأنّ قباذ أدركته المنية ، وجلس على العرش الكسروى بعده ابنه أنوشروان ؛ وقد كان ساخطاً على المزدكية وصاحبها وأشياعها أشد السخط ، لأنه لم ينس لمزدك محاولة نيله شهوته البهيمية من أمه ، وكان قباذ قد دفعها إليه استجابة لرغبته ، وما زال الأمير أنوشروان يقبل قدميه حتى تخلى عنها ، ولم يأت معها فعلته الشنعاء ، ولذلك لما دخل عليه مزدك مهنئاً بالملك قال له : والله ما نسيت نتن ريح جوربك من أنفى أيها الزنديق الفاجر منذ قبّلت قدميك إلى يومنا

هذا ! ! ثم أمر به فقُتِل وصلب ، وقُتل الكثيرون من أشياعه وأتباعه ، وكان نصيب الحارث الكندى التشرد فى البلاد .

هذا ولقد كانت كل ديانات العرب القديمة — كما رأينا — فيها عامل المحاكاة والتقليد والنقل عن شعوب أخرى وأمم مجاورة .

***

وعلى هدى ما سبق فى هذا البحث من تبيانٍ للبيئة الثقافية العلمية للجاهلية العربية ، نستبين مدى قدراتهم العقلية وجهودهم الفكرية ، ومقدار حصائلهم من العلم ، ومدى تراثهم من ألوان المعرفة وأنواع الثقافة ، وحظهم من الحياة العقلية فى نحلهم وعقائدهم ، كما يتجلى لنا أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن العلوم العقلية المحضة كالرياضيات والطبيعيات وما شاكل ذلك .

ومن العلماء الذين تصدوا لتقويم هذه الثقافة العربية ، الألوسى صاحب كتاب بلوغ الأرب ، فقد ذهب إلى حدّ الإغراق والسرف فى الحكم على الجاهليين ، فأطلق على معارفهم ، وبعض الظاهرات الذهنية الاجتماعية لديهم علوماً ، ثم أطلق العنان لبيانه ، وأسال مداد يراعه ، مستفيضا فى الإشادة بذكر هذه العلوم ، وراح يُوهم أن العرب العدنانية ، كان عندهم علم منظم بأصول وقواعد ، مع أن ماعرف عنهم فى هذا المجال ، لا يصحّ أن يسمّى علما بأى حال من الأحوال ، لأنه لا يتعدى فى جملته ، معلومات أولية ، وملاحظات سطحية ، نقلوا أكثرها عن غيرهم وأصابوها من سواهم .

وليس ذلك بغاضّ من شأنهم ، ولا نازل بأقدارهم ، لأنهم كانوا بداة أميِّين ، وما ينبغى أن يُحملوا على غير طباعهم ، أو يكلفوا ماليس فى طاقتهم ، مما لم تهيّئهم إليه أحوالهم وظروف حياتهم .

فلا عجب إذا اقتصرت معارفهم على ما جادت به قرائحهم من الشعر والخطب ، وما وعته حوافظهم من أنسابهم ، وتاريخ أيامهم ، وما أدركته أبصارهم وبصائرهم فى بيئتهم وعالمهم المحيط بهم ، وما تمرّسوا به فى تجاربهم وخبراتهم ، وما قاموا به من الجهود الفكرية اللسانية فى وضع اللغة وتهذيبها .

أما ابن خلدون فى مقدمته ، فقد كان موفقاً ومحققاً ومنصفاً لهم ، إذ يقول عنهم ؛ عند كلامه على علم الطب : وللبادية من أهل العمران طِبّ يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ؛ متوارثة عن مشايخ الحىّ وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج ، وقد كان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطبّاء معروفون كالحارث بن كَلَدَة وغيره .

ونظرية ابن خلدون هذه صالحة لتطبيقها على ما ورد عنهم من سائر معارفهم .

ومن قوله فيهم أيضاً : هم أبعد الناس عن العلوم ؛ لأن العلوم ذات الملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ، والعرب أبعد الناس عنها — كما قدمنا — فصارت العلوم لذلك حَضَرِيّة ، وَبَعُدَ العرب عنها وعن سوقها .

ونحن مع ابن خلدون فيما ذهب إليه ، لأن ما كان عند الجاهليين من ألوان المعرفة لا يتعدّى معلومات أوليّة ، وملاحظات بسيطة سطحيّة ، لا يصحّ أن تسمى علماً ، ولا شبه علم .. أما القواعد الأساسية التعقلية المنطقية ، والبحث المنظم الذى يسمى علماً فلا عهد للعرب الجاهليين به .

ومهما يكن من شىء فحسب العرب من الفخار ؛ ذلك الجهد العقلى الجبار الذى بذلوه فى ابتداع لغتهم الباقية على الدهر .. والتى حملت مشاعل النور والهداية والثقافة فى العالم بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

شباب امرىء القيس

ترعرع امرؤ القيس وكأنى به يتقلب بين نجد وروابيها ، واليمامة وأوديتها ، والبحرين وأحسائها ؛ وهو فتى ناعم العيش ، رخى البال ، قرير العين ، خلى القلب من هموم الحياة وأعبائها ؛ تخالطه الحسان ، وتعزفه القيان ، يلهو بالصيد وركوب الصافنات الجياد ، قد خلع الملك على شبابه ثوباً من الجمال ، وحلة من الاختيال ، ينزل فى كل منزلة ما أراد ، ويرتع فى كل واد ماشاء ، ويتقلب فى ملك أعمامه وأبيه وجده . وهو فى خلال ذلك يسمع الشعر فى تراجيع الحداة ، وأغانى الرعاة ؛ وسمر السمار ، وأحاديث الرواة . ويرى عناية القبائل بالشعر وإكبار الأحياء للشعراء . وهو ذو سليقة شاعرة وقريحة مطبوعة . يصحب الشعراء ويصحبونه ، وينشدهم الشعر وينشدونه ، وما هو بالمحزون فيشتكى ، ولا بالفقير فيجتدى ، إن هو يومئذ إلا أسير لذات ، وخدن لهو وصبوات ، فدواعى الشعر عنده لا تعدو هذه المؤثرات ، ولذلك ذهب امرؤ القيس مع الشباب ، وسبح فى واديه ، وترنح فى سكرة الحداثة ، يحب هذه ويشبب بتلك ، وفجر بذلك فى شعره وغلا فى فجوره حتى شبب بنساء كنّ إلى والده ما غيظه منه فهو القائل :

أحارِ بنُ عمرٍو كأنّى خَمِر   ويعدُو عَلَى المرء ما يأْتمر(١)

---

(١) قال البغداد فى خزانة الأدب إن مطلع هذه القصيدة :

لا وأبيك ابنة العامرى   لايدعى القوم أنى أفر

وإن أبا عمرو الشيبانى والمفضل وغيرهما أثبتوا أن هذه القصيدة=

وفيها يقول :

وهرٌّ تصيد قلوبَ الرجال وأفلتَ منها ابنُ عمرو حُجر
رمتنى بسهم أصابَ الفؤادَ غداةَ الرحيل فلمْ أنتصر
فأسْبلُ دمعى كفَضِّ الجمان أو الدرِّ رَقْرَاقُه المنحَدِرِ
وإذْ هى تمشِى كمشى النَّزِيف يَصرعُهُ بالكثيب البَهر[١]
بَرَهْرَهةٌ ، رُودة ، رَخْصة كخُرْعوبة الْبَانَةِ المنفَطِر[٢]
فَتورُ القيام ، قَطيعُ الكلام تَفْترّ عن ذى غُروب خَصِر
كأنَّ المُدامَ وصَوْبَ الغمامِ وريح الْخزامى ونَشْرَ القُطُر
يُعَلّ بهِ بَرْدُ أنيابِها إذا طرّب الطائرُ المُسْتَحِر

وقد عرف حجر عن ولده امرىء القيس أنه كان فاحشاً فاجراً مستهتراً ، يحب اللهو ، ويستتبع صعاليك العرب ؛ يغير بهم على أحيائها ، مما جعل الوالد يفكر فى عقاب يؤدب به هذا الولد الفاجر ، فأرسله فى رعاء الإبل ليكون فى هذا إذلال له وصغار ، وتعب ونصب ، حتى ينصرف عن تلك الحياة الخليعة الطائشة ، ويرعوى عن غيه وضلاله ، ولكن امرأ القيس لم

= لامرىء القيس . أما الأصمعى فقد زعم فى روايته عن أبى عمرو بن العلاء أنها لرجل من أولاد النمر بن قاسط يقال له ربيعة بن جشم وأولها عنده :

أحار بن عمرو كأنى خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

(١) النزيف السكران الذى يترنح فى مشيته . والبهر انقطاع النفس والكلال .

(٢) البرهرهة الرقيقة الجلد الملساء المترجرجة . والرودة الشابة . والرخصة الناعمة . والخرعوبة الغضة اللينة .

يأبه لهذا ، وخرج بالإبل يرعاها عامة يومه ، ثم آواها مع الليل ، وجعل ينيخها ، ويقول . حبذا طويلة الأقراب ، غزيرة الحلاب ؛ كريمة الصحاب ؛ حبذا شداد الأوراك ، عراض الأحناك ، طوال الأسماك . ثم بات ليلته يسمر مع السمار بذكرها والحديث عنها ، وعلم ذلك أبوه فقال : والله ما أذللته ؛ ولا بد من عقاب يزجره ويصرفه عن غيه ؛ فلما صبحه الصباح قال له اخرج مع الخيل فخرج بها إلى المرعى حتى إذا أقبل الليل رجع بها ، وسمعه والده حجر يقول عند إبوائها : حبذا الجياد ؛ إناثها نساء ، وذكورها ظباء ؛ نعم الصحاب راجلا وراكبا ؛ تدرك طالبا ؛ وتفوت هاربا . فساء ذلك أباه . فجعله فى رعاية الأغنام ، فخرج بها عامة يومه ، حتى إذا أمسى آض من المرعى . وهو يقول : أخزاها الله ، لا تهتدى طريقا ، ولا تعرف صديقا ، ولا تطيع راعيا ، ولا تسمع داعيا . ثم تهالك على نفسه إعياء وكلالا . ومضى — لا يلوى على السمار — إلى مضجعه . فظن أبوه أنه قد قدر عليه . فلما أسفر الصبح ؛ قال له : اخرج بالشاء . فمضى امرؤ القيس يقودها ، حتى بعد عن الحى وأشرف على الوادى فأخذ التراب وطفق يحثوه على وجوهها . وهى ترتد عنه إلى الديار وهو خلفها لا يكف عن فعله قائلا : حُجر فى حَجر ، حَجر لا مدر ، هبهاب لحم وإهاب ، للطير والذئاب . فلما رأى حجر فعل امرىء القيس بالأغنام أسقط فى يده ، وعلم أن لن يقدر عليه ، فنادى مولى من مواليه يسمى ربيعة ، وأمره أن يأخذ امرأ القيس إلى خارج الحى ثم يقتله ويأتيه بعينيه ، فانطلق ربيعة به إلى الصحراء ، ولكنه فكر مليا فأشفق على امرىء القيس ، وأشفق على نفسه أيضا من أن يعود حجر بعد أن تهدأ ثائرته فيجزع على فقد ولده الذى أصدر عليه الحكم بالموت وهو محتدم العاطفة فى ثورة وغضب . . . نظر ربيعة إلى هذا فخشى على نفسه أن يصيبه الأذى إن هو قتل امرأ القيس ، ولذلك فإنه تركه فوق رابية

يرتع ويلعب ، ثم رجع إلى حجر ، ومعه عينا جؤذر ، ولكن سرعان ماعرف الندامة فى وجه حجر وأسفه على موت ولده ؛ فقال له : أبيت اللعن ، لاتجزع فإنى لم أقتله . فقال له حجر : علىَّ به.. فسار ربيعة إلى امرىء القيس حيث خلفه ليعود به إلى والده فوجده يقول :

فلا تتركنّى يا ربيعُ لهـــــذه وكنتُ أرانى قَبْلها بكَ واثقا
مخالِفةٌ نوَى أســيرٍ بقرية قُرَى عربيّاتٍ يَشِمْن البوارقا[1]
فإمّا ترينى اليومَ فى رأس شاهقٍ فقد اغتدِى وأقودُ أجردَ تائقا[2]
وقد أذعرَ الوحش الرّتاع بِغِرّة وقد اجْتلِي بَيْضَ الخدورِ الرّوائقا[3]
نَواعِم تجْلُو عن مُتون نقيّة عَبيراً ورَيْطاً جاسِداً أو شَقائقا[4]

ولما رجع امرؤ القيس إلى والده لم يكف عن فجوره وفحشه فى قوله وفعله، فعاد أبوه فطرده وأبى أن يقيم معه أنفة منه وإنكاراً لأمره ، فخرج امرؤ القيس مُراغماً لأبيه ، وعاد سيرته الأولى ؛ يتعاطى أسباب المجانة والعبث ، ويهيم على وجهه فى الأحياء ، ويتبع الصعاليك ، ويخالط الشذاذ ، يصحبهم ويصحبونه فيخرج بهم إلى الصيد والغارات ، وينزل بهم على الغياض والرياض ؛ يذبح لهم جزوره

(١) شام البرق تشوفه ونظر إليه

(٢) فى رأس شاهق أى فى قمة جبل . والأجرد الفرس القصير الشعر . وتائقاً محباً للعدو

(٣) بغرة أى حين غفلة منهن . المراد ببيض الخدور النساء المحجبات . والروائق البيض النواصع

(٤) المتون النقية : الأسنان البيضاء . والريط الجاسد : الثياب المزعفرة . والشقائق الحمر كشقائق النعمان .

وتغنيهم قيانه ، ويسبأ الزق الروى ؛ إلى أن ألقى عصاه . واستقر به نواه فى بلدة (دمّون) وهى التى يقول فيها .

كأنِّى لم ألْهُو بدمّون مَرّة ولم أشهد الغاراتِ يوماً بمَنْدل

وجاءه النذير بنعى والده فى دمون . فكان منه ما كان ؛ مما سنقف عليه عند الكلام عنه بعد مقتل أبيه .

نساء في حياة امرىء القيس

لعل وصف المرأة كان أظهر ما عليه المادية في الشعر الجاهلي لدى أصحاب المعلقات وأضرابهم من فحول الشعراء في ذلك العصر .

ولقد رسم الجاهليون في أدبهم للمرأة صوراً حسية يدور معظمها على الوسامة والقسامة ونضج الأنوثة واكتمالها ، من حيث : امتلاء البدن وامتلاء العجيزة وسحر العينين والتراخي في الحركة وجمال السَّحْر والنَّحْر ، وكثيراً ماشبهوا المرأة بالرئم العطبول وبالمها البيضاء ، وبالبقرة الوحشية في جمال العينين .. وقد أفرغ شعراء هذا العصر القديم كل عواطفهم ونظراتهم وأحاسيسهم حيال المرأة فيما تعارفنا عليه باسم الغزل أو النسيب أو التشبيب ، يفتتحون به قصائدهم .. فيصفون به مدى حبهم للمرأة وكلفهم بها ويصورون فيه انطباعاتهم الغرامية بمفاتنها الحسية ، ويقدمون به بين سائر أغراضهم في أشعارهم مهما تكن تلك الأغراض بعيدة عن مرح الغزل ومتعة الغرام والعشق .. سنّوا هذا الابتداع في قصائدهم ، لإثارة وجدان السامع والاستيلاء على مشاعره قبل الخوض في الموضوعات والأغراض المقصودة من قصائدهم .

وقد كانت دواعي الغزل موفورة في حياة الجاهليين ، لأنهم كانوا يعيشون معظم الأحيان في خيامهم التي يقيمونها بمواضع الكلأ ، حيث ترعى إبلهم، وكانوا يجيئون إليها من كل حدب وصوب في جزيرتهم ، ويقيمون فيها حتى يجف الماء وينفد الكلأ ، فيرتحلون إذ ذاك .. كل فريق منهم له وجهة هو موليها .. ويومئذ يفترق المحبون بعد متعة لقاء قد يطول مداه أو تقصر

أيامه ، فيتألمون للذعة الفراق ويبكون أيامهم المواضى وذكرياتهم الخوالى .

ولقد صوروا تلك المرأة التى فتنت ألبابهم وسحرت عيونهم وسهّدت جفونهم وسلبتهم الكرى ، وجافت جنوبهم عن المضاجع ، وأوحت إلى خيالهم ما أوحته من الوصف والابتكار .. صوروها على صورة تجلو فيها كل محاسنها من مفاتن الجسد بصفة خاصة ..

هى امرأة طويلة فارعة ، سمهرية العود ، حسنة القوام ، مترفة منعمة ، مكسال نئوم الضحا ، بطيئة الخطى ، جميلة المحيا ، مشرقة الوجه ، ساحرة العينين ، بهما كحل وحور ، بَضّة الجسم ، أسيلة الخدّيْن ، منصوبة العنق جيداء عطبول ، طويلة الشعر فاحمته ، تستوى على ساقين كالأنابيب الريانة ليونة ونعومة ؛ وكالعاج أو الرخام بياضاً ، مليئة الصدر مصقولته صقل مرآة مجلوة ، هضيمة الكشح ، دقيقة الخصر ، ثقيلة الردفين ينهضانها إذا قعدت ، ويجاسانها إذا نهضت ، مليئة الذراعين ، رخصة الأنامل .. تبتسم عن ثغر جميل فاتن يفتر عن أسنان منسقة بيضاء كاللؤلؤ أو الأقحوان أو البَرَد ، لمياء الشفتين لعساؤهما (أى سمراؤهما) ريقها عذب كالخمر أحياناً وكالعسل أحياناً ، وقد يكون مزيجاً من الشهد والأترج والتفاح .. وإذا تنفست كان لنفسها شذا طيب عبق ، كأنه العطر المستخرج ، أو الروضة الأنف .. ورائحتها على الدوام زكية ، إذ يفوح العطر دون انقطاع من أعطافها وأعكانها وأردانها وأردافها ومن مقصورتها وفراشها وأثوابها .. وقد تكون غنية بحليتها الطبيعية عن التحلى وبجمالها الفطرى البارع عن التجمل بأدوات الزينة ، وقلما نجدها متحلية بالعقود والجوهر ..

تلك صورة حسية مادية رسمها الشعراء الجاهليون وجلوها عن طريق حواسهم ؛ لمساً ليَدِها الرخصة الناعمة ، ونظراً إلى وجهها المشرق الوضاء ، وشمّاً لشذاها العبق الفواح . وتذوّقاً لريقها العذب عذوبة السلاف والرحيق ، وتسمعاً

لصوتها الناعم الرخيم .. فإذا استنفد الشاعر الجاهلى حواسه الخمس فى وصف المرأة فقد استغرق بذلك كل ما فى جعبته من مجالات الوصف لمحبوبته ؛ آسرته وساحرته .. ولا نكاد نجد شاعراً منهم قد تعمّق أو تعرض فيما وراء ذلك لوصف المرأة معنويًا ، فلم يصفو لنا نفسية تلك المرأة — مثلا — ولم يتعرضوا للحديث عن آمالها وآلامها ووجدانها ، ولم يبيّنوا مدى الارتباطات الروحية والذهنية التى تربطهم بها ..

ويلوح للباحث أن النزعة الحسية فى الأدب الجاهلى لم تكن مقصورة على غزل الشعراء بل كادت تكون ظاهرة عامة وانطباعة شائعة فى جميع ما تناولته أشعارهم .. فهو فى جملته شعر مادىّ حسىّ ؛ يستمد من الحواس صوره وأخيلته وأفكاره ومعانيه ، ويعكس لنا تلك الصورة الفطرية التى كان العرب الجاهليون يعيشونها فى أحضان الصحراء .

ولنسمع الآن شيئاً من أوصاف هذه المرأة على ألسنة بعض شعرائهم[1] :—

يقول أعشى قيس فى قوامها وطولها ، ونومتها ومشيتها : —

غَرّاء فَرْعاء مصقولٌ عَوَارِضُها ... تمشِي الهُوَيْنَى كما يمشى الوجِى الوَحِل

كأنَّ مِشْيَتَها من بيتِ جارتها ... مرّ السحابة لا رَيْث ولاَ عَجَل

ويقول أوس بن حجر فى ريقها : —

كأنّ ريقتها بعد الكرى اغْتَبَقَتْ ... من ماء أَذْكن فى الحانوت نضّاح

أوْ من مُعتّقةٍ وَرْهاء نشوتُها ... أوْ مِنْ أنابيبِ رمّانٍ وتفّاح

ويراها النابغة الذبيانى كاملة الخلق مشربة البياض بصفرة كالغصن الطويل المتأود، وهذا الوصف منتزع من الطبيعة كعادتهم .. يقول : —

صفراء كالسّيراء أُكملَ خَلْقُها ... كالغصن فى غلوائه المتـأوّد

وفى هذا المعنى يقول امرؤ القيس فى معلقته : —

كَبِكْرِ المقاناةِ البياضِ بصــفرةٍ   غَذَاها نَميرُ المــاء غيرُ المحلَّل

وتحدثوا عن إشراق محياها ، وقد تباروا فى وصف ذلك الوجه الجميل ، فهى عند امرىء القيس تضىء الظلام بنورها كأنها منارة الراهب :—

تضىء الظلامَ بالعشـاء كأنها   منارة مُمْسِى راهبٍ مُتبتِّــلِ

وهى عند طرفة شمس مشرقة :

ووجهٌ كأنَّ الشمسَ ألقتْ رداءها   عليـه نقىّ اللونِ لم يتخَـدَّد

وينظر لبيد بن ربيعة إلى امتلاء ردفيها ، ويرى أن ضوءها يعشى البصر ، فيقول :

وفى الحُدوج عَروبٌ غيرُ فاحشةٍ   ريّا الروادف يَعشى دونَها البصر

ويشبهها بعض المتغزلين من شعرائهم تارة بالشمس يوم تطلع فى سعد السعود فى مثل قول القائل :

بيضاء كالشمس وَافتْ يومَ أسْعُدِها   لم تؤذِ أهْلاً ولم تُفْحِش على جار

وفى مثل قول الآخر :

قامَتْ تَرَاءى بيْنَ سِجْفَىْ قبَّةٍ   كالشمس يومَ طلوعها بالأسْـعُد

وتارة أخرى يحلو للشاعر أن يتساءل عما يرى من محياها .. أيرى سنى البرق ، أم وجه حبيبته « نعمى » حيث يقول :

ألمحةٌ من سنى برقٍ رأى بَصرى   أمْ وجه « نُعْم » بَدَا لِى أمْ سَنَا نَار

بل وجهُ (نعم) والليلُ مُعْتكرٌ   فَلاَحَ مِنْ بين أثوابٍ وأسْتار

وتارةً يراها الشاعر مضيئة كدرة الصدفة يبتهج بها الغواص بل يسجد أمامها ، أو كدمية من مرمرٍ مرفوعةٍ بنيت بآجُرّ يشاد بقرمد ، إذ يقول :

كمضيئةٍ من صـــدفةٍ غوّاصُها　　بَهِجٌ ؛ متى يَنْظُر إليها يَسْجُدِ
أو دُمْيـةٍ من مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ　　بنِيَتْ بآجُرٍ يُشـــاد بقرْمِدِ

فإذا كانت داخل البيت بحيث لا يستطيع أن يصورها شمساً أو برقاً ، فإنه لا يعجز عن أن يتخيلها سراج الموقد ، وقد كان محجوباً حتى لا تطفئه الريح :

وتَخَالُها فى البيت إذْ فاجأتهـا　　قد كان مَحْجوباً سراجَ الموْقد

وأما عيناها وخدّاها وجيدها فقد فازت بنصيب كبير من غزل هؤلاء الشعراء .. فقد وجدوا فى الغزالة والمها جمال العينين واتساعهما وطول العنق ، كما وجدوا جمال الأعين واتساعها وحورها فى أبقار الوحش فشبهوا محبوباتهم بهن فى ذلك .

حبيبة امرىء القيس ، حين تتدلل عليه تصد وتبدى عن أسيل وتتقيه بعين كعين الظبية الحنون ذات الطفل التى ترعى فى وجرة « اسم موضع » :

تصدّ وتُبدِى عن أسيلٍ وتتّقى　　بناظِرةٍ من وَحْشِ وجْرَةَ مُطْفِلِ
وجيدٍ كجيد الرِّئْم ليس بفَاحِش　　إذا هى نصّــته ، ولا بمُعَطَّل

أما محبوبة عنترة ؛ فقد كانت أكثر حياء وخفرا ، وأطوع عنانا ، ولعلها كانت فتاة صغيرة السن قليلة الحيلة : —

دارٌ لآنسة غَضيضٍ طرْفُها　　طـوعِ العِنـاق لذيذةِ المتبسّم

ويرى الأعشى جيد المرأة كجيد الغزال ، ولـكنه يراه متحلياً بالسموط والعقود على طريقة نساء القبائل التى على الفطرة : —

وكأن السُّموط علّقها السلك بعطفى وشاحٍ أمُّ غزال

وهذا عبيد بن الأبرص يتطرق إلى وصفها بشئ غير مادى فى قوله : —

ولقد لَهَوْت بمثل الرّئم آنسةٍ تصْبى الحليمَ ،عَروب غير مِكْحَال

وفى القرآن الكريم : « عربا أترابا » وهن المحبات لأزواجهن حسنات التبعّل .

وهذه غدائر شعرها الأسود ، قد تدلت على ظهرها ، أو رفعت على رأسها فى ضفائر وعقائص ، فأنطقت المحبين بأشعار الغزل ، كقول امرىء القيس : —

وفرْعٍ يزينُ المتْن أسودَ فاحم أثيثٍ كقنو النخلةِ المتعَثْكل

غدائرهُ مستشزِراتٌ إلى العُلا تضلّ العقاص فى مثنّى ومرْسل

وشَعر المرأة فى كل عصر ولدى كل أمة مظهر من مظاهر جمالها ، بل هو تاج الطبيعة فوق رأسها ، وللشعراء فيه خيالات تختلف باختلاف بيئاتهم . . ولنعرض صورتين مختلفتين لِشَعْر المرأة فى قول شاعرين إنجليزيين أحدهما « سونبرن » حين يصف شعر المرأة بأنه يتدلى خيوطاً كخيوط المطر الغزير فى الجو المعتم ؛ فهو يستمد خياله من الجو المطير الذى يعيش فيه . والشاعر الآخر هو (روزتى) إنجليزى ينحدر من أصل إيطالىّ وقد عاش فى إيطاليا وقتاً طويلا ورأى فيها سنابل القمح تتهادى وتتأود فوق أعوادها فى الشمس المشرقة، ولذلك فهو يصف شعر حبيبته بأنه فى لونه الذهبى يشبه سنابل القمح .. وشعراء الجاهلية لم يزيدوا على أنهم استوحوا خيالهم فى وصف شعر المرأة من بيئتهم ، فأمدتهم بما فيها من صور ، ورسموا ما كان شائعا لديهم من الطراز الفاشى الذى يجعل النساء عليه شعرهن ؛ من تصفيفه وعقصه فوق رءوسهن ، أو ترجيله وإرساله وراء ظهورهن أو جعله بين السبوطة والجعودة ، ووصف غزارته وسواد لونه .

وقد شبهه النابغة الذبيانى بالفحم فى لونه ، والنبت فى أثاثته وغزارته ، والكرْم فى طوله وارتفاعه فقال :

وبفاحِم رَجِلٍ أثيث نبتُهُ كالكرم مالَ على الدّعام المسند

ويتحدث الأعشى عن فتاته بأنها ترتب بأناملها الرخصة شعراً سخاما — أى أسود لينا — وتفتله بعيدان الخلال ، فيقول : —

حُرّةٍ طفْلةِ الأنامل تُرتّب سَخاما تلفّه بخلال

ولعل أوضح صورة وصلتنا عن شَعْر المرأة فى الجاهلية هى الصورة التى رسمها امرؤ القيس فى معلقته حين تحدث عن فرعها الأسود الفاحم ، الذى يزين ظهرها ، ويشبهه بقنو النخلة المتعثكل أى سباطتها الكثيرة العثاكيل (أى الشماريخ) وذكر أن ضفائره مرتفعات إلى العلا ، وهو شعر غزير كثيف بعضه مرسل وبعضه مثنى ، وبين هذا وذاك تتيه المقائص والخصل المجموعة .

وكما تغزل الجاهليون فى شعر المرأة تغزلوا كذلك فى الأرداف والأعناق والثغور ، وقد أجمعوا على أن مثلهم الأعلى فى جمال المرأة هو البضاضة ونعومة الجسم واكتنازه شحما ولحما ، وامتلاء الصدر والذراعين ورقة الأصابع وسحر العينين وثقل الردفين وجمال الساقين ودقة الخصر وتكعب الثديين وفراعة العود وطول الجيد . وما إلى ذلك من الأوصاف التى جعلوها معايير الجمال والحسْن لدى نسائهم على مقتضى أذواقهم البدوية الفطرية : —

ولنسمع إلى قول عمرو بن كلثوم فى معلقته : —

تُريك إذا دخلْتَ على خَلاء وقد أمنَتْ عيونَ الكاشحينا

ذراعَىْ عيْطل أدْماء بكر هجانِ اللون لم تقرأْ جنينا

وثديا مثلَ حقّ العاجِ رخصا حَصانا من أكفّ اللامِسينا

ومتنىْ لدنة سمقت وطالت روادِفُها تنوء بما وليناَ
ومأكمةً يضيقُ البَاب عنها وكشحًا قد جننتُ به جُنونا
وساريتىْ بلَنط أو رُخام يرنّ خَشاش حَليهما رنيناَ

ولنسمع إلى وصف النابغة للمتجردة إذ يسقط قناعها ، فتستر وجهها بكفها البضة يقول :

سقطَ النّصيف ولم تُرد إسقاطَه فتناولَته واتّقتنا باليد
بمخضّب رَخْصٍ كأنّ بَنَانه عَنم تكَاد من اللطافة تعْقد

ومن أروع الشعر الجاهلى الذى يصور جمال المرأة تصويراً ماديا القصيدة (اليتيمة) التى انغمس فيها قائلها فى تمجيد الجسد فوصف مفاتن المرأة وصفا حسيا من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، وهى القصيدة التى مطلعها :

هل بالطلول لسائل رد أم هل لها بتكلم عهد

وفيها يقول فى وصف وجهها وشعرها :

فالوجه مثل الصبح مبيضّ والشعر مثلُ الليل مسودّ
ضدّان حين يجمعا حسنا والضدّ يظهر حسنه الضد

على أننا لا نكَاد نعدو الحقيقة إذا قلنا إن المرأة احتلت فى شعر امرئ القيس مكَانا مرموقا بارزاً أهم مما احتلته عند أى شاعر جاهلى آخر وعلى نحو تفرد به ... وقد تعرض لها فى مواقف ثلاثة : متذكراً ، ومتأملاً ، وماجنا .. وهو فى الموقف الأول يبكى الأطلال والدمن ويأسى على أيامه الخوالى معها .. وفى الموقف الثانى يتناولها مخلوقة جميلة ساحرة فاتنة رقيقة ، يصفها ويتحدث عن جمالها ويستغرق فى وصف محاسنها الجسدية .. وفى موقفه الثالث جعلها مناط مغامراته وحديث لهوه وعبثه ولذاته ..

وقد جرى امرؤ القيس فى شعره وراء المجانة والعبث إلى أبعد غاية ، وما كان عاشقاً وإنما كان فاحشاً ، يشبب اليوم بهر وفاطمة ، وفى الغداة يزين له الهوى أن ينتقل إلى هند والرباب وفرتنا ، فهو كالنحلة ينتقل من زهرة إلى زهرة ، ويدف بجناحيه على كل غصن رطيب يصادفه ، ثم يتجافى عنه إلى غيره . ولم يكن امرؤ القيس صباً ولوعاً ، ولا عاشقاً متيماً ، وإنما كان أسير لذّات ، وصنو شهوات ، وخدين خلاعة ولهو ، ويظهر أثر ذلك فى شعره فنحن لا نجد فيه برحاء المحب المستهام ، ولا لوعة الصب الولوع . وكل ما فى شعره من نسيب إنما هو ذكر للنساء ومحاسنهن ، ووقوف على ديارهن وأماكنهن ووصف عبثه معهن ولهوه بهن . ومع ما نعلمه من تلك الحياة الخليعة العابثة التى ارتضاها امرؤ القيس لنفسه فى شبابه وقضاها فى ارتياد أكنان الخلاعة والقصف : نرى أن شعره مثّل هذه الناحية أصدق تمثيل ، فهو وحى الإلهام الصادق ، والغريزة التى أنبأت عن مكنونها ، وحديث النفس التى انتزعت من دخيلتها صورة مطابقة لحقيقتها ، ثم أظهرتها إلى الملأ ، بعد أن خلعت عليها من فنها ثوباً بيانياً رائعاً . فامرؤ القيس عندى هو الشاعر الملهم الصادق الوحى والتصوير ، وهو مثل أعلى فى شاعريته وفيضه فلا تزييف فى عاطفته ولا افتعال .

وهذه أسماء من ورد ذكرهن فى شعره وقوله فيهن :

أم مالك قال فيها .

قِفا نسألِ الأطلالَ عن أمّ مالك ... وهل تخبرُ الأطلالُ غيرَ التهالك[1]

وأم جندب وهى زوجته الطائية قال فيها :

---

(١) روى هذا البيت صاحب جمهرة أشعار العرب

خَليلىّ مُرّا بى على أمّ جُنْدُب ... لِتُقْضَى لُبانَاتُ الفؤادِ المعذب

فإنّكما إنْ تنظُرَانى ساعة ... من الدهر تَنفَعْنى لدَى أمّ جندب[1]

ألَمْ ترَيانى كلّما جِئتُ طَارِقًا ... وجدْت بها طِيبًا وإنْ لمْ تَطَيّبِ

عقيلةُ أترابٍ لها لا دَميمةٌ ... ولا ذاتُ خَلق إن تَأمّلْتَ جَأْنَبِ[2]

ألا لَيتَ شعرى كيفَ حادثُ وصْلِها ... وكيف تُراعى وُصلة المتغيّب

أقامتْ عَلَى ما بَيْننَا مِن مودّة ... أميمةُ أم صارَت لقولِ المخبّبِ[3]

فإن تنأَ عنها حِقبةً لا تُلاقِها ... فإنك مِمّا أحْدَثَتْ بالمجرب

وقالتْ : متَى يُبْخَل عليك وَيُعْتَلل

يسؤْك ، وإن يُكشَف غرامُك تدْرَب[4]

وسليمى قال فيها :

يا بؤس للقلب بعدَ اليوم ما آبَه

ذكرَى حبيبٍ ببعض الأرض قَدْ رابَه[5]

قالت سليمى أراكَ اليومَ مُكتئبا

والرأسُ بعدى رأيت الشّيْبَ قد عابه

---

(١) تنظرانى أى تنتظرانى

(٢) العقيلة الكريمة المخدرة ، والأتراب اللدات وهم الذين يولدون مع الإنسان فى وقت واحد ، والجأنب القصير اللحيم والكز القبيح

(٣) المخبب الساعى بالفساد

(٤) يكشف غرامك أى تعط ما تطلب . وتدرب من درب به أى اعتاده وأولع به

(٥) ما آبه ما شأنه ومرجعه

وحارَ بعد سوادِ الرأس جُمّتـــــــه

كمِقعَب الرّيْط نَشّرت هـدّابه(١)

وقال فيها أيضاً :

سمَالك شوقٌ بعد ما كان أقْصرا وحلت سُليمَى بطنَ قوٍّ فعَرْعرا

كنانيّة بانَتْ وفى الصدر وُدُّها مجاورةٌ غسّان والحَىّ يَعْمَرا

بعينيْك ظعنُ الحىّ لما تحمَّلوا لدى جانبِ الأفلاج من جنب قَيْمرا(٢)

والخنساء قال فيها(٣) :

قالت الخنساءُ لمّا جِئْتُهـــــا شاب بعدي رأسُ هذا واشْتهب(٤)

عَهِدَتْنِي ناشئاً ذا غُـــــرّة رَجِلَ الجُمّـــة ذا بطن أقَبّ(٥)

أتبع الوُلْدان أرخى مِئْزَرى ابنَ عشْرٍ ذا قُرَيْطٍ منْ ذهب

وهْىَ إذْ ذاكَ عليهـــا مِئْزَرٌ ولهـــا بيْتُ جَوارٍ من لُعب(٦)

ورقاس قال فيها :

لله زُبدان أمسَى قَرْقرا جَلَدا وكان من جنْدل أصمّ منْضودا(٧)

---

(١) حار رجع وعاد وصار . والجمة مقدم شعر الرأس . والمعقب الخمار تعتقب به المرأة . والريط ثوب لين رقيق .

(٢) الأفلاج جمع فلج وهو النهر الصغير . وقيمر مدينة بالشام

(٣) وقيل إن هذا الشعر منحول لامرىء القيس

(٤) اشتهب صار أشهب الرأس والشهبة بياض فى سواد

(٥) رجل الجمة ممشط شعر الرأس . وأقب عال

(٦) يعنى أنها كانت صغيرة ولها بيت تضع فيه لعبها ودماها التى على شكل الجوارى

(٧) زبدان موضع بين دمشق وبعلبك ، والقرقر الأرض المطمئنة ، والجلد الأرض الصلبة المستوية المتن

لا يفقه القومُ فيه كلَّ مَنطقهم   إلاّ سِراراً تخالُ الصوتَ مزدودا(١)
قامتْ رَقاشُ وأصحابى على عَجَل   تُبدى لى النحرَ واللبّاتِ والجيدا

وهند قال فيها :

أأذكَرْتَ نفسَك ما لنْ يعودا   فهاج التذكُّر قلباً عَميــــدا
تذكَّرْتُ هنداً وأترابهــــا   فأصبحْت أزمَعَت مَنها صُدودا(٢)

وقال فيها أيضاً :

طَرَقَتْكَ هندٌ بعد طولِ تجنُّب   وهْناً ولمْ تكُ قبلَ ذلك تَطْرُق(٣)

والرباب وفرتنا ولميس قال فيهن جامعاً معهن هندا .

لمن الدّيارُ غشَيْتها بسُــحام   فعَمايتَــيْن فهُضب ذى إقْدام
فصَفا الأطِيط فصاحَتيْن فغاضِرٍ   تمشِى النعاجُ بهــا مع الآرام
دارٌ لهند والرَّباب وفَرْتنــا   ولميسَ قبـل حوادث الأيَّام
عُوجا عَلَى الطّلل المُحيل لأنَّنا   نبكى الديار كما بكَى ابنُ خِذَام(٤)
دارٌ لهمْ إذْ همْ لأهْلِك جِـيرة   إذْ تَستبيك بِواضِـح بسّـام

---

(١) السرار الخفوت

(٢) وقال بعضهم إن المقصود فى هذا الشعر هند ابنة امرىء القيس ذكرها أبوها وهو بعيد عنها فى ديار قيصر .

(٣) وهنا أى بعد هدأة من الليل

(٤) وفى رواية أخرى خزام بوزن رضاب ، وهو رجل ذكر الديار قبل امرىء القيس وبكى عليها ، وروى أيضا ابن حذام بالحاء المهملة ، كما روى ابن حمام بوزن زمام .

أزمانَ فوها كلّما نبهتُهــــا كالمسك بات وظلّ فيه فِدام[1]
أوَ ما تَرى أظعانَهُنَّ بواكِرا كالنخلُ من شَوْكان حين صِرام[2]
حورٌ تعلّل بالعبـــير جُلودَها بيضُ الوجوه نواعِمُ الأجْسام
فظللت فى دِمن الديار كأنَّنى نَشْوان باكَرَهُ صَبوح مُدام

وقال أيضاً ذاكراً هنداً والرباب وفرتنا .

لِمَنْ طللٌ أبصرْتُه فشَجانى كخطِّ زَبورٍ فى عَسِيب يمانى
ديارٌ لهندٍ والرَّباب وفَرْتَنَا ليالِيَنا بالنّعف من بَدَلانِ
ليالىَ يدْعونى الهوَى فأُجيبُه وأعْيُنُ من أهْوَى إلىّ رَوَانِ

وقال فى فرتنا أيضاً ذاكراً معها هراً :

ألَا إنَّما الدهرُ ليــالٍ وأعصرٌ وليس على شىء قَويم بمُسْتَمِر
ليالٍ بذاتِ الطَّلْح عند مُحجَّرٍ أحبُّ إلينا من ليــالٍ على أقُر
أُغادى الصَّبوحَ عند هِرٍّ وفَرْتَنا وَليداً وهلْ أفنَى شبابى غيرُ هِرّ
إذا ذُقتَ فاها قلتَ طَعْمُ مُدامةٍ مُعتَّقةٍ ممَّا تَجىء به التُّجُر
هُما نَعجتان من نعاج تَبالةَ لدَى جَؤْذَرَيْن أو كبعضِ دُمى هكِر
إذا قامتا تضوّع المِسْك منهما برائحة من اللطيمة والقُطُر

وهو قال فيها :

تروحُ من الحىّ أمْ تبتكرْ وماذا عليكَ بأنْ تَنتظِرْ

---

(١) الفدام الغطاء

(٢) الأظعان النوق عليها الهوادج فيها النساء . بواكر مبكرات وشوكان موضع . وصرام قطاف النخل .

أَمَرْخٌ خيامُهم أم عُشَر   أم القلبُ فى إثرهم مُنحَدِر[1]
وفِيمَنْ أقامَ مِن الحىِّ هِر   أمْ الظَّاعِنون بها فى الشُّطُر[2]
وهِرٌّ تَصيدُ قلوبَ الرِّجال   وأفلَتَ منها ابنُ عَمرٍ و حُجر
رَمتْنى بسهم أصابَ الفؤادَ   غَداةَ الرَّحيل فلمْ أنتصر
فأسْبلُ دَمْعى كفَضِّ الجُمان   أوِ الدُّرِ رَقْراقِهُ المنحَدِر
وإذْهىَ تمشِى كمشْىِ النّزيفِ   يصرعُه بالكَثيب البَهَر
بَرَهْرَهَة رُودَة رَخْصَة   كخُرعوبة البانَةِ المنفطِر
فَتورُ القيام ، قطيعُ الكلام   تَفتَرُّ عنْ ذِى غُروبٍ خَصِر
كأنّ المُدام وصَوْب الغَمام   وريحَ الخُزامى ونَشْرَ القُطُر
يُعَلُّ بهِ بَرْدُ أنيابها   إذا طرَّب الطائِر المُسْتَحِر
فبِتّ أكابِدُ ليْلَ التِّمَا   م والقلبُ من خشْيةٍ مُقشعِر
فلمَّا دنَوْت تسدَّيتُها   فثوباً نسيتُ وثوباً أجُر[3]
ولم يرَنا كالِئٌ كاشِحٌ   ولم يفْشُ منّا لدَى البيت سِر[4]
وقدْ رابَنِى قولُها ياهَنَا   هُ ويْحَكَ ألحَقْتَ شراً بشَر[5]

---

(١) المرخ شجر قصير ينبت بنجد ، والعشر شجر طويل ينبت بالغور ، ويعنى الشاعر هل هم منجدون أو مغيرون

(٢) الشطر جمع شطير وهو الغريب .

(٣) تسديتها أى علوتها

(٤) الكالىء المراقب ، والكاشح المعادى

(٥) هناه اسم من أسماء النداء لايستعمل فى سواه ومعناه كما تقول ياهذا

وسلامة وقذور قال فيهما :

عفا شَطِبٌ من أهلِه فغرورُ فمَرْبولةٌ إنَّ الديارَ تَدور
فجزْع مُحيّاةٍ كأنْ لم تقُم بها سلامةُ حَوْلا كاملا وقَذُور

وماوية قال فيها :

أماوِىّ هل لى عندَكُم مِنْ مُعَرَّسِ
أمِ الصَّرْم تَخْتارِين بالوصْل نيْئَسِ(١)
أبينى لنـــــا إنَّ الصَّرِيمة راحةٌ
من الشَّك ذى المَخْلوجَـة المتلبِّسِ(٢)

وقال فيها أيضاً :

يا دارَ ماوِيَّة بالحـــائلِ فالسَّهْب فالخبْتَـيْن من عَاقِلِ
صمَّ صداها وعفَا رَسْمها واستعْجَمت عن مَنْطِق السائل

وسلمى قال فيها مع تعرضه لذكر بسباسة :

ديارٌ لِسَلْمَى عافياتٌ بذِى الخالِ ألحَّ عليْها كلُّ أسْحَم هطَّال
وتحسَب سلمى لا تزالُ ترى طَلّا من الوحش أو بَيْضًا بمَيْثاء مِحْلال(٣)
وتحسب سلمَى لا تزالُ كعهدِ نا بوادى الخُزامَى أوعلَى رأس أوْعَال
ليالىَ سلمى إذْ تُرِيكَ منصَّبًا وجيداً كجِيد الرِّئْم ليس بمِعْطَال(٤)

(١) ماوى ترخيم ماوية . والمعرس المنزل الذى يحله المسافر عند السحر ليستريح فيه

(٢) المخلوجة المعوجة

(٣) الميثاء الأرض السهلة . ومحلال أى يكثر الناس النزول فيها

(٤) منصباً ثغراً مستوياً متنسقا

ألا زعمتْ بسباسةُ اليومَ أننِّى كبرْتُ وأنْ لا يُحسِن السرّ أمثالى (١)

كذبْتِ لقد أُصْبِى على المرء عِرْسه وأمنعُ عرسى أن يُزَنّ بها الخالى (٢)

ويارُبّ يومٍ قد لَهوْتُ وَليلةٍ بآنســـــةٍ كأنَّها خَطُّ تِمثال (٣)

يضىء الفراشَ وجهُهَا لضَجِيعها كمصباح زيْتٍ فى قناديل ذُبَّال (٤)

كأنّ على لبَّاتِها جمرُ مصْطَل أصابَ غضاً جزْلا وكُفّ بأَجْزال (٥)

وهبّت له رِيح بمختلِف الصُّوَى صَباً وشَمالٌ فى منازِلِ قفَّال (٦)

إذا ما الضَّجيع ابتزَّها من ثيابها تميلُ عليه هَوْنَةً غيرَ مِجْبال (٧)

كحقف النقَّا يمشِى الوَليدان فوقَه بما احتَسبا من لين مسّ وتَسهال (٨)

ومثْلِكِ بيْضاءِ العوارض طَفْلة لَعوب تُنسِّينى إذا قمتُ سِربالى (٩)

---

(١) السر النكاح

(٢) أصبى على المرء عرسه أى أغرى زوجته وأردها إلى الصبا. ويزن يتهم. والخالى الأعزب

(٣) خط تمثال أى كنقش التمثال المصور والمعنى المراد أنه قدْ لها بحسن هذه الآنسة وجمالها التى كأنها صورة مصورة

(٤) قناديل ذبال المراد ذبال قناديل والذبال الفتيلة

(٥) كف بأجزال أى جعل له كفاف من أصول شجر الغضا

(٦) الصوا جمع صوة وهى العلامة التى تكون فى الطريق أو هى الأرض المرتفعة فى غلظ. والقفال العائدون من السفر

(٧) ابتزها سلب عنها ثيابها. وهونة أى لينة. والمجبال الغليظة الخلق

(٨) حقف النقا الكثيب المستدير من الرمل وقد ذكر ذلك قاصداً تشبيه العجيزة

(٩) العوارض صفحتا العنق. والطفلة الرخصة الناعمة

لطيفةِ طيّ الـكَشْح غيرِ مُفاضَة ... إذا انفَتَلتْ مُرتجّةً غير متفال (١)
إذاماَاستَحمّت كان فَيض حميمها ... على متنتيها كالجمان لدَى الحالى
تنوّرْتُها من أذرعاتَ وأهلُها ... بيَثرب أدنى دارها نظرٌ عال (٢)
نظرْتُ إليها والنجومُ كأنّها ... مصابيحُ رُهْبان تُشَبّ لقُـفّال
سَموْت إليها بعدَ ما نام أهلُـها ... سُموّ حباب الماء حالا عَلى حال (٣)
فقالتْ سَباكَ اللهُ إنّك فاضحي ... ألستَ ترَى السُّمار والناسَ أحوالى
فقلتُ يَمينَ اللهِ أبرَحُ قاعداً
ولو قطّعوا رأسى لديْك وأوْصالى (٤)
حلفتُ لها باللهِ حِلْفةَ فاجرٍ ... لنامُوافما إنْ مِنْ حديثٍ ولاصَال (٥)
فلمّا تَنازَعْنا الحديثَ وأسمَحَتْ ... هصرْتُ بغصْنٍ ذى شَماريخَ مَيّال (٦)
وصِرْنا إلى الحسْنَى ورَقّ كلامُنا ... ورُضْتُ فَذَلّتْ صَعْبَةً أىّ إذْلال
فأصبَحْتُ مَعْشوقًا وأصبح بَعْلُها ... عليْهِ القَتام سيِّء الظَّنّ والبال (٧)
يغِطُّ غَطيط البَكْر شُدّ خِناقُه ... لِيقْتلَنى والمرْءُ ليْس بقتّال

---

(١) لطيفة طي الكشح أى رقيقة الخصر. والمفاضة المسترخية البطن والمرتجة التى يترجرج لحمها من كثرته. المتفال المنتنة الريح
(٢) تنورتها أى نظرت إلى نارها
(٣) سموت إليها يعنى علوتها. وحباب الماء فقاقيعه
(٤) أبرح قاعداً أى لا أبرح قاعداً
(٥) لناموا أى لقد ناموا.
(٦) أسمحت لانت وانقادت
(٧) القتام الغبار.

أيقتلني والمَشْرَفِيّ مُضاجِعي ومَسْنُونَةٌ زُرْق كأنياب أغوال
وليسَ بذِي رُمح فيطْعَنُني به وليسَ بذي سَيْف وليس بنبّال
أيقتُلني أنّي شغَفْتُ فؤادَها كما شَغَفَ المهنوءة الرّجُل الطّالي[1]
وقدْ علمَتْ سلمَى وإنْ كانَ بعْلَها بأنَّ الفتَى يهْذِي وليْس بفعّال
ومَاذا علَيْه إنْ ذَكَرْت أوَانسا كغِزْلان رمْل في محاريب أقْوَال[2]
وبيْتِ عَذارى يومَ دَجْنٍ ولَجْتُه يُطِفْنَ بِجَبّاءِ المرافِق مِكْسَال[3]
قليلةِ جرسِ الليْل إلّا وسَاوِسا وتَبسِمُ عنْ عَذْبِ المذاقةِ سَلْسال[4]
سِباطِ البَنان والعَرانِينِ والقنـــا لِطافِ الخُصورِ في تَمامٍ وإكْمال
نواعمُ يُتْبِعْنَ الهوَى سُبُلَ الرّدى يقُلْن لأهْلِ الحلمِ ضُلاً بِتَضلال
صَرَفْتُ الهوَى عنهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرّدَى
ولسْتُ بمَقْلِيّ الخِـــلال ولَا قَالي[5]

وأم هاشم وابنة عفزر قال فيهما ذاكراً معهما البسباسة ابنة يشكر :

لقد أنــكرَتْني بعْلَبَك وأهلُهـا
ولَابنُ جُرَيْج في قرَى حمْص أنــكرا

(١) شغفت فؤادها أي بلغ حبي شغاف قلبها . والمهنوءة الناقة التي تطلى بالقطران وربما نحرت فيوجد طعم القطران في لحمها

(٢) المحاريب الغرف . والأقوال كالأقيال آخر الملوك ودونهم

(٣) الدجن ظل الغمام . وجباء المرافق أي غائبة عظام المرافق من كثرة لحمها .

(٤) الجرس الصوت . والوساوس أصوات الحلي

(٥) المقلي المبغض

نَشِيمُ بُروقَ المُزْنِ أينَ مَصَابُهُ
ولا شَىْءَ يَشْفِى منكِ يابنةَ عَفْزَرا[1]

مِنَ القاصِرَاتِ الطَّرْفِ لوْ دَبَّ مُحْوِلٍ
من الذَّرِّ فوْقَ الإتْبِ منها لأثَّرا[2]

له الوَيْلُ إنْ أمْسَى ولا أمُّ هاشم
قريبٌ ولا البسْباسَةُ ابنةُ يَشْكُرا[3]

ويقول أيضاً فى هذه القصيدة ذاكراً سليمى وأسماء :

كأنَّ دُمَى سُقْفٍ علَى ظَهْرِ مَرْمَرٍ … كسَا مُزْبِدَ السَّاجومِ وَشْياً مُصَوَّرا[4]
غَرائِرُ فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونِعْمَة … يُحَلَّيْنَ ياقُوتاً وشَــذْراً مُفَقَّرا[5]
وريحَ سَنًا فى حُقَّةٍ حِمْيَرِيَّةٍ … تُخَصُّ بمَفْروكٍ من المسْكِ أذْفَرا[6]

---

(١) مصاب المزن هو السحاب حيث يقع ومعنى البيت أنه يقول نحن ننظر إلى هذه البروق رجاء منا أن يكون الغيث الواقع معها فى ديار من نحب فنسقى بسقياهم ، والعرب يدعون لمن يحبون بالسقيا ، ثم كان كل شيء لايستشفى به من الشوق إلى ابنة عفزر، وعفزر اسم رجل.

(٢) المحول من الذر الصغير جدا ، والأتب قميص غير مخيط الجانبين .

(٣) له الويل يعنى امرأ القيس نفسه

(٤) سقف اسم موضع . والساجوم واد فى جزيرة العرب . المزبد الذى علاه الزبد

(٥) الغرائر الغوافل اللاتى لاتجربة لهن . والشذر قطع الذهب. والمفقر المصنوع على شكل فقار الجرادة .

(٦) السنا نبت ذكى الرائحة

وَبانًا وألْوِيًّا من الهِنْد ذَاكيًا ورَنْداً ولُبْنَى وَالـكِباءَ المقتَّرا[1]
غَلِقْن برَهْنٍ من حَبِيبٍ بهِ ادَّعَتْ سُلَيْمى فأمسَى حَبْلُها قد تَبتّرا[2]
وكانَ لها فى سَالِفِ الدَّهرِ خُلَّةٌ يُسارِق بالطَّرْف الخِباء المستَّرا[3]
إذا نَال مِنْها نَظْرَةً رِيعَ قَلْبُهُ كما ذَعَرَتْ كأسُ الصَّبوح المخَمَّرا[4]
نَزِيفٌ إذا قامَتْ لوَجهٍ تمايَلَتْ تُراشِي الفؤادَ الرَّخْص ألا تَخَتَّرا[5]
أأسْماءُ أمْسَى وُدُّها قد تَغَيّرا سنُبْدل إنْ أبْدَلْتِ بالوُدّ آخرا

وسعاد قال فيها :

لَعَمْرِى لقَدْ بانَت بحاجَة ذى الهوَى
سعاد وراعَتْ بالفِراق مُرَوَّعا[6]
وقَدْ عَمَرَ الرَّوْضاتِ حَوْلَ مُخَطَّط إلى اللُّج مرأًى من سعادَ ومَسْمَعا[7]
مَتَى تَرَ داراً مِنْ سُعاد تقِفْ بِها وتَسْتَجْرِ عَيْناكَ الدُّمُوعَ فتدْمَعا[8]

---

(١) الألوى العود الذى يتبخر به . والرند شجر طيب الثمر . واللبنى الميعة . والكباء البخور . والمقتر المدخن .
(٢) غلق الرهن حل موعده وتعذر فكاكه والرهن القلب والمراد أنهن احتبسن قلب هذا الحبيب الذى ادعته سليمى بأنها أحق به
(٣) الخلة الخليل
(٤) المخمر الذى رنحه الخمار
(٥) تراشى ترمى . والتختر الخداع
(٦) بانت انقطعت . وراعت أفزعت .
(٧) مخطط واللاج موضعان
(٨) تستجر عيناك أى تطلب جريان دمعهما

وليلى قال فيها :

تنكَّرت ليلى عنِ الْوَصْل ... ونَأَتْ ورَثّ معاقدُ الحبْل[1]

ولَوَوْا مَتَاعَهمْ وقدْ سُئِلوا ... بَذْلَ المتاع فَضُنَّ بالبذْل[2]

ونحَتْ له عن أرْزِ تَألَبَةٍ ... فِلْقٍ فِرَاغٍ معابلٍ طُحْل[3]

وافتْ بأصْلَتَ غيْرِ أكْلَفَ مخْـروم البهاء وقِلَّةِ الأَسَل[4]

ومُؤَشَّرٍ عَذْبٍ مذاقَتُه ... بَرَدُ القِلال بذائبِ النَّحْل[5]

وقال فى ليلى أيضاً :

عَيْناك دَمْعُهما سِجالُ ... كأنَّ شَأْنَيْهِما أوْشَال[6]

أوْ جَدْوَلٌ فى ظِلال نخْلٍ ... لِلْماء من تحته مجـال

من ذكر ليلى وأينَ ليلى ... وخيْرُ مارُمْت لا يُنَال

---

(١) تنكرت تغافلت وتناست

(٢) اووا مالوا وتباعدوا

(٣) نحت أى تنحت يعنى رمته عن قوس أرز أى قوس قوية . والتألبة شجرة تتخذ منها القسى وقد تفسر أرزتألبة بمجتمع حمر وحشية . فلق أى أحد فلقين . فراغ أى بعيدة إرسال السهام . والمعابل نصال السهام . والطحل جمع أطحل من الطحلة وهى لون بين الغبرة والسواد ببياض

(٤) وافت جاءت والمراد بالأصلت الجبين الواضح الذى لا كلف فيه . والأسل الطول والاسترسال يوصف به الخد

(٥) المؤشر الثغر . والمراد بذائب النحل الشهد . وقوله برد القلال يعنى الماء البارد المنحدر من أعالى الجبال

(٦) السجال جمع سجل وهى الدلو العظيمة المملوءة بالماء . وشأنيهما جانبيهما أو مجارى الدموع منهما . والأوشال جمع وشل وهو الماء يحتلب من أعالى الجبل بكثرة

وأم الحويرث وأم الرباب وعنيزة وفاطمة [1] ورد ذكرهن فى معلقته قال :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللّوى بين الدّخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها لما نسجتْها من جنوبٍ وشمأل
ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنّهُ حبُّ فلفل
كأنى غداةَ البين يومْ تحمّلوا لدى سمُرات الحيّ ناقفُ حنظل
وقوفاً بها صحبى علىّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسىً وتجمّل
وإنّ شفائى عَبرة مُهْرَاقة فهل عند رسْم دارِس من مُعوّل [2]
كدأبك من أمّ الحويرث قبلَها وجارتِها أمّ الرّباب بمأسل
إذا قامتَا تضوّع المسك منهما نسيمَ الصّبا جاءتْ بريّا القرنفُل
ففاضتْ دموعُ العين منّى صبابةً على النّحر حتى بلّ دَمعِى محمَلى
ألا رُبّ يومٍ لك منهنّ صالحٍ ولا سيّما يومٌ بدارةِ جُلْجُل
ويومَ عقرتْ للعذارى مطيّتى فياعَجباً منْ رَحْلها المتحمَّل
فظلّ العذارَى يرتمين بلحمِها وشحمٍ كهدّاب الدمقْس المفتَّل
ويومَ دخلتُ الخدْرَ خدرَ عُنيزَةٍ فقالتْ لكَ الويْلاتُ إنّك مُرْجلى
تقول وقدْ مال الغبيط بنَا معاً عقرْت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

---

(١) قيل إن أم الحويرث هى هر وقيل أيضاً إن عنيزة هى فاطمة وذكر ذلك مفصل فى آخر هذا الباب

(٢) وفى رواية أخرى وإن شفائى عبرة إن سفحتها .

فقلتُ لها سِيرى وأرخِى زمامَه   ولا تبعدِينى عن جَناكَ المُعَلّلِ[1]

فمثلك حُبلَى قد طرَقْت ومُرضعٌ   فألهيتها عن ذى تمائمَ مُحْوَلِ

إذا ما بَكَى من خلفِها انصرَفَتْ له   بشقٍّ وتحتى شِقُّها لَمْ يُحَوَّلِ

ويوماً على ظهرِ الكَثيب تعذَّرَت   علىَّ وآلَتْ حَلْفَةً لم تُحَلَّلِ

أفاطمُ مَهْلا بعضَ هذا التدلّل   وإن كنتِ قد أزْمَعت صرمْى فأجملِى

وإنْ تَكُ قد ساءتك منّى خَليقة   فسُلِّى ثيابى عن ثيابك تَنْسُلِ

أغرّكِ منى أنَّ حُبّكِ قاتلى   وأنّك مَهْما تأمُرى القلبَ يَفْعَلِ

وما ذَرفَت عيناكِ إلّا لتضربِى   بسهمَيْك فى أعشارِ قلبٍ مُقتّلِ

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرام خِباؤها   تمتّعْت من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

تجاوزْتُ أحْراسًا إليها ومَعْشرا   علىَّ حِراصاً لوْ يُسِرّون مَقْتلى

إذا ما الثريّا فى السّماء تعرّضَتْ   تعرُّضَ أثناء الوِشاح المفصّلِ

فجئتُ وقد نضَّت لنوْمٍ ثِيابها   لدَى السِّتْر إلّا لِبْسَة المتفضّلِ[2]

فقالت يمينُ الله مالكَ حيلةٌ   وما إنْ أرَى عنكَ الغَواية تَنْجلى

خرجْتُ بها أمْشى تجرّ وراءنا   على إثْرِنا أذْيال مِرْط مُرَحَّلِ[3]

فلمّا أجَزْنا سَاحَة الحىّ وانْتحَى   بنا بطْنُ خَبْتٍ ذى حِقاف عَقَنْقَلِ[4]

---

(١) لا تبعدينى عن جناك المعلل أى تبعدينى من اقتطاف خمرة خديك بالقبل . والمعلل المطيب

(٢) نضت ثيابها أى خلعتها . ولبسة المتفضل ما يلبس عند النوم من قميص أو إزار

(٣) المرط ثوب خز معلم . والمرحل المخطط المنقوش على هيئة الرحال

(٤) أجزنا قطعنا . وانتحى قصد واعتمد . والحقف الرمل المشرف المعوج . والعقنقل أيضاً الرمل الكثير المتلبد .

هَصَرْتُ بِفَوْدَىْ رأسِها فتمايلت عليّ هضيمَ الكَشْحِ ريّا المُخَلْخَلِ (١)
مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ (٢)
كبِكْرِ المُقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ غَذَاها نميرُ الماءِ غيرُ المحلَّلِ (٣)
تصُدُّ وتبدى عن أسِيلٍ وتتّقى بناظِرَةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وجيدٍ كجيدِ الرئمِ ليسَ بفاحشٍ إذا هِيَ نصَّتْه ولا بمُعَطَّلِ
وفرعٍ يَزينُ المَتْنَ أسودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنْوِ النّخْلةِ المتعثْكِلِ (٤)
غدائرُه مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلا تضلّ العِقاصُ فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ (٥)
وكَشْحٍ لَطيفٍ كالجَديلِ مُخَصَّرٍ وساقٍ كأنبوبِ السّقِىّ المذلَّلِ (٦)

---

(١) هصرت جذبت . والفودان جانبا الرأس . وهضيم الكشح ضامر الوسط . وريا ملآن . والمخلخل مكان الخلخال من الساق

(٢) المهفهفة الضامرة البطن . والمفاضة الكبيرة البطن . والترائب النحر . ومصقولة مجلوة . والسجنجل المرآة

(٣) والمقاناة المخالط بياضها صفرة وحمرة ، والنمير الصافى . والمحلل الذى كثر حلول الناس عنده . والمراد بالبكر بيضة النعامة أول ماتبيض والبكر من كل شىء مالم يسبقه مثله

(٤) الأثيث الكثيف . والمتعثكل المتراكم بعضه فوق بعض أو هو المتدلى

(٥) المستشزرات المرتفعات . والعقاص جمع عقيصة وهى الخصلة المجموعة من الشعر

(٦) الجديل خطام الناقة وزمامها . والمراد بقوله كأنبوب السقى المذلل أى كأنبوب نبات البردى المسقى المذلل بالإرواء

وتُضْحِى فَتِيتُ المسْك فوقَ فِراشها
نَئُوم الضُّحَى لم تَنْتَطِق عَنْ تَفَضُّلِ (١)
وتعطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنَّهُ أساريعُ ظَبْيٍ أو مَساويكُ إِسْحِلِ (٢)
تضيء الظلام بالعشاء كأنّها منارةُ مُمْسِى راهبٍ متبتِّلِ
إلى مِثْلِها يرْنُو الحليمُ صَبابةً إذا ما اسبَكَرَّت بين دِرعٍ ومِجْوَلِ (٣)
تَسلَّتْ عَمَايات الرِّجالِ عن الصِّبا وليْس فؤادِى عَنْ هواها بمُنْسَلِ
ألَا رُبَّ خَصْمٍ فيك ألْوَى رَدَدْته نصيحٍ عَلَى تَعْذَاله غيرِ مُؤْتَلِ (٤)

وإنى لأقف هنا وقفة أعرض فيها أقوال الرواة والعلماء واختلافهم فيما تعرضوا له من نسب هر وبعض صواحب امرىء القيس فأقول :

إن ابن قتيبة وصاحب معاهد التنصيص قالا « إن هرا هذه من زوجات أبيه واسمها أم الحويرث أيضًا » وقال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى « أم الحويرث التى كان يشبب بها امرؤ القيس فى أشعاره هى أخت الحارث

---

(١) تضحى تستيقظ فى ضحوة النهار ، وتنتطق تشد نطاقاً للعمل ويقصد أنها مرهفة منعمة ، وعن تفضل أى عن الثوب الذى تنام فيه

(٢) تعطو تتناول ، والمراد بالرخص الأصابع اللينة ، وغير شثن أى غير خشنة ، والأساريع دود صغار ، وظبى اسم موضع ، والأسحل شجر تتخذ منه المساويك كالأراك

(٣) اسبكرت أى مشت مستقيمة ، وبين درع ومجول أى بين صغيرة تلبس المجول وفتية تلبس الدرع

(٤) ألوى شديد الخصومة ، وتعذاله لومه ، وغير مؤتل أى غير مقصر :

ابن ضمضم من كلب ، وهى امرأة حجر أبى امرىء القيس ، فلذلك كان أبوه طرده ونفاه وهمّ بقتله ، وعلق البغدادى فى خزانته على قول أبى عبيد بقوله « وهذا هو الصواب » ولكن جاء فى نزهة ذوى الكيس ، أن هرا هى ابنة العامرى وأبوها الحارث بن حصين الكلبى ، ويقال إن هرا جارية لحجر ابن عمرو أبى امرىء القيس ، ويقوى هذا قول امرىء القيس وأفلت منها ابن عمرو حجر لأنها جاريته ، فهو ينال منها غربته ، ويدرك مراده ، دون غرام بها ولا عناء ، والوزير أبو بكر بن أيوب يقول عن هر ، إنها ابنة سلامة بن علند من كلب ، وإن فاطمة التى يذكرها من كلب أيضاً ، وإنه قال هذه القصيدة فى حيهم بعد أن نفاه أبوه ونزل بهم فعلق هواه بهاتين ، وقد علق ابن أيوب على قول امرىء القيس :

وهر تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حجر

فقال استعارة الصيد مع الهر مضحكة ، ولو أن حجراً أباه من فارات بيته ما أسف عَلَى إفلاته منها هذا الأسف ، وهذه الاستعارة وإن لم تكن فاسدة فقد تجنبها المحدثون ظرفا ولطافة . وقد رجع أبو بكر بن أيوب فذكر قولا آخر عن نسب هر عند شرحه للمعلقة فقال « أم الحويرث هى هر التى كان يشبب بها فى أشعاره وهى أخت الحرث بن الحصين بن ضمضم ، وقد تقدم فى نسبها غير هذا » والتبريزى يقول « أم الحويرث هى هر أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلبى ، وأم الرباب من كلب أيضاً » وقال أيضاً عن عنيزة « إنها ابنة عمه صاحبة يوم دارة جلجل » وقال ابن الكلبى — فيما أورده الزوزنى — عن فاطمة « هى ابنة عبيد بن ثعلبة بن عامر ، وعامر هو الأجدار بن عوف بن عذرة » قال ولها يقول :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وابن قتيبة تابع ابن الكلبي على هذا الرأى .

وقال الزوزنى عن عنيزة « إنها ابنة عمه شرحبيل » وذكرها فى موضع آخر من كتابه فقال « عنيزة اسم عشيقته وهى ابنة عمه وقيل هو لقب لها ؛ واسمها فاطمة ، وقيل بل اسمها عنيزة . وفاطمة غيرها » وقال فى موضع آخر أيضاً « فاطمة اسم المرضع واسم عنيزة . وعنيزة لقب لها فيما قيل » وقال أبو الحسن الطوسى عن هر « إنها ابنة العامرى ، وهى ابنة سلامة بن عبد ، ويقال ابن عبد الله بن عليم ، قال : وكان امرؤ القيس فى كلب وطيئ أيام نفاه أبوه ، وقال : وابنها الحرث بن حصن بن ضمضم بن جناب الكلبى ، وفاطمة أيضاً من كلب فشبب بهاتين » وقال فى موضع آخر « أم الحويرث هى هر التى كان يشبب بها فى أشعاره وهى أخت الحرث بن حصين بن ضمضم من كلب » وقال عن فاطمة أيضا « إنها بنت العبيد بن ثعلبة من عذرة » وقال صاحب الخزانة عن البسباسة ابنة يشكر « إنها من بنى أسد » .

وإنى لأميل إلى الرأى القائل بأن عنيزة لقب لفاطمة لأن سياق المعلقة يرجح ذلك ، كما أننى أميل أيضاً إلى الرأى القائل بأن هرا جارية لحجر ابن عمرو وإحدى سراريه ، لأنه لا يمكننى أن أفهم أن امرأ القيس يصل به الفحش والعهر إلى هذا الدرك المنحط فيشبب بزوجة أبيه وهو ابن ملك تأبى عليه أخلاقه ذلك ، بل لعل كل الأعراب فى إباء مثل هذا سواء ، فما بالنا بأبناء الملوك منهم ، فما عرف عن العربى فى يوم من الأيام أنه اعتدى على حرمة أبيه فتعشق نساءه وزوجاته لأن ذلك سبة وعار كبير ، وغاية ما عرف عن العرب القدامى فى مثل ذلك أن الأب بعد موته إن ترك امرأة يكون أكبر أولاد ذلك الرجل من غير تلك المرأة وليا عليها فإن شاء تزوجها وإن شاء عضلها حتى تموت وإن شاء زوجها من غيره وقبض مهرها

ولـكن زواج الولد بزوجة الأب كان قليلا يستقبحه العرب ولذلك سموه نـكاح المقت . أما عن غضب حجر على ولده امرىء القيس فسببه فى نظرى تلك الجارية « هر » وتشبيبه بها ، لأنه بذلك خرج عن حد اللياقة والأدب مع والده مما أغضبه عليه ، وجعله يمقته ويزدريه ويشرده فى البلاد بعد ذلك ، أضف إلى هذا تلك الحيـاة الخليعة التى ارتضاها امرؤ القيـس لنفسـه ، وأنفها له أبوه .

وأعود فأقول مهما يكن من شىء فسواء علينا أن تـكون هر هذه من نساء أبيه أو جواريه ، وأن تكون أخت الحصين أو أمه ، وأن تـكون بنت سلامة ابن علند أو بنت غيره . وسواء علينا أيضاً أن تـكون فاطمة من بنات عمه أم لا ، فقد عرف عن امرىء القيس أنه كان فاحشاً مستهترا فى فعله وقوله ، كـثير العبث بالنساء ، كما عرف عنه أنه قضى زهرة شبابه منغمساً فى اللهو والمجانة ، يستتبع صعاليك العرب يغير بهم على الأحياء مما أثار عليه حفيظة والده .

وإن اختلاف الرواة والعلماء بالشعر فى نسب هر وفاطمة إلى هذا الحد يجعلنى أجنح إلى القول بأن اسم « هر » لم يكن علما على معشوقة واحدة لامرىء القيس وإنما كان علما على معشوقات ، وكذلك اسم « فاطمة » لم يكن علما على معشوقة واحدة وإنما كان علما على معشوقات ، ويرجح ذلك عندى ما كان من امرىء القيس فى شبابه من كـثرة تنقله فى أحياء العرب ، وجريه وراء المجانة والعبث إلى أقصى غاية وأبعد شوط .

ذلك هو امرؤ القيس فى غزله وذوقه فى الجمال وهو ذوق ترتضيه الفطر السليمة .. وأروع ما ارتآه امرؤ القيس من الجمال فى صواحبه أنهن هيفاوات مديدات ، فرعاوات رشيقات أو بدينات ناعمات مترفات .. وهن مشرقات

الوجوه ، حور العيون ، فواتر الأجفان ، ساحرات النظرات ، مشرقات الوجوه لمياوات الشفاه ، فاتنات الثغور ، بيضاوات الأسنان ، أسيلات الخدود ، جيداوات الأعناق ، سوداوات الشعر ، صقيلات النحور ، كاعبات النهود ، ممتلئات الروادف والأعجاز ، ملتفات الأفخاذ ، بضات الأيدى ، دقيقات الأنامل ، ريّانات السيقان، عِذاب الريق .. وغير ذلك من الأوصاف الحسية والصور المادية التى رسمها لهن فى قصائده .

وصواحب امرىء القيس لسن طرازاً واحداً فى أخلاقهن ، ففاطمة متدللة مغرورة ، وليلى ناسية متجاهلة ناكرة ، وعنيزة متمنّعة مستجيبة ، وأسماء حُوّل قلّب ، وسلمى غرة نافرة ، وماوية خبيثة ماكرة ، وهرّ لعوب راغبة ، ورقاش معترضة باذلة .. وثمّ معشوقات أخريات يتحدث عنهن وقد لا يذكر أسماءهن ؛ فيهن الساخطة المتأبية ، والساذجة الغرة ، والعاقلة المستأنية ، والوجلة المتكبرة ، والقاصرة حبها على رجل واحد ، والباذلة نفسها لكثير من الرجال . . . وفيهن من هى رقيقة الحديث ، هامسة الحوار ، تسعد معه حتى يغشى عليها من حساسية الموقف فما تستطيع قياماً إلاّ متكئة على ساعده . وفيهن من لها قوم يغارون عليها ، ويحرصون على قتله إذا ألمّ بحيّهم . . ومنهن من يأتيها ليلا ويدب إليها دبيباً متغفلاً أحراسها وغير عابئ بزوجها .. وهناك الحامل والمرضع والشابة الفتية والحرة والجارية ، وبائعة الهوى لكل من يلم بدارها والويل كل الويل لمن يحل عندها ... ولكل امرأة من معشوقاته صفة لا تتجاوزها عنده .

وهو لا يعرض بالبيان عن مدى نصيب المرأة الواحدة من هؤلاء المعشوقات الكثيرات ومقدار ما لديها من مشاعر وما عندها من أحاسيس ؛ حين ترضى أو تغضب ، أو تسر أو تحزن ، وحين تخلص أو تخون ، وحين تفى أو تتنكر ..

وهو لا يتعرض كذلك فى غزله للحديث عن عقل معشوقاته ، وفضائلهن النفسية وجمالهن الروحى غير المرئى .

وبعد فقد كان امرؤ القيس فى غرامه بالنساء وشُغله الشاغل بوصفهن ذكريات وأجسادا ، وتصويرهن حرائر وبغايا، وحديثه عنهن مغامراً مجازفاً وعاشقاً مخاطراً ... إنما يصدر فى ذلك عن إرث من جده الحارث بن عمرو الكندى وعلى عرق دساس من خاله المهلهل عدىّ بن ربيعة ، فقد كانا مغرمين غرامه بالنساء ، ولم تكن حياتهما تختلف كثيراً عما ارتضاه شاعر كندة فى مذهبه وسلوكه من العكوف على اللهو والقصف والاستمتاع بمتع الحياة الفانية من نساء وشراب ولذات .

لقد كان خلق امرؤ القيس وسلوكه فى المجتمع استجابة لغرائزه المنطلقة ، أكثر منه اتباعاً لفلسفة معينة .

منزلة امرىء القيس الشعرية

امرؤ القيس فحل من فحول شعراء الجاهلية، وعلماء البصرة يجعلونه رأس الطبقة الأولى، وغيرهم متفق على أنه من الطبقة الأولى وإن كانوا يقدمون عليه سواه، فأهل الكوفة يقدمون عليه الأعشى، وعلماء الحجاز والبادية يقدمون عليه زهيرا والنابغة، وابن سلام قد قرنه بزهير والنابغة وأعشى قيس، ولكن الغالبية مع امرىء القيس فى زعامته ورئاسته لتلك الحلبة الجاهلية.

وقد قيل للفرزدق من أشعر الناس فقال ذو القروح (يعنى امرأ القيس) حيث يقول:

وقاهم جدّهم ببنى أبيهم وبالأشقين ماكانَ العذاب

ومر لبيد بالكوفة فى بنى نهد، فسألوه من أشعر الناس؟ فقال الملك الضليل «يريد امرأ القيس» قيل له ثم من؟ قال ابن العشرين «يريد طرفة» قيل ثم من؟ قال أبو عقيل «يريد نفسه».

وقال سيدنا عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما وقد سأله عن الشعراء «أمرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقرت عن معان عور أصح بصراً» وقد شرح السيوطى فى كتابه «المزهر» عبارة سيدنا عمر، فقال: خسف لهم من الخسف وهى البئر التى حفرت فى حجارة فخرج منها ماء كثير، وقوله افتقر أى فتح من الفقر وهو فم القناة يعنى أنها انبجست عن فتحات كثيرة كأنها الفقار المتعددة فى قناة، وقوله عن معان عور يعنى مشهورة

يريد أن امرأ القيس من اليمن وأن أهل اليمن ليست لهم فصاحة نزار فجعل لهم معانى عورا فتح منها امرؤ القيس أصحّ بصرٍ ،فإن امرأ القيس يمانى النسب، نزارى الدار والمنشأ .

وفضله سيدنا على رضى الله عنه على شعراء الجاهلية بأن قال : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة .

وقال الحطيئة : امرؤ القيس أشعر العرب حيث يقول :

فيالكَ من ليلٍ كأنّ نجومَه بكل مُغار الفتل شدّت بيذْبل

وقيل لِكثيّر من أشعر العرب ؟ فقال . امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب .

وقيل لنُصيّب من أشعر العرب ؟ فقال ؛ لم أر لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ما لزهير والنابغة والأعشى فى النفوس .

وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرىء القيس، واختتم بابن هرمة .

وقالت طائفة : الشعراء ثلاثة ؛ جاهلى وإسلامى ومولّد ، فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرُّمة ، والمولد ابن المعتز .

وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن فى الجاهلية بامرىء القيس ، وفى الإسلام بحسان بن ثابت ، وفى المولدين بالحسن بن هانىء وأصحابه .

وقال ابن سلاّم :« إن امرأ القيس سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيْض ، والخيل بالعقبان والعصىّ ، وهو أول من قيّد الأوابد وأجاد فى التشبيه » وتلك شهادة من ابن سلاّم لها ما قبلها ، وعليها ما بعدها .

وقال الآمدى فى الموازنة « . . . وبهذه الخلة دون ما سواها فضل امرؤ القيس ؛ لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة ؛ فوق ما استمار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، حتى أنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع ، ولولا لطيف المعانى واجتهاد امرىء القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا : هو أول من شبه الخيل بالعصى ، وذكر الوحش والطير ، وأول من قال : قيد الأوابد ، وأول قال كذا وقال كذا ، فهل هذا التقديم له إلّا لأجل معانيه » ويشهد الآمدى بعد ذلك أن امرأ القيس جمع الفضيلتين فضيلة جمال اللفظ والأسلوب وفضيلة جلال المعنى .

وقد ذكر ابن قتيبة فى عيون الأخبار ، أن قوما قدموا على النبى صلوات الله وسلامه عليه من اليمن ، فقالوا : يارسول الله أقبلنا نريدك ولكننا ضللنا الطريق ومكثنا ثلاثة أيام بغير ماء فاستظللنا بالطلح والسمر ، فأقبل علينا راكب متلثم بعمامته ، فنظر إليه بعض القوم فأعجبه سير الناقة ، فقال متمثلاً ببيتين هما .

ولما رأتْ أنّ الشريعة همُّها وأنّ البياضَ فى فرَائِصها دَامى
تَيمّمت العينَ التى عندَ ضَارِج يفِىء عليْها الظّـلُ عرْمُضها طامى

فقال الراكب : من يقول هذا الشعر ؟ فقلنا امرؤ القيس . فقال : والله ما كذب هذا ضارج عندكم ، وأشار بيده إليه ؛ فجثونا على الركب إلى ماء غدَق

عليه الطلح والعرمض والظل يفيء ؛ فشربنا حتى روينا ؛ وحملنا منه ما يكفينا ويبلغنا الطريق . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ذلك رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها . منسىّ فى الآخرة خامل فيها . يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار » . وروى ذلك الخبر أيضاً الألوسى فى بلوغ الأرب وجاء فى المزهر أن النبى عليه الصلاة والسلام قال امرؤ القيس أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار » يعنى الجاهليين[1] .

وقال يونس النحوى : قدم علينا ذو الرمة من سفر ، وكان أحسن الناس وصفا للمطر فاختار قول امرىء القيس :

ديمة هَطْلاءُ فيها وَطَفٌ طَبقُ الأرضِ تَحرّى وَتَدُرّ[2]
تُخْرِج الوَدّ إذا ما أشْحَذَت وَتُواريه إذا ما تَعْتَكِر[3]
وَتَرَى الضَّبَّ خَفيفا ماهرا ثانيا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِر[4]
وَترى الشَّجْراء فى رِيِّقِها كرءوس قُطِّعَتْ فيها الخُمُر[5]

(١) أهل الحديث وعلماء السنة — وهم الحجة فيما ينسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام — يضعفون هذه الرواية بل ينكرونها

(٢) الديمة السحابة المطيرة الدائمة فى سحها يوما وليلة . هطلاء مسبلة . فيها وطف أى لها حواش وأهداب متدلية من جانبيها حتى لتكاد تمس الأرض . وطبق الأرض أى تعم الأرض حتى تصير كالطبق . وتحرى أى تتحرى بمعنى تقصد وتعمد . تدر أى تصب

(٣) الود الوتد . أشحذت أقلعت وكفت . تعتكر تشتد .

(٤) البرثن الأصبع . ما ينعفر أى ما يصيبه التراب

(٥) الشجراء الغابة الكثيرة الشجر . وريقها مستهلها أى أول المطر . والخمر جمع خمار وهو ما يغطى به الوجه

سَاعةً ثم انتحاهَا وَابِلٌ   سَاقِطُ الأكْنافِ وَاهٍ مُنْهَمِر (١)
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبا ثمَّ انتَحَى   فيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْفَجِر (٢)
ثَجَّ حتى ضَاقَ عنْ آذِيِّهِ   عَرْضُ خَيْمٍ فَخُفَافٍ فَيُسُر (٣)
قد غدا يَحْمِلُني فى أنفِهِ   لاَحِقُ الأيْطَلِ مَحْبُوكٌ مُمِر (٤)

وقدْ قال صاحب شعراء النصرانية إن هذا أحسن شعر جاء فى وصف الغيث .

وحكى البغدادى فى خزانته عن بعض العلماء بالشعر أن امرأ القيس أحسن الشعراء ابتداءا فى الجاهلية حيث يقول :

أَلاَ عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّللُ البالى   وَهلْ يَعِمَنْ من كانَ فى العُصُرِ الخالى

وكان امرؤ القيس كثير الإجادة فى وصف الفرس ، حتى لا نكاد نجد قصيدة من قصائده تخلو من وصفه ، وَمن أحسن ما وصفه به قوله :

وَقدْ أغتدى وَالطَّيْر فى وُكُناتِها   بمنجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكل
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبِلٍ مُدْبِرٍ معاً   كجلمودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلِ

---

(١) انتحاها قصدها واعتمدها . والوابل المطر الشديد . والأكناف النواحى . والواهى المتشقق . ومنهمر أى سائل شديد الوقع .

(٢) راح أى عاد فى آخر النهار . تمريه الصبا أى تستدره ريح الصبا . وشؤبوب جنوب أى مطر ريح الجنوب وهى التى تقابل الصبا . وقوله منفجر أى غزير شديد

(٣) ثج أى صب . والآذى الموج . عرض رحاب . وخيم وخفاف ويسر أماكن

(٤) أنفه أى أوله . ولاحق الأيطل ضامر الخصر . والمحبوك المدمج الشديد الخلق . والممر المفتول العضل غير مترهل اللحم

فقوله قيد الأوابد من الألفاظ الشريفة البالغة نهاية الحسن ومنتهى الجودة ، فقد عنى بذلك أنه إذا أرسل فرسه على الصيد ، صار قيدا له وكأنّ الصيد بحالة المقيد ، وذلك من شدة عدو هذا الفرس . وقد ذكر الأصمعى وأبو عبيدة وحماد وقبلهم أبو عمرو ذكروا جميعاً : أنه أحسن فى هذا المعنى وأنه اتبع فيه فلم يلحق .

وقد قال خلف : لم أر بيتا أفاد وأجاد وساد وزاد وقاد وعاد ولا أفضل من قول امرىء القيس :

له أَيْطَلَا ظبْيٍ وَساقا نَعامةٍ وَإِرْخاء سِرْحانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

فقد شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء مع إحسانه فى ذلك ، فما امتاز به امرؤ القيس حسن التشبيه ورقته .وقد قال بشار بن برد : لم أزل أحسد امرأ القيس على قوله :

كأنَّ قلوبَ الطّير رَطْبا ويابسا لَدَى وكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالى

حتى قلت :

كأنّ مُثار النقْع فوْقَ رءوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كَوا كبه

ولكن امرأ القيس قد سبق إلى صحة التقسيم فى التشبيه ، ولم يتمكن بشارٌ إلاّ من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحة التقسيم والتفصيل .

ومن بديع تشبيهات امرىء القيس قوله :

وليلٍ كموْج البحْر أرخَى سُدُوله علىّ بأنواعِ الهمومِ لِيبْتلى
فقلتُ لهُ لماّ تمطّى بصلْبه وأرْدَفَ أعجازا وناءَ بكلكل
ألاَ أيّها اللّيل الطّويل ألاَ انجلِ بصبحٍ وما الإصباح مِنْك بأمثل

فيالَكَ من لَيلٍ كأنّ نُجومه بكلِّ مُغار الفَتْلِ شُدَّت بِيَذْبُل
كأنّ الثرَيّا عُلقت فى مُصَامها بأمْراس كَتان إلى صُمِّ جَندل

فانظر إليه كيف جعل الليل جملا له صدر، ثقيل تنحّيه، بطىء تقضّيه، وجعل له كلكلا ينوء به، وأعجازا كثيرة يردفها، وجعل له صلبا يمتد ويتطاول، ثم بالغ فى طول الليل، فقال: كأن نجومه شدت بحبال إلى جبال، فكأنها لا تسير ولا تغور، وزاد على جلال هذا المعنى جمال اللفظ والأسلوب.

ومن تشبيهاته الحسنة أيضاً قوله:

كأنى غَداة البَيْن يومَ تحملوا لدَى سَمُرات الحىِّ ناقِفُ حَنْظل

وقوله:

كأنّ عُيون الوَحْش حولَ خِبائِنا وأرْحُلِنا الجَزْع الذى لم يُثَقَّب

وَقوله أيضاً يصف المرأة:

تصُدّ وتُبْدِى عن أسيلٍ وتَتَّقى بناظرةٍ من وَحْش وجْرَة مُطْفِل
وجيدٍ كجيد الرئْم ليس بفاحشٍ إذا هىَ نصَّته ولا بمعطّل
وفرع يَزينُ المتن أسْودَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنو النّخلة المتَعَثْكِل
غدائرُه مسْتَشْزِرات إلىَ العُلا تضلُّ العقاصُ فى مثَنًّى ومُرْسَل
وكَشْحٍ لَطيفٍ كالجدِيل مُخَصَّر وسَاقٍ كأنبوبِ السَّقىِّ المذَلّل

ويجب أن نذكر أن خيال امرىء القيس خيال شاعر عاش فى البادية بين الوهاد والنجاد، والربا والآكام، والظباء الوادعة والوحوش النافرة، ولكل هذا جمال خاص، وجلال يقف على حقيقته مَنْ طبع نفسه بطابع البيداء، وجعلها مرآة لذلك العراء. فلا غرابة بعد هذا إن وجدنا لامرىء القيس فى بعض تشابيهه نزعة لا تروق أهل الحاضرة وسكان الأمصار.

ومن أحسن غزل امرىء القيس الذى جمع فيه إلى عذوبة اللفظ رقة المعنى قوله :

أفاطِمُ مَهْلا بعضَ هذا التدلّل وإن كُنتِ قدأزْمعْتِ صَرْمى فَأجملى
أغرّكِ منّى أنّ حُبّك قاتِلى وأنك مهما تأمُرى القلبَ يَفْعَل
وما ذرفَتْ عَيْناكِ إلاّ لِتضرِبى بسهْميك فى أعشارِ قلْبٍ مُقتّل

وقد ذكر ابن قتيبة أن أشرافا من الناس والشعراء اجتمعوا عند عبد الملك فسألهم عن أرق بيت قالته العرب ، فاجتمعوا على قول امرىء القيس :

وما ذَرفَت عيناك إلاّ لتضربى بسهْميك فى أعْشار قلبٍ مقتّل

وقد قال الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن « وأنت لا تشك فى جودة شعر امرىء القيس ، ولا ترتاب فى براعته ، ولا تتوقف فى فصاحته ، وتعلم أنه قد ابتدع فى طرق الشعر أموراً اتبع فيها : من ذكر الديار ، والوقوف عليها ؛ إلى مايتصل بذلك من البديع الذى أبدعه ، والتشبيه الذى أحدثه ، والتمّيح(١) الذى يوجد فى شعره ، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله ، والوجوه التى ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمد وأمور تؤثر وتمدح » وتعرض الباقلانى بعد ذلك إلى معلقة امرىء القيس فانتقد منها أبياتا كثيرة ، ليدل بهذا النقد على إعجاز القرآن الكريم ، وأنه فوق مقدور البشر ، وأن أبلغ شعر للعرب وأفصح كلام لهم لا يمتنع من النقص ، وأنه لايصل إلى مرتبة القرآن الكريم فى بلاغته وفصاحته وجمال لفظه وجلال أسلوبه وشرف معناه ، ونحن نوافق الباقلانى رضى الله عنه على أن القرآن فى

---

(١) التمميح : التبختر فى المشى

الذروة العليا من البيان العربى ، وأنه لا يلحق له غبار ولا يدانيه شيء من كلام العرب ، وأنه قبيل آخر منقطع النظير ، فهو وحى يوحى ، نظمه مميز ، وأسلوبه مخصص . ولكنى آخذ على الإمام الباقلانى تعسفه فى نقد امرىء القيس ، وغلوه فى ذلك حتى جاوز حد النقد البرىء ، فجاء كلامه مختلطا ذا عوج غير مبين ، وسنبين ذلك مفصلا عند كلامنا على أوهام نقاد شعر امرىء القيس .

ومما لا جدال فيه أن امرأ القيس كان أجود الشعراء فيما طرقه من الأغراض وما ابتدعه من المعانى ، وأن شاعريته وتقدمه على سائر شعراء عصره من الأمور التى فرغ الناس من تحقيقها وتقريرها ، حتى أصبحت غير قابلة لشىء من الجدل أو المناقشة .. كان جيد السبك ، رشيق المعنى ، قريب المأخذ ، إلا أنه أحيانا تخشن ألفاظه ، وتجف عباراته ؛ مسايرة لطبيعة عصره وظروف بيئته .

وينتهى بنا القول إلى أن الأدب العربى فى العصر الجاهلى لم يعرف أحداً من الشعراء بلغ ما بلغه امرؤ القيس فيما أتى به من مقلدات الشعر وغرر القصائد ، وما تصرف فيه من فنون البيان ، وابتكره من المعانى والأساليب ، واتخذه من مذاهب الكلام .

وهو عند النقاد القدامى أول من فتح أبواب الشعر ، وجلا أبكار المعانى وقرب المآخذ ؛ ونوع الأغراض ، وافتن فى المقاصد ، وأجاد فى وصف الخيل ، وبكاء الديار ، والحديث عن النؤى والأطلال . . وهو أيضا صاحب مذهب اخترعه وجوده ، وانفرد به ، فقد أتى فى التشبيه المصيب والاستعارة القريبة بأشياء تابعه فيها الشعراء ، وقد عد العلماء شعره فى ذلك مثلا يحتذى ويقاس عليه ، ويحتكم فى السبق والتخلف إليه .

وهو عند أصحاب اللغة من علماء العربية صاحب مذهب لغوى ، فلقد اختار لشعره اللفظ المحبر ، والأسلوب المتنخل ، وأفرغ كلامه فى قالب اختص به ، وأصبح

دليلا عليه ، فجاء شعره على الأسماع منسجما منفرداً رائعا ، وجرى على الألسنة عذبا سائغا سلسالا مترقرقا .

هذا ولم يسلم شعره على مدى الأجيال من أن ينفذ إليه الناقدون فيكشفوا عما فيه من مآخذ ويبينوا مافيه من مثالب بعدت به عن المذهب الأقوم فى النحو واللغة و العروض ، مما سنعرض له بالتفصيل فى باب (مآخذ العلماء على امرىء القيس فى أشعاره) .

ومهما يكن من أمر هذه المآخذ وتلك المثالب ، فإن امرأ القيس فيما أفاض فيه هؤلاء النقاد القدامى حجة لدينا عليهم ، وليسوا هم عندنا بحجة عليه ، لأنه بحكم فطرته وبيئته من وضّاع اللغة السابقين وروّادها الأولين .

وقد عنى الرواة بجمع شعره عناية لم يظفر بها شاعر قبله .. رواه حماد ، وأبو عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، والمفضل ، وخالد بن كلثوم ، ومحمد بن حبيب ، وأبو العباس الأحول ، وابن السكيت ، ثم صنعه أبو سعيد السكرى من جميع الروايات .

ومن الذين تناولوه بالشرح والتفسير والبيان وتمييز صحيحه من منحوله : الأصمعى ، والطوسى ، وأحمد بن حاتم ، وأبو حاتم السجستانى ، وابن قتيبة ، وأبو علىّ القالى ، والوزير أبو بكر البطليوسى ، والأعلم الشنتمرى ، وابن عصفور النحوى وغيرهم .

وبعض هذه الشروح وصل إلينا كاملا ، وبعضها وصلنا مفرقا فى ثنايا طائفة من كتب اللغة والأدب والنقد .

ومن النسخ الخطية التى تجمع طائفة من شعره وقصائده : نسخة الأعلم الشنتمرى ، ونسخة الطوسى ، ونسخة السكرى ، ونسخة البطليوسى ، ونسخة ابن النحاس ، ونسخة أبى سهيل .

معلقة امرىء القيس

قال ذلك الشاعر التاريخى العظيم :

قِفَا نبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومنزِلِ بسقْطِ اللوى بين الدَّخُول فحومَل
فتوضِحَ فالمِقراة لم يعفُ رسمها لما نسَجتْها من جنوب وشمأل
ترى بعَرَ الآرام فى عَرصاتِها وقيعانِهــــا كأنه حبّ فُلفُل
كأنى غداة البين يومَ تحمَّلوا لدَى سَمُرات الحىّ ناقفُ حَنْظل
وقوفاً بها صَحْبِى عَلَىّ مَطِيّهم يقولون لاتهلِك أسًى وتجمّل
وإنّ شفائى عَـبْرة مُهْراقة فهل عندَ رَسم دارِس من مُعوّل
كدأبك من أمّ الحويرث قبلَها وجارتِها أمّ الرَّباب بمأْسَلِ
إذا قامتا تضوَّع المسك منْهما نسيمُ الصَّبا جاءت بريَّا القرَنْفل
ففاضتْ دموعُ العين منى صَبابة على النحْرحتى بلّ دمْعِى مِحْمَـلى

وقال يصف يوم الغدير :

ألَا رُبّ يومٍ لك منْهن صالِحٍ ولا سيّما يومٌ بدارةِ جُلْجُل
ويومَ عقرْت للعذارَى مطيَّتى فواعجباً منْ كورِها المتحَمّلِ
فظلّ العذارَى يرتمِينَ بلحمها وشحْمٍ كهدّاب الدمِقْس المفتّل

إلى أن يقول :

ويوماً على ظهرالـكثيبِ تعذَّرَت علىّ وآلتْ حَلْفَةً لم تحلّل

وفيها يقول أيضاً مخاطباً ابنة عمـــه :

أفاطمُ مهلًا بعضَ هـذا التـدلّل
وإن كنت قد أزمَعْتِ صَرْمِى فأجملى

أغرّكِ منّى أنّ حبّك قاتلى
وأنّكِ مَهْما تأمرِى القلبَ يَفعَلِ

وما ذَرَفت عيناكِ إلّا لتضربى
بسَهْمَيْك فى أعشارِ قلبٍ مُقتّلِ

ثم مضى يقص ما كان منه مع معشوقته ويصفها بقوله :

وبيضةِ خدْرٍ لا يُرام خِباؤها
تمتّعت من لهوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

تجاوزْت أحراساً إليها ومَعْشرا
علىّ حِراصاً لوْ يُسِرُّون مَقْتلى

إذا ما الثريّا فى السّماء تعرّضَتْ
تعرّض أثناء الوِشاح المفَصّلِ

فجئتُ وقد نضّتْ لنومٍ ثِيابها
لدَى الستر إلّا لِبسة المتفضّلِ

إلى أن يقول :

ألا ربّ خَصْمٍ فيك ألوَى رددْته
نصيحٍ علَى تَعذاله غيرِ مُؤتلِ

ثم خرج من ذلك إلى وصف الليل فقال :

وليلٍ كموْج البحْرِ أرخَى سُدولَه
علىّ بأنواع الهمُومِ ليبتَلى (١)

فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بصُلْبه
وَأرْدف أعجازاً وناء بكلْكل

ألَا أيُّها الليْلُ الطويل ألا انجلِ
بصُبحٍ وَما الإصباحُ مِنك بأمْثل (٢)

فيالَك من لَيْلٍ كأنّ نجُومَه
بكلّ مُغارِ الفتْل شدّت بِيذْبُلِ (٣)

---

(١) ليبتلى ليختبر

(٢) بأمثل أى بأفضل

(٣) مغار الفتل شديد الفتل . ويذبل جبل

كأنّ الثريّا عُلقتْ فى مُصامها ... بأمْراس كتّان إلى صُمّ جَنْدل[1]

وروى أبو سعيد السكرى بعد ذلك أربعة أبيات عدها من المعلقة وهى قوله فى وصف الذئب :

وَقربةِ أقوامٍ جعلتُ عِصامها ... على كاهلٍ منّى ذَلولٍ مُرَحّل[2]

ووادٍ كجوْفِ العيرِ قفْرٍ قطعْتُه ... به الذئبُ يعْوى كالخليع المُعيّل[3]

فقلتُ له لمّا عوَى إنّ شأننا ... قليلُ الغنَى إنْ كنتَ لمّا تموّل[4]

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ... وَمَنْ يحترِثْ حَرْثى وحَرْثك يهزل[5]

وَلكن الأصمعى وأبا حنيفة الدينورى فى كتاب النبات وابن قتيبة فى أبيات المعانى رووْها لتأبط شراً . وَالبغدادى علق على هذه الأبيات فى خزانته بأنها أشبه بكلام اللص والصعلوك لا بكلام أبناء الملوك .

ثم قال امرؤ القيس يصف الفرس :

وقد اغتَدِى والطّيرُ فى وَكَناتها ... بمنجردٍ قيدِ الأوابد هَيْكل[6]

---

(١) مصامها موضع وقوفها . والأمراس الحبال . وصم جندل أى حجارة صلبة .

(٢) عصام القربة سيرها الذى تحمل منه . وذلول مذلل موطأ . والمرحل المعود أن يرحل عليه .

(٣) الخليع الذى خلعه قومه وطردوه . والمعيل ذو العيال .

(٤) لما تمول أى لما تصب مالا .

(٥) أفاته أضاعه . والمراد بالحرث هنا الفعل والسعى .

(٦) اغتدى أخرج أول النهار . والمنجرد الفرس القصير الشعر ، والأوابد الوحوش ، والمراد بهيكل طويل .

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا كجلمود صخرٍ حطّه السَّيلُ منْ عَلِ (١)

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عنْ حال مَتْنِهِ كما زَلَّتْ الصَّفْواءُ بالمتنزَّلِ (٢)

على الذَّبل جَيّاشٍ كأنَّ اهْتِزامه إذا جاش فيه حَمْيه غَلْيُ مِرْجل (٣)

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى أثرْنَ الغبارَ بالكَديد المركَّل (٤)

يزِلُّ الغُلام الخِفُّ عنْ صهَوَاته ويلوى بأثوابِ العنيف المُثَقَّل (٥)

دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوَليدِ أمَرّه تتابع كفَّيْه بخيطٍ مُوَصَّل (٦)

له أيْطلا ظَبْي وساقا نعامَةٍ وإرْخاء سِرْحان وتَقْريبُ تتفل (٧)

ضليعٌ إذا استدبرْته سدّ فرْجه بضافٍ فُوَيْقَ الأرضِ لَيْسَ بأعْزَل (٨)

---

(١) مكر مفر أى معاود للكر والفر . والجلمود الصخر الأصم

(٢) الفرس الكميت هو الذى فى لونه حمرة ضاربة إلى السواد . والصفواء الصخرة الملساء . والمتنزل المطر .

(٣) الذبل هو الذبول . وجياش أى يزداد فى الجرى . والاهتزام الصوت . والمراد بحميه شدة جريه . والمرجل القدر .

(٤) مسح كثير الجرى. والمراد بالسابحات الخيل . والونى الإعياء. والكديد ما صلب من الأرض . والمركل الذى ركلته الخيل بحوافرها

(٥) الخف الخفيف الحاذق بالركوب . ويلوى يذهب . والمراد بالعنيف المثقل الذى لايحسن الركوب .

(٦) درير سريع الجرى . والخذروف قال البغدادى هى الفرارة التى يلعب بها الصبيان يسمع لها صوت.

(٧) أيطلاظبى خاصرتيه لانفراجهما . وإرخاء السرحان سرعة الذئب . والتقريب وضع الرجلين الخلفيتين موضع الرجلين الأماميتين فى العدو . والتتفل ولد الثعلب .

(٨) ضليع قوى الأضلاع . واستدبرته نظرت إليه من خلف .والأعزل الذى يميل عظم ذنبه إلى أحد الشقين .

كأنّ عَلَى المتنَيْن مِنْه إذا انتحَى ... مَداك عَروس أو صَلاية حَنْظل[1]

كأنّ دماء الهاديات بنَحْرِه ... عُصارَة حنّاء بشَيْب مُرَجّل[2]

فعنّ لنا سِرب كأنّ نِعاجه ... عَذارَى دَوار فى مُلاء مُذَيّل[3]

فأدْبَرْن كالجِزْع المفصّل بينه ... بجيد مُعمٍّ فى العشيرة مُخْوِل[4]

فألحقنا بالهـادِيات ودونَه ... جواحِرُها فى صَرّة لم تُزَيّل[5]

فعادَى عداء بين ثورٍ ونعجةٍ ... دِراكاً ولم يَنْضَح بماء فيُغْسَل[6]

فظلّ طهاةُ اللحْمِ مابَيْن منضِجٍ ... صَفيفَ شُواء أو قَدِيرٍ مُعَجّل[7]

ورحْنا يكاد الطّرْفُ يقْصُر دونَه ... متَى ماترَقّ العين فيه تَسَفّل[8]

فبات عليه سرجُه ولجامُه ... وبات بعينى قائماً غيرَ مُرْسَل[9]

---

(١) مداك العروس الحجر الذى يسحق عليه الطيب لها. والصلاية الحجر الذى يدق عليه الحنظل وكلاهما يكون صلبا براقا .

(٢) الهاديات أوائل الصيد والوحش . والمرجل المسرح بالمشط .

(٣) عن ظهر . والسرب قطيع البقر الوحشية . والدوار صنم كانت العرب تنصبه وتدور به . والملاء جمع ملاءة وهى ثوب ذو لفقين . والمذيل الطويل الذيل .

(٤) الجزع الخرز .

(٥) والجواحر المتخلفات . والصرة الجماعة . لم تزيل أى لم تتفرق

(٦) عادى أى والى الجرى . دراكا أى سريعاً . ينضح يعرق .

(٧) الصفيف شرائح اللحم المرققة . والقدير المطبوخ فى القدر .

(٨) متى ما ترق العين فيه تسفل أى متى ما ارتفعت عين الناظر إلى أعالى خلقه تسفلت فبادرت بالنظر إلى قوائمه .

(٩) بات بعينى أى بحيث أراه .

وقال بعد ذلك يصف البرق والمطر ومرح الطير وطربها بصفاء السماء بعد تسكاب الماء .

أصاحِ ترى برْقًا أريكَ وميضه كلمْع اليدَيْن فى حبّى مُكلل [1]
يضىء سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أمالَ السليطَ بالذّبال المفتّل [2]
قعدت وأصحابى له بين ضارجٍ وبينَ العُذَيْب بعْدَ ما مُتأمّل [3]
عَلَى قَطنٍ بالشيْم أيمَنُ صَوْبه وأيْسَرُه على الستار فيَذْبل [4]
فأضحَى يسُحُّ الماء حَوْل كُتيفَة يَكُبّ على الأذْقان دَوْح الكَنَهْبَل [5]
ومَرّ على القَنّان من نَفَيَانه فأنزل منه العُصْم منْ كلّ منزل [6]
وتيماء لم يترك بها جِذْعَ نَخلة وَلا أُطُماً إلاّ مَشيداً بجَنْدَل [7]
كأنّ ثَبيرا فى عَرانين وبْلِه كَبيرُ أناسٍ فى بِجادٍ مُزَمّل [8]

(١) الحبى المكلل السحاب المتراكم .

(٢) السليط الزيت

(٣) المعنى فى قوله بعد ما متأملى بضم الباء على ما قاله التبريزى يابعد ما تأملت .

(٤) الشيم النظر إلى البرق . وصوبه مطره .

(٥) كتيفة موضع ببلاد باهلة . وقوله يكب على الأذقان دوح الكنهبل أى يقتلع شجر الكنهبل من أصوله ويلقيه على أم رأسه لشدة سحه

(٦) القنان اسم جبل لبنى أسد . والنفيان ما يتطاير من قطر المطر . والعصم جمع أعصم وهو الوعل الذى فى إحدى يديه بياض

(٧) الأطم القصر

(٨) ثبير جبل. والعرانين الأنوف وقد استعيرت هنا لأوائل المطر. والبجاد كساء مخطط

كأنّ ذُرَى رأس المجيمرِ غُدْوَةً من السّيْل والغُثَّاء فَلْـكَةُ مِغزَلِ[1]
وألْقَى بصحْراء الغَبيط بِعاعَه نزولَ اليمانى ذى العِياب المحمّل[2]
كأنّ مَـكاكِىّ الجِوَاء غُدَيّة صُبِحْنَ سُلافًا من رَحيق مُفلفَل[3]
كأنّ السباع فيه غرقَى عشيّةً بأرجائه القُصْوَى أنابيشُ عُنصُل[4]

فأنت ترى أنه بدأ هذه القصيدة العالية بما عده الأدباء بحق من أجود مطالع الشعر الجاهلى بل الشعر العربى جملة ، وضربوا بحسنه المثل ، فقالوا : أحسن من قفانبك ، و إن كانوا يريدون القصيدة كلها ، وقد جمع فى شطر هذا المطلع بين أشياء عدها الناس من أولياته لأنه وقف واستوقف ، وبكى وأبكى معه صاحباه ، وَذكر الحبيب وَالمنزل ، ثم جعل يذكر صواحبه ، وَيصفهن بالطيب وَالنعمة فى عذوبة وَرشاقة ، وَأخذ يتحدث عن قصته مع صاحبته يوم الغدير ، وما كان من تحالفه وَقسمه المزوج بمطاوعة الشباب ، وَكان فى مثل عذوبة السلاف حين رقق الغزل فى قوله :

أغرّكِ منّى أنّ حُبّكِ قاتِلِى وَأنّكِ مهما تأمُرى القلبَ يفعَلِ
وَما ذَرَفَت عيناكِ إلاّ لتضرِبى بسَهْمَيْك فى أعشارِ قلْبٍ مُقتّل

وحين رققه أيضاً عند ما وصل إلى وصف الدبيب والاستهتار فى الحب

---

(١) الغثاء ما جاء به السيل من الحشيش والشجر والكلأ والتراب وغير ذلك
(٢) البعاع الثقل
(٣) المكاكى جمع مكاء وهو ضرب من الطير حسن التغريد فى الصباح
(٤) الأنابيش أصول النبات .. والعنصل البصل البرى

والتعرض للتهلكة فى مخاتلة الأحراس الحراص على قتله والفتك به ، ثم انتحى نحواً آخر فى وصف الليل ووصف الفرس بما هو فيه أول بالإجماع ، ثم جرد من الذئب شخصاً خيالياً وخاطبه فى قوة خيال وروعة تصوير[1] ثم وصف البرق والمطر ، وجعل الطيور وهى المكاكى من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد نزول المطر كأنما شربن سلافا من رحيق مفلفل ، وكل هذا مفرغ فى ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة . نستطيع أن نحكم بعد ذلك على هذه المعلقة بأنها من أجل الآثار التاريخية لتلك الفصاحة العربية فى ذلك العصر الجاهلى ، وهى فى جملة أغراضها وأوصافها ونسيبها وكناياتها المثال الذى احتذى عليه الشعراء بعده وجعلوه رئيس فحولهم والمقدم عليهم غير مدافع فى ذلك ، وليس فى شعراء الجاهلية من نشعر بقوة شخصيته فى شعره مثل امرىء القيس ، وهو يعتبر من شعراء العالم الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، ولئن جاز فى عقل أحد أن يشك فى شىء من أشعار الجاهلية ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق إليهم الشك أو تتصل بحياتهم التهمة ، ولقد روى شعره ثمانية من ثقاة الرواة ودونوه وتناولوه بالنقد والشرح وهم أبو عمرو بن العلاء وأبو سعيد الأصمعى وابن السكيت وأبو عباس الأحول وأبو عبيدة وأبو سعيد السكرى ومحمد بن حبيب وخالد بن كلثوم ، وتناوله أيضاً العلماء المستشرقون ونقدوه وحللوه وهؤلاء جميعاً لم يمكنهم أن ينكروا شعر امرىء القيس ولا شخصيته ويكفى أن نذكر شهادة المستشرق (نيكلسون) لهذه المعلقة فقد قال « أما معلقة امرىء القيس فقد تسابق النقاد

---

(١) يقول صاحب الشهاب الراصد إن قصيدة الفريد دى فينى أحد أعضاء أكاديمية فرنسا فى (موت الذئب) لا تضارع فى مجموعها أبيات امرىء القيس ثم يقول إن فكرة الشاعر العربى هى التى أوحت بلا أدنى ريب إلى الشاعر الفرنسى قصيدته الشهيرة

الأوربيون إلى التغنى بجمال تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها ، وحلاوة تدفق أبياتها ، وسحر تمثيلها المنوع ، ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بأفراح الحياة وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابة ومبانيها البالغة أعلى درجات الفصاحة .

أما ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور طه حسين من إنكار شعر امرىء القيس وشخصيته فسنفند هذا الرأى و نبين وجه الخطأ فيه فى فصل مقبل إن شاء الله تعالى .

رأينا فى المعلقة

قال ابن قتيبة « كان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع بالشعر بفاطمة ما صنع وكان لها عاشقاً ، فطلبها زمناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان ، فقال قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل، فلما بلغ ذلك حجراً أباه دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : أقتل امرأ القيس وائتنى بعينيه ، فذبح جؤذراً فأتاه بعينيه ، فندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ، إنى لم أقتله ، قال فائتنى به ، فانطلق ، فإذا هو قد قال شعراً فى رأس جبل وهو قوله :

فلا تتركَنىّ يا ربيعُ لهـــذه   وكنت أرانى قبلَها بكَ واثقاً

فرده إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال : ألا عم صباحًا أيها الطلل البالى فبلغ ذلك أباه ، فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدمون » .

ومن تلك الرواية التى تحدث بها ابن قتيبة نعلم أن امرأ القيس قد قال معلقته وقصيدته الثانية (ألا عم صباحًا أيها الطلل البالى) فى أيام شبابه ولهوه ، قبل أن يغالبه القدر ، وينازعه الدهر ، وعلى هذا فنحن ندرس هاتين القصيدتين على أنهما تمثلان امرأ القيس فى طوره الأول طور الشباب .

أما قصة الغدير ، فقد قالت الرواة فى أنبائها : إن امرأ القيس كان عاشقاً لعنيزة ابنة عمه شرحبيل ، وكان قد منع من الاجتماع بها ، وحيل بينه وبينها ، جريًا على مألوف العرب فى عدم تمكين العاشق من الاجتماع بمعشوقته ، وعدم تزويجه إياها ، وأيضًا لأن امرأ القيس كان متهتكا مشهوراً بالفواحش ، ولكنه

كان يمنّى نفسه بملاقاتها ، والوقوف بين يديها ؛ يمتع نظره برؤيتها ، ويستمع إلى حديثها العذب المشتهى ، وشاء القدر أن يظعن حيهما ، وكان من عادة العرب فى ظعنهم أن يتقدم الرجال ، وتتبعهم النساء ، فتخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وتربص يترقب النساء مستخفيًا ، حتى ظعنّ ، فمشى على إثرهنّ ، وهنّ لا يشعرن به . وكان فى طريق الظاعنين غدير يسمى دارة جلجل من منازل كندة بنجد ، فلما ورد العذارى هذا الغدير نضونَ عن جسومهنّ ثيابهنّ ، ونزلنَ إلى الماء يستحممْنَ ، وكانت فيهنّ عنيزة ، فبرز إليهنّ امرؤ القيس من مكمنه وجمع ثيابهنّ وجلس عليها ، فلما شعرْنَ به وأدركْنَ مكيدته تضرّعْنَ إليه وتلطفنَ فى المقال معه لعله يعطيهنّ ثيابهنّ ، فأقسم أنه لن يعطى واحدة منهنّ ثيابها حتى تخرج إليه عارية ، فخاصمنَه ساعات من النهار ، فأبى إلا إبراراً بقسمه ووفاء بيمينه ، واستمسك بهذا وأصر ، فخرجت إليه أوقحهنّ فرمى إليها ثيابها ، ثم تتابعْنَ عليه ولم يبق فى الغدير إلا عنيزة معشوقته ، فأقسمت عليه وتوسلت إليه أن يعدل عن شرطه ، فأبى مطاوعتها ، وقال لها : لابد لك من أن تفعلى مثل ما فعلن ، وما زال بها حتى خرجت إليه وهى عارية ، فأبى أن يعطيها ثيابها إلا إذا رآها مقبلة مدبرة ، ففعلت فدفع إليها ثيابها فلبستها ، ثم اجتمعت عليه النسوة ، وأخذنَ فى عذله وتعنيفه على تلك الفعلة الشنعاء ، وقلنَ له : لقد جوعتنا وأخرتنا عن الحى ، فقام إلى ناقته فعقرها لهنّ ، وجمعت الإماء الحطب وأوقدنَ النار ، وطفق النسوة يشوِينَ اللحم ويأكلنَ إلى أن شبعْنَ ، وكانت مع امرىء القيس ركوة من الخمر فسقاهنّ منها ، ولما تأهبْنَ للرحيل قسمْنَ أمتعته بينهنّ فحملنها على رواحلهنّ ، ولم يكن لعنيزة نصيب من هذا المتاع ، وبقى امرىء القيس ولا مركب له ، فقال لعنيزة : لابد لك من أن تحمليني ، وألحت عليها صواحبها أن تحمله على مقدم هودجها ، فحملته مرغمة

فجعل يدخل رأسه فى الهودج يقبلها ويغازلها ويحادثها أحاديث الهوى والصبابة ، ثم نظم هذه المعلقة ، وذكر فى أثنائها تلك القصة .

ومهما يكن من تحدث الرواة عن يوم الغدير وجعله سبباً لتلك المعلقة ، فالباعث الحق على هذه القصيدة هو اللهو والعبث والرغبة فى قول الشعر؛ لأنها لم تقتصر على النسيب والتشبيب ، بل تناولت عدة فنون وأغراض وذلك معناه أن الباعث على تلك القصيدة إنما هو الرغبة فى الشعر بمختلف فنونه جرياً على سنة الشعراء فى أشعارهم .

ولا مرية فى أنها من شعر امرىء القيس أيام الشباب ، أيام زهوه بخفض العيش وخلوّ قلبه من هموم الحياة وأثقالها التى أناخت عليه بكلكلها بعد موت أبيه .

والمؤثرات فى تلك القصيدة هى مناظر تلك الأماكن التى رادها ، والمياه التى وردها ، والصحارى التى ضرب فيها ، والجبال التى شاهدها ، حيث الدخول وحومل وتوضح والمقراة ودارة جلجل وبطن خبت ووجرة وظبى ودوار وضارج والعذيب وقطن والستار ويذبل وكتيفة والقنان وتيماء وثبير والمجيمر وصحراء الغبيط ، يدل على ذلك قوله :

قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حبيب ومنزلِ ... بسَقْط اللوَى بين الدَّخول فَحَوْمَلِ
فتوضِحَ فالمِقْراة لم يعفُ رسمها ... لما نسجَتْها من جنوب وشمألِ

وقوله : —

ألاَ رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالحٍ ... ولا سيّما يومٌ بدارةِ جُلْجُلِ

وقوله : —

فلمّا أجزنا ساحَةَ الحىّ وانتحَى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذِى حِقاف عَقَنْقَلِ

وقوله : —

تصدّ وتبدِى عن أَسِيلٍ وتَتَقى   بناظرةٍ من وحْش وَجْرة مُطفلِ

وقوله :—

وتعطو برخصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّه   أساريع ظَبْى أو مَساويك إسْحل

وقوله : —

فيالك من لَيــل كأنّ نجومه   بكلّ مُغار الفَتْل شُدَّتْ بيذْبل

وقوله :—

فعنّ لنا سِرْب كأنَّ نِعاجه   عذارَى دَوارٍ فى مُلاَء مُذَيَّل

وقوله : —

قعدْتُ وأَصْحابى له بينَ ضَارِج   وبينَ العُذَيْب بُعْدَ ما مُتَأَمَّلِ
على قطنٍ بالشيْم أَيْمنُ صَوْبه   وأَيْسَرُه على السِّتارِ فَيذْبُلِ
فأضحَى يَسُحّ الماء حَوْل كَتيفة   يَكُبّعلى الأذقان دَوْحَ الـكَنَهْبَل
ومرّ على القنّان من نَفَيانه   فأنزل مِنه العُصْم منْ كلّ منزل
وتيماء لم يتْرك بها جِزْع نخلة   ولا أُطُما إلاّ مَشِيداً بِجَنْدَل
كأنّ ثَبيرا فى عَرانين وبْـلِه   كبيرُ أناسٍ فى بِجادٍ مُزمّل
كأنّ ذُرَى رأس المجَيمر غدوةً   من السّيْل والغُثّاء فَلْـكة مِغزل
وألقَى بصحراءِ الغبيط بِعاعه   نزولَ اليمانِى ذِى العِياب المحمّل

أما أغراض القصيدة فأربعة : —

(أولها) التشبيب بالنساء من مطلعها إلى أن يقول : —

تسلّتْ عَمايات الرّجال عن الصِّبا   وليس فؤادى عن هَواها بمُنْسَل

(وثانيها) الشكوى ووصف الليل وطوله إلى قوله : —

وقد أغتدِى والطيْرُ فى وُكُناتِها   بمنجرِدٍ قيدِ الأوابدِ هَيْـكل

(وثالثها) وصف الخيل والصيد إلى قوله : —

أصاحِ ترَى برْقاً أرِيكَ وَمِيضَهُ   كلمع اليدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُـكلل

(ورابعها) وصف الغيث وسيوله حتى ينتهى إلى قوله : —

كأنَّ السباع فيه غرْقَى عشيّة   بأرجائه القُصْوَى أنابيشُ عُنصل

وقد أطال فى الغرض الأول لأنه شاب ناعم مترف ، أحب شىء إليه النساء ، وأعذب حديث عنده ذكرهن ، فمجال القول له فيهن واسع . وأقل فى الثانى لأن الشكوى من المعانى التى لا يهتم بها مثله فى ذلك الحين ، لأنه إذْ ذاك لا يشعر بشىء ينغص عليه عيشه ويكدر صفوه ، فهو لا يطيل القول فى شىء لا يحسه . وأطال فى الثالث حتى قرب من الأول ، لأن ركوب الخيـل عند الفتيان لذة تـكاد تعدل حب النساء والهيام بهن ولا سيما عند أمثال امرىء القيس . وأمّا الغرض الرابع فإنه كان فيه وسطاً بين الأول والثالث فى الـكثرة ، لأنه وإن يكن من ضروب اللذات لمـافيه من لهو وطرب إلا أنه فى نفس ذلك الشاعر الفتى لا يعدل حب النساء والخيل ، فلم يبعد الشوط فيه إبعاده فيهما ، على أنه أظهر لنفسه فيه ميزة لا يلحقه فيها شاعر آخر إذْ كان كالمصور الماهر أخذ ريشة التصوير ورسم بها على لوحة الخيالة الناطقة ما أوحته إليه شاعريته وأملاه عليه خياله فى وصف تلك الطبيعة ، ثم عرضها على سمعك وبصرك معاً ، وهو فى وصفه للمرأة والفرس أيضاً فارس لا يلحق غباره .

ومما امتازت به هـذه القصيدة أن كلماتها متجانسة متجاذبة ، آخذ بعضها بحجز بعض ، حتى أنك إذا بدأت بأول كلمة فى البيت تتابعت على مسمعك بقية

الكلمات قبل أن تكلف لسانك نطقها ، فاعرض أى بيت شئت على سمعك تجد له رنة موسيقية وحلاوة إيقاع ولن تحس إلا ماذكرت لك .

ولقد أظهر امرؤ القيس فى هذه القصيدة نعمة النبلاء ، وترف السادة المالكين كقوله : —

فظلّ العَذارَى يرْتَمِينَ بلَحْمِهَا وشَحْم كهُدّاب الدمَقْس المفتّل

وقوله أيضًا : —

فظلّ طُهاة اللحْمِ ما بَيْنَ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شوَاء أَوْ قَدِيرٍ مُعَجّل

ولإعجاب المتأخرين بفاخر تصوير امرىء القيس فى معلقته ، وتقديرهم لجمالها وجلالها ، وتذوقهم لعذوبة ألفاظها وروعة معانيها ، كان بعضهم يضمن أبياتها وأشطارها فى قصائدهم ومن هؤلاء صلاح الدين الصفدى الذى قال يخاطب ابن نباتة المصرى مضمناً بعض المعلقة .

أَفِى كلّ يوْم مِنْك عَتَبْ يَسُوءنى

« كجلمود صَخْر خطّه السيْل من عَل »

وترمِى على طولِ المدَى متجَنّيا

« بسهمَيْك فى أعشار قلْب مقتل »

فأمْسِى بليل صاحَ جُنْحُ ظَلامه

« علىّ بأنْواعِ الهمُومِ ليَبْتلى »

وَأَغدُو كأَنّ القلْبَ مِنْ وَقْدَةِ الجوَى

« إذا جَاشَ فيه حَمْيُه غلْىُ مِرْجل »

وَسالَتْ دُموعِى من هُمومى وَلَوْعَتى

« على النحْرِ حتّى بَلّ دَمْعِى مِحْملى »

إذا عايَن الإخْوَان مابى من الأسَى

« يقولون لا تَهلك أسًى وتَجمَّل »

ترفق وَلا تَجْزع على فائِتِ الوفا

« وَهلْ عند رَسْم دارِسٍ مِنْ مُعوّل »

وَلِى فِيك وُدّ طالما قدْ شددْتُه

« بأمْراسِ كتّان إلِى صُمّ جَنْدل »

فكرّ على جيْش الجِناية عائداً

« بمنجَرْدٍ قيْدِ الأوابد هَيْكل »

تجِدْ خفَرات الأنْسِ مِنها كواعباً

« ترائبها مَصقولة كالسَّجَنْجل »

وَخلّ الجفا وَارجِع إلى مَعْهَدِ الوَفا

« وَإن كنتَ قدأزمَعْت صرمِى فأجمِل »

حَلا وُدُّك الماضى وَإنْ لم تَعُدْ أعُدْ

« لدَى سَمُرات الحىّ ناقِفُ حَنْظل »

ومنهم أيضاً ابن نباتة المصرى الذى قال يرد على قصيدة صلاح الدين الصفدى :

فطمْتَ وَلَائى ثم أقبلْتَ عاتباً

« أفاطمُ مهْلا بَعضَ هذا التَدَلّل »

بروحىَ ألفاظٌ تعرّضَ عَتْبُها

« تعرّضَ أثناء الوِشَاح المفصّل »

فأحييتَ وُدًّا كان كالرّسمِ عافياً

« بسَقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدّخُولِ فَحَوْمَلِ »

تُعفِّى رياح العُــذْر منكَ رُقومَه

« لما نَسَجَتْها من جَنوبٍ وَشمألِ »

نعمْ قُوِّضَت منك المودّةُ وَانقَضَتْ

« فياعجبًا مِنْ رَحْلِها المتحمّلِ »

أمَوْلاى لاتَسْلُكْ من الظّلْمِ وَالجفا

« بِنا بطْنَ خَبْتٍ ذِى حِقافٍ عَقَنْقَلِ »

ماتمثله القصيدة

من أحوال الاجتماع

أول ما تعطيه القصيدة من أحوال الاجتماع أن الشاعر يشبب فيها بنساء من البدو حياتهن بين الحل والترحال ، وسكنى الخيام بين الجبال والآكام على أنهن كن على شيء من النعمة التى نراها فى هذه الأيام من نحو النوم إلى الضحى ، ونض الثياب عند النوم إلا لبسة المتفضل ، وتعطير الفراش بالروائح العطرة ، ويظهر ذلك فى قوله :

وَتضحِي فتيتُ المسك فوقَ فِراشها   نَئُوم الضحَى لم تَنْتَطِق عن تفضّل

وَقوله :

فجئتُ وقدْ نضَّت لنومٍ ثيابها   لدَى السِّتْر إلاّ لبْسَة المتفضّل

وأن الملابس عند الأعراب أيام امرىء القيس كانت على شيء من الرقش مثل الذى نراه الآن ، يؤخذ ذلك من قوله :

خرجْتُ بها أَمشِي تجرّ وراءنا   على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْط مُرَحّل

فذلك يعطيك أن ثوبها وهو المرط كان مرقشاً بصورة رحال الإبل كما تفعل مناسج أوربا وأمريكا وغيرها اليوم فى نقش الصور المختلفة على الثياب .

ومن ذلك عادتهم فى الميسر لقوله :

وَما ذرَفَتْ عَيْناك إلاّ لتضرِبِي   بسهمَيْك فى أعْشارِ قَلْب مقتّل

ومنها أن نساء العرب كن يضفرن بعض شعورهن ويرسلن بعضه ، يؤخذ ذلك من قوله :

وفرعٍ يَزينُ المتن أَسْوَدَ فاحمٍ أَثيث كقنوِ النخلة المتعثكل
غدائرُه مُسْتشزَرات إلى العُلا تضلّ العِقاص فى مُثنًى وَمُرْسل

وأن الرهبان كانوا أشهر الناس بإيقاد المصابيح وإشعالها ، يبين ذلك فى قوله :

تُضيء الظلامَ بالعشاء كأنّها مَنارَةُ مُمْسِي راهبٍ مُتَبتّل

وقوله :

يُضيء سَناهُ أومصابيحُ رَاهبٍ أمَال السّليطَ بالذُّبَال المُفتَّل

وأن ألوان النساء الحسان فى تلك الجهات بياض تقانيه صفرة كنساء أهل مصر الوسطى اليوم ، ومن أدواتهن السجنجل ، يؤخذ ذلك من قوله :

مُهفهفَة بيضاء غير مُفاضة ترائبها مصقولَةٌ كالسجنجل
كبِكر المقَاناة البياضِ بصفرةٍ غَذاها نميرُ الماء غيرُ المحلل

ولعب أطفالهم بالخذروف (لعبة الخيطين والزر) قال :

دريرٍ كخُذروف الوليد أمرّه تتابع كفّيْه بخَيْطٍ موصَّل

وَالخضاب بالحناء قال :

كأنَّ دِماء لهادياتِ بنَحْره عُصارة حِناء بِشَيْب مُرَجل

والالتحاف بالملاء قال :

فعنّ لنا سِرْبٌ كأنّ نِعاجه عَذارَى دَوَار فى مُلاء مُذيّل

وتقليد أطفالهم العقود ، وَنسائهم الوشج المفصلة بالذهب قال :

إذا ما الثّريّا فى السماء تعرّضَتْ تعرُّضَ أثناء الوشاحِ المفَصّل

وقال أيضاً :

فأدْبرْن كالجِزْع المفصَّل بَيْنَه بجيدِ مُعِمٍّ فى العَشِيرة مُخْوِل

وَأنهم كانوا يشوون اللحم على الطريقة المعروفة اليوم (البفتيك) وهو صفيف الشواء فى قوله :

فظلَّ طُهاة اللحمِ ما بين منضجٍ صَفيف شُوَاء أو قَدِير مُعَجّل

ولبسهم البجاد وهو العباءة المخططة قال :

كأنّ ثبيراً فى عَرانِين وبْله كبيرُ أناسٍ فى بِجادٍ مُزَمّل

وأن تجار الأقمشة يرتحلون فى بيعها من مكان إلى آخر فى الأحياء والقبائل ، وأن اليمنيين هم الذين اشتهروا بالتجارة ، يؤخذ ذلك من قوله :

وألْقَى بصحراءِ الغَبيط بِعاعَه نزولَ اليمانى ذى العِياب المحمّل

وأنهم كانوا يعلقون التمائم للأطفال ، قال :

فمثلُك حُبلى قد طَرَقْتَ ومُرْضِعٍ فألهَيْتُها عن ذى تمائم مُحْول

وأنهم كانوا يستعملون الحرير ، قال :

فظلّ العذارى يَرْتمين بلحْمِها وشَحْم كهدّاب الدمَقْس المفتّل

وأنهم كانوا يستعملون المغازل يغزلون عليها الخيط ، قال :

كأنّ ذُرَى رأْس المجيمر غدْوة من السَّيْل والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزل

وغير ذلك من الشئون المختلفة والأمور الكثيرة التى يجلوها أدب القصيدة على من يطالعها بإمعان . وإنما جئنا بنموذج فى ذلك على ما اقتضاه نظر التاريخ والأدب .

عرض المعلقة وتحليلها

جدير بالباحث أن يشير إلى أن معلقة امرىء القيس لها مكانة مرموقة بين سائر المعلقات وجميع الشعر العربى القديم على الإطلاق.

ولقد عنى رواة الشعر ونقاد الأدب والباحثون المتذوقون قديماً وحديثاً بدراستها ونقدها والتعليق عليها وموازنتها بسواها من الشعر والقول البارع البليغ.

ومع تقادم العصر بقائلها ومرور الحقب عليها؛ فإنا فى عصرنا الحديث ما نزال نرى فيها من القيم الفنية والطلاوة التعبيرية والرواء الجمالى ما يملأ نفوسنا إعجابا بها وكلفا بنسجها وتقديراً لصاحبها.. إذ نحس نبض الحياة يسرى فى ثناياها، وروعة الفن الشعرى تترقرق فى أبياتها وصورها وأخيلتها ومعانيها.. على رغم ما بيننا وبين قائلها من بعد زمنى يصل فى مداه إلى أكثر من خمسة عشر قرناً.

وفى مقدمة مايسترعى النظر إلى القصيدة أننا نجد القول فيها لا يقتصر على غرض واحد وموضوع مفرد، وإنما يطرق الشاعر فيها عدة موضوعات ويجعلها ذات سعة فينتقل خلالها من غرض إلى غرض.

وهذا المسلك الذى سلكه امرؤ القيس فى قصيدته هو شأن سائر شعراء الجاهلية، وظاهرة من ظاهراتهم الفنية التعبيرية.. فهم لا يلتزمون بوحدة الغرض ولا يقصرون القول فى القصيدة — ولا سيما المطولة — على موضوع واحد، ولعل هذه الظاهرة الانتقالية فى قصائدهم من غرض إلى غرض؛

دعاهم إليها ما يتفق مع حياتهم البدوية غير المستقرة التى تدعوهم ظروف الطبيعة فيها للانتقال من مكان إلى سواه طلبا للنجعة وسعيا وراء الكلأ والمرعى .

يبدأ شاعرنا معلقته بالوقوف على ديار حبيبته ويبكى أطلالها ورسومها ومنازلها ، وفى صدد ذلك يذكر أسماء المواضع والأماكن التى كانت تنزل فيها ، ويقيم بها أهلها وذووها . . . منفعلا فى ذلك بما يثيره ترديدها لديه من مشاعر وجدانية ، وأحاسيس نفسية ، تزكى فيه نار الشوق والوله . . وتزيد عواطفه التهابا بما يراه فى تلك الديار من معالم ونؤى لم يعف رسمها ولم تتغير آثارها لما نسجته الريح من جنوب وشمال . . ويزكى فيه أيضا نار الشوق والوله ، ذلك الخواء الذى خيم عليها والإقفار الذى احتواها .. فبعد ما كانت مأهولة بأحبابه ؛ خلت منهم وصارت مرتعا للظباء التى يتناثر بعرها فى قيعانها وساحاتها كأنما هى حب الفلفل الأسود .. تلك مشاهد وصور تثير نفس الشاعر وتهيج لديه ذكريات الأيام العذبة الجميلة التى قضاها مع محبوبته ، فيقف حيالها شارد اللب ، موله القلب ، ملهب الكبد ، مقرح العين مما هاج فى حناياه ، فيذرف الدموع الغزيرة كأنه ناقف حنظل ، لا طاقة له بها ولا قدرة له على كفكفتها . . بل هو لا يطلب إيقافها ، وإنما يطلب المزيد من عبراته ، لأنه يجد فى إهراقها وانسيابها من عينيه شفاء لما غمره من الحزن والأسى ، والوجد واللوعة . . وتلك الحقيقة النفسية التى ألم بها الشاعر فى أبياته مما يقره علماء النفس المحدثون . . ولقد عرف شاعرنا بأحاسيسه ومشاعره ، كما عرف غيره من الشعراء القدامى بطبيعتهم ووجدانهم هذه الفطرة الإنسانية . . فالدموع تشفى من الوجد ، والبكاء راحة للقلب مما يجد .

ولم يشأ امرؤ القيس أن ينفرد بنفسه فى هذه التجربة العاطفية وإنما نجده يشرك معه صاحبيه ويستوقفهما ويستبكيهما ، بل إنه يوسع هذه المشاركة العاطفية ، ويفسح فى الزُملة الوجدانية إذْ يوقف أُصحابا آخرين بمطيهم ، — سوى رفيقية — حيث وقف ، ليتجاوبوا معه فى أحاسيسه ومشاعره ، فيخففوا عنه لوعته ، ويفثئوا عنه كربته ، ولا يتخلوا عنه .. فيجيبون سؤله ، وينصحونه بالتجمل بالصبر ، وألَّا يهلك نفسه حزنا وأسى ، ويذكرونه بموقفين غراميين كهذا الموقف ، وهما تجربتاه السابقتان مع أم الحويرث وأم الرباب .. يذكرونه بذلك تهوينا لوقع الأمر عليه فيما يتعلق بصاحبته التى يتحدث عن رسومها وأطلالها ويذرف الدمع لفراقها .

ولعل الشاعر يلمح من وراء ذلك الموقف — أيضاً — إلى تعدد علاقاته ومغامراته مع النساء ، فى مجال الفخر بفحولته ، والزهو بشبابه ، والاعتزاز بقوته وفتوته .

ثم ينتقل من هذا الموقف الحزين إلى موقف آخر يغاير الموقف السابق تمام المغايرة .. ينتقل للحديث عن مغامراته مع طائفة من العذارى ، فى يوم دارة جلجل .. وهو فى أبياته التى تعرّض فيها لتلك المغامرة لا يذكر تفاصيلها كاملة على نحو ما تحدث به الرواة عنها ، بل يوجز فيها القول ، فيذكر ذبحه لمطيته حتى يطعمهن ويتمكن من تدبير الطعام لهن .. وكيف أنهن كن يتهادين بلحمها وشحمها فيما بينهن عبثاً وتسلية ، وكيف توزعن رحله على مطاياهن عند استئناف السير ومتابعة الرحلة .. ثم يتحدث عن دخوله على عنيزة فى هودجها .. بعد ما حملته معها على راحلتها إذْ لا راحلة له بعد ذبحه مطيته ، ويبين فى قوله تمنعها عليه وإيباءها لمعابثته ، ومحاولتها إنزاله بعد ما مال الغبيط بهما معاً ، خشيةً على بعيرها أن يعطب ، وهو لا يلق

بالاً لما تطلب منه ، ولا يعبأ بتعللاتها وتمنعها عليه ، ويطلب منها أن تواصل السير وأن ترخى للبعير الزمام ، وألا تصده عن مطلوبه وألا تبعده عن جنى وصالها الذى يشفى غلة حبه وغرامه وظمأ عشقه وهيامه .

ثم ينتقل — وهو ما يزال يدير الحديث مع عنيزة — إلى الإفصاح عن عهره وشناعة قباحته من غير مبالة أو خجل ، فيلقى على مسامعها طرفاً من مغامراته مع غيرها من النساء وفيهن الحبلى ، وفيهن المرضع التى يلهيها ويشغلها بحبه عن طفلها الرضيع الذى لم يتجاوز الحول من عمره .. وهو بهذا القول يصرّ على أن يبين لعنيزة فحولته واقتداره على فتنة النساء وجذبهن إليه والتأثير عليهن . . . وكأنه بهذا الحديث الذى يفخر فيه برجولته وصولته فى مجالات العشق يَمنّ عليها بحبه لها ومغازلته إياها . . وأنّ عليها أن تعتبر انصياعها إليه كسباً لها وغنما .

وليس الشاعر فى هذا الموقف يعنىّ أن يظهر لصاحبته (عنيزة) حباً مخلصاً وعشقاً مدلها ، وإنما كان كل همه أن يظهر لها مدى حرص النساء على مخادنته والتقرب إليه والاستجابة لرغباته .

ثم ينتقل إلى تجربة أخرى من تجاربه الغرامية مع واحدة من معشوقاته تسمى فاطمة .. وهو فى هذه التجربة يسلك فى غزله اتجاهاً يناقض فيه اتجاهه السابق .. فمعشوقته فاطمة تتدلل عليه وتتمنع ، وتزمع هجرانه وقطيعته .. وهو يحاول استرضاءها ويتوسل إليها أن تبقى على حبه ، وأن تتمهل وتراجع نفسها فى هجره .. وإن تكن قد ساءها شىء من أخلاقه وطباعه فلها الحق فى أن تهجره وتجفوه وتقطع صلتها به .. وهكذا نجده حيال فاطمة يبدى عاطفة مشبوبة بوقدة الجوى فيها عشق ووله وتدله ، وإنه ليكاد يجثو أمامها متخليا عن كبريائه ومتجاهلا فخره بفحولته وغزوه قلوب العذارى ... وإنه ليبلغ الذروة فى

تذلّله وتولّهه حينما يعلن استسلامه الكامل لها . فحبه إياها قاتله ، وإنّها مهما تأمر القلب – قلبه – يفعل . فلقد ملكت عليه جماع لبه وفؤاده ، وسلبته كل مشيئة من أمر نفسه ، حتى غدا قتيل هواها ، وأسير حبها ورضاها ، وليس فى مقدوره أن يقاوم نظرات عينيها الساحرتين اللتين تضرب بسهامهما وقداحهما فى أعشار قلبه المقتل فتفوز بالقدح الأول (المعلى) وله سبعة أنصباء والقدح الثانى (الرقيب) وله ثلاثة أنصباء وتظفر لذلك بجميع الأنصبة من قلبه وتستحوذ عليه جميعه .

ولا بد لنا من الوقوف عند هذا التناقض الذى يبدو بين هذين الاتجاهين فى غزل امرىء القيس . . . فتفسير ذلك التناقض إنما يرجع إلى تعدد تجاربه الغرامية التى خاضها ، وخبرته الطويلة التى اكتسبها فى هذا المجال ، وانسياحه طول أيام شبابه وصباه مع نوازع الهوى والغرام . . حتى غدا القول فى الغزل طوع لهاته يصرفه كيف يشاء فيجيد أحاديثه ويفتن فى تدبيجه وتنميته وتلوينه . ويعرف للقول مواقعه لدى كل أنثى على قدر ماتستأهله عنده وما يناسبها لديه .

ثم نمضى مع امرىء القيس فى معلقته ، فنراه يعود إلى اتجاهه الغزلى المكشوف ، فيتحدث عن تجربة – من مغامراته الغرامية الكثيرة – مع فتاة من علية القوم لايرام خباؤها ، ولا يستطيع أحد أن يجرؤ على الاقتراب منه . . فإن الحراس يقومون بحياطته ، والعشيرة تملأ الحىّ من حوله ، وتحمى حماها ، وتحول دون الوصول إليها أو الدنو منها . . وإنهم ليتربصون به حرصاً على قتله ، حتى لا يفجعهم فى فتاتهم . . ولكنه على الرغم من تلك الأهوال تذرع بشجاعته واستتر بدجنّة الليل الحالك . واجتاز هذا الحصار المنيع مغافلا الحراس وأبناء العشيرة ، واقتحم عليها الخباء فى هزيع متأخر من الليل ، عندما تصوّبت الثريا للمغيب . فوجدها قد تخففت من ثيابها لتنام ، فلم يكن على جسدها إلا لبسه المتفضل أى قميص النوم وحده دون سواه . فلما باغتها

وأذهلها بمفاجأته تمنعت عليه بادىء ذى بدء ، وأقسمت بالله مالها من سبيل لردعه،ولا حيلة لديها لزجره ،لأنه سادر فى غوايته،فليس بمستطاع إرجاعه عن ضلالته .. ثم لا تلبث أن تلين بعد تمنعها فتستجيب له، وتخرج معه من خبائها وقد لبست كساء طويلا من خز تجر أذياله من خلفهما على الأرض فيمحى بذلك آثار مشيهما ، ويجتازان ساحة الحى إلى الخلاء حيث ينتحيان ناحية بطن خبت ويسيران إلى تلك الأرض المطمئنة خلال تلال الرمال المتراكمة الملتوية بعيداً عن أعين الناس ، خشية انكشاف أمرهما فى هذا المجتمع القَبلى المتشدد الذى يقدس شرف المرأة الحرة ويغار عليها ويصونها من الابتذال ، ويرى فى علاقتها بالرجل على مقتضى هذه الصورة التى رسمها امرؤ القيس عاراً لا يغسله سوى إراقة الدماء .

ثم يواصل الحديث عن هذه المغامرة القصصية فيصف من هذه المرأة جمالها الجسدى وصفاً حسياً يبرز فيه أروع الأوصاف والمقاييس الجمالية فى نظره ونظر مجتمعه البدوى ، فإذا هصر فوديها وجذبها من جانبى رأسها أو طلب منها أن تنيله شيئاً من وصال الغرام تمايلت عليه بجسدها الجميل وبطنها الضامر وخصرها الناحل الدقيق وساقيها الممتلئتين العبلتين فى موضع الحجال والخلخال. إنها مهفهفة لطيفة الخصر ،ضامرة الحشا ليست بمفاضة البطن ولا مسترخية اللحم . وإن ترائبها لمصقولة وصدرها ناعم أملس كأنه المرآة المجلوة أو سبيكة من الذهب والفضة ، وهى بيضاء يشوب بياضها صفرة ضئيلة فى مثل لون البيضة الأولى للنعام ،أو فى مثل لون الدرة التى تكونت فى صدفتها ومستقرها قاع البحر وقد غذاها الماء النمير الصافى الذى لم يخالطه كدر ، أو أن فتاته هى نفسها المعنية بقوله غذاها نمير الماء فقد نشأت بأرض مريئة خصبة وشربت الماء العذب الصافى النمير فأضفى على إهابها هذا اللون البهى الجميل . .

وهى إذ تتدلل عليه بصدودها وإعراضها عنه حينا، وإذ تسعده بإقبالها عليه باسمة متهللة حينا؛ إنما يفتنه فى الحالين سحر خدها الأملس الناعم المنبسط الذى به تصد أو تبدى وتقبل، فهى فى إعراضها وإقبالها تظهر خداً أسيلا ناعماً فيه فتنة وسحر وجمال، ثم إنها لتجمل من سحر عينيها ومن نظراتها الحانية كنظرات الظبية إلى وليدها؛ تجعل من ذلك حاجزاً قدسيا ووقاية روحية تصوّنا للمشاعر وتوثقاً فى العاطفة والصلات. وجيدها كجيد الظبى الأبيض لا يتجاوز قدره المحمود إذا مارفعته إلى أعلى وليس بمعطل عن الحلى والقلائد التى تزينه وتزيد من جماله وفتنته.. وشعرها طويل يغطى ظهرها، وهو فاحم شديد السواد، وأثيث كثيف كأنه قنو النخلة المتشكل كثير العناقيد والشماريخ، ولقد فتلت منه غدائر وذوائب، جدلتها وثنتها ورفعتها إلى أعلى رأسها بينما تركت منه بقية مرسلة مطلقة، فيستوفى بذلك شعرها جماله وزينته، وهو لشدة كثافته والعناية بتنسيقه وتنظيمه تضل الخصل المقيصة منه فى مثناه المجدول المرتفع على رأسها، وفى مرسله المنساب من خلفها على ظهرها.

ثم يعود الشاعر إلى وصف ضمور خصرها ودقته وليونته فيشبهه فى ذلك بالحبل المجدول من سيور جلدية، ويصف كذلك طراوة ساقيها وبياضهما فيشبههما بأنابيب من نبات البردى المسقى بالماء والمذلل بالإرواء.

ثم يصف أصابعها بالطراوة والرخص واللين والنعومة وأنه ليس فيها خشونة أو غلظة، ويشبهها فى طراوتها ولينها ونعومتها بديدان ملساء تعيش فى رمال (ظبى) وهو واد بتهامة، أو كأنها مساويك من أغصان شجر الأسحل الناعمة. وهى فوق ذلك بهية الطلعة مشرقة الوجه حتى أنها لتضىء الظلام بنورها كأنها منارة الراهب — المتبتل المنقطع إلى الله — يشعلها عند المساء

للهداية والإرشاد .. وهى فتاة مترفة ثرية تتطيب بالمسك فى بذخ وإسراف حتى ليرى فُتاته متناثراً فى فراشها الذى تظل نائمة فيه حتى يحين وقت الضحى ، فهى لا تصحو من نومها مبكرة كغيرها من النساء اللواتى يباشرن أعمالهن بأنفسهن . . لأنها مخدومة منعمة تُخدم ولا تَخدم ، فليس هناك ما يقتضى أن تبكر فى الاستيقاظ من نومها . إن مثل هذه الفتاة ينبغى أن يكلف العاقل بها ويرنو الحليم إليها فقد طال قدها وامتدت قامتها واكتملت فيها كل صفات الجمال وتوفرت لها كل ألوان الرفاهية ، وقد بلغت سن النضوج الأنثوى ، واستوت على عودها ، فهى شابة كعاب ، ليست بصغيرة تلبس « المجول » أى الثوب القصير ، وليست بالكبيرة التى تلبس « الدرع » أى الثوب الطويل . . ومثل هذه الفتاة التى بلغت هذا المستوى الرفيع من الأنوثة والفتنة والجمال من شأنها أن تفتن الرجال ، حتى أن الرجل الحليم منهم الذى يمتاز برزانة العقل وهدوء الطبع لا يقوى على امتلاك أمره حيالها ، فجمالها الأخاذ وسحرها المبين يبهرانه ويأخذان عليه جميع أقطاره ويشدان ناظريه إليها فتفضحه صبابته وتحرقه أشواقه ، وما دام الأمر كذلك فلا تثريب على امرئ القيس فى افتتانه بها . . ولئن وجد بين الرجال من قد تشغله جهالته وسماجة ذوقه عن أحاسيس الصبا وعواطف الهوى ، فإن فؤاده لا يمكن أن يسلو هواها أو ينسى غرامها ، كما أنه لا يمكن أن يستجيب لنصح خصم شديد الخصومة يعذله فى هواها أو ينافسه فى حبه إياها على الرغم من حرصه على اللوم وعدم تقصيره فى إسداء النصح ، فحبها فى قلبه بلغ الغاية القصوى لا يردعه عنه عذل عاذل ولا نصح ناصح سواء أكان خصما منافساً أو صديقا مخلصاً .

وهكذا ينظم امرؤ القيس زهاء نصف معلقته فى الغزل بالمرأة وفى قص مغامراته الغرامية ، وهو فى جملته غزل صريح حسى .

ومن تعقب تلك المغامرات القصصية التى يذكر امرؤ القيس أحداثها فى شعره يستبين لنا مدى التشابه الكبير بينه وبين عمر بن ربيعة فى مغامراته الغرامية .. فإجالة الحوار مع النساء ، والزهو بالفتوة ، والمباهاة بالفحولة ، واجتياز المخاطر واقتحام العقبات للوصول إلى المعشوقة ، والتحدث عن تمنعها ودلالها وعن استجابتها ومطاوعتها .. كل هذه العناصر ونحوها مما يتشابه فيه الشاعران .

ولعل هذه المشابهة هى التى حملت أستاذنا الدكتور طه حسين فى كتابه الأدب الجاهلى عَلَى القول بأن شعر امرىء القيس فى ذلك الفن أى الفن الغزلى القصصى المكشوف ، قد انتحله بعض القصاص على غرار ما وجدوا منه عند ابن أبى ربيعة ..

ثم يدعم أستاذنا عميد الأدب العربى رأيه بالمقارنة بين الشاعرين ، لينفذ من خلالها إلى الفروق الواضحة التى تميز كلا منهما عن الآخر ، وأهم ما أورده فى ذلك ما لاحظه عند عمر بن أبى ربيعة من التفنن فى رقة النجوى ، وفى كلف صواحبه به ، وما أحسه من أثر الحضارة التى غمرت المدينة ومكة بعد الفتوح ، حيث تتعلق المرأة بالشباب وتسوق معهم معابثات ومغازلات لم تكن تألفها المرأة الجاهلية لزمن امرىء القيس ... ونستبين من قول أستاذنا الذى جاء به كدليل أن غزل امرىء القيس القصصى له طابعه البدوى النابع من بيئته وحياته ، والذى يثبت صدور هذا الشعر عنه ، وينفى انتحاله عليه .. ثم إنه ليس لدى النظر الصادق ما يمنع أن يكون ابن أبى ربيعة قد عرف غزل امرىء القيس وتأثر به كما تقضى بذلك طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بالسابق .. وإنه لمن التحكم غير

المستساغ أن يرفض هذا المذهب مذهب تأثر عمر بن أبى ربيعة بشاعرنا امرىء القيس .

وسنعرض بالرد التفصيلى على هذه الدعوى التى أثارها أستاذنا الدكتور طه وسنفنّد أدلته التى أتى بها للتدليل على مذهبه ، فهى عندنا أدلة داحضة ، وهذا ما سنوضحه ونجلوه فى باب خاص من أبواب هذا الكتاب ، حول آراء الدكتور طه فى قصة امرىء القيس وشعره .

* * *

وينتقل امرؤ القيس فى معلقته من الغزل الحسى الصريح إلى وصف الليل من خلال أحاسيسه النفسية ومشاعره الوجدانية التى يعانى من شدة وطأتها عليه ما يعانى .. فيتصوره ليلا مخيفاً مفزعاً رهيباً تتدافع أمواج ظلماته الموحشة المرعبة كأنها أمواج البحر المتلاطم .

وقد أرخى عليه أستاره السود ، وغمره بأنواع شتى من الهموم ، كأنما يريد اختبار قدرته على تحملها .

وطال عليه الليل حتى خيل إليه أنه لا انقضاء له ، ثم لاح له أنه يوشك أن ينقضى ، فتصوره جملا يتهيأ للقيام من مبركه فيتمطى بصلبه ويتمدد بظهره ويعلو بصدره وكلكله ناهضاً من مجثمه .. فيحضه الشاعر على أن يقضى ويدعوه إلى أن ينجلى عن صبح مشرق يبدد الظلام ويظهر الضياء .

ولكنه يعود فيستدرك أن الهموم لن تفارقه ، فإذا جاء الصبح فهو مغموم كما كان فى الليل مغمومًا ، فليس الإصباح بأمثل من الليل عنده ، ولا بأحسن حالاً لديه . .

ويلازم الشاعر إحساسه بطول الليل عليه ومعاناته الهموم فيه ، لأنه مجمع الأحزان ، وظلامه مهيج الأشجان ، فيتخيل أن نجومه ثابتة لا تزايل أماكنها

ولا تغرب ، كأنما شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل ، فهى لا تسير ولا تغور.. وكأن الثريا — وهى من نجوم السماء — قد ربطت كما ربط سواها بأمراس وحبال مجدولة من كتان ، وعلقت فى مكانها الذى لا تبارحه ، فهى لذلك لا تسير فى فلكها ولا تؤذن بانقضاء الليل الذى توقف انتهاؤه بتوقفها عن الحركة .

* * *

ويخرج من الليل وهمومه إلى الحديث عن تجربته مع الشذاذ والصعاليك الذين اختلط بهم ، وعاش معهم فترة من حياته فى أيام شبابه قبل مقتل أبيه فكان يؤدى ما يؤدونه من أعمال .. كان يحمل قربة الماء ويجعل وكاءها على كاهله الذى صار موطأً مذللا ومعوداً أن يرحل عليه سير القربة وعصامها ..

ولقد كان يقطع الوادى الخرب المقفر من النبات والإنس ، الخاوى خواء موحشاً كأنه بطن حمار لا دَرّ له ولا ينتفع به ؛ يطوى هذا الوادى الموحش سيراً على الأقدام ، غير عابىء بالذئب العاوى الذى تتجاوب فى أرجاء الوادى أصوات عوائه من فرط جوعه ، كأنه رجل مقامر خلعه قومه وكثر عياله واستبد به فقره المدقع ، ومع ما فى هذا الموقف من هول فإن امرأ القيس لا يخامر قلبه أى خوف ولا يستشعر أى فزع ، بل إنه يحس لوناً من ألوان الألفة والتجاوب مع هذا الوحش ويشعر بمشاركته مشاركة وجدانية ، فيقول له رداً على عوائه : إن شأننا واحد فكلانا قليل الغنى كثير الفاقة ، فأنت لا مال لك وإنى فى ذلك مثلك .. حالنا واحدة فإذا ظفر أحدنا بشىء فإنه ينفقه ويبذره ولا يبقى عليه ولا على القليل منه ، فمن سعى سعيى وسعيك وكانت طلبته مثل طلبتى وطلبتك فى هذا الوادى المقفر عاش فقيراً ومات مهزولا .

وهذه الأبيات الأربعة التى تصور حياة الصعلكة يشك فى نسبتها إلى

امرىء القيس بعض الرواة كالأصمعى وابن قتيبة ، وينسبونها إلى « تأبط شراً » الشاعر الصعلوك ، وهذا الشك يمكن رفضه وردّه بما عرف عن حياة امرىء القيس فى شبابه بعد ما نفاه أبوه وطرده ، وليس غريبًا عليه أن يعبر عن تجربة حقيقية عاناها فى هذه الفترة من حياته ، ومن أجل ذلك فإن أبا سعيد السكرى عدها من أبيات معلقته .

* * *

وبعد ذلك ينتقل الشاعر إلى غرض آخر هو وصف فرسه ورحلة صيده .. ويركز اهتمامه الأكبر على وصف الفرس ويسهب فى الحديث عن محاسنه وصفاته العربية الأصيلة .. فيبدأ بذكر استيقاظه مبكراً وغدوه للصيد قبيل بزوغ الشمس والتماع الصباح ، والطيور ما تزال مستكنة فى أوكارها وأكنانها وذلك فى شطر البيت :

وقدْ اغتدِي والطيْر فى وكناتها

ثم ينتقل فى الشطر الثانى من البيت إلى وصف الفرس ويستقرى وصفه فى الأبيات التالية له . . ويبين أنه جواد سريع قوى ، وأنه منجرد قصير الشعر ، وأنه ضخم الجسم كأنه الهيكل والقصر العظيم ، وأنه يقيد الوحوش بسرعة لحاقه إياها فهو قيد لها مهما عدت وأسرعت ، لأنه يلاحقها ويكون فى أعقابها مباشرة فلا تستطيع الإفلات منه والانفكاك عنه .. . وقد أعجب القدامى بقوله « قيد الأوابد » أيما إعجاب فهو قول موجز عبر فيه بإيجاز بالغ وبكلمتين اثنتين عن سرعة الفرس وعنفوانه ونشاطه يقول ابن رشيق فى كتابه العمدة « إنه قرّب مأخذ الكلام فقيّد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه » ، يعنى فى مجال هذا التعبير .

ونمضى معه فى وصفه للفرس .. إنه فرس مدرب أحسن تدريب على

أصول الكر والفر والإقبال والإدبار فى الحرب وفى الصيد . . وإنه ليستطيع أن يؤدى هذه الحركات فى قوة وسرعة ونشاط حتى ليخيل لمن يراه أنه يكر ويفر ويقبل ويدبر فى آن واحد ، وأنه فى سرعة انقضاضه كالصخرة الصلبة التى يقذف بها السيل من فوق جبل عال . . وهو كميت اللون أحمر داكن ، وظهره أملس ناعم حتى أن سرجه لينزلق من فوقه لانملاس ظهره واكتناز لحمه ، كما يزل من فوق الحجر الصلب الأملس المطرُ النازل عليه... وهو ممتاز بذبول جسمه وضمور بطنه ، وكأن اهتزامه والصوت الصادر من جوفه عند جريه كأنه جيشان قدر يغلى ، يذكى قلبه ويُنشّط فى السير عَدْوَه.. وهو يفوق غيره من الخيول السريعة فى قوته وقدراته إذ أنها قد تتعب وتفتر فى جريها فتثير حوافرها الغبار لاحتكاكها بالأرض لعدم قدرتها على التحكم فى حركات أرجلها ، ولكن فرسه لا يمكن أن يناله ما نال هذه الأفراس من الإعياء ، بل إنه يواصل جريه فى قوة ونشاط وكأنما ينصبّ فى جريه ويسحّ فى عدوه سحاً كسح السحاب الغزير المتلاحق المنصب من السماء انصبابا ، فهو قادر على مواصلة بذل الجهد دون ارهاق لما يمتاز به من قوة التحمل واللياقة البدنية ، وهو لسرعة انطلاقه فى عدوه لا يستطيع الغلام الضعيف أن يبقى على ظهره ، لأنه يقذف به من فوقه ، كما أن الفارس العنيف القوى الثقيل الجسم لا يستطيع أن يتمالك أمره فوق ظهره وكل همه أن يثبت عليه حتى لا يسقط من فوقه وهذه المحاولة تجعله مشغولا عن ثيابه فتلتوى منه بفعل الهواء المواجه له نتيجة لشدة سرعته فى جريه ، وهو يتابع العدو فى خفة وسرعة كالتى نراها فى لعبة الخذروف (الدوارة) التى يلعب بها الصبى إذ يصلها بخيط ويتابع تمريرها بكفيه جذباً وإرخاء . . وخاصرتاه ضامرتان كخاصرتى الظبى ، وساقاه قويتان صلبتان طويلتان

كساقي النعامة . . وهو يرخي في جريه كإرخاء الذئب ويقرّب كتقريب ولد الثعلب ، والإرخاء ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب ، والتقريب هو وضع الرجلين موضع اليدين في العدو . . أي أنه يجمع أفضل الصفات التي تمتاز بها أنواع الحيوان المعروفة بسرعة الجرى . . وهو عظيم الضلوع قوى الصدر ، له ذيل طويل ضاف يصل إلى ما فوق الأرض بقليل ، وليس ذيله بأعزل أى ليس بمائل أو بمنحرف إلى جانب من جانبيه وفخذيه، وإنما ينزل في استقامة بين فخذيه بحيث يسد به فرجه ، فسبوغ ذنبه من دلائل عتقه وكرمه ، وشرط كونه فويق الأرض ، لأنه إذا بلغ الأرض وطئه برجليه وذلك عيب لأنه قد يعثر به ، واستواء عسيب ذنبه أيضاً من دلائل العتق والكرم .

وأما متناه وكفلاه من جانبيه إذا نظرت إليه وهو قائم عند البيت غير مسرج ولا ملجم تجدهما تلمعان وتبرقان فكأنهما مداك العروس أو صلاية الحنظل ، والمداك الحجر الذى يسحق عليه الطيب ، والصلاية الصخرة الملساء يدق عليها حب الحنظل . . ويعنى الشاعر من تشبيه كفليه بهما وصفهما بالقوة والصلابة والملاسة ، وهذا من عتقه وكرم أصله . . وكأن دماء أوائل الصيد والوحش على نحر هذا الفرس عصارة حناء خضب بها شيب مسرّح ، شبه الدم الجاسد الجامد على نحره من دماء الصيد بما جف من عصارة الحناء على شعر أشيب مرجل .

وامرؤ القيس حين يخص فرسه بهذه الصفات إنما يعنى من وراء ذلك الإشادة بنفسه وبفروسيته ، لأنه صاحب هذا الفرس الممتاز الأصيل وهو وحده القادر على إجادة ركوبه ، وليس غيره من الفرسان يستطيع ذلك .

ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن صيده ، فيصف سرباً من بقر الوحش

ظهر لهم فى أثناء رحلتهم ، ويشبّه إناثه فى مشيتها وطول أذنابها وبياض ألوانها بعذارى يلبسن ملاءات ذات أذيال طويلة ، وقد عكفن على صنم « دوار » أو الوثن الذى كان ينصبه الجاهليون إذا نأوا ليطوفوا به متعبدين تشبهًا بمن يطوفون حول الكعبة .. وفى ذلك إشارة إلى ديانتهم الوثنية .

وما إن رأت البقر الصيادين حتى اعتراها الذعر والخوف فأدبرت تبغى النجاة وتلتمس الهرب ، وأخذت تدور حول نفسها فى ارتباك وحيرة ، فبدت فى ألوانها كالخرز الذى فُصل بينه باللآلىء فى قلادة حول عنق صبى من أبناء علية القوم وسادتهم ، معمّ مخول ، أى سيد الأعمام والأخوال فى عشيرته . .

ولكن حصانه لم يعط قطيع البقر فرصة للفرار ، إذ أدرك أوائلها ومتقدماتها (الهاديات) فى سرعة خاطفة، وجاوز أواخرها ومتخلفاتها (جواحرها) مجتمعة فى (صرة) لم تتفرق بعد، وهى من ارتباكها لا تستطيع فكاكاً ولا تجد لنفسها مهربا . . ولقد استطاع بسرعته الخاطفة أن يوالى فى صيده بين ثور ونعجة من بقر الوحش فى طَلَق واحد أى فى وقت واحد متقارب ، وأن يدركهما دون معاناة مشقة ومقاساة شدة ، ومن غير أن يبذل جهداً شاقًا يتفصد له جسمه عرقًا وينضح ماء يغسل بدنه ، وهذا دليل آخر من دلائل قوة جواده . .

وبعدما انتهوا من صيدهم أوقَدوا النيران ، وأخذ الطهاة يهيئون لهم الطعام، فنهم من يصفف اللحم على الحجارة فى النار ليشويه ، ومنهم من يطبخونه فى القدر ليعجل بإنضاجه ، لأن الجوع قد اشتد بهم لما بذلوه من جهد .

ثم رجعوا عائدين من صيدهم فى آخر النهار ، وأبصارهم تكاد تعجز عن استقصاء محاسن خَلْق هذا الجواد فهو كامل الحسن رائع الصورة ، ومهما نظرت العيون إلى أعالى خلقه اشتهت النظر إلى أسافله وقوائمه ..

ولما عاد به إلى المثوى لم يشأ أن يرفع عنه سرجه وهو عَرِقٌ فتأخذه الريح ، أو ينزع من حنكه لجامه فيعتلف فيؤذيه ذلك ، بل جعله يبيت طول الليل مسرجًا ملجما قائمًا بين يديه وأمام ناظريه غير مرسل إلى المرعى حتى الصباح .

ويبدو مما سبق أن امرأ القيس أجاد وأفاد فى وصفه للفرس والصيد ، وقد قال عنه القدامى : إنه أشعر الشعراء إذا ركب ، وشعره فى هذا الباب لدى المحدثين من أجود ما قيل فى الشعر العربى فى وصف الطبيعة الحية .

* * *

ثم ينتقل الشاعر فى معلقته إلى وصف البرق والمطر منفعلا ببيئتـــه الصحراوية .. فيشبه وميضه الخاطف بين السحاب المركوم المكلل (أى الذى صار أعلاه كالإكليل لأسفله) فى تحركه وسرعة لمعانه خلال هذه السحب المتراكمة بلمع اليدين أى تحركهما ، ويُريد الشاعر من تصويره أن يشبه حركة تلألؤ البرق فى سرعة بالغة بحركة اليدين وهزهما وتقليبهما بسرعة فائقة شديدة ، وتقدير البيت الذى عبّر فيه عن فكرته هذه : يا صاحبى إنك لترى — أو هل ترى — برقا أريك وأرسم لك خفقاته وومضاته خلال الحبى المكلل كلمع اليـدين وخفقهما وتحركهما إذا أنذَرَتْ أو بشرت بشىء ما ، وكذلك البرق قد يكون لمعانه بشير خير ورىّ وسقيا ، وإما أن يكون نذير سيل مدمر جارف . . ويمضى الشاعر فى حديثه عن البرق إلى البيت التالى فيصوره بالسنا المنبعث عن مصابيح الراهب الذى أمال فتائلها بصب الزيت عليها ضمانًا لشدة إضاءتها ... وامرؤ القيس فى تصويره سرعة لمعان البرق بحركة اليدين ولمعهما ثم بسنا مصابيح الراهب إنما يأتى بصورة محدودة الخيال لا تبدو مثيرة أو مقنعة ، فهو شاعر بدوى قديم ، وحسبه أن يرسم صوراً من بيئته التى يستمد منها خياله ، إذ يرى فى الطبيعة الحية حركة اليدين عند إجالة القول تجاوبًا مع الحالة النفسية

للمتكلم ، ويرى لمعان مصابيح الراهب التى يضعها مائلة على صومعته فى مكان مرتفع من هذا العراء حتى يتحقق برفعها على هذا النحو أوسع دائرة ضوئية يمكن أن يشبه بها سنا البرق ..

ثم إنه — باعتباره بدويا جوّاب آفاق البوادى والقفار — يبدى اهتمامًا شـديداً بهذا البرق الذى يبشر بالغيث ، ومن أجل ذلك جلس مع صحابه يتطلعون إليه فرحين معجبين، ويا لَبُعْـد المـكان الذى يلتمع فيه هذا البرق وتنساق منه السحائب . . ويزدادون بهجة وسروراً عند ما يرون مطره الغزير ينهمر مدراراً ويغمر منطقة واسعة من الصحراء تمتد من جبل قطن فى نجد إلى جبلى الستار ويذبل عند البحرين وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة شاسعة ، ولذلك استعمل الشاعر فى البيت كلمة « الشيم » ليدل على أن ما يحكم به من إدراك المطر المنهمر على قطن والستار ويذبل إنما كان من قبيل الحدس والتقدير لأنه لا يرى هذه الجبال الثلاثة معًا ولا يلم فى رؤياه بجميع أبعاد المساحة الشاسعة التى ينهمر المطر فيها .. ويسح السحاب مياهه بغزارة يتحول معها إلى سيول جارفة تنصبّ من الجبال والآكام فتقتلع الشجر العظام من دوح الكنهبل فى هذا الموضع المسمى « كتيفة » ، ويطرحها أرضًا على وجوهها .. ويكبها على أذقانها . . وقد وصل نفيان ورذاذ هذا السيل المتناثر عند جريانه وإنحداره إلى جبل (القنان) حيث بنو أسد ؛ مما جعل الوعول المعتصمة به تترك مواضع اعتصامها ، وتهبط منها إلى سواءها هرباً من بلله وخشية من سطوته . . وقرية « تيماء » ، لم تسلم من بأسه ، فإنه لم يترك شيئا من جذوع نخلها إلا اجتثها من قرارها ، ولم يترك بيتاً من بيوتها ولا « أطما » أى قصراً من قصورها مشيداً من جص ولَبِن إلا هدمه سوى ما كان مشيداً بالجنادل والحجارة فإنها قدرت على احتماله ، ومقاومة طغيانه ..

ثم يصور الشاعر جبل « أبان » أو جبل « ثبير » — على اختلاف الروايتين — فى أوائل هطوله وقد غطته السيول المنحدرة بمائها الغزير على جوانبه من مسارب وروافد متعددة ؛ بصورة سيد القوم وكبيرهم وقد تلفف وتزمل بكساء مخطط غطى به جسمه ..

ثم يشبه ذروة أكمة « المجيمر » وقنتها العالية غداة المطر وقد أحاط بها السيل ودار من حولها غثاؤه وما احتمله من زبد بفلكة المغزل التى تتجمع من تحتها وتدور من أسفلها خيوط الغزل .

وبصحراء الغبيط — المنخفضة أوساطها والمرتفعة حافاتها وأطرافها — ألقى هذا المطر بعاعه وأثقاله فعمها الخصب ونشر فيها من ضروب النبات والأزاهر الحمر والصفر والبيض وغير ذلك من مختلفات الألوان ، مثل ما ينزل التاجر اليمانى بمكان فينشر فيه ما تحمله عيابه وغرائره من أنواع المتاع والطرائف والثياب التى فيها من الألوان مثل ما فى هذا النبت والزهر .

ولم ينس الشاعر أن يتحدث عن الطيور فى هذه الأودية — وخص طيور المكاكى — وهى تعلن مسرتها وبهجتها وفرحها بهذا الجو البديع بعد ما أقلعت السماء وغيض الماء ؛ كأنها من نشوتها سكارى سقيت من خمر الصبوح لاذعاً كما يلذع الفلفل ،فنشطت فى تغريدها وتتابع أصواتها ومزاولة حركاتها .

أما سباع الصحراء ووحوشها فقد باتت غارقة فى سيول هذا المطر بالأرجاء القاصية البعيدة التى عمها كما عم الدانية القريبة بل شمل جميع الأرجاء . . أغرق السيل تلك السباع عشيًّا فطفت على الماء واحتملها كما يحتمل أصول البصل البرى الذى نبش عنه النابشون فى باطن الأرض وأخرجوه منها بطينه ، فهو يشبه تلطخها بالطين والماء الكدر بعد ما غرقت بأصول البصل البرى المنبوش عنها لأنها متلطخة بالطين والتراب .

وبهذا الوصف لمظاهر الطبيعة فى الصحراء وقد جادها الغيث الهامى ، وغمرها المطر الغزير ختم الشـاعر معلقته معبراً بذلك عن سروره بأفراح الطبيعـة ومباهج الحياة .

* * *

ومما لا شك فيه أن امرأ القيس قد وفق فى معلقته أعظم توفيق كان يتطلع إليه شـاعر فى عصره ، ولقد بلغ بها قمة أدبية ، وتوافر له فيها كثير من العناصر الفنية التى حفظت لها حياة الخلود الأدبى وعمر الأبد الفنى على مر الأعصار والدهور .. وفيها مدد وإثراء للشعر العربى بصور بارعة للطبيعة الحية والصامتة للصحراء وحيوانها ومظاهرها ، ولقد وثق الروابط بين نفسه وبين تلك الطبيعة حتى تحقق له مشاعره وتجلو أحاسيسه .

والمعلقة مليئة بالصور الفنية فى جميع موضوعاتها وأغراضها كأنها غاية فى نفسها، ويغلب عليه الطبع فيها دون التطبع والصنعة .

قصيدة امرىء القيس الثانية

﴿ ألا عم صباحًا أيهـــــا الطلل البــــــالى ﴾

قال ذلك الشاعر التاريخى العظيم :

أَلَا عِمْ صباحًا أيُّها الطَّلَل البالى
وهلْ يَعِمَن من كان فى العُصُرِ الخالى

وهل يعمَنْ إلاَّ سعيدٌ مخلَّد
قليلُ الهموم ما يبيتُ بأوْجالِ[1]

وهل يعمن من كان أحْدَثُ عهده
ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحْوال

ديارٌ لسلمَى عافياتٌ بذى الخال
ألحَّ عليها كلُّ أسْحَم هَطَّال

ثم استمر فى غزله الفاحش وتشبيبه ، وجعل يصف معشوقته ، ويذكر موقفاً من مواقفه معها إلى أن يقول :

صرَفْتُ الهوَى عنهنَّ من خشْيةِ الرْدَى
ولَسْتُ بمقْلِيِّ الخلالِ ولا قالى

---

(١) المخلد الذى ابطأ عنه الشيب أو هو الصبى الذى ألبس القرط . والأوجال جمع وجل وهو الخوف

ثم خرج من ذلك إلى ذكر صبوته وفتوته ونبله فقال :

كأنى لم أركبْ جَوَاداً لِلذة ولم أتبطّن كاعباً ذاتِ خَلْخَال
ولم أسبأ الزّقّ الروىّ ولم أقل لخيلىَ كُرّى كرّةً بعد إجْفال[1]
ولم أشهَدِ الخيْل المغيرةَ بالضّحَى على هيْكل نَهْدِ الُجزارة جوّال[2]

ثم انتقل من ذلك إلى الصيد ووصف فرسه وتشبيهه بالعقاب فى شدة هويه وسرعة كره فقال :

سليمُ الشظا عَبْلُ الشَّوَى شَنج النّسا
لهُ حَجَباتٌ مُشْرِفات على الْفَال[3]
وَصُمٌ صِــلَابٌ ما يَقِينَ من الوَجَى
كأنّ مَــكانَ الرِّدْف منْه عَلَى رَالِ[4]

---

(١) اسبأ أى اشترى . والروى الذى يروى من شربه .

(٢) المراد بالهيكل الفرس العظيم . ونهد الجزارة أى غليظ عصب القوائم . والجوال السريع فى كره وفره .

(٣) الشظى عظم لازق بالذراع . عبل الشوى أى غليظ عصب اليدين والرجلين . والشنج المنقبض . والنسا عرق من الفخذ إلى الكعب ومتى كان الفرس شنج النسا لم تسترح رجلاه وهذا دليل العتق . والحجبات رءوس عظام الوركين . الفال والفائل أيضاً عرق عن يمين عجب الذنب أى أصله وعن يساره .

(٤) المراد بالصم الصلاب حوافر الفرس . ويقين يهبن ويتقين. والوجى الحفا أو أشد منه . والردف الراكب خلف الراكب . والرال فرخ النعام.

وقد أغتَـدِى وَالطيْرُ فى وَكَناتها
لِغيْثٍ من الوَسْمِىِّ رَائِدُه خال[1]

تحـاماه أطرافُ الرِّماح تحـامياً
وجادَ عليْــه كلُّ أسحَمَ هَطَّال[2]

بِعِجْلِزةٍ قد أترَزَ الجرْىُ لحمهـا
كُميْتٍ كأنَّهـا هِراوة مِنْـوال[3]

ذعَرْت به سِرْباً نَقِيًّـا جُلُودُه
وأكْرُعه وَشْىُ البُرود مِن الخال[4]

كأنَّ الصُّوار إذْ يجاهدْن غدوةً
على جَمَدٍ خَيْــلٌ تجول بأجْلال[5]

---

(١) المراد بالغيث الكلأ على سبيل المجاز . والوسمى أول مطر الخريف . والرائد الباحث عن الكلأ . والخالى الذى يكون فى الخلا .

(٢) الأسحم السحاب الأسود . والهطال الماطر السيال

(٣) العجازة الفرس الشديدة . وأترز أيبس . والكميت الفرس التى لونها بين السواد والحمرة . والهراوة العصا . والمنوال خشبة ينسج عليها ويشد عليها الثوب وقت النسيج وإنما خص هراوة المنوال لأنها لا تتخذ إلا من أصلب الخشب وهذا وجه الشبه .

(٤) الأكرع جمع كراع وهو مستدق الساق . والخال ضرب من برود اليمن الموشاة

(٥) الصوار هو السرب والقطيع من بقر الوحش . والجمد المكان الصلب المرتفع . والأجلال جمع جل .

نخرٌ لروقَيْــه وَأمضَيْتُ مُقْـدما

طوالِ القرا وَالرَّوْق أخْنَسَ ذَيَّال[1]

فعادى عِــداء بينَ ثورٍ وَنَعْجَـةٍ

وكان عداء الوحش منّى علَى بالى

كأنّى بفَتْخاء الجناحَيْنِ لِقَوَةٍ

صيُودٍ من العِقْبان طأطأتُ شِملالى[2]

تَخطَفُ خِزّان الشَّرَبّة بالضحَى

وَقد حُجِرت مِنها ثعالبُ أوْرَال[3]

كأنّ قلوبَ الطيْر رَطْباً وَيابسًا

لدَى وكْرِها العُنّاب والحَشَفُ البالى

ثم ختمها بما يطلبه أمثاله من أبناء الملوك من مجد وسؤدد فقال :

فلوْ أنَّ ما أسعَى لأدْنَى معيشَــةٍ

كفانِى — ولمْ أطلُبْ — قليلٌ مِن المال

---

(١) الروق القرن . وطوال بمعنى طويل. والقرى الظهر .والأخنس المنخفض قصبة الأنف . والذيال طويل القد والذيال المتبختر فى مشيته .

(٢) فتخاء الجناحين عقاب لينة الجناحين طويلتهما .واللقوة السريعة التى تختطف كل شيء . وصيود . أى حاذقة فى الصيد معتادته . طأطأ فرسه أى نخزه بفخذيه وحركه . والشملال الفرس السريعة

(٣) الخزان جمع الخزن وهو ذكر الأرنب . والشربة موضع . وحجرت بالبناء للمجهول أى منعت فلا تخرج من الخوف .وأورال موضع

ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثَّل وقد يدركُ المجدَ المؤثَّل أمثالى

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشة نفسِه بمُدْرِكِ أطراف الخطوب ولا آلى

فهذا الحديث المترقرق فى ماء الحلاوة والرقة فيما يشبه أن يكون قصصًا شعريًا ، وتلك السلاسة والتدفق المعجب ، وهذه الفتوة ولطافة المخالعة ، وذلك الابتكار فى التشبيه ، وهذه اللذات العجيبة التى وصفها فى الركوب والشراب والدبيب والعشق ، هى امرؤ القيس فى حياة صبوته ، وامرؤ القيس فى ذلك الوقت هو هذه الأشياء ، أو هو ذلك الشعر الذى لم تشهده جزيرة العرب قبل هذا الأمير السادر فى بحبوحة الترف وظلال النعيم والملك .

رأينا فى قصيدة امرىء القيس الثانية

سبق أن قلنا إن هذه القصيدة قالها امرؤ القيس فى طوره الأول وهو فى شبابه قبل مقتل أبيه ، وأنها جاءت بعد المعلقة بشهادة ابن قتيبة ويؤيدنا فى ذلك قوله فيها :

ألا زعمَتْ بسْباسة اليومَ أننى كبرتُ وألّا يحسِنُ السّر أمثالى

فهو لم يتعرض لذكر الكبر ولا لتعيير النساء له به فى المعلقة ؛ وهذا مما يصح اعتباره دليلا على أن هذه القصيدة جاءت بعد المعلقة .

ولقد ذكر بعض المؤرخين كصاحب معاهد التنصيص أن ابنة قيصر أحبت امرأ القيس وأحبها ، وراسلها فأجابته إلى ماسأل ، وذلك حيث يقول لما وصل إليها .

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعداً ولو قطَّعُوا رأسِى لديْك وأوْصَالى

والبستانى أورد ذلك أيضاً فى دائرة معارفه ولعله نقله عن معاهد التنصيص أوْ عن الأنطاكىّ فى تزيين الأسواق،وإنى لأعجبمن هذا أشد العجب فأَين ابنة قيصر فى هذه القصيدة وأين منها فى قوله بعد البيت السابق .

وقد علِمتْسَلْمَى وإنْ كانَ بَعْلها بأَنّ الفتَى يهذِى وليْسَ بفعّال

فالمرأة التى يتحدث عنها امرؤ القيس اسمها سلمى وهى ذات بعل ،فلا شك أنها إحدى خليلاته من نساء الأعراب، ويؤيدهذا قوله قبل ذلك .

تنوّرتُها من أذرعاتِ وأهلُهَا بيثرِب أدْنَى دَارها نَظَرٌ عال

فأهل تلك المعشوقة كانوا حلولا بيثرب وهى المدينة ـ فيما بعد الإسلام ـ وفضلا عن هذا أن ابن قتيبة ذكر أن امرأ القيس قال هذه القصيدة قبل مقتل أبيه ، أى قبل رحلته إلى قيصر .

فالحق أن أصحاب هذا الرأى مخطئون فى زعمهم أنها قيلت فى ابنة قيصر ، ولا شك أن هذه القصيدة قالها امرؤ القيس قبل مقتل حجر ، وقبل أن يرحل إلى القسطنطينية ، وقبل أن يتصل بقيصر وابنته كما يزعمون . والقصيدة فى سياقها من أولها إلى آخرها تنهض حجة لنا وعليهم ، فليس فيها ما يشتم منه رائحة ابنة قيصر ، بل إن القصيدة فى جملتها وتفصيلها تقطع بفساد هذا الرأى وتنفيه نفيا باتا .

أما الباعث على تلك القصيدة فهو اللهو العام والعبث والرغبة فى قول الشعر ، والمؤثرات التى ظهرت آثارها فى هذه القصيدة هى عين المؤثرات التى تأثر بها فى المعلقة ، لأن الأماكن التى ذكرها هنا فى هذه القصيدة هى من معاهد البلاد التى جاء ذكرها فى المعلقة ، فذو الخال جبل مما يلى نجد من ناحية البحرين ، وكذلك وادى الخزامى من أودية البحرين ، وأوعال هضبة هناك بالقرب منها الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، وأيضا أذرعات بالشام حيث قطن والستار ويذبل وكذلك الشربة وأورال فى بلاد غطفان ، وكذلك يثرب وهى المدينة من البلاد التى ضرب على أقدامه فيها ، ويظهر أثر هذه المعاهد فى قوله :

دِيارٌ لسَلْمَى عافياتٌ بذى الخالِ ... أَلَحَّ عليْهَا كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّال

وفى قوله أيضًا :

وَتحسَب سلمى لا تزالُ كعَهْدنا
بوادى الخزامى أوعَلَى رَأْسِ أَوْعال

وكذلك فى قوله :

تنوّرتُهَا من أذرعاتِ وَأهلُها بيثرِب أدنَى دَارَها نَظَرٌ عال

وَفى قوله :

تخطّفُ خِزّان الشَّربَّة بالضُّحَى وَقد حَجِرَت منها ثَعَالبُ أوْرال

أما أغراض هذه القصيدة فاثنان :

(أولها) التشبيب بالنساء إلى أن يقول :

كأنّىَ لمْ أرْكَب جواداً لِلَذّة ولم أتبطّن كاعبًا ذاتَ خلْخال

(وثانيها) الصيد ووصف الفرس حتى يقول :

كأنَّ قلوبَ الطير رطبًا ويابسًا
لدَى وكْرِها العُنّاب وَالحَشَفُ البالى

وبعد ذلك انتهى به القول إلى ما يتطلبه مثله من مجدٍ وسؤدد .

ودرجة هذه القصيدة من البلاغة على سنته المعروفة من الابتداع وجودة التشبيه من نحو قوله :

إذا ما استَحمّتْ كان فَيْضُ حميمها
على مَتْنتَيْهَا كالجُمَان لدَى الحالى

وقوله :

سَموْت إليها بعد نام أهلُها سموّ حَباب الماء حَالا على حال

وقوله :

كأنّ قلوبَ الطيْرِ رطْباً وَيابساً لدَى وكْرِها العنّابُ والحشَفُ البالى

وتمتاز هذه القصيدة بظهور أثرها بيناً فى شعر عمر بن أبى ربيعة فى قصيدته التى مطلعها :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبكِرُ غَداةَ غدٍ أمْ رَائحٌ فمُهَجِّر

وقد ذكر صاحب كتاب (شرح شواهد الكشاف) شيئًا من غزل قصيدة امرىء القيس ثم علق عليه بعد ذلك بقوله (إنه أورد هذه الأبيات لحلاوة ألفاظها ولطافة فحواها ثم قال إن قصيدة عمر بن أبى ربيعة « أمن آل نعم » مشابهة لقصيدة امرىء القيس بمعناها مشابهة اليوم للأمس ومطابقة لها مطابقة الحس بالحس) .

وممن تأثر بهذه القصيدة من المتأخرين وأعجب بها ابن عبدون الأندلسى فقد قال مضمناً شطوراً منها فى دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس وكان سقفها قديمًا فهطل عليه منها المطر .

أيَا سامِيًا من جانبَيْه إلى العُلا «سموّ حَبابِ الماءِ حالاً على حالِ»

لِعَبْدِكَ دارٌ حلّ فيهَا كأنّها «ديارٌ لِسَلْمَى عافياتٌ بذِى الخالِ»

يقولُ لها لَمّا رَأى من دُثُورِها «ألاَ عِمْ صَباحًا أيُّها الطّلَلُ البالى»

فقالتْ ولم تَعْيَأ بِرَدٍّ جَوابَهُ «وهل يعِمَن من كانَ فى العُصُرِ الخالى»

فمُرْ صاحبَ الإنزالِ فيها بعاجلٍ «فإنّ الفتَى يَهْذِي وليْس بفَعّالِ»

وأما أخلاق امرىء القيس فى هذه القصيدة فالتهتك وَالفجور والفحش بدرجة أشد منه فى المعلقة ، وقد شهد هو على نفسه بالفجور فيها فقال :

حَلَفْتُ لها باللهِ حَلْفَةَ فَاجرٍ لَنَامُوا فما إنْ مِنْ حَديثٍ ولا صَالِ

عرض وتحليل للقصيدة الثانية

(ألا عم صباحا)

بدأ الشاعر هذه القصيدة بتحية الطلل البالى طلل حبيبته سلمى — ويأسى له ويدعو له فى تحيته بالنعمة ، ثم يتساءل كيف يمكن أن ينعم من تبدلت به الأحوال وغيرته صروف الزمان وطوارىء الحدثان .. فبعد أن كان هذا الموضع بالأمس دياراً عامرة ؛ غدا اليوم بقايا دارسة ورسوما بالية . ولا يتأتى النعيم إلا لسعيد ضمن الخلد والبقاء ، يبيت قليل الهم ، آمناً من الفزع — فالسعادة لا تتحقق لدى من ينتهبها إلا حيث تزول مخاوفه وتنقضى متاعبه ، وأنت أيها الطلل قد ارتحل عنك أهلك ، فتغيرت عما كنت عليه ، فكيف لك أن تنعم من بعدهم .

وكيف ينعم من كان أقرب عهده بالنعيم ثلاثين شهراً خلت ، وقد تعاقبت عليه فيها ثلاثة أحوال هى بالنسبة لهذا الطلل : اختلاف الرياح عليه وعصفها من حوله وفى ساحاته ، ثم هطول الأمطار عليه وملازمتها له وإضرارها به ، ثم تقادم العهد بآهليه ذلك التقادم الذى أبلى رسومه وغير معالمه .

إن هذه الديار العافيات وهى ديار سلمى بموضع (ذى الخال) ألح عليها السحاب الأسحم المطال الذى لا تقلع سماؤه ولا يخف انسكابه وانهماره .

أتظن سلمى أنها ما تزال مقيمة فى ذلك الموضع الذى ارتبعوا فيه فترى فيه أولاد الظباء وبيض النعام ، إذ الأرض سهلة ميثاء ، والناس يكثرون من الوفود عليها والنزول بها ؛ طلباً للنجعة ، وإيثاراً للمتعة .

أتحسب سلمى — وهى فى الحاضرة — أنها ما تزال بالبادية حيث وادى الخزامى ورأس أوعال ، فهى لا ترى الأطلاء والبيض إلا فى موضع التربع وزمن التبدى . . ومن شأن العرب أن يخرجوا إلى البوادى فى أوان الربيع ابتغاء الكلأ وانتجاعاً لمساقط الغيث ، فإذا انتهى الربيع وجاء الصيف تركوا مرابعهم فى البوادى ورجعوا إلى مصافهم فى الحواضر حائمين حول مياههم .

وبعد أن فرغ الشاعر من تساؤلاته التى هيجتها ذكريات المكان والزمان حيث كان التلاقى واجتماع الشمل وطيب العيش بدأ حديثه عن ذكريات تلك التجربة الجميلة فى تلك الليالى الحوافل بالبهجة والمسرة والمتعة ، فقد كانت سلمى تبدو فى أتم حسنها ، وأبهى جمالها ، وأروع زينتها ، ولا تبخل عليه بأن تمنحه من نفسها ماتطيب به نفسه وتقر به عينه . . تريه ثغرها الجميل الفاتن باتساقه واستوائه ، إذ تريه منصبا أى ثغراً مستويا متسقا ، أو تريه مقصباً أى شعراً ناعماً جميل الخصل يتوج رأسها وينساح على متنها . كما تريه جيدها المطبول الساحر بعيد مهوى القرط ، الذى يشبه جيد الرئم فى جماله واكتماله ، والذى يزيد من فتنته وسحره تلك القلائد والحلى التى يتجمل بها فهو جيد غير معطال ولا خال من حليه وزينته ، بل أنه جيد مكتمل الزينة والفتنة والجمال .

وقد كان جميلا من الشاعر أن يكرر اسم محبوبته « سلمى » ويردده على النحو الذى سلكه فى الأبيات الأربعة المتلاحقة التى ذكره فيها تشوقا واستعذابا وتلذذاً ؛ لأن الموقف موقف غزل وتشبيب . وما نرى شاعراً من الشعراء السابقين يخلص تخلصه ويسلم سلامته ويحسن إحسانه فى هذا الباب .

ثم ينتقل بنا الشاعر إلى تفنيد ماعيرته به (بسباسة) — إحدى صواحبه

وما أنكرته عليه — من مزاولة اللهو والمتعة لكبره وتجاوزه سن المرح إذ تقول له إن أمثاله من الرجال غير قادرين على إحسان اللهو أو إحسان السر وهو ما يكون بين الرجل والمرأة من المباشرة الجنسية والمتعة الجسدية، إنها تهمة خطيرة مزرية تتهمه بها صاحبته بسباسة .. لذلك يعلن ثورته عليها وتكذيبه لها فى قطع وإصرار، ويقيم الدليل على كذب زعمها وتفنيد إدعائها ويجبهها بأنها كذابة..

ونلاحظ أن « بسباسة » هذه لم يرد ذكرها فى شعر امرئ القيس إلا فى هذا الموضع وفى موضع آخر حيث يقول :

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا

وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها كانت وسيلته التى تعقد له صلاته بصواحبه فحسب، أى كانت (قوادته) وربما كان المقصود من تعييرها له بعدم إحسانه « السر واللهو » ما شكاه منه بعض زوجاته أو تحدث به إليها بعض صاحباته ، من أنه كان مفركا سريع الإراقة بطىء الإفاقة.

يقول لبسباسة كذبت فى ادّعائك علىّ واتهامك إلىّ بأنى كبرت وأنى لا أحسن السر .. ودليلى المادى على ذلك أنى أصبى نساء غيرى من الرجال وأفتنهن عن أزواجهن ، وليس فى إمكان أحد من الرجال أن يتهم بأنّ فى استطاعته أن يفتن زوجتى ويصرفها عنى أو يغريها بهجرى فذلك ضرب من المحال ،لأنى معشوق النساء والزوجات على الاطلاق،أسبيهن بحسنى وجمالى وأفتنهن بشمائلى وخصالى وحسن فعالى .

ثم يمضى فى حديثه وجداله وتأييد ردّه على ما زعمته بسباسة فيصف موقفا من مواقف لهوه فى ليلة حمراء قضاها مع امرأة لها بها وأنس بحديثها ، ويصور

جمالها بأنها فى جاذبيتها وتأثيرها على العيون النواظر كنقش تمثال صنعه مثال مقتدر . . وأن وجهها وضيء مشرق يضيء فراشها لضجيعها — يعنى نفسه — كأنه من سناه وإشراقه مصباح منير وسراج لامع من تلك القناديل الوهّاجة التى ينتجها الصانعون للفتائل ، أما لباتها : صدرها وترائبها ، فيزينها حلى متوقد كأنه فى توهجه جمر مستدفىء ؛ قوامه شجر جزل من أشجار الغضى ، أصابه مصطليه وأحاطه بأجزال أخرى من أصول ذلك الشجر ، وهو مايزال دائباً على تقليبه لإذكائه وأشمال وهجه مع الاستمرار فى إمداده والتحليق حوله بسواه من أصول الشجر حتى لاينطفىء اللهيب المشتعل ولا يخمد هذا التوهج المطرد .. لاسيما وأن هذا الجمر على يفاع من الأرض تذكيه ما تهب عليه من ريح الصبا اللينة ونسمات الشمال المنعشة ، وكأنما شبت النار وأوقدت من أجل القُفّال الراجعين من الأسفار ليهتدوا بها إلى معالم الطريق فى ظلام الليل .

إن فتاته فتاة لعوب ، لأنه إذا سلب عنها ثيابها وابتزها منها وهو ضجيعها مالت عليه فى لين وهوادة وترسل غير جافية الخلق ولا مجبال الطبع ولا فظة غليظة الفؤاد .

ثم إن عجيزتها مكتنزة مستديرة كأنها حقف الرمل ونقا الكثيب ، وهى عجيزة لينة صلبة حتى ليستطيع وليدان أن يمشيا فوقها من جانبيها الأيمن والأيسر دون أن تسوخ فيهما أقدامها لأنهما لصغرهما وطبيعتهما يكتفيان بمشى هين لين .

ثم يتوجه بالحديث إلى بسباسة للمرة الثانية معلناً عن تجربة أخرى من تجاريبه الغرامية ومواقفه الغزلية . . ومثلك أيتها المرأة المتجنية على فيما

زعمته من عدم إحسانى للسر واللهو ، قد لهوت بها ونلت منها على رغم ما بدر منها بادىء الرأى من تمنع وتأبى . .

ألا إنها بيضاء العوارض وصفحتى العنق والجيد ، وإنها طفلة (بفتح الطاء) رخصة لينة ناعمـة اليدين ، وإنها لعوب آسرة فاتنة تستولى على عقلى وتنسينى إذا نهضت عنهـا وقمت من عندها سربالى وثيابى . . إنها لطيفة الكشح ناحلة الخصر ، غير مناضة ولا مسترخية البطن . . إنها مليئة الجسد امتلاء صحة وعافية ، يترجرج لحمها من كثرته عند سيرها ، و يهتز عند انفلاتها . . إنها طيبـة الريح غير متفال ولا منتنة ، إنها لطيفة طى الكشح خمصانة الحشى . . وإذا ما استحمت وصبت الماء الساخن على جسدها كأن فيض هـــذا الحميم على متنتيها وجانبى ظهرها كالفضة البيضاء النقية لدى الحالى أو الجانى وهو صيْرف الدراهم .

هذه الإنسانة الساحرة الفتانة تنورتها ونظرت إلى نارها من بعيد وأنا فى أذرعات بالشام وهى وأهلها حلول بيثرب ؛ فإن إفراط شوقى إليها وشدة هيامى بها جعلانى أتخيلهـا وأنظر إلى ناحيتها ، وكأنما أرى بقلبى لا بعينى نارها المضيئة وشعلتها المتوهجة المرفوعة ... نظرت إلى نارها تشب لقفال عائدين من سفر ، والنجوم كأنها مصابيح رهبان ، وذلك عند وقت السحر .. وغرضه أن يقول : إذا كانت النار فى هذا الوقت المتأخر من الليل — الذى تضعف فيه كل نار وتنطفىء — بهـذه المنزلة من الإضاءة فكيف تكون حالة توهجها أول الليل ، وهو مثل قوله :

كأنّ المدام وصوْب الغَمام ... ورِيح الخزامى ونشر القطر
يعلّ به برد أنيـــابها ... إذا طرّب الطائر المستحر

يعنى أن فاها فى هذا الوقت المتأخر من الليل الذى تتغير فيه الأفواه

كان بهذه المنزلة الطيبة من العبق والرائحة الزكية فكيف كان شأنه أول الليل .

ثم ينتقل الشاعر إلى تجربة أخرى من تجاربه يحكى تفاصيلها ويروى أخبارها فى حديث عذب وتصوير بالغ الروعة مع امرأة لم يشأ أن يذكر اسمها ولم يفصح عن شخصها ؛ نهض إليها متلصصاً ، وتقدم نحوها متئداً خفيفا فى خطوات متتابعة كتتابع حبات المـــاء وفقاعاته يعلو بعضها بعضا ويندفع شيئاً فشيئاً ، فاجأها بعد ما نام أهلها ، فتملكها الجزع ، واستبد بها الهلع ، وقالت له : باعدك الله وفضحك وجلك غريباً سبيا كما نُسبَى النساء ، لأنك بما فعلت فاضحى بين قومى . . أما ترى أن السمار من حولى يسمرون ، والناس مستيقظون . . فكان رده عليها وجوابه عن استغرابها وإنكارها لما فعله أن آلى على نفسه بقسم مغلظ ، أنه لن يبرح مكانه ولا يغادر موضعه ، وأنه سيستمر عندها قاعداً ، حتى لو انتهى به الأمر إلى أن يقطع قومُها رأسه وأوصاله لديها . .

ثم أقسم لها قسما آخر ولكنه حلف الفاجر . . أقسم لهـا أن القوم قد ناموا جميعاً فمـا فيهم مستيقظ يتحدث ويسمر ، أو يصطلى ويستدفئ . . ثم تجاذبا الحديث وتعاطياه فحدثها وحدثته ؛ وهدأ روعها ، واطمأنت نفسها فسهلت بعد جماحها ، وانقادت بعد امتناعها ، ولانت بعد صعوبتها ، فما كان منه إلا أن جذب إليه جسمها وهصر شعرها الغزير الجديل كشماريخ النخل السامق .. وانتهى بهما الأمر بعد شماسها وامتناعها إلى الحسنى وما يستحب من الأمور ورقة الكلام واللهو والغزل . . وأصبح معشوقا محبباً إلى هذه المرأة ، ورضيت به عاشقا ، ورضى بها معشوقة ، وأصبح بعلها عليه قتام الذل وغبار الهوان ، كاسف البال ، حزين الفؤاد ، سيئ الظن ، متغير الحال ، مضطرب

الفكر مما دهاه وروعه . يغط من الغيظ غطيط البكر من الإبل إذا شد حبل فى خناقه ليراض به ؛ وما ذلك منه إلا تهديد بقتلى ، مع أنه ليس بقادر على ذلك ؛ فكيف يقتل هذا الضعيف من لا يفارقه سيفه البتار ومسنونة سهامِه الزرق التى كأنها من بشاعتها أنياب الأغوال[1] ، وهذا الزوج الضعيف المحنق المغيظ لا يملك رمحا يطعن به ، ولا سيفا يعمله ، ولا نبالا يرسلها على غريمه .

ثم يتساءل منكراً عليه إصراره وعناده وتفكيره فى قتله فليس بنافعه فى شئ أن يرديه ويقتله ويتخلص منه على فرض قدرته على ذلك ، لأن امرأ القيس قد شغف فؤاد تلك الزوجة كما يشغف الناقة المهنوءة قطران الرجل الذى يطليها به ، فهى تستلذه حتى تكاد يغشى عليها من لذتها به ، إنه لو قتله لكان ذلك ليس بمجد له ، بل سيكون سبب القطيعة المستحرة المستمرة بينه وبين تلك المرأة المشغوفة الفؤاد بمحبة الشاعر وغرامها به . . ومن أجل هذا فهو ليس بخائف منه ولا عابئ به ؛ وإن سلمى لتعلم من أمر زوجها — إن كان له منها مكان — تعلم أنه يهذى بذكر قتلى ، وهو لا يجترىء على ذلك فيفعله ، إنه ثرثار قوال يتحدث كثيراً ولا يعمل عملا ولو كان ضئيلا قليلا .

ثم يبدى الشاعر عجبه من هذا الزوج فى سخرية واستهزاء ، فيقول : ماذا عليه فى أن يشبب (الشاعر) بأوانس — كالغزلان فى غرف ملوك وأقيال — ويطرب إليهن ويتحدث عنهن ، وكأنما قصد الشاعر بهذا التعجب أن يعرض بميل تلك الزوجة إليه وشدة إقبالها عليه .

---

(١) الأغوال جمع غول وهى السعلاة ساحرة الجن والذكر منها السعلاء .

ثم يسوق امرؤ القيس حديثه عن تجربة غشيها فى بيت من بيوت الهوى والريبة ، وكن من أكنان القصف والخلاعة ؛ إرتاده فى ليلة غدافيّة مظلمة تلفها السحب القاتمة . . مديرة هـذا البيت امرأة بادنة سمينة ، غائبة عظم المرفقين وراء ما تكتنزه من اللحم والشحم ، مكسال فى قيامها ، بطيئة عند تحركها . . تتوسط عدداً من الفتيات الجميلات ذوات الأيدى الناعمة البضة ، والأصابع اللينة الرخصة ، والآناف الشم ، والعرانين البديعة الملس ، والخصور اللطاف ،والقامات المديدة الهيفاء ، والشعور الطويلة المسترسلة . . إنهن عذارى مكتملات الحسن ، تامات الجمال . . فى وجوههن وعيونهن وعرانينهن وشعورهن وأعناقهن وصدورهن وأعكانهن وأيديهن وأرجلهن وخصورهن ومتونهن وأردافهن ، وكل شئ فيهن هو فتنة ومتعة . . إنهن ناعمات مترفات يتبعن من يهواهن ويقع فى حبائلهن سبل الهلاك والردى ، ويغرين أهل الحلم وذوى العقول بالضلال والإغراق فى هواهن والاستمتاع بهن ، ولهن عليهم كل ما يتمنين ويشتهين ، ولو كان فى ذلك هلاكهم وافتضاح أمرهم . . وينهى الشاعر حديثه عن هذه التجربة بأنه قد صرف هواه عن هؤلاء الفتيات الفاتنات خوفا على نفسه من الهلاك والفضيحة ، مع أنه لم يكره منهن خصالهن ، وأنهن لم يكرهن منه خصاله ، فهن لديه موضع الإعجاب ، وهو عندهن موضع الرغبة والتقدير .

ثم أقحم بعض الرواة على هذه القصيدة أبياتا ثلاثة عدوها منها وفيها يصف الشاعر نفسه وجمله وقائده وتابعه بالضمور والبلى من كثرة ما قطعوا من الأسفار وما جابوه من البوادى والقفار .

ويطلب إلى كل شيخ وقور غيور أن يحبس بناته عنه ، فهو صاحب الخصال المائلة والخيلاء الفاجرة الفاتنة ، وفى استطاعته أن يقصر عنهن

أعباء الرحيل ووعثاء السفر ومتاعب الطريق . . إنه قتيل الغوانى وصريع الكواعب الحسان فى شبابه وزمنه المترف ؛ فى رياطه (جمع ريطة) ذوات اللفقين ، وفى ثوبه الرقيق الشفاف (الخال) فالنستمع إلى تلك الأبيات الثلاثة : —

ألا إننى بالٍ عَلَى جمـلٍ بالِ   يقودُ بنا بال ويتبعنا بالِ
ألا يحبس الشيخُ الغيورُ بناته   مخافةَ جَنْبِيٍّ الشمائل مختال
يقصّرُ عنهُنّ الطريقَ وغوْله   قتيل الغوانى فى الرياط وفى الخال

وكلمة « ألاَ » فى البيت الأول للتنبيه والاستفتاح ، وفى البيت الثانى للحث والتحريض ثم يبعث فى قصيدته بتجربة شعورية يأسى فيها على الشباب ويسترجع شيئاً من ذكرياته عن جواد لذاته ، وخيول حربه وغاراته ، وعن تبطنه للكواعب الحسان ذوات الخلاخل والحجال ، وعن سبئه الزق الروى يشرب خمرها منتشياً ويسقى رفاقه لينتشوا أيضاً . . وذلك جميعه فى أبيات خمسة يقول فيها : —

كأنى لمْ أركَب جَواداً لِلذّةٍ   ولم أتبطّن كاعِباً ذات خلْخال
ولم أسبأ الزّق الروِىّ ولم أقلْ   لخيلى كُرِّى كرّة بعْدَ إجفال
ولم أشهد الخيلَ المغيرة بالضحا   على هيكل نَهْدِ الجزارة جوّال
سليم الشّظى عبْل الشّوَى شَنِج النّسا   له حَجَبَات مُشْرِفَات على الفال
وصُمٌّ صِلابٌ ما يقينَ من الوَجَى   كأن مكان الرّدف منه على رال

وقد كان فى هذه الأبيات مستثاراً بذكريات أيامه الماضية ولذاته الفائتة ويقارن فيها بين ماضيه المقضى وبين حاضره العتيد . . حتى لكأنه يعز عليه أنه لم يشارك قومه فى حروبهم على حصان ضخم قوى القوائم ، نشيط سريع

فى إقباله وإدباره ، سليم المقدم ، مشرف الكفل ، صلب الحوافر ، لا يهاب معها الحفا والوجى عند الجرى ؛ وكأن مكان الردف منه مؤخر فرخ النعام .

وما من مرة يعرض فيها امرؤ القيس لخيل الحرب إلا ضاقت عليه مذاهب القول فيها ، ونضبت حيالها مشاعره وأحاسيسه ، وتوقفت لهاته عن الحديث عنها . . ولذلك فقد طوى كلامه عن جواد الحرب مستعجلا غير مستأن ولا متمهل . . وخرج إلى الحديث عن ذكرياته عن فرس الصيد ، لينطلق منه إلى الحديث عن الصيد ذاته ومتعته به وما طاب له من لذاته . . ولفظ أتبطن (فى قوله : أتبطن كاعباً) فاحش المحتوى ، فقد عنى أنه علا بطنها أو جعل بطنها إلى بطنه لصقين .

وقد اعترض بعض النقاد على امرىء القيس فى بيتيه : كأنى لم أركب .. الخ البيت ، ولم أسبأ الزق الروى . . الخ البيت ، قالوا فيما ذهبوا إليه : إنه خالف وأفسد ، ولو جمع الشىء وشكله فذكر الجواد والكر فى بيت واحد فقال:

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل   لخيلى كرى كرة بعد إجفال

وكذلك لو ذكر النساء والخمر فى بيت فقال :

ولم أسبأ الزق الروى للذة   ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لأصاب وأفاد . . وقد علق أبو بكر عاصم بن أيوب على ذلك فقال : إن الذى ذهب إليه امرؤ القيس أصوب ، لأن اللذة التى ذكرها إنما هى الصيد ، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء فجمع بين المعنيين فى البيت ، ولو نظمه كما قال المعترضون لنقص فائدة تدل على الملك والسلطان . . وكذلك البيت الثانى لو جاء به على نحو ما قالوا لكان ذكر اللذة زائداً فى المعنى ؛ لأن الزق لا يسبأ إلا للذة . . وعلق صاحب العمدة « ابن رشيق » على ذلك فذكر أن ما قاله

امرؤ القيس هو الأصوب وسنعرض بالتفصيل لهذا النقد عند حديثنا عن مآخذ العلماء على امرىء القيس فى أشعاره .

وبعد حديثه عن لذاته ووصف جواده ذلك الوصف المقتضب انتقل إلى الحديث عن الصيد ، فقد اغتدَى له — على جواده — مبكراً عند انبلاج الصباح فى واد معشوشب جاده الغيث وتوالت عليه الأمطار ، خال من الصيادين والرعاة إذْ لم يجرأ أحد منهم على ارتياده ، فازدهى مرعاه ، وازدهرت أرضه ، وطابت منابته وأشجاره ، فهو كامل الخصب وافر النبت ، تتحاماه رماح القوم وتتقيه لأنه فى مكان موحش ، أو لأنه بين حيين متضادين لا يجرأ أحد منهم على اقتحامه خشية من عدوّهَ الآخر . . اغتدى له الشاعر من دون الناس لعزته وسلطانه ، وقطعه على فرس عجلزة شديدة الخلق قوية العضل صلبة اللحم متينة البناء مكتملة الأعضاء قد أترز الجرى والنشاط لحمها فصارت ضامرة يابسة غير مترهلة ، وهى فرس كميت لونها بين الأحمر والأسود ، وقد اختار الكميت لأنها أصلب حوافراً وجلوداً وأشد خلْقاً ، وكأنها من صلابتها عصا الحائك وهراوة منــــــــوال[1] .

وبعد أن فرغ من الحديث عن عجلزته وفرسه التى اغتدى بها للصــيد مبكراً خلص من ذلك إلى الحديث عما تصيّده بهذه الفرس .. إنه ذعر بها قطيعاً من بقر الوحش . جلودها بيضاء ، وأكرعها موشية فيها سواد وبياض مثلها فى وشيها كمثل ثوب رقيق من برود اليمن (الخال الثوب الناعم الرقيق من برود اليمن) .

---

(١) المنوال خشبة السدى ، ولايسمى المنوال منوالا إلا إذا كان لخمسة أثواب فما زاد ، وخص هراوة المنوال لأنها تتخذ من أصلب الخشب وإذا تعاورتها الأيدى بالعمل ازدادت ملاسة وصلابة

فلما أحست الأبقار بها أجفلت وأجهدت عدوّها وقوته ؛ فراراً من هذه الفرس ، حتى لـكأن هذه الأبقار فى هذا العدْو السريع « الجزَى» خيول تجول على متونها أجلال بيض (ومن خلقة هذه الأبقار الوحشية التى فطرها الله عليها أن تـكون ظهورها بيضاء وقوائمها سوداء سواداً متقطعاً ، فأسافلها تشبه بالبرود وأعاليها تشبه بالجلال) .

فجال الصوار (أى قطيع الأبقار الوحشية) ولاذت بالفحل ليقيها ويحميها من صائدها (وهو امرؤ القيس) فجعلته مما يلى ذلك الصائد ليذود عنهن .. إنه فحل مسنّ ، أخنس، قصير الأنف،ممتد القرا أى طويل الظهر، وكذلك طويل القرن . ولـكن هذا القرهب لم يُجْدِهِنّ نفعاً ولم يقهنّ هجمة فرس ذلك الصائد الماهر ، فقد ركز بها على ثور ونعجة من سمان القطيع يلاحقهما فى طلْق واحد ، ويقول إننى لم أكن غافلا فى أثناء ترويضى لفرسى على الصيد عن عِداء الوحش بل كان ذلك على بالى وخاطرى وموضع اهتمام منى ، حتى لا يفلت الوحش منها ..

ثم يشبه فرسه الشملال السريعة القوية ـ وهو يطأطؤها وينحزها بفخذيه ويحركها ويدانيها ويسرع بها للصيد ـ باللّقْوَة الطلوب عقاب الجو الـكاسر . فى الحركة والطباع والهدف والسرعة والانقضاض .. إنها لقوة سريعة ، فتخاء الجناحين ، تبسطهما فى لين وقوة .. وإنها لصيود تـكثر من الصيد لإطعام فراخها ، إنها حديدة البصر لا تمل الطيران بحثاً عن صيد جديد . إنها تنقضّ على أرانب « الشـّربّة » فتخطف خِزّانها أى ذكورها (الواحد خزَن) .. وإن ثعالب « أورال » تختفى فى أجحارها خوفا على نفسها من هذه العقاب .. وإن وكرها ليزدحم بقلوب الطيور التى صادتها .. وجاءت بها إلى فراخها فالتهمتها .. قلوب مضى على بعضها زمن فيبست وجفت ، وقلوب أخرى قريبة العهد بصيد طيرها فما تزال رطبة لينة ، وكأن

القلوب اليابسة حشف تمر قديم يابس ، وكأن القلوب الرطبة العناب الرطب اللين . . وقد خص قلوب الطير بالذكر لأن فرخ العقاب يأكل لحوم الطيور ما خلا قلوبها وحشو بطونها ، فلذلك بقيت وكثرت لدى وكرها، وقيل غير ذلك : قيل إن العقاب ما دام صغيراً لا يأكل غير قلوب الطير، فالعقبان الكاسبة لهذى الفراخ الصغار لا تأتى لها إلا بقلوب الطير فأكثرت منها لديها مما جعلها تفضل عن طعامها وتزيد على حاجتها .

ما أبدع تلك الصورة الفنية وما أروع هذا الخيال البارع الذى صوّر فيه امرؤ القيس قلوب الطير الرطبة واليابسة بالعناب والحشف البالى . . . إنَّ بشار بن برد كان يحسد امرأ القيس عليها ، ويقول : ما قرّ لى قرار ولا هدأ لى بال منذ سمعتها ، حتى صنعت مثلها .

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وفى ختام قصيدته يفصح عن ذاته ، ويبين أن وراء متاعبه آمالا كبارا يسعى لها ، ويحرص عليها . . إنها آمال تؤرقه وتضنيه . . فلو كان يسعى لأدنى معيشة لكفاه ما عنده ولم يطلب حتى القليل من المال اكتفاء بما لديه ، فليس له حين القناعة وضعف الهمة من حاجة إلى طلب المزيد على مافى يده . . ولكن الأمر لديه أجل من طلب العيش . . فهو إنما يسعى لمجد مؤثل ثابت ، ولقد يدركه ، لأنه خليق به وبأمثاله من طلاب العلا والساعين للمجد أن يدركوه ويحصلوا عليه . .

وينهى قصيدته بهذه الحكمة البارعة :—

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى

فالإنسان مادام حياً وفى عمره بقية ليس بمستطيع أن يتغلب على

متاعب الحياة ، ويدرك أطراف الخطوب ، وينال غايات الآمال ، ويتأتى له كل مطلوب، ويحصل على كل مرغوب ، مهما اجتهد ، ولم يأل فى السعى والطلب .

يقول القتيبى فى البيت ما معناه : إن المرء مهما عاش واجتهد ولم يقصر فى الطلب ليس بمدرك غايات أمانيه ولا بمحصل كل رغابه وأطراف خطوبه .

ومثل ذلك قول القائل :

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى

وقول القائل أيضاً . —

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى

صفات امرىء القيس وأخلاقه

فى شىء من أخباره وحوادثه

كان امرؤ القيس جميل الوجه ، طلق المحيا ، حسن البزة ، وسيم الخلقة وقد ذكر بعض الرواة أن ابنة قيصر عشقته وعشقها ، لحسنه وجمالها ، حتى أضحى يراسلها ، ويختلس غفلة من أبيها ، فتأتيه ويأتيها ، قال ذلك ابن قتيبة وصاحب معاهد التنصيص .

ولقد شهد ابن سلام على امرىء القيس بأنه كان عاهراً فاحشاً فى شعره ومسلكه ، قال « كان من الشعراء من يتأله فى جاهليته ويتعفف فى شعره ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهكم فى الهجاء ، ومنهم من كان يبغى على نفسه ويتعهر ومنهم امرؤ القيس والأعشى » .

وقد وقفنا على شىء من هذا الفحش وذلك العهر عند دراسة معلقته وقصيدته الثانية « ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى » حتى لقد صور إلينا هذا الشاعر فى شعره امرأة بلغت من الجمال غايته ومن الحسن نهايته ، ثم أبرزها إلينا فى تلك الصورة البارعة الفاتنة تروح علينا وتغدو عارية متبذلة .

ولقد روى الجاحظ فى البيان والتبيين أن سائلا سأل امرأ القيس ؛ ما أطيب عيش الدنيا ؟ فقال « بيضاء رعبوبة بالطيب مشبوبة ، بالشحم مكروبة » ولئن صح ما قاله الرواة عنه يوم الغدير ليكونن هذا أبعد غايات العهر ، وأقصى درجات الفحش ، ويكفى أن يشهد هو على نفسه بالفجور فى قوله :

حلفت لها بالله حلفــــة فاجر لناموا فما إنْ من حديثٍ ولا صال

وأى قول أفحش من قوله :

فمثلك حُبْـلى قد طرقت ومرضـع فألهيتها عن ذِى تمائم مُحول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشِقّ وتحتى شقُّها لم يُحَوَّل

وقوله :

هصرتُ بفَوْدَىْ رأسِها فتمايلت عَلَىَّ هضيمَ الـكشح ريّا المخلخل

أو قوله :

سموتُ إليها بعدَ مانام أهلُها سُمُوَّ حباب الماء حالا عَلَى حال

وقوله :

إذا ما الضّجيع ابتزّها من ثيابها تميلُ عليه هُونَةً غيرَ مِجبال
كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه بما احتسبا من لِين مسّ وتسهال

وقوله يصف قلف قيصر ، وكان قد دخل معه الحمام فرآه عَلَى ماتحدث به الرواة .

إنّى حلفتُ يمينًا غيرَ كاذبةٍ بأنّك أقلفُ إلّا ماجنَى القمر
فإذا طعنت به مالت عِمامته كما تجمّع تحت الفلكة الوَبر

أَو قوله يصف موقفًا من مواقف صبوته :

يعِزُّ عليهـا رِيبتى ويسُــوءها بُكاه فتَثْنى الجيد أنْ يتضوّعا
بعثتُ إليها والنجومُ ضَوَاجِـع حِذَاراً عليها أَن تهبّ فتسمعا
فجاءت قُطوفَ المشى هيّابة السّرَى يُدافِـع رُكناها كواعبَ أربعا
يُزَجّينها مشى النزيفِ وقدْ جرَى صُباب الـكرى فى مُخها فتقطّعا

تقول وقد جرّدتُها من ثيابها كما رُعْتَ مَكحول المدامع أتلعا
وجدِّك لو شىء أتانا رَسوله سواك ولكنْ لم نجدْ لك مَدْفعا
تصدُّ عن المأثور بينى وبينها وتُدْنِى عَلَىَّ السَّابِرِىَّ المُضَلَّما
إذا أَخَذتْها هِزّة الروع أمسكَتْ بمنكبِ مِقدامٍ عَلَى الهول أَرْوَعَا

وما أجمل تصويره للمرأة فى قوله .

وإذْ هِىَ تمشِى كمشى النزيف يصرّعه بالكثيب البَهر
برهْرَهة رَودة رَخصة كخُرعوبة البَانَة المنفَطر
فتور القيام قَطيعُ الكلام تَفْتَرعن ذى غُروب خَصِر
كأَنَّ المُدَام وصوب الغمام وريحُ الخزامى ونشْرُ القُطر
يُعَلّ به بَرْدَ أنيَابها إذا طرّب الطائر المستَحِرّ

وامرؤ القيس وإن كان وسيما جميلا فاحشًا عاهراً ، يشبب بالنساء ، ويعبث بهن ، إلا أنه كان مفركًا ، فقد روى الميدانى عن المفضل الضبى أن امرأ القيس بن حجر الكندى كان رجلا مفركا تمل نساؤه معاشرته ، ولا تكاد امرأة تتزوجه تصبر معه ، تزوج امرأة من طيىء فابتنى بها فأبغضته من تحت ليلتها ، وكرهت مكانها منه ؛ فجعلت تقول ياخير الفتيان أصبحت أصبحت ! . . فيرفع رأسه فينظر فإذا الليل كما هو ، فتقول المرأة أصبحْ ليلُ . فلما أصبَح قال لها : قد علمت ما صنعت الليلة ، وقد عرفت أن ماصنعت كان من كراهية مكانى فى نفسك ، فماذا كرهت منى ؟ فقالت ما كرهتك ، فلم يزل بها حتى قالت كرهت منك أنك خفيف العجز ، ثقيل الصدر ، سريع الإراقة ؛ بطىء الإفاقة . فلما سمع ذلك منها طلقها وذهب قولها «أصبح ليل» مثلا يضرب فى الليلة الشديدة التى يطول فيها الشر .

وفى نزهة ذوى الكيس والموشح أن تلك المرأة هى أم جندب زوجة امرىء القيس الطائية ، وأنه لم يطلقها بعد أن أبانت له ما كرهته منه ، وأنها لم تزل عنده حتى أتاه علقمة بن عبدة فتذاكرا الشعر عندها فقال هذا أنا أشعر ، وقال هذا أنا أشعر ، ثم تحاكما إليها فقالت لهما : قولا شعراً على روى واحد وقافية واحدة يصف فيه كل منكما فرسه ، وينعت الصيد ؛ فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

خليلَىّ مُرّا بِى على أُمّ جُندب ... لنقضِ لُبانَاتِ الفؤادِ المعذب

وقال علقمة قَصيدته التى مطلعها :

ذهبْتَ من الهُجْران فى كلِّ مذهب ... ولم يَكُ حقاً كلُّ هذا التجنّب

فقالت المرأة لامرىء القيس : علقمة أشعر منك ، لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك ، وضربته بسوطك ، ورأيت علقمة أدرك الصيد ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب . فغضب عليها امرؤ القيس ، وقال لها : ليس كما قلت ، ولكنك هويته ، ثم طلقها فتزوجها علقمة بعد ذلك ، وقد جاء فى بعض الأقوال ، أنه سمى علقمة الفحل لهذا .

وسأل امرؤ القيس مرة إحدى نسائه عما يكره النساء منه ، فقالت : إنك إذا عرقت فحت بريح كلب ، فقال : أنت صدقتنى ، إن أهلى أرضعونى لبن كلب ، ولم تصبر عليه من زوجاته إلا امرأته من كندة ، وكان أكثر ولده منها .

أما ذكاء هذا الشاعر وحدة خاطره وسرعة بديهته ، فنحن نقف على ذلك فى شعره . وفيما ذكره الرواة ، فقد قص علينا على بن ظافر (صاحب كتاب بدائع البدائه) فى أنبائه قصة ذكرها غيره أيضاً كصاحب شعراء

النصرانية واحتج بها الأستاذ (أحمد أمين) فى كتابه فجر الإسلام على ما كان عند أعراب الجاهلية من الألغاز والأحاجى التى استعملوا فيها الشعر . ولئن صحت تلك القصة وصدق علىّ ومن تابعه فإنها تنشر بين أيدينا صحيفة من ذكاء هذا الشاعر الخالد ، انظر إليه وقد أقبل عليه عبيد بن الأبرص يسأله ما معرفتك بالأوابد ؟ فقال : قل ما شئت تجدنى كما أحببت ، فأخذ عبيد يلقى عليه ألغازاً فى أبيات من الشعر ، وامرؤ القيس يحل تلك الألغاز على البديهة فى شعر أيضاً وتلك مقدرة فائقة وذكاء متوقد نعهدهما فى فتى كندة .

قال عبيد :

ما حيّة مَيْتةٌ قامت بميتها   دَرْداء ما أنبتتْ سِناً وأضراسا

فقال امرؤ القيس :

تلكَ الشعيرَة تُسْقى فِي سَنابلها   فأخرَجَتْ بعدَ طولِ المكْثِ أكداسا

فقال عبيد :

ما السودُ والبِيضُ والأسماء واحدةٌ   لا يَسْتطيع لهنّ الناسُ تمْساسا

فقال امرؤ القيس :

تلك السّحابُ إذا الرحمنُ أرسَلهاَ   رَوّى بها من مُحول الأرْض أيباسا

فقال عبيد :

ما مرتجاتٍ عَلَى هَوْل مراكبها   يقطعن طول المدَى سيراً وأمراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك النجوم إذا حانَتْ مطالعها   شبهتها فى سواد الليل أقباسا

فقال عبيد :

ما القاطِمات لأرضٍ لا أنيسَ بها   تأتى مِراعا وما يرْجِعن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرياح إذا هبّت عواصفها ... كفى بأذيالها للترب كنّاسا

فقال عبيد :

ما الفاجعاتُ جهاراً فى علانية ... أشدّ من فيلق مملوءةٍ باسا

فقال امرؤ القيس :

تلكَ المنايا فما يُبقين من أحدٍ ... يكفتن حتى وما يُبْقين أكياسا

فقال عبيد :

ما السابقاتُ سراع الطّير فى مَهَل ... لا يَشتكين ولوَ طال المدَى باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجيادُ عليها القومُ قدسبحوا ... كانوا لهن غداةَ الروع أحلاسا

فقال عبيد:

ما القاطِعاتُ لأرض الجوِّ فى طَلَق ... قبلَ الصّباح وما يسْرين قرْطاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الأمانىّ يتْركن الفتىَ مَلكا ... دونَ السماء ولم تَرْفَع لهُ راسا

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سَمْع ولا بَصَر ... ولا لِسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النّاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازينُ والرحْمن أنْزَلها ... ربّ البريّة بينَ الناسِ مقياسا

وقد روى صاحب الأغانى عن محمد بن القاسم حديث الحق لا حديث الباطل كما يقول ، فقال :

إن امرأ القيس آلى بألية ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين ، فجعل يخطب النساء فإذا سألهن عن هذا ، قلن أربعة عشر ، فبينما هو يسير فى جوف الليل إذ هو برجل معه ابنة له كأنها البدر ليلة تمامه ، فأعجبته ، فقال لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنتان ، فقالت أمّا الثمانية فأطباء الكلبة ، وأما الأربعة فأخلاف الناقة ، وأما ثنتان فثديا المرأة ، فخطبها إلى أبيها فزوجه إياها ، وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال فجعل لها ذلك ، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل وعشرة أعبد وعشر وصائف وثلاث أفراس ، فقبل ذلك ، ثم إنه بعث عبداً إلى المرأة وأهدى إليها نحياً من سمن ونحياً من عسل وحلة من قصب ، فنزل العبد ببعض المياه فنشر الحلة ولبسها ، فتعلقت بشعره فانشقت ، وفتح النحيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا ، ثم قدم على حى المرأة وهم خلوف ، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها ودفع إليها هديتها ، فقالت له : أعلم مولاك أن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً ، وأن أمى ذهبت تشق النفس نفسين ، وأن أخى يراعى الشمس ، وأن سماءكم انشقت ، وأن وعاءيكم نضبا ، فقدم الغلام على مولاه فأخبره ، فقال امرؤ القيس أما قولها إن أبى ذهب يقرب بعيداً ويبعد قريباً فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه ، وأما قولها ذهبت أمى تشق النفس نفسين فإن أمها ذهبت تقبل امرأة نُفساء ، وأما قولها إن أخى يراعى الشمس فإن أخاها فى سرح له يرعاه فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به ، وأما قولها إن سماءكم انشقت فإن البرد الذى بعثت به انشق ، وأما قولها إن وعاءيكم نضبا فإن النحيين اللذين بعثت بهما نقصا ، فاصدقنى ! . .

فقال يا مولاى إنى نزلت بماء من مياه العرب فسألونى عن نسبى فأخبرتهم أنى ابن عمك ، ونشرت الحلة فانشقت ، وفتحت النحيين فأطعمت منهما أهل

الماء . فقال : أولى لك . ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها ومعه الغلام ، فنزلا منزلا فخرج الغلام يسقى الإبل فعجز ، فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام فى البئر ، وخرج حتى أتى حى المرأة بالإبل وأخبرهم أنه زوجها ، فقيل لها قد جاء زوجك ، فقالت والله ما أدرى أزوجى هو أم لا ؟ انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها ، ففعلوا وأكل ، فقالت : اسقوه لبناً حازراً وهو الحامض ، فسقوه فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، ففرشوا له فنام ، فلما أصبحت أرسلت إليه إنى أريد أن أسألك ، فقال سلى عما شئت . فقالت مم تختلج شفتاك ؟ قال لتقبيلى إياك . قالت فمم تختلج كشحاك ؟ قال لالتزامى إياك . قالت فمم يختلج فخذاك ؟ قال لتوركى إياك . قالت عليكم بالعبد فشدوا أيديكم به ففعلوا . ومر قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر ، فرجع إلى حيه فاستاق مائة من الإبل ، وأقبل إلى المرأة ، فقيل لها قد جاء زوجك . فقالت والله ما أدرى أهو زوجى أم لا ؟ ولكن انحروا جزوراً فأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا ، فلما أتوه بذلك أبى أن يأكل ، وقال وأين الكبد والسنام والملحاء ؟ فقالت أسقوه لبناً حازراً فأبى أن يشربه ، وقال فأين الصريف والرثيئة ؟ فقالت افرشوا له عند الفرث والدم فأبى أن ينام ، وقال افرشوا لى فوق التلعة الحمراء واضربوا لى عليها خباء . ثم أرسلت إليه هلم شريطتى عليك فى المسائل الثلاث فقال لها سلى عما شئت . فقالت له مم تختلج شفتاك ؟ قال لشربى المشعشعات . قالت مم تختلج كشحاك ؟ قال للبسى الحبرات . قالت فمم تختلج فخذاك ؟ قال لركضى المطيات . قالت هذا زوجى لعمرى، فعليكم به ، واقتلوا العبد ، فقتلوه ، وتزوج امرؤ القيس بالمرأة .

ونحن وإن كنا نأخذ بالحيطة فى شأن هذه القصة فلا ندعيها حديث الحق لا حديث الباطل ، إلا أنه قد يكون لها نصيب من الصحة فى جملتها لا فى

تفصيلها ، وهى إن صحت — وهذا ما نشك فيه — تدل على أن امرأ القيس ينشد فى زوجته وشريكة حياته الجمال والذكاء ، كما يبدو فى خلالها أيضاً ذكاء ذلك الشاعر حين فهم المراد من رسالة خطيبته مع مولاه وخادمه ، ونلمح فيها أيضاً شممه ونبله حين عاف أن يأكل الكرش والذنب ويشرب حازر اللبن وينام على الفرث والدم ، وأبى إلا أن يكون الكبد والسنام والملحاء له طعاماً والصريف والرثيئة له شراباً ، ولم ينم إلا على فراش فوق التلعة الحمراء وقد ضرب له عليها خباء . ونقف أيضاً على نبله وعزه عندما أخذت زوجته تلقى عليه مسائلها ، وهو يجيبها بشرب المشعشعات ولبس الحبرات وركض المطيات ، على حين غيره جعل نفسه لخلا ينازع على الإبل تختاج شفتاه من تقبيلها وكشحاه من التزامها وفخذاه من إتوركها .

وليس أدل على شجاعة امرىء القيس وإقدامه من تلقيه لنعى أبيه بجأش رابط ، وقلب ثابت لم يعرف إليه الجزع سبيلا ، ثم إيلائه على نفسه بعد ذلك أن لا سكر ولا خمر ولا لهو ولا طرب حتى يثأر بأبيه من بنى أسد ، وهبّ إليهم فأنهل سيفه من دمائهم وأعله ، وصاح فيهم صيحة قذفت عاليهم على سافلهم .

يطعنُهم سَلْكَى ومَخْلوجَةً　　　كَرَّكَ لَأْمَيْن على نابل

بعد ذلك أباح لنفسه ما كان منع ، فقال :

حَلّتْ لى الخمر وكنتُ امرأً　　　عن شُربها فى شُغْل شاغل

فاليومَ أُسْقَى غيرَ مستحقِب　　　إثماً من الله ولا وَاغل

وكان امرؤ القيس شديد الظنة فى شعره ، كثير المنازعة لأهله ، مدلا فيه بنفسه ، محباً للظهور على أقرانه ، كارهاً أن ينتصر عليه غيره ، قابل التوأم

اليشكرى ، فقال له : إن كنت شاعراً فأجز أنصاف ما أقول ، فقال التوأم : قل ما شئت :

فقال امرؤ القيس : أصاحِ ترى بُرَيْقًا هَبَّ وَهْنا

فقال التوأم : كنار مَجوسٍ تَسْتَعِر استعارا

فقال امرؤ القيس : أرقْتُ لهُ ونامَ أبو شُرَيْح

فقال التوأم : إذا ما قُلتُ قد هَدَأَ استطارَا

فقال امرؤ القيس : كأنّ هَزِيمَه بوراء غيْب

فقال التوأم : عشارٌ ولَّهٌ لاَقَتْ عشارا

فقال امرؤ القيس : فلما أن عَلاَ كَنَفَيْ أضاخ

فقال التوأم : وهَتْ أعجازُ ريِّقه فحارا

فقال امرؤ القيس : فلم يترُك بذاتِ السِّرِّ ظبيا

فقال التوأم : ولم يترك بِجَلْهَتها حِمارا

وتلك الحكاية رواها أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء ، وقد ذكر أن امرأ القيس لما رأى ممانتة التوأم له آلى على نفسه ألا ينازع أحداً بعده .

ولو نظرنا إلى الكلامين كما يقول ابن رشيق فى عمدته لوجدنا التوأم أشعر فى شعرها هذا ، لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء فهو فى فسحة مما أراد والتوأم محكوم عليه بأول البيت مضطر فى القافية التى عليها مدارهما جميعاً ، ومن هنا والله أعلم عرف له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف .

عقيدة امرىء القيس الدينية

لنسرع إلى القول فى عقيدة امرئ القيس الدينية بعد أن أخذنا بيدك وتخطينا بك القرون ، ثم طوفنا بك فى أنحاء الجزيرة العربية وأوقفناك على ما كان فيها من نحل ومذاهب ، وأهواء وعقائد؛ عند حديثنا عن بيئة امرئ القيس العلمية، فما هو دينه بين تلك النحل الأربع التى ذكرناها فى ذلك الموضع السالف؟ أكان على النصرانية أم دان بالمزدكية أم اعتنق الوثنية أم انتمى إلى اليهودية ؟

أما تهود ذلك الشاعر العظيم فلم يقل به أحد ، ولم يقم عليه دليل ، فلم يبق إلا أن يكون نصرانياً أو مزدكياً أو وثنياً ، آراء ثلاثة قال بها الباحثون ،ولكل حجة يدلى بها ودليل يستند إليه ويعتمد عليه .

فأما أصحاب وثنيته فإنهم يستندون إلى تسميته وإلى حادثة من حوادثه ، قالوا إن اسمه امرؤ القيس ، وقيس صنم من أصنام الجاهلية ، فيكون المعنى إنسان القيس أو عبد القيس كما يقال عبد اللات وعبد العزى ، وفى هذا — على زعمهم — دلالة على وثنية هذا الشاعر . ومن أدلتهم أيضاً ما رواه صاحب الأغانى وغيره من أن امرأ القيس حين خروجه لغزو بنى أسد مر بتبالة وفيها صنم تعظمه العرب يقال له ذو الخلصة[1] ، فاستقسم عنده بقداحه

(١) كان هذا الصنم مروة بيضاء عليها نقش كهيئة التاج . ثم صار هذا الصنم فى الإسلام عتبة لمسجد تبالة. وأما تبالة فهى قرية بين مكة واليمن ، وقد كانت سخرية امرىء القيس من ذى الخلصة حادثة فردية ، صدرت عن شاعر غريب الأطوار قد يكون ملحدا أو حر الفكر ، ولو أنه فى ملته كان على دين النصرانية التى كان عليها أهله وذووه .

الثلاثة الآمر والناهى والمتربص ، قالوا : ولو لم يكن امرؤ القيس وثنياً لما استقسم بهذه القداح عند ذلك الصنم .

وذانك برهانان مردودان فإن «قيساً» وإن كان من أسماء أصنام عرب الجاهلية إلا أنه جاء فى القاموس واللسان والتاج وغيرها من معاجم اللغة أن (القيس الشدة ومنه امرؤ القيس أى رجل الشدة) وورد فى أشعار العرب أيضاً لفظة قيس بمعنى الشدة قال الشاعر :

وأنْتَ على الأعداء قيْس ونَجْدة ... وللطَّارِق العافِى هِشام ونَوْفل

وعَلَى ذلك يكون معنى امرىء القيس أو عبد القيس عبد الشدة كما يقال عبد الجبار وعبد القوى وعبد الحق وعبد المتين وغير ذلك من أسماء المعانى التى تصدق على الله سبحانه وتعالى ويضاف إليها كلمة عبد ، ولهذا جوز الأصمعى أن يقول فى روايته للمعلقة (ياامرأ الله فانزل) بدل (يا امرأ القيس فانزل) لأن المعنى فى نظره واحد ، ولولا ذلك لما اختار الأصمعى تلك الرواية التى تمنع اللبس ، وتفرّق بين قيس الصنم وقيس بمعنى الشدة . على أننا لو سلمنا أن المراد من القيس الصنم فإن ذلك لا ينهض حجة عَلَى وثنية هذا الشاعر ، لأن استنباط الديانات من الأسماء قد لايكون له قيمة ولا يوصل إلى نتيجة ، فإننا نرى بين المسلمين الآن من يتسمى بعبد الرسول فهل معنى ذلك أنه يعبد الرسول ولا يعبد الله . وقد نجد أسماء مشتركة بين المسلمين والنصارى واليهود كإبراهيم وموسى فلم لايكون الأمر كذلك فى الجاهلية ؟ ولقد تسمى جد النبى عليه الصلاة والسلام فى الجاهلية بعبد المطلب ومع ذلك فهو لم يكن يعبد عمه المطلب بن عبد مناف القرشى ولاسولت له نفسه ذلك ولا جال بخاطره شىء من هذا . وفضلا عن كل ذلك فإن لامرئ القيس عمّاً اسمه عبد الله وفى ذلك كله مايقرع توهمهم ويسقط دليلهم .

أما عن دليلهم الثانى فيكفى لإبطال زعمهم أن امرأ القيس لما أجال القداح ثلاث مرات وخرج له الناهى فى كل مرة جمعها وحطمها ثم قذف بها فى وجه الصنم، وقال له «مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ماعقتنى» فلو كان امرؤ القيس ممن يعبد الأصنام ويعظمها لما ألقى بالقداح فى وجه الصنم ولا سبه ذلك السباب المقذع.

ويروى أنه قال فى ذلك:

لو كنتَ ياذا الخلص الموتورا   مِثلى وكانَ شيخك المقبورا
لم تنهَ عن قتْل العَداوة زورا

أما استقسامة بالقداح فإنه فعل ذلك أخذاً بعادات الجاهلية، ومثل تلك العادة شائعة الآن بين كثير من الأمم الراقية ذات الأديان السماوية، كفتح الفنجال والكتشينة، وقراءة الكف، وضرب الودع، والخط على الرمل، وما إلى ذلك.

أما عن الرأى الثانى وهو مزدكية امرىء القيس فزعيمه «الأب أنستاس الكرملى» الذى ذهب فى مجلة المشرق إلى أن امرأ القيس كان على دين مزدك، واستند فى ذلك إلى ما وقع لهذا الشاعر مع النساء من تطليق وزواج وما ارتكبه من الفواحش، وإلى أن المزدكية كانت تستحل كل منكر سوى القتل وبعض أمور لايؤبه لها، وأورد قول ابن النديم فى الفهرس إن مزدك زعيهم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف عَلَى بلوغ الشهوات والأكل والشراب والمؤانسة والاختلاط، وترك الاعتداء بعضهم عَلَى بعض، ولهم مشاركة فى الحُرم والأهل، لايمنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولايمنعه. وقال بعد ذلك أنستاس إن المزدكيين مراءون فى دينهم فهم يوافقون كل من يصادفهم بدون أن يبينوا له ماهية دينهم، ولكونهم كانوا مبغضين من الجميع لم يدع امرؤ القيس فى أشعاره مايشتم منه رائحة مذهبه، وجعل أنستاس أكبر دليل له عَلَى مزدكية امرىء القيس أن جده

الحارث اعتنقها أيام كسرى قباذ ولم يذكر عن امرىء القيس ولا عن أبيه مايشعر بأن واحداً منهما ترك دين الحارث وتمسك بأهداب دين آخر .

كلام وجيه ولكنه غير خالص فى الحق والرد عليه أوجه ومناقضته ألذ وأعذب ، فإن استناد أنستاس إلى سيرة امرىء القيس وأعماله تلك السيرة التى لا يستحلها دين مستقيم ليس كافياً للدلالة عَلَى مزدكية ذلك الشاعر ، وإلا صح أن نقول إن أبا نواس ومن على شاكلته من شعراء المجون فى الجاهلية والإسلام كانوا على دين مزدك ... ثم إن مزدك على مارواه الطبرى والشهرستانى وابن الأثير وغيرهم كان ينهى عن قتل الحيوان زعماً منه أن ذلك من الكبائر ، وأن الاقتيات لايجوز إلا من النبات ، ولكن امرأ القيس كان على غير ذلك ؛ فلقد كان صائداً ماهراً نصف ديوانه فى وصف خروجه لصيد الأوابد وقنص الوحوش وتعاطى لحومها . أما عن إفراط امرىء القيس فى الزواج بأكثر من زوجة ؛ فإنه فعل ذلك جريا على عادة العرب فى الزواج بأكثر من واحدة، وكذلك تابع العرب فى استباحة الطلاق وليس فى ذلك حجة على من يقول بنصرانية امرىء القيس فإن بعض فرق النصارى تبيح الطلاق والزواج مراراً .

وأما عن مزدكية جده الحارث فإنا نعلم أنه اعتنقها على عهد قباذ و بعد أن شب ونشأ على دينه القديم، اعتنقها لأغراض سياسية حتى يستولى على الحيرة وينزل عن سريرها منافسه المنذر ، وكان سبيله إلى ذلك أن يشايع قباذ على ما يبتغيه ؛ والغاية تبرر الواسطة ، عَلَى أن بعض المؤرخين ذكر أن قباذ نفسه لم يعتنق هـذا المذهب إلا لأغراض سياسية وأطماع قامت بنفسه ، وهى أن يصل إلى ما فى أيدى رعيته وأتباعه من الأموال والمتاع، فقد كان أعيان الفرس وأشرافهم يحرزون أموالا كثيرة وعقارات كبيرة القيمة ، فأراد قباذ أن يستعين بهذا المذهب على مشاركتهم، وتعصب لصاحبه ، فقباذ اعتنق هذا المذهب لأغراضه وشهواته

وتابعه عليها الحارس الكندى لأغراضه وشهواته أيضا ، فإذا زال السبب زال المسبب فإن قباذ قدتوفى وتولى بعده أنوشروان ، وعادالمنذر الى عرشه عَلَى الحيرة وشرد الحارث فى البلادفلم يعد فى حاجةأن يظهر بمظهر دينى يخالف عقيدته الأولى التى نشأ عليها آباؤه منذ الطفولة ، فلا بد أنه قد ارعوى عن ضلاله ، ورجع عن غوايته ، وعن ملة مزدك ، أما غضب أنو شروان عليه فما كان إلا انتصاراً وتعصبا للمنذر الذى أحبه أنو شروان حبا جمًا ، وأيضا لما كان قد أضمره من بغض شديد للحارث منذ كان على عهد والده الذى كان أنوشروان ساخطًا عَلَى مسلكه ومسلك من كان من أعوانه وشيعته ، وما نسى أنو شروان حادثة مزدك مع أمه ، ويوم أن قبل الأرض بين يدى ذلك الزنديق الفاحش .

ومهما يكن من شيء فإن الحارث كان وقت اعتناقه للمزدكية ملكا عَلَى كندة والحيرة ، وابنه حجر والد امرىء القيس كان بمنآة عنه ، فقد كان ملكا عَلَى بنى أسد وملحقاتها ، وإنه ما كان لحجر ولا لإمرىء القيس غرض يبتغيانه من وراء اعتناق هذا المذهب الذى شهد عليه أنستاس نفسه بأنه كان مبغضا من الجميع ، ولذلك فنفسهما لا تحدثهما يومًا من الأيام باعتناق مبادئه ، ولقد كان الحارث نفسه مرائيا فى عقيدته التى ظهر بها أمام قباذ لأنه حاكم مسلط ، والناس عَلَى دين ملوكهم والسياسى المرائى يلبس لكل حالة لبوسها .

ثم إننا نعلم تلك الحروب الطاحنة التى أثارها امرؤ القيس مطالباً بثأر أبيه ، ونعلم أيضاً تلك المواقع الحربية التى كانت بين عميه سلمة وشرحبيل والتى قتل فيها كثير من الأنفس وانجلت عن قتل سلمة وشرحبيل ، مع أن المزدكية تحرم القتل والحرب فقد قال الشهرستانى فى الملل والنحل « كان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس

شركة فيها » ذلك مذهب مزدك الاجتماعى الذى يحرم القتل وسفك الدماء فأين أثر ذلك الدين فى نفس امرىء القيس وفى نفس عمومته وهم أصحاب تلك الحروب المبيرة . ومما يدل أيضاً على أن المزدكية لم تتغلغل فى قلب الحارث نفسه ، ولم يعتنقها اعتناق المؤمن الموقن ، وإنما كان مرائياً فى تظاهره بها وتشيعه لها تلك الحروب التى قام بها الحارث نفسه فى بلاد العرب ، يبغى بها إذلال منافسيه والقضاء عليهم ، على أن هذا المذهب المزدكى لم يلق بين العرب رواجاً ، ولا يكاد يعرفه منهم أحد لأن العربى لا يرضى لنفسه أن يباح عرضه وماله ، وهو صاحب الشمم والإباء والعزة والأنفة المضروب بها المثل .

فلا يمكن بعد هذا أن يكون امرؤ القيس مزدكياً ، ولا بد أنه كان نصرانيًا . ولقد عده الأب لويس شيخو فى شعراء النصرانية . وليس أدل على نصرانية هذا الشاعر من أننا نجد فى شعره كثيراً من إقراره بالله وقدرته وحسابه وغير ذلك من عقائد النصارى والأديان السماوية التى لا يعرفها ولا يقرها الوثنى ولا المزدكى وإنما يقول بها من كان متألهًا .

ولقد كان امرؤ القيس يرسم بعض صوره الشعرية فى أجواء مسيحية يتحدث فيها عن مصابيح الرهبان وصحفهم وتوابيت موتاهم، وعن شبرقة الولدان ثوب حاج بيت المقدس تبركا به فهو القائل :

يُضىءُ الظلام بالعِشــاء كأنّه ... مَنـارةُ مُمْسِى رَاهِب متبتّــلِ

يصف فيه وجه حبيبته الوضىء المشرق بأنه يضىء إضاءة منارة الراهب المتعبّد فى جوف الليل البهيم . ويقول :

أصاحِ ترى برْقًا أُرِيكَ ومِيضه ... كلَمْع اليـدَيْن فى حَبِىّ مُكلّل

يضىء سَناهُ أو مصابيحُ رَاهِبٍ ... أمالَ السَّلِيطَ بالذُّبالِ المُفتّـلِ

فهو يشبه فى هذين البيتين تألق البرق ولمعانه بتألق ولمعان مصابيح الراهب أميلت فتائلها بصب الزيت عليها .

ويقول أيضاً :

تنوّرتها من أذرعاتٍ وأهلُها بيثرِب ، أدنَى دارَها نظرٌ عَال
نظرْت إليها والنجومُ كأنّها مصابيحُ رُهبان ؛ تُشَبّ لِقُفَّال

يتخيل فى البيتين حبيبته من بعيد ، فيتنورها بعينيه ، ويمد بصره إلى ناحيتها عبر المسافات الشاسعة وهو بأذرعات بالشام وهى وأهلها حلول بيثرب بالحجاز ... يصنع ذلك ليلا ونجوم السماء تلمع فى الأجواء الفسيحة كما تلمع مصابيح الرهبان التى تشعل فى الظلام ليهتدى بها السارون العائدون من سفرهم .

وهو القائل كذلك :

فأدرَكْنَه يأخُذْن بالسَّاقِ والنَّسَا كما شَبْرقَ الوُلدان ثوْبَ المقدّس

فهو فى هذا البيت يصوّر لنا الثور الوحشى وقد طاردته كلاب الصيد وأخذن بساقه ونساه ، ومزقن بدنه ؛ بصورة حاج مسيحى عائد من بيت المقدس ؛ يسرع إليه الصبيان ويلتفون من حوله ليحصلوا من ثوبه — الذى يمزقونه — على قطع ؛ يتبركون بها ، ومثل هذه العادة لا يعرفها إلا من نشأ فى بيئة نصرانية .

ويقول فى وصف ناقته :

وعُنْسٍ كألواحِ الأران نَسَأْتُها على لاحِبٍ ، كالبُرْد ذى الحَبَرات

يصفها بأنها صلبة قوية ، تطوى الفلا طيا ، وتمضى على الطريق اللاحب مسرعة ؛ كأنها فى التحمل والقوة والمتانة ألواح تابوت موتى النصارى .

ويذكر مصاحف الرهبان أى صحفهم المقروءة فى قوله : —

أَتَتْ حُجَجٌ بعْدِي عليها ، فأَصْبَحت كَخطِّ زَبُورٍ فى مَصاحف رُهبان

يتحدث عن دار محبوبته بأنها قد تغيرت رسومها ودرست آثارها ؛ لقدم العهد بها ، وإتيان الحجج والسنين عليها ، وكأنها فى التقادم الخط الناصل الباهت فى صحف رهبان قديمة طال عليها الزمن .

ويقول فى سرب من العين خرج لصيده :

فَآنَسْتُ سِرْبًا مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّه رَوَاهِبُ عِيدٍ فِي مُلَاءٍ مُهَدَّبِ

يشبه هذا السرب فى مشيته ملتفًا بعضه حول بعض برواهب الدير خرجن منه فى يوم عيد وعليهن الثياب المهدّبة أى ذات الذيول الطويلة .

هذا ما كان من شأنه فى الإشارات النصرانية التى أوردها فى شعره .

أما عن الإشارات اليهودية ، فإنه لم يأت منها فى شعره إلاّ بإشارة واحدة يبين فيها متانة حصون اليهود وأبنيتهم العالية فى مجال الحديث عن ناقته التى جعلها فى المتانة والقوة مثل ما عليه تلك الأبنية والحصون .. يقول :

فَعَزَّيْتُ نَفْسى حين بانوا بجَسْرَةٍ أمونٍ كَبُنْيان اليهوديّ خَيْفق

يعنى حين بان أحبابه وبعدوا عنه استعان على أمره وعزّى نفسه فى المضىّ إليهم بناقة قوية متينة ، كأنها بنيان من أبنية اليهود وحصونهم فى القوة والمتانة ، وقد كان اليهود بعد تفرقهم عن بيت المقدس فى عهد خرابه على يد « طيطس » القائد الرومانى قد ذهبت طائفة منهم إلى جزيرة العرب ، فأقامت آطامها فى يثرب ، وحصونها فى تيماء وغيرها من مدن الحجاز ، وقد كانت هذه الأبنية من أوثق ما شيدوه ، فجعلها امرؤ القيس مثلا لمتانة ناقته وشدة أمرها .. وكلمة « خيفق » فى البيت بمعنى سريعة .

وليس فى شعر امرىء القيس من الصور الأدبية التى استنبط مادّتها من الانطباعات الوثنية غير اثنتين : الأولى فى قوله :

فعنّ لنــا سربٌ كأنّ نِعاجه عَذَارى « دَوارٍ » فى مُلاء مذيّل

وهو فى هذا البيت يشبه قطيعاً من بقر الوحش ؛ متراصًا ؛ أسود القوائم والرءوس ؛ أبيض البطون والظهور ؛ بفتيات يمنيات ؛ يرتدين أثوابًا بيضاء ، وقد جُللت رءوسهن بشعرهن الفاحم ، وحليت أسافل تلك الأثواب باللون الأسود ، وقد انتظمن صفوفا يطفن بصنم « دوار »

وأما الصورة الثانية ، فقوله :

فلِله عينا مَنْ رأى من تفرّق أشتّ وأنأى من فِراق المحصَّب

أراد أن يصــور ألم الفراق ساعة الرحيل ، حين تغيب الطريقُ بأحبابه ، فاتخذ من فراق الحجاج مثلا . إذ أنهم يأتون إلى « مكة » من كل فج حاجين حجّ الوثنيين ، ويذهبــون إلى « منى » فيرمون الجمرات « بالمحصَّب » . . . يفعلون ذلك ، ثم يتفرقون إلى منازلهم ، وقد لا يلتقون مرة أخرى .

وخلاصــة القول : إن فى شعر امرىء القيس إشارات مسيحية عديدة ، وإشارة واحدة يهودية ، وإشارتان وثنيتان .

أما عن المرات التى ورد فيها اسم « الله » فى شعر أمرىء القيس ، فعددها اثنتا عشرة مرة :

أربع منها فى مجال القسم : إحداها عَلَى لسان صاحبته ، واثنتان فى مقام لا يليق فيه الحلف بالله ؛ والرابعة قالها مهدداً متوعداً .

أما الأولى التى يحكى فيها قسم صاحبته فقوله :

فقالَتْ : يمينُ الله مالَكَ حيــلةٌ وما إنْ أرَى عَنْكَ العَمايَةَ تَنْجلى

وأما الاثنتان الأخريان اللتان أقسم فيهما قسماً فاجرا ، فقوله :

فقلتُ : يمينُ الله أبرحُ قاعداً ولو قطَّعُوا رأسِي لَدَيْكِ وَأَوْصالى
حلَفْتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ لنامُوا ، فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صال

وأما المرة الرابعة فهى التى يقسم فيها مهدداً بطوناً من بنى أسد ؛ بأن دم أبيه لم يذهب هدراً وان يضيع سداً ، وأنه لن يهدأ له بال حتى يقضى عليهم جميعاً ، إذْ يقول :

واللهِ لا يَذْهبُ شَيْخى بَاطلا
حتَّى أُبيدَ مالِكا وكَاهلا ... الخ

وذكرها أربع مرات أخريات ، قالها فى مقام الدعاء ... مرة يحمد الله على أنه أصبح آمنا فى جوار قيس وشِمِر وَلَدَىْ زهير من بنى سلامان بن ثعل ، وإبله ترعى مطمئنة حيث طاب لها ؛ فسمنت واكتنزت لحماً ؛ حتى ضاقت عنها جلودها ، فيقول .

أرَى إبِلِى والحمدُ لله أصبحت ثِقالا إذا ما استَقْلتها صُعودُها
رَعَت بِحِيَال ابنَىْ زُهيْر كليْهما معاشِيب حتى ضاقَ عنها جُلودُها

ومرة ثانية ذكرها داعياً بالقبح والهوان عَلَى البراجم ، وجَدْع الآناف والذل والصغار عَلَى بنى يربوع ... وبالخزى والعار عَلَى بنى دارم وتعفير وجوههم بالتراب .. والملحاة والملامة على آل مجاشع .. إنهم أذلاء مطعونون فى أنسابهم ، تفعل نساؤهم فعل الفواجر .. فيقول :

ألاَ قبّحَ اللهُ البراجِمَ كُلَّها وجدَّع يربوعا وعَفّر دارما
وآثَرَ بالملحاةِ آلَ مُجاشع رِقاب إماء يقْتَنِين المَفَارما

ومرة ثالثة أجرى اسم الله فيها عَلَى لسان صاحبته داعية عليه بالثبور وعظائم الأمور والسَّبِي والفضيحة لموقفه منها موقفاً فاحشاً . يقول :

سَمَوْتُ إليها بعدَ ما نامَ أهلُها ... سُمُوّ حَباب الماء حالاً عَلَى حَال

فقالتْ سباكَ الله ، إنّكَ فاضحى ... ألسْتَ ترَى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحوالى

ولأجل أن نفهم مقدار فحش هذا الموقف نذكر أن بعض شراح ديوان امرىء القيس فسروا البيت الأول من هذين البيتين بما يلتئم مع تغيير كلمة « إليها » بكلمة « عليها » .

والمرة الرابعة من تلك المرات أنطق بها ذئباً يحاوره ويدعوه إلى مواساته وعدم افتراسه ، فيجيبه الذئب قائلا له : إنك تدعونى لشىء لم يفعله سبُع قبلى وفى ذلك يقول الشاعر :

فقلتُ لَهُ : يا ذئبُ هلْ لكَ فى أخ ... يُواسى بلا أُثْرَى عليك ولا بخل

فقال : هداكَ اللهُ إنّك إنّما ... دَعَوتَ لِمَا لَمْ يأتِهِ سبُعٌ قَبْلى

ومعنى قوله يواسى أى يعطيك فضل زاده ... وأثْرَى أى إعطاء بمنّ .

وذكرها ثلاث مرات أخريات فى مجال الإخبار .

وقد أتى بأولاها فى مجال المدح لعوير بن شجنة وقومه ، فقد اختارهم الله وفضلهم بالعوير ؛ إذ كانوا أوْفَى الناس ميثاقًا لمن يجاورهم أو يعاهدهم أو يلوذ بهم .. يقول فيهم :

فقَدْ أصْبَحُوا — واللهُ أصْفَاهُمُ بِهِ — ... أبرَّ بميثاقٍ وأوْفَى بجيران

وأتى بالثانية فى مناسبة إحلاله لنفسه شرب الخمر بعد أخذه بثأر أبيه ، وكان قد حرمها عَلَى نفسه بعد مقتل أبيه حتى يأخذ بثأره من قاتليه .. : قال :

فاليومَ أسقَى غيرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثما مِنَ اللهِ ولاَ وَاغِـــل

والمرة الثالثة وهى الأخيرة من هذه المرات قالها فى مجال الحكمة . —

وَٱللّٰهُ أنجحُ ما طَلَبْتَ به　　والبِرّ خَيْرُ حَقيبة الرَّجُل

ولقد ذكر الثعالبى فى كتابه الإعجاز والإيجاز هذا البيت ، وقال : إنه من جوامع الكلم فإن فيه الاستنجاح بالله ، ومدح البر ، والحث عليه .

وقد ذكرنا من قبل بيتاً له أورد فيه لفظ الجلالة « لله » عَلَى معنى التعجب والاسترحام لمحزون ارتحل وفارق أحبابه كارتحال الحجاج عن « المحصب » وفراقهم إياه غداة رميهم الجمار .

فلِلّه عَيْنــا مَنْ رَأى مِنْ تفرّقٍ　　أشَتّ وَأنأى من فِراقِ المحصّبِ

وبذلك تمت عدة الاثنتى عشرة مرة .

وقد أورد كلمة « الرحمن » عَلَى لسانه مرتين فيما جرى بينه وبين عبيد ابن الأبرص من محاورة وإلغاز .

يقول امرؤ القيس :—

تِلكَ السّحاب إذا الرحْمٰن أرْسَلهَا　　رَوّى بها مِن مُحول الأرض أيْباسا

رداً عَلَى سؤال عبيد : —

ما السُّودُ والبيض والأسْماءُ واحدةٌ　　لا يستطيعُ لَهُنّ الناسُ تَمْساسا

ويقول امرؤ القيس :—

تلكَ الموازينُ والرحْمٰن أنْزَلَهَا　　ربّ البَرِيّـةِ بَيْن الناس مِقْياسا

رداً على عبيد فى سؤاله :—

ما الحاكِمُون بِلا سَمْع ولا بَصَرٍ　　ولا لِسان فَصِيح يُعجِبُ النّاسا

ولقد كان امرؤ القيس كبقية قومه لا يجرى إلى النهاية فى الإيمان بما قد يباشره من طقوس أو ما يزاوله من عبادات .. وكان يلتقط بعض صوره وتخيلاته

الشعرية من الحياة العريضة من حوله بكل مقوماتها وفى جميع مجالاتها : مسيحية ، أو يهودية ، أو وثنية ، أو إلحادية . . وكان قبل مقتل أبيه الفتى العابث الخلىّ من هموم الحيـاة وتبعاتها ؛ ينهَب لذاتها ويعبّ من مباهجها ، ويرتوى من غرورها وباطلها .

ولعل ما أسلفناه يقوم دليلا راجحاً ، وبرهاناً متوقداً عَلَى نصرانيته ومدى انطباعاته الدينية أخذاً من قوله وأشعاره . أما من جهة التاريخ فإن المؤرخين ذكروا أن النصرانية كانت منتشرة فى كندة ، ومن الدلالات التاريخية التى لا يمكن أن يتطرق الشك إليها ما ذكره ياقوت فى معجم البلدان عن عمة امرىء القيس هند بنت الحارث المعروفة بهند الكبرى زوجة المنذر بن ماء السماء[1] وأم عمرو ابن هنـد ، ذكر ياقوت عنها أنها ابتنت ديراً يعرف بدير هند الكبرى ، وكتبت فى صدره « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو ، وأمة المسيح وأم عبـده ، وبنت عبيده » وأنت تجد فى شهادة ياقوت نصرانية هنـد ، ونصرانية ولدها عمرو ، ونصرانية أبيها الحارث بن عمرو الكندى طريد أنوشروان والمنذر بن ماء السماء والذى شايع المزدكية مرائيا حيناً من الدهر ، وتلمح فيها ضمنا نصرانية امرىء القيس ، ونصرانية أجداده الذين لا بد أن يكون امرؤ القيس نشأ عَلَى دينهم . ثم إن فاطمة بنت ربيعة أم امرىء القيس من تغلب ، وتغلب كلها على دين النصرانية .

ومن كل هذا نقف على حقيقة دين ذلك الشاعر وهو النصرانيـة . ولئن قلنا بنصرانية امرىء القيس فلا يمكننا أن نقول إنه كان متمسكا بدينه تمسك البررة الأطهار والقسس والرهبان ، بل إنها كانت نصرانية شخص مستهتر لا يبالى كثيراً بالدين وفرائضه والله أعلم .

(١) قدمنا فى غير هذا الموضع أن المنذر هذا زوج هند بنت الحارث الكندى هو بعينه عدو الحارث ومنافسه أيضاً .

امرؤ القيس بعد مقتل أبيه

قدمنا فيما سبق أن حجراً أباه كان ملكا على أسد وغطفان ، وأنه قد عتا عتواً كبيراً فى بنى أسد ، وبغى عليهم وأذاقهم العذاب ، وسامهم الخسف وأنواعاً من الذل والهوان .. فقعدوا يتنابذون به ، ويبغون عليه غائلة الدهر ويبيتون له الشر ، حتى اغتاله أحدهم على حين غفلة ، ولما احتضر أوصى بمتاعه وسلاحه لمن لا يجزع عليه من بنيه ، فكلهم جزع وبكى إلا امرأ القيس ، فقد جاءه النذير بدمون وهى تلك القرية التى ألقى فيها عصاه بعد أن شرده أبوه ونفاه . . أتاه الناعى وهو على شراب مع نديم له يلاعبه النرد ، فقال له قُتل حجر فلم يلتفت إليه ،وأمسك نديمه عن اللعب ، فقال له امرؤ القيس اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ قال له : ما كنت لأفسد عليك دستك ، ثم سأل الرسول عن أمر أبيه ، فقص عليه القصص ، ودفع إليه بالوصية ، عندئذ قال امرؤ القيس : ضيعنى صغيراً ، وحملنى دمه كبيراً ، لاصحو اليوم ، ولا سكر غد ، اليوم خمر ، وغداً أمر .

خَلِيلى مافى اليوْمِ مَصْحى لِشارب   ولا فِى غدٍ إذْ ذاكَ بالْكأسِ نَشْرَبُ

ثم شرب سبعاً ، حتى لعبت بلبه الخمر ، ولما أفاق من غشيته آلى على نفسه ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بطيب ، ولا يلهو بلهو ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه من الجنابة ، حتى يدرك ثأر أبيه ، ولما جن عليه الليل رأى برقاً يلمع ضياؤه ، ويخطف الأبصار سناؤه ، وبات ليلته

أرقا متململا ، كأنما يحمل بين جنبيه أتونا يتقد ، ويتقلب على نار تستعر ، ومما جاشت به شاعريته فى تلك الليلة قوله :

أرقتُ لبرقٍ بليلٍ أهَلْ ... يضىء سَناهُ بأعلى الجبل
أتانى حَديثٌ فكذّبته ... بأمرٍ تزعزع منه القُلل
بقتل بنى أسدٍ ربَّهم ... ألا كلّ شىء سِواه جَلَل[1]
فأينَ ربيعةُ عن ربّها ... وأينَ تميمُ وأينَ الخوَل[2]
ألاَ يحضرون لدَى بابه ... كما يَحْضرون إذا ما استهلّ[3]

وقال أيضاً :

تطاول الليلُ علَينا دمّون
دمّون ! إنا مَعْشر يمانون
وإنا لأهلها محبّون

وقال أيضاً :

أتانى وأصحابى على رأس صَيْلع ... حديثٌ أطارَ النوْم عَنى فأنْعما[4]
فقلتُ لعِجلىٍّ بعيدٍ مآبه ... ابن لى وبيّن لى الحديثَ المجمْجما[5]
فقَال ابيتَ اللّعنَ عمرٌو وكاهلٌ ... أباحا حِمى حُجر فأصْبَح مُسْلما[6]

---

(١) جلل حقير .
(٢) الخول الأتباع .
(٣) استهل يعنى بالعطايا والمنح.
(٤) أنعم أى أبعد .
(٥) المجمجم الذى لاتكاد تتبينه .
(٦) مسلم أي مباح

مضى طور الخلاعة واللهو على فتى كندة وعاجلته الحوادث بهمومها ، ولما يزل غض الشباب ، ناضر العود ، فألقت عليه عبئًا ثقيلا أصلد زنده ، وحملا فادحًا ينوء به ، فشمر عن ساعده مطالبًا بثأر أبيه واسترداد ملكه[1] وأخذ يجمع الجموع ويعد العدة ، فلما بلغ بنى أسد ذلك أوفدوا عليه وفداً من رجالاتهم كهول وشبان ، فيهم عبيد بن الأبرص والمهاجر بن خداش وقبيصة بن نعيم، وكان قبيصة مشهوراً بالبصر فى الأمور والنظر فى العواقب. فلما علم امرؤ القيس بمكانهم ، أمر بإنزالهم ، وتقدم فى إكرامهم والإفضال عليهم ، واحتجب عنهم ثلاثًا ، فقالوا لمن ببابه من رجال كندة مابال الرجل لا يخرج إلينا ، فقال : هو فى شغل بإخراج مافى خزائن حجر من العدة والسلاح ، فقالوا : اللهم غفراً ! إنما قدمنا فى أمر نتناسى به ذكر مافات ، ونستدرك ما فرط ، فليبلغ ذلك عنا ، فخرج عليهم فى قباء وخف وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتم بالسواد إلا فى الترات ، فلما رأوه نهضوا له وبدر قبيصة فقال :

---

(١) فى وصف حال امرىء القيس فى لهوه ، وبيان ماعرض له بعد مقتل أبيه من الطلب لثأره ، قال ابن أحمر الأبيات الآتية :

إن امرأ القيس على عهده ... فى إرث ما كان أبوه حجر
يلهو بهند فوق أنماطها ... وفرتنا يعدو إليها وهر
حتى أتاه فياق طافح ... لا يتقى الزجر ولا ينزجر
لما رأى يوما له هبوة ... مراً عبوسا شره مقمطر
أدى إلى هند تحياتها ... وقال هذا من دواعى دبر
إن الفتى يقتر بعد الغنى ... ويغتنى من بعد ما يفتقر
والحى كالميت ويبقى التقى ... والعيش فنان فحلو ومر

إنك فى المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك فى العرب محتد يحتمل ما حمل عليه ، من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها . وقد كان الذى كان من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزاراً واليمن ، ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارع الذى كان لحجر .

كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث .

إما أن تختار من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتاً ، نقوده إليك بنسعه ، فيذهب مع شفرات حسامك ، فيقال رجل امتحن بهلك عزيز عليه فلم تستل سخيمته إلا بتمكينه من الانتقام .

أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهى ألوف تجاوز الحسبة ، وكان ذلك فداء ترجع به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء .

وإما أن توادعنا ، حتى تضع الحوامل ، فنسدل الأزر ، ونعقد الخمر فوق الرايات .

فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع طرفه إليهم فقال :

قد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم ، وإنى لن أعتاض به ناقة أو جملا ، فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ، تحمل فى القلوب حنقاً ، وفوق الأسنة علقاً .

إذا جالَتْ الخيلُ فى مَأْزق   تُدافع فيه المنايا النفُوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، لمكروه وأذية ، وحرب وبلية ؛ ثم نهضوا وقبيصة يقول متمثلا :

لعلّك أن تَسْتَوْخِم الموتَ إن غَدت   كتائبُنا فى مأزق الموْتِ تُمْطر

فقال امرؤ القيس لا والله لا أستوخمه ، فرويداً ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير . ولقد كان ذكر غير هذا أولى بى ، إذ كنت نازلا بربعى ؛ ومتحرماً بزمامى ؛ ولكنك قلت فأجبت .

فقال قبيصة إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب . قال امرؤ القيس فهو ذاك : وارتحلوا عنه .

ومن الأنباء التى تحدث بها الرواة — فيما ذكره المفضل — أن ثعلبة ابن مالك من بنى عمرو بن معاوية من كندة نازع امرأ القيس على عرش أبيه بعد مقتله ؛ قالوا : إن امرأ القيس وثعلبة أصابا الملك بعد قتل حجر : وإن ثعلبة نفس على امرىء القيس منزلته من نجد ؛ فأقبل يقود الخيل إليه ؛ وهو يريد قتاله ؛ فبلغ ذلك امرأ القيس ؛ فخرج بأصحابه ليلقاه عند الأبرقين ؛ حتى إذا كان قريباً منه ، قال لجنده : اكمنوا فى غيابة (١) من الأرض ؛ فإنى

(١) غيابة من الأرض أى مهبط منها

متقدم على فرسى حتى أبرز للقوم لعلى أغترّهم [1]، فأطعن بعضهم وهم غارّون [2]، فإنهم سيركبون فى أثرى ويعجلون عن أداتهم، فإذا مرّوا بكم متفرقين — وقد انهزمت لهم، وانقطع نظامهم — فاحملوا عليهم حملة رجل واحد، فانكمنوا لهم، وخرجوا وخرج امرؤ القيس على فرسه، ومعه سيفه ورمحه، وقد لبس درعه تحت ثيابه، حتى مرّ على راعى غنم، فسأله عن معسكر ثعلبة بن مالك، فدلّه عليه، فسار نحوه يعدو به جواده، حتى خالط القوم، فلما كان فى طرف من القوم طعن رجلا منهم، ثم انهزم وتراجع، فخرجوا فى أثره، تعدو خيلهم بهم، وهم غير مكتملى السلاح، وليس عليهم كثير أداة؛ حتى حاذوا أصحاب امرىء القيس، وهم غير مدركين المكيدة التى دبرها لهم هو وأصحابه.. فلما حاذوهم وفيهم ثعلبة بن مالك — وهو يومئذ مُعْلِم [3] — حمل عليه جماعة امرىء القيس حملة رجل واحد، وانبرى له امرؤ القيس، وحمل عليه حملة صادقة وطعنه طعنة شديدة فأذراه عن فرسه، وبذلك تم النصر لامرىء القيس على عدوه ثعلبة، فأسره مع كثير من رجاله وأتباعه، ثم قتله امرؤ القيس صبراً، وقال فى ذلك قصيدته التى مطلعها : —

أحارِ بن عمرٍو كأنِّى خَمِر ويَعْدُو عَلَى المرْء ما يَأْتَمِر

أما امرؤ القيس فقد رحل بعد هذا إلى بكر وتغلب؛ وسألهم النصر على بنى أسد. فسيروا معه جيشاً، فزحف به على بنى أسد، وأرسل وراءهم العيون كى يعلم أمرهم ومكان نزولهم، وكانوا نازلين بكنانة، فقال واحد منهم وهو علباء بن الحارث : يابنى أسد إن عيون امرىء القيس بيننا، ولا بد أن يخبروه

---

(١) اغترهم أتاهم غرة (٢) غارون غافلون

(٣) يقال رجل معلم بكسر اللام إذا علم (بتشديد اللام) مكانه فى الحرب بعلامة أعلمها

بنا ، فارحلوا بليل ، ولا تعلموا بنى كنانة بذلك ، ففعلوا ما أشار به عليهم علباء ، ثم أقبل امرؤ القيس بمن معه على كنانة ؛ وهو يحسبهم بنى أسد ، فأوقع بهم ووضع فيهم السلاح ، وقال يالثارات الملك يالثارات الهمام ، فبرزت إليه عجوز من بنى كنانة ، وقالت له : أبيت اللعن لسنا لك بثأر ، نحن من كنانة ،فدونك ثأرك فاطلبهم فإن القوم قد ساروا بالأمس ، فتبع امرؤ القيس بنى أسد ابتغاء اللحاق بهم ، ففاتوه فى تلك الليلة ولم يستطع إدراكهم فحزن لذلك وقال :

أَلَا يالَـهف هِـنْـد إثر قَوْمٍ هُمُ كانوا الشّـفـاء فـلم يصـابوا
وقاهم جـدّهم ببـنى أبيهم وبالأشْـقَين ما كان العقـاب
وأفلـتهنّ عُلبـاء جَريضاً ولو أدْرَكْنه صَفِر الوِطاب[1]

وقال أيضاً :

يا لَهْفَ هِـنْـد إذْ خَطئن كاهلا
القـاتلـين الملك الحُـلاحـلا[2]
تالله لا يذهب شـيْـخى باطـلا[3]
حتَّى أبيـدَ مالـكا وكاهِـلا
خـيرَ معـدٍّ حـسَـبا ونائـلا[4]
وخـيرَهم قـدْ علِموا شمـائـلا

(١) الجريض الغاص بريقه .
(٢) الحلاحل السيد الشريف .
(٣) يعنى بشيخه أباه
(٤) يقصد أن بنى أسد الذين هم خير معد حسبا ونسبا ونائلاهم كفاء دم أبيه حجر

نحْن جَلَبنا القرّح القوافلا[1]

يَحْمِلْننَا والأسَل النواهلا

وحيّ صعب والوَشيج الذابلا[2]

مستفرِمات بالحصَى جَوافلا[3]

يَسْتشْرفُ الأواخرَ الأوائلا

ثم أدركهم ظهراً وقد تقطعت خيله وبلغ به الظمأ وبمن معه كل مبلغ ، وبنو أسد حامون على ماء وراحة ، فقاتلهم قتالا شديداً حتى كثر القتلى والجرحى ، وأصيب من الفريقين عدد كبير ، ثم حجز الليل بينهم ، فكفوا عن المقاتلة ، وفر بنو أسد من وجه امرىء القيس ، فلما أسفر الصبح أراد أن يتبعهم ، فأبت عليه ذلك بكر وتغلب ، وقالوا له قد أصبت ثأرك ، فقال والله ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أحداً ، قالوا بلى قد أصبت ولكنك رجل مشئوم ، وأسفوا أشد الأسف على ما كان منهم من مقاتلة كنانة وهم لا ذنب لهم ولا جريرة ، ثم انفضوا من حول امرىء القيس . فسار من فوره إلى اليمن ، فاستنصر ببنى أزد شنوءة ، فأبوا أن ينصروه ، وقالوا : بنو أسد إخواننا وجيراننا ، فنزل بقيل يدعى مرثد الخير بن ذى جدن الحميرى ، وكانت بينهما قرابة ، فاستنصر به واستعداه على بنى أسد ، فجهز له خمسمائة من حِمْيَر ، ومات مرثد الخير قبل رحيل

---

(١) القرح الخيل ، والقوافل الضامرة

(٢) حى صعب من أحياء بنى أسد ولكنهم كانوا فى جانب امرىء القيس ، والوشيج الرماح

(٣) مستفرمات بالحصى يريد أن الخيل تضرب الحصى بسنابكها فيتطاير من خلفها حتى يبلغ فروجها وهى مكان الاستفرام ، والجوافل السراع

امرىء القيس بهم ، وقام بالمملكة بعده رجل حميرى يقال له قرمل بن الحميم وكانت أمه أمة سوداء فماطل امرأ القيس وطوّل عليه حتى هم بالانصراف وقال : —

وإذْ نَحْنُ نَدعو مَرْثَد الخير ربّنا   وإذ نحن لا نُدْعى عبيداً لِقَرْمَل

وأخيراً أنفذ له قرمل ذلك الجيش الذى كان على وشك أن يمده به مرثد الخير قبل موته ، وتبعه أيضاً شذاذ من العرب ، واستأجر من بعض القبائل رجالا ، ثم سار بهم جميعاً إلى بنى أسد ، ومر فى مسيره ببلدة تبالة وفيها صنم تعظمه العرب يقال له ذو الخلصة ، فاستقسم عنده بقداحه وهى ثلاثة الآمر والناهى والمتربص ، فأجالها ، فخرج له الناهى ، ثم أجالها فخرج الناهى ، ثم أجالها مرة ثالثة فخرج الناهى أيضاً فجمع امرؤ القيس القداح وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال له : « مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتنى » ثم مضى على سبيله حتى ظفر ببنى أسد فقال مفتخراً .

يا دارَ ماوِيّة بالحَائِلِ   فالسَّهْب فالخَبْتَيْن من عاقِلِ
صُمَّ صَداها وعَفَا رَسْمها   واستعْجَمَتْ عن مَنْطِق السائل
قولا لِدودان عَبِيدِ العصا   ما غرّكم بالأسَدِ الباسل
قد قرّت العينان من مالك   ومن بَنِى عمرٍو ومِن كاهل
ومنْ بَنِى غُنْم بن دُودان إذْ   نقذِفُ أعلاهم على السّافل
نطعنهم سَلْكى ومَخْلوجَةً   كرّكَ لأمَيْن على نابل(1)

---

(1) سلكى مستقيمة ، ومخلوجة معوجة ، وكرك لأمين أى ردك سهمين .

إذْ هُنّ أقساطٌ كرجْلِ الدّبا أو كقطا كاظِمة النّاهل[1]
حتى تركْناهم لدَى معرَكٍ أرْجُلُهم كالخَشَب الشّائل[2]
حلّتْ لِىَ الخمرُ وكنت امْرَأً عنْ شُرْبها فى شغُل شاغل
فاليومَ أُسقَى غيرَ مُستحقِب إثمًا مِنَ اللهِ ولاَ وَاغل[3]

فأنكر عليه ذلك عبيد بن الأبرص ، ورد عليه فى عدة قصائد منها القصيدة التى يقول فيها :

ياذا المخوِّفُنا بقتلِ أبيــــه إذْلالا وحَيْنا
أزعمْتَ أنّك قد قتلتَ سَراتنا كذبًا ومَيْنا
هلاّ على حُجر بنِ أمّ قَطام تبكِى لا علينا
إنّا إذا عَضّ الثِّقا فُ برأْس صَعْدتِنا لوَيْنا
نحمِى حَقيقتنا وبعـ ضُ القوم يَسقُط بينَ بينا
هلاّ سألتَ جموعَ كنـ دة يومَ ولّوا أيْنَ أينا
أيام نضــرِبُ هامَهم ببَواتر حتّى انحنينـــا
وجموعَ غسّـــان الملو كَ أتيْنَهم وقد انطوَيْنا
لُحقــــا أياطِلُهنّ قدْ عالجْنَ أسْــفاراً وأيْنا
نحنُ الأُولَى فاجمَعْ جمو عك ثم وجّههم إلينا

---

(١) أقساط جماعات ، ورجل الدبا فرق الجراد ، والناهل النازل على المـاء .
(٢) الخشب الشائل الذى قد ألقى بعضه على بعض وارتفع إلى فوق .
(٣) مستحقب أى حامل ، والواغل الذى يدخل على القوم وقت شربهم بلا إذن .

واعلمْ بأن جِيـــادنا آلَيْن لا يَقْضِين دَيْنا
ولقد أبَحْنــا ما حَمِيْت ولا مُبيح لمـــا حَمينا
هذا ولو قدرَت عليـ ـك رماحُ قومى ما انتهينا
حتى تنوشَــك نَوْشَــةٌ عاداتِهن إذا انتَوَيْنــا
نُغلى السِّــباء بكلِّ عا تِقــة شَمول ما صحوْنا
ونُهين من لذّاتنــا عُظْم التلادِ إذا انتشَيْنا
لا يبلغُ البـــانى ولو رَفَع الدَّعائم ما بنَيْنا
كَمْ من رَئيس قد قتلْـ ناه وضَيْم قدْ أبينــا
ولربّ ســـيّد معْشرٍ ضَخْم الدَّسِيعة قد رَمَيْنا
عِقْبـــانَه بظلال عُقْـ بان تتمّ ما نَوَيْنـــا
حتى تركْنـــا شِلوه جزر السباع وقدْ مَضَينا
وأوانسٍ مثــلِ الدّمى حورِ العيون قد استَبينا
إنّا لعمرُك ما يضـــا مُ حَليفنا أبداً لدينـــا

وإذا وازنا بين عبيد بن الأبرص وامرىء القيس فى هذا الشعر نجد أن عبيداً أشد أسراً وأعظم روعة ، حتى لكأنما قلب به الأرض ، أوطبّق عليه السماء .

ولما أسرف امرؤ القيس فى قتال بنى أسد فزعوا إلى المنذر كى ينصرهم عليه ويكفيهم شره ويوقفه عند حده ، فأهدر المنذر دم امرىء القيس وطلبه من القبائل ، وأعانه على ذلك كسرى أنو شروان ملك الفرس .

فانفضت حمير وجموع امرىء القيس من حوله ، فلجأ فى عصبة من قومه إلى الحارث بن شهاب اليربوعى ومعه أدراعه الخمسة الفضفاضة والضافية والمحصنة

والخربق وأم الذيول التى كن لبنى آكل المرار يتوارثونها ملكا عن ملك ، فما لبثوا غير قليل عند الحارث بن شهاب حتى أرسل إليه المنذر مائة من أصحابه يتهدده ويتوعده بالحرب إن لم يسلم إليه بنى آكل المرار . والحارث اليربوعى لا طاقة له ولا قبل بهذا الملك الجبار الواسع السلطان ، فأسلمهم إليه صاغراً ، ولكن امرأ القيس تمكن من النجاة إذ فر هارباً ومعه ابن عم له يسمى يزيد ابن معاوية بن الحارث ، ومعه أيضاً ابنته هند وأدراعه وسلاحه وماله ، ونزل على ابن عمته عمرو بن هند بنت الحارث بن عمرو الكندى ، وابن هند هذا هو أيضاً ابن المنذر مطارد امرىء القيس ، وكان نائباً عن أبيه ببقة ، فمكث امرؤ القيس عنده حيناً من الزمن مستخفياً ولا يعلم بذلك أبوه المنذر ، حتى أحس عمرو أن أباه قد علم باختباء ابن خاله عنده فأخبر امرأ القيس بذلك وأنذره بطش والده ، فتحول عنه إلى هانىء بن مسعود (وكان هانىء هذا أفوه شاخص الأسنان) فأبى أن يجيره ، فسار إلى إياد ونزل على سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلته وعظيم قومه ، وكانت بينه وبين امرىء القيس صلة ورابطة فإن أم سعد بن الضباب كانت تحت حجر والد امرىء القيس فطلقها وهى حامل وهو لا يعرف هذا ، فتزوجها الضباب فولدت سعداً على فراشه فلحق نسبه به . لتلك الوشيجة التى تحدث بها الرواة والنسابون والتى يمت بها امرؤ القيس إلى سعد أجاره الأخير وأكرم مثواه ، فقال فى ذلك شعراً يمدح فيه سعداً ويهجو هانىء بن مسعود .

لعمرُك ما سَعْــــد بخُلة آثم ولا نأنأ يومَ الحفاظ ولا حَصِر(١)

(١) الخلة الصداقة والمودة ، والنأنأ الضعيف المقصر فى الأمور ، ويوم الحفاظ يوم الجد والكريهة ، والحصر ضيق الصدر عن الاضطلاع بالعظائم

لعمري لقومٌ قد نرى فى دِيارهم	مَرابِطَ للأمْهار والعَكَرَ الدَّثر (١)
أحبُّ إلينا من أُناس بقُنَّة	يرُوح على آثار شائِهِمُ النمر (٢)
يُفاكِهنا سَعْدٌ ويغدو لجمعنا	بمثنى الزِّقاق المترعات وبالجُزُر (٣)
لعمرى لسعدُ بنُ الضَّباب إذا غدا	أحبّ إلينا منك يا فَرَس حَمِر (٤)
وتعرفُ فيه من أبيه شمائلا	ومنْ خاله ومن يزيدَ ومن حُجُر
سماحةَ ذا وبرَّ ذا ووفاء ذا	ونائلَ ذا إذا صَحا وإذا سَكر

وقال أيضاً يمدح سعداً :

منعْت الليث من أكل بن حُجر	وكادَ الليثُ يودى بابن حُجر
منعْتَ فأنت ذُو مَنٍّ ونُعْمَى	علىَّ ابنَ الضباب بحيثُ تَدرى
سأشكُرُكَ الذى دافعْت عنِّى	وما يَجْزِيك منِّى غيرُ شكرى
فما جارٌ بأوثق منك جارا	ونصْرُكَ للفريدِ أعزُّ نصْر

ثم تحول امرؤ القيس عن سعد بن الضباب إلى المعلى بن تيم الطائى ، وأقام عنده حميد المثوى عزيزاً محترماً مكرماً ، فقال يمدحه :

---

(١) العكر المال الكثير ولا يطلق إلا على الإبل وقال الخليل العكر مازاد على خمسمائة من الإبل . والدثر الكثير .

(٢) القنة رأس الجبل . وشائهم غنمهم .

(٣) يفاكهنا يمازحنا ويضاحكنا . ويغدو يبكر . مثنى الزقاق أى يأتينا بزقاق الخمر مثنى مثنى . والمترعات الممتلآت . والجزر ما ينحر من البهائم للأكل . قال الوزير أبو بكر من تمام القرى عندهم السمر وطلاقة الوجه والمحادثة معهم فاستوفى فى هذا البيت جميع مسرات القرى

(٤) يافرس أو فافرس حمر أى يامنتن الفم فإن الفرس إذا حمر نتن فوه والفرس الحمر هو الذى أكل شعيراً كثيراً حتى سنق وأتخم .

كأنّي إذْ نَزَلت على المعَلّى نزلتُ عَلَى البَوازِخ من شمَام[1]

فما مَلِكُ العراق عَلَى المُعَلى بمقتدرٍ ولا ملكُ الشآم[2]

أصدّ نشاص ذى القرْنين حتى توَلّى عارض المَلِك الهُمام[3]

أقرّ حشا امرىء القيس بن حُجر بنو تيْم مصابيحُ الظّلام[4]

ثم نزل بعد ذلك ببنى نبهان ، فأغار عَلَى إبله قوم من بنى جديلة ، فيهم رجل يقال له باعث بن حويص ، ولما عرف امرؤ القيس نبأ تلك الغارة فزع إلى جاره خالد بن سدوس وشكى إليه أمره ، وكان لامرىء القيس رواحل مقيدة أمام البيوت خوفاً من أن يدهمه أمر فيسبق عليهن، فقال له خالد أعطنى رواحلك ألحق بها القوم فأردّ إبلك ، فأعطاه إياها ، فركبها خالد ونفر معه ، وساروا حتى لحقوا ببنى جديلة ، فقال لهم خالد يا بنى جديلة أغرتم عَلَى جارى . قالوا ما هو لك بجار ، قال بلى إنه جارى ووالله ما هذه الإبل التى معكم إلا كالرواحل التى تحتنا . قالوا أكذاك ؟ ! قال نعم ، فرجعوا إليه وأنزلوه ومن معه عن تلك الرواحل وذهبوا بها أيضاً ، فلما علم امرؤ القيس بهذا قال :

---

(١) البوازخ من شمام هى جبال شمام الشواهق .

(٢) المراد بملك العراق المنذر بن ماء السماء والمراد بملك الشام الحارث بن أبى شمر الغسانى .

(٣) أصد أى رد ، والنشاص السحاب المرتفع ، ذو القرنين قال الوزير أبو بكر هو المنذر الأكبر سمى ذا القرنين لضفيرتين كانتا له ، والعارض السحاب المعترض فى السماء والمراد بقوله تولى عارض الملك الهمام أى انهزم جيش المنذر .

(٤) أقر سكن وطامن ، وبنو تيم سموا مصابيح الظلام وغلب عليهم هذا اللقب الحسن منذ لقبهم به امرؤ القيس فى بيته هذا .

دعْ عنكَ نهباً صيحَ فى حَجَراته ولكن حديثاً ما حديثُ الرّواحل (١)
كأنّ دِثارا حَلّقت بلَبُونه عُقَابُ تَنوفَى لا عُقَابُ القَواعل (٢)
تلعّب باعِثٌ بجيران خالد وأوْدَى عِصامٌ فى الخُطُوب الأوائل (٣)
وأعجَبنى مشْىُ الحُزقّة خالد كمشْى أتانٍ حُلِّئت بالمنَاهل (٤)
أبتْ أجأٌ أن تُسلم العامَ جارها فمنْ شاء فلينهضْ لها من مُقاتل (٥)
تَبيتُ لَبونى بالقُرَيّة أُمّنًا وأسْرحُها غِبًّا بأكناف حائل (٦)
بنو ثُعَل جيرانُها وحُماتُها وتُمنع من رجال سعد ونائل (٧)
تُلاعب أولادُ الوعول رباعَها دُوَيْن السماء فى رءوس المجادل (٨)

---

(١) النهب الغنيمة . والحجرات النواحى . والرواحل النوق .

(٢) دثار راعى إبل امرىء القيس . واللبون النوق . وتنوفى ثنية مشرفة والمراد بقوله عقاب تنوفى أى عقاب ساقطة محلقة من ثنية مشرفة ذاهبة فى الهواء . القواعل جبال صغار .

(٣) باعث هو ابن حويص الجديلى الذى أغار برجاله على إبل امرىء القيس . أودى هلك . وعصام راع آخر لإبل امرىء القيس قتل عند الغارة على إبله ..

(٤) الحزقة القصير الضخم البطن الضيق الباع . والأتان الأنثى من الحمر . وحلئت منعت أن ترد الماء مرة بعد مرة . والمناهل موارد الماء .

(٥) أجأ جبل فى بلاد طيىء والمراد أهل أجأ .

(٦) القرية مكان بجبل أجأ . وأسرحها أرسلها ترعى نهاراً . وغبا أى ترسل يوماً وتترك يوماً . وحائل جبل وأكنافه جوانبه .

(٧) سعد ونائل من بنى نبهان .

(٨) الوعول التيوس الجبلية . والرباع الفصلان . والمجادل الجبال .

مُكلّلة حمراء ذات أسرّة لها حُبك كأنّها من حبائل[1]

فرق عليه بنو نبهان فرقا من معزى يحلبها فقال :

إذا مالم تجد إبلاً فمعزى كأن قرون جِلّتها العِصِيّ[2]
إذا ما قام حالبُها أرنّت كأنّ القومَ أُصبحهم نعيّ[3]
تروح كأنها مما أصابت مُعلّقةٌ بأحقيها الدُّلى[4]
فتملأُ بيتنا إقطا وسمناً وحسبك من غِنًى شبعٌ ورِيّ[5]

ثم ارتحل إلى عامر بن جوين الطائى[6] واتخذ عنده إبلا ، وعامر يومئذ

---

(١) مكللة حمراء يعنى أن رءوس الجبال كللتها السحب . والأسرة الطرائق والخطوط . والحبك الطرائق أيضاً . والحبائل ضرب من البرود ملونة مخططة .

(٢) الجلة المسن الكبير .

(٣) أرنت صاحت .

(٤) تروح تعود إلى حظائرها فى المساء . بإحقيها بصيغة المثنى أو بصيغة جمع التكسير أى ما بين فخذيها أو أفخاذها . والدلى جمع دلو والمراد بها الحوالب الممتلئة باللبن .

(٥) الأقط ضرب من الجبن يتخذ من اللبن المخيض .

(٦) عامر بن جوين الطائى شاعر جاهلى ، كان فاتكاً خليعاً قوى الشوكة عزيز الجانب ، وله مع ملوك العرب أحداث ؛ من ذلك موقفه مع المنذر بن النعمان الأكبر ، حين وفد عليه بعد انقضاء ملك كندة ، وكان عامر قد أجار أمرأ القيس وكان المنذر ضغناً عليه ، فلما دخل عليه قال له : لساء مثوى ثويته ، ولو كنت كريماً لأثويته مكرماً موقراً ، ولجانبته مسلما مسالماً . فرد عليه قائلا : أبيت اللعن ، لقد علمت العرب أنى أكرمها جواراً وأمنعها داراً ، ولقد أقام وافداً وارتحل شاكراً يعنى أمرأ القيس . إلى آخر ما دار بينهما من حوار على نحو ما تحدث به الأخباريون ، ثم خرج من عنده وهو يرتجل : —

أحد الحلماء الفتاك وقد تبرأ قومه من جرائره ؛ فمكث امرؤ القيس عنده زمناً حتى هم عامر أن يغلبه على ماله وأهله ، وأحس بذلك امرؤ القيس من شعر كان عامر ينشده وهو :

فكم بالصحيح من هِجان مؤبّلة تسيرُ صحاحا ذاتِ قيْد ومُرسله
أردت بها فتكا فلم أرتمض له ونهنهت نفسي بعدما كدت أفعله

وكان عامر ينشد الشعر أيضا يعرض بهند ابنة امرىء القيس ، فلما أحس شاعرنا بكل هذا وبدا له الغدر من هذا الفاتك الخليع الذى لا يراعى إلاّ ولا ذمة رحل على حين غفلة منه إلى رجل من بنى ثعل يقال له حارثة ابن مر ، فأجاره وأكرم وفادته ، ثم وقعت الحرب بين عامر الطائى وحارثة الثعلى بسبب امرىء القيس ، فلما رأى أن ذلك من أجله تحول إلى عامر ابن جابر الفزارى ، وطلب منه أن يجيره حتى يرى ذات غيبة ، فقال له الفزارى يابن حجر إنى أراك فى خلل من قومك ، وإنى أنفس بمثلك من أهل الشرف ، وقد كدت بالأمس تؤكل فى ديار طيىء ، وأهل البادية أهل وبر لا أهل حصون تمنعهم ، وبينك وبين اليمن ذؤبان من قيس ، أفلا أدلك على بلد تلجأ

= تعلم أبيت اللعن أن قناتنا تزيد على غمز الثقاف تصعبا
أتوعدنا بالحرب أمك هابل رويدك برقاً لا أبالك خلبا
إذا خطرت دونى جديلة بالقنا وحامت رجال الغوث دونى تحدبا
أبيت التى تهوى وأعطيتك التى تسوق إليك الموت أخرج أهلبا
فإن شئت أن تزدارنا فات تعترف رجالا يزيلون الحديد المعقربا
وإنك لو أبصرتهم فى مجالهم رأيت لهم جمعاً كثيفاً وكوكبا
وذكرك العيش الرخى جلادهم وملهى بأكناف السدير ومشربا
فأغض على غيظ ولا ترم التى تحكم فيك الزاعبى المحدبا

إليه ؟ فقد جئت قيصر وجئت النعمان فلم أر لضيف نازل ولا لمجتهد مثله ولا مثل صاحبه . فقال امرؤ القيس من هو وأين منزله ؟ فأجابه إنه السموءل بتيماء ، وسوف أضرب لك مثله ، هو يمنع ضعفك حتى ترى ذات غيبك ، وهو فى حصن حصين وحسب كبير . فقال له امرؤ القيس وكيف لى به ؟ ! قال عامر أوصلك إلى من يوصلك إليه ، ثم صحبه إلى رجل من بنى فزارة أيضاً ، يقال له الربيع بن ضبع الفزارى[1] ممن يأتى السموءل فيحمله ويعطيه . فلما صار امرؤ القيس عند الربيع قال له الأخير إن السموءل يعجبه الشعر ، فتعال نتناشد له أشعاراً فقال ، امرؤ القيس قل حتى أقول ، فقال الربيع :

قلْ للمنيّة أىَّ حــــين نلْتقى ... بفناء بيْتِك فى الحضيض المزْلِقِ

وهى طويلة يقول فيها :

ولقد أتيْتُ بنى المِصاص مُفاخراً ... وإلى السّمَوْءل زرْتُه بالأبلَق

فأتَيْت أفضَل من تحمّل حاجةً ... إن جِئْته فى غارِمٍ أو مُرْهق

عرفَتْ له الأقوامُ كلَّ فضيلة ... وحوَى المكارمَ سابقاً لمْ يُسبق

فقال امرؤ القيس :

طرقَتْك هندُ بعدَ طول تجنّب ... وهْنا ولم تَكُ قبل ذلك تَطْرق

قال صاحب الأغانى « وهى قصيدة طويلة وأظنها منحولة لأنها لا تشا كل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دوّنها فى ديوانه أحد من الثقاة ، وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموءل » .

---

(١) كان الربيع الفزارى شاعراً فحلا ، وقد عمر طويلا ، زعم أبوحاتم السجستانى أنه عاش ثلثمائة وأربعين سنة ، وأدرك الإسلام ولم يسلم .

ثم وفد الفزارى وركبه بامرىء القيس على السموءل ، وبينما هم سائرون فى الطريق إذْ ببقرة وحشية صريعة بسهم تعالج الموت ، فلما رأوْها هموا بها فذبحوها ، وإذا بقوم قناصين من بنى ثعل ، فقال لهم الفزارى وأصحابه من أنتم ؟ فانتسبوا له ، فإذا هم من جيران السموءل ، فانصرفوا جميعاً إليه ، وقال امرؤ القيس يصف أولئك الصيادين .

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَل ... مُتلِج كَفيْه فى قُتَرِه[1]

عارضٍ زَوْراء من نَشَم ... غيرَ باناةٍ على وَتَره[2]

قد أتته الوحشُ واردةً ... فتَنحّى النزْعَ فى يَسَره[3]

فرماها فى فَرائصها ... بإزاء الحوْضِ أو عُقُره[4]

برَهيشٍ من كِنانته ... كتَلَظّى الجمرِ فى شَرَره[5]

---

(١) بنو ثعل قبيلة من طيء كانوا مشهورين بالحذق فى الرماية . ومتلج مدخل . والقتر جمع قترة وهو بيت الصائد الذى يكمن فيه للوحش لئلا تراه فتنفر منه قال الوزير أبو بكر ويروى مخرج كفيه من شتره والشتر جمع شتيرة يريد الكم ومعناه على هذه الرواية أنه يخرج كفيه من كميه ليتناول القوس ويرمى بها .

(٢) الزوراء يريد بها القوس المنحنية . والنشم شجر تعمل منه القسى . غير باناة أى غير منحن على وتره قال أبو الخطاب يقال رجل باناة وهو الذى ينحنى صلبه إذا رمى فيذهب سهمه على وجه الأرض وذلك عيب . ويقال بانات بالتاء المفتوحة أيضا .

(٣) فتنحى أى فمال وقصد النزع وهو الرمى . ويسره قبالته .

(٤) فرائصها أى جنبها الذى به القلب. وإزاء الحوض مصب الماء فيه. والعقر مكان الشاربة .

(٥) الرهيش سهم ضامر. والكنانة جعبة السهام . والتلظى التوقد والتوهج.

راشَهُ من ريشِ ناهِضة ثم أمْهاه على حَجَره(١)

فهوَ لا تَنْمِي رمِيّته ماله لا عُدّ من نَفَره(٢)

مُطْعَم للصّيد ليسَ لهُ غيرَها كَسْبٌ على كِبَرِه(٣)

وخليــــلٍ قد أُفارِقه ثم لا أبكي على أثَرِه(٤)

وابنُ عم قد تركت له صفوَ ماءِ الحوضِ عن كَدَرِه(٥)

وابنُ عم قد فجعْت به مثلُ ضوء البدر فى غُرَرِه

وحديثُ الركْب يومَ هُنا وحديثٌ ما عَلَى قِصَرِه(٦)

(١) راشه أى ركب فى السهم الريش . والناهضة الصقرة أو الصقر والتاء للمبالغة كما يقول الوزير أبو بكر . وأمهاه أى سقاه الماء وذلك عند أبى عبيدة وعند غيره أمهاه أرقه .

(٢) لا تنمى رميته أى لا تذهب عن مكانها يعنى أن رميته صائبة . وقوله ماله لا عد من نفره دعا عليه بالموت ولم يرد حقيقته إذا عد أهله لم يعد منهم بل هو على جهة التعجب كما تقول قاتلك الله .

(٣) المطعم المرزوق فى الصيد الذى لا يكاد يخطئ إذا رمى ويقال قوس مطعمة إذا كان سهمها لا يخطئ .

(٤) يعنى وصف نفسه بالجلادة والصبر وقلة الجزع عندما يجزع الناس عنده من فرقة الخلان وإن كانت أعظم مصائب الزمان .

(٥) يقصد أنه كريم العشرة حتى لو أن ابن عمه أتى ما يستحق عليه العقوبة قابله بالصفح والإحسان وجعل له بدل الكدر الذى كان يستوجبه منه صفواً من الماء الذى كان لا يستحقه .

(٦) يوم هنا فيه أقوال قال الوزير أبو بكر يريد يوم الكلاب الأول وقيل هو يوم معروف وقيل هو يوم لهو ولعب وقيل هو اسم موضع وهو منون . وما فى قوله : وحديث ما زائدة وتدل على التعجب والتعظيم .

ولما قدم القوم على السموءل أكرم مثواهم وأحسن لقاءهم وعرف لهم مقدارهم ، ثم إن امرأ القيس طلب منه أن يكتب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام ليوصله إلى قيصر ، ففعل السموءل ذلك . ومضى امرؤ القيس إلى الحارس بعد أن أودع عند السموءل ماله وأدراعه وأهله وابنته وأقام معها يزيد ابن عمه معاوية ، ثم سار من عند الحارس إلى قيصر ، وكان معه فى تلك الرحلة جابر بن حنىّ وعمرو بن قميئة[1] وعمرو هذا هو الذى يقول فيه امرؤ القيس :

أرَى أمّ عمـرٍو دمعُها قدْ تحَدّرا بكاءً عَلَى عمـرٍو وما كانَ أصبرا

وفيه يقول أيضاً :

تَقطعُ أَسبابُ اللُّبـانَة والهوَى عشيّةَ جاوَزْنا حَمـاةً وشَـيْزرا
بكَى صاحبِى لمّا رأى الدّرْب دُونه وأيْقَنَ أنّا لا حقـانِ بقيْصرا
فقلتُ له لا تَبْـك عينُك إنّما نحاوِل مُلـكا أو نموتَ فنعـذرا

أما جابر فهو الذى يقول فيه امرؤ القيس :

فإمّا ترَيْنى فى رِحالة جابر على حَرَج كالقَرّ تخفِق أكفانى[2]

(١) هو عمرو بن قميئة بن سعد الضبعى البكرى أحد بنى قيس بن ثعلبة ، شاعر فحل ، كان فى حداثته شاباً وسيما ، فارع القامة ، سمهرى العود ، ذاعفة ، عاش زمناً قبل مولد امرىء القيس ، وقد كان فى بطانة حجر ومن خدمه ، ولما رحل أمرؤ القيس إلى القسطنطينية صحبه معه فمات فى طريقهما إليها ، فسمته العرب : عمرو الضائع ، لأنه مات غريباً فى غير مأرب ولا مطلب . وكانت وفاته حوالى سنة ٥٦٠ ميلادية .

(٢) الرحالة هنا خشبات صنعها له جابر بن حنى من تغلب . والحرج سرير يحمل عليه الموتى . والقر مركب من مراكب النساء . وأكفانى يريد ثيابى .

فيارُبَّ مكروبٍ كررْتُ وراءه وعانٍ فككتُ الغلّ عنه ففدّانى[1]

ولما وصل امرؤ القيس إلى قيصر أحسن لقاءه وأكرم ضيافته ، ثم ضم إليه جيشاً كثيفاً فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن بنى أسد قوم لا تنام لهم عين ، ولا يغفلون عن الدس إلى عدوهم والكيد له ، فقد أرسلوا خلفه الطماح الذي وشى به لدى قيصر — وكان امرؤ القيس قد قتل أخاه — فقال له إن امرأ القيس غوىّ فاجر ، وإنه لما فصل بالجيش من عندك ذكر أنه يراسل ابنتك ، وهو قائل فى ذلك أشعارًا يشهرها بها فى العرب فيفضحها ويفضحك . فأثر ذلك القول فى نفس قيصر « يوستينيانُس » ؛ حتى فكر فى خذلان امرىء القيس والخلاص منه .

وقيل أيضاً : إن الطماح اتصل ببعض أصحاب قيصر وحاشيته ، وألقى إليهم بما أوغل صدورهم على امرىء القيس ؛ فلما فصل بالجنود قالوا لقيصر : إن العرب قوم غدر ، ولا نأمن أن يظفر بما يريد ، ثم يغزوك ! ! فأسرها قيصر فى نفسه ، وعزم على خذلانه والتخلص منه .

ويقول بعض المؤرخين والرواة إن قيصر بعث إلى امرىء القيس بحلة من وشى الذهب مسمومة وكتب يقول له ما ترجمته « إنى أرسلت إليك حلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إلىّ بخبرك من منزل إلى منزل » فوصل الرسول إليه على مشارف أنقرة وأعطاه الحلة ، فاشتد سروره بها ولبسها ، وكان اليوم صائفاً ، فأسرع السم فى جسده وتساقط جلده ، وتقرح لحمه ، فسمى ذا القروح لذلك ، وقد قال فى ذلك :

---

(١) المكروب من أحاق به الكرب . والعانى الأسير . والغل الوثاق فى العنق . ففدانى أي قال لي فداك نفسي وأبي وأمي وطارفى وتالدي .

لقد طمح الطماح من نحو أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا
فبدلت قرحاً دامياً بعد صحة فيالك من نعمى تحولن أبؤسا
فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

وقد كان جابر بن حنى التغلبى يحمله على رحالة أى محفة وهو مريض فى أثناء الطريق إلى أنقرة .

هذا ما قاله بعض المؤرخين فى سبب وفاة امرىء القيس ، ونحن لانعرف حلة مسمومة كهذه الحلة لها هذا التأثير العجيب ، ولذلك فهى فى نظرى أشبه بالخيال منها بالقول اليقين ، بل إنها من خرافات التاريخ ، وليس فى شعر امرئ القيس ما يدل على أن موته كان بسبب حلة مسمومة ، وكل ما دل عليه شعره أنه قد تقرح بدنه ، وأن الطماح وشى به إلى قيصر لاغير .

والرأى عندى أن امرأ القيس مات بالجدرى — كما ذكر ذلك نونوز المؤرخ الرومانى — وكانت وفاة ذلك الشاعر فى سنة ٥٦٥ ميلادية بأنقرة ، ويروى أنه قال عند احتضاره :

رُبَّ خُطبة مُسْحَنْفِرَةْ (١)
وطعنةٍ مُثْعَنْجِرة (٢)
وجَفْنةٍ مُتَحَيِّرة (٣)
حلّت بأرضِ أنْقرة

(١) مسحنفرة أى لم يتوقف فيها صاحبها .
(٢) مثعنجرة أى سائل دمها .
(٣) جفنة متحيرة أى ممتلئة دسما وطعاماً .

ورأى قبر امرأة من بنات الملوك ماتت هناك فدفنت فى سفح جبل يقال له عسيب ، فسأل عنها وأخبر بقصتها ، فقال :

أجارتَنا إنَّ المزارَ قريبُ   وإنى مُقيم ما أقامَ عَسيب
أجارتنا إنّا غَرِيبان هَهُنا   وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسيب
فإنْ تَصلينا فالقرابةُ بيننا   وإنْ تَهْجُرينا فالغريبُ غَريب

وقال متبرماً مما أصابه :

ولو أنّ نوماً يُشترى لاشْتَريْته   قليلاً كتغميض القَطا حيثُ عَرّسا

ثم مات ، فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك .

وقد جاء ذكره فى تواريخ الروم ، مثل : نونوز وبركوب وغيرهما ، وهم يسمونه قيساً ، وذكروا أيضاً أنه قبل قدومه على قيصر « بوستينيانس » كان قد سيّر إليه وفدا فيه ابنه معاوية ليبقى لديه رهينة . . ولعل هذا الوفد أرسله امرؤ القيس لما كان عند بنى طيء ، وطال مكثه لديهم . وقال « نونوز » إن قيصر قلده إمرة فلسطين ، وأنه لم يسع فى إصلاح أمره وإعادة ملكه ، فضجر امرؤ القيس وأفل راجعاً إلى بلده ، وكانت وفاته فى طريق عودته .

وجاء فى شعراء النصرانية — نقلا عن كتاب قديم مخطوط — أن قيصر لما بلغه وفاة امرىء القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه ، ففعلوا . وكان تمثال امرىء القيس هناك إلى أيام المأمون ، وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة .

هذا ما انتهت إليه حياة امرىء القيس مع شيء مما اقتضته شئونها من شعره .

آثر الحوادث

فى

شعر امرىء القيس

إن حياة امرئ القيس على ما رأيت كانت طورين ، طور قبل مقتل أبيه وطور بعد مقتله ، وهو فى الطور الأول شاعر لهو ووصف ، لا يعنى بغير ما تمليه عليه الفتوة ويوحى به إليه الشباب من تشبيب ونسيب ، ووصف للخيل وللسحاب ، وذكر لمجالس الأنس والشراب ، وشعره فى هذا الطور نسج العذوبة وحوك الفطرة السليمة ، فيه فصاحة البداوة الممزوجة بنعيم الملك وترف الغنى .

وكأنى بك تسائلنى عما آل إليه أمر فتى كندة وخليعها بعد مقتل أبيه ، أبقيت شاعريته على ما كانت عليه من تهتك وتصاب ولهو وغرام ؟ أم استحالت شاعريته بعد أن تنكرت له الأيام والليالى وعصفت به رياحها الموج فأصبح شريداً طريداً تتناوح بركابه أحياء العرب ؛ تنبو به الديار ، ويشط المزار ، وتلفظه الأرض هنا وهناك ، وتتناطح فيه أطماع الفتاك ، وهو بين هذا وذاك غرض الحتوف ومرمى الردى من المنذر ذلك الملك القوى الصولة الشديد البطش ، الذى لا يجير عليه من العرب مجير ، ولا يقوم لأحد منهم دونه نصير ، وكل هذه مؤثرات جديدة فى شاعرية امرىء القيس وعوامل مستحدثة انتزعته من بين البواعث اللهوية وقذفت به بين دواعى الهموم والأحزان ، وهذا تحول فجائى يقتضى ركوداً فى الملكات ، وفتوراً فى

القريحة ، وإنه ليحتاج إلى زمن تختمر فيه المعانى الجديدة فى صدر ذلك الشاعر المحزون الذى تداعت أيام لهوه ، فقد انقلب طفرة من حال الزهو والمرح إلى مقام البؤس والشجن ، يشكو حاله ، ويندب مآله ، أرأيت شاعر يوم دارة جلجل ، وكم كان طروباً لاهيا ، فإذا به اليوم كاسف البال ، عابس الوجه ، حليف همّ وحزن شتيت يقول :

ظلِلتُ رِدائى فوقَ رأسِيَ قاعداً أعدُّ الحصَى ما تَنقَضِى عبَراتى
أعِنِّى عَلَى التَّهْمام والذِّكَرات يَبِتْنَ عَلَى ذي الهمّ مُعْتَكرات[1]
بليلِ التّمَام أو وُصِلْنَ بمثْله مُقايَسَةً أيامُها نَكِرات[2]

نزلت به الحوادث عن الملك وعزته إلى ذل التشريد ومهانته ، فتنازعه عاملان : ذاك عامل اللهو والطرب ، وهذا عامل الهم والحزن ، والأول من سليقته ، والأخير عارض له جدته ، فلا شك أن شاعريته ترتطم بين هذين المؤثرين ، فيسقط شعره بتناقضهما ، ومهما يكن من أمر ذلك الشاعر فإنه فى هذا الطور الأخير محزون يترقرق الحزن بين ثنايا كلماته ، وإذا عاوده ذكر اللهو جاء به ممزوجاً بدموع البكاء ، لأن حياته بعد مقتل أبيه كانت صارفة لمثله عن اللهو والعبث والمجون . ولقد كان طول تقلبه فى الأحياء ، وكثرة ما لاقاه من المحن مما زاد فى تجاريبه وجعله يقف عَلَى ما فى طبائع الناس من وفاء وغدر فشكا قسوة الزمان ، وتنكر الإخوان ، وخرج عن طبعه وفطرته إلى المدح

---

(١) أعنى أى ساعدنى . والتهمام الهم . والذكرات من التذكر. ومعتكرات أى نازلات متتابعات .

(٢) ليل التمام أطول ليالى العام . ومقايسة أى أن طول النهار فى قياس طول الليل . والنكرات الشديدات ويريد الشاعر أن ليله قد تطاول حتى صار موصولا بمثله وكذلك أيامه مثل لياليه فى الطول والحزن .

والهجاء والتفجع والبكاء . وأول باعث نازعه فى هذا الطور الجديد هو الرثاء — والفتيان لا يجيدونه — فقد جاءه نعى أبيه بغتة وهو فى مسارح لهوه ، ومجالس أنسه ، لا يحس بما وراء ذلك اللهو وهذا الأنس ؛ فبهتت قريحته ؛ وعقل لسانه إلا عن ذلك النذر اليسير الذى قسر نفسه عليه قسراً فجاء فيه مقصراً .

ولما قتل أبوه انحازت أخته هند بنت حجر وقطينها إلى عوير بن شجنة من بنى زيد مناة ؛ فقال له قومه كلهم فإنهم مأكولون ؛ فأبى أن يخفر ذمته وخرج بها ليلا حتى أبلغها نجران ، ثم قال لها لست أغنى عنك شيئًا وراء هذا الوادى ، وهذه أرض قومك وقد برئت خفارتى ، ثم رجع فلما بلغ ذلك امرأ القيس قال يمدحه :

ألاَ إن قومًا كنتُ أمسِ دونَهم ... هُم مَنعوا جاراتِكُم آلَ غُدران(١)
عُوَيْرٌ ومنْ مِثْلُ العُوَيْرِ ورهطِهِ ... وأسْعدَ فى ليل البلابِلِ صَفْوان(٢)
ثيابُ بنى عَوف طَهارَى نَقِيّةٌ ... وأوْجُهُهُم عند المشَاهِدِ غُرّان(٣)
هُم أبلَغُوا حىّ المضلَّلَ أهلَهُم ... وساروا بِهم بَيْنَ العراقِ ونَجْران(٤)
فقد أصْبحوا واللهُ أصْفاهُم به ... أبرَّ بميثـاق وأوْفى بجيران(٥)

---

(١) آل غدران أى يا آل الغدر يريد بهم بنى أسد الذين قتلوا أباه وخفروا ذمته .

(٢) عوير وصفوان سيدا بنى عوف . والبلابل الهموم .

(٣) المشاهد الحروب . وغران أى طلقة بيضاء متهللة .

(٤) حى المضلل يريد أهله ومن هنا سمى الملك الضليل .

(٥) أصفاهم به اختاره لهم .

وقال يمدحه أيضاً :

إنَّ بَنِي عَوْفٍ ابتَنَوْا حَسَبا ضَيَّعه الدخْلُلُون إذْ غَدروا[1]
أدَّوْا إلى جارِهِمْ خَفَارته ولم يضِعْ بالمغِيب إذْ نَصَروا[2]
لم يَفعلوا فعْلَ آلِ حَنْظلة إنَّهمُ جَيْرِ بئس ما ائتَمَروا[3]
لا حِمْيَرِىّ وَفَى ولا عُدَسٌ ولا استُ عَيْرٍ يَحُكُّها الثَّفَرُ[4]
لكن عُوَيْرٌ وَفَى بذمَّته لا عَوَرٌ شانَه ولا قِصَرُ[5]

هذا أول عهده بالمديح ، والمديح ليس من صناعة الملوك ، فهم لا يَمدحون ولكنهم يُمدحون ، لذلك جاء امرؤ القيس مقصراً فى مديحه كما جاء مقصراً فى رثائه ، لأن ذلك ليس من سليقته ولا طبعه ، عَلَى أن الحوادث التى نزلت به قلبته فى بعض أقواله شاعراً حكيماً ، يأتى بالحكمة البالغة والمثل الرائع ، إذا شكا حاله أشكى غيره ، وإن بكى أمره أبكى سواه معه . أنظر إليه وقد

---

(١) الدخللون يريد الخاصة من ذوى قرابته إذ لم ينصروه على إدراك ثأره .

(٢) جارهم يريد نفسه وأخته . الخفارة الذمة والعهد . وقوله لم يضع بالغيب أى من غاب عن أهله وأنصاره فهؤلاء ينصرونه .

(٣) بنوحنظلة هم الذين خذلوا شرحبيل عم امرىء القيس . وجير بمعنى حقاً .

(٤) حميرى وعدس رجلان من بنى حنظلة تولوا الغدر بشرحبيل . والثفر السير فى مؤخر السرج وقوله ولا است عير يحكها الثفر احتقار واستهزاء واستخفاف بهؤلاء الغدرة .

(٥) شانه أى عابه .

فكر فى عاقبة أمره فأظلم الغيب أمام عينيه ، وأشكلت عليه نهايته فشكى دهره ، وبكى عَلَى ما ألم بنفسه ، وتوقع ما غال آباءه من قبله فقال :

أرانا مُوضِعِين لأمْرِ غيبٍ ... ونُسْحَر بالطعام وبالشراب[1]
عصافيرٌ وذِبّان وَدُود ... وأجرأ من مُجَلّحَةِ الذئاب[2]
فبَعْضَ اللّوْم عاذِلَتى فإنى ... ستكفينى التجاربُ وانتِسابى[3]
إلى عِرْق الثّرَى وشَجَتْ عُروقِى ... وهذَا الموْتُ يَسْلُبنى شبابى[4]
ونَفْسِى سَوْفَ يَسْلُبها وجِرْمى ... فيُلْحِقُنِى وَشِيكا بالتّراب[5]

ثم تذكر ما كان له أيام عزه فقال :

ألَمْ أنْضِ المطىّ بكلّ خَرْق ... أمَقِّ الطولِ لمَّاعِ السَّراب[6]

---

(١) موضعين — سائرين والإيضاع ضرب من السير . ولأمر غيب أى لأمر لاعلم لنا به . ونسحر أى نتغذى .

(٢) الذبان الذباب . والعصافير ضعاف الطير وصغارها . والمجلحة المصممة من التجليح وهو الإقدام والتصميم .

(٣) العاذلة اللائمة .

(٤) عرق الثرى مادة التراب فى الأرض وقال القتيبى عرق الثرى آدم عليه السلام . وشجت أى اتصلت واشتبكت .

(٥) الجرم الجسد وقوله وشيكا أى سريعاً ؛ وانظر كيف أبدع فى تقسيمه السلب فابتدأ أولا بسلب الشباب ثم سلب النفس ثم سلب الجسد حسبما يكون .

(٦) أنض المطى أى أهزل المطايا من طول السير والعمل . والخرق الفلاة الواسعة . والأمق الطويل . والسراب ما يبدو وقت الظهيرة للمسافر فى الصحراء كأنه ماء .

وأرْكَبُ فى اللُّهامِ المَجْرِ حتَّى   أنالَ مآكِل القُحَمِ الرِّغاب[1]
وكلُّ مكارِمِ الأخْلاق صارَت   إليهِ همّتى وبِهِ اكْتِسابى[2]

وانتقل بعد ذلك إلى التفجع عَلَى آبائه والحكم عَلَى الدهر بالقسوة ، وإلى أنه عما قريب سيلقى منيته كما لقيها من سبقه ، فقال :

وقَدْ طَوَّفت فى الآفاقِ حتَّى   رَضِيتُ من الغنيمة بالإياب
أبَعْدَ الحارِثِ الملِكِ بنِ عمرٍو   وبعْد الخَيْر حُجرٍ ذى القِباب[3]
أرجّى من صروف الدهْر لِينا   ولمْ تَغْفُل عن الصّمّ الهِضاب[4]
وأعلَمُ أنّنى عمّا قليلٍ   سأنْشَبُ فى شَبا ظُفْرٍ وناب[5]
كما لاَقَى أبى حُجْر وجدِّى   ولا أنْسَى قَتِيلاً بالكُلاب[6]

ومما يستحسن له من شعره فى هذا الطور قصيدته التى يمدح فيها سعد بن الضباب قال :

---

(١) اللهام الجيش الكثير العدد . والمجر الثقيل المتئد فى سيره . والقحم جمع قحمة وهى الدفعة الكثيرة من المال أو غيره . والرغاب الواسعة .

(٢) لما طال عليه تعداد الفضائل فى الأبيات السابقة أجملها فى هذا البيت بأن قال كل خلق كريم وفعل جميل أحبته همتى وأكسبتنى إياه وهذا بيت فاضل من أحسن ما قيل فى الشعر العربى .

(٣) لم تكن القباب معروفة فى الجاهلية إلا للملوك .

(٤) الصم الصلبة المصمتة . والهضاب الصخور الضخمة الراسية .

(٥) سأنشب أى سأعلق على أمر لا انفكاك منه . والشبا الحد ، يعنى ستنشب المنية فى أظفارها وأنيابها .

(٦) قتيل الكلاب هو شرحبيل عم امرىء القيس .

لعمرك ما قلبي إلى أهله بِحُـرّ ... ولا مُقْصِرٍ يومًا فيأتيني بِقُرّ.[1]

ألاَ إنَّما الدَّهر ليـالٍ وأعصُرٌ ... وليْس عَلَى شَيْء قَوِيم بمُسْتَمِر.[2]

ليالٍ بذاتِ الطَّلْح عنـد مُحَجَّر ... أحبُّ إلينا من ليـالٍ عَلَى أُقُر[3]

أغادِي الصَّبوح عِنْد هِرّ وفَرْتَنا ... وليداً وهلْ أفْنَى شبابي غيرُ هِر.[4]

إذا ذُقْتُ فاها قلتُ طَعْم مُدامةٍ ... مُعتَّقَــةٍ مِمَّا تجيء به التُّجُر[5]

هما نَعْجتانــ منْ نِعاج تَبالَةٍ ... لدَى جُؤْذُرَيْن أو كبعض دُمى هَكِر[6]

إذا قامتا تضوّع المِسْك منهما ... برائحةٍ من اللَّطيمـة والقُـطُر[7]

كأنّ التِّجار أصْعدوا بسبِيئَةٍ ... من الخُصِّ حتى أنزلوها على يُسُر.[8]

(١) بحر أى أن قلبه لم يصبر . ولا مقصر أى ولا نازع عما هو عليه من الحب . والقر القرار من الاستقرار .

(٢) قويم أى مستقيم .

(٣) ذات الطلح أرض فيها شجر الطلح . ومحجر موضع ببلاد طيء . وأقر واد واسع .

(٤) الصبوح شرب الغــداة وقوله أغادى الصبوح أى أشرب الخمر فى الغداة أى فى أول النهار .

(٥) المدامة الخمر . والمعتقة القــديمة . والتجر جمع التجار والتجار جمع تاجر .

(٦) تبالة مدينة باليمن . وهكر مدينة أيضاً باليمن . والجؤذر ولد البقر . والدمى جمع دمية وهى الصورة المجسدة .

(٧) تضوع فاح وانتشر . واللطيمة ضرب من المسك الأزفر . والقطر العود .

(٨) أصعدوا ساروا . والسبيئة الخمر التى اشتريت فحملت . والخص مدينة بالشــام كانت مشهورة بالخمر الجيد . ويسر بلد كان يسكنه أمرؤ القيس .

فلما استطابوا صُبَّ فى الصحن نِصْفُه ... وشُجَّت بماءٍ غيرِ طَرْقٍ ولا كَدِرِ (١)

بماءِ سحابٍ زَلَّ عن مَتْن صَخْرة ... إلى بَطْنِ أُخْرَى طيِّبٍ ماؤها خَصِرِ (٢)

لعمرُكَ ما إنْ ضرَّنى وسْطَ حِمْيَر ... وأقوالها إلّا المخِيلَةُ والسُّكُرُ (٣)

وغيرُ الشَّقاء المُسْتبين فليتنى ... أجَرَّ لسانى يومَ ذالِكُم مُجِرِ (٤)

ثم انتقل إلى مدح سعد اقتضاباً فقال :

لعمرُكَ ما سَعْدٌ بخُلَّة آثمٍ ... ولاَ نأنَإٍ يومَ الحفاظ ولا حَصِرِ (٥)

لعمْرِى لقومٌ قد نَرَى فى دِيارِهم ... مرابطَ للأمْهار والعَكَر الدَّثِرِ (٦)

أحبُّ إلينا من أناسٍ بقُنَّةٍ ... يروحَ عَلَى آثارِ شَاءِهُمُ النَّمِرِ (٧)

يُفاكِهُنا سَعْدٌ ويغدو لجمْعِنا ... بمثنى الزِّقاق المُتْرعاتِ وبالجُزُرِ

---

(١) استطابوا أى أخذوا أطيب الماء وأعذبه . والصحن قدح كبير شبه العس العظيم . وشجت مزجت . والماء الطرق الذى بالت فيه الإبل .

(٢) الخصر البارد .

(٣) الأقوال الملوك الصغار كالأقيال . والمخيلة الخيلاء والتكبر .

(٤) المستبين الواضح . والجر شق لسان الفصيل لئلا يرضع والمراد بقوله ليتنى أجر لسانى أى فليتنى كان لسانى محبوساً أو مقطوعاً . المجر هو فاعل الجر .

(٥) نأنأ ضعيف مقصر . والحصر ضيق الصدر .

(٦) العكر الدثر أى الإبل الكثيرة ، قال الخليل العكر ما زاد على خمسمائة من الإبل .

(٧) القنة رأس الجبل . شاءهم أغنامهم .

لعمرى لسعدُ بنُ الضِّباب إذا غدا أحبُّ إلينا مِنْك فافَرِس حَمِر[1]
وتَعْرِفُ فيه من أبيه شمائلا ومنْ خاله ومن يَزِيدَ ومن حُجُر
سماحةَ ذا وبِرَّ ذا ووَفاء ذا ونائلَ ذا إذا صحَا وإذا سَكِر

عاد فى هذه القصيدة إلى لهوه، ولكنه لم يستطع المضى فيه من غير أن تعاوده ذكريات الهموم التى أصابته إذ يقول :

لعمرك ما إن ضرنى وسط حمير وأقوالها إلا المخيلة والسكر
وغير الشقاء المستبين فليتنى أجر لسانى يوم ذلكم مجر

فهو فى هذين البيتين يبين علة فشله فى استنجاد حمير وأقيالها، ويدعو على نفسه دعاء المحرور النادم، ولقد مال فى هذه القصيدة إلى الهجاء، ولكن عاطفة النبل غابت عليه وكبحت جموحه، فترفع عن الإقذاع على مقتضى أخلاق الملوك فلم يتجاوز حد الإشارة والتعريض فى قوله :

أحبُّ إلينَا من أُناسٍ بقُنَّة يروح على آثارِ شائهم النَّمِر

وقوله :

أحبُّ إلينا منك فَافرسٍ حَمِر

يريد بذلك هانئ بن مسعود، ولعله يريد عامر بن جوين الطائى .

على أننا فى بعض الأحيان نجده شديد الوطأة على خصومه، مقذعاً فى سبابه فمن ذلك قوله يذم البراجم ويربوعاً ودارما وآل مجاشع لخذلانهم إياه ولخذلان عمه شرحبيل من قبله :

---

(١) فافرس حمر يعنى يا منتن الريح كنتن فم الفرس الحمر الذى أكل شعيراً كثيراً حتى سنق، فإذا كان فى هذه الحالة كان نتن فمه بالغاً حداً لا يطاق .

ألاَ قَبَّح اللهُ البراجِمَ كلَّها وجدَّع يَرْبوعاً وعَفَّر دارِماً[1]
وآثرَ بالمِلْحاة آلَ مُجاشع رِقاب إماءٍ يقْتنين المفَارما[2]
فما قاتلوا عن ربِّهم ورَبِيبهم ولا آذنُوا جاراً فيظْعنُ سالما[3]
ولا فَعلوا فِعل العُوَيْر بجاره لدَى بابِ هندٍ إذْ تجرَّدَ قائماً[4]

فما أشد قوله:

رِقاب إماءٍ يقْتنينَ المفارما

فإنه لم يقتصر فى سباب آل مجاشع على جعلهم رقاب نساء، بل جعلهم رقاب إماء، وذلك أبلغ فى الذل والدناءة، ثم غلا فى هذا السباب إلى أن أقذع وأفحش، فأكد دناءة من شبههم بهن بأن جعلهن يتخذن المفارم وهى خرق تأخذها بعض النسوة الجاهليات الساقطات فى فروجهن لتضيق، ولا يصنع هذا إلا الفواجر العواهر لكثرة ما يفعل بهن ...

ومن محاسن شعره أيضاً فى هذا الطور قصيدته التى قال فيها:

ربَّ رامٍ من بَنِى ثُعلٍ مُتْلِج كفَّيْه فى قُتَرِه

(١) البراجم هم قوم من بنى حنظلة بن مالك وهم خمسة أخوة الظليم وكلفة وغالب وعمرو وقيس وهم من أم واحدة ولهم أخوة لأبيهم. جدع يربوعاً أى قطع أنوفهم والمراد أذلها الله وكذلك عفر دارما أى أذلها وجعل وجوهها فى العفر والتراب.

(٢) آثر اختص. والملحاة الملامة.

(٣) ربهم سيدهم شرحبيل. والربيب الناشىء فى كنفهم وكان امرؤ القيس مسترضعاً فيهم. آذنوا جاراً أى أعلموه بأنهم غير ناصريه. ويظعن يرحل.

(٤) العوير هو ابن شجنة الذى أجار قطين امرىء القيس عند قتل أبيه حجر.

عارضٍ زَوْراءَ من نَشَم غـيْرِ باناةٍ عَلَى وَتَرِه
قدْ أتته الوحشُ وَارِدَةً فتنَحَّى الـنزعَ فى يسَرِه
. . . . . الخ

فقد مدح فيها الرامى ووصف الرماية وصفاً لا يجيده إلا من كان مثله ، وقد جرى بعض أبياتها مجرى الأمثال كقوله :

فهوَ لا تنمِى رميّـتهُ ماله لا عُـدّ من نفرِه

وقوله :

وَخَليـل قـدْ أفارُقه ثم لا أبـكى على أثره

وقوله :

وابنُ عمٍّ قد تركـتُ له صفوَ ماءِ الحوْضِ عن كدَره

ولما سار امرؤ القيس إلى أرض الروم عاودته ذكرى الشباب واللهو ، فعبث فى شعره ، وقال قصيدته التى يقول فيها :

سَمالكَ شوْقٌ بعدَ ما كان أقصرا وحلّت سُلَيمى بطنَ قوٍّ فَعرْعرا(١)
كنانيةٌ بانتْ وفى الصّدرِ وُدُّها مجاورةٌ غسّان والحىّ يَعْمُرا(٢)
بعيْنىّ ظعنُ الحىِّ لمّا تحمّلوا لدَى جَانِبِ الأفْلاج مِنْ جنْبِ قيْمَرا(٣)

---

(١) سما ارتفع . وأقصر ترك . وقو وعرعر موضعان .

(٢) بانت أى بعدت وافترقت . وكنانية أى منسوبة لكنانة وهى قبيلة مضرية . ويعمر بطن من كنانة . وغسان اسم ماء وبه سميت قبيلة غسان .

(٣) بعينى أى بمرأى عينى ويروى بعينيك . والظعن الارتحال . والأفلاج الأنهار الصغيرة . وقيمر مدينة .

وجعل يصف الظاعنين بقوله :

فشبَّهتُهمْ فى الآلِ لمّا تكمّشوا حدائقَ دَوْمٍ أو سَفِيناً مُقيّرا(١)

أوالمُكرَعاتِ من نخيل ابنِ يامِن دُوَيْنَ الصَّفا اللائى يَلِينَ المُشَقّرا(٢)

سوامِقَ جبّارٍ أثيثٍ فُرُوعُه وعَالين قِنْوانا من البُسْر أحمرا(٣)

حَمَتْه بنو الرّبْداءِ من آلِ يامِن بأسيافِهِم حتّى أقرّ وأوقرا(٤)

وأرْضَى بنى الرّبداء واعتمّ زَهْرُهُ وأكمامُه حتّى إذا ما تهصّرا(٥)

أطافتْ به جَيْلانُ عند قِطاعِه فردّتْ عليه الماءَ حتّى تحيّرا(٦)

---

(١) الآل السراب . وتكمشوا أخذوا فى سيرهم وجدوا به .

(٢) المكرعات من النخل التى على الماء . وابن يامن صاحب نخيل بهجر . المشقر قصر بناحية اليمامة .

(٣) سوامق مرتفعات . والجبار الفتى من النخل وهو الذى فات الأيدى فلم تنله . والأثيث الملتف بعضه على بعض . والقنوان العذوق . والبسر ما أحمر من التمر .

(٤) بنو الربداء قوم من شق البحرين ولهم بصر بالنخيل . وأقر استقر . وأوقر حمل ثمره .

(٥) اعتم زهره أى بدا صلاح بسره وتم وفى رواية أخرى زهوه ، والزهو الأحمر والأصفر من البسر . وأكمامه أقماعه . وتهصر تذلل .

(٦) جيلان قوم من الديلم كان كسرى يرسلهم عمالا على البحرين ليصرموا له النخل . والقطاع صرام النخل . حتى تحيرا أى تحير فيه الماء من كثرته وأفضل ما يكون النخل إذا رسخ فى الوحل وفى رواية أخرى تردد فيه العين والعين هنا هى عين الماء المعروفة بعين محلم بالبحرين ، ويحتمل أن يريد بالعين عين النظر يعنى أن هذا النخل لحسنه والإعجاب به تتردد فيه العين حتى يكل نظرها وتتحير .

وأخذ بعد ذلك فى وصف حبائبه بالطيب والنعمة ، وذكر ما كان له مع سليمى فى سالف الدهر ؛ وجعل يعتب على أسماء ويقول لها إن الجزاء من جنس العمل . فقال :

كأنّ دُمَى سَقْفٍ عَلَى ظَهْرِ مَرْمَرٍ … كسا مُزْبِدَ السَّاجُوم وَشْيًا مُصَوَّرا

غَرائِرُ فى كِنٍّ وصَوْنٍ ونِعْمَةٍ … يُحَلَّيْنَ ياقوتاً وشَذْراً مُفَقَّراً

إلى أن يقول :

أأسْماءُ أمْسَى وُدُّها قَدْ تَغَيَّرا … سَنُبْدِل إنْ أبْدَلْت بالوُدِّ آخَرا

ألاَ هَلْ أتاها والحوادثُ جَمَّة … بأنّ امرأ القَيْس بنَ تَمْلِكَ بَيْقَرا(١)

وانتقل بعد ذلك إلى تذكره أهله وما هو عليه من سفر واغتراب فقال :

تَذَكَّرْتُ أهلي الصَّالِحين وقد أتَتْ … عَلَى خَمَلَى خُوصُ الرِّكاب وأوْجَرا(٢)

فلمَّا بَدا حَوْرَانُ والآلُ دونَه … نَظَرْت فلم تَنْظُر بعينَيْك مَنْظرا(٣)

تَقَطَّعُ أسْبابُ اللُّبانةِ والهوَى … عَشِيَّةَ جاوَزْنا حَمَاةَ وَشَيْزَرا(٤)

بِسَيْرٍ يضِجّ العَوْدُ منه يَمُنُّهُ … أخُو الجَهْدِ لاَ يُلْوِى عَلَى مَنْ تَعَذَّرا(٥)

---

(١) بيقر لهذه الكلمة معان كثيرة وأولاها بالسياق هنا أنه خرج هائماً على وجهه لايدرى ما غبّه لأن ذلك المعنى يتفق وحال امرىء القيس .

(٢) خملى وأوجر موضعان . والخوص الغائرات العيون واحدها أخوص أوخوصاء .

(٣) حوران جبل بالشام . والآل السراب .

(٤) حماة وشيزر مدينتان بالشام .

(٥) العود المسن من الإبل . ويمنه يضعفه . وأخو الجهد أى المجتهد الشديد . لا يلوى على لايلتفت إلى . والتعذر تقديم العذر .

ولا يُنسِيني ما قدْ لقِيتُ ظعائنًا وخَمْلاً لها كالْقَرِّ يومًا مُخَـدَّرا[1]
كأثلٍ منَ الأعْراضِ مِنْ دونِ بيشَةٍ ودُونَ الغُمَيْمِ عامِداتٍ بغَضْوَرا[2]

وخرج من هذا إلى وصف ناقته، والفخر بنفسه، فقال:

فدَعْ ذا وسلِّ الْهَمَّ عنكَ بجَسْرةٍ ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهار وهَجَّرا[3]
تُقَطِّعُ غيطانًا كأنَّ مُتونَها إذا أظْهَرَتْ تُكْسَى مُلاءً مُنشَّرا[4]
بَعِيدَةُ بيْنَ المنْكِبيْنِ كأنّما تَرَى عِنْدَ مَجْرَى الصَّفْرِ هِرًّا مُشَجَّرا[5]
تُطايرُ ظُرّانَ الْحصَى بمَناسِمٍ صِلابِ العُجَى مَلْثومُها غيْرُ أمْعَرا[6]
كأنَّ الْحصَى من خَلفها وأمَامَها إذا نَجَلَتْهُ رِجْلُها حَذْفُ أعْسَرا[7]

---

(١) الظعائن النساء فى الهودج. والحمل الظعينة. والقر الهودج. والمخدر المستور.

(٢) الأثل شجر. والأعراض الأودية. وبيشة موضع كثير الأسد وقيل ناحية الطائف. والغميم واد بديار حنظلة. وغضور موضع.

(٣) الجسرة الناقة القوية الطويلة. وذمول أى سريعة. وصام النهار أى قامت الظهيرة. وهجر من الهاجرة عند اشتداد الحر.

(٤) الغيطان واحدها غائط وهو المطمئن من الأرض. أظهرت أى دخلت فى وقت الظهيرة. والملاء المنشر الثوب المبسوط.

(٥) المنكب رأس العضد. والصفر حبل يفتل من شعر وهو من أطناب الهودج. والهر القط. والمشجر المربوط المعلق.

(٦) الظران قطع من الحجارة محدودة. والعجى جمع عجاية وهى عصبة فى باطن يد الناقة. وملثومها أو مثلومها يريد خفها الذى ثلمته أو لثمته الحجارة. وغير أمعر أى لم يذهب شعره.

(٧) نجلته أى رمته بمناسمها. والحذف الرمى. والأعسر الذى يعمل بيديه جميعاً.

كأنَّ صَليلَ المرْوِ حينَ تشُذُّه صَليلُ زُيوفٍ يُنتقَدْنَ بعبقرا[1]
عليْها فتىً لم تحمل الأرضُ مثلَهُ أبرَّ بميثاقٍ وأوْفى وأصْبرا[2]
هو المنزِلُ الألافَ مِن جوِّ ناعطٍ بَني أسدٍ حزْناً من الأرْضِ أوْعرا[3]
ولوشاء كانَ الغزْوُ مِن أرضِ حِميرٍ ولكنَّهُ عمْداً إلى الرُّوم أنفرا[4]

وذكر بعد ذلك جزع صاحبه عمرو بن قميئة، وكان فى ركابه إلى قيصر، وأردف ذلك بوصف الفرس، فقال:

بكى صاحِبي لما رأى الدَّرْبَ دُونه وأيقن أنَّا لاحقانِ بقَيْصرا
فقلتُ لَهُ لا تبْك عينُك إنما نُحاوِلُ مُلكاً أوْ نموتَ فنُعذَرا
وإنِّي زعيمٌ إنْ رَجعتُ مملكاً بسيْرٍ ترى مِنه الفُرانِقَ أزْوَرا[5]
علَى لَاحِبٍ لا يهتدَى بمنارِه إذا سافَهُ العَوْدُ النَّباطِيُّ جرْجرا[6]

---

(١) صليل المرو صوت الحجارة. وتشذه تطيره. والزيوف الدراهم الخالية من الفضة. وعبقر موضع باليمن كانت دراهمه زيوفا وزعموا أن عبقراً واد كثير الجن.

(٢) قوله فتى يعنى نفسه. والميثاق العهد.

(٣) ناعط جبل باليمن فى أرض همدان. والحزن الوعر من الأرض.

(٤) العمد القصد. وقوله أنفر أى أنفر أصحابه يريد أغزاهم يقول لو شاء أن يغزوهم من أرض حمير لفعل ولكنه أراد أن يستعمل من بالروم مبالغة فى طلب ثأره.

(٥) زعيم أى كفيل. والفرانق الأسد. والأزور المائل.

(٦) اللاحب الطريق الواضح. والمنار العلامة توضع على الطريق للاهتداء بها وقوله لا يهتدى بمناره أى ليس له منار يهتدى به. والعود الجمل المسن. وسافه أى شمه. والنباطى الضخم. وجرجر أى رغا وضج.

عَلَى كلِ مَقصوصِ الذُّنابى مُعاوِد بَرِيدَ السُّرَى بالّليل من خَيْل بَرْبرا (١)

أقبَّ كسِرْحان الغَضى مُتَمطِّرٍ ترَى المـاء فى أعطافِه قدْ تحدَّرا (٢)

إذا زُعتَه منْ جانبيه كليهما مَشَى الهَيْدَبَى فى دَفِّه ثمَّ فَرْفرا (٣)

إذ قلْتُ رَوِّحنا أرَنَّ فُرانِقٌ عَلَى جَلْعَدٍ وَاهِى الأباجِل أبترَا (٤)

وأخذ بعد ذلك فى شكاية حاله ، وذكر مآله ، وجعل يبكى على أيامه الخوالى ، فقال :

لَقَدْ أنكرَتْنِى بَعْلبَكُّ وأهلُها ولابنُ جُرَيجٍ فى قُرَى حِمْصَ أنكرا (٥)

نشِيمُ برُوقَ المُزْنِ أينَ مَصابُهُ ولا شَىْءَ يَشْفِى مِنْكِ يا ابْنَةَ عَفْزَرا (٦)

---

(١) مقصوص الذنابى أى محذوف الذنب وقد كانت العادة أن تحذف أذناب خيل البريد ليكون ذلك علامة لها . معاود أى معتاد السير . وبريد السرى رسول السير ليلا . وبربر قبيلة معروفة بالقيام على خيل البريد .

(٢) الأقب الضامر . والسرحان الذئب . والغضى شجر . ومتمطر أى سابق . وأعطافه نواحيه . ويريد بالماء العرق .

(٣) الزوع الجذب باللجام . والهيدبى ضرب من المشى السريع . ودفه جنبه . وفرفر نفض رأسه .

(٤) روحنا أرحنا من تعب السير . أرن فرانق أى صاح أسد . والجلعد القوى الغليظ . والأباجل جمع أبجل وهو عرق الأكحل . وأبتر أى محذوف الذنب . وقوله واهى الأباجل أى ممدود عروق الأكحل .

(٥) بعلبك مدينة بالشام . وقوله لقد أنكرتنى أى لم يعرف فيها قدرى .

(٦) نشيم ننظر . بروق المزن لمعان السحاب . وأين مصابه أى أين يقع مطره .

من القاصرات الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ ... مِنَ الذَّرِّ فوقَ الإِتْبِ مِنها لَأَثَّرا[8]

لهُ الوَيْل إِنْ أمسَى ولاَ أمُّ هاشِمٍ ... قريبٌ ولاالبَسْبَاسَةُ ابنةُ يَشْكُرا

أرَي أمَّ عمرٍو دمعُها قدْ تحدَّرا ... بكاءً عَلَى عمْرٍو وما كان أصْبَرا

إذا نحنُ سِرْنا خَمْسَ عَشْرَةَ ليلةً ... وَرَاءَ الحِسَاءِ من مَدَافِعِ قَيْصرا[1]

إذا قلْتُ هذا صاحِبٌ قد رَضِيتُه ... وقرَّت به العَيْنَانِ بُدِّلْتُ آخَرا

كذَلِك جَدِّى ما أصاحِبُ صاحباً ... من النَّاسِ إلاَّ خانَنى وتَغَيَّرا[2]

وكُنَّا أناسًا قبْلَ غَزْوَةِ قَرْمَلٍ ... ورِثنا الغِنَى والمجدَ أكْبَرَ أكْبَرَا

وماجُبْنَتْ خَيْلى ولكن تَذَكَّرَتْ ... مَرَابِطَها مِن بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرا[3]

ألاَ رُبَّ يَوْمٍ صالحٍ قَدْ شَهِدْتُه ... بناذِفَ ذاتِ التلِّ من فَوْقِ طَرْطَرا[4]

ولا مِثْلَ يَوْمٍ فى قَذَارَانَ ظَلْتُهُ ... كأنِّى وأصحابِى عَلَى قَرْنِ أعْفَرا[5]

---

(٨) من القاصرات أى من النساء اللاتى حبسن أعينهن على أزواجهن . والمحول الذى أتى عليه حول .

(١) الحساء مواضع سهلة يستنقع فيها الماء ومفردها حسى . والمدافع المواضع التى يحميها ويدفع عنها ومعنى البيت إذا توغلنا فى بلاد قيصر .

(٢) جدى أى حظى .

(٣) بربعيص وميسر موضعان .

(٤) ناذف وطرطر موضعان بالشام أوقع فيهما بعدوه . وقد وصف اليوم بالصلاح لأنه نال فيه ما تمنى .

(٥) قذاران موضع كان ظفره فيه أكثر من ظفره بناذف . وظلته أى ظللته . وقرن أعفر أى قرن ظبي ، يشير إلى الحذر والأخذ بالحزم وإلى أنه وأصحابه كانوا فى هذا الموضع على غير استقرار وطمأنينة .

وَنَشْرَبُ حتَّى نَحْسِبَ الخيْلَ حَوْلَنا   نِقاداً وحتّى نَحسِب الجَوْن أشْقَرَا(١)

وقد جمعت هذه القصيدة صفات شعره فى الطور الأول ، فإنه شبب فيها ، وذكر المعاهد والأماكن التى مرّ عليها فى طريقه .

وأنت تجد أن هذا الشعر صادر عن نفس نبيلة لا تلهيها قسوة الزمن عن الحديث عن الشرف والمجد والنبالة ، ألا ترى إلى قوله وهو يعالج هما ويتقلب على أشواك غربة ومحنة .

فقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عيْنُكَ إنَّما   نُحاوِل مُلْكا أوْ نَموتَ فَنُعْذرا

ومن شعره فى هذا الطور أيضاً قصيدته التى مطلعها :

ألمّا عَلَى الرَّبْع القَدِيم بِعَسْعَسَا   كأنِّى أُنادِى أوْ أُكَلِّمُ أخْرَسا(٢)

وفيها يقول :

فلوْ أنّ أهلَ الدار فيها كَعَهْدِنا   وجدتُ مَقِيلا عندَهم ومُعَرَّسا(٣)

فَلاَ تُنْكِرُونى إنّنى أنا ذَاكُمُ   ليالِىَ حَلَّ الحىُّ غَوْلاً فَألْعَسَا(٤)

---

(١) نشرب نسكر . والنقاد صغار الضأن . والجون الأبيض خالطه سواد أو الأسود مازجه بياض يعنى أنهم كانوا يشربون حتى يذهب تمييزهم بين الأشياء المتباينة .

(٢) ألما أى أنزلا . وعسعس موضع وقيل المراد أنزلا فى أدبار الليل وآخره .

(٣) كعهدنا أى كما عهدناهم نزولا فيها . والمقيل موضع النزول فى فى نصف النهار . والمعرس موضع النزول فى آخر الليل .

(٤) غول وألعس موضعان .

تأوّبني دائي القديمُ فغلّسا أحاذِرُ أنْ يرتدَّ دائي فأنكسا[1]

فإما تَرَيْني لا أُغمِّضُ ساعةً من الليل إلاّ أن أُكِبَّ فأنعَسا[2]

فيارُبَّ مكروبٍ كررتُ وراءهُ وطاعنتُ عنه الخيْلَ حتّى تنفَّسا[3]

ويا رُبَّ يومٍ قد أرُوحُ مرجَّلاً حبيبًا إلى البيضِ الكواعِبِ أملَسا[4]

يَرِعْنَ إلى صوتي إذا ما سمِعْنَه كما ترْعَوِي عِيطٌ إلى صَوْتِ أعيَسا[5]

أراهُنَّ لا يُحبِبْنَ مَنْ قلَّ مالُهُ ولا مَنْ رأيْنَ الشَّيْبَ فيه وقوَّسا[6]

وما خِلْتُ تَبْريحَ الحياةِ كما أرى تَضيقُ ذِراعى أنْ أقُومَ فألْبَسا[7]

فلَوْ أنّها نَفسٌ تموتُ جميعَةً ولكنّها نَفس تساقَطُ أنفُسا[8]

---

(١) تأوب أى جاء مع الليل وقوله فغلس أى فى الغلس . وانكس أى يعاودنى دائى القديم وفى هذا البيت يشير أمرؤ القيس إلى أن التقرح الذى أصابه عنداقتراب منيته كان قد أصابه قبل ثم عاد إليه وهذا يرجح ماذهبنا إليه من أن وفاته كانت بالجدرى وأن الحلة المسمومة كانت من مزاعم التاريخ .

(٢) أكب أى انحنى .

(٣) المكروب الواقع فى كربة . وقوله حتى تنفس أى حتى دفعت عنه أعداءه وانفرج الموقف أمامه .

(٤) المرجل المسرح الشعر . والكواعب جمع كاعب وهى الجارية التى تكعب ثدياها . وأملس أى لم تنبت عارضتاه .

(٥) يرعن أى يرجعن ويلتفتن . والعيط جمع عيطاء وهى الناقة الفتية التى لم تحمل والأعيس الفحل الذى يضرب بياضه إلى الحمرة .

(٦) قوس أى انحنى ظهره لكبر سنه .

(٧) التبريح شدة البلاء .

(٨) قوله تموت جميعة أى أنى لو أموت بدفعة مرة واحدة ولكن نفسى لما بها من المرض تقلع قليلا قليلا وتخرج شيئاً فشيئاً وهذا من طول المرض وشدته .

وبُدِّلْتُ قُرْحا دامِيًا بعدَ صحَّةٍ ... فيالَكِ من نُعْمَى تحوّلْنَ أبْؤُسا[1]

لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ من نحوِ أرْضهِ ... لِيُلْبِسَنِي من دَائِهِ ما تَلَبَّسا[2]

ألاَ إنَّ بعد العُدْمِ لِلمَرْءِ قِنْوَةً ... وبعْدَ المشيبِ طُولَ عمرٍ ومَلْبَسا[3]

ويدل قول امرىء القيس :

وبدِّلْتُ قُرْحًا دامِيًا بَعْدَ صِحَّة ... فيا لَكِ مِنْ نُعْمَى تحوَّلْنَ أبْؤُسا

لقد طَمَحَ الطَّمَّاح من نَحْوِ أرْضِهِ ... ليلْبِسَنى منْ دائه ما تَلَبَّسا

على أنه قال تلك القصيدة بعد ارتحاله عن ديار قيصر ، وحين أصابه ما أصابه من تقرح بدنه عند اقتراب منيته .

ومن محاسن شعره فى هذا الطور أيضًا قصيدته العينية التى بدأها بتوديعه الصبا وحنينه إلى أيامه وذكر ما كان له فى تلك الأيام من لهو ومرح قال :

جَزِعْتُ ولم أجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزَعَا ... وعزَّيْتُ قلباً بالكواعِبِ مُولَعا

وأصبحتُ ودّعتُ الصِّبا غيرَ أنّنى ... أُراقِبُ خَلاَّتٍ من العَيْشِ أرْبَعا

فمنهنَّ قَوْلى للنــــدامَى ترفقوا ... يُداجون نَشَّاجًا من الخمر مُتْرعا[4]

ومنهن رَكْضُ الخيل تَرْجُمُ بالقَنَا ... يبادِرْن سربًا آمنًا أنْ يُفزَعا

ومِنْهنَّ نَصُّ العِيسِ والليلُ شامِلٌ ... يُيَمِّمْنَ مَجْهُولاً مِنَ الأرْضِ بَلْقَعا[5]

خوارِجَ من بَرِّيَّةٍ نحوَ قَرْيةٍ ... يُجدِّدْنَ وصْلاً أوْ يُرَجِّين مطمَعا

---

(١) أبؤس جمع بؤس و هو البلاء والشدة .

(٢) طمح نظر عن بعد .

(٣) العدم الفقر والشدة . والقنوة الغنى والرخاء .

(٤) النشاج زق الخمر .

(٥) نص العيس أى سوق الإبل . وييممن يقصدن . وبلقع أى خال .

وَمِنْهُنَّ سَوْفُ الْخَوْدِ قد بلّها النّدَى تُراقِبُ مَنْظُومَ التّمائِمِ مُرْضَعا(١)
يَعِزّ عَلَيْها رِيبَتِي وَيَسُوءها بُكاهُ فَتَثْنِي الجيدَ أنْ يَتَضَوّعا

إلى أن يقول :

إذا أَخَذَتْها هِزّةُ الرّوْعِ أمْسَكَتْ بِمَنْكِبِ مِقْدامٍ عَلَى الهَوْلِ أرْوَعا

وكان بين امرىء القيس وبين سبيع بن عوف بن مالك بن حنظلة قرابة ، فنزل سبيع على امرىء القيس ، وسأله فلم يعطه شيئاً فقال سبيع أبياتاً يعرض فيها بامرىء القيس ، فرد عليه أمير الشعر بقصيدة جرى فيها على عادته وعادة القدامى فبدأها بذكر الديار والأطلال فقال :

لِمَنْ الدِّيارُ غَشِيتُها بِسُحامِ فَعَمايَتَيْنِ فَهُضْبِ ذِى أقْدامِ(٢)
فصفَا الأطيطِ فصاحَتَين فغاضِرٍ تمشِي النعاجُ بها مع الآرامِ(٣)
دار لهندٍ والرّبابِ وفرتنا ولميسَ قبلَ حوادِثِ الأيّامِ
عُوجَا علىَ الطّللِ المحِيل لأنّنا نَبكى الدِّيار كما بَكى ابن حزامِ(٤)

وتدرج من ذلك إلى التشبيب بصواحبه فى غزل رقيق فقال :

أو ما تَرَى أظعَانهُنّ بواكراً كالنّخل من شَوكان حينَ صِرامِ(٥)

---

(١) الخود الغادة الحسناء وقوله سوف الخود أى شمها .

(٢) سحام ومابعدها أسماء مواضع . والهضب جمع هضبة وهى القطعة من الجبل .

(٣) صفا الأطيط وصاحتان وغاضر أسماء مواضع . والنعاج بقر الوحش والآرام من الغزلان .

(٤) عوجا عرجا واعطفا . والطلل المحيل الذى أتت عليه الأحوال فغيرته . وابن حزام رجل بكى الديار قبل امرىء القيس .

(٥) بواكر مبكرات . وشوكان موضع . وصرام النخل قطافه .

حُورٌ تُعلَّ بالعبير جُلودُها ... بيضُ الوُجوه نواعِمُ الأجْسام(١)

ثم وصل ذلك بذكر معتق الخمر وما تفعله فى جسم شاربها فقال :

فظللتُ فى دِمَن الدّيارِ كأنّنى ... نَشوانُ باكرَه صَبُوحُ مُدام(٢)

أُنُفٌ كلونِ دَمِ الغَزال معتّقٌ ... مِنْ خمرِ عانةَ أو كُروم شِبام(٣)

وكأنّ شارِبها أصابَ لِسانَهُ ... مُومٌ يُخالِط جِسمَه بِسَقام(٤)

وانتقل من هذا إلى وصف ناقته وسرعة سيرها فقال :

ومُجِدّةٍ نسّأتُها فتكمّشَتْ ... رَتْكَ النَّعامَةِ فى طَرِيق حامِ(٥)

تَخْدِى على العَلات سامٍ رأسُها ... رَوْعاءُ مَنْسِمُها رَثِيمٌ دَامِ(٦)

فجُزِيتِ خيرَ جَزاء ناقةِ واحدٍ ... ورجَعْتِ سالمةَ القَرَى بِسَلام(٧)

---

(١) حور جمع حوراء والحور من علامات الجمال وهو شدة بياض العين وشدة سوادها . وقوله تعلل بالعبير جلودها أى تطيب جلودها بالطيب والزعفران مرة بعد مرة .

(٢) الدمن آثار السكان . والنشوان السكران . وباكره عجل إليه . والصبوح الشرب صباحاً .

(٣) يقال كأس أنف أى لم يشرب من دنها أحد قبله . ودم الغزال أشد الدماء حمرة ولذلك شبهها به . وعانة وشبام موضعان تطيب فيهما الخمر .

(٤) الموم مرض يهذى فيه .

(٥) ومجدة أى رب ناقة . ونسأتها أى دفعتها بالمنسأة وهى العصى . وتكمشت أسرعت . وقوله رتك النعامة أى تهتز فى سيرها اهتزاز النعامة . وحام حار متوهج والنعامة إذا مشت فى الرمضاء جرت جرياً شديداً .

(٦) تخدى تسرع . والعلات جمع علة . وسام مرتفع . وروعاء قوية القلب . ومنسمها طرف خفها . والرثيم الملطخ بالدم .

(٧) القرى الظهر .

وخرج من ذلك كله إلى تهكمه بسبيع تهكما دونه حد المواسى ، فقال :

أبلغْ سُبَيْعاً إنْ عرَضْت رِسالة ... أنى كظنِّك إنْ عشوْتُ أُحامى (١)
فاقصِرْ إليك من الوعيدِ فإنّنى ... مِمّا أُلاقى لا أُشدُّ حِزامى (٢)

واستطرد بعد ذلك إلى فخره على سبيع وذكر شجاعته وبطشه وكرم محتده وعنصره فقال :

وأنا المنبِّهُ بعدَ ما قدْ نوّمُوا ... وأنا المعالِنُ صَفْحَةَ النُّوّام (٣)
وأنا الذّى عرَفتْ معدٌّ فضْلهُ ... ونَشدْتُ عن حُجْرِ بنِ أمِّ قَطَام (٤)

إلى أن يقول :

وأنازِلُ البطلَ الكريهَ نِزَالُه ... وإذا أناضِلُ لا تَطيشُ سِهامى (٥)

وقد كان امرؤ القيس يسخر بشىء من عادات الجاهلية ويظهر أثر هذه السخرية فى نصيحته لهند إذ يقول لها :

أيا هِندُ لا تَنكِحِى بُوهَةً ... عليهِ عَقيقتهُ أحْسَبا (٦)

---

(١) عشوت أى نظرت نظراً ضعيفاً . وأحامى أدافع .

(٢) أقصر إليك من الوعيد أى أمسك عليك وعيدك . وقوله لا أشد حزامى أى لست فى حاجة إلى أن أستعد لمثلك .

(٣) قوله وأنا المنبه بعد ما قد نوموا أى أغير على أعدائى فأنبههم وأواجههم وهم مستيقظون بالقتال وذلك لاقتدارى عليهم والمعالن الذى يقابل القوم وجهاً لوجه .

(٤) نشدت أى رفعت ذكره فى الناس .

(٥) أنازل أقاتل وأناضل أى أرمى بالسهام . وقوله لا تطيش سهامى أى لا تتجاوز الغرض ولا تخطىء المرمى .

(٦) البوهة البومة العظيمة وقال الخليل الرجل الضعيف . والعقيقة الشعر الذى يولد به الطفل . والأحسب الذى ابيضت جلدته وفسدت شعرته .

مُرسَّغَةٌ بينَ أرْساغِه به عَسَمٌ يبتغى أرْنبا(١)

ليجْعل فى كفِّهِ كَعبها حِذَارَ المنيّةِ أنْ يعْطبا(٢)

ولستُ بِخِزْرَافةٍ فى القُعود ولستُ بطيّاخةٍ أخْدَبا(٣)

ولستُ بذِى رَثْيةٍ إمَّرٍ إذا قِيدَ مُستكرَهاً أصْحبا(٤)

وقالتْ بِنفْسى شبابٌ لهُ ولمّتهُ قبْلَ أنْ يشْجَبا(٥)

وإذْ هىَ سَوْدَاءُ مِثْلُ الفَحِيم تُغشىٍّ المطانبَ والمنكَبا(٦)

(١) المرسغة الرجل الذى فسدت عينه وتغيرت . والأرساغ جمع رساغ وهو سير يضفر ويشد فى الساق إلى وتد فيمنعه من المشى . والعسم يبس فى المرفق يعوج منه الكف .

(٢) أى أنه جاهل يظن أن كعب الأرنب إذا علقه على كفه دفع عنه الموت وهذه أشياء كانت العرب تعتقدها ومنها أن الرجل كان إذا قام على بلد فيه وباء فصاح صيحة الحمير عشراً وقى وخمها وشرها ومنها أنه إذا أصابت الصبى عين فعلق عليه عقد من باح ورقى له فى الماء وصب عليه زال ذلك .

(٣) الخزرافة الكثير الكلام الخفيف. والطياخة الذى لا يزال يقع فى بلية وسوء . والأخدب الذى يركب رأسه ولا يتمالك عن الحمق والجهل .

(٤) الرثية مرض المفاصل وهو الروماتيزم . والأمر الضعيف من الرجال الطواعية . وقوله إذا قيد مستكرها أصحبا أى إذا دعى لأمر يكرهه انقاد إلى من دعاه وصحب من قاده .

(٥) اللمة الشعرة تلم بالمنكب . يشجب أى يهلك ويذهب شبابه .

(٦) المطانب جمع طنب حبل العاتق إلى المنكب .

أغراض شعر امرىء القيس

ومنـــاهله

يلوح للمتقصى ديوان امرىء القيس والباحث عن مناهل شعره ، والأغراض العامة التى استوت له ، واشتملت عليها قصائده . . . أنها جاءت متمثلة فى الأغراض الآتية : —

(١) الغزل الذى استغرق نحو ربع ديوانه .

(٢) ثم الوصف . . . وصف الطبيعة المتحركة والساكنة ، ومنها الدمن والظعائن . وقد استغرق القول فى ذلك نحو نصف الديوان .

ومن الباحثين من يعتبر الظعائن والدمن والأطلال مما يندرج تحت فن الغزل وتمهيدا له . . ومنهم من يعتبره غرضاً خاصاً قائمـا بذاته ، ولكن الأقدمين لم يذكروه فى أغراض الشـعر على أنه غرض مستقل بنفسه بين الأغراض التى فصّلوها وأشاروا إليها . ولذلك فالراجح لدينا أنه مندرج تحت فن النسيب والغزل ، وتمهيد له .

(٣) والغرض الثالث الذى جاء به ؛ هو ما يبدو فى قصائده من انطباعات الهموم والشكوى . .

(٤) ثم المدح للذين وجد منهم كرامة وعونا له فى نوائبه بعد مقتل أبيه .

(٥) وكذلك الهجاء . . هجاء من تنكروا له ، وأعانوا عليه ، وعادوه .

(٦) وثمة جوانب أخرى لم يلح عليها فى شعره ، كقوله فى الرثاء ، وفى شرب الخمر ، وفى الفخر .

* * *

أما غزله فقد سبق لنا الحديث عنه بالتفصيل فى باب متقدم « نساء فى حياة الشاعر » ، فنحيل القارىء عليه .

ولننتقل إلى الحديث عن الدمن والظعائن [1] ، والأطلال التى هى بدايات قصائده ، ومقدمات غزله .

---

(١) الظعن بفتح الظاء الرحيل ؛ وبضمها الهوادج تحمل النساء ، والظعينة المرأة مادامت فى الهودج والجمع : ظعن بضم الظاء ، وظواعن ، وظعينات . . والظاعنة جمعها ظاعنات .

الأطلال والظعائن

كان الشعراء قبل امرىء القيس يبدءون قصائدهم — كما بدأها — ببكاء الديار والوقوف عَلَى النؤى والدمن والأطلال ، ويذكرون الظعائن ، وفى ذلك يقول شاعرنا :

عوجا عَلَى الطلل المُحيل لأننا   نبكى الديار كما بكى ابنُ حذام

ويمتاز امرؤ القيس عمن سبقوه بأنه جعل بكاء الأطلال عنصراً مستقلا ، فقد أطال القول فيها ، ونوع صورها ورسومها.

يقول ابن قتيبة فى « كتابه الشعر والشعراء » .

« سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكا وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين .. إذْ كانَ نازلةُ العَمَدِ — أى أصحاب الأبنية الرفيعة فى الحلول والظعن — عَلَى خلاف ما عليه نازلة المدَر ؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان .. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع ،

عَقَّب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره ، وشكا النصب والسهر ، وسُرَى الليل وحرّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير » .

وقد أتى ابن رشيق فى كتابه « العمدة » بعديد من الإشارات لطائفة من الشعراء مع تعليقه عليها .. ويفهم مما أورده وعلق به فى مجموعه رأيهم ورأيه فى نشأة المقدمات ، ومما قاله : سئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر؟ فقال : كيف ينقفل دونى ، وعندى مفاتيحه ؟! قيل له : وعنه سألناك ، ما هو ؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب — ويعقب ابن رشيق عَلَى ذلك بقوله : فهذا لأنه عاشق ، ولعمرى إنه إذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ، ووضع رجله فى الركاب عَلَى أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، وإنما كان واصف أطلال ، ونادب أظعان ، وهذا هو الذى أخرجه من طبقة الفحول .

وقيل لكُثيّر عزة : كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة ، فيسهل علىّ أرصَنُه ، ويسرع إلىّ أحسنُه .

وكلهم حام حول المعنى ولم يقع عليه ، وليس ذكر الأطلال وبداية القصائد عملا مفتعلا لا ارتباط له بما بعده ، بل هو بداية النسيب ومطلع الغزل ، واسترجاع الماضى الحلو ، واستحضار الحالة الشعورية الخاصّة بتجاربه المخزونة فى الوجدان والأحاسيس .

فالبكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة لهؤلاء البدو الرحل عبر الصحارى والقفار لانتجاع مواطن الكلأ والمرعى ، والرباع التى يجودها الغيث وتهمى عليها الأمطار .. والوقوف على الأطلال يهيج الذكريات ، ويستدعى الاستغراق فى تأملها ، واستحضار ماضيها ومقارنته بحاضرها الذى آلت إليه ، وما فعلت بها الرياح والأمطار وتعاور الليل والنهار .

ومن هنا كان بكاء الديار غزلا يلهب المشاعر باجترار ذكريات طواها الزمن ؛ تحوك فى نفس الشاعر الفتى .. وفى نفس الشاعر الكهل .. وفى نفس الشاعر الشيخ شيخوخة ذاوية .. إنها الطبيعة الإنسانية لدى مرهفى الأحاسيس والمشاعر ؛ حتى ذوى التجارب الحكمية من هؤلاء الشعراء جاءت قصائدهم على هذا النسق العام من البدايات الطَّلَليّة الغزلية كزهير وأضرابه .

والشاعر الجاهلى فى وقوفه على الأطلال ، وبكائه النؤى والدمن والرباع المحيلة وتصويره لأحزانه أحزان الوداع إنما يصدر عن عاطفة ذات جانب إنسانى عام يشارك فيه الناس جميعاً فى كل عصر وبيئة ؛ لأنه يتصل بأعمق مشاعر المرء وأصدقها ، من الحب والصداقة والوفاء ، ويرتبط بماضيه وحاضره .. بأمسه ويومه .. بإخفاقه ونجاحه .. والعاطفة فيه جانب جوهرى أصيل ؛ تعكس ارتباطه بأهم شيئين : بالأرض والحياة ... وهذا الارتباط لا يتجه إليه الشاعر مباشرة ، وإنما يعبر عنه إيحاء ، مختفياً وراء ستار رقيق شفيف أو صفيق سميك من أسماء الأمكنة والمواضع والأشخاص ، رموز تضيع وتختفى ؛ مع اندماجنا فى تجربة الشاعر ، فيبقى لنا منها ما وراءها وما ترمز إليه ، وتسقط معها الملامح الموضعية الجغرافية المحدودة ، وتبقى للتجربة أصالتها وشمولها ، يقرؤها الناس ؛ فيسعدون بها ، ويعجبون لها ؛ فى كل مكان ، وعلى كل لسان .

وفى الحياة الصحراوية القاسية ؛ وهذا المجتمع البدوى الجاف تصبح المرأة أرق وأجمل وأروع ما فيه لدى الشاعر ، وتكون مشاهد التحمّل والرحيل آخر ما يتبعه بعينيه من مناظر أحبته ، فهو يتبعهم أيان ساروا ، وأينما اتجهوا ، وفى أى موضع حلّوا ونزلوا .

وذكريات امرىء القيس وأطلاله وظعائنه وليدة دفع عاطفى ، كان يحنّ فيها إلى أمسه ويشتاق إليه ، ويرجوه أن يعود من جديد ... وهى عواطف رغم

بيئتها المحدودة ومع تكرار بعض صورها ؛ ذات ملامح إنسانية عميقة ، لا نكاد نلم بها ونفهمها ؛ حتى نقف عندها .. ولا نكاد نقف عندها ونتأملها حتى نتجاوب معها ونفكر فيها .. ثم تتحول لدينا إلى واقع مجسّم نتصوره ونعايش صاحبه ، ونلتقى معه ونشاركه مشاركة وجدانية، نفرح له ، ونأسو عليه، لأنه يعبر عن لون من الفراق كلنا نعيشه فى صوره المختلفة ، فالموت فراق الحياة ، والفقر فراق الغنى ، والمرض فراق العافية ، والشقاء فراق السعادة ، والغربة فراق الوطن ، والرحيل فراق الأهل والأحبة ... والعالم فى حركته اليومية الزمنية زاخر بألوان من المفارقات ، والليالى حبالى يلِدْن كل عجيب ... وقد يضيق المرء ببعض الأسماء والألفاظ ؛ إذْ تثقل عَلَى أذنه ، ولا يصيخُ لها سمعه ، ويضطرب معها لسانه ؛ فإذا تجاوزها إلى ما هو سهل وموسيقى ومفيد ؛ تخلّت عنه الوحشة التى يحسّها ؛ وترسبت فى وجدانه تجربة الشاعر ، فيمد ذاكرته وفكره إلى شعر هذا الشاعر يغترف منه ، للتعبير عن مشاعره الخاصة وتصويرها إذا لم يكن قادراً عَلَى إبرازها فى الشكل الذى يودّه .

والمرأة فى جانبها النفسى وواقعها المعنوى أكثر وضوحًا فى شعر الأطلال منها فى شعر الغزل عند امرىء القيس ؛ لأنه فى مقدماته الطلليّة ، لا يلاحق المرأة كيانًا ماديًا حسيًا يصف دقائقه فحسب ،وإنما يعرض لها معنىإنسانيًا يأسى لفراقها ويحزن لرحيلها ، وتمتلىء عينيه بالدموع لما تهيجه الذكري عند تذكر تلك الأيام الخوالى التى نعم فيها بصاحبته ، وهذه اللحظات السعيدة التى قضاها معها . . وقلما يتجاوز امرؤ القيس ذلك التصوير العاطفى أو يتخلى عنه .. فإذا فعل فَلِكَىْ يقول عنها : إنها طيبة الرائحة ، ،وشاة الثياب .. والحديث عن المرأة فى مقدمة قصيده أمر طبيعى ؛ يقتضيه صدق الانفعال العاطفى ، واكتمال الصورة الذهنية ، وإبراز الحالة النفسية .. وليست المقدمة وما تتناوله من

الحديث عن الخليلات والصواحب بإقحام لها فى غير موضع حتى يمكن أن يقال عنها : إنها كلام مجرد كلام يمكن الشاعر أن يقوله فى غير هذا المكان وذلك المجال .

وامرؤ القيس فى مقدماته أوضح ما يكون شاعراً فناناً . وتتجلى مظاهر فنه فيما يتأرجح فيه بين الحزن القاتل وبين الرجاء المؤمل ؛ يبكى ويجد فى البكاء شفاءه ، ويعتصم بالربع ثم لا يعول عليه ، وييئس ثم يترك اليأس ويلوذ بالصبر ، ويستعين بالصبر ثم يجد ألا فائدة فيه ولا معول عليه . . يسائل الأحجار عساها أن تتكلم ، ثم يرد عنها الجواب بأنها صم صلاب ، ليس فى مقدورها أن تقول أو تنطق ، وماذا عساها أن تحدث . . هو فى حيرة وتأرجح يعكسان عاطفته الصادقة المرهفة ، ومشاعره الفياضة الحساسة ، فما من عاطفة تحتوى المرء فى أبعد أعماقه وأصدقها تلتزم طريقاً واحداً وخطاً ملتزما فى الحياة .. من التزام الحزن أو العزوف عنه . . ومن الانكباب على اللهو دائما أو تسريحه أبداً .

وقصارى ماتستطيعه نفسه وعواطفه أن يرجح أحد الجانبين ، وربما شقيت نفسه بالجانب الذى شالت كفته لديه ؛ أكثر مما تسعد بالجانب الذى رجحت موازينه عنده .

وإذا كانت العاطفة فى المقدمات أصلا من الأصول التى لا تصدر هذه المقدمات إلا عنه ، وتجعل منها شعراً إنسانياً رفيعا ، فهى فى الوقت نفسه — وتلك آية صدق وأصالة — تعكس فى المادة التى صُوِّرت بها البيئة التى تناولتها بكل مافيها من تقاليد ومُثل وشجر وحيوان ورمال وجبال وقيعان . والشاعر صادق فى ذلك لا يتكلف فى صناعته ، ولا يفرق فى صوره ، ولا يخرج بها عن دائرة التصور المقبول إلى الغلو المستحيل ، ولا يفتعلها افتعالا

وينحتها من الخيال الشاطح البعيد ، فمهابط امرىء القيس ومنازله ، ومغانيه ومراتعه .. مرّ بهـا وخبرها ، وتحدث فيها ، وسمر مع سمارها وأهليها ، ونال من اللهو طلبته ، وانتهب من اللذة والمتعة أربته . . فهو لا يتكلم عن أطلال وصفها من بعيد ، ولا يستمد خياله ومعارفه ومعلوماته عنها من حكايات القصاص ، أو ثرثرة الحداة .. وقد كان فى حديثه ووصفه دقيقاً ، حريصاً على أن يروى الواقع ويذكر الحقيقة . . ذكر الذين أفسحوا له من قلوبهم مكانا ، والذين أداروا له ظهورهم إعراضا عنه .. حتى مباذله فى ميعة الصبا — حين اقتضى المقام — ذكرها وأشار إليها ، ونوّه بها ، وهو فى ذلك كله لم يكن مصوراً يرسم من الذاكرة رسم المطمئن المستقر الهادىء ، وَإنما كان فنّانا يستجيب لدوَاعى العاطفة منفعلا نشيطا ، يسلك شعابا وفجاجا .

وفى المقدمات يحدد امرؤ القيس المكان غالبا والزمان قليلا ؛ وَيجعل لحظة التعرف على الرسوم والأطلال نادراً . ويعبّر عن خلوّ الديار بسكنى الوحش لها .. إنه وحشٌ يسرح فى الوديان مطمئنا . . ثم يعود إلى المنازل مرة أخرى ، ويتحدث عن فعل الرياح بها ، وعن عِينها وآرامها .. ومشاعر الشاعر بعد تجاوزه تحديد المكان وحديثه عنه ؛ لا تجرى على نمط واحد ، فهو يصف النساء الظعائن فى هوادجهن ، والحمر الوحشية التى تعبث بأتنها . . حتى الموسيقى كان لها نصيب فى مقدماته ، فقد ذكر قينة مغنية له ، ولم يخصها بحديثه ، وإنما تجاوزها إلى الأنغام نفسها . فوصف جمالها ورقتها وتأثيرها ، وأنها كانت أعلى صوتا ، وأبعد أثرا من جيش كثير العدد ذى ضجيج وصخب وفى بعض الأحيان كان يعرض لذكر الخمر عند ذكر ظعائنه .

وتتراوح مقدماته فيما وصلنا من شعره وقصائده طولا وقصرا ، وأقلها بيتان وأكثرها نحو سبعة عشر بيتا ..

وقد سبق لنا عند دراسة معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وقصيدته الثانية « ألا عم صباحا أيها الطلل البالى » أن عرضنا فى حديثنا إلى مقدمتى هاتين القصيدتين بالتحليل والإيضاح .

***

ولنستعرض مقدماته فى باقى قصائده فيما يلى : —

فى قصيدته البائية « خليلىّ مرّا بى على أمّ جندب » يقول :

خليلىّ مرّا بى عَلَى أمِّ جُندب   لتُقْضَى لُبانات الفؤادِ المعذّب
فإنكما إنْ تنظرانى ساعةً   من الدّهر تنفعنى لدَى أم جندب
ألم ترَيانى كلما جئْت طارقا   وجدْت بها طيبا وإنْ لم تطيّب
عقيلةُ أتراب لها لا دَميمةٌ   ولا ذاتُ خَلْقٍ إنْ تأمّلت جانِب
ألا ليت شعرى كيف حادث وَصْلها   وكيف تراعى وُصلة المتغيّب
أقامت على ما بيننا من مودّة   أميمةُ أم صارت لقولِ المخبِّب
فإنْ تنأ عنها حقبة لا تُلاقِها   فإنك مما أحدثتْ بالمجرِّبِ
تبصّر خليلى هلْ ترى من ظعائن   سَوالِك نَقْباً بين حَزْمَىْ شَعبْعَبِ
علوْن بأنطاكية فوقَ عقمة   كجِرْمةِ نخل أو كجنَّة يثرب
فللهِ عينا من رَأى من تفرُّق   أشتُّ وأنأى مِنْ فراق المحصّب
فريقان منهم جازِعٌ بطن نخلةٍ   وآخرُ منهم قاطعٌ نجدَ كبْكبِ
فعيْناك غرْبا جدْولٍ فى مُفاضةٍ   كمرِّ الخليج فى صَفيح المصوّب

يدعو رفيقيه للمرور به على منازل زوجه أم جندب ، ليرضى رغائب قلبه المعذب ، ويشتفى بلقائها مما يجد . . وإن لحظات قليلة ينتظره فيها صاحباه

لبقائه معها تنفعه عندها ، إذ يرضيها وينعم هوَ بها . . وقد تعوّد أن يجدها — كلما جاءها طارقا — طيّبة العرض والنشر ؛ وإن لم تتطيب وتمس طيبا . . إنها خير أترابها ، فليست بدميمة تزدريها الأعين ، ولا بجافية الخلق تشُقّ على الناظر .. أتراها مقيمة على عهدى ، مبقية على ماييننا من مودة ، أم اتبعت قول المخبب الاثيم المفسد ، وأطاعته فىّ . . إننى سأنأى عنها حقبة فأختبر وصلها أو هجرها . . وكأنى بها تقول : إذا بخلتُ عليك بالوصال ساءك بخلى ، وإن كشفت لك حبى وغرامى كان ذلك دربة لك وعادة تعتادها .. إنها لا تصله كل الوصل ، ولا تقطعه وتهجره كل القطع والهجر ، وبذلك يبقى حبها دائماً متجدداً حاراً قوياً عنيفاً .

ثم التفت إلى نسوة فى الهوادج ظاعنات يسلكن طريقا فى أرض غليظة ذات جبال ؛ بين هذين الموضعين « حزْمَىْ » المحيطين بشعبعب — وهو ماء باليمامة لبنى قشير — عليهن فى هوادجهن ثياب جميلة الوشى صنعت بأنطاكية ، ومن تحت تلك الثياب عِقَم « جمع عِقْمة » موشية . هن فيما يلبسن كنخيلات تحمل ثمارها ؛ بعضه أحمر ، وبعضه أصفر ، أو كجنة من جنات « يثرب » غصت بزهور مختلفة الألوان ، توارين وراء الأفق ، ولم يبق لديه منهن إلا ذكرياته . . ما أمرّ فراقهن ، وماَ أشده على قلبه ، وما أنكاه على فؤاده . . إنه فراق يبكيه . . فقد توزعتهن الطرق كحجيج تفرق جمعهم فى شعاب السبل بعد رمْى الجمار بالمحصب من « منى » . . لقد انقسموا فريقين : فريق أخذ طريقه سُفلاً إذْ سلك بطن نخلة حيث بستان عبيدالله بن معمر التيمى القرشى . . وفريق آخر آخذ وجهه وقاطع طريقه علواً على نجد كبكب ، ذلك الجبل الأحمر الذى يستدبره الواقفون بعرفات ..

ولما بلغ هذا القدر من التأمل تدفقت عيناه دموعا غزيرة كأنهما دلوان

عظيمان يغرفان من جدول ، ويصبان فى أرض واسعة ، فتجرى مياههما كجدول يفيض فى منحدر ، وقد جُعل على جانبيه حجارة عراض حتى لا ينهدم .

* * *

وفى قصيدته التائية « غشيت ديار الحىّ بالبكرات » يقول :

غشيتُ ديارَ الحىَّ بالبكَرَات فعارمَةٍ فبرْقـةِ العيرَات
فغَوْلٍ فحَلِّيتٍ فأَكنافِ مُنْعج إلى عـاقلٍ فالجبِّ ذى الأمرَات
ظللتُ ردائى فوْق رأسِى قاعِدًا أعُدُّ الحصَى ما تنقْضى عَـبرَاتى
أعِنى على التَّهمام والذِّكرات يَبِتْنَ على ذِى الْهمِّ مُعتكرات
بِلَيْلِ التِّمام أوْ وُصِلْنَ بمثْلِه مُقايسةً أيّامُهـا نـكرَاتِ
كأَنى وردْ فِى والقرابَ ونمرْقى على ظَهر عَيْرٍ وارِدِ الخبرات

يبدأ بتعداد المواضع والأمكنة والمياه التى مرّ بها وهى كثيرة : البكرات وهى مياه لبنى ذويبة من الضباب عندها جبال سود شوامخ ، وعارمة وهى مياه لبنى تميم بالرمل حيالها جبل لبنى عامر بنجد ، وبرقة العـيرات وهى أرض بها حجارة سود ورمل أبيض تسرح فيها الحمر الوحشيّة ، وغوْل وهو موضع ماء لبنى الضباب بجوف طخفة ، وحلّيت وهو موضع عند جبال ضرية فيه ذهب ، ومُنعـج وهو مكان فى جانب حمى ضرية ، وعاقل وهو جبل ، والجب وهو موضع ، والأمراتْ وهى العلامات فى الطريق ترشد المسافر جمع أَمَرة وهو الجبل الصغير .

يقول غشيت ديار الحى التى كانت مثواهم بهذه الأماكن إذْ يرحلون إليها وينتقلون بينها من موضع إلى موضـع ، فلما لم أجدهم فى تلك الديار ، ولم أعثر

عليهم فى هـذه الأماكن انتحيت ناحية وقعدت واضعاً ردائى فوق رأسى ، مفكراً مهموما أتسلى عن همى بعدّ الحصى ، ودموعى لا ترقأ ولا تغيض .٠. ساعدنى ياصاحبى على مقاساة همومى ومواساتى فى بلواى وتذكراتى الجالبة لحزنى ؛ تلك الذكرات المتتابعة التى لا انقضاء لها ولا نهاية ... إنها تعتكر علىّ بليل التمام أو وصلن بمثله ، يستوى فى ذلك ليلى ونهارى ، فهى تلاحقنى فى كليهما على السواء . .

ثم خرج الشاعر مِنْ ذلك إلى وصف حمار الوحش .٠

***

وفى قصيدته الرائية « سمالك شوق بعد ما كان أقصرا » يقول :

سَمَالَكَ شوْقٌ بعدما كانَ أقْصرَا ... وحلتْ سُلَيمى بطْنَ قَوٍّ فعرْعرا
كِنَانيَّة بانتْ وفى الصّدْر وُدُّها ... مُجَاوِرَةً غَسَّانَ والْحىَّ يَعْمُرا
بِعيْنىّ ظعْنُ الحىِّ لمّا تحمّلوا ... لدَى جانبِ الأفلاج مِنْ جنبِ تيْمرا
فشَبّهتهمْ فى الآلِ لمّا تكمّشُوا ... حدَائِقَ دوْمٍ أوْ سفِيناً مُقيّرَا
أوالمُكرَعاتِ مِن نخِيل ابن يامِنٍ ... دُوَيْن الصَّفا اللائى يلِينَ المُشقّرا
سَوَامِقَ جبّار أثيثٍ فُرُوعُه ... وعالِينَ قِنوَاناً منَ البسر أحمَرا
حَمتْهُ بنُوالرّبْداء مِنْ آلِ يامن ... بأسيافِهمْ حتى أقرَّ وأوْقَرا
وأرْضَى بنى الربْداء واعتمّ زهْرُهُ ... وأكمامُـــــهُ حتى إذا ما تهَصّرا
أطافَتْ بِهِ جَيْلانُ عِنْدَ قطاعِهِ ... تَرَدّدُ فيهِ العيْنُ حتى تحَيّرا
كأنّ دُمَى سُقْفٍ على ظَهْرِ مرْمرٍ ... كسَا مزْبدَ السَّاجُوم وَشياً مُصَوَّرا
غرائرُ فى كِنٍّ وَصوْنٍ ونِعْمَةٍ ... يُحلَيْنَ ياقُوتًا وشـذْرًا مُفقّرا

وريحَ سنًا فى حقّةٍ حِمْيَرِيّة　　تخصُّ بمفروكٍ منَ المسكِ أَذْفَرا

وَبانًا وألْويًا منَ الْهِنْدِ ذاكيًا　　ورَنْدًا ولُبْنى والـكِباءَ المُقتَّرا

غلقْنَ برَهنٍ منْ حَبيبٍ بِهِ ادَّعت　　سليمَى فأمْسى حبلُها قدْ تبتّرا

وكانَ لها فى سالفِ الدَّهرِ خُلّةٌ　　يُسارِقُ بالطَّرْفِ الخِبَاءَ المُستّرا

إذا نَالَ منها نظرةً رِيعُ قَلْبه　　كما ذَعَرت كأسُ الصَّبُوحِ المخمَّرا

نزِيفٌ إذا قامتْ لِوجْهٍ تمايلتْ　　تُراشِي الفُؤَادَ الرَّخْصَ إلاّ تخترَّا

أَأَسماءُ أمسى وُدُّها قدْ تغيرا　　سَنُبدِلُ إنْ أبدَلْتِ بالوُدِّ آخرا

يقول : هاج لك الشوق يا قابي بحلول سليمى بهذين الموضعين و بعدها عنك ، بعدما كان تاركك ومُقصراً عنك لقربها منك ... إنها من بنى كنانة وحيها حىٌّ يعمر ، ولـكنها بانت منك وبعدت عنك ، وأصبحت تجاور ماء غسان .

وعلى رغم فراقها وبعدها فما يزال حبها يملأ صدرى ويعمر فؤادى . . لقد اتبعت بنظرى الظعائن ظعائن الحىّ وهى منهن حزنا لفراقها ، حينما تحمل القوم وارتحلوا عن المرتبع الذى جمعهم ، وبقيت أتطلع إليهم حتى غابوا وراء الجدول الجارى من جنب موضع « قيمر » . . . شبهتهم — حين تكمشوا وأسرعوا بالسير — بحدائق الدوم لـما فى الهوادج من الألوان المختلفة ، وشبهتهم — أيضا — بالسفائن المقيرة المطلية بالقار ، لمسيرهم فى السراب كسير السفن فى الماء — والآل يكون بالعشى ، والسراب يكون بالضحى ، وقيل الآل فى أول النهار والسراب فى وسطه — وشبهتهم أيضا بالنخيل النابت على الماء نخيل ابن يامن فى هجر بعد « المشقر » ودون « الصفا » وهما قصران بناحية اليمامة . . نخيل عاليات فتيات مزدهرات يانعات ، تحمل فى رءوسها

سعفا غزيرا أخضر ، وقنوانا من البسر والبلح الأحمر . ولقد حمى هذا النخيل قومه بنو الربداء من آل يامن بالبحرين ، حموه بسيوفهم ضنا به ، وحرصا عليه ، فكثرت أحماله من البلح ، واعتم زهوه أى كمل إحمرار واصفرار بسره ، وأرضى نتاجه بنى الربداء . وطافت به جيلان وهم عمال كسرى كانوا يطوفون بالبحرين وماحولها يصرمون مانضج من نخيلها . بالإمعان والتعمق فى إدراك هذه الصورة صورة النخيل التى شبه بها الظعائن وفى إدراك ذلك الجمال الذى جلاه الشاعر لهن جلاء يملأ العين ويسحر اللب ؛ يحار المرء نظرا ، وشعورا ، وإحساساً . . هذه الظعائن الجميلة الراحلة الموشاة لا تشبه حدائق الدوم الجميلة ، ولا السفائن المقيرة اللامعة تخطر على الماء وتنساب فوق العباب ، ولا النخيلات السوامق كللها البسر وتوجها السعف والزهو ... لا تشبه تلك الأشياء فحسب وإنما تشبه أيضا تماثيل بديعة جميلة على قوائم من المرمر ، أو تشبه صورا مزخرفة على جدران مطلية فى دير « سقف » بالشام ... بل كأنهن الوشى المصور يكسو وادى الساجوم المزبد . . . إنهن ظعائن غوافل لا تجربة لهن فى كن وستر ، مخدرات مصونات ، منعمات مترفات ، يحلين باليواقيت والجواهر وبالحلى المصنوع من الذهب على هيئة فقار الجرادة . . . طيبات الرائحة ؛ كأنما عطرن من حقاق ومجامر للملوك حميرين تخص بالمسك الأزفر المفروك الذى تنتشر رائحته القوية ، ويسطع عطره الذاكى . . . وقد زادهن طيبا وعطرا ما أضيف إلى ذلك المسك الأزفر من زكى العود والبان والرند والبخور المقتر .. . هؤلاء النسوة الجميلات المكنونات العبقات الظاعنات ؛ ذهبن بقلبه ، واستولين على لبه ، وكانت سليمى تدعيه لنفسها وحدها من دونهن .

ثم انقطع مابينها وبينه من حبل الوصال ، وكان لها فى سالف الدهر صداقة وخليلا « يعنى نفسه » ، يسترق النظر إلى خبائها رغم أستاره الصفاق ، فإذا رآها

ونال منها نظرة ريع قلبه وخفق واضطرب ، كما يرتاع ويذعر شريب الخمر الثمل الذى أصابه الخمار عندما يرى كأس الصبوح فيستفظعها مع محبته فيها وحرصه على التلذذ بها . . . كانت سليمى واهنة الخطو عند المشى ، فاترة مسترخية إذا تحركت لقضاء أمر من الأمور ، لأنها من ذوات النعمة والترف والراحة . . . . إنها تتحامل على نفسها وتتماسك ، وتتكلف الجلد إذا نهضت وقامت . . . . تراشى فؤاد محبوبها وترميه بسهام لحظها الفتاك حرصا على استمالته وخدعه وتختره حتى يبقى على حبها والولاء لها ... ولكن ماذا كان من أمرها فيما بعد ؛ أتغير ودها ، وبدل حبها ؟ . . إنها إن فعلت ذلك فمالت بهواها إلى غيره سيكون جزاؤها عنده من جنس تصرفها معه . . سيبدل بودها ودا آخر لمحبوبة سواها فالجزاء من جنس العمل . . ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أسماء .

***

وفى قصيدة رائية أخرى « لعمرك ما قلبى إلى أهله بحر » يقول :

لعمركَ ما قلْبي إلى أهْلِهِ بِحُرْ ... ولا مُقْصِرٍ يوْماً فيَأْتِينى بِقُر

ألاَ إنَّما الدَّهْرُ ليالٍ وأعْصُر ... وَليْسَ عَلى شَيْءٍ قَوِيم بِمُسْتَمِرّ

ليالٍ بذات الطَّلْح عندَ مُحَجَّرٍ ... أَحَبُّ إلينا مِنْ ليالٍ على أُقُر

أُغَادِي الصَّبُوحَ عِنْدَ هرٍّ وَفَرْتنَا ... وَليدًا وهَلْ أَفْنى شَبابِيَ غَيرُهر

إذَا ذُقْتُ فاها قلتُ طَعْمُ مُدامَة ... مُعَتَّقَةٍ مِمَّا تَجِيءُ بهِ التُّجُرْ

همَا نعجَتانِ من نِعَاج تبالَةٍ ... لدَى جُؤْذُرَيْنِ أَو كبَعْضِ دُمى هَكِرْ

إذَا قامَتا تَضوَّعَ المسْكُ منهما ... برائحةٍ من اللَّطيمَةِ والقُطُرُ

كأَنَّ التِّجَارَ أصْعَدوا بِسبِيئَةٍ ... من الخُصِّ حتَّى أنزَلُوها على يُسُر

فلما استطابوا صُبَّ فى الصَّحْنِ نصفه ... وشُجَّت بمَاءٍ غَيرِ طَرْقٍ ولا كَدِرِ

بماءِ سحابٍ زلّ عنْ مَتنِ صخْرَةٍ إلى بطنِ أُخْرَى طيّبٍ ماؤُها خَصِرْ

يقول : أن قلبه غير قادر على صبر الأحرار ، ولا نازع عمّا هو عليه من الجزع فيتيح له الهدوء والاستقرار . فالدهر حوّل قلب ؛ يتغير بتعاقب لياليه وأيامه ، فليس يدوم فيه شيء مستقيم على حال ، بل كل شيء يلحقه التغير ، ويصيبه التحول والتبدل ، فهو دهر مختلف فى نفسه ، يتعاقب بليل ونهار ، وظلام وضياء ، ولا يدوم فيه خير ولا شر ، ولاصحة ولا سقم ، ولا اجتماع ولا افتراق، ولاارتحال واغتراب ولا إقامة واستقرار ، ولا بؤس ولا نعيم ، ولا راحة ولا تعب فكل شيء فيه إلى زوال وانقضاء .

... إن أحب الليالى إليه وأسعدها عنده تلك الليالى التى أمضاها بموضع « محجر » ببلاد طيء بذات الطلح حيث ماء بنى سَنْسَن فى الجبلين ، إن تلك الليالى السالفة أحب إليه من لياليه القارة الحاضرة العتيدة .. إنها أيام وليالى ماضية جميلة حافلة بالذكريات والمسرات ، كان فيها يغادى شراب الصبوح عند « هرّ » و « فرتنى » وهو فى مطالع صباه إلى أن شاخ وفنى شبابه . . . إذا لثم شفتيها وقبّل فاها وذاق ريقها ؛ وجده رضاباً عبقاً طيب الرائحة لذيذ الطعم ، كخمر مستوردة مما يجلبه التجار ... وإن عيونهما « هر وفرتنى » عيون جميلة حالمة فاترة كنعجتين من نعاج « تبالة » ببلاد اليمن حانيتين عَلَى جؤذريهما فى سعة الأعين وسكون المشية، أو كأنهما دميتان منحوتتان من الرخام من دمى « هكر » وهى مدينة باليمن ... إذا قامتا فاح وانتشر منهما ريح كريح المسك الأزفر ، أو ريح العود الذى به يتبخر ... ثم عاد إلى تشبيه ريق فاهيهما بالخمر المستوردة من « الخص » بالشام إلى موضع « يسر » بالحزن حيث كان امرؤ القيس نازلا به ... وإنها لخمر مشعشعة كسرت حدتها فى كأسها بماء طيب غير طَرْق ولا كدر .. إنه ماء خصر بارد من ماء السحاب المطر المنحدر عن متن صخرة إلى أخرى .

وفى قصيدته السينية « ألمّا على الربع القديم بعسعسا » يقول : —

أَلِمَّا عَلَى الرَّبعِ القَدِيمِ بِعَسْعَسَا كَأَنِّى أُنَادِى أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الدَّارِ فيها كَعَهدِنَا وَجَدْتُ مَقِيلاً عِنْدَهُم وَمُعَرَّسا

فلا تُنكِرُونى إنَّنى أنَا ذَاكُمُ ليالىَ حلَّ الحَىُّ غَوْلاً فأَلْعَسَا

تَأَوَّبنى دَائى القدِيمُ فَغَلَّسَا أحاذِرُ أنْ يَرْتَدَّ دَائِى فَأُنْكَسَا

فإِمَّا تَرَيْنى لا أُغَمِّضُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ أنْ أُكِبَّ فَأَنْعَسَا

يقول اصاحبيه انزلا معى على هذا الربع بعسعس فى زيارة خاطفة غير طويلة لنسأله الخبر عن أهله ، كيف حالهم وما أخبارهم ومقامهم ؟! .. ولـكنه ربع عيى غير سميع . فهو لا يجيب من يناديه ، وكأنى بمناداتى له إنما أنادى أصم أخرس لا يرجع إلىّ جوابى ولا يشفينى من سؤالى .

ولو كانت هذه الدار عامرة بأهلها كما كان عهدى بها فى سالف الأيام ، لوجدت منهم ترحيباً بى ، ومقيلا فى الهاجرة وسكنا فى الليل لى ؛ ولـكنها خالية منذ أزمان ، فلذلك لا أعرج عليها ... وإنى لا أكاد أصدق نفسى أنها خالية من ساكنيها ، فلربما كانوا ما يزالون حلولا بها ومقيمين فيها ، ولـكنهم لا يردون علىّ لأنهم ينكروننى ويتجاهلوننى ، وما ينبغى أن أكون لديهم مجهولا ، لأننى أنا ذلـكم الذى عرفتموه وصحبتموه زمن المتربع حيث كان الحى يحلّ بموضعَىْ « غول وألعس » وغول جبل فى حضنه وادٍ فيه نخيل وعيون للضباب ، وألعس جبل فى ديار بنى عامر .. وهما موضوعان كان القوم قد ارتبعوا فيهما .

لقد عاودنى دائى القديم فى الغلس ، وكم كنت أحاذر أن أنتكس . . يعنى أنه قد سَلا ثم تذكر فعاوده وجده وأسفه . . إن فىّ منْ تلك المعشوقة داء

يمنعني النوم ، فما أكاد أغمض من الليل ساعة إلّا أن أحني رأسي كمن يريد النعاس فلا أنال منه إلا سِنة خاطفة .

* * *

وفي قصيدته السينية الأخرى « أماويّ هل لي عندكم من معرس » أكتفي في مقدمة القصيدة ببيتين هما : —

أَمَاوِيّ:هَلْ لِي عِنْدَكُمْ مِنْ مُعَرَّسِ   أَمِ الصَّرْمِ تَخْتَارِينَ بالْوَصْلِ نيئَسِ
أَبِينِي لَنا ، إنَّ الصَّرِيمَةَ رَاحَةٌ   مِن الشَّكِّ ذِي الْمَخْلُوجَةَ المتَلَبَّسِ

ينادي ماويّة ويسألها : هل لي عندك من وصل يدعو إلى إقامتي وتعريسي لديكم ليلا . . أفصحي لنا عما في ضميرك ، فإن في البيان والإفصاح راحة لنفسي القلقة الموزعة ، حتى لو كان اختيارك أيتها الحبيبة هجراً وقطيعة ، فهذا الإفصاح وذلك الهجر البين الواضح أهدأ لنفسي وأروح لقلبي وأندى على كبدي من موقف الشك الناشئ عن الخلط واللبس والالتواء ، وذلك أولى في حسم الأمر وتحديد الموقف .

* * *

وفي قصيدته القافيّة « ألا أنعم صباحا أيها الربع وأنطق » يقول :—

أَلا عِمْ صَبَاحًا أَيُّها الرَّبْعُ فانْطِقِ   وحَدِّثْ حديثَ الركْبِ إنْ شِئْتَ فاصْدُق
وَحدّثْ بأَنْ زالَتْ بليلٍ حُمُولُهم   كَنخْلٍ مِنَ الأعرَاضِ غيرِ مُنَبَّق
جَعَلْنَ حَوَايا ، واقْـتعدْن قَعائِدًا   وَحَفَفْنَ عَنْ حَوْكِ العِراق المنَمَّقِ
وَفَوْقَ الحَوَايا غِزْلَةٌ وَجآذِرٌ   تَضَمَّخْنَ مِنْ مِسْكٍ ذَكِيّ وَزَنبَقِ
فأَتْبَعتَهُمْ طَرْفِي وَقَدْ حالَ دُونَهُم   غَوارِبُ رَمْلٍ ذِي ألَاءٍ وَشِبْرِقِ

عَلى إثْرِ حَيٍّ عامِدِين لِنِيَّةٍ   فَحَلُّوا العَقِيقَ أوْ ثَنِيَّةَ مُطْرِق

فعزَّيْتُ نفسى حين بانوا بجَسرة   أمون كبنيان اليهودى خَيفَقِ

حيا الشاعر الربع ، ودعا لأهله ، وطلب إليه أن يكلمه ويصدق القول معه فيما رجاه أن يقصه عليه من حديث الركب الذين كانوا هنا ، ثم مضوا وارتحلوا . . .

كيف كان ارتحالهم ذات مساء ؟ ! . وكيف زايلت حمولهم وظعائنهم ليلا ذلك الموضع ؟ ! لقد تبددوا وتفرقوا كتشتت نخل من نخيل الأودية .. نخل غير مُزْهٍ ولامثمر ، أو غير مستوٍ ولا مهذب ولا مرتب فى صف واحد ، بل إنه مشتت متفرق . . وفوق تلك الإبل الراحلة حواياها التى تُجعل حول سُنُمها (جمع سنام) وهوادج النسوة التى يحملن عليها ، وقد قعدن فيها على قعائد (شلت) طريَّة منسوجات بالحَفِّ وهو خشبة الحائك العريضة ينسق بها اللاحمة بين السدى ، وتحيط بتلك الهوادج ستائر منمقة مما يحاك وينسج بالعراق . . وفى الهوادج فوق المطايا نساء جميلات كالغزلان والجآذر فى سحر العيون وجمال الجيد ، تضمخن من المسك الذكىّ ؛ ومن مستخرج الزنبق العطر .. تابعتهم فى رحيلهم بعينىّ مستغرقا فى تأملهم والنظر إليهم ، حتى تواروا خلف هضابٍ مرتفعات ورمال عاليات ذوات أشجار من الألاء والشبرق... كانت تطلعاتى على إثر هذا الحىّ الظاعن إلى حيث يقصدون ، وإلى المكان الذى به سينزلون .. إلى وادى العقيق ، أو ثنية مُطْرِق . فلما بعدوا عن عينى ، وانقطعوا عن بصرى ، واختفوا فوق الهضاب والرمال عزيت نفسى وسريت همى وفثأت حزنى بالرحيل على ناقة موثقة الخلق قوية طويلة عالية القوائم كأنها بنيان اليهودى ومعبده .

***

وفى قصيدته اللامية «يا دار ماوية بالحـائل» التى يتوعد فيها بطونا من بنى أسد اكتفى فى مقدمتها ببيتين هما قوله : —

يَا دَارَ مَاوِيَّةَ بِالْحَائِلِ ... فَالسَّهْب فَالْخَبْتَيْنِ مِنْ عَاقِلِ
صُمَّ صَدَاهَا وَعَفَا رَسْمُهَا ... واسْتَعْجَمَتْ عنْ مَنْطِقِ السَّائِلِ

يبدأ بنداء دار ماوية بين الحائل والسهب والخبتين من عاقل ، ويسائلها : لم صمّ صداها فلا تسمع ، وعفا رسمها فلا يرى ، واستعجمت عرصاتها فلا تجيب . .

* * *

وفى قصيدته الميمية «لمن الديار غشيتها بسحام» يقول : —

لِمَنِ الدِّيَارُ غَشِيتُهَا بِسُحَام ... فَعَمَايَتَيْن فهُضْب ذِى إقْدَام
فَصَفَا الأطِيط فصَاحَتَيْن فغَاضِرٍ ... تَمْشِى النِّعَاجُ بِهَا معَ الآرَام
دارٌ لهندٍ والرّبَاب وَفَرْتَنَا ... ولمِيس قبْلَ حوادِثِ الأيَّام
عُوجَا على الطّلَل المُحِيلِ لأنّنَا ... نَبكِى الدِّيارَ كمَا بَكى ابنُ حِذَام
دارٌ لهم إذْ هُمْ لأهْلِكَ جِيرَةٌ ... إذْ تَسْتبِيكَ بوَاضِحٍ بَسَّام
أزْمَانَ فُوهَا كلّمَا نبّهتُهَا ... كالمِسْكِ باتَ وظَلّ فِيهِ فِدَام
أوَما ترى أظْعَانَهُنّ بَوَاكِرًا ... كالنّخْلِ مِنْ شوْكانَ حِينَ صِرَام
حُورٌ تُعَلّلُ بالعَبِير جُلودُها ... بِيضُ الوُجُوهِ نَوَاعِمُ الأجْسَام
فظَلِلْتُ فى دِمَنِ الدّيار كأنّنِى ... نَشْوَانُ باكرَهُ صبوحُ مُدام
أُنُفٌ كلَوْنِ دَمِ الغَزالِ مُعتّقٌ ... مِنْ خمْرِ عَانَةَ أوْ كرُوم شِبَام
وكأنّ شَارِبَهَا أصابَ لِسَانَهُ ... مومٌ يُخَالِطُ جِسْمَهُ بِسَقام

يتساءل الشاعر عن هذه الديار التى تغيرت ، فلم يستطع أن يهتدى إليها فى بادىء الأمر ، لمن عساها أن تكون ؟ ثم بدا له بعد وقوفه عليها أن يعين مواضعها ويحدد أمكنتها التى أمضى فيها أياماً جميلة وأوقاتاً سعيدة ، مع هند والرباب وفرتَنى ولميس ... فهى أماكن بين سُحام وعمايتين ، فهضاب ذى أقدام ، فصفا الأطيط ، فصاحتين ، فغاضر .. إنها بقاع من الأرض فارقها أهلوها ، وتحمّل عنها ذووها ، فأصبحت منازل للنعاج والآرام تسرح وتمشى فيها .. إنها ديار هؤلياء الصواحب ، فقد كنّ وكنتُ معهنّ نرتبع ، نقيم فيها وننعم باللقاء فى رباعها ومجاليها ؛ قبل أن يغيرها الدهر الكنود بنوازله ، ويفرق بيننا بأحداثه ... أعينانى يا صاحبىّ وأسعدانى على البكاء وعوجا واعطفا معى على أطلال أمسى الذاهب نبكيها ونأسى عليها كما بكى من قبلنا ابن حذام على أطلاله ودمنه وظعائنه . . إنها ذكريات تعيش حية مستيقظة فى أعماقى . . ما أسعدنى بديارهن أمس ، حينما كنّ حلولا بها وكنت جيرة لأهلها ؛ يَستبينَ عقلى بثغورهن النقية الواضحة البسّامة ... وكانت أفواههن كلما نبّهتُهن أو نبهت واحدة منهن يفوح منها العطر ورائحة المسك المختوم بغطاء وفِدام .

إنى لأكاد ألمح وتلمحان معى يا رفيقىّ تلك الظعائن وهؤلاء الحسناوات المتحملات المستقرات على مطاياهن فى هوادجهن ، وقد رحلن مبكرات ، كأنهن — بألوان ثيابهن وألوان هوادجهن وما حوته من ضروب الوشى والرقوم — كأنهن نخل شوكان باليمن حين آن صرامه ، وجاء وقت قطاف ثماره ؛ فى شدة اخضرار سعفه ، واحمرار ثمره ، واصفرار أكله ... إنهن ظاعنات بيض الوجوه ، نواعم الجسوم ، حوراوات الأعين ، آسرات فاتنات ... يكثرن من التطييب بالعبير والزعفران والغالية مرة بعد مرة .

إنه حين وقف على تلك الديار أدركه من الأسف لفراقهم والبعد عنهم

ما يدرك النشوان من الحيرة عند الاصطباح بعد أن شرب خمراً معتقة وراحاً أُنُفاً لم يشرب من دنّها أحد قبله .. إنها شديدة الحمرة كلون دم الغزال من خمر « عانة » أو من عصير كروم « شبام » — وهما موضعان يطيب ويجود فيهما الخمر — ما يكاد الشارب يحتسيها حتى تذهب بعقله وينعقد لسانه ، ويخلط فى كلامه ، كأنه مصاب فى بدنه . . . يعنى أنه ظل فى دمن ديار هؤلاء الظعائن شارد الفكر ، موله القلب ، عميد الفؤاد ، موزع اللب ، زائغ النظرات ؛ تختلط فى مشاعره مسرات أمسه الدابر ، مع أحزان يومه الحاضر ، وتتداخل مباهج ماضيه المرح مع لوعة حاضره المرير التعس ، وهو بينهما ثمل ضائع موزع كنشوان احتسى خمراً فى صباح مبكر حتى فقد اتزانه وضاع رشاده .

* * *

وفى قصيدته النونية « لمن طلل أبصرته فشجانى » يقول :

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فَشَجَانِى ... كَخَطِّ زَبُورٍ فى عَسِيبِ يَمانِى

ديارٌ لهندٍ والرَّبابِ وفَرْتَنَى ... لَيَالِينَا بالنَّعْفِ مِنْ بَدَلان

لَيالِىَ يَدْعُونِى الهَوَى فأُجِيبُهُ ... وأعْيُنُ مَنْ أهْوَى إلىَّ رَوَانِى

فإنْ أمسِ مكروباً فيا رُبَّ قَيْنَةٍ ... مُنعمَةٍ أعْمَلْتُهَا بِكِرَانِ

لَهَا مِزْهَرٌ يَعْلُو الخَمِيسَ بصَوْتِهِ ... أجَشُّ إذا مَا حَرَّكَتْه الْيَدانِ

يتساءل الشاعر عن هذا الطلل الدارس لمن يكون يا تُرى ؟ . . إنه طلل خفيت آثاره ، وطمست معالمه .. إنه أشجانى وهاج لى الهم والحزن ؛ إذْ لا أرى منه إلا ما يُرى من حروف مزبورة كتبت بالمزبر (القلم) على عسيب يمانى .. وقد كان أهل اليمن يكتبون عهودهم وصكاكهم على عسيب النخيل وسعفه .

إنى أكاد أعرف هذا الطلل ... إنه طلل هند والرباب وفرتنا ؛ حيث

كنت أمضى الأيام والليالى معهن ، وألهو بهن فى هذا الوادى المنحدر من الجبل والمرتفع عن الوادى « النعف » فى ناحية « البدلان » ... لشد ما أسعدتنى هذه الليالى التى استجبت فيها لهواىَ ، وعيون هؤليّاء الصواحب رانيات إلىّ ، كلفات بى ، لا يرسلن أبصارهن إلى غيرى ، ولا ينصرفن إلى سواى ... ولئن أصابنى الدهر بمكروه ، وتغمّدنى بشرّ ؛ فكم من كربة كشفت وفرجت ، وهول ناجم عن أمر شديد لا يُدرى كيف يُحتال له أزلت عمايته ، وملكت زمامه وناصيته ، ونحّيته عنى بعيداً ، وعن كل من قد يسْوَدّ وجهه إذا أشكل عليه الأمر ، ولم يستطع التوجه إليه والمضىّ فيه لجبنه وضعفه وهوانه ، فاغبرّ وجهه حيرة وغمّاً ...

لئن أصابنى الدهر بنوائبه وكروبه ؛ فإنه طالما سرّنى بمتعه ، فلهوت وطربت ونعمت بالاستمتاع إلى جارية مغنية جميلة منعمة ؛ جملتها توقع ألحانها على عود الطرب ... وإنه لمزهر جميل اللحن والنغم ، عالى الصوت بحيث يغلب بشدته وقوته أصوات أهل الجيش اللجب ؛ إذا ما حركت جاريتى أوتاره بيديها .

* * *

وفى قصيدة نونيّة أخرى « قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان » يقول :

قِفَا نَبكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَعِرْفَانِ ... ورَسْمٍ عَفَتْ آيَاتُهُ مُنْذُ أزْمَانِ

أتَتْ حِجَجٌ بعْدِى عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ ... كَخَطِّ زَبُورٍ فى مَصَاحِفِ رُهْبَانِ

ذَكَرْتُ بِهَا الحَىَّ الجَمِيعَ فهَيَّجَتْ ... عَقَابِيلَ سُقْمٍ مِنْ ضَمِيرٍ وَأشْجَانِ

فَسَحَّتْ دُمُوعِى فى الرِّدَاءِ كَأَنَّهَا ... كُلًى مِنْ شَعِيبٍ ذَاتُ سَحٍّ وتَهْتَانِ

يدعو رفيقيه فى هذه الأبيات إلى الوقوف معه ، ومشاركته فى البكاء واللوعة والتأسى لذكرى حبيبه الذى كان له بهذا الموضع فيما سلف . ويدعوهما

كذلك للبكاء معه على هذا الرسم والطلل لما عرف من علاماته التى عفت آثارها وآياتها منذ أزمان ..

ويقول : لقد أتت سنون وانقضت أعوام بعدى على هذه الديار ، فتغيرت رسومها ودرست آثارها ، وأصبح الباقى من ملامحها كخط الكتاب فى صحف الرهبان الذين كانوا يكتبون ما يكتبون فى العسيب وسعف النخيل .

لقد ذكرت — برسوم تلك الأطلال — القومَ يومَ أن كانوا مجتمعين هنا ، وفيهم من أحب وأهوى ، فهاجتنى الذكرى بعد ما كنت منطوياً على بقايا سقمى وعلّتى لِفراقهم ، وأهاجنى النظر إلى هذه الرسوم ، فأوحى إلىّ ما أوْحَى واسترجع لدىّ الشجن ومكنون الضمير والفؤاد ، فسحت دموعى ، وفاضت شئونى ، وسالت عبراتى على ردائى كأنها ماء منصب من رقعة فى مزادة وقربة بالية ، قد انشعبت جوانبها وتمزقت ، ثم رقعت ثانية فى أصول عراها ؛ فهى لذلك ذات سحّ وتهتان على الدوام .

وصف الطبيعة

استغرق هذا الغرض من شعر امرىء القيس نحو نصف ديوانه وقد تناول فيه وصف الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة .

ونعنى بالطبيعة الحية ، وصفه للفرس والناقة والظباء والعقاب وحمر الوحش والظليم (ذكر النعام) وكلاب الصيد وبقر الوحش ونعاجه والثعالب والأرانب البرية والذئب والأوابد والضِّباب ، وما إلى ذلك من كل كائن متحرك على رمال الصحراء وعَبر الفيافى والقفار .

ونعنى بالطبيعة الصامتة مظاهر الكون من سماء وأفلاك ونجوم وكواكب ، وسحاب ومطر وسيل وبرد ورعد وبرق ، ونهار وليل ، وصحارى وقفار ، وجبال ووديان ، ونجاد ووهاد وأغوار ، ونؤى وأطلال ودمن وعرصات ، ونسائم ورياح ، ونخيل ونبات ، ودوح وآكام ، وأوتاد وأمراس وجبال ، وبعر وتراب وصخر ، وخصب ومحل ... ونحو ذلك من مظاهر الطبيعة التى لا تفيض بالحياة ولا تقدر على الحركة الإرادية التى فيها سرّ الموت والبقاء .

وأكثر ما عرض الشاعر له بالوصف فى مجال الطبيعة الحية المتحركة هما : الفرس ، والناقة .. وإنما تتخذ الفرس للحرب ومزاولة متعة الصيد ... وأما الناقة فهى سفينة الصحراء ، وعليها البلاغ فى الشبع والرى ، وفى الارتحال وحمل الأثقال ، والسفر بها عبر الصحارى والرمال والفيافى والقفار .

وما ورد فى شعر امرىء القيس من مظاهر الطبيعة الحية الأخرى فإن حديثه

عنها لم يكن مقصوداً لذاته ، بل جاء به فى مجال الحديث عن الفرس ومتعة الصيد ، أو جاء به فى مجال الحديث عن الناقة وضرورة الارتحال على مطاها .

وقد سبق لنا عند دراستنا لمعلقة الشاعر « قفا نبك » وقصيدته الثانية « ألا عم صباحا » أن عرضنا بالتحليل والإيضاح التفصيلى لما أتى به فيهما من وصف الفرس صائداً لاهياً ، ووصف الناقة راحلاً مستنجداً مستعدياً .

وبقى علينا أن نتابع ما أورده عنهما فى باقى قصائده وشعره :

ومن قوله فى وصف الخيل ، خيول الحرب : —

سالَتْ بِهِنَّ نَطاعِ فى رَأْد الضُّحَى   والأَمْعَزان وسَالَت الأَوْداء
يَخْرُجْن مِنْ خَلَلِ الغُبارِ عَشِيَّةً   بالدَّارِعِين كأنَّهُنَّ ظِباء

يقول سالت بتلك الخيل المحاربة هذه الأماكن : نطاع ، والأمعزان ، والأوداء ، لشدة عدوها ، وسرعة جريها ، كأنها السيل الجارف فى السرعة والاندفاع . . إنهن يخرجن عشية من خلال الغبار الذى تثيره سنابكها ، وعليها فرسانها الذين أسبغوا دروعهم ، واستلأموا فى سلاحهم ، وكأنهن الظباء فى الخفة والرشاقة .

* * *

وفى قصيدته التى بارى بها علقمة بن عبدة الفحل « خليلىّ مرا بى على أم جندب » تعرض فيها لوصف الحصان فى نحو ثلاثين بيتاً :

وقدْ اغتدِى والطيرُ فى وُكناتِها   ومَاءُ الندَى يجْرى على كلِّ مِذْنَبِ
بمنْجَرِدٍ قيْد الأوابدِ لاحَهُ   طِرادُ الهَوادِى كلَّ شَأْوٍ مُغَرِّب
على الأيْنِ جَيَّاشٍ كأنَّ سَراتَه   على الضَّمْر والتَّعْداء سرْحَةُ مَرْقَب

يُبارِى الخَنُوفَ المستقلَّ زِماعُه تَرَى شَخْصَه كأنّه عُودُ مِشْجَبِ
لَهُ أيطَلا ظبْيٍ وساقَا نَعامةٍ وَصَهْوَةُ عَيْرٍ قائمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ
ويَخْطُو على صُمٍّ صِلابٍ كأنَّها حِجَارَةُ غَيْلٍ وارِساتٌ بطُحْلُبِ
له كَفَلٌ كالدِّعْصِ لَبَّدَهُ النَّدَى إلى حارِكٍ مِثْلِ الغَبيطِ المذأَّبِ
وعينٌ كمرآةِ الصَّناعِ تُدِيرُها لمحْجِرِها من النَّصيفِ المنقَّبِ
لهُ أُذُنانِ تَعرِفُ العِتْقَ فيهما كسامِعَتَيْ مَذْعُورَةٍ وسْطَ رَبْرَبِ
وَمُسْتَفْلِكُ الذِّفْرَى كأنَّ عِنانَهُ ومَثْناتَهُ فى رأْسِ جِذْعٍ مُشَذَّبِ
وأسحَمُ رَيَّانُ العَسِيبِ كأنّه عَثاكيلُ قِنْوٍ من سُمَيْحة مُرْطِبِ
إذاما جَرَى شأْوَيْنِ وابتلَّ عِطْفُه تقولُ هزِيزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بأَثْأَبِ
يُدِيرُ قَطاةً كالمحالةِ أَشْرَفَتْ إلى سَنَدٍ مثلِ الغَبيطِ المُذأَّبِ
ويَخْضِدُ فى الآرِيِّ حتّى كأنّما بِهِ عُرَّةٌ مِنْ طائفٍ غيرِ مُعْقِبِ
فيومًا علَى سِرْبٍ نقيٍّ جُلُودُه ويومًا على بَيْدَانَةٍ أُمِّ تَوْلَبِ
فبَيْنَا نِعاجٌ يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً كَمَشْيِ العَذارَى فى المُلاءِ المُهَدَّبِ
فكانَ تَنادِينا وعَقْدَ عِذارِه وَقالَ صِحابى قَدْ شأَوْنَكَ فاطْلُبِ
فلأْياً بِلأْيٍ ما حَمَلنا وَلِيدَنا على ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّراةِ مُحَنَّبِ
ووَلَّى كشُؤْبُوبِ العَشِيِّ بوابِلٍ ويَخرُجْنَ مِن جَعْدٍ ثَرَاهُ مُنَصَّبِ
فللسَّاقِ أُلْهُوبٌ وللسَّوْطِ دِرَّةٌ وللزَّجْرِ مِنه وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ
فأدْرَكَ لَمْ يَجْهَدْ وَلَمْ يَثْنِ شأْوَهُ يَمُرُّ كخُذْرُوفِ الوَليدِ المُثَقَّبِ
تَرَى الفأْرَ فى مُسْتَنْقَعِ القاعِ لاحِبًا على جَدَدِ الصَّحْراءِ مِنْ شَدٍّ مُلْهِبِ
خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفاقِهِنَّ كأنَّما خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

فعادَى عِدَاءً بين ثَوْرٍ وَنعجَةٍ وَبينَ شَبُوبٍ كالقَضِيمَة قَرْهَبِ
وظَلَّ لثيرانِ الصريم غماغمٌ يُداعِسُها بالسَّمْهَرِيِّ المعلَّبِ
فكَابٍ على حُرِّ الجبينِ وَمُتَّقٍ بمُدْرِيَةٍ كأنَّها ذَلْقُ مِشْعَبِ

إلى أن يقول : —

ورُحْنَا كأنَّا من جُوَاثَى عشيَّةً نُعالِي النعاجَ بينَ عِدْلٍ ومُحْقَبِ
وراح كتَيْسِ الرَّبْلِ ينفُضُ رأسَه أذاةً بهِ من صائكٍ متحلِّبِ
حبيبٌ إلى الأصحابِ غيرُ مَلعَّنٍ يُفَدُّونَه بالأمّهاتِ وبالأبِ
فيَوْماً على بُقْعٍ دقاقٍ صُدُورُه وَيَوْماً على سَفْعِ المدامعِ رَبْرَبِ
كأنَّ دِماءَ الهَادياتِ بنَحرِهِ عُصَارَةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُخَضَّبِ
وَأنتَ إذا استَدْبَرْتَه سدَّ فَرْجَه بضَافٍ فُوَيْقَ الأرضِ ليسَ بأصْهبِ

إنه غلس واغتدى قبل خروج الطيور من أوكارها ، فى أواخر ليل كثير المطر ، تسيل منه المذانب أى مسايل الماء إلى الرياض ؛ بفرس منجرد سريع العدو ، يصبح كالقيد للأوابد إذا لقيها ، وقد أضمرته ملاحقته للهوادى السوابق من الوحش ، واتباعه لها كل شوط بعيد . . إنه صلب أملس ضامر كأنه عود مشجب ، له خاصرتا ظبى ، وساقا نعامة ، وظهر عير واقف على مرقب ، وحوافره صُم صلاب مُلس كحجارة يتخللها الماء ، وعلاها الطحلب فاصفرت واملاست وصلبت ، وكفله مثل كثيب من الرمل لبده الندى ، وكتفه فى سمته وارتفاعه مثل قتب الهودج وهو مشرف عال ، وعيناه مجلوتان أبدا ، نظيفتان كمرآة سيدة تعنى بهندامها ، تديرها لترى هل استقر النصيف المنقب فى مكانه من محجرها أم لا ، وأذناه دقيقتان محددتان كأذنى بقرة وحشية ذعرت فنصبت أذنيها ؛ شاهدتا عتقه وكرمه . وهو طويل العنق مشرف مشرئب ؛ كأن عنانه منجرها

فى رأس جذع شجرة مشذب ، وهو أسود الذيل ، زيان الذنب ، شعره غزير ، كأنه قنو النخلة المتمشكل المثمر من نخيل « سميحة » ، فإذا جرى طلقين ابتل جانباه من العرق ، وسمعت له خفقاً ؛ تخاله هزيز الريح مرت بشجر الأثاب . . وقطاته أى معقد الردف منه فقراتها مستديرة كالبكرة تشرف على كفله العالى الذى كأنه السند أى سفح الجبل أو كأنه الغبيط المذأب أى قتب الهودج الموسع من أسفل . . إنه يقطع الأواخى ، ويخضد فى الآرىّ ، كأنما أصابته عرة من جرب أو قرح غير معقب لا يأخذه مرة ويدعه أخرى ، بل إنه طائف ملازم له . ويعنى بذلك أنه حصان كثير النشاط جم الحركة . . إنه يطارد يوما قطيعاً من بقر الوحش البيض الجلود ، ويوما يطارد أتاناً وحشية أمّ لتولب وجحش صغير . . وبينما النعاج والبقرات الوحشية ترتقى خيلة وتمشى كما تمشى العذارى فى الملاء المهدّب حتى تنادينا جهرا وعقد عذار ذلك الفرس فى يدى ، وقال صحابى هذه الأبقار قد شأونك وتكاد أن تسبقك وتهرب منك فعجل بمطاردتها . . بعد جهد جهيد يمكن أن يحمل غلامنا على ظهر هذا الفرس لنشاطه وامتناعه . . إنه يجرى مسرعا كأنه دفعة المطر خلف هذه الأبقار الوحشية الخارجة من ذلك المكان المخصب الندى المرتفع . إذا مسسته بساق ألهبته فى الجرى ، وإذا نلته بسوطى زاد فى عدوه ، وإذا زجرته وقع الزجر منه موقعه من الأهوج الناشط السريع فى حركته . . . إنه فرس من عتاق الخيل أدرك طريدته بغير مشقة من أول شأوه وطلقه وليس فى حاجة إلى أن يكرر له طلق آخر ، وهو فى خفته وسرعته كخذروف الوليد المثقب إذا أداره وشد خيطه بيديه . . ووقع حوافر هذا الحصان على الأرض أخرج الفأر من حجرته لأنه ظن صوت الجرى إنما هو صوت المطر الغزير يكاد يتسرب إلى داخل الحجرة ويغرقها ، لذلك ظهرت الفيران من أنفاقهن وكأنما أظهرها مطر

له جلبة .. وقد تابع هذا الحصان صيد الوحش ووالاه من بين ثور ونعجة وحشية ، وبين شبوب مسن من الثيران قرهب . . وقد ظل لثيران تلك الرمال غماغم وأصوات ، حينما كان الصائد يطاعنها بالرمح السمهرى المقوى بالعلباء من فقار عنق البعير . . وعندما طعنت هذه الأبقار كان منها كاب على وجهه قد مات ، ومنها ما يتقى الطعنة بقرن حديد كحدّ الإشفى . .

ثم يقول : كأننا رحنا ورجعنا بما معنا من الصيد والبقر الذى صدناه من جؤاثى — وهى قرية بالبحرين يمتار منها التمر — كأننا قد اشترينا تمرا ، فمنه ما جعلناه بين عدلين ثمّ ركبنا عليه ، ومنه ما قد احتقبناه وجعلناه فى الغرائر ، وكذلك كانت أعدالنا وحقائبنا قد امتلأت مما صدناه . . وهذا الفرس راح عشياً كتيس رعى نبات الرّبل فى قوته ونشاطه ، ينفض رأسه من العرق وهو يتأذى بريح عرقه . . إنه جواد محبب إلى أصحابه فهم يفدونه بكل عزيز عليهم من الأمهات والآباء . . إنه يوماً يصيد الظباء البقع ، ويوماً يصيد الأبقار والثيران الوحشية السّفع التى فى صدورها بقع سوداء . . كأن دماء الهاديات — وهى ماتقدم من الوحش — على نحره تشبه عصارة الحناء التى خضب بها شيب . . . وإذا وقفت خلفه واستدبرته ونظرت إليه من ورائه ، وجدت ذيله طويلا يكاد لطوله يتصل بالأرض دون أن يبلغها أو يمسسها وهذا أتمّ لعتقه ، وليس بذيل أصهب أى لا تشوبه حمرة بل هو أسود ، وذلك أكمل لوصفه .

***

وفى قصيدته الرائية « أحار بن عمرو كأنى خمر » تعرض لوصف الفرس فى ثمانية عشر بيتاً يقول فيها : —

وأرْكَبُ فى الرّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وجْهَهـا سَعَفٌ مُنْتَشِر

لها حافرٌ مِثْلُ قَعْبِ الْوَلِيـ   دِ رُكِّبَ فيهِ وَظِيفٌ عَجِرْ
لهـا ثُنَنٌ كَخَوافِي العُقَـا   بِ سُودٌ يَفِئْنَ إذا تَزْبَئِرّ
وسَاقان كعْبَاهُما أَصْمَعَـا   نِ لَحْمُ حماتَيْهما مُنْبَتِرْ
لها عَجُزٌ كصَفَاةِ المَسِيـ   لِ أَبْرَزَ عنها جُحافٌ مُضِرّ
لها ذَنَبٌ مثلُ ذَيْلِ العَروسِ   تَسُدّ به فرْجَهـا من دُبُرْ
لها مَتْنَتان خَظَاتَـا كَمَا   أكَبَّ عَلَى سَاعِدَيْه النَّمِرْ
لها عُذَرٌ كقُرُون النِّسَـا   ءِ رُكِّبْن فى يوم رِيحٍ وصِرّ
وسالفةٌ كسَحُوق اللَّبَـا   نِ أضْرَمَ فِيه الغَوِيُّ السُّعُر
لهـا جَبْهَـةٌ كسراةِ المِجَنّ   حذَّقَهُ الصانِعُ المُقْتَـدِر
لها مَنْخِرٌ كوِجار السِّبَاع   فمِنْهُ تُرِيحُ إذا تَنْبَهِـر
وعَيْنٌ لها حَـدْرةٌ بَدْرةٌ   شُقَّتْ مآقِيهمـا مِنْ أُخُر
إذا أقبَلَت قُلْت دُبَّاءَةٌ   من الخُضْر مغموسَةٌ فى الغُدُر
وإن أدْبرَتْ قلت أُثْفِيَّـةٌ   مُلَمْلَمَـةٌ ليس فِيهـا أثَرْ
وإن أعْرَضَت قلت سُرْعُوفَةٌ   لها ذَنَبٌ خَلْفَها مُسْبَطِرّ
وللسَّوْطِ فيهـا مَجالٌ كمَا   تَنَزَّلَ ذُو بَرَدٍ مُنْهَمِـر
لها وَثَبَاتٌ كوَثْبِ الظِّبَـاء   فوادٍ خِطَـاءٌ وَوَادٍ مَطِرْ
وتَعْدُو كعَدْوِ نَجاةِ الظبـا   ءِ أخْطَأَها الحاذِفُ المُقْتَدِرْ

يصف فى هذه الأبيات فرسه بأنها سريعة خفيفة كالجرادة ، وأن شعر ناصيتها يكسو وجهها ويتناثر فوقه كأنه سعف النخل ، وأن حافرها أسفل

رجلها كقذح صبيّ ركبت فيه ساق صلبة ، وما خلف رسغها من شعر كخوافى العقاب رقة وليناً ؛ إذا اقشعرت انتفش ثم فاء إلى موضعه . . ملتصقة المفاصل ليست برهلة ، متفرقة لحم الحماتين (والحماة عضلة الساق فوق الكعب) ، وهى ملساء العجز كصخرة جرى عليها السيل فأزال ما بها من غبار ، وذنبها طويل سابغ كذيل فستان العروس ؛ يسدّ ما بين ساقيها ، وهى مكتنزة المتنين قليلا كساعدى نمر بارك غلظاً وصلابةً ، وعُذَرها غزيرة منتشرة كذوائب النساء عبثت بها الريح فى يوم بارد ، وعنقها كشجرة البان طولا ، وهى شقراء كلهيب نار أضرمها غويّ ، وجبهتها متسعة كظهر ترس صنعه فنان حاذق ، ومنخرها متسع كجحر ضب يتيح لها أن تتنفس مستريحة ، وعينها مكتنزة صُلبة ضخمة ، كأنما شقت مآقيها من آخر العين .

وبعد أن وصف أعضاءها وصفاً تفصيلياً أخذ فى وصفها وصفاً كليًا . . وكما وفق فى وصفه الأول ، وفق كذلك فى وصفه الثانى . . إنها إذا أقبلت كانت رقيقة المقدم ، مستديرة المؤخر ، ملساء لينة ، ناعمة رطبة ، كقرعة غمست فى غدير . . وإن أدبرت فهى صخرة مدوّرة صلبة مجتمعة ملساء . . وإن أعرضت بدت مستوية الخلقة ، قليلة اللحم كالجرادة ، غير أنها تزيد عليها ذنباً طويلاً تسدّ به فرجها من دبر . . تثب وثب الظبى ، وتسح فى جريها كالمطر المنهمر . . إنها متنوعة السير ، تعدو أحياناً ، وتخطر أحيانا ، فإذا أسرعت اندفعت كظبية أخطأها صياد ماهر ، فانطلقت بكل قواها تلتمس النجاة . . إنها قوية عارمة مستعدة ؛ إذا ألهبت بالسوط جالت وأسرعت ، وصبت فى عدوها أفانين متنوعة كأنها سحاب غزير انهمر بمطر وتنزل ببرد .

***

وفى قصيدته الضادية « أعنى على برق أراه وميض » تعرض لوصف الحصان فى اثنى عشر بيتاً يقول فيها : —

وَمَرْقَبَةٍ كالزُّجِّ أشرفتُ فوقَها ... أُقلِّبُ طَرْفى فِى فَضاءٍ عَرِيضِ
فَظِلْتُ وَظَلَّ الجَوْنُ عِنْدِى بِلِبْدِهِ ... كَأَنِّى أُعَدِّى عَنْ جَنَاحٍ مَهِيضِ
فلمّا أجَنَّ الشَّمْسَ عَنِّى غِيَارُها ... نَزَلْتُ إليْهِ قائماً بالحَضِيضِ
يُبَارِى شَبَاةَ الرُّمْحِ خَدٌّ مُذَلَّقٌ ... كَصَفْحِ السِّنَانِ الصُّلَّبِيِّ النَّحِيضِ
أُخَفِّضُـــــه بالنَّقْرِ لمَّا عَلَوْتُه ... ويَرْفَعُ طَرْفاً غيْرَ جافٍ غَضِيضِ
وقد أغْتَدِى والطيْرُ فى وُكُناتِها ... بِمُنْجَرِدٍ عَبْلِ اليَدَيْنِ قَبِيضِ
له قُصْرَيا عَيْرٍ وســـاقَا نَعامةٍ ... كفَحْلِ الهِجَانِ يَنْتَحِى لِلْعَضِيضِ
يَجُمُّ عَلَى السَّاقَيْنِ بَعْدَ كَلاَلِهِ ... جُمُومَ عُيُونِ الحِسْىِ بَعْدَ المَخِيضِ
ذَعَرْتُ بِهِ سِرْبًا نَقِيًّا جُلُودُه ... كَمَا ذَعَرَ السِّرْحانُ جَنْبَ الرَّبِيضِ
وَوَالَى ثلاثًا واثْنَتَيْنِ وأرْبَعًا ... وغادَرَ أُخْرَى فى قناةٍ رَفِيضِ
فَآبَ إيَابًا غيرَ نَكْدٍ مُوَاكِلٍ ... وأَخْلَفَ ماءً بعْدَ ماءٍ فَضِيضِ
وَسِنٍّ كسُنَّيْقٍ سَنَاءً وسُنَّماً ... ذَعَرْتُ بِمِدْلاجِ الهَجِيرِ نَهُوضِ

يقول : رب مرقبة عالية صعبة المرتقى ، كأنها زجّ الرمح ؛ قد أشرفت فوقها ، ورقيت إليها على صعوبة مرتقاها ، لأطّلع منها عَلَى فرس أدهم عليه سرجه ولبده .. إنى لأتكىء عليه كما يتكىء ذو الجناح المهيض عَلَى جناحه .. ولقد ظللت نهارى وظل فرسى قائماً بعينى مسرجاً للتأهب والحذر .. فلما غابت الشمس واحتجبت وراء الأفق نزلت إلى فرسى فى حضيض الأرض المستوية حيث هو قائم بحضيض ذلك المكان ، فركبته وانصرفت إلى أصحابى بعد ما أمضيت

نهارى رابئاً لهم من أعلى تلك المرقبة .. إنه فرس أملس الخد ، طويل العنق لينه ، وإنه ليبارى فى تلك الصفات شباة الرمح وحده .. إنه كحجر المسنّ الصلب المرقق .. لما نزلت إليه فى مكانه وركبت عليه أبدى نشاطاً جماً وحركة شديدة ، فجعلت أُخفّضه وأُسكنه وأُهدِّئه بالنقر والصفير له ، وصار ينظر إلىّ بعين ساكنة هادئة غير جافية ، ولا غضيضة منكسرة .. إنه فرس قصير الشعر ضخم اليدين ، سريع قبيض شديد قوى .. وإنه حسن الأعضاء عظيم النشاط ، كأن أضلاعه أضلاع حمار وحشىّ ، وسيقانه كساقىْ النعامة .. وإنه كالفحل القيسرى الكبير والجمل الأبيض القوى الكريم ينتحى للعض والنهش .. يستريح على ساقيه بعد كلاله وإعيائه .. وإذا جُمّ وغُمِز بالساقين حثاً له على الجرى نشط فى جريه كما يجم البئر وينشط ويجتمع ماؤه بعد مخيضه وانتزاحه بالدُّلىّ .

ذعرت بهذا الفرس قطيعا من البقر ذوات الجلود البيض ، كما يذعر الذئبُ قطيع الأغنام فى مرابضها .. ولقد والَى صيده وتابع قنصه ، صاد ثلاثاً واثنتين وأربعا من الأبقار ، وغادر أُخرى وقد تكسر الرمح فيها ، فأصاب بذلك عشر بقرات وحشيات ، والعشرة غاية عدد الآحاد — وقد جعل الفعل للفرس فى اللفظ وهو يعنى بذلك راكبه أيضا ، يريد نفسه ، فهو وصلته إلى عقر الوحوش والإحاطة بها .. ولقد رجع هذا الفرس من رحلة الصيد رجوعاً حافلاً بالخير والبركة ، غير خائب المسعى ، ولا ضائع الجهد ، ولا معتمد على غيره فى تحقيق غايته ، وهو مع ذلك الجهد المبذول لا يزال باقياً عَلَى حدته ونشاطه .. لقد جهد مرة بعد مرة وطلقة إثر طلقة مما ترك على جسمه فضيض عرقه يتفصّد منه كماء مصبوب فوقه .... ورب ثور وحشىّ (سِنّ) كصخرة صلبة وهى (الشُّنَيْق) فى الارتفاع والضخامة والصلابة والقوة ، ورب (سُنَّم) أى بقرة

وحشية أيضاً أفزعتهما وذعرتهما بفرسى فى وقت الهجير واشتداد الحر ، لأنه فرس صلب قوى ينهض بكل ما يُطلب منه فى الوقت الذى يشق على غيره النهوض به فيه .

* * *

وفى قصيدته النونية (لمن ظلل أبصرته فشجانى) يصف حصانه فى ستة أبيات يقول فيها :—

وإنْ أُمْسِ مكروباً فيا رُبَّ غارَةٍ شَهِدْتُ عَلَى أقَبَّ رِخْوِ اللَّبَانِ
عَلَى رَبَذٍ يَزْدَادُ عَفْواً إذَا جَرَى مِسَحٍّ حَثِيثِ الرَّكْضِ وَالذَّألاَنِ
وَيَخْدِى عَلَى صُمٍّ صِلاب مَلاطِسٍ شَدِيدَاتِ عَقْدٍ لَيِّنَاتِ مَتَانِ
وَغَيْثٍ من الوَسْمِيِّ حُوٍّ تِلاَعُهُ تَبَطَّنْتُهُ بِشَيْظَمٍ صَلَتَانِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَتَيْسِ ظِبَاءِ الْحُلَّبِ الْعَدَوَانِ
إذَا مَا جَنَبْنَاهُ تَأَوَّدَ مَتْنُهُ كَعِرْقِ الرُّخَامَى اهْتَزَّ فى الْهَطَلاَنِ

يتحدث عن حصانه ويصفه بأنه ضامر البطن أقبّ .. وأنه رخو اللبان واسع الجلدة ، لين العطف والجانب ، وهذه صفات مستحبة فى الخيل ، وهو خفيف يسرع فى رفع قوائمه ووضعها .. يجرى على غير مشقة ولا كلفة .. سريع العدو كأنه يسّحه سحا .. يعدو ركضاً على حوافره المصمتة الصلبة التى تكسر الحجارة لشدة وقعها وصلابتها .. وقوائمه شديدة عقد الأرساغ مع لين المفاصل ومتانتها .. وهو شيظم صلتان أى مرتفع طويل القوائم ، قصير شعر الذنب ، شديد الجرى .. سلك به صاحبه تلاعاً مخصبة جادها الغيث ، فغدا نباتها ريان ناعما ؛ تضرب خضرته إلى السواد .. إنه سريع العدْو فى كرّه وفرّه ، وفى إقباله وإدباره .. وهو كفحل الظباء فى ضُمره ونشاطه وسرعته ، ذلك الفحل الناشط

الشديد العدو ؛ الذى ضمّر بطنه ما رعاه من نبات الحُلب .. إذا ما جُنب هذا الحصان وقيد إلى جنب الركائب تأوّد متنه ، وتثنّى ظهره فى لين ونعومة ، كتثنى نبات الرخامى الطرى الذى ليس ببقل ولا شجر عند ما يهتز من هطول الأمطار وانصبابها عليه .

* * *

وفى قصيدته النونية الأخرى (قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان) تعرض لوصف حصانه فى ثمانية أبيات يقول فيها :

وغَيْثٍ كألْوانِ الفَنَا قَدْ هَبَطْتُهُ تَعاوَرَ فيهِ كُلُّ أوْطَفَ حَنَّانِ

عَلى هيْكلٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤالِهِ أفانينَ جَرْيٍ غيْرِ كَزٍّ ولاوَانِ

كتَيْسِ الظباءِ الأعْفَرِ انْضَرَجَتْ له عُقابٌ تدلَّتْ من شماريخ ثَهْلانِ

وخرْقٍ كَجَوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ مَضِلَّةٍ
قَطَعْتُ بِسامٍ ساهِمِ الوَجْهِ حُسّان

يُدافِع أعطافَ المَطايا بِرُكْنِهِ كما مال غُصْنٌ ناعِمٌ فوْقَ أغْصان

وَمَجْرٍ كَغُلَّانِ الأُنَيْعِم بَالِغٍ دِيارَ العَدُوِّ ذِى زُهاءٍ وَأَرْكان

مَطَوْتُ بِهِم حتى تَكِلَّ مَطِيُّهُمْ وحتى الجِيادُ ما يُقَدْنَ بأرْسانِ

وحتى تَرَى الجَوْنَ الذِى كانَ بادِنًا
عَلَيْهِ عَوَافٍ من نُسُورٍ وعِقْبان

يقول : إنه هبط واديا طال عشبه ، وتنوعت ألوان أزهاره ، وتعاورته أمطار غزيرة مرعدة ؛ على ذلك الجواد الضخم الأقب ؛ الذى يعطى من جريه أفانين — قبل سؤاله — غير مبطىء ولا ضنين . وهذا الحصان كما أنه أداة

صيده ووسيلة حربه ، هو أيضاً مطية سفره ، فهو على ظهر هذا الجواد المرتفع الضامر قطع وادياً قفرا مضلا كجوف حمار وحشى . . إنه يدافع المطايا كلما دنت منه وقربت إليه ، ويتسرب بين الإبل من حوله يميناً وشمالا ، كغصن ناعم يتثنى بين أغصان مياسة متأودة .

ورب جيش ضخم كثيف العدد كأنه ورماحه المشتجرة المرفوعة أشجار كثيرة بوادى « الأنيعم » يسير إلى ديار العدو ويدنو منها وهو جيش ذو زهاء وكثرة ، جوانبه وأركانه قوية مدعمة متماسكة . . مطوتُ بهذا الجيش وأسرعت بفرسانه فى السير حتى كلّت جيادهم إلى حد لايحتاج فيه من الإعياء والتعب إلى أرسان تقاد بها . . ومن شدة الإعياء ومشقة السير وأهوال الرحيل نفقت بعض الأفراس البادنة الضخمة وتركت جزر السباع والطير من النسور والعقبان تعفوه وتنهشه وتأكل لحمه .

* * *

وكما وصف امرؤ القيس الحصان ، وصف الناقة كذلك ، وأجاد فى وصفها وإذا كان الجواد أداة لهوه ومظهر عزه ، فإن الناقة وسيلة انتقاله عبر الصحارى والقفار ، حيث تصعب الأرض ، ويغزر الرمل ، وتنعدم المياه ، ويقل العشب ، وتكثر الأحمال ، ويثقل المتاع .

وقصائد شبابه تكاد تخلو من ذكر الناقة تماماً ، ولا يأتى لها ذكر فى معلقته « قفانبك » ولا فى قصيدته الثانية « ألاعم صباحاً » — وأول إشارة لها نجدها فى قصيدته التى قالها حينما كان لاجئاً فى طيىء ، والتى بارى فيها علقمة ابن عبدة الفحل ، واحتكما فيها إلى أم جندب زوج امرئ القيس ، التى انتهت حكومتها بنصرها علقمة على زوجها . . . فى هذه القصيدة يقول فى وصف الناقة :

وَإنكَ لَمْ تَقطع لُبانَةَ عاشِقٍ بِمِثْلِ غُدُوٍّ أوْ رَوَاحٍ مُؤَوِّبِ
بأدْماءَ حُرْجُوجٍ كَأَنَّ قُتُودَهَا
على أبلَقِ الـكَشْحَيْنِ لَيسَ بِمُغْرِبِ
يُغَرِّدُ بالأسْحارِ فى كلِّ سُدْفَةٍ تَغَرُّدَ مَيَّاحِ النَّدامَى الْمُطَرِّبِ
أقَبَّ رَبَاعٍ مِنْ حَمِيرِ عَمَايَةٍ يَمُجُّ لُعَاعَ الْبَقْلِ فى كلِّ مَشْرَبِ
بِمَحْنِيَةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالُ نَبْتَهَا مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيَّبِ

فى هذه الأبيات مايكاد الشاعر يتحدث عن الناقة فى البيت الأول ويشبهها بحمار وحشى ، حتى يدعها ويمضى إلى وصف الحمار . . إنه إذا بعد عمن يهوى وجد عزاءه عن ذلك فى رحلة على ناقة بيضاء طويلة تحمله هو ورحاله وهى فى سرعتها كأنها حمار وحشى ، لم يبيض منه سوى خاصرتيه ، يرفع بالأسحار صوته ، ويطرب حين يراعى نفسه ، ويتهادى فى مشيه أحيانا كنشوان يتمايل من نشوته وسكره .. إنه يغنى ليطرب رفاقه المتناومين . . إنه من حمر « عماية » يعيش فى أرض معشوشبة ، إذا شرب تساقط من فيه بقايا ما أكل من عشب ، وقد تخير لمقامه ومرعاه أخصب بقاع (عماية) حيث ينحنى الوادى ، فهناك يطول النبت ، حتى يساوى أشجار السدر ، لاسيما أنها ممر جيوش — غانمين وخيب — فلا ينزلها أحد ليرعاها خوفا على نفسه وعلى أنعامه فكان ذلك أوفر لخصبها ، وأتم لكلئها .

* * *

أما فى قصيدته « غشيت ديار الحى » فإنه يعرض لوصف الناقة فى كلمة خاطفة ؛ إذ يذكرها فى بداية الحديث عنها عرضاً ، ويقول فى وصفها إنها

تسرع به كسرعة حمار وحشى! ... ويخرج من ذلك على الفور إلى وصف الحمار نفسه ، فيقول :

كأنى وَرِدْفى والقِرابَ ونُمْرُقى ... على ظهر عَيْرٍ وَارِدِ الخَبِرَات
أرَنَّ على حُقْبٍ حِيالَ طَرُوقَةٍ ... كَذَوْدِ الأجِيرِ الأرْبعَ الأشِرات
عَنِيفٍ بتَجْميعِ الضِّرارِ فاحِشٍ ... شَتِيمٍ كذَلْقِ الزُّجِّ ذِى ذَمَرات
وَيأكُلْنَ بُهْمَى جَعْدَةً حَبَشِيَّةً ... وَيَشْرَبْنَ بَرْدَ الماء فى السَّبَرات
فأوْرَدَها ماءً قَليلاً أنِيسُهُ ... يُحاذِرْنَ عَمْراً صَاحِبَ القُتُرات
تَلِثُ الحَصَى لَثًّا بسُمْرٍ رَزِينَةٍ ... مَوازِنَ لا كُزْمٍ وَلا مَعِرَات
وَيُرْخِينَ أذْنابًا كأنَّ فُرُوعَهَا ... عُرَى خِلَلٍ مَشْهُورةٍ ضَفِرَاتِ
وعَنْسٍ كألْواح الأرانِ نَسَأْتُها ... على لاَحِبٍ كالبُرْدِ ذِى الحبرات
فغادَرْتُها من بَعْد بَدْنٍ رَذِيَّةً ... تَغَالَى على عُوجٍ لهَا كَدِنَاتِ
وَأبْيَضَ كالمِخْرَاق بَلَّيْتُ حَدَّهُ ... وَهَبَّتَهُ فى السَّاقِ وَالقَصَرَاتِ

بعد أن ذكر همومه المتدافعة التى لاتتوقف ولا تنفد ، يستوى فى ذلك ليله ونهاره ، فهى تلاحقه فى كليهما ، يواجهها وحيدا يطلب العون ، وهو على ناقته ، وكأنه وردفه الراكب خلفه وقراب سيفه ووسادته الجالس عليها فوق مطيته ؛ إنما يمتطى عيرا وحشياً يسرع به فى السير ، ويحث الخطا إلى أماكن مخصبة يرعى شجرها ، ومعه أتن بيضاوات الأعجاز ، حوائل غير حوامل ، يصيح بها ، ويهيج عليها من حين لآخر ، يضربها ويصرفها كإبل يقوم عليها أجير ؛ يجمعها بعنف

ويعبث بها فى حدة ، ويفحشُ معها دون رفق بها ولا شفقة عليها ، وهى معه كضرائر النساء ؛ مختلفات الكلمة ، موزعات الهوى ، لا تملك لأذاه دفعا ، ولا لقسوته ردًّا .

والحمار وأتنه فى خصب من الأرض يأكلن بُهمى (وهو نبت له شوك تتكلف به الحمر وتصلح عليه) بُهمىَ شديدة الخضرة ، تضرب إلى السواد لكثرة ما ارتوت ، وبعيش الأتن عليها أصبحت سمينة شبعى ، وهى ظمآنة إلى الماء دائما حتى فى الغداة الباردة ، فإذا عطشت أوردها العَيْر ماء خاليًا لا أنيس به ، طلبا للأمن ، وحذرا من الصيادين ، وعند انطلاقها تسحق الحصا سحقاً لصلابة حوافرها وهى ملساء شديدة قوية لسيقان ليست بقصار ولا بعراة من الشعر .. وكأنّ أعالى أذنابها ، ومايتفرع من شعرها حمائل جفون سيف موشاة .

ويستأنف الشاعر بعد ذلك حديثه عن الناقة من جديد ، يمدحها ويذمها فى بيتين اثنين . . كانت ناقة طيبة متماسكة كألواح تابوت موتى النصارى ، ومازال يحثها ويزجرها على طريق بيِّن متشعب ، حتى تركها رزية أوردية عيية متعبة ، وبرغم حمله عليها فى السير ، واستخدامها فى السفر البعيد ، لمَّا تزل فيها بقية وحِدَّة وقدرة .

والخطوط المتميزة فى البرد الموشى ؛ التى جاءت فى شعر امرىء القيس ، كانت لتوضيح صورة الطريق التى عبرها ، فقد صنعتها قوافل الإبل بأخفافها تتلوى عبر وديان تختلف ألوانها ، ومن التكلف البالغ أن نفهم أن امرأ القيس ، رمز به للتفرقة بين حالى الناقة سمينة قوية ، وهزيلة متداعية .

* * *

ويصف الناقة فى قصيدته الرائية «سما لك شوق بعد ما كان أقصرا» إذ يقول :

فَدَعْ ذَا وَسَلِّ الْهَمَّ عنْكَ بِجَسْرَةٍ ... ذَمُولٍ إِذَا صَامَ النَّهارُ وَهجَّرا

تقطَّعُ غيطانًا كأنَّ مُتونَها إذا أظهرت تُكسَى مُلاءً مُنَشَّرا
بعيدةُ بَيْنَ المنكِبَيْنِ كأنّما ترَى عِندَ مَجْرَى الضَّفْرِ هِرًّا مُشَجَّرا
تُطايرُ ظِرّانَ الحَصَى بمناسِمٍ صِلابِ العُجَى مَلثومُها غيرُ أمْعَرا
كأنّ الحصَى من خلفِها وأمامَها إذا نجلَتْهُ رِجْلُها حذفُ أعْسَرا
كأنّ صَليلَ المَرْوِ حينَ تطيره صليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعَبْقَرا
عليْها فتًى لمْ تحمِلِ الأرضُ مِثْلَه أبَرَّ بميثاقٍ وَأوْفَى وأصْبَرا

فى هذه الأبيات يتسلى الشاعر عن همومه وتمطع أسباب لبانته وهواه بالرحلة على ناقة شديدة سريعة ، لا يضنيها حر الهاجرة إذا ما انتصف النهار ، وتوسطت الشمس كبد السماء ، وعييت الإبل وفترت فى سيرها . . . إنها ناقة تطوى ما انخفض من الأرض واطمأن ، وتعلو ما ارتفع منها وصلب وغلظ ، وكأنها عند الظهيرة والسراب يلفها قد اكتست مُلاءً أبيض منشوراً . . إنها جسرة واسعة الصدر تباعد ما بين عضديها ؛ فا كتمل خلقها ، تعدو مسرعة كأن هرًّا قد ربط فى حزامها ، فهو على الدوام يخدشها وينفرها ، وهى تطاير الحصى بأخفافها دون أن يؤثر فى سيقانها ما يصيبها منه ، أو يذهب بشعرها . وإن الحصى ليتناثر من خلفها وأمامها ؛ لأن رجلها ترمى به فى كل جهة وعلى غير نظام ، كأنه رمى أعسر... وصوت الحجارة حين ترمى بها مناسمها وأرجلها وهى تقع على الأرض وتصطدم بالحصى كصوت دراهم زائفة رديئة ، ينقدها ويفحصها صيرف من « عبقر » . . . ثم يمدح راكبها — يعنى نفسه — فيقول إن هذه الناقة تحمل فتى يبر بعهده فيلزم به نفسه ويفى إذا وعد ويصبر على الشدائد إذا ألمت به النوازل .

* * *

وفى قصيدته التى مطلعها « أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص » يصف

الناقة ، ويخرج من وصفها إلى وصف الظليم فوصف حمار الوحش فى عشرين بيتا . . يقول فيها : —

فهلْ تُسْلِيَنَّ الْهَمَّ عنكَ شِمِلّةٌ　　مُدَاخِلةٌ صُمُّ العِظام أَصُوص
تَظاهَر فيها النّيُّ لا هِيَ بَكْرَةٌ　　ولا ذاتُ ضِغْنٍ فى الزِّمام قمُوص
أَؤوبٌ نعُوبٌ لا يُوا كِل نَهْزُها　　إذا قِيل سَيْرُ المدْلجِينَ نَصِيص
كأنِّى ورَحْلى والقِرابُ ونُمْرُقى　　إذا شُبَّ للمَرْوِ الصِّغارِ وَبيص
على نِقْنِقٍ هَيْقٍ لَهُ وَلِعِرْسِه　　بمُنْعَرجِ الوَعْسَاء بَيْضٌ رَصِيصُ
إذَا رَاح للأُدْحِيِّ أَوْبًا يَفُنُّها　　تُحاذِرُ من إدْراكِه وتَحِيصُ
أَذَلِكَ أمْ جَوْنٌ يُطارِدُ آتُنًا　　حَمَلْنَ فأَرْبَى حَمْلِهنَّ دُرُوصُ
طَوَاهُ اضْطِمارُ الشدِّ والْبَطْنُ شازِبٌ　　معالًّى على الْمَتْنَين فهو خَمِيص
بحاجبه كَدْحٌ من الضَّرْبِ جَالِب　　وحارِكُهُ من الكِدام حَصِيص
كأن سراتَهُ وجُدّةَ ظَهْرِه　　كنائنُ يَجْرى بينهُنّ دَلِيصُ
ويأكُلْنَ منْ قَوٍّ لُعاعاً وَرِبَّةً　　تَجَبَّرَ بعْدَ الأَكل فَهْوَ نَمِيص
يُطيرُ عِفاءً منْ نَسِيلٍ كأنهُ　　سُدُوسٌ أطارَتْه الرّياحُ وخُوص
تَصَيَّفَها حَتى إذَا لم يَسُغْ لها　　حَلِىٌّ بأعلى حائلٍ وقَصِيصُ
تَغَالَبْنَ فيه الْجَزْءَ لوْلاَ هَوَاجِرٌ　　جَنَادِبُها صَرْعَى لهُنّ فَصِيص
أَرَنّ علَيها قارِبًا وَانْتَحَتْ له　　طُوَالَةُ أرْسَاغ الْيَدَيْن نَحُوص
فأَوْرَدَها من آخر الليل مَشْرَبًا　　بلائقَ خُضْراً ماؤهُنّ قَلِيص
فيشرَبْن أنفاساً وهُنّ خَوَائفٌ　　وتَرْعَدُ منهُنّ الكُلَى والفَرِيص
فأَصْدَرَهَا تَعْلُو النّجَاد عشِيّةً　　أقَبُّ كمقلاءِ الوَليد شَخِيصُ

فَجَحْشٌ على أدْبارِهِنّ مُخَلَّفٌ وجَحْشٌ لدَى مَكَرِّهِنّ وَقِيصُ
وأصْدَرَهَا بادِى النّوَاجِذ قارحٌ أقبُّ كَكَرّ الأنْدَرىِّ مَحِيصُ

والشاعر فى هذه الأبيات يجرى على نفس النسق الذى جرى عليه فيما سبق فهو يتسلى عن تذكر حبيبته ذات الغدائر الملتفة والأسنان البيضاء ، بناقة خفيفة سريعة ، وصفها بأنها حائل لم تلقح ولم تحمل ، تظاهر عليها الشحم من جانب ، ليست بكرة صغيرة شابة ، ولا ذات ضغن فتحمل على الجرى بالضرب ، وتنزع إلى مواطنها دائما ، ويحتاج حاديها إلى أن يشدها دوما ، بل إنها مستجيبة دائماً تعطى ماعندها من السير فى سهولة . . . وكأنه عليها هو ورحله وقرابه ونمرقه ، ومن حولها تتناثر الأحجار الصغار وتتكسر فيكون لها وميض ؛ كأنه فى ذلك كله إنما يمتطى ظهر ظليم من النعام ترك عرسه وبيضهما بمنعرج الوعساء والرمال البيضاء ، فإذا رجع إليها فى آخر النهار ليعودها ، خافته وخشيته وهربت منه ، ثم يسائل الشاعر نفسه : أيهما أكثر شبها بناقته . . أذلك الظليم من النعام ، أم هذا العَيْر من حمر الوحش ؟ . . وهكذا يمضى فى حديثه من الناقة إلى الظليم ومن الظليم إلى حمار الوحش ، يفصّل من أمره وحاله وخلقه وجسمه . . . هو حمار أبيض ، يطارد أتنا ذوات صغار كثيرة ، أضمره العدو ، خميص البطن ، مرتفع المتن ، على حاجبه خدش من آثار ضرب ، وبصدره علامات عض فقد انحص عنه الشعر فى مواضع هذا العضّ . . وكأن ظهره بما فى وسطه من خطة تخالف سائر لونه جعاب السهام يجرى فوقها الذهب . . وهذا الأتان وسواه من الحمر فى « قوٍّ » تأكل نبتاً وبقلا غضا ، رُعى من قبل ثُمَّ أخلف ثانياً ، فسمنت عليه الأتنُ ، وقد تناسل شعرهاَ وتناثر ، فكأنه نسيل حرير أخضر أو خوص نخل أطَارته الرياح . . ظل قطيعها يرعى فى الصيف هذا المرعى بأعلى حائل ، حتى إذا جاء الربيع ولم يعدْ يُساغ لها حَلِيٌّ وقصيص هجرت تلك الحمر هذا المكان ،

وتركته إلى سواه ؛ لترعى فيه الكلأ الغض ، وتستغنى به عن شرب الماء ، ولولا أن الهاجرة اشتدت على صفارها فصاتت تطلب الماء ، فصاح بها الفحل يناديها ، فأقبلت إليه أتان طويلة الأرساغ غير حامل ، فأوردها آخر الليل ماء غزيراً ممتداً قد غطته طحالب خضراء ، وتبعتها بقية الحمر ، فشربن على حذر ، وهن خوائف ، ترتعد منهن الكلى والفرائص ، ثم أصدرها عشية فسلك بها طريقاً مرتفعاً يقوم عليه قوم شداد البأس من الناس . . لقد كان الفحل خفيف الخطو كغلاء الوليد . . وخلف العانة والقطيع سار جحش ، وثمة جحش آخر سقط عند رجوعهن ، فاندقت عنقه . . . إن الذى أوردها ثم أصدرها هو ذلك الفحل القارح فى سنه ، البادى النواجذ والأضراس الأواخر ، الأقب الضامر كحبل قوىّ لرجل أندرىّ . . أراد أن هذا الحمار مفتول الخلق كهذا الحبل .

* * *

وفى قصيدته « ألا عم صباحاً أيها الربع وانطق » وصف الناقة فى سبعة أبيات يقول فيها : —

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي حينَ بانُوا بِجَسْرَةٍ أَمُونٍ كَبُنْيانِ اليَهُودِيِّ خَيْفَقِ
إذا زُجِرَتْ أَلْفَيْتَهَا مُشْمَعِلَّةً تُنيفُ بِعِذْقٍ من غِراسِ ابنِ مُعْنِقِ
تَرُوحُ إذَا رَاحَتْ رَواحَ جَهامَةٍ بإثْرِ جَهامٍ رَائِحٍ مُتَفَرِّقِ
كأَنَّ بها هِرًّا جَنِيباً تَجُرُّهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَادَفَتْهُ ومَأْزِقِ
كأَنِّي ورَحْلِي والقِرَابَ ونُمْرُقِي علىَ يَرْفَئِيٍّ ذِي زَوَائِدَ نِقْنِقِ

تَرَوَّحَ من أرْضٍ لأرْضٍ نَطِيَّةٍ
لذِكْرَةِ قَيْضٍ حَولَ بَيْضٍ مُفَلَّقِ
يَجُولُ بآفاقُ البِـلاد مُغَرِّبًا
وتَسْحَقُهُ ريحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ

فى هذه الأبيات يعزى الشاعر نفسه عن فراق أحبابه وبعادهم وهجرتهم بارتحاله على ناقة قوية متينة ، طويلة كبنيان اليهودى ، ولعله أراد بهذا البنيان حصن السموءل المسمى بالأبلق . . . ناقة إذا زجرها استجابت وأسرعت ، عنقها طويل ممتد كأنه عِذْق نخلة من غراس ابن معنق . . تتابع سيرها ، لينة هينة ، كسحاب متفرق يدفع بعضه بعضا . . لا تتوقف فى عدوها كأنما علق فى جنبها هر تجره معها دائمًا يخدشها ويخمشها بمخالبه عبر الطريق وعند كل منحنى ومنعرج . . إنها سريعة ، يرى نفسه وقرابه ونمرقه فوقها كأنما يمتطى ظليما من النعام ، فزعا نافرا ، ذا زوائد فى رجليه ، يروح من أرض لأرض بعيدة ، لأنه يتذكر حفرة له فيها صغاره ، وبقايا بيض فُلَّقٍ وبيض يوشك أن يفقس ، يطوف بآفاق البلاد ، ويذهب بعيداً تسحقه ريح الصبا إلى مكان سحيق . .

* * *

وفى قصيدة (لمن الديار غشيتها بسُحام) وصف الناقة فى خمسة أبيات يقول فيها : —

ومُجِـدَّةٍ نَسَّأتُها فَتَكَمَّشَتْ رَتْكَ النعامَةِ فى طَرِيقٍ حامِ
تَخْدِى علَى العِلاّتِ سامٍ رَأْسُها رَوْعَاء مَنْسِمُها رَثِيمٌ دامِ
جَالَتْ لِتَصْرَعَنِى فقُلْتُ لهـا اقْصِرِى
إنِّى امْرُؤٌ صَرْعِى عَلَيْـكِ حَرَامُ

فَجُزِيتِ خيْرَ جَزاء نَاقةٍ وَاحدٍ ورَجَعْتِ سَالمةَ القَرَا بِسَلامِ
وكأنما بَدْرٌ وَصِيلُ كُتَيْفَةٍ وكأنما مِنْ عاقِلٍ أرْمَامُ

فى هذه الأبيات يقول : إنه أخذ يحث ناقته الجادة على السير ، فأسرعت فى سيرها لا تفتر كأنها نعامة تخطو خطواً متقارباً ، خلال ظهيرة متوهجة . . إنها ناقة طويلة العنق ، مشرفة الرأس ، دامية الخف ، قوية نشيطة ، رغم ما تلقى من عنت ومشقة . . . تمايل فى كل جهة لشدة سيرها . . تـكاد تصرع راكبها ويعنى نفسه ، وهيهات لها . . وهو على ظهرها يطوى بها الأرض طيا ، بدت له « بدر » موصوله « بكتيفة » ورأى « أرمام » كأنها من « عاقل » . . رآها مواضع متصلة على تباعد مابينها ، لأن ناقته كانت تسرع به السير سرعة تدنيه من هذه الأماكن وكأنها تصل به إليها جميعاً فى وقت واحد . فدعا لها بالخير والسلام جزاء ما أسرعت به وحققته له .

* * *

وفى قصيدته « قفانبك من ذكرى حبيب وعرفان » عرض لوصف الناقة فى بيت واحد ، هو قوله : —

وَخَرْقٍ بعِيدٍ قد قطعْتُ نِيَاطَهُ على ذاتِ لوْثٍ سَهْوَةِ المشْى مِذْعانِ

يذكر فيه أنه قطع أرضاً واسعة تتخرقها الرياح على ظهر ناقة قوية ، لينة المشى ، مذعان مطاوعة .

* * *

ومن كل ماسبق يتبين لنا أن امرأ القيس وصف الحصان ، ووصف الناقة .. وأنه قد اتخذ من الناقة مطية لعبر الفيافى والقفار ؛ وقد نقلنا بها إلى وصف

النعامة، والحمار الوحشي.. كما تحدث عن الفرس واتخذ منه وسيلة صيد وحرب وكرّ وفرّ.. ونقلنا عليه إلى عالم الصيد ومتعه؛ بوسائله وحيوانه ومغامراته، وما يدور فيه من صراع بين الإنسان والحيوان، أو بين الحيوان والحيوان. وقد يضمن كلامه — فى ثنايا حديثه عن الصيد والفرس — بعضا من خصاله وشمائله، على نحو ما بيناه فيما سلف، وعلى نحو ما سبق لنا بيانه وتفصيله فى دراستنا للمعلقة «قفانبك» والقصيدة الثانية «ألا عم صباحا».

ولنمض فى تناول ما جاء به فى شعره من وصف الصيد علاوة على ما ذكرناه من قبل فى القصيدتين السابقتين.

عرض صورة واضحة لمشاهد الصيد ومتعه ومزاولة نشاطه فى قصيدته البائية «خليليّ مرَّا بى...» وقد استغرق فى الحديث عن هذه الظاهرة ثمانية وعشرين بيتا، يقول فيها:

إذَا ما رَكبْنَا قالُ وُلْدانُ أهْلِنا ... تعالَوْا إلَى أنْ يَأْتِيَ الصَّيْدُ نَحْطِبِ
فيوماً على سِرْبٍ نَقِيٍّ جُلودُه ... ويوما عَلَى بَيْدَانَةٍ أمٍّ تَوْلَبِ
ويَخْضِدُ فى الآرِيّ حتّى كأنّما ... به عُرَّةٌ أو طائفٌ غيرُ مُعْقِبِ
خرجنَا نُرِيغُ الوحْشَ حَوْلَ ثُعالَةٍ ... وَبَيْنَ رُحَيَّاتٍ إلى فَجِّ أخْرُبِ
فآنَسْتُ سِرْباً من بعيدٍ كأنه ... رواهبُ عيد فى ملاء مهدّب
فكان تنادينا وعَقْدُ عِذَارِهِ ... وقالَ صِحابِى قدْ شأَوْنَكَ فاطْلُبِ
فَلأْياً بَلأْيٍ ما حَمَلْنا غلامَنا ... على ظهرِ مَحْبُوكِ السَّراةِ مُحَنَّبِ
فَقَفَّى على آثارِهِنَّ بِحاصِبٍ ... وَغَبْيَةِ شُؤْبُوبٍ مِنَ الشَّدِّ مُلْهِبِ
وَوَلَّى كَشُؤْبُوبِ العَشِيِّ بِوَابِلٍ ... وَيَخْرُجْنَ مِنْ جَعْدٍ ثَرَاهُ مُنَصَّبِ
فللسَّاقِ ألْهُوبٌ وللسَّوْطِ دِرَّةٌ ... وللزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أهْوَجَ مِنْعَبِ
فأدْرَكَ لَمْ يُجْهَدْ ولَمْ يَثْنِ شَأْوَهُ ... يَمُرُّ كَخُذْروفِ الوَلِيدِ المُثَقَّبِ

تَرَى الْفَأْرَ فى مُسْتَنْقَعِ القاعِ لاَحِباً
عَلَى جَدَدِ الصَّحْراءِ مِنْ شَدِّ مُلْهِبِ
خَفَاهُنَّ مِنْ أنفاقِهِنَّ كأنّما خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلِّبِ
وَظَلَّ لِصيرَانِ الصَّرِيمِ غَماغِمٌ يُداعِسُها بالسَّمْهَرِىِّ المُعَلَّبِ
فَكابٍ عَلَى حُرِّ الجَبِينِ ومُتَّقٍ بِمَدْرِيَةٍ كأَنَّها ذَلْقُ مِشْعَبِ
فَقُمْنا إِلَى بَيْتٍ بِعَلْيَاءَ مُرْدَحٍ سَمَاوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِىٍّ مُعَصَّبِ
وَقُلْنا لِفِتْيانٍ كِرامٍ أَلاَ انْزِلُوا
فعالُوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثَوْبٍ مُطَنَّبِ
وأَوْتَادُهُ مَارِيَّةٌ وعِمَادُه رُدَيْنِيَّةٌ فِيها أَسِنَّةُ قَعْضَبِ
وأَطْنَابُه أَشْطانُ خُوصٍ نَجائِبٍ وصَهْوَتُه من أَتْحَمِىٍّ مُشَرْعَبِ
فلمَّا دَخَلْنَاهُ أَضَفْنَا ظُهُورَنا إِلَى كلِّ حَارِىٍّ جَدِيدٍ مُشَطَّبِ
فظَلَّ لَنا يَوْمٌ لَذِيذٌ بنعْمَةٍ فقُـلْ فى مَقِيلٍ نَحْسُهُ مُتَغَيِّبِ
كأَنَّ عُيونَ الوَحْشِ حَـوْلَ خِبائِنـا
وأَرْحُلِنَـا الجَزْعُ الذى لَمْ يُثَقَّبِ
ورُحْنَـــا كأَنَّا من جُؤَاثَى عَشِيَّةً
نُعَالِى النِّعاجَ بيْنَ عِـدْلٍ ومُحْقَبِ
نَمُشُّ بأَعْرافِ الجِيادِ أَكُفَّنَا إذا نَحْنُ قُمْنا عَنْ شِواءٍ مُضَهَّبِ
إلى أَنْ تَرَوَّحْنَا بلاَ مُتَعَتَّبٍ عليه كَسِيدِ الرَّدْهَةِ المُتَأَوِّبِ
ورَاحَ كتَيْسِ الرَّبْلِ يَنْفُضُ رَأْسَه
أَذَاةً به مِن صائِكٍ مُتَحَلِّبِ

حَبِيبٌ إلى الأصْحابِ غيرُ مُلَعَّنٍ   يفَـدُّونه بالأُمَّهاتِ وبالأَبِ
فيَوْمًا علىَ بُقْعٍ دِقَاق صُدُورُه   ويَوْمًا علىَ سُفْـعِ المدامِـعِ رَبْرَب

يقول : فرح ولدان قومنا عند ما ركبنا للصيد ، وتنادوا فيما بينهم قائلين : تعالوا نجمع الحطب للشواء وللطبخ انتظاراً لما يأتى به الصائدون من الصيد السمين .. والشاعر لا يقف فى صيده عند نوع معين من الوحش ، بل يلاحق منه أنواعا متعددة ، بعضها بقر أبيض الجلود ، وبعضها أتن بيدانيّة من الحمر الوحشية المكتنزة التى تنفر من الناس ولا تأنس بهم ، ذوات جحوش وتوالب تخشى عليها ، فهى لذلك مذعورة أبداً .. إنه فى يوم صيده المعهود لقى نعاجا يرتعين خميلة ، يتبخترن فيها كعذراوات رواهب خرجن من ديورهن فى أرديتهن البيض ذوات الأهداب ، فتنادى الصيادون ، وقد شد كل واحد منهم عذار فرسه عجلا ، وعدت البقر ، وأدرك رفاق الصيد أن امرأ القيس أحجى بها وهو وحده لها ، فنادوه : سبقتك فالحق بهن وعجل بصيدهن ، فتقدم إليها مع غلامه على ظهر فرسه القوى المجدول الظهر المقوس المتن . . وجهد الغلام ليكون على مستوى عدو سيده (يعنى نفسه) بينما اندفع إلى القطيع كمطر منهمر عشية ، وتبعته النعاج موليّات ، يخرجن من أرض ندية خصبة ، والفرس يلاحقها ، والفارس من فوقه يلهبه بساقه ، ويدره بسوطه ، ويزجره بصوته ، فيندفع اندفاع الأهوج المجنون ويسرع فى عدوه كإسراع خذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل ... ويبلغ صيده وينال فى شوط واحد وطلق منفرد ؛ غير متعب ولا مجهد. لقد كان وطيس المعركة بينه وبين الصيد ساخنا ، حتى أن الفئران فى منخفض الوادى أحست بها ، وظنتها مطرا ينهمر ، يوشك أن يملأ جحورها ويغرقها ، فتركتها مسرعة تخط لها طريقا على جدد الصحراء حيث الأرض مستوية صلبة .

وعند ما وصل إلى هذا القدر من التمهيد بدأ يرسم صورة أخاذة نابضة

بالحياة والحركة ، بين الفرس من ناحية ، وبين ثور ونعجة وشبوب من ناحية أخرى ... إنه شبوب فحل وهو أسَنّ القطيع والذابّ عنه ، جلده مبيض كأنه صحيفة بيضاء ، لحق الفرسُ الثلاثةَ : الثور والنعجة والفحل ، وأراد أن يصرعها فى شأو واحد ، بينما بقية الثيران تضرب فى الرمل على غير هدي والغلام من خلفها وعن يمينها وشمالها يلاحقها ويحيط بها ؛ يطعنها برمحه المعلب المقوى المشدود فيصيبها فى مقاتلها ، فتخور خوار الإشفاق والجزع ... وقد صُرع بعضها فانكب على وجهه ، واتقى الطعنَ بعضُها الآخر بقرونه الحديدية التى كأنها حد المخرز فلم يستسلم للموت .

ولما فصلت المعركة بصرع من صرع ، وهروب من أفلَتْ ، أمر زعيم الصيد فتيانه ورفاقه بالنزول ، ودعاهم إلى نصب الخباء وإقامته ، فجعلوا دروعهم أوتاده ، وسيوفهم عُمُده ، وحبال إبلهم وخيولهم أطنابه ، وفَضْل أثوابهم أستاره ، حتى إذا ما تمت إقامته دخلوه متعبين ، ينشدون الراحة بعد أن جهدوا فى يومهم .. فأسند كل ظهره إلى رحل جديد منمق مما صنع فى الحيرة ، ومن حولهم وُضِع ما صيد من الوحش ميتًا ، تبدو عيونه وقد انقلبت فبدا بياضها وسوادها وظهرت كأنها خرز لمّا يثقب .. ثم أكلوا من لحم هذا الصيد شواء غير مكتمل النضج ، ولما قاموا عن طعامهم مسحوا فى أعراف الخيل أكفهم ، وكان اللحم كثيراً ، وكان الصيد وفيراً ، فحملوا بقيته معهم ، ووضعوا جانبًا منه فى حقائبهم وجانبًا آخر فى أعدالهم وأخراجهم التى ضاقت بما حُملت ، كما لو كانو عائدين من « جُوَاثَى » حيث التمر كثير وجيّد ، والناس يحملون منه ما طاب لهم على ظهور مطاياهم فى أعدالهم وحقائبهم ... وراح الفرس فى نهاية الأمر نشيطاً كنشاط التيس الذى أكل الربيع ونبات الرّبل ، وإنه لينفض رأسه — وعليه سرجه ولجامه — ضيقاً بريح عرقه وتأذياً منه .. وكأن

دماء الهاديات المتقدمات من الوحش على نحره وصدره عصارة جناء بشيب ، وإنه ليسد فرجه بذيل ضاف فويق الأرض .. وبهذا يكون قد ختم أبياته ببيتين أوردهما فى معلقته بنفس ألفاظهما ومعانيهما مع تغيير وحيد فى الكلمة الأخيرة من كل بيت .

وفى قصيدته « ألا عم صباحا أيها الربع وانطق » تحدث عن الصيد فى واحد وعشرين بيتا يقول فيها :—

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل ... شديد مشك الجنب فعم المنطق
بعثنا ربيئا قبل ذلك مخملا ... كذئب الغضا يمشى الضراء ويتقى
فظل كمثل الخشف يرفع رأسه ... وسائره مثل التراب المدقق
وجاء خفيا يسفن الأرض بطنه ... ترى الترب منه لاصقا كل ملصق
فقال ألا هذا صوار وعانة ... وخيط نعام يرتعى متفرق
فقمنا بأشلاء اللجام ولم نقد ... إلى غصن بان ناضر لم يحرق
نزاوله حتى حملنا غلامنا ... على ظهر ساط كالصليف المعرق
كأن غلامى إذ علا حال متنه ... على ظهر باز فى السماء محلق
رأى أرنبا فانقض يهوى أمامه ... إليها وجلاها بطرف ملقلق
فقلت له صوب ولا تجهدنه ... فيذرك من أعلى القطاة فتزلق
وأدبرن كالجزع المفصل بينه ... بجيد الغلام ذى القميص المطوق
وأدركهن ثانيا من عنانه ... كغيث العشى الأقهب المتودق
فصاد لنا ثورا وعيرا وخاضبا ... عداء ولم ينضح بماء فيعرق
وظل غلامى يضجع الرمح حوله ... لكل مهاة أو لأحقب سهوق

وَقامَ طُوالِ الشَّخصِ إذْ يَخضِبُونَه   قِيامَ العَزِيزِ الفارسىِّ المنطّق
فقُلْنا ألاَ قدْ كانَ صيدٌ لقانِصٍ   فخبُّوا علَيْنا كلَّ ثوبٍ مُرَوَّقِ
وَظَلَّ صِحابِى يَشْتوُون بنَعمةٍ   يَصُفُّونَ غاراً باللّكيكِ الموشّق
وَرُحنا كأنّا مِنْ جُؤاثى عشيَّةً   نُعالى النِّعاجَ بيْن عِدْلٍ وَمُشْنَق
ورُحْنا بِكَابنِ الماءِ يُجْنَبُ وسْطنا   تَصَوَّبُ فيه العينُ طَوراً وتَرْتقى
وأصبح زُهْلولاً يُزِلُّ غلامنا   كقِدحِ النّضِىِّ بالْيدين المفوّق
كأنّ دماء الهاديات بِنحرِهِ   عُصَارةُ حنّاء بشَيْبٍ مفرّق

تحدث الشاعر فى هذه الأبيات عن الرحلة ورفاقه فيها . . . فقال إنه خرج لرحلة الصيد قبل أن يهب الناس من نومهم على فرس ضخم ، صلب الجنب قوى ، ممتلىء الجوف شبعان ، وقد أرسل قبل خروجه ربيئاً يستطلع له المكان ويراقب الأوابد والوحوش من مرتقب عال ، ومشرف مرتفع ، إنه رَبِىءٌ طُلَعة يحسن التستر والاختفاء كذئب الغضا ، يمشى الضراء فى حذر واتقاء . . إنه يرفع رأسه ولكن سائر بدنه ملتصق بالأرض كما يصنع الخشف ولد الظبية ، وذلك لحيطته وحذره حتى لا يراه الصيد فينفر منه ، وحين لمح من الصيد مالمح واطمأن إليه عاد إلى امرىء القيس ، زاحفاً على بطنه ؛ يستره الغبار ويلفه من كل جانب ، فأنبأه أن هناك قطيعاً من البقر ، وعانة من الحمر ، وخيطا من النعام ترعى متفرقة ، فقام امرؤ القيس إلى فرسه فألجمه ليزاول الصيد . . إنه فرس كغصن البان فى صفاء اللون وحسن المنظر ، وهو نشيط عربيد لا يكاد يهدأ ، لم يستطع غلامه أن يركبه إلا بعد معالجة ومحاولة ، يسطو بنفسه فلا يتوقى من يركبه ، ولا ما يضرب بحوافره . . وهو ضامر كأنما قد برى بريا ، وكأن الغلام إذا ركبه وعلا متنه وأسرع به فى عدوه إنما يمتطى ظهر بازىّ يحلق فى

السماء . . رأى أرنباً فهوى إليها ، ودنا منها ، يتأملها قبل أن ينقض عليها . فقال للغلام سيدُه : صوّب الفرس ولا تجهده ، خذ عفوه ولا تحمله على العدو فيصرعك ، فأطاع ، ولما أحسّ القطيع به تناثر كعقد مفصل على نحر وليد ذى قميص مطوّق ، وأدرك الغلام الصيد ، وفرسه ثان من عنانه ، لم يجهد ، ولم يستنفد كل ما عنده من أفانين الجرى . . فانساب براكبه فى سهولة ويسر كانيساب المطر الغزير ، فأخذ الغلام يطعن برمحه كل مايدركه من بقر وحمر ؛ فصاد ثوراً وحماراً وظليما ، دون مشقة له ، ولا عناء لفرسه يعرق معه . . ثم أخذ يخضب ناصية الفرس بدم الصيد ، بينما وقف هذا الفرس مختالا مزهواً بنفسه كأنما هو عزيز فارس ورئيسها الأفخم .

ولما فرغوا من الصيد ، ضربوا لهم خباء ، وبدأ الرفاق والأصحاب والغلمان يصنعون من نعمتهم التى صادوها شواء يأكلونه ، وقديداً يحملونه معهم . . . ثم آبو من رحلتهم عشاء يحملون ما بقى لديهم من لحم وصيد كقوم عائدين من « جؤاثى » يحملون تمراً ملئوا به أعدالهم وحقائبهم أو علقوه على ظهور رواحلهم .

ثم يختم حديثه عن الرحلة بوصف جواده . . إنه كابن الماء فى خفته وطول عنقه ولين جناحيه . . ترمقه العين من أعلاه وأسفله إعجاباً به . . إنه زهلول أملس خفيف ، يزل الغلام من فوقه كأنه سهم نضىء مفوّق ، لا نصل له ، ولا ريش فيه . . من خفته ونشاطه يلقى من يركبه عن ظهره ويطرحه عن متنه . . وكأن ما بنحره من دماء الهاديات وأوائل الوحش المصيدة عصارة حناء بشيب مفرق .

* * *

وفى قصيدته (أحار بن عمرو كأنى خمر) وصف كلاب الصيد فى ستة أبيات يقول فيها : —

وَقدْ اغتَدِى وَمَعِى القَانِصَانِ ... وَكلٌّ بمَرْبأَةٍ مُقْتَفِرْ

فَيُدْرِكُنَا فَغِمٌ دَاجِنٌ ... سَمِيعٌ ، بَصِيرٌ ، طَلوبٌ نَكِرْ

ألَصُّ الضُّرُوسِ، حَنِيُّ الضّلوع ... تَبُوعٌ ، طَلُوبٌ ، نَشِيطٌ ، أشِرْ

فأَنْشَبَ أظفَارَهُ فى النَّسَا ... فقُلْتُ هُبِلْتَ ألاَ تَنْتَصِرْ

فَكَرَّ إِلَيْهِ بِمِبْرَاتِهِ ... كمَا خَلَّ ظَهْرَ اللِّسَانِ المُجِرْ

فَظَلَّ يُرَنِّحُ فى غَيْطَلٍ ... كمَا يَسْتَدِيرُ الحِمارُ النَّعِرْ

يقول : إنه خرج للصيد ومعه الصائدان المدرّبان على الصيد ، وكل عَلَى مربأة ومرتفع ينظر منه إلى الوحش المراد صيده ؛ ويتتبع آثاره . . فأدركنا كلب ألوف معدٌّ للصيد حريص على القنيصة مولع بها ، شديد الطلب لهـا ، مدرك لفائتها ، منكر داهية بشع الصورة . . ملتصق الأسنان والأنياب ، مشرف الضلوع ظاهرها ، حريص عَلَى تتبـع آثار الصيد حتى يدركه ، شره نهم . . أنشب أنيابه فى نسا الثور فعاق حركته ، وحبسه على الفارس ، الذى زجره امرؤ القيس وأهاب به أن يدنو من الثور فيطعنه ليساعد الكلب وينصره على فريسته . . فطعن الثورُ الكلبَ بقرنه طعنة تشبه إدخال المجر (أى العود) فى لسان الفصيل ليمنعه من الرضاع . . فظل الكلب يترنح ويستدير ، يريد أن يسقط لشدة الطعنة التى أصابته من الثور ؛ كما يسقط الحمار النّعِر الذى أصابته فى أنفه النعرة ، وهى ذبابة خضراء ؛ فيستدير لذلك ولا يقر له قرار .

(١)

وكما وصف امرؤ القيس الفرس يصيد به ، والناقة يحمل عليها رحاله ، والحمر الوحشية يصطادها ، ورفاق الصيد وغلمانه . قدم لنا أيضاً صورةً دقيقة ، — رواها الأصمعي — يصف فيها أشهر الرماة فى عصره . . إنه عمرو ابن المسبِّح الطائى من بنى ثعل ، يقول فيه :

رُبَّ رامٍ مِنْ بَنِي ثُعلٍ مُتْلِجٍ كَفَّيْهِ فِي قُتَرِهْ
عارِضٍ زَوْرَاءَ مِنْ نَشَمٍ غيرِ بَانَاةٍ عَلَى وَتَرِهْ
قدْ أتتْهُ الوَحْشُ وَارِدَةً فَتَنَحَّى النَّزْعَ فى يَسَرِهْ
فَرَمَاهَــــا فِى فَرَائِصِها بِإِزَاءِ الحوْضِ أو عُقُرِهْ
بِرَهِيشٍ مِنْ كِنانَتِهِ كَتَلَظِّى الجَمْرِ فِى شَرَرِهْ
رَاشَــهُ مِنْ رِيشِ نَاهِضَةٍ ثُمَّ أمْهَاهُ عَلَى حَجَرِهْ
فَهْوَ لا تَنْمِى رَمِيَّتُــه ما لَهُ لاَ عُــدَّ مِنْ نَفَرِهْ
مُطْعَمٌ للصَّــيْدِ لَيْسَ لَهُ غَيْرَها كَسْبٌ عَلَى كِبَرِهْ

يصفه امرؤ القيس بأنه صياد ماهر ، يصيد الوحش مختالا ، يكمن فى القُتر ، — وهى بيوت الصائدين التى يكمنون فيها للوحش لئلا يراهم فينفر منهم . . وقد أعد قوساً مائلة الجوانب ليرمى بها . . إنه لا ينحنى على الوتر عند الرمى ، وحين ترد الوحوش عليه ، يضع ما يريد صيده منها قبالة وجهه وجبهته ؛ حتى إذا أصبح الصيد قريباً من الماء مطمئنا ، رماه فى فرائصه ، وأصاب مقاتله ، بسهم يستله من كنانته . . إنه سهم يتوهج حدة وبريقا كجمر مشتعل ، جعل له ريش طائر ، وأرقه وحدده .. يسقط ما يصاد به مكانه ولا يستطيع حراكا ، ياله من صياد ماهر !! إذا عُدَّ قومه فلا مثيل

له فيهم . . إنه صياد محترف لا يكاد سهمه يخطىء ، ليس له وسيلة يكتسب منها عيشه وطعامه غير الرماية والصيد على كبر سنه .

* * *

وفي قصيدته « أماويّ هل لي عندكم من معرس » يتحدث عن حمار الوحش وكلاب الصيد ، فيقول : —

كأنّي ورَحْلِي فوْقَ أحْقَبَ قارِحٍ
بِشَرْبَةَ أو طاوٍ بعِرْنان مُوجِسِ
تَعشّى قليلاً ثمّ أنحَى ظُلُوفَه يُثيرُ التُّرابَ عَنْ مَبيتٍ ومكْنِسِ
يُهيلُ ويُذْرِي تُرْبَها ويُثيرُهُ إثارةَ نَبَّاثِ الهَوَاجِرِ مُخْمِسِ
فباتَ عَلَى خدٍّ أحَمَّ ومَنْكبٍ وضَجْعَتُهُ مِثلُ الأسيرِ المُكَرْدَسِ
وباتَ إلى أرْطاةِ حِقْفٍ كأنَّها إذَا ألْثَقتْها غَبْيَةٌ بيْتُ مُعْرِسِ
فصبَّحه عِنْد الشّرُوقِ غُدَيَّةً
كِلاَبُ ابنِ مُرٍّ أو كِلابُ ابنِ سِنْبِسِ
مُغَرَّثَةً زُرْقاً كأنَّ عُيُونَها من الذَّمْرِ والإيحاء نُوّارُ عِضْرِسِ
فأدْبر يكْسُوها الرَّغامَ كأنّهُ
على الصَّمْدِ والآكام جَذْوَةُ مُقْبِسِ
وأيْقَنَ إنْ لاَقَيْنَه أنّ يوْمَه
بذِي الرِّمْثِ إن ماوَتْنَه يومُ أنْفُسِ
فأدْرَكْنَهُ يأخُذْنَ بالسّاقِ والنّسَا
كما شَبْرَقَ الوِلْدَانُ ثوْبَ المُقَدِّسِ

وغوّرْنَ فى ظِلٍّ الغَضَــا وتَرَكْنَهُ

كقِرْمِ الهِجـانِ الفَادِرِ المُتَشَمِّسِ

بدأ أبيـاته بالحديث عن ناقته ولـكنه لم يشر إليها بأكثر من قوله إنه ورحاله فوقها ، وهى كحمار وحشىّ فتىّ . . ثم انتقل بعد ذلك إن وصف الحمار. إنه حمار قارح ، خميص البطن ، قبالة عين ماء أو على جبل متباعد الأنحاء ، يمرح فى « شَرْبَةَ » نشطا ، ويتحرك فى « عِرْنَانَ » حذراً متوجسا ، تعشى عشاء قليلا ، ثم جمع أظلافه يحفر بها مسكناً ليبيت فيه ، وكناسا يأوى إليه ، إنه يهيل التراب ويذريه ويثيره ؛ كرجل اشتد عليه حرّ الهاجرة ، فأخذ ينبش الأرض ليصل إلى برد الثرى ، يدفع به شدة الحر والعطش ، فإذا هيّأ لنفسه مناما فتر عزمه ، وهدأ نشاطه ، ونام على جنبه وخده كالأسير المقيد ، لا يبدى حركة ، ولا يحدث ضجيجا .

لقد اتخذ كناسه ومرقده بجوار شجرة تجمّع من حولهـا الرمل ، فإذا بلّتها دفعة من مطر ، أو ندّتها مزنة من سحاب ، هدأ وسكن ، كأنه فى بيت مُعْرِس بأهله ، فإذا تنفس الصبح دهمته كلاب مضرّاة على الصيد ، كأنها فى ضراوتها ودربتها كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس ؛ التى جوّعت لتضرى على الصيد ، وتكون أشد فتكا وأقوى عراماً ونهشا . . حمراء العيون ، مشتعلة الأحداق ، تتوهج كأنها نوّار غِضرس ، فلما رآه الحمار شدّ فى الجرى هربا ؛ مخلفا وراءه سحابا من الغبار الذى غطى هـذه الـكلاب وكساها . . . وكأن هذا الحـار وهو يجد فى الهرب فيعلو الأصماد وما غلظ من الأرض ، ويلوذ بالمرتفعات والآكام ؛ كأنه جذوة من النـار المشتعلة المنتشرة .. وكلما أيقن أنه إذا لاقى هذه الـكلاب فى وادى « الرمث » فستسعى

لموته وسيسعى هو جاهداً لموتها إنه يوم هلال أنفس وإراقة دماء ، وقد يكون فى الهالكين ودمه مهراقاً . . كلما تذكر ذلك سابق الريح ولا يبقى من عدوه على شيء . . . إنهـا لو أدركته فستأخذ بساقيه ووركيه وستمزقها تمزيقا ؛ كما يشبرق الولدان ثوب حاج قادم من بيت المقـدس ، يلتفون حوله ، ويحيطون به ، ويتبركون بما يحصلون عليه من مزق ثوبه . . . ولما يئست الـكلاب من اللحاق به لأنه كان أسرع منها وأقدر على الهرب ، تركته وانحدرت عنه إلى ظل أشجار الغضا بعد ما بذلت من جهد شاق . . أما الحمار فقد بقى قوياً نشيطا كالفحل الهجان ، شموساً نافراً ، لا يقدر على مواجهته أحد ، وليس بمستطيع أن ينال منه شيئاً .

* * *

ذلك هو امرؤ القيس مع الطبيعة المتحركة ، ومن غير معاناة ندرك أن مظهرين منهـا كانا مناط إعجابه ، وموضـع إعزازه واهتمامه : الخيل ، والصيد . . وكل ما جاء به معهما من الموصوفات الأخرى فضرورة اقتضاها العمل الفنى ، واستلزمتها طبيعة التصوير والأمر الواقع .

إنه موزع القلب بين الفرس والأوابد . . ما يكاد يتناول وصف الجواد ، حتى يعرج على وصـف الأوابد . . وإذا طلب الأوابد صائداً ووصف نضالها مطلوبة مصيدة ، خرج من ذلك إلى حصانة ، فبثه عواطفه ، وذكر فضله عليه . . وهو يصـدر فى ذلك كله عن حب له ، وإعجاب به ، وانفعال معه ، ويمزج حديثه عنه بالحنان والعطـف والود . . يصفه فيختار له أجمل الصفات ، ويقارنه بأكمل المخلوقات ، ولا يصوره إلا فى أكمل حالاته . لقد كانت الفروسية بأوضح معانيها ، وأجلى صورها ومظاهرها : صيدا ،

وسباقاً، ومطاردة، وسيادة — من أهم هواياته المفضلة لديه ورغباته الملحة عليه.. وصف الفرس فى حالاته المتنوعة.. وصفه مقبلا على الصيد قوياً نشيطاً، وراجعاً منه جلداً صليباً، لم تجهده المطاردة، ولكنها تركت عليه آثاراً من ظلها الناشط الدءوب.. وفصل القول فى خَلْقه ووصف أعضائه، وفى جريه وعدوه.. إنه سريع كخذروف الوليد، ومندفع كالصخرة الهاوية، ومنقضّ كالعقاب الصيود، كما أنحى بالوصف على جبهته وعينيه ومنخريه وأذنيه، وعنقه وعرفه، وظهره ومتنه وأضلاعه وجانبيه، وبطنه وكفله، وذيله وشعره وخاصرتيه وسيقانه وحوافره.. كما وصف ضموره ولونه وسلامة أعضائه.. الخ... ذلك شأنه مع جواده وحديثه عنه.

« * »

أما شأنه مع الناقة وحديثه عنها فإنه يصدر عن تقديره لدورها فى حياة الصحراء، فهو لا يكاد يذكرها إلا هارباً من همّ، أو عازماً على سفر ناء، ورحلة طويلة بعيدة المدى.. ولم يطل القول فى حديثه عنها، فأطول وصف خصّها به لا يعدو خمسة أبيات، ولا يتناول غير الحديث عن سرعتها وما يتصل بنشاطها وقوتها.. وندرك من حديثه عنها ووصفه لها؛ أنه لا يحس نحوها بالعواطف التى يكنها للجواد.. ومهما يكن من شأنه حيالها فإن ماتناولها به من القول يبلغ فيه قمة الإبداع، وكان فيه مصوراً ماهراً وفناناً موهوباً.. فلم يكتف من القول بالحديث عن سرعتها وقوتها، وأنها تضرب الأرض بأخفافها ومناسمها فتطاير الحصى من خلفها وأمامها، لم يقنع بذلك فحسب، وإنما رسم — بريشته كفنان — للحصى صورةً يعيّن فيها اتجاهه ويضبط وقعه.. فهو طويل عريض محدد، يتناثر فى غير نظام، ويتطاير على غير

ترتيب كأنما يرميه رام أعسر، وصوته عند سقوطه صوت أصم مُصْمَت كصوت رنين نقد مزيف..

أما حديثه عن الناقة ذاتها؛ فهي قوية سريعة، ومتعبة ناشطة، ومجهدة صلبية، وفتية شابة، وعجوز متماسكة، وخفيفة بدينة.. يلم بأحوالها في إيجاز وأحيانا لا يتجاوز في وصفه لها غير بيت واحد يأتي به في القصيدة، ثم يخرج منه ويجعله ذريعة لوصف الحمار الوحشي، أو ظليم النعام.. ولقد حلا له ألا يهتم بوصفها تفصيلا، بل أهمل ذلك إهمالاً تاما.. فلم يصف منها غير امتداد جسمها وامتلاء بدنها وضخامتها، ووقع أخفافها على الأرض، وسعة صدرها، وتباين ما بين عضديها، وتقارب خطوها، وطول عنقها، وتمايل بدنها عندما تسرع في سيرها حتى لتكاد تصرع راكبها وتلقى به من فوق سنامها. اقتصد امرؤ القيس في وصف أجزاء الناقة، بينما أن بعض الشعراء من معاصريه ولاحقيه تتبعوا أعضاءها وأجزاء جسمها فوصفوها بالتفصيل وأسرفوا في ذلك إلى حدّ ما. فطرفة بن العبد — مثلا — وصفها في معلقته بتسعة وعشرين بيتاً كاملة ومتوالية وبلغ ذروة الإجادة في تصويرها وحديثه عنها.

ونلاحظ على امرىء القيس أن قصائده الأولى التي قالها في صدر شبابه خلت من الحديث عن الناقة.. فلا نجد لها ذكراً في معلقته «قفا نبك» ولا في قصيدته الثانية «ألا عم صباحا» وهما من روائع شعره.. وسكت عن فضائلها التي خصّت بها؛ مما يتصل بالصحراء والحياة فيها، وتحمل مشقاتها وأهوالها، وشظف العيش فيها، والصبر على الظمأ، والقناعة بالقليل من الغذاء الخشن..

وقد وصف من أوابد الصحراء وحيوانها ما له بالصيد صلة.. وصف العير الوحشي وأتنه، ووصف ثيران الوحش وأبقارها ونعاجها، وتعاطف معها وانفعل

بها ، فأفسح لها من قلبه ، وأجال فيها القول على لهاته ، وأطلق فيها لسانه . فاحتواها شعره على نحو ما صنع مع حصانه من قبل .

صوّر الحمار فى خلْقه وخُلقه .. فى تكوينه وطباعه .. إنه يغار على أتنه ، ويحتد فى زجرها ، يكلأ صغارها ويرعاها ، ويرِد بها ماءها ويرتاد مرعاها ، ولم يترك سمة من سماته إلاّ وصفها وألمّ بها وتحدث عنها ، وجعل لها من الصورة التى يرسمها له خطوطاً وظلالا .. فقد يكون على حاجبه خدش من بقايا ضرب وآثار اعتداء .. وقد يكون فى صدره عض أنحص عنه الشعر فبدا عارى الجلد فى موضعه .. ووصف من البقر الوحشى ما كان متبدّيا نافرا ، أو وديعاً هادئاً ، وصور نعاج الفلوَات تتهادى فى مشيتها بصور عذراوات رواهب فى مقام العبادة يمشين خاشعات ، يملأ الجلال جوانبهن ، وتغشى السكينة والوقار تحركاتهن .. فإذا فاجأ تلك النعاج صياد على جواد تناثرن كعقد صبى كريم انفرطت حباته وتبعثرت خرزاته ؛ فى فوضى وعلى غير نظام .. وفى ثنايا هذه الصورة أتى بلمحات خاطفة رسم فيها ظليم النعام ، وكلاب الصيد ، و بازىّ الأجواء ، وعُقاب السماء ، وأرانب الصحراء ، وفئران البيداء .

وصور امرىء القيس فيما يرسمه ويجلوه بشعره وقصائده تفيض باللفتات الإنسانية الذكية ، وتنضح بالخبرة الواسعة عن طباع الحيوان وصفاته .. فالنعامة أسرع ما تكون حين تعود إلى بيضها ، والناقة أصعب ما تكون قياداً حين تنزع براكبها إلى مناخها ومهبطها ، والكلب أشد ما يكون ضراوة حين يُجوّع .. وعين الحيوان كعين الإنسان تطل منها مشاعره وأحاسيسه إذا ما احتد ونفر ، وإذا ما رغب وعطف .. والخيل تعطى كل ما لديها من عَدْو وجميع ما فى طاقتها من سرعة دون أن تُسأل ، وأما الإبل فأنها لا تعطى من ذلك شيئاً إلاّ إذا وَالاَهَا راكبها نهزاً وزجراً وحثاً ..

والجواد للصيد والزينة ، والناقة والبعير للأحمال والرحلة ، وقوله فى قصائده « أنا وقرانى ونمرقى » وقف على الناقة ، ولم يأت بها فى معرض حديثه عن فرسه أبداً .

وهو يدرك خداع البصر وختل النظر حين يسرع المرء ، فتظهر له الأشياء فى عينيه متصلة غير متباعدة ، وإن كانت فى حقيقة الأمر والواقع متفرقة غير متقاربة ؛ تفصل بينها الأماكن والمواقع بمسافات شاسعة أو غير شاسعة .

ويعتمد امرؤ القيس — أحياناً — فى إدراك القارىء أو السامع لصوره على ما عندهما من ذكاء وما لديهما من ثقافة ، فالحمر — مثلا — ترد الماء وَجِلَة ، وتشرب خائفة .. ويصمت الشاعر ولا يفصح عن سبب خوفها ووجلها فى هذا الموقف ، اعتماداً على علم سامعه أو قارئه بأن موارد المياه فى أيامه كانت مهبط الصيادين على الدوام .. فهو من أجل ذلك لا يبين ولا يذكر ؛ لماذا كانت الحمر خائفة ؟ ويترك ذلك لفطنة القارىء أو السامع وذكائهما وحسن إدراكهما .

*
*   *

وكما عشق امرؤ القيس النساء ولهاً بهن ، كذلك كان عاشقاً ومغرماً بالطبيعة وظواهرها الحية والصامتة .. كانت إلفه وتوأم روحه ، وملء عينيه ، ومتاع ناظريه ، ومجال فكره ، وفيض خاطره ، ومنهل شعره ، ومجتلى خياله وتصويره .. هام فى محاسنها ، وتفيأ ظلالها ، وشدا معها ، وصاد وحشها ، وألف شعابها ، وقاسمها سكونها وحركتها ، وشاركها صمتها ونشاطها ، وانفعل بكل ظاهراتها أيما انفعال ، فقد كانت جزءاً من ذاته لا يتجزأ ، وخدينا لحياته لا يبرحه ولا يفارقه .. معها وفيها أنفق عمره وأمضى أيام حياته .. تأملها ملياً فأدرك

أسرارها ، وفتح لها قلبه فعرف خفاياها، وحلت من نفسه ووجدانه وخياله مكاناً فسيحا فتغنى بها وشدا معها .

وقد استعرضنا فيما مضى شعره فى الطبيعة الحية .. وبقى علينا أن نتتبع ما يمكن من صوره التى أتى بها فى حديثه وقصائده عن الطبيعة الساكنة الصامتة .

فى معلقته تحدث عن المطر ، وحديثه عنه يكوّن وحدة هامة من أفكار هذه القصيدة الجميلة البارعة .. ولقد سار فيما عرض له من صوره وخياله على نحو منطقى بديع وفكر متسلسل رتيب .. رأى السحاب فتحدث عن البرق والرعد والمطر ، وجلس يتأملها ، ويتابع تحركها إلى أن انهمرت وأحيت الأرض بعد موتها ، فآتت أكلها روضات من النبات والزهر والثمر مختلفاً ألوانه وطعومه .. ومن المعالم الجغرافية التى تضمنها وصفه ندرك أن مساقط هذا المطر الهاطل كانت على منازل قومه فى بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمال الحجاز .. فالبرق يلمع وسط سحب متراكمة مستديرة كلمح اليدين تتحركان بسرعة فى حبىّ مكلل ، أو كمصباح راهب أمال الزيت وصبه على فتيلته ، حتى يتوهج ضوءُها ، ثم قعد وصحبه يتأملون ذلك البرق ، وينظرون من أين يجىء بالمطر ، ويَا لَبُعْدِ ما رَأَوْا ... رأوا مطراً غزيراً شمل نواحى عدة وجهات مترامية الأطراف ، فكان يمينه على جبل قطن ، ويساره على جبلى الستار ويذبل .

لقد غطى ما حول « كُتيفة » واقتلع سيله الأشجار الضخمة العالية فى طريقه وقلبها رأساً على عقب ، فجعل عاليها سافلها .. ومرّ على جبل « القنان » برشاشه ونفيانه فأكره الوعول المستعصمة به المستقرة فى ذراه على النزول منه ولم يترك بتيماء جذع نخلة قائماً إلا وأسقطها جميعا ، ولم يبق من أبنيتها إلاّ ما كان قوياً مشيداً بالجنادل والصخور العظيمة ... وجبل « ثبير » حين غطاه

الماء الغزير ، والغثاء الأسود الكثير ، بحيث لم يترك منه إلا رأسه وقمته ، أصبح هذا الجبل كأنه شيخ متدثر متزمل فى كساء مخطط من برود اليمن .

ونَحَّى المطر ما كان على رأس «المجيمر» من تراب ونبات ، ودار السيل حوله وأحاطه بما احتمل منها ، فكان كرأس فلكة المغزل .. واستحال هذا المطر فى أودية أخرى إلى سيل جارف ، فأغرق السباع ، واحتملها طافية على سطح الماء ، مقلوبة على ظهورها بادية رءوسها وأطرافها ، كأنها حين ينظر إليها من بعيد وقد لطخها الطين والماء الكدر أنابيش عنصل وأصول بصل برىّ .

ولقد ألقى هذا المطر أثقاله بصحراء « الغبيط » فأنبتت الأرض نباتًا حسنًا ، مختلف الزهر واللون والأُكل ، فكان نزوله بها كنزول تاجر يمانىّ جاء محمّلاً بعياب كثيرة وفيرة ، فيها ثياب ملونة زاهية ، ينشرها على أعين الناس استمالة لهم وترغيبًا فى شرائها منه .

إن هذا المطر أحال الوادى إلى روضة من النبات والزهر ، مما جعل طيور الجواء تغرد فيه طربة مبتهجة نشوى كأنها سكارى ، بدأت صباحها المبكر بشرب رحيق من سلاف مفلفل : —

والأبيات التى احتوت وصف هذه الظاهرة الطبيعية سبق ذكرها فى باب المعلقة من قوله : —

أصاحِ ترَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ   كَلَمْعِ الْيَدَيْن فِى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

إلى آخر القصيدة « اثنا عشر بيتا » .

* * *

وقد حدث الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء ، أنه سأل ذا الرّمة فقال له :

أى الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال : قول امرىء القيس ، قال أبو عمرو ، فأنشدنى قوله : ديمة هطلاء .. الخ ..

وقد أجمع النقاد على أن هذه القصيدة من أبلغ وأروع ما جاء فى وصف الغيث .. يقول فيها : —

دِيمَةٌ هَطْلاءُ فِيها وَطَفٌ طَبَقُ الأرضِ تحرَّى وتَدُر
تُخرِجُ الوَدَّ إذَا ما أشْجَذَتْ وتُوارِيهِ إذَا مَا تَشْتَكِرْ
وترَى الضَّبَّ خَفِيفاً ماهِراً ثانياً بُرْثُنَهُ ما ينعفِرْ
وترَى الشجْرَاء فى رَيِّقِها كَرُءُوسٍ قُطِّعَتْ فيها الخُمُرْ
ساعةً ثم انتحاها وَابِلٌ سَاقِطُ الأكنافِ وَاهٍ مُنْهَمِرْ
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثمّ انتَحَى فيهِ شُؤْبُوبُ جَنوبٍ مُنْفَجِرْ
ثَجَّ حتى ضَاقَ عَنْ آذِيِّهِ عرْضُ خَيْمٍ فَخُفَافٍ فيُسُرْ
قَدْ غدَا يَحْمِلُنِى فى أنفِهِ لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرّ

كما وصف المطر فى معلقته — من قبل — عنيفاً جارفاً ، وسيلاً دافقاً يكتسح فى طريقه كل شىء ؛ وصفه هنا فى هذه القصيدة « ديمة هطلاء » مطراً دائماً غزيراً مستمر التهتان يوماً وليلة ؛ فاض به الوادى وطبق الأرض وعمها .. فالسحابة مسترخية دانية ، يعم ماؤها البقاع ، وتوارى أوتاد الأخبية إذا انهمرت واشتدت ، وتبديها وتظهرها إذا كفت وأقلعت .. وترى الضب وقد أرغمه ماء المطر المتسرب إلى جحره على الخروج منه ، نشيطاً خفيفاً سريع الحركة ، حاذقاً فى العوم والسباحة على سطح الغمر ، يثنى برائنه ويبسطها كما يفعل السباح الماهر حين يبسط ذراعيه ثم يقبضهما إليه .. إنه ضب حذر بارع يتقن العوم

ويجيد السباحة ، فلا ينعفر جسده بالتراب ولا يتلوث بالطين ، لأنه لسرعته لا يمس الأرض إلا مساً خفيفا ولا يطؤها بأطرافه إلا وطئاً رفيقاً . . . أو لأن طول الانسكاب على الربا غسل العفار وأذاب الطين . .

وترى الأرض ذات الأشجار والدوح قد غمرها المطر وطمها الماء فلا يبدو منها إلا أعاليها ، وقد كسا الزبد ذراها فبدت كأنها رءوس غطتها خمرها . . رءوس ظهرت فوق الماء لأجسام قد أخفاها وغمرها . . فلقد علا السيل وارتفع المساء حتى وارى جذوع الأشجار ولبس أعلاها الزبد والغثاء كخمر قطعت على رءوس فغطتها . .

هدأ الجو وسكنت الأمطار ساعة ، حتى إذا جاء العشي تجمع السحاب من جديد ، فاستدرته ريح الصبا ، ومراه بردها ، فتكاثف وتراكم ، ثم قصدته ريح الجنوب وتصدت له فأضافت إليه دفعة أخرى من السحب التى حملتها وجاءت بها . . . فإذا بمطر هذه السحب المركومة المتجمعة ينصب انصبابا ، وينسكب على الأرض انسكاباً يعمها ويطفى عليها ، حتى ضاقت خيم وخفاف ويسر عن آذيه المضطرب ، وموجه المصطخب ، وسيله المنحدر ، مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها .

ويختم امرؤ القيس أبياته بذكر فرسه . . . إنه فرس ضامر الخصرين مفتول العضل قوى شديد مدمج الخلق . غدا عليه يرتاد تلك البقاع التى أخصبها هذا المطر ، منذ أول بدايته حتى نهايته .

ويلاحظ أنه فى هذه القصيدة لم يكن حريصاً على أن يبدأها بذكر الأطلال والغزل فى أى أنثى من صواحبه .. ولكنه كان ظاهر الحرص على الوفاء لحصانه وذكره فى نهاية قصيدته ؛ لأنه ذو فضل عليه . . فقد تمكن به من الاستمتاع

بمناظر الطبيعة وجمال مشاهدها فى فيضها وغزارة أمطارها ، وفى خصوبة أرضها وشمول خيرها .

وامرؤ القيس فى هذه القصيدة يبدو هادىء النفس ، رخىّ البال ، خلىّ الفؤاد ، فجاءت أبياته كذلك ، تعبر عن أمطار هادئة حينا ، وغزيرة أحيانًا ، ولكنها فى غزارتها ليست محطمة ولا مدمرة .. نرى الضب يسبح عَلَى مياهها خفيفًا ماهراً ثانيًا برثنه ما ينعفر ... ويجرى مسرعًا حين يصيب جفاف الأرض ، يلتمس الأمن والطمأنينة غير مذعور ولا مضطرب .

وامتدادًا لمشاعر البهجة لدى الشاعر نحّى عن الصورة البرق والرعد ، فلم يأت لهما بخبر ، فقد يثيران فى النفس خوفًا ، ويبعثان فيها فزعًا ، حتى لو كان المرء معجباً بالمطر وراغباً فيه ... ولم يعش الشاعر عَلَى هامش هذا العالم من المتعة والجمال ، فخرج عَلَى فرسه من أول أمره يمتع قلبه وعينيه بمباهج الطبيعة والحياة ، ألاَ إنه لشاعر فنان .

أما فى المعلقة فقد تتبع رحلة السحاب من بدايتها إلى نهايتها ... برقًا له وميض ولمعان شديد ، يسبق كل مطر غزير ، وقد جلس بعيداً عنه يتأمله ، ثم تابعه ورافقه فى كل مراحله ؛ مزمجراً عنيفا يقتلع الأشجار ويقوض البيوت والأبنية ، ويجرف فى طريقه كل شىء ، ويحاصر الجبال وينزل منها الوعول .. لكن السيل مع ما فيه من صرامة وعتوّ ؛ ليست كل آثاره شراً محضا ، وضرراً خالصًا ، وإنما فيه خير ، ومن ورائه نفع ... فلسوف ينتهى ذلك الماء إلى واد مجدب ، وأرض قفر ، فيحيلها إلى جنات وارفات ذوات خضرة وشجر وزهر وثمر ، متنوع مختلف الألوان ، تسعد بها الطيور وتنتشى ، فتغنى له ، ولنفسها ، وللدنيا جميعها ..

* * *

وقد عرض امرؤ القيس للسحاب والبرق والمطر فى حوار له مع التوأم اليشكرى حين مانته ونازعه زعامة الشعر ، وقد سبق لنا أن ذكرنا هذه المماتنة من قبل ، وهى فى جملتها وتفصيلها تمثل قدرة الشاعر على الصناعة وتمكنه من الارتجال والأداء الفوْرِىّ . .

ولا يغيب عن البال أن عنصر الانفعال والاستجابة ليس بمتوافر فى الوصف الذى أتى به امرؤ القيس فى هذه المماتنة للسحاب والبرق والمطر . . فهو بصفة عامة وصف دقيق فى قول منظوم ليس فيه خيال ولا ابتداع .. وعلى هذا المقتضى يمكن أن تسمى شعرا ، وليس من المقبول لدينا إنكار قصة المماتنة كلها تذرعًا بسهولة ألفاظها ، ويسر معانيها ، وعدم العمق فى أفكارها ومفاهيمها . . فما كان ينبغى أن تكون على نحو آخر غير الذى جاءت عليه وبرزت فيه ، لأنها وليدة حوار عفوىّ لتوه وساعته ، لا تعمّل فيها ، ولا وقت لتجويدها ، وراويتها هو شيخ الرواة وأتقاهم وأصدقهم إنباء . . . إنه أبو عمرو ابن العلاء .

وقد لمس امرؤ القيس فى حواره الجانب المتشائم ، فتحدث عن البرق عريضاً ومتوهجاً ومزعجا مما سلبه راحة الرقاد ، فلم يستطع النوم مع هزيمه ودويّه ، على حين نام رفيقه ولم ينزعج به . . وكان صوته الصاخب يَرِدُ على أذنيه من بعيد ، ولما دنت ظواهره وآثاره وجاء معه المطر المنهمر ، اكتسح كل الظباء والآرام . . وقد كان التوأم يرد على كل شطر يورده صاحبه امرؤ القيس فيعطى معانيها عمقاً وامتداداً .

* * *

وفى قصيدته التى مطلعها «أعنى على برق أراه وميض» يقول فيها : —

أعِنى على بَرْقٍ أراهُ وَميضِ ... يُضِىءُ حَبِيًّا فى شماريخَ بِيضِ
وَيهْدَأُ تاراتٍ سَناهُ وتارةً ... يَنُوءُ كتَعْتابِ الكَسِيرِ المَهِيضِ
وَتخرُجُ مِنهُ لامِعاتٌ كأنَّها ... أكُفٌّ تلَقَّى الفَوْزَ عِنْدَ المُفِيضِ
قعَدْتُ لهُ وصُحْبَتِى بينَ ضارجٍ ... وَبينَ تِلاعِ يَثْلَثٍ فالعَرِيضِ
أصابَ قُطَيَّاتٍ فَسالَ لِوَاهُمَا ... فَوَادِى البَدِىِّ فانتَحَى للأرِيضِ
بِمَيث دِماثٍ فى رِياضٍ أثِيثةٍ ... تَحِيلُ سَوافيهَا بِمَاءٍ فَضِيضِ
بِلادٌ عَرِيضَةٌ وَأرْضٌ أرِيضَةٌ ... مَدَافِعُ غَيْثٍ فى فَضاءٍ عَرِيضِ
فأضْحَى يَسُحُّ الماءَ عن كلِّ فيقةٍ ... يَحُوزُ الضِّبابَ فى صَفاصِفَ بِيضِ
فأَسْقِى به أُخْتِى ضَعِيفَةَ إذْ نأت ... وإذْ بَعُدَ المزَارُ غيْرَ القَرِيضِ

يقول لصاحبه : أعِنّى وانظر معى هذا البرق وساعدنى على رؤيته ، فإنه يلمع لمعانا خفيفا ، ويضىء من خلال السحاب المتدانى المتقارب بعضه من بعض فى أعالى الجبال التى لا نبات فيها . . . إنه برق يهدأ سناه ويسكن لمعانه أحياناً ويخفى . وأحيانا ينوء ويتحرك فى ثقل وتعتاب كما يمشى البعير أو غيره — من ذوات الأربع — على ثلاث قوائم ، وتكون رجله الرابعة مهيضة ، قد كسرت مرة تالية بعد أن جبرت من كسر سابق ، ثم جبرت فكسرت للمرة الثالثة وهكذا ، فهو يمشى مهيضا كسيراً ؛ لا قدرة له على المشى الناشط ، بل يمشى متثاقلاً بطيئاً .

وكأنّ اللمع التى تبدو من البرق وتخرج منه ناشطة خلال السحاب لسرعتها وانتشارهاَ أكُفّ مقامرين تتسابق طمعًا فى القمر والفوز بأَحْظَى القداح .

قعدت وأصحابى لهذا البرق بين هاتيك المواضع « ضارج » ومرتفعات

« يثاث » فجبل « العريض » بعد لمعـانه ، لنعلم : إلى أين يصوب مطر هذا السحاب ؟ . . فـكان أن أصاب المطر — الذى أدى إليه هذا البرق — تلك المواضع فعمها وطبقها ، وَمع عمومه وَشموله لهضـاب « قطّيات » لـكعب ابن كلاب ، فوادى « البَدِىّ » لبنى عامر بنجد ، فموضع « الأريض » ، كان شديداً حتى أهال الرمل ، وأسال اللوى . . إنها أرض مباركة سهلة لينة ، فى رياض يلتف نبتها ، والأمطار تتعاهدها ولا تغبّها ، والغيث كثير الاندفاع إليها .. إنها بلاد عريضة واسعة ، وأرض أريضة لينة . . مدافع سيول ومصب أمطار فى ذلك الفضاء الرحب العريض .

وقد أضحى هـذا الغيث يسح مطره الغزير ، فينسرب إلى باطن الأرض بين كل حلبتين متتابعتين يصب فيهما للماء صبا متواليا ، فيخرج الضِّباب من أوجارها وأجحارها ، ويحوزها ويضطرها إلى التجمع فى الأماكن المستوية من الأرض ؛ بحيث لا يدركها السـيل فى البلاقع والقيعان الصفاصف ، والفلوات المستوية التى هى على منسوب متوازن من العلو لاتبدو معه مرتفعة ولا منخفضة . . إنها فلوات بيض عارية من النبات والزروع .

ثم يدعو فى نهـاية الأمر أن يسقى هذا المطر أخته « ضـعيفة » إذا نأت بها الديار وشـط المزار ؛ وهو يهدى إليها هذا الدعاء ، زيادة على ما يهديه إليها من القريض وَالأشـعار . . قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب شارح الديوان : « ضعيفة » بدل من أختى منصوب عَلَى البدلية .

« * »

هموم وأحزان

ليس كالهمّ شيء يصهر النفوس ويجلو عنها الصدأ ، ويذكى لدى المرء الخِبَر ويحيي عنده العِبَر ... والهم يصاحبه القلق ، ويبعثه الوجع والألم ، ويزجيه الأسى والحزن .

ومما لا ريب فيه لمستريب أن امرأ القيس كان فى ضباه صاحب هم ، وكان فى يفاعه ورجولته طريد هموم .. وأول ما نلقى من هومه أبياته فى المعلقة التي يضيق فيها ذرعه بالليل ، وهى طافحة بالأسى .. قالها فى أيامه الأولى فتيًّا ، تضيق الدنيا بشبابه وآماله، وقدمها فى صورة رائعة بلغت الذروة فى جمال التصوير والخيال وحسن التعبير والأداء اللفظى ، مع وضوح المحتوى وقوته .. ما يكاد القارىء ينشدها ، أو السامع يسمعها ، ويرسل فهمه فى ثنايا أبياتها متعمقاً فى إدراكها حتى تلفّه تجربة الشاعر بأبعادها من كل جوانبه ، فيرى فيها نفسه خالصة كأنما ينظر فى مرآة مجلوّة ، فأى الناس بلا هموم ! ؟ .. يخلو من الهم أخلاهم من الفطن .

فى هذه التجربة ينقلنا الشاعر فجأة من حديث ممتع شيّق عن صاحبته ومفاتنها وجمالها وسحرها مما يذهب بلبِّ الحليم ، ولا يملك الرزين حيالها دفعاً لغرامه وهواه وتعلقه بها .. يخرج بنا الشاعر فجأة من هذه التجربة الغزلية إلى تجربة حزينة فى رحلة خلال ليل حالك مدلهم .. وقف منه موقف الممتحن ؛ يختبر ما لديه من صبر وقوة احتمال ، أو جزع وعدم اقتدار على تحمل الابتلاء .. ولقد أطبق عليه هذا الليـل بضروب من الهموم ألقاها عليه ، كثيفة مظلمة ، متراكمة متلاحقة تلاحقاً لا نهاية له ، كأنها أمواج بحر خضم .. الليل بظلامه

البهيم ثقيل ثقلاً عاتياً متوالياً لا يريد أن ينجلي .. وهو تحت كلكل هذا الليل البارك فوقه بروك جمل ثقيل يتمطى بصلبه ، وينوء بكاه ، ويرادف أعجازاً بعد أعجاز ، وهو في هذه المحنة القاسية يرقب الصبح قلقاً ، وماذا عسى أن يجيء به الصبح إليه ؟ إنه لن يكون أفضل من الليل عنده ، فلن يحمل معه العزاء والسلوان ، ولن يخفف همه وبلواه ، ولكنه مع ذلك يرقبه ويتمناه ، تعلقاً بخيوط من الأمل يراها واهية كخيط العنكبوت ، وترقباً لأحداث غد مجهول لايدري ماذا سيكون مصيره فيه .. ومع كل هذا فالليل ما يزال جاثماً من فوقه يطحنه بثقله ، ونجومه لا تغور ولا تريد أن تغيب ، كأنما شدت بحبال قوية الفتل من الكتان إلى جبل « يذبل » الرابض على رمال الصحراء ، وكأنما الثريا علقت في مصامها ومكانها الذي لا تبرحه بأمراس وحبال فسمرت في مكانها لا تتحرك ولا تسير ولا تحور .

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَيَّ بأَنْوَاعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وأَرْدَفَ أَعْجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ
أَلاَ أيُّها اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِي ... بصُبْحٍ وما الإِصْبَاحُ مِنْكَ بأَمْثَلِ
فيا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَه ... بكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كَأَنَّ الثُّرَيّا عُلِّقَتْ في مَصَامِهَا ... بأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

نجد امرأ القيس في هذه الأبيات قد رسم صورة أدبية أخاذة بارعة ، تنبض بالحياة والحركة .. للهم ينيخ عليه بكل أثقاله وأحماله ، فيسحقه من تحته سحقاً ولا يترك له بارقة من أمل تحمل إليه الطمأنينة ، ولا يدع له نافذة رجاء يسلك منها سبيل الهرب إلى عالم الهدوء الرحيب .. وقد رسم لوحته بمادة عمادها

الحقيقة والمجاز والاستعارة والإرداف .. مما جعلها موضع إعجاب النقاد القدامى وكانت عندهم المثل الأعلى للاستعارة وألوان البيان .

كان امرؤ القيس نسيج وحده فى الحديث عن همومه بين معاصريه ، ولم يجاره منهم غير النابغة الذبيانى ، ولـكنه لم يبلغ شأوه ، وقصر دونه ، وكان عالة عليه فى أبياته : —

كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ
تَطاوَلَ حتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِى يَرْعَى النُّجُومَ بآيِبِ
وصَدْرٍ أراحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

فتصوير امرىء القيس لهمومه أشد تجسيما من تصوير النابغة ، لأنه تصوير عام شامل يتوجه به إلى نفسه وإلى سامعه وقارئه ، وإلى كل من سواه فى عصره وفيما بعد عصره ، على حين أن دعوة النابغة المباشرة إلى أميمة تجعل من أبياته حديثًا خاصا غير عام . فهى دعوة تجعل بيننا وبينه حاجزاً ، وتحول دوننا ودونه فى تمثل تجربته ومشاعره ، والتجاوب معه فى أحاسيسه ، فلا يصح لنا أن نتطفل عليه فى تجربته لأنه جعلها تجربة خاصة به وحده .. بينما نستطيع أن نمد عقولنا وقلوبنا إلى تجربة امرىء القيس فى أبياته فنستعيرها للتعبير بها عن تجربة لنا نحسها كما أحسها لأنه أتى بها تجربة عامة شاملة فى تصويرها ومحتواها .

وليل امرىء القيس كموج البحر صاخب عنيف متتابع ، لفه بأنواع من الهموم ، وحجزه داخل أستارها منفرداً وحيداً ، فطحنه بثقله ، وضيق عليه الخناق وحاق به من جميع أقطاره ، فاجتث من قلبه ووجدانه كل ينابيع الأمل إلى الحد الذى أصبح معه يخشى مطلع الصبح وبزوغ الفجر ، خوفا من أن يحمل

الشروق معه ألوانا من الهموم التى بات يقاسيها فى ليله .. ومن أجل ذلك تراجع متقهقراً ؛ يلوذ بالليل من جديد ، يرقب نجومه الثابتة ، وامتداده غير المنقضى .. أما همّ النابغة فإنه همّ واحد غير متنوع ، ضاق به صدره فحسب ، وقد وجد إلى جانبه من يلوذ بها ويشكو لها ، ويحتمى برحابها... وليله بطىء الكواكب مجرد بطء ، وظنّه أنه لن ينقضى مجرد ظنٍّ ، بخلاف ليل امرىء القيس الذى لا تتحرك كواكبه أبداً .

* * *

وفى قصيدته الثانية « ألا عم صباحاً » قال فى نهايتها : —

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ
كفَانِى ، ولَمْ أَطْلُبْ ، قَلِيلٌ مِنْ الْمَالِ
ولَـكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِى
ومَا الْمَرْءُ ما دَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ
بِمُدْرِكِ أطْرَافِ الخُطُوبِ ولاَ آلِى

يبين فى هذه الأبيات ؛ أن سعيه فى الحياة ليس سعياً لأدنى معيشة ، ولا لطلب القوت وحده والقناعة بتكاليف الحياة العادية التى يحياها عادة كل إنسان .. وإنما هو يسعى فى سبيل الحصول على المجد ونيل السؤدد ، لأنه وريث عرش ملكى وربيب بيت من بيوت الرفعة والعظمة . . ودون تحقيق المجد والإبقاء على السؤدد أهوال ومتاعب .. إنه لسمو مكانته وشرف حسبه وكرم عنصره لن يألوَ جهداً ، ولن يقصر فى مسعاه للحرص على المجد ما بقيت فيه حياة ، مهما لاقى فى سبيل ذلك من المشقات والأهوال .

ويأتى فى نهايتها بهذا البيت الحكيم ، الذى يقول فيه : إن المرء مهما عاش

ومهما جدّ في السعي ، ولم يقصر في بذل الجهد ؛ ليس بمستطيع أن يدرك كل ما آتى الأمور ويحقق كل آماله وغاياته .

* * *

وكما شقيت نفس امرىء القيس بهمومه وآماله ، كذلك وجد عناء من بعض أصحابه . كلما لقى واحداً من هؤلاء الرفاق الذين يشكو منهم ، ورجا عنده حسن الصحبة ، وأمل فيه خيراً ، اكتشف فيه عند الاختبار مالا يرضيه ، ولا تقرّ به عينه ، فاستبدل به غيره ، لكن اللاحق ليس بأفضل من السابق .. ذلك حظه من الناس ، لا يتخذ منهم صاحباً إلا خانه وتغير : —

إِذَا قُلْتَ هَـذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيتُهُ
وَقَـرَّتْ بِهِ الْعَيْنَانِ بُدِّلْتُ آخَرَا

كذلِكَ جَـدِّى ، ما أُصَاحِبُ وَاحِداً
مِنَ النَّاسِ إلاَّ خانني وتغـيَّرا

* * *

ولقد أكسبته الحوادث وتقلباتها جلداً وصَبْرا وقوة احتمال . . . إنه إذا اطمأن إلى إنسان ، فأصفاه الود المحض ، وأخلصه الحب الصادق ، واتخذه خليلا ، ثم اكتشف فيه غدراً ، وجنَى من صداقته صابا وعلقما ؛ فإنه يفارقه غير نادم على فراقه ، ويهجره غير آسف على هجرانه . . . وإذا طمع فيه طامع من بنى قومه آثره على نفسه ، ونزل له عن حقه ، وفى ذلك يقول : —

وَخَليــــلٍ قدْ أُفارِقُهُ ثمّ لا أبْـكى عَلَى أثَرِه
وابن عَمٍّ قدْ تَرَكْتُ لَهُ صَفْوَماءِ الحوْضِ عنْ كَدَرِه

* * *

وقد كانت رحلته إلى بيزنطة همًّا ثقيلا ، وقد صور هذا الهم فى قصيدته التى مطلعها : —

سَمالَكَ شَوْقٌ بَعْدَمَا كَانَ أَقْصَرَا
وحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فعـرْعرَا

يتحدث فى هذه القصيدة عن مواجعه وآلامه التى تلاحقه ، وعن مرضه الذى أنهك بدنه وذهب بقوته ، وعن قسوة الغربة التى واجهها وحيدًا ، وعما لقيه من الناس فى مدن الشام وما بعد الشام ؛ فقد كانوا لا يرون فيه إلاّ عابر سبيل ، يثير فضولهم ، ويلفت أنظارهم ، ثم يمضى فى طريقه . . فشأنه لا يهمهم ، وأمره لا يعنيهم . . وليسوا بسائلين عنه : من أين مجيئه ، ولا إلى أين مسراه وذهابه ؟ !

وقد اشتملت هـذه القصيدة ضمن ما اشتملت على الشكوى من الرفاق التى ذكرناها من قبل مباشرة .

* * *

ولدينا قصيدة كاملة من قصائده ، تنبض كلها بزفرات المحزون ، وتأملات المهموم ، واستسلام المقهور ، وقلق المضطرب الحائر ، أمام صروف الدهر وأحداثه ، وأسرار الحياة ونوازلها .

أَرَانَا مُوضِعِينَ لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرَابِ
عصـافيرٌ وذُبَّانٌ ودُودٌ وأَجْرأُ منْ مُجَلّحَةِ الذِّئابِ
وكُلُّ مَكارِمِ الأَخْلاقِ صَارَتْ إِليْهِ هِمَّتِي وبهِ اكْتِسَابِى
فبَعْضَ اللَّوْمِ عَاذِلَتِى فَإِنِّى سَتَكْفِينِى التجارِبُ وانْتِسَابِى

إلى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَتْ عُروقى وهذا الموتُ يَسْلُبُنِي شَبابى
ونَفسِي سَوْفَ يَسْلُبُها وجِرْمى فيُلحِقُنِي وشِيكاً بالترابِ
ألَمْ أُنْضِ المَطِيَّ بكُلِّ خَرْقٍ أمَقِّ الطُّول لمَّاعِ السَّرابِ
وأرْكَبُ فى اللُّهامِ المَجْرِ حتى أنالَ مآكِلَ القُحَمِ الرِّغابِ
وقدْ طوَّفتُ فى الآفاقِ حتّى رَضِيتُ مِنَ الغنيمةِ بالإيابِ
أبَعْدَ الحارِثِ المَلِكِ بنِ عَمْرٍو وبعْدَ الخَيْرِ حُجْرٍ ذِى القبابِ
أُرَجِّى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لِيناً ولَمْ تَغْفُل عِنِ الصُّمِّ الهِضابِ
وأعْلَمُ أننى عما قليلٍ سأُنْشَبُ فى شَبا ظُفُرٍ وَنابِ
كما لاَقَى أبى حُجْرٌ وجَدِّى ولا أنسَى قَتِيلاً بالكُلاَبِ

هذه القصيدة قالها على التأكيد بعد جولة الثأر الطويلة فى بطاح الجزيرة بين قبائلها .. يرجو فيجاب ويُمان فيرضى .. أو يطلب فيُصد ويُخذل فيغضب . استنجد بمن يحبونه ، ونزل على بعض من يكرهونه ، وقد كانت حصيلة ذلك كله مزيدًا من الدماء المستحرة ، والفشل الذريع ، وضياع المنى ، وخيبة الأمل ، وفقدان الرجاء . . استقرى تاريخ قومه ؛ وفيهم من يفوقه ويعلو عليه فى مجالات السياسة والحرب ؛ فإذا بهم قد انقضوا ومضوا صرعى مطامعهم ، فكرّ فى هذه الأبيات راجعاً على نفسه يذكرها بما جرى لهم ، ويضع أمامها ثمرة نضالهم فى أيام حياتهم ، ومدى ما أصابهم وما كان من أمرهم .

يقول : إننا سكرنا بطيب الحياة ، وانتشينا بلذة العيش ، فغفلنا عن الأجل المحتوم ، والرحيل المرتقب إلى الفناء وعالم المجهول فيما بعد الموت ، يمضى بنا العمر وينتهى إلى غيب لا نعلم من أمره شيئا . . والإنسان فى جانبه المادى ،

وتكوينه الجسدى كالعصافير والذباب والدود ضعفاً ووهنا وتهالكاً ومصيرا ، ولكنه يمتاز عنها بالإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، والعقل المفكر . . . . وذلك هو الذى يجعله أشد جرأة وفجورا ولؤماً وخسة من ذئب عنيد . . . . لقد أقلع عن لهوه ومغامراته ، وركن إلى مكارم الأخلاق ، وكفاه شفيعا له لدى لائميه ومدافعاً عنه أمام عاذليه ؛ ما عاناه فى تجاربه مع الدنيا ، وما أصاب قومه وأسلافه فى هذه الحياة . . من التراب جاء ، وإليه يعود ، وهذا الموت الذى لا مفر منه ولا محيد عنه سيسلبه شبابه ونفسه وجرمه فيستحيل ترابا ، بعد أن كان جسداً فيه روح . . كأنه لم ينض مطاياه ولم يهزلها بطول السفر ، ودءوب السير بكل فلاة منخرقة على طرق وعثاء . . ولم يخرج على رأس جيش لهام لقتال الأعداء . . ولم يظفر منهم بالكثير الغالى من الغنائم والأسلاب . .

ثم كانت النهاية من هذه الجولة الطويلة أن يرى فى العودة ؛ مجرد العودة، بلا غنيمة ولا فوز ولا ظفر ولا فائدة ، مطلباً يبتغيه ، وأملاً يرتجيه . . . لقد ذهب من قبل الحارث جده ، ثم من بعده قُتل حجر أبوه ، وكذلك مضى عمه شُرحبيل ، فلا يمكن أن يتوقع بعدهم لينا من صروف الدهر ، وإنها لقادرة على تفتيت الصخر ، وفى خاتمة الطاف سينتهى به العمر على نحو ما انتهى بهم .

* * *

ويلوح للباحث مما سبق أن خطًّا فاصلا بين لونين من الهم يعرض لهما امرؤ القيس فيما استعرضناه من شعره . .

أولهما : همٌّ مبعثه القلق الذى يعانيه كفنان ، وما يعرض له من تلون اللمحات وغرابة الأطوار ، كثمن لما يعيشه من اللحظات السامية التى

لا تستمر ولا تستقر ، ويمثل هـذا اللون أبياته فى وصف الليل ، وهمومه فيها غامضة ، لا يفصح عنها ، ولا يجلو أسبابها ، وعلى رغم ما تحمله من طابع التشاؤم ، فإنه يطل منها كإنسان يعى أن الهم جزء من كيانه العام .

وثانيهما : همّ مصدره تناقض الحياة أمامه ، واختلافها عليه ، وفشله فى تحقيق مطامحه ، واستعادة ملـكه ، وهو فى هذا يلتقى معه ـ إلى حد كبير ـ المتنبي شاعر العربية الأكبر فيما بعد عصر الجاهلية بأدهار وأعصار . .

وفى هذا الجـانب تنضح أشعار امرىء القيس سواداً حالـكا ، ويأساً مفجعا . . إنه يأسى على أيامه الخوالى ، ويسترجع مصارع قومه ، ويعرض للموت وللفناء ، ويقلل من شأن الدنيا ، ويصور فى وضوح وجلاء — وربما كان ذلك لأول مرة فى الأدب العربى — أننا من التراب جئنا وإلى التراب نعود ، نفس الفـكرة التى وردت فى الـكتاب المقدس والتى جاء بها القرآن الـكريم ، غير أن القرآن زاد على فـكرة امرىء القيس فـكرة البعث مرة أخرى « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » .

وامرؤ القيس حين أغفل ذكر البعث فى قوله كان منطقيا مع نفسه وتجاربه ، فربمـا أنه لم يكن يؤمن به ، أو ربما أنه لم يكن واضحًا فى ذهنه .

وهو بألمعيته وذكائه يفرق بين الصاحب المخلص الوفىّ الذى لا يتغير ولا يتلون ، وبين الصاحب الذى يلقاه عرضًا ، ثم ما يلبثا أن يختلفا سريعا . . تجمعهما المنفعة ، وتفرق بينهما الأهواء والمصالح الشخصية . . ومثل هذا الطراز يضعه فى موضع التجربة قبل أن يجعله مناط الثقة ويتخذه صديقًا حميا . .

وهو كأمير وملك — قبل أن يكون شاعراً فنانا — فإن الذين التقوا به

أو حاولوا أن يلتقوا به ، هم كالعادة من أراذل الناس فى غالب الأحوال . . وما من حاكم أو أمير إلا ابتلى بهذه البطانة ؛ التى تفسد عليه أمره ، وتزين له رذائله ، وتقيم بينه وبين الحق والعدل والصدق حجابًا مستورا . .

ولكن امرأ القيس فنان ذكى موهوب استقرى أحوالهم واكتشف خصالهم ، وتبين أخلاقهم ، فتخلى عنهم واحداً على أثر واحد ، وهو يسميهم أصحابًا من باب التجوز فحسب ، ويعتبر تنكرهم له خيانة ، ويرى فى أشخاصهم لونًا قاتمـا من نفاق المجتمع وزيفه ، فتأتى أبياته فيهم طافحة بالمرارة والألم .

أما الذين أخلصوا له مودّتهم ، وصافَوْهُ محبتهم ، وأصبحوا أخلاءه ، ثم انصرفوا عنه لأمر غير مريب ، فسلك كل طريقه واتخذ سبيله ، فإنه يعرض لهم مترفقا ، يعتذر عنهم ، ولا يبكى ذهابهم متماسكا متجلّدًا ، فكل مافى الحياة إلى فراق وزوال .

* * *

مديح وهجاء

أما مديحه ، فقد خص فيه سعد بن الضباب بأربع مواضع من ديوانه ، وخص ابنى زهير من بنى سلامان بن ثعل بموضع واحد ، وعوير بن شجنة بموضع ، وكذلك طريف بن مالك ، وجارية بن مرّ الثعلى ، وبنى ثعل ، وأبا حنبل الثعلىّ ، والمعلّى من بنى تميم بن ثعلبة ، وبنى عوف ، وخالد بن سدوس ، وجّه إلى كل منهم مديحه فى موضع واحد من ديوانه . . وقد تراوح مديحه بين البيتين والسبعة الأبيات ولم يزد على ذلك .

ونلاحظ عليه أنه مدح خالد بن سدوس بثلاثة أبيات حينما أكرم مثواه ، ثم عاد فعرّض به وذمّه عندما نهب بنو جديلة رواحله — رواحل امرىء القيس — وهو فى جوار خالد . وقد اقتضى ذلك أن يرحل عنه إلى جارية بن مر الثعلى الذى أجاره وأكرمه .

وأما هجاؤه : فقد خص به بنى حنظلة فى موضعين ، كما هجا هانىء بن مسعود ، وبنى عدوان ، والبراجم ومن معهم من يربوع ودارم وآل مجاشع ؛ فى موضع واحد لكل منهم . . وقد سبق القول أنه عرّض بخالد بن سدوس وعابه على موقفه من رواحله بعد ما كان قد مدحه من قبل لإجارته إياه . . ولم يزد فى هجاء من هجاهم على أربعة أبيات ، وقد يقتصر عَلَى بيتين . .

وقد مر بنا فى كلامنا عن أثر الحوادث فى شعره ألوان من مدائحه وأهاجيه ولم يبلغ امرؤ القيس شأو النابغة الذبيانى فى مدائحه ولا شأو الأعشى ، وكذلك لم يصل إلى ما وصل إليه الأخطل فى أهاجيه ، لأن له عن المدح والهجاء مندوحة سبق لنا الحديث عنها فى فصل سابق ، فهو ملك وابن ملك . . والملك يُمدح ولا يَمدح . . . والملك ليس بصخّاب ولا عيّاب ولا شتّام .



خمر وراح

لم يشتمل ديوان امرىء القيس فى ذكر الخمر إلاّ عَلَى نحو عشرين بيتاً هى كل حصيلته فى هذا الشأن ، وقد بثها فى أربعة عشر موضعاً ، اقتصر فى بعض منها عَلَى الإتيان ببيت واحــد ، وجاء فى بعض المواضع ببيتين أو ثلاثة عَلَى الأكثر .

وذلك إن دل عَلَى شىء ، فإنما يدل عَلَى عدم اهتمامه بذكر الخمر والتعلق بها فى شعره ، عَلَى عكس ما كان منه فى غرامه بالنساء والصيد والحرص عَلَى ذكرهما فى شعره كثيراً . . ونورد فيما يلى ما قاله فى وصف الخمر :

قال لمـا بلغه مقتل أبيه وهو يدمون عَلَى شراب :

خَلِيلَيَّ مَا فِي اليوم مَصْحًى لِشَارِبٍ   وَلاَ فِي غَدٍ إذْ ذَاكَ بِالْكَأْسِ نَشْرَبُ

وفى القصيدة التى قالها عند توجهه إلى قيصر الروم مستنجدا به عَلَى ردّ ملكه إليه ، والانتقام له من بنى أسد ، تعرّض لذكر الخمر فى ثنايا غزله ، إذْ يقول :

إِذَا نَالَ مِنْهَا نَظْرَةً رِيعَ قَلْبُه   كَمَا ذَعَرَتْ كَأْسُ الصَّبُوحِ الْمُخَمَّرَا

ثم عاد إلى ذكرها فى موضع آخر من القصيدة فى نهايتها ، فيقول :

وَنَشْرَبُ حَتَّى نَحْسَبَ الْخَيْلَ حَوْلَنَا   نِقَادًا ، وَحتى نَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا

* * *

وقد بدأ مطلعه فى قصيدته « أحار بن عمرو » بذكر الخمر ، إذ يقول :

أَحَارِ بْنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ   وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ

ثم عاد إلى ذكرها فى نفس القصيدة ضمن أخلاط ومزيج من الطيب لدى حسناء يُعلّ به برد أنيابها فى وقت السحر ، يقول :

كأنّ المدامَ وَصَوْبَ الْغَمامِ ... وريحَ الخزامى وَنَشْرَ الْقُطرْ

يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنيابِهَا ... إذَا طَرَّبَ الطَّائِرُ المُسْتَحِرْ

* * *

وفى القصيدة التى مدح فيها سعد بن الضباب ، وهجا هانىء بن مسعود ، قال فى بدايتها وأوائلها ذاكرا الخمر :

أغَادِى الصَّبُوحَ عِنْدَ هِرٍّ وَفَرْتَنَى ... وَلِيداً ، وَهَلْ أَفْنَى شَبابِىَ غَيْرُ هِرّْ

ثم عاد إلى ذكرها فى موضع آخر من القصيدة فى نهاية الغزل ، فقال :

كأنَّ التِّجارَ أصْعَدُوا بِسَبِيئَةٍ ... مِنَ الْخُصِّ حتى أنْزَلُوهَا عَلَى يَسَرْ

بماءِ سَحَابٍ زَلَّ عنْ مَتْنِ صَخْرَةٍ ... إلىَ بَطْنِ أُخْرَى طيِّبٍ مَاؤُهَا خَصِرْ

لَعَمْرُكَ مَا إنْ ضَرَّنِى وَسْطَ حِمْيَرٍ ... وأَقْيالَهَا إلاّ المَخِيلَةُ والسَّكَرْ

ثم عاد إلى ذكرها فى نفس القصيدة فى موضع ثالث فى ثنايا مدحه سعد بن الضباب إذْ يقول :

يُفاكِهُنَا سَعْدٌ ويغْدُو لجمْعِنَا ... بمَثْنى الزِّقاقِ المُتْرَعَاتِ وبالْجُزُرْ

* * *

وفى قصيدته (جزعت ولم أجزع من البين ...) قال فيها إنه يراقب خلات من العيش أربعا ، وذكر من بينها الخمر ، إذْ يقول :

فمنهُنَّ قَوْلِى للنَّدَامى تَرَفَّقُوا ... يُدَاجُونَ نَشَّاجاً منَ الخمرِ مُتْرَعَا

ومنهن ركض الخيل . . . إلخ .

* * *

ويقول فى قصيدة أخرى لم يقطع الرواة بنسبتها إليه :

نَازَعْتُه كَأْسَ الصَّبُوحِ وَلَمْ أَجْهَل مُجِدَّةَ غُدْوَةِ الرَّجلِ

* * *

وقال بعد أن أخذ بثأر أبيه من بنى أسد وقتله قتلته :

حَلّتْ لِى الخَمْرُ وكُنتُ امْرَأً عنْ شُرْبِها فى شُغُلٍ شَاغِلِ
فاليَومَ أُسْقَى غيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْماً مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

وفى قصيدة نسبها بعض الرواة إليه قال ذاكراً الخمر بعد أن ثأر لأبيه :

وأقامَ يُسْقَى الرّاحَ فى هَامَاتِهِم مَلِكٌ يُعلّ بِشُرْبِهَا تَعْلِيلاَ
حَلّتْ لَهُ مِنْ بَعْدِ تَحْرِيمٍ لَهَا أَوْ أَنْ يَمَسّ الرَّأْسُ منه غَسُولا

* * *

وفى قصيدته التى مطلعها « لمن الديار غشيتها بسحام » ذكر الخمر فقال :

فَظَلَلْتُ فِى دِمَنِ الدِّيارِ كأنَّنِي نَشْوَانُ باكَرَهُ صَبُوحُ مُدَامِ
أُنُفٌ كَلَوْنِ دَمِ الغَزَالِ مُعَتَّقٌ مِنْ خَمْرِ عَانَةَ أَوْ كُرُوم شِبَام
وكأنّ شَارِبَها أصابَ لِسَانَهُ مُومٌ يُخَالِطُ جِسْمَهُ بِسَقَامِ

* * *

وفى قصيدته « لمن طلل أبصرته فشجانى » يدعو إلى التمتع من الدنيا بشرب الخمر والنشوة بها ، فيقول :

تَمَتّعْ مِنَ الدُّنيا فإنّكَ فَانٍ مِنَ النّشَوَاتِ والنِّسَاء الحِسَانِ

* * *

ونخرج من هذا على أن امرأ القيس لم يبلغ حد الجودة والبراعة فى وصف

الخمر وذكر مجالسها وسقاتها ... الخ ، وهو فى هذا المجال لم يكن على مستوى أقرانه من الشعراء من مثل الأعشى ، وعلقمة الفحل ، والأسود بن يعفر النهشلى ، وعدى بن زيد ، وعمرو بن كلثوم وسواهم ، فلقد فاقه هؤلاء جميعاً فى وصف الخمر ، والمستمع لبعض ماقالوه فى هذا الغرض :

قال الأعشى ، يصف المنادمة :

وأبيضَ مُختلطٍ بالكرا ... مِ لا يتغطى لإنفادِها
أتانى يؤامِرُنى فى الشمو ... لِ ليلاً ، فقلت له غادِها
فرُحْنا نباكِرُ جدّ الصبُو ... ح ، قبلَ النفوس وحُسَّادها
فقُمْنا ولَمَّا يَصحْ ديكُنا ... إلى جَوْنَةٍ عند حدّادها
تنخَّلَها من بِكارِ القِطا ... فِ أَزَيْرِقُ آمنُ أكسادِها
فقلنا له : هذه هاتِها ... بأدْماءَ فى حبْلِ مُقتادِها
فقام فصبَّ لنا قهوةً ... تُسكِّننا بعدَ إرْعادِها
كميتاً تكشّفُ عن حمرةٍ ... إذا صرّحت بعدَ إزْبادِها
فجالَ علينا بإبْريقِهِ ... مُخضَّبُ كفٍّ بِفِرْصادِها
فرُحْنَا تُنعِّمنا نشوةٌ ... تجورُ بنا بعدَ قُصَّادِها
فقال : تزيدونَنى تسعةً ... وليست بعَدْلٍ لأندادِها
فقلتُ لمنْصَفِنا : أعطِهِ ... فلمَّا رأى حِرْصَ شُهَّادِها
أضاءَ مِظلَّتَهُ بالسرا ... جِ ، والليلُ غامِرُ جُدَّادِها
دَرَاهِمُنا كلُّها جيِّدٌ ... فلا تحبِسنَّا بتَنْقادِها
فباتَتْ ركابٌ بأكوارِها ... لدَيْنا ، وخَيْلُ بألْبادِها

وقال علقمة بن عبدة الفحل ، يصف مجلس شراب : —

قد أَشْهَدُ الشَّرْبَ فيهم مِزْهَرٌ رَنِمٌ والقومَ تصرعُهم صهباءُ خُرطوم
كأسُ العَزِيزِ من الأعنابِ عَتَّقَهَا لبعض أحيانها حانيَّةٌ حُوم
تشفى الصداعَ ، ولا يؤذيك صالبُها ولا يخالطها فى الرأس تَدْوِيم
عانِيَّةٌ قَرْقَفٌ لم تطَّلع سنةً يجنُّها مُدمَجٌ بالطين مَخْتوم
ظَلّتْ ترقرقُ فى الناجُودِ يصفقها وليدُ أعجمَ بالكَتّان مَفْدُوم
كأنَّ إبريقهم ظبيٌ عَلَى شرَفٍ مُفَدَّمٌ بسبا الكَتَّانِ مَرْثُوم
أبيضُ أبرزَه للضِّحِ راقبُهُ مُقلَّدٌ قُضُبَ الرَّيْحانِ مَفْغُوم

وقال الأسود بن يعفر النهشلي يصف الخمر وساقيها وندمائها : —

ولقد لَهَوْتُ وللشبابِ لَذاذَةٌ بسُلافةٍ مُزِجَتْ بماء غَوادِى
من خمرِ ذِى نَطَفٍ أغَنَّ مُنطَّقٍ وافَى بها لدراهِمِ الإسْجادِ
يسْقِى بها ذُو تُومَتَيْنِ مُشمِّرٌ قنَأَتْ أنامِلُه من الفِرْصاد
والبِيضُ تمشِى كالبُدورِ وكالدُّمَى ونواعمٌ يمشِينَ بالأَرْفادِ
والبِيضُ يَرْمِينَ القُلوبَ كأنَّها أُدْحِىُّ بينَ صَرِيمةٍ وجِماد
ينطِقْنَ معروفا ، وهنَّ نَواعِمٌ بِيضُ الوُجُوهِ ، رَقيقةُ الأكبادِ

وقال عدىّ بن زيد يصف الخمر وساقيَها : —

بكَرَ العَاذِلُون فى وَضَحِ الصُّبْـ ـحِ يَقولونَ لِى : أما تَسْتَفِيقُ ؟
ودَعَوْا بالصَّبُوحِ يَوْما ، فجاءَتْ قَيْنَةٌ فى يمينِها إبْرِيق
قَدَّمَتْهُ على عُقارٍ كعينِ الدِّيـ ـكِ صفَّى سُلافَها الرَّاوُوق

مُزَّةٌ قبلَ مزجِها ، فإذَا مَا مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمُهَا مَنْ يَذُوق
وطفَا فَوْقهـا فقاقيعُ كاليا قُوتِ حُمْرٌ ؛ يَزِينُها التَّصْفِيق
ثمّ كان المِزَاجُ ماءَ سَحابٍ لاصَدًى آجِنٌ ولاَ مَطْرُوق

وقال عمرو بن كلثوم يصف الخمر فى معلقته : —

ألاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَأصْبَحِينا ولا تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدَرِينَا
مُشعْشَةً كأنَّ الحُصّ فيهـا إذَا مَا الْمَاءُ خالَطَها سَخِينا
تَجُورُ بِذِى اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا ماذاقَهـا حتى يَلِينا
تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إذَا أُمِرَّتْ عَلَيْـهِ ، لِمالِهِ فِيها مُهِينا
صَبَنْتِ الْكأسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وكانَ الكأسُ مَجْراها الْيَمِينا
وما شَرُّ الثَّلاثةِ أُمَّ عمرٍو بصاحِبِكِ الذى لا تَصْبَحِينـا
وكأسٍ قَدْ شرِبْتُ بِبَعْلَبَكٍّ وأُخْرَى فى دمشْقَ وقاصِرِينا
وإنَّا سَوْفَ تُدْرِكُنَا الْمَنايا مُقَدَّرَةً لنَـا ومُقَدَّرِينَا

يقول لساقيته : استيقظى من نومك أيتها الساقية ، واسقنى راح الصبوح بكأسك العظيم ، ولا تدخرى خمر هذه القرية « الأندرين » بالشام .

أسقنيها ممزوجة بالماء ؛ وكأنها من شدة حمرتها بعد امتزاجها بالماء إنما ألقى فيها نوْر هذا النبات الأحمر « الحص » وهو نبت يشبه الزعفران . . وإذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا بها ، جدْنا وسخينا بعقائل أموالنا وسمحنا فى سبيلها بذخائر أعلاقنا .. إنها خمر تميل بصاحب الحاجة عن حاجته وهواه عندما يذوقها ، فهى تنسى شاربيها حوائجهم وحاجاتهم ، وأحزانهم وهمومهم... ترى الإنسان الضيق الصدر ، الشحيح بماله ، الشديد الحرص عليه ؛ تراه مهيناً لماله

فيها ، وجواداً به فى شربها إذا ما أديرت عليه أقداحها وكئوسها . . لماذا تصرفين الكأس عنا يا أم عمرو وتديرينه عَلَى السقاة شمالاً ، بعدما كان مجراها عَلَى اليمين إلىّ . . . وصاحبك الذين تبخلين عليه بكأس الصباح « يعنى نفسه » ليس بشر هؤلاء الندامى الثلاثة الذين تسقينهم ، فكيف طاب لك أن تتجاوزينى وتؤخرينى وتتركى سقي شراب الصبوح ... ورب كأس شربتها « ببعلبك » ورب كأس أخرى شربتها « بدمشق » وكأس أخرى شربتها « بقاصرين » فلا تصبنى وتصرفى عنى كأسك لأنى مولع بالراح .

* * *

وبمقارنة ما قاله امرؤ القيس بما قاله هؤلاء الشعراء نجد أنه كان مقصراً عنهم وأن شعره فى الخمر كان سطحىّ المحتوى ، ليس فيه تصوير بارع ، ولا خيال رائع ، ولا فن رائق . . وكل ماأتى به خطفات لاتحوى قصة ، ولا تحقق متعة ، فأين مأتاه الضحل من مأتاهم العميق ، وأين أقواله السطحية فى الخمر من أقوالهم البارعة الشاملة الفسيحة الخيال فيها .

فخر وحماس

ليس الملوك بحاجة إلى الفخر ... ولذلك فقد كاد ديوان امرئ القيس يخلو من الفخار ... وكل ما احتواه فى هذا الغرض من الموضوعات ما يأتى :

١ — فخره بظفره ببنى أسد قتلة أبيه (عشرة أبيات) .

٢ — فخره على شهاب وعاصم اليربوعيين من بنى مالك (ثلاثة أبيات) .

٣ — فخره بقوته وشجاعته فى جلاد الأعداء والفتك بهم (خمسة أشطار من الشعر المسمط) .

يقول فى فخره على بنى أسد :

يادارَ ماوِيّة بالحائل فالسّهب فالخبتين مِنْ عاقل

صمّ صداها وعَفا رسْمُها واستعْجَمت عن منطِق السائل

قولا لدودان عبيدِ العصا ما غرّكم بالأسَد الباسل

إلى آخر القصيدة التى سبق لنا ذكرها عند كلامنا على أثر الحوادث فى شعره .

إن الشاعر فى هذه القصيدة ينادى دار ماوية بهذه المواضع التى ذكرها : الحائل ، والسهب ، والخبتين من عاقل باليمامة ، حيث كانت تلك الفتاة تحل بهذه المنازل وترتادها بين الفينة والفينة .

ويسائلها : لم عفت رسومها وامحت آثارها ؟ ولم استعجمت وخرست فلم

ترد عليه جواب سؤاله ؟ ولماذا يخيم عليها الصمت كمن أصيب بالصمم والعجز عن السماع والـكلام ؟ .

ثم ينتقل بعد هذه المقدمة إلى الحديث عن بنى أسد ، وعن مدى ماأنزله بهم من العقاب . . فيتوجه إلى صاحِبَيْه قائلا لهما :

قولا لدودان من بنى أسد عبيد العصا الذين لايعطون إلا على ضرب وإذلال وهوان ، ماالذى كان جرأكم على الأسد الباسل حجر وغركم به حتى قتلتموه . . لقد حل عليـكم غضبى وعقابى ، فأخذت بالثأر منكم وقتلتـكم تقتيلا . . . لقد طابت نفسى وقرت عينى بما نلته وأوقعته بأحياء مالك وعمرو وكاهل من بنى أسد ، وكذلك بنى غُنم بن دودان من أسد أيضاً . لقد شفيت نفسى وقرت عيناى بقتلهم جميعاً . . لقد كنا فى الحرب نقذف أعلاهم على سافلهم ، وكنا نردد الطعن فيهم متداركا متتابعا .

وقد قال القتيبىّ فى قوله « كرّ كلامين على نابل » أى تكرير كلام بمعنى قول المحرّض للرامى : إرم . وقال زيد بن كنـدة : يريد أنه يطعن طعنتين مختلفتين ويوالى بينهما ، كما يوالى هذا القائل بين هاتين الـكلمتين ... أو كنا نرد عليهم الطعن ونعيده « كرك لأمين على نابل » كما ترد سهمين على صاحب نبل يرمى بهما ثم يعادان له ... ويروى « ردّ كلامين » أى كما ترد كلاماً بعد كلام على نابل ، فتقول له : إرم إرم توكيداً وحثًّا (١) .

---

(١) قال أبو حنيفة الدينورى : سئل رؤبة عن معنى قول أمرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلـوجة　　　كرك لأمين على نابـل

فقال : حدثنى أبى عن أبيه قال : حدثتنى عمتى ، وكانت من بنى دارم ، قالت : سألت امرأ القيس ، وهو يشرب طلاء مع علقمة ابن عبدة : مامعنى قولك : « كرك لأمين على نابل » فقال : مررت

لقد كانت خيلنا تردُ القتال وتحرص عليه كأنها أرجال الجراد ، أو أسراب القطا العطاش التي ترد منْهل الماء بكاظمة قريبا من البصرة مما يلي البحريْن لتروى ظمأها ... حتى تركناهم عند ما قتلناهم بعضهم فوق بعض مرتفعى الأرجل ؛ كأنهم الخشب الشائل المحمل بعضه فوق بعض ، فارتفع وعلا من كثرته .. وبعد أن أخذت بثأر أبى أصبح حلالا لى أن أشرب الخمر بعد أن كنت حرّمتها على نفسى حتى أثأر له ، وبعد أن كنت مشغولا عن شربها بطلب الثأر ، برّاً بقسمى ويمينى الذى آليته ... فاليوم أشرب غير مكتسب إثما ، ولا مستحقب ذنباً يؤاخذنى عليه ربى ، فقدُ وفيت بيمينى ، وإنى لأكرم نفسى عن الشراب إيغالا ؛ بالدخول على قوم يشربون ولا يدعوننى للشرب معهم .

* * *

أما فخره على شهاب وعاصم اليربوعيين فإنه يقول فيه :—

أَبْلِغْ شِهَابًا بَلْ فَأَبْلِغْ عَاصِمًا ... هَلْ قَدْ أَتَاكَ الْخَبَرُ مَالِ

أَنَّا تَرَكْنَا مِنْكُمُ قَتْلَى وَجَرْ ... حَى وَسَبَايَا كَالسَّعَالِي

يَمْشِينَ فِي أَرْحُلِنَا مُعْتَرِفَا ... تٍ بِجُوعٍ وَهُزَالِ

بنابل وصاحبه يناوله الريش لؤاما وظهارا ، فما رأيت شيئا أسرع منه ولا أحسن ، فشبهت به .

واللؤام أن تكون الريشة بطنها إلى ظهر الأخرى ، وهذا محمود فى ريش السهام ، واللغاب بعكس اللؤام ، وهو أن تكون ظهر الواحدة إلى ظهر الأخرى ويسمى ذلك الظهار أيضاً .

هذا ولقد تحدث الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب فذكر ما تحدث به الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء فى هذا الموضوع ولم يخرج فى جملة كلامه عن مثل ما قاله رؤبة .

يقول : هل لديكم يا بنى مالك علم بما حدث لقبيلكم ولهذين الرجلين اليربوعيين . شهاب وعاصم ، من قومكم . . . لقد تركنا منكم قتلى كثيرين وجرحى عديدين ، وسبايا كثيرات كن يحاولن الهرب خوفاً من السبى كأنهن الثعالى والغيلان ، ولكنهن سقطن فى أيدينا ، ووقعن فى أسرنا ، إنهن يمشين من خلفنا وحول رحالنا مقرات ومعترفات بجوعهن وهزالهن وسوء حالهن ومصيرهن .

* * *

أما عن الفخر بشجاعته وقوته ففى ذلك يقول :—

وَمُسْتَلْئِمٍ كَشَّفْتُ بالرُّمْحِ ذَيْلَهُ
أَقَمْتُ بِعَضْبٍ ذِى شَقَائِقَ مَيْلَهُ
فَجَعْتُ بِهِ فِى مُلْتَقَى الْكَرِّ خَيْلَهُ
تَرَكْتُ عِتاقَ الطَّيْرِ تَحْجِلُ حَوْلَهُ
كَأَنَّ عَلَى سِرْبَالِهِ نَضْحَ جِرْيَالِ

يقول : رب فارس مقاتل ومحارب شجاع ، يلبس الدروع واللأمة ؛ عرّيته وكشفت برمحى ذيله ؛ وأظهرت ضعفه وجبنه ، وقومت ميله واعوجاجه وزيغه وصلفه وغروره بحد سيفى المرهف البتار ذى الفرند والوشى واللمعان . . قد قتلته وفجعت به قومه فى ملتقى كرّ الخيول ووطيس العراك . . وقد تركت كواسر الطير وعتاقها عاكفة عليه ، تحجل حوله وتنهش لحمه . . وكأن دمه الملطخ لدروعه وثيابه نضح خمرة حمراء وعصارة حناء .

* * *

رثاء وعبرة

كل ما أثر عن امرىء القيس فى الرثاء مرثيتان : أولاهما فى رثاء الحارث بن حبيب السلمى ، وكان قد خرج معه إلى الشام ومات فى الطريق ودفن ببلدة بصرى ، وهى بيتان فقط . والثانية قالها فى رثاء نفر من قومه ساقهم المنذر إلى الموت فى ديار بنى مرينا ، وعدد أبياتها خمسة :

أما الأولى فيقول فيها :

ثوَى عِندَ الْوَدِيَّةِ جَوْفَ بُصْرَى
أبُو الأَيْتَامِ والكَلِّ الْعِجَافِ

فَمَنْ يَحمِى المضَافَ إذَا دَعَاهُ ويَحْمِلُ خُطةَ الأَنَسِ الضِّعَافِ

لقد ثوى الحارث ثواء الموت ، وأقام إقامة الأبد حتى لابراح عند الودية وهى فسيلة النخلة التى غرسوها إلى جوار قبره فى جوف بصرى بالشام على طرف البرية ؛ ذلك الرجل الغالى ، أبو الأيتام والضعاف المهازيل الذين هم فى حاجة شديدة إلى من يحملهم ، ولقد كان هو العائل لهم ، والكادح فى الحياة من أجلهم .

كان رجل حرب ونضال ؛ فمنذا الذى يكون من بعده لساحة الحرب ومعترك النزال إذا ما طلب الخصم البراز ، ومنذا الذى يستطيع أن يحمل بعده مطالب الضعاف من الناس ، فلقد كان هُوَ لهم يحمل عنهم أعباءهم ، ويقضى لهم حاجاتهم .

* * *

أما المرثية الثانية التى رثى بها قومه ، فيقول فيها : —

أَلاَ يَاعَيْنُ بَكِّى لِى شَنِينَا ۝ وَبَكِّى لِى المُلُوكَ الذاهِبِينَا
مُلُوكاً مِنْ بَنِى حُجْرِ بْنِ عَمْرٍو ۝ يُسَاقُونَ العَشِيَّةَ يُقْتَلُونَا
فَلَوْ فِى يَوْمِ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا ۝ ولَكِنْ فى دِيَارِ بَنِى مَرِينَا
فَلَمْ تُغْسَلْ جَماجِمُهم بِغِسْلٍ ۝ ولَكِنْ بالدِّماءِ مُرَمَّلِينَا
تظلُّ الطَّيرُ عاكِفَةً عَلَيْهِمْ ۝ وَتَنْتَزِعُ الحَواجِبَ والعُيُونَا

كان امرؤ القيس يتصيّد مع إخوته وطائفة من قومه فأغار عليهم المنذر ابن النعمان لثأر كان له عند أبيهم ، فأصاب اثنى عشر شابا من بنى حجر بن عمرو ، وأفلت امرؤ القيس عَلَى فرس شقراء ، فطلبه القوم ففاتهم ، وأمر المنذر بضرب أعناق من أسرهم ، فأعدموا عند الجفر ، فسمى جفر الأملاك ، وهو موضع بظاهر الحيرة به دير بنى مرينا . . وقد قال امرؤ القيس هذه الأبيات فى رثائهم .

يقول : ياعينُ ابكى بكاء مرا ، وصبّى الدمع صبًّا شديداً ، حزنا وجزعاً على هؤلاء الملوك الذاهبين الذين غدر بهم المنذر وقتلهم . . . إنهم ملوك صِيد بهاليل من بنى حجر بن عمرو ، ساقهم عدوهم عشاء إلى ساحة الإعدام ليقتلوا . . ياليتهم ماتوا فى يوم معركة ، وكانت منيتهم فى ساحة حرب ؛ وإذن لكان الأسف عليهم أخف ، والمصاب فيهم أهون . . . ولكنهم اغتيلوا غدرا فى ديار بنى مرينا ، ولم يغسلوا بغِسْل ، ولكن رمّلوا وأهيل عليهم التراب بدمائهم . . . تظل سباع الطير من النسور والعقبان محيطة بهم ، نازلة عليهم ، تنهش لحومهم ، وتنتزع حواجبهم وعيونهم .

* * *

ومما قاله فى أحداث الدهر وتقلب أحواله : —

أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنَّ الدهْرَ غُولٌ   خَتُورُ الْعَهدِ يَلْتَهِمُ الرِّجَالاَ
أَزَالَ عَنِ المصَانِع ذَا رِيَاشٍ   وقد مَلَكَ السُّهولَةَ والجِبَالاَ
وأَنْشَبَ فِي المَخَالِبِ ذَا مَنارٍ   ولِلزُّرَّادِ قَدْ نَصَبَ الحِبَالاَ
هُمَامٌ طَحْطَحَ الآفاقَ وَحْيًا   وساقَ إلَى مَشَارِقِها الرِّعَالاَ
وسَدَّ بِحَيْثُ تَرْقَى الشَّمْسُ سَدًّا   لِيَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ الجِبَالاَ
فإنْ تَهْلِكْ شَنُوءَةُ أَوْ تَبَدَّلْ   فَسِيرِى إنَّ فى غسَّانَ خَالاَ
بِعِزِّهِمُ عَزَزْتُ فإنْ يَذِلُّوا   فذُلُّهُمُ أَنَالَكَ مَا أَنَالاَ

يقول : إن الدهر غول يغتال ناسه ، ومخادع ماكر ختور ، يلتهم كل شىء ، ولا يبقى على شىء . . . فقد أزال عن المصانع — أى الحصون والقصور والمبانى الضخمة — أصحابها من ملوك التتابعة وأذواء اليمن ... أزال ذا رياش ، وأزال ذا منار ، ونصب حبال الموت وشراك الردى للابسى الزرد والدروع وصانعيها ... ولقد قضى بالهلاك على ذلك الملك الهمام الذى دوخ فى حياته الآفاق وكثيراً من البلاد عن وحيه وإرادته ، وساق جماعات الخيل إلى مشارقها غازياً فاتحا . . وسدّ بجيوشه الجبال عند مشارق الشمس حيث يأجوج ومأجوج .

إن تهلك قبيلة أزد شنوءة ، أو تتغير وتتبدل فى وضعها وموقفها منا ، فسيرى إلى غسان ، وليكن اللجوء إليهم ، فإن لنا فيهم خئولة حانية ، تنفعنا وتحمينا ، فى عزهم عزنا ، وفى ذلهم ذلنا وما يصيبنا من هوان .

* * *

حول مآخذ العلماء
على
امرئ القيس فى أشعاره

عاب الباقلانى ومن على شاكلته من أهل النظر الغابر على امرىء القيس قوله فى معلقته .

قفَا نبْكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنْزل بسَقْط اللوَى بين الدّخول فحوْمَل
فتوضِحَ فالمِقْراة لم يعْفُ رسْمُها لما نَسَجَتْها من جَنُوبٍ وشَمَأل

فقالوا : « إنه استوقف من يبكى لذكرى الحبيب، وذكراه لا تقتضى بكاء الخلىّ ، وإنما يصح طلب الإسعاد فى مثل هذا على أن يبكى لبكائه ويرق لصديقه فى شدة برحائه ، فأما أن يبكى حبيبَ صديقه وعشيقَ رفيقه فأمر محال ، فإن كان المطلوب وقوفه وبكاءه أيضاً عاشقاً صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألاّ يغار على حبيبه وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه ، ثم فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن من الدخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللوى ، وقد كان يكفيه فى التعريف بعض هذا . وهذا التطويل إن لم يفد كان ضرباً من العىّ » .

وذلك منهم تحامل ما كان ينبغى ، فإن الشاعر وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجّع واستوجع . كل ذلك فى بيت واحد مما جعل الأدباء يعدونه بحق من أجود مطالع الشعر العربى وضربوا

بحسنه المثل فقالوا (أحسن من قفا نبك) ولكي نخلص هذا الشعر من الشبه التي قامت برءوس النقاد وحامت حوله نقول: إن الشاعر أراد بالحبيب والمنزل الجنس فكأنه قال: ليقف كل منا يبكي صفاء عيشه وتمتعه بحبيبه في تلك المنازل الشاغلة لتلك النواحي التي سماها حيث الدخول فحومل فتوضح فالمقراة .

وقالوا أيضاً (كان ينبغي أن يقول لما نسجها ولكنه تعسف فجعل (ما) في تأويل التأنيث ، لأنها في معنى الريح والأولى التذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد دلته على هذا التعسف) .

ولكن التعسف منهم لا منه ، فإن اللغة تجيز له قوله فقد قال التبريزي «قوله لما نسجتها (ما) في معنى تأنيث والتقدير للريح التي نسجت المواضع والهاء تعود على الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، ونسجت صلة ما ، وما فيه من الضمير يعود على ما» .

وقال بعض أئمة اللغة يجوز أن تكون (ما) في معنى المصدر ، يذهب إلى أن التقدير لنسجها الريح أي للتي نسجتها الريح ، ثم أتى بمن مفسرة فقال من جنوب وشمأل ، ففي نسجت ذكر الريح ، لأنه لما ذكر المواضع والنسج والرسم دلت على الريح فكنى عنها لدلالة المعنى عليها .

وفوق هذا كله فإن في البيت رواية أخرى تدفع توهمهم وهي :

فتُوضِحَ فالمِقْراة لم يعفُ رسْمها ... لما نسجَتْه من جَنوبٍ وشمأل

والهاء تعود على الرسم .

وقالوا أيضاً «كان ينبغي أن يقول لم يعف رسمه ، لأن الضمير يعود على المنزل وهو مذكر ، وأمّا إعادته على الأماكن والبقاع المساقة التي المنزل واقع بينها فذلك خلل ، لأنه إنما يريد صفة المنزل الذي رحل عنه حبيبه ، ولم يبق سوى

أن أعاده على المنزل مؤوّلا له بالدار » وهم ينكرون ذلك التأويل تأويل المنزل بالدار ويزعمونه خللا ، ولكننا نقول لهم إن أبا عمرو قال سمعت أعرابياً يقول (فلان لغوب جاءته كتابى فاحتقرها) قال أبو عمرو ؛ فقلت : أتقول جاءته كتابى ؟ فقال أليس بالصحيفة ؟!. وقال بعض العلماء (الأظهر أن رسوم المنازل حيث كانت بهذه الإماكن صحت إضافتها إليها) .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

وقوفاً بها صَحْبِى علىّ مطيّهم يقولون لا تَهلِكْ أسًى وتجمّل
وإنّ شِفائى عَبْرة مُهْرَاقة فهل عند رَسْم دارسٍ من مُعَوّل

فقال « ليس فى البيتين معنى بديع ولا لفظ حسن » ونحن نقول له : إن ألفاظ هذين البيتين حوك العذوبة ونسج الرقة ، وإنها لتتسابق فى الوصول إلى السمع والتغلغل فى القلب ، فأى لفظة فيها حوشية مستكرهة أو ساقطة متسفلة ، فما أجمل الصحب والوقوف بهم على المطىّ ، وما أشهى التحمل وعدم التهلكة من الإسى ، وما أندى على الفؤاد تلك العبرة المهراقة ، وما أجدى إلى النفس معولا عند رسم دارس . أما عن بداعة المعنى الذى ينكره الباقلانى فإنا لا نوافقه على ذلك ونرى أن امرأ القيس أفاد وأجاد فقد أوقف أصحابه على الرسم بمطيهم يواسونه فى آلامه وبرحائه ، ويعينونه على الصبر والجلد ، يقولون له عنك والأسى لا تهلك ، ولكن امرأ القيس يرى أن وجده لا تنفع حياله كلمات السلوان ، وأن شفاءه من آلامه عبرة مهراقة لو استطاع إليها سبيلا ، فإن دمعه عصى ، ولا يجدى البكاء عند الرسم الدارس .

وعلى ذلك فانتقاد الباقلانى لمعنى البيتين ولفظهما ضرب من التحامل ،

وتوهم عرى من الفائدة ، وليس أدل على ما ذهبنا إليه من حسن هذين البيتين من أن طرفه بن العبد أخذ بيت امرىء القيس الأول بجملته وأدخله فى معلقته بلفظه ونظمه وترتيبه .

وقال الباقلانى فى نقد هذين البيتين أيضاً « قوله بها متأخر فى المعنى وإن تقدم فى اللفظ ففى ذلك تكلف وخروج من اعتدال الكلام » والحق عندى أنه لا تكلف ولا خروج من اعتدال الكلام وإن كان قوله (بها) متأخراً فى المعنى متقدماً فى اللفظ فليس ذلك بضائر أمير الشعر ولا منزل من قدره ما دام كلامه جارياً على قوانين النحو وأساليب العرب ، وليس فيه تعسف ولا تعقيد .

وقال الباقلانى أيضاً « البيت الثانى مختل من جهة أنه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافياً كافياً ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى ، وتحمل ومعول عند الرسم الدارس ، ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يدخل على أن الدمع لا يشفيه ، لشدة مابه من الحزن ، ثم يسائل هل عند الربع من حيلة أخرى » .

وكأنى بالباقلانى آجره الله لا يعلم أن المعهود عند الناس جميعاً أن فى البكاء راحة وترفيهاً عن المحزون ، فما يريده الشيخ خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها ، لأن من شأن الدمع أن يطفئ ويبرد حرارة الحزن ، ويزيل شدة الوجد ، ويعقب الراحة ، وهو فى أشعارهم كثير موجود ينحَى به هذا النحو من المعنى ، فمن ذلك قول امرىء القيس الذى ينكره عليه الباقلانى :

وإنَّ شِفَائى عَبْرة مُهْراقة   فهلْ عِنْدَ رَسْم دارِسٍ مِنْ مُعَوّل

وقول ذى الرمة :

لَعَلَّ انْحِدارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً   مِن الْوَجْدِ أو يَشْفِى نَجِىَّ البَلابِلِ

وقول الحسن بن وهب :

أبْكِ فَمَا أكْثَرَ نفعَ البُكَا   وَالحبُّ إشفاقٌ وَتمايل

وهْو إذا أنتَ تأمَّلته   حزنٌ على الخدَّيْنِ مَحْلُول

وقول الفرزدق :

فقلْتُ لها إنَّ البُكَاءَ لراحةٌ   بِه يَشْتَفِى منْ ظَنَّ أنْ لا تلاَقِيا

وقول أبى تمام :

واقعاً بالخدود والبرْدُ منهُ   واقعٌ بالقلوبِ والأكبادِ

وقوله أيضاً :

فلعلَّ عينكَ أنْ تجودَ بمائِها   والدمعُ منهُ خاذل ومواسى

وقوله أيضاً :

فلعلَّ عبرة ساعةٍ أذريتَها   تشْفيك من أرباب وجْدٍ محول

وقوله أيضاً :

نثرت فريدَ مدامعٍ لم تَنْتَظِم   والدَّمْع يحملُ بعضَ ثِقْل المغرم

وهذا كثير فى أشعار العرب ، ولو أن واحداً من الشعراء خرج عن ذلك المألوف — الذى ظنه الباقلانى عيباً وما هو بالعيب — لكان معيبًا ، ولذلك نرى الآمدى يعيب على أبى تمام قوله :

ظعنوا فكان بكاى حولاً بعدهم   ثم ارْعَوَيْت وذاك حُكم لبيد

أجدرْ بجمرة لوعةٍ إطفاؤها   بالدمع أن تزدادَ طولَ وقود

فقال لو كان أبو تمام اقتصر على المعنى الذى جرت به العادة فى وصف الدمع لكان المذهب المستقيم ، ولكنه أحب الإغراب ، نخرج إلى ما لا يعرف من كلام العرب ، ولا مذاهب سائر الأمم ، وقد تبعه على الخطأ البحترى فقال :

فعلامَ فيْضُ مدامعٍ تدقُ الجوَى وعذابُ قلبٍ فى اجْتناب مُعَذَّب

وعلى ذلك فما يريده الباقلانى خروج إلى ما لا يعرف من كلام العرب ولا مذاهب سائر الأمم ، ومن هذا نرى أنه لو جاء بيت امرىء القيس كما يريده الباقلانى لكان معيباً مُخالفًا للمألوف ، ومشتملاً على غلو ومبالغة مرذولة غير مقبولة ، على أن فى البيت رواية أخرى وهى :

وإنّ شفائى عبرة إنْ سفحتها

وفى هذه الرواية نرى امرأ القيس جعل فى العبرة شفاءه ولكن هذه العبرة متوقفة فى الوجود على الشرط الذى بعدها ، وهو قوله (إنْ سفحتها) ولفظة (إنْ) فى هذا البيت محتملة معنى الشك وينبنى على هذا الشك أن سفح العبرة غير حاصل ، وعلى ذلك فالشفاء غير متوقع ، فكأنه يقول إن شفائى عبرة إنْ سفحتها ، وأنَّى لى ذلك ، وقد غاض المعين وأجدب المرعى .

* * *

وعيب على امرىء القيس قوله :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها

قالوا إنه أكذب نفسه بعد ذلك فقال :

وهلْ عند رَسْم دارِسٍ من معوّلِ

وذلك العيب مردود أيضاً ، فليس قوله (وهل عند رسم دارس من معول)

مناقضاً لقوله (لم يعف رسمها) لأن معناه لم يعف رسم حبها من قلبي وإن نسجتها ريح الجنوب وريح الشمال وكانت فى نفسها وحقيقتها دارسة ، وقيل إن معنى (لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل) أنها لم يعف رسمها للريح وحدها وإنما عفا للمطر والريح ومر السنين وغير ذلك من أحداث الزمن . وقال الأصمعي أيضاً معنى (وهل عند رسم دارس من معول) أنه قد درس بعضه ولم يدرس كله ، كما تقول درس كتابك أى ذهب بعضه وبقى بعضه . ومن كل هذا نرى أن الشاعر ما أكذب نفسه ولا ناقضها .

* * *

وعاب عليه الباقلانى وأضرابه قوله :

إذا قامتا تضوّع المسكُ منهما نسيم الصّبا جاءت بريّا القرنفل

فقالوا فى نقده « ولو أراد أن يجود هذا البيت لأفاد أن بها طيباً على كل حال ، فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير . وقالوا أيضاً إنه بعد أن شبه عرفها بالمسك شبهه بريا القرنفل » وذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص ، لأنه بدل أن يترقى من الأدنى إلى الأعلى انحدر من الأعلى إلى الأدنى ، وهذا معيب » .

ويرد على العيب الأول بأنه جرى على المعروف من أن الرائحة الطيبة تفوح بقوة زائدة متى وقع الجسم الذى تقوم به فى حركة لتموج الهواء الذى تنتشر به الرائحة .

وردنا على العيب الثانى أن غرض امرئ القيس تشبيه انتشار رائحتها الطيبة عند قيامها بانتشار الرائحة الذكية التى يهب عليها النسيم أيًّا كان مبعثها وليس مراده تشبيه نفس الرائحة بالقرنفل بعد أن شبهها بالمسك . وعلى ذلك فليس هناك

انحدار فى المعنى من الأعلى إلى الأدنى ، لأن المعنى مبنىّ على مطلق تشبيه رائحتها برائحة ذكية .

وجاء فى خزانة الأدب الكبرى للبغدادى أن هذا البيت (إذا قامتا ... إلخ) قد اتسع النقاد فى تأويله ، فمن قائل تضوع المسك منهما بنسيم الصبا ، ومن قائل تضوع نسيم الصبا منهما ، ومن قائل تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبا — وهذا هو الوجه — ومن قائل تضوع المسك منهما بفتح الميم — يعنى الجلد — بنسيم الصبا . وقال ابن المستوفى فى شرح أبيات المفصل : حدثنى الإمام أبو حامد سليمان ، قال : كنا فى خوارزم وقد جرى النظر فى بيت امرئ القيس :

إذا قَامَتا تَضَوَّع المسْكُ مِنْهما نسيم الصَّبَا جاءَتْ بريّا القَرَنفُل

فقالوا كيف شبه تضوع المسك بنسيم الصبا والمشبه ينبغى أن يكون مثل المشبه به والمسك أطيب رائحة ؟ وطال القول فى ذلك فلم يحققوه . وكان سألنى عنه فأجبت لوقتى ، إنه شبه حركة المسك منهما عند القيام بحركة نسيم الصبا ، لأنه يقال تضوّع الفرخ أى تحرك ، ومنه تضوع المسك تحرك وانتشرت رائحته ، وذلك أن المرأة توصف بالبطء عند القيام ، فحركة المسك تكون إذاً ضعيفة مثل حركة النسيم ، وانتشاره كانتشاره ، فالتشبيه صحيح ، والنسيم الريح الطيبة ، ونسيم الريح أولها حين تقبل بلين ، ولقائل أن يقول إن نسيم الصبا وهو الريح الطيبة إذا جاء بريا القرنفل وهى أيضاً ريح طيبة قاربت ريح المسك ... وبعد أن جرى ذلك بمدة طويلة وقع إلىّ كتاب أبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى فى شرح القصائد السبعيات ، فوجدته ذكر عند هذا البيت قولا حسناً وهو قوله . ومعنى تضوع المسك أخذ كذا وكذا (وهو تفعّل من ضاع يضوع) يقال للفرخ إذا سمع صوت أمه فتحرك قد ضاعته أمه تضوعه ضوعا . فلا حاجة مع قوله أخذ

كذا وكذا إلى تمحل لذلك ويكون التقدير ، تضوع المسك منهما تضوع نسيم الصبا أى أخذ كذا وكذا كما أخذ النسيم كذا وكذا . (اهـ)

والزوزنى يقول إذا قامتا (أم الحويرث وأم الرباب) فاحت ريح المسك منهما كنسيم الصبا إذا جاءت بعرف القرنفل ونشره ، شبه طيب رياهما بطيب نسيم هب على قرنفل وأتى برياه . (اهـ)

وبعد هذا كله فإن فى البيت رواية أخرى تدفع كل عيب متوهم ، ذكرها ابن أيوب وهى :

إذا الْتَفَتَتْ نَحْوِى تَضَوَّعَ رِيحُها نسيمَ الصَّبا جاءتْ بريَّا الْقَرَنْفُلِ

* * *

وعابوا عليه أيضاً قوله :

فَفَاضَتْ دُموعُ العيْنِ منِّى صَبَابَةً على النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دَمْعِىَ مِحْمَلِى

فقد قالوا « استعانته بقوله (منى) استعانة ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع ، وقوله (على النحر) حشو آخر لأن قوله (بلّ دمعى محملى) يغنى عنه ويدل عليه وليس بحشو حسن ، ثم قوله (حتى بلّ دمعى محملى) إعادة ذكره الدمع حشو آخر وكان يكفيه أن يقول حتى بلّت محملى فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله ، وقالوا أيضًا « لو كان أبدع لكان يقول حتى بل دمعى مغانيهم وعرصاتهم » .

ونقض العيب الأول أن قول الشاعر (منى) قامت مقام إضافة العين إلى ضمير المتكلم . ولو قال الشاعر (دموع عينى) لكان حقيقة لفظ (منى) حشواً مرذولا ، ولكنه لم يقل (عينى) وإنما قال (العين) وعلى ذلك فليس فى قوله

(منى) حشو كما زعموا . ونحن لا ننكر أن الإضافة لو ساعد عليها الوزن تكون ألطف وأخف عَلَى الذوق من زيادة (منى) .

ومثله فى ذلك قول خاله مهلهل بن ربيعة :

ولكنّا نهكْنا القومَ ضربا عَلَى الأثباج منهم والنحور

أما عن العيب الثانى فنحن نقول لهؤلاء العائبين المتوهمين . إنما العيب هو إيراد الكلام الذى يغنى فيه الأول عن الآخر أما عكس ذلك من إغناء الآخر عن الأول وهو الذى نهج عليه امرؤ القيس فمقبول لا عيب فيه ؛ لأن اللفظ الأول قرر معنى فى نفس السامع ، ثم جاء اللفظ الثانى ودل عَلَى معنى جديد وفى ضمنه الدلالة على المعنى الذى دل عليه الأول .

أما عن عيبهم الثالث فإن قصارى ما فيه الإظهار فى مقام الإضمار وهو هنا غير معيب إذ لا ينبو عنه الذوق وقد أكسب التركيب مكانة ومتانة لأن المقام مقام تفجع وحزن .

وفيه قوة الإيماء إلى أن الدمع الذى هو معروف بالقلة ، ومعهود بعدم الإنحدار إلى ما وراء الخدود قد استرسل وانتشر إلى أن سال على النحر وبلّ المحمل ، ولم يغال امرؤ القيس فيدّعى أن دمعه بلّ مغانيهم ورسومهم لأن البعد عن الحقيقة إلى هذا الحد والتطوّح فى المبالغة إلى هذا المقدار إنما يميل إليه المولدون .

وبعد ما سبق فهناك اعتراض على البيت ذكره التبريزى وتولى بنفسه الرد عليه فقال (ومما يسأل عنه فى البيت أن يقال كيف يبل الدمع محمله وإنما المحمل على عاتقه ، فيقال قد يكون منه على صدره ، فإذا بكى وجرى الدمع عليه ابتل » .

* * *

ومما عابه الباقلانى أيضًا قوله :

فظلَّ العَـذارَى يَرْتَمِينَ بِلَحمِها   وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمقْسِ المُفَتَّلِ

فقال « إنهم يعدون هذا البيت حسنًا ، ويعدون التشبيه مليحًا واقعًا ، وفيه شيء وذلك أنه عرف اللحم ونـكر الشحم ، فلا يعلم أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشيء واقع وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرت مرسلة وهذا نقص فى الصنعة ، وعجز عن إعطاء الـكلام حقه » .

وردنا على هـذا القول أنه لا عيب فى التعريف والتنـكير فى قوله (بلحمها وشحم) لأن المعنى المقصود بلحمها وشحمها . وإنما يعتبر التعريف والتنـكير عيبًا فيما لو قال امرؤ القيس (باللحم منهـا وشحم) لا فى الوزن فحسب بل فى الفن البيانى . وكذلك لو قال أيضًا (بلحمها وشحمها كهداب الدمقس المفتل) لـكان ذلك عيبًا لرجحان أحد القسيمين على الآخر بالتشبيه . وكذلك لو قال (بلحمها والشحم كهداب الدمقس المفتل) لـكان ذلك عندنا عيبا أيضًا لأنه خارج على الذوق الفنى ، وهذا الذوق يدرك ولا يحس . ثم إن التشبيه الذى خص به امرؤ القيس الشحم أكسب قوله (وشحم) قوة التعـريف ، ومن ذلك تقع على السر الفنى وحسن الذوق البيـانى فى أن امرأ القيس شـبه الشحم وترك القسمة الأولى وهى اللحم مرسلة دون تشبيه لتـكون القسمتان متعادلتين فى القوة ، وليحصل التوازن بينهما فلا ترجح إحداهما على الأخرى .

وعلى هذا فامرؤ القيس ما قصر فى الصنعة ، ولا نقص فيها ، ولا عجز عن إعطاء الـكلام حقه كما وهم الباقلانى ، بل إنه كان بارعًا فى فنه البيانى وفلسفته الـكلامية .

وقال الباقلانى أيضاً فى نقد البيت السابق « وفيه شىء آخر من جهة المعنى وهو أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة ، وهذا قد يعاب ، وقد يقال إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبًا ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيبًا شنيعًا » وحسبنا أن يتولى الباقلانى الرد بنفسه على ما أخذه على امرىء القيس بقوله (وقد يقال إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيبًا . . . إلخ) وفوق ذلك فإن العرب لا تتحاشى أن تذكر مثل ذلك فى مقام الفخر بالكرم ولا يرونه عيبًا ، وأمامنا أشعارهم ومنثورهم وأخبارهم كلها مليئة بالفخر بإطعام الضيفان ووصف ذلك الطعام بالجودة ، ولئن قال بعضهم (إن اغتفر للرجل التبجح بإطعام الضيوف فإن التبجح بإطعام الأحباب مذموم على أى حال) فإننا نعتذر عن امرىء القيس بأنه قصد إلى وصف حالتهن فى اللعب والترامى بلحم الناقة التى بذلها فى سبيل مرضاتهن .

وقال الباقلانى أيضاً « أما تشبيه الشحم بالدمقس فشىء يقع للعامة ، ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشىء قد سبق إليه » .

ونحن لا ندرى ماذا « يقصد الباقلانى » بقوله : إن هذا التشبيه يقع للعامة ، أكان ذلك فى عصر امرىء القيس ، أم فى عصر الباقلانى ؟ ولكن الذى يلوح لنا أن الباقلانى يريد بالعامة أهل زمانه هو ، وإذا كان الأمر كذلك فليس هذا بضائر امرىء القيس ، لأن العبرة بعصر الشاعر وزمانه هو لا بالأجيال الآتية بعده ، على أن استعمال العامة لهذا التشبيه واشتهاره فى عصر الباقلانى إلى تلك الدرجة مما يدل على براعة امرىء القيس فى تشبيهه حتى أخذ كل إنسان يجريه على لسانه لجودته وحسن تنسيقه وعظمة قائله .

ونحن نستبعد أن يكون الباقلانى قصد بالعامة أهل عصر امرىء القيس فإن تعبيره بالمضارع فى قوله يقع ويجرى يرجح أن المراد أهل زمانه هو . ولئن أراد الباقلانى عامة الجاهلية فمن أين له هذا ؟ هل عاش الباقلانى فى عصر امرىء القيس حتى سمع أن هذا التشبيه يجرى على ألسنة العامة الجاهلية ؟ وهل كان هناك عامة وخاصة ؟ لا : ولكنهم جميعاً كانوا ذوى لسان عربى مبين غير ذى عوج . وتقسيم الناطقين بالعربية إلى عامة وخاصة واقع بعد أن فسدت اللغة بمخالطة الأعاجم فى العصور المتأخرة . وعلى ذلك فمراد الباقلانى عامة أهل زمانه هو ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يؤخذ على امرىء القيس عيب فى تشبيهه كما أسلفنا .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتْ لَكَ الوَيْلاَتُ إنكَ مُرْجِلِى
تَقولُ وَقَدْ مَالَ الغَبيطُ بِنا مَعاً عَقَرْتَ بَعِيرِى يا امرأَ القَيْسِ فانْزِلِ

فقال « قوله دخلت الخدر خدر عنيزة ذكر تكريراً لإقامة الوزن لا فائدة فيه ولا ملاحة له ولا رونق ، وقوله فى المصراع الأخير من هذا البيت فقالت لك الويلات إنك مرجلى ، كلام مؤنث من كلام النساء نقله من جهته إلى شعره وليس فيه غير هذا ، وتكريره بعد ذلك تقول وقد مال الغبيط يعنى قتب الهودج بعد قوله فقالت لك الويلات إنك مرجلى لا فائدة فيه غير تقدير الوزن وإلا فحكاية قولها الأول كاف وهو فى النظم قبيح لأنه ذكر مرة فقالت ومرة تقول فى معنى واحد وفصل خفيف ، وفى المصراع الثانى أيضاً تأنيث من كلامهن ، وذكر أبو عبيدة أنه قال عقرت بعيرى ولم يقل ناقتى لأنهم يحملون النساء على

ذكور الأبل لأنها أقوى وفيه نظر لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر والأنثى واحتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن » .

ونحن لا ننكر أن تكرير كلمة خدر ساعدت على إقامه الوزن ، كما أننا لا نرى فيما أورد الباقلانى عيباً ، بل نحن نشهد أن تكرير كلمة خدر من إبداع امرىء القيس والحال يقتضى ذلك ، لأن المقام مقام غزل وذكرى يستلزم الإطناب وترديد ما يندى على قلب المحب ، وعلَى ذلك فالتكرير جيد مستملح

وكذلك ما عابه عليه من أن فى البيتين كلاماً مؤنثاً فإن الحق فى جانب امرىء القيس ، لأنه يحكى قول معشوقته فيلزم أن يجرى القول على لسانها ليكون مطابقاً لمقتضى الحال وليأتلف اللفظ مع المعنى والمقام ، ولو أن امرأ القيس استعمل ألفاظاً غير التى استعملها لكان ذلك عندنا معيباً ، ولكنه أجاد وأفاد ولا عيب عليه من هذه الناحية .

وأما عن قول امرىء القيس تقول وقد مال الغبيط بنا ... إلخ بعد قوله فقالت لك الويلات فإنه لا غبار عليه ، لأن المقام كما قدمنا مقام غزل ونسيب يقتضى الإطناب ، والفصل ليس خفيفاً كما يدعى الباقلانى .

وإنا لنجد فيما أورده الباقلانى من قول أبى عبيدة ثم محاولته الغض من قيمة امرىء القيس فى استعماله كلمة (بعير) نجد فى ذلك تحاملا مستبيناً ينم عن نفسه ويكاد يلمس باليد ، فياسبحان الله وياترى هل لو استعمل امرؤ القيس كلمة (ناقة) بدل كلمة (بعير) أما كان الباقلانى يعيبها عليه ويتخذ من قول أبى عبيدة حجة لنفسه ؟ ولذلك فنحن نقرر أن الباقلانى لم ينصف امرأ القيس فى نقده بل جعل يعد الحسنات سيئات .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

فقُلْتُ لها سِيرِى وأَرْخِى زِمَامُه ولا تُبْعِدِينِى عنْ جَنَاكِ المُعَلَّل

فقال « البيت قريب النسج ليس له معنى بديع ولا لفظ شريف كأنه من عبارات المنحطين فى الصنعة » .

ونحن نسأل الباقلانى رحمه الله ونشهد عليه الأدباء فى أى شىء قصر امرؤ القيس حتى يعاب عليه معناه أو لفظه . ألم يطمئن معشوقته على بعيرها وعلى نفسها حين كانت خائفة وجلة تقول له إنك مرجلى وعقرت بعيرى ؛ فأمرها بأن لا تبالى ولا تجعل لهذه الأوهام محلا فى مخيلتها ، وقال لها سيرى وأرخى زمامه . ولم ينس إذ ذاك ما تصبو إليه نفسه بل عطفه على ما قبله ، فطلب إليها ألا تبعده عن جناها المعلل . وكأنى بالباقلانى لم يقرع سمعه ولم يتذوق حلاوة قول امرىء القيس (ولا تبعدينى عن جناك المعلل) فذلك من الألفاظ الشريفة البالغة غاية الروعة فى جملتها وتفصيلها مع حسن السبك وبراعة النسج ، فقد جعل عشيقته بمنزلة الشجرة وجعل ما نال من عناقها وتقبيلها وشمها بمنزلة الثمرة التى علات بالطيب أى طيبت مرة بعد مرة .

* * *

ومما عابه عليه منتقدوه قوله :

فمِثْلِكِ حُبْلَى قدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ فأَلْهَيْتُها عنْ ذِى تَمائِمَ مُحْوِلِ
إذا ما بَكى منْ خَلْفِها انصرَفَتْ لَهُ بِشِقٍّ وتَحْتِى شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ

فقالوا « هذا معنى فاحش » وقالوا أيضاً « كيف قصد للحبلى والمرضع دون البكر وهو ملك وابن ملك ؟ ! ما فعل هذا إلا انتعس همته » وقال الباقلانى فى نقد ذلك الشعر أيضاً « تقدير قوله فمثلك حبلى ... البيت . أنه زير

نساء ، وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن ، لأن الحبلى والمرضع أبعد من الغزل وطلب الرجال ، وهذا البيت فى الاعتذار والاستهتار والتهيام وهو غير منتظم مع المعنى الذى قدمه فى قوله (ولا تبعدينى عن جناك المعلل) لأن تقديره لا تبعدينى عن نفسك فإنى أغلب النساء وأخدعهن عن رأيهن وأفسدهن بالتغازل ، وكونه مفسدة لهن لايوجب له وصلهن وترك إبعادهن إياه بل يوجب هجره والاستخفاف به لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش ، وركوبه كل مركب فاسد ، وفيه من الفحش والتفحش مايستنكف الكريم من مثله ويأنف من ذكره . » وقال الباقلانى أيضاً عن قول امرىء القيس (إذا ما بكى من خلفها . . . البيت) . إنه غاية فى الفحش ونهاية فى السخف وأى فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ، ويذهب هذه المذاهب ، ويرد هذه الموارد ، إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه ويوجب له المقت ، وهو لو صدق لكان قبيحاً فكيف إذا كان كاذباً ! ويجوز أن يكون كاذباً . ثم ليس فى البيت لفظ بديع ولا معنى حسن » .

ودفاعنا فى ذلك أن هؤلاء العائبين فاتهم أن كل المعانى الشعرية معرضة للشاعر وله أن يتكلم فيما أحب منها لا فيما يحبه سواه ، وفيما شاء هو لا فيما يشاؤه غيره — كما يقول قدامة فى كتابه نقد الشعر — والذى يلزم الشاعر فقط أنه إذا شعر فى أى معنى كان من الرفعة أو الضعة ، والرفث أو النزاهة ، والبذخ أو القناعة ، والمدح أو الذم ، وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة التى يمليها على الشاعر وجدانه ويوحيها إليه شيطانه ؛ أن يتوخى البلوغ من التجويد فى ذلك إلى الغاية المطلوبة . وعلى ذلك فليست فحاشة المعنى فى شعر امرىء القيس مما يزيل جودته ويذهب ببلاغته ، أما عن قولهم كيف قصد للحبلى والمرضع دون البكر فذلك مردود أيضاً لأن امرأ القيس فى هذين

البيتين يوجه الخطاب إلى عنيزة وقد كانت بكراً كما قال الزوزنى ، وإذاً فهو كان مغرماً بالعذارى أيضاً . وسيبويه يروى البيت هكذا :

ومثلكِ بِكْراً قَدْ طَرَقْتُ وَثَيِّبًا ... فأَلْهَيْتُها عن ذِى تَمائِم مُحْوِلِ

وامرؤ القيس فى هذا الموقف الذى يقفه أمام عنيزة من الحب والتصابى يريد أن يظهر لها فيه مقدار شغف النساء به وتفانيهن فى حبه حتى أنه ليصبى نساء غيره ولا يصبي غيره نساءه لجماله ورجولته ، وحسنه ووسامته ، ولما له من منزلة فى قلوب النساء ، ولذلك نجده يقول فى قصيدته الثانية يخاطب البسباسة عندما عيرته بالكبر :

كذبْتِ لَقَدْ أصبِى عَلَى المرْء عِرْسَه ... وأَمنَعُ عِرْسِى أن يُزَنّ بها الخَالِى

وإذا تبينا هذا أدركنا مقدار خطأ الباقلانى فى قوله إن هذا المعنى غير ملتئم مع قوله ولا تبعدينى عن جناك المعلل فإن معشوقته إذا أدركت ما له من منزلة فى قلوب النساء علمت أن صاحبها خفيف الروح والظل جدير بأن يُعشق فتهبه قلبها ولا تضن عليه بحبها . وإنما خص الحبلى والمرضع لأنهما أزهد النساء فى الرجال وأقلهن شغفا بهم وحرصاً عليهم، ومع ذلك فهما ترغبان فيه لرجولته وشخصيته ، ولجماله ومنزلته من نفوسهن . وليس أعز على المرأة المتزوجة من طفلها الرضيع فهو منها سويداء القلب وسواد العين ،ولكن امرأ القيس لكلف النساء به يشغف قلوبهن كما يشغف المهنوءة الرجل الطالى ، فيلهى الأم الحنون عن وليدها ، ويجعلها من فرط غرامها به تلقى بنفسها بين أحضانه ، وتدع طفلها وراءها ظهريًّا ، حتى إذا مابكى تنصرف له بشق دون جملتها قصد إسكانه ومنعاً لصياحه الذى يعكر عليها الصفاء فى ساعة هى من ألذ الساعات لديهما معًا . وقد بلغ امرؤ القيس غاية الدقة فى وصف هذا الموقف الفاحش فإنه ذكر فيه مقدار

ميلها إليه وكلفها به حيث لم يشغلها عن غرامه ما يشغل الأمهات عن كل شيء ، وإنما فعلت ما فعلت مع وليدها لأن هواها مع امرىء القيس وقلبها يخفق بحبه ويسبح بعشقه،ومما يؤيدنا فيما ذهبنا إليه ماأورده الطبيب النطاسي (سعيدأبوجمرة) فى كتابه : حياتنا التناسلية ، فإنه قال « ويجب أن نذكر هنا أن قلة الميل الشهوانى فى المرأة أثناء الحبل والرضاعة أمر طبيعي ، وقد عرفه العرب وغيرهم من الأقدمين قال امرؤ القيس فى قصيدته (قفا نبك) الشهيرة :

فمثلكِ حبلَى قد طرقتُ ومُرْضِعٍ   فألهيتُها عن ذِي تَمائِم مُحْوِل

لأن الحبلى والمرضع أكثر زهداً فى الرجال من غيرهما ، ومع ذلك فلفرط محبة النساء له كنّ يسمحن له بأن يأتيهن . قال ذلك محركا غيرة عنيزة وحدها منهن » اه .

وبعد ماتقدم نرى أن امرأ القيس إذا كان يلهى الأم عن فلذة كبدها وحبة قلبها فهو أشد إلهاء للحبالى والمتزوجات عن شئونهن وبعولتهن ، وهو أشد وأشد إلهاء للعذارى عن كل شيء ، وإذاً فامرؤ القيس أجاد فى هذا المعنى الذى أخذ فيه وحسب الشاعر ذلك .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن أبا جعفر النحاس فسر قول امرىء القيس (فمثلك حبلى . . . البيت) بقوله (إنه لما قبلها أقبلت تنظر إليه وإلى ولدها وإنما يريد بقوله انصرفت له بشق يعنى أنها أمالت طرفها إليه ، وليس يريد أن هذا من الفاحشة لأنها لا تقدر أن تميل بشقها إلى ولدها فى وقت يكون منه إليها ما يكون ، وإنما يريد أن يقبلها وخدها تحته) .

ومن ذلك جميعه نخرج على أن نقد العائبين لبيتى امرىء القيس ضرب من اللغو والتحامل .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

أفاطِمُ مَهْلاً بعضَ هذا التّدلّل وإن كنْتِ قد أزْمَعْتِ صَرْمِى فأَجملى

فقال « والبيت فيه ركاكة جداً وتأنيث ورقة ولكن فيها تخنيث ، ولعل قائلا يقول إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع وأغزل ، وليس كذلك لأنك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانة قولهم » .

ونحن نقول إن قول الباقلانى هو المعيب ، لأنه لكل مقام مقال ، وعلماء البلاغة اتفقوا جميعاً على وجوب التئام اللفظ مع المعنى وائتلافهما ، وعلى هذا فينبغى أن يكون اللفظ رقيقاً ليناً فى موقف الغزل ، وهذا هو الذى فعله امرؤ القيس ، فلو جاء بألفاظ جزلة فى هذا الموقف لكان ذلك معيباً عندى وعند جميع علماء البلاغة ، وإنى أصر على أنه يجب أن يكون كلام النساء بما يلائمهن من الطبع ، لأن ذلك أوقع وأجدى فى الغزل ، أما نظرية الباقلانى فنحن لا نرى فيها رأيه ولم يقره عليها أحد .

وقال الباقلانى أيضاً « والمصراع الثانى منقطع عن الأول لا يلائمه ولا يوافقه » وهذا ضرب من العنت والتحامل فإن المصراعين على أتم ما يكون من الاتصال : معنًى ورقة وشكوى وغرام ورجاء فى الحفاظ على الود .

وقال الباقلانى أيضاً « كيف ينكر عليها تدللها والمتغزل يطرب على دلال الحبيب وتدلله » وهذه مغالاة من الباقلانى فإن امرأ القيس لم ينكر عليها تدللها ، وإنما أنكر عليها بعض التدلل الذى يشبه أن يكون صريمة وقطيعة ، وعلى ذلك فامرؤ القيس إنما هو يطرب على دلالها وتدللها .

* * *

وعابوا عليه قوله :

أغَرّكِ مِنّي أنّ حُبّكِ قَاتِلِي ... وأنّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القلْبَ يَفْعَل

فقالوا « وإذا لم يغرها ذلك فأى شىء يغرها بعد » .

وقال الباقلانى « هـذا البيت قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها ألا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله وأنها تملك قلبه ، فما أمرته فعله ، والمحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق ، وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه ؛ وإنما ذهب مذهبًا آخر وهو أنه أراد أن يظهر التجلد ؛ فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات من الحب والبـكاء على الأحبة ، فقد دخل على وجه آخر من المناقضة والإحالة فى الـكلام . ثم قوله تأمرى القلب يفعل معناه تأمرينى والقلب لا يؤمر ، والاستعارة فى ذلك غـير واقعـة ولا حسنة » .

وذلك منهم خطأ مبين وزعم بارد غث أوقعهم فيه تأويل البيت على أن الاستفهام فيه حقيقى على وجهه للاستخبار ، والأمر ليس كذلك وإنما الاستفهام هنا تقريرى إثباتى فـكأنه قال لها (لقد غرك منى أن حبك قاتلى) وهذا نوع من الشكوى ، وهو من أبلغ ما يصل إليه الصب المتهالك فى صبابته وعشقه .

أما عن قول الباقلانى إن الاستعارة فى قوله تأمرى القلب غير واقعة ولا حسنة فهذا وهم من الباقلانى دفعه إلى القول به تحامله الشديد على امرىء القيس ، وإلاّ فإن الاستعارة بالغة غاية الروعة ومنتهى الـكمال ، ولا سيما فى هـذا الموقف موقف الهوى والصبابة الذى كل شىء فيه راجع إلى القلب ووجيبه وناره المستعرة وجوانبه المهدمة ، حتى لـكأن الحب درس من المحب

كل ما تجسم منه ولم يبق إلا قلبه الذى لا يزال ينبض بالحياة مع أنه يقاسى من برحاء الهوى ما تندك له الجبال الرواسى .

* * *

ومما عابه عليه البلاقلانى قوله :

فإنْ كُنْتِ سَاءتْك مِنىّ خَلِيقَةٌ فسُلىّ ثِيابى عَنْ ثِيابِك تَنْسِلِ

فقال « هو بيت قليل المعنى ركيكه وضيعه ، وكل ما أضاف إلى نفسه ووصف به نفسه سقوط وسفه وسخف يوجب قطعه ، فلِمَ يحكم على نفسه بذلك ؟ ! . ولو أورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتقصى من وصله وأنه مهذب الأخلاق شريف الشمائل فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله » .

ولو أدرك الباقلانى أن الشرط متحمل معنى الشك لما عاب هذا البيت ولعلم أن الإساءة غير واقعة فسلها ثيابها عن ثيابه غير واقع أيضاً ، فامرىء القيس ساق هذا البيت ليبين لها مقدار حبه ، وأنه لا يصدر عنه إلا ما تشتهيه حبيبته ، ولو بدا منه أدنى ما يجعله يشك فى حبه لكان خليقاً بأن تصرم حبال مودته ، والتنكير فى خليقة للتحقير والتقليل وذلك مع الشرط المفيد للشك يستلزم أنه لا يصدر عنه أدنى تلبس فى حبه ، وأنه لا يفعل إلا ما يستحق رضاها وأنه مسخر لهواها .

* * *

وقال الباقلانى فى قول امرىء القيس :

وماذَرَفَتْ عَيْناكِ إلاَّ لِتَضْرِبى بِسَهْمَيْك فى أعْشار قَلْبٍ مُقَتَّلِ

« إنه معدود من محاسن القصيدة وبدائعها ومعناها ما بكيت إلا لتجرحى

قلباً معشراً أى مكسراً من قولهم برمة أعشار إذا كانت قطعا ، هذا تأويل ذكره الأصمعى رضى الله عنه وهو أشبه عند أكثرهم ، وقال غيره وهذا مثل للأعشار التى تقسم الجزور عليها ، ويعنى بسهميك المعلى وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فأراد إنك ذهبت بقلبي أجمع ، ويعنى بقوله مقتل مذلل » وبعد ذلك ! يقول الباقلانى « وأنت تعلم أنه على ما يعنى غير موافق للأبيات المتقدمة لما فيها من التناقض الذى بينا ، ويشبه أن يكون من قال بالتأويل الثانى فزع إليه لأنه رأى اللفظ مستكرها على المعنى الأول ، لأن القائل إذا قال ضرب فلان بسهمه فى الهدف بمعنى أصابه كان كلامه ساقطا مرذولا ، وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينيها كالسهمين النافذين فى إصابة قلبه المجروح ، فلما بكتا وذرفتا كانتا ضاربتين فى قلبه » .

ونحن نقول للباقلانى إن هذا البيت ملتئم مع الأبيات المتقدمة ولا تناقض بينها وبينه ألا ترى إلى قوله قبل هذا البيت أغرك منى أن حبك قاتلى وقوله مهلا بعض هذا التدلل ، ونقول له أيضا إن استعمال كلمة تضربى بمعنى تصيبى لا غبار عليه بل هو استعمال حسن وجيه فإن الضرب فيه معنى الإصابة مع زيادة فى المعنى من حيث الشدة والسرعة والألم . فاستعمال تضربى بدل تصيبى مناسب للغزل الذى هو موقف شكوى وإظهار ألم وتوجع ، ونقول للباقلانى أيضا أى رذالة فى قول القائل ضرب فلان بسهمه فى الهدف بمعنى أصابه ؟ وكأنى بالباقلانى رضى الله عنه تصور من الكلمة معنى الضراب فإن كان هذا فليعلم أنه من الهين اليسير علينا أن نحمل أيضا كلمة أصاب هذا المعنى الساقط المرذول .

وقال الباقلانى بعد ما مضى « ولكن من حمل البيت التأويل الثانى

سلم من الخلل الواقع فى اللفظ ، ولكنه إذا حمل على الثانى فسد المعنى واختل لأنه إن كان على ما وصف به نفسه من الصبابة فقلبه كله لها فكيف يكون بكاؤها هو الذى يخلص قلبه لها ! ! » .

وردنا على ذلك أن الباقلانى تأول فى شعر امرىء القيس على هواه ، وهذا هو الذى أوقعه فى تلك المناقضات الغريبة ، ولو أدرك أن قول امرىء القيس وما ذرفت عيناك . . الخ . . نوع من تصابى المحبين وما يلاقونه من تدلل حبائبهم ودلالهن لعلم أن قلب امرىء القيس كله لصاحبته بادىء بدء ، وإنما بكاؤها يزيد قلبه سعيراً وعذاباً أليما .

وقال الباقلانى أيضاً فى هذا البيت « واعلم بعد هذا أن البيت غير ملائم للبيت الذى قبله ولا متصل به فى المعنى وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ولا سبب يوجب ذلك ، فترتيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال » .

أما عن دعوى الباقلانى فى أنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، فإن ذلك ليس بلازم ، على أن هذا البيت مرتبط تمام الارتباط بالأبيات السابقة فإن بكاء الحبيبة نوع من الدلال الذى قال فيه امرؤ القيس لصاحبته : مهلا بعض هذا التدلل ، وهو متصل أيضاً بالاستفهام التقريرى الإثباتى فى قوله أغرك منى أن حبك قاتلى . ولو كان الباقلانى أدرك أن الاستفهام تقريرى ليس على وجه الاستخبار لما تطاول على امرىء القيس إلى هذا الحد — وهو متصل أيضاً بقوله : فإن كنت قد ساءتك منى خليقة ، فإن الإساءة غير حاصلة كما بينا فيما سبق ، وإذا كانت الإساءة غير حاصلة فلا داعى لبكائها ولا سبب له إلا لتزيده وجداً على هيامه وألماً فوق آلامه . وعلى ذلك فقوله . فإن كنت قد ساءتك ... إلخ فى موضع التمهيد لتاليه فى موضع تقريره وإيضاحه .

وسبق أن قدمنا أن ابن قتيبة قال إن أشرافاً من الناس والشعراء اجتمعوا عند عبد الملك فسألهم عن أرق بيت قالتـــه العرب فاجتمعوا على قول امرىء القيس :

وما ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاَّ لتَضْرِبِي بِسَهْمَيْكِ فى أعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

* * *

وحاول الباقلانى أن يعيب قول امرىء القيس :

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤُها تمتَّعْت من لَهْوٍ بِها غيْرَ مُعْجِلِ
تجاوزْتُ أحْراساً إليْها ومَعْشرا علىَّ حِراصًا لوْ يُسِرّون مَقْتَلى

ولـكنه لم يستطع ذلك وأقصى ما قاله «ليس فى البيت الأول كبير فائدة لأنه الذى حكى فى سائر أبياته فلا تتضمن مطاولته فى المغازلة واشتغاله بها ، فتكريره فى هذا البيت مثل ذلك قليل المعنى إلا الزيادة التى ذكر من منعتها وهو مع ذلك سليم اللفظ فى المصراع الأول دون الثانى . والبيت الثانى ضعيف وقوله لو يسرون مقتلى أراد أن يقول لو أسروا ، فإذا نقله إلى هذا ضَعُفَ ووقع فى مضمار الضرورة .

أما عن قول الباقلانى إن البيت الأول ليس فيه كبير فائدة لما احتج به بعد ذلك فنحن ننـكر عليه هذا ونقول له إن بيت امرىء القيس لا عيب فيه من هذه الناحية ما دام يحمل معنى جليًّا لعدة أبيات سابقة ، ولو كان يحمل معنى بيت واحد من الأبيات التى سبقته لـكان ذلك تـكراراً معيبًا ، وقد لا يكون معيبا أيضا لأنه ربما كان للتوكيد ، على أن (الواو) فى قوله وبيضة خدر واو رب ويصح أن يكون الـكلام جديداً فى وصف أحواله مع معشوقة أخرى ، وما كان أكثر عشق امرىء القيس وتحدثه عن ذلك فى شعره .

وأما عن قوله إن المصراع الثانى من البيت الأول والبيت الثانى كله فيهما ضعف ؛ فهذا ما لا نقره عليه بل إننا نشهد ونشهد الأدباء على أن فيهما قوة يحسها المنصف لا المتحامل ويدركها العادل المجرد عن الأهواء .

وأما عن عيبه على امرىء القيس استعمال المضارع بمعنى الماضى فذلك مردود عليه ، لأن المعنى أنهم أمروا ولا يزالون يسمرون ، وهذا الاستعمال ضرب من الذوق البلاغى الوارد فى كلام العرب كثيراً ... والقرآن الكريم الذى هو مقياس البيان والذى نهجه ونظمه وتأليفه ورصفه تتيه العقول فى جهته وتحار فى بحره وتضل دون وصفه قد استعمل الماضى بمعنى المضارع واستعمل المضارع بمعنى الماضى ، وذلك الاستعمال فن بديع جليل يكسب المعنى قوة ومتانة . قال تعالى « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات والأرض » أى فيفزع .

* * *

ومما عابوه عليه قوله :

إِذَا ما الثُّرَيَّا فى السَّماءِ تَعَرَّضَتْ   تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ

فقالوا « إن الثريا لا تتعرض فى السماء » وبعضهم قال إنه أراد الجوزاء لأنها تتلوها والعرب تقول ذلك كما قال زهير كأحمر عاد ، وإنما هو أحمر ثمود ، ومنهم من يقول إن الثريا تتعرض عند سقوطها فإنها إذا بلغت كبد السماء أخذت فى العرض ذاهبة ساعة ، كما أن الوشاح يقع مائلا إلى أحد شقى المتوشحة به — وهذا واقع موقع القبول — ولقد فسر الزوزنى هذا البيت تفسيراً فيه وجاهة فقال : إنه أتى محبوبته عند رؤية نواحى كواكب الثريا فى الأفق الشرقى ثم شبه نواحيها بنواحى جواهر الوشاح المفصل . وقال القتيبى : إنه شبه الثريا بجواهر الوشاح لأن الثريا تأخذ وسط السماء عند سقوطها كما أن

الوشاح يأخذ وسط المرأة المتوشحة به . وقال أبو عمرو: تأخذ الثريا وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأة . وقال ابن مكرّم صاحب اللسان بعد ذكره بيت امرىء القيس : إن التعرض الاعوجاج والزوغان وعدم الاستقامة كما يتعرض الرجل فى عروض الجبل يميناً وشمالاً ، وعلى ذلك فسر تعرض الثريا بأنها لم تستقم فى سيرها ومالت كالوشاح المعوج أثناؤه على جارية توشحت به . وقال التبريزى : معنى البيت أن الثريا تستقبلك بأنفها أول ما تطلع فإذا أرادت أن تسقط تعرضت كما أن الوشاح إذا طرح تلقاك بناحية .

وقد أوردنا كل هذه الأقوال لتعلم أن البيت لا عيب فيه ، وحسبنا أن نقول لك إن الباقلانى مع تلمسه كل سبيل للعيب على امرىء القيس لم يستطع أن يعد ما أخذوه عليه عيباً ، بل إنه قال « والأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به وأنه من محاسن هذه القصيدة » . وكم كنا نحب أن يقف الباقلانى عند هذا الحد من الإنصاف ، ولكن وا أسفاه فقد أخذته عزة التحامل بالوهم فجاء ينقص من قيمة هذا البيت فأورد قول ذى الرمة :

وَرَدْتُ اعْتِسافًا والثُّرَيا كأنَّها على قِمَّةِ الرأسِ ابنُ ماءٍ مُحلِّقِ

وقول ابن المعتز :

وتَرَى الثريَّا فى السَّماءِ كأنّها بَيْضَاتُ أُدْحِىّ يَلُحْنَ بِفَدْفَدِ

وقوله :

كأنّ الثريّا فى أواخِرِ لَيْلِها تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مُفَضَّضُ

وقوله أيضًا :

فَنَاوَلَنِيهَا والثُّرَيَّا كأنَّها جَنَى نَرْجِسٍ حَيَّا النَّدَامَى به السَّاقى

وقول الأشهب بن رميلة :

ولاحَتْ لِسارِيهـا الثُّريا كأنّها لدَى الأُفقِ الغرْبِىّ قرطٌ مُسَلْسَلُ

وقول ابن المعتز :

وقدْ هوَى النجْمُ والجوْزاء تتبعُهُ كذاتِ قُرْطٍ أرَادَتْه وقدْ سَقَطا

المأخوذ من قول ابن الرومى :

طَيِّبٌ رِيقُـهُ إذا ذُقْتَ فَاهُ والثرَيّا بجانِبِ الغرْبِ قُرْطُ

وقو ابن المعتز :

قدْ سَقانى المُدامَ والصُّبْ حُ باللّيْـلِ مُؤْتزِرْ
والثّريَّا كَنَوْرِ غُصْنٍ علَى الأرْضِ قدْ نُـثِرْ

وقوله :

ترومُ الثريَّا فى السّماء مرَاما كانـكِبابِ طِمِرٍ كادَ يُلْقِى لِجامَا

وقول ابن الطثرية :

إذا ما الثريّا فى السّماء كَأنّهـا جُمانٌ وَهَى من سِلْـكِه فتَبَدَّدا

وبعد أن أورد الباقلانى هذه الأبيات السابقة زعم أن فى جملة ما نقله ما يزيد على تشبيه امرىء القيس فى الحسن أو يساويه أو يقاربه وأن الإبداع فى معنى امرىء القيس أمر قريب وليس فيه شىء غريب ، وأنه لم يأت فيه بما يفوق الشأو ويستولى على الأمد . وليت الباقلانى لم يغفل أو يتغافل عن أن امرأ القيس هو سابقهم وقدوتهم وأنهم لاحقوه ومقلدوه ، والسابقون السابقون هم المبدعون المبتدعون ، وحسبنا أن يشهد القارىء معنا على أن المعانى الواردة فى الأبيات التى ساقها الباقلانى مسروقة من بيت امرىء القيس ، بل إننا نجد أن من

بين هؤلاء الشعراء من بلغت به الجرأة أن يسطو على ألفاظ امرىء القيس فيوردها في شعره بنصها وفصها، أو مع تحوير يسير فيها، ولا شك أن هذا من إعجابهم ببيت امرىء القيس .

ومن توهم الباقلاني أيضاً في نقد هذا البيت قوله :

« تعرضت من الكلام الذى يُستغنَى عنه ؛ لأنه يشبه أثناء الوشاح سواء كان في وسط السماء أو عند الطلوع والمغيب ، فالتهويل بالتعرض والتطويل بهذه الألفاظ لا معنى له » .

ونحن نقول للباقلاني : وإذا لم يكن هـذا موضع تهويل فأين يكون التهويل مستملحاً . ألم يقل امرؤ القيس إنه تجاوز الأحراس الحراص على قتله وكان هذا التجاوز ليلا عند تعرض الثريا . ألا يرى الباقلاني بعد هذا أن المقام يقتضي التهويل ويستلزم التطويل .

وقال الباقلاني أيضاً « وفيه أن الثريا كقطعة من الوشاح المفصل ، فلا معنى لقوله تعرض أثناء الوشاح ، وإنما أراد أن يقول تعرض قطعة من أثناء الوشاح فلم يستقم له اللفظ حتى شبه ما هو كالشىء الواحد بالجمع » .

وحسبنا في الرد عَلَى هذا أن نقول إن الإيجاز والمجاز من عيون البلاغة العربية ، ألا ترى إلى قوله تعالى « واسأل القرية » أى واسأل أهل القرية ، وإلى قوله تعالى « يجعلون أصابعهم في آذانهم » أى أناملهم . وفوق كل هذا فإن تشبيه ما هو كالشىء الواحد بالجمع تشبيه لا غبار عليه ولا عيب فيـه ، بل إنه واقع موقع الرضا والقبول .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

فجئتُ وقدْ نضّتْ لنوْمٍ ثيابَهَا   لدى السّتْر إلاّ لِبْسَةَ المتفضِّل

فقال « قوله لدى الستر حشو ، وليس بحسن ولا بديع ، وليس فى البيت حسن ولا شىء يفضل لأجله » .

ونحن لانحتج على الباقلانى بأكثر من قول الزوزنى فى تفسير هذا البيت (يقول امرؤ القيس: أتيتها وقد خلعت ثيابها عندالنوم غير ثوب واحد تنام فيه، وقد وقفت عند الستر مترقبة منتظرة إلىّ ، وإنما خلعت الثوب لترى أهلها أنها تريد النوم) ومن قول الزوزنى هذا نستطيع أن نفهم ويستطيع الباقلانى أن يدرك أنه لا حشو فى البيت وأنه حسن جميل لاسيما وأن كلمة الستر فى هذا الموقف من الغزل متحملة لمعنى الطيب والنعمة والجمال وإنها لتندى على قلوب العاشقين .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

فقالَتْ يمينُ اللهِ مالَكَ حيلَةٌ   وماإنْ أرَى عَنْكَ الغِوَايَةَ تَنْجَلى

فذكر أن فيه اختلالا وضرباً من التفاوت . ونحن لا نحتج عليه بأكثر مما حكاه الزوزنى عن الرواة أنهم قالوا (هذا أغنج بيت فى الشعر) .

وهـــذا البيت مناسب لموقف خليلة امرىء القيس منه ساعة طروقه لدارها وتدللها عليه بمثل هـذه الكلمات العذاب التى تهبط على قلب المحب برداً وسلاما .

* * *

وعاب عليه أيضاً قوله :

فَقُمْتُ بِها أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنا عَلَى إِثْرِنا أَذْيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

قال « فيه تكلف لأنه قال وراءنا عَلَى إثرنا ولو قال على إثرنا فقط لكان كافياً والذيل إنما يجر وراء الماشى فلا فائدة لذكره وراءنا » .

ونحن نرى أن امرأ القيس لو استعمل كلمة إثرنا قبل وراءنا لكان معيباً وكان مأخذ الباقلانى عليه واقعاً . أمَا وأنه استعمل كلمة وراءنا التى تفيد الظرفية غير المحدودة « فالوراء لا حدود له » ثم أردف تلك الكلمة المطلقة بكلمة إثرنا التى تفيد الظرفية المحدودة « فالإثر وراء ملاصق قريب » فإن استعمال امرىء القيس لهاتين الكلمتين على هذا الترتيب الوارد فى بيته من قبيل التقييد بعد الإطلاق وهذا غير معيب .

وقال الباقلانى أيضاً « قوله أذيال مرط كان من سبيله أن يقول ذيل مرط » ونحن نحيل القارىء على رواية أخرى فى هذا البيت عبر فيها امرؤ القيس بالمفرد وهى :

خرجْتُ بها أمْشِي تَجُرّ وَرَاءنا عَلَى أَثَرَيْنا ذَيل مِرْطٍ مُرَحّل

نحيل القارىء على هذه الرواية ليرى أن البيت سلم لامرىء القيس ، وأنه لاعيب فيه ، وليدرك مقدار تحامل الباقلانى على شاعرنا العظيم .

* * *

ومما عابه عليه الباقلانى قوله :

فلما أجَزْنا ساحَةَ الحيّ وانتَحَى

بِنا بَطن خَبْتٍ ذِى حِقافٍ عَقَنْقَلِ

قال « وهذا قد أغرب فيه وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقدة وليس فى

ذكرها والتفصيل بإلحاقها بكلامه فائدة ، والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة يوما عبوسًا قمطريرًا ، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد في موضعها » ونحن ننكر على الباقلاني ما أخذه على بيت امرىء القيس من أن كلمة عقنقل لا فائدة لذكرها .. ننكر عليه ذلك قائلين له إن الألفاظ ظروف المعاني وقوالبها — كما قرر ذلك علماء فقه اللغة . وقد قال الباقلاني وغيره من رجالات العربية أن العقنقل هو المنعقد من الرمل الداخل بعضه في بعض ، وكذلك قالوا الحقف رمل منعرج ، وامرؤ القيس أراد أن يصف هذا الموضع بالوعورة التي من أحسن قوالب معناها لفظة عقنقل ، وعلى ذلك فهي واقعة موقع الحاجة في وصف ما يلائمها ، والحسن في استعمالها كالحسن في استعمال كلمة قمطرير من قوله تعالى (يومًا عبوسًا قمطريرًا) . ومن هذا يبين لنا أن هذه اللفظة أفادت ، وأنها محمودة واقعة في موقعها ، وأن الباقلاني غير موفق فيما عابه على البيت .

* * *

وعاب عليه الباقلاني قوله :

هَصَرْتُ بِغُصْنَيْ دَوْحَةٍ فَتَمَايَلَتْ ... عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

فقال « قوله بغصني دوحة تعسف ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين » ولكننا نقرر أن امرأ القيس يريد بالغصنين في هذه الرواية التي اختارها الباقلاني — لحاجة في نفسه — يريد امرؤ القيس الفودين ، وإذاً فلا عيب عليه . على أن في البيت رواية أخرى تصدع توهم الباقلاني وهي :

هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رَأْسِهَا فَتَمَايَلَتْ ... عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ

* * *

ومما عابه عليه الباقلانى قوله :

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غيرُ مُفَاضة تَرَائِبُها مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَل

فذكر أن فى البيت نزوعا إلى الألفاظ المستكرهة ، وفيه خلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض .

وهذه مغالاة من الباقلانى فإن ألفاظ البيت ليست حوشية ولا مستكرهة ، بل إنها تطرق بعذوبتها أذن الأصم بله السميع .

وأما عن تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض فذلك أمر جائز لا خلل فيه ، بل إنه يزيد الكلام حسناً ، وهو من قبيل التخصيص بعد التعميم .

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

تَصُدُّ وتُبْدِى عن أَسِيلٍ وَتَتَقِى بِنَاظِرَةٍ منْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

فقال « قوله تصد وتبدى عن أسيل متفاوت ، لأن الكشف عن الوجه مع الوصل ؛ دون الصد » ولكن مراد امرىء القيس — كما ذكر التبريزى — أنها تعرض عنا استحياء ، وتبسم فيبدو لنا ثغرها ، وتتقى أى تتلقانا بعد الإعراض عنا بملاحظتها كما تلاحظ الظبية طفلها ، وذلك من غنج النساء .

وقال الباقلانى « وقوله تتقى بناظرة لفظة مليحة ولكن أضافها إلى مانظم به كلامه وهو مختل وهو قوله من وحش وجرة ، وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا . . كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو المها دون إطلاق الوحش ففيهن ما تستنكر عيونها »

والرأى عندى أن الباقلانى محق فيما ذهب إليه ، ومثل ذلك العيب أيضاً تشبيهه بنان حبيبته بأساريع الموضع المعروف بظبي فى قوله :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غيْرِ شَثْنٍ كأَنَّهُ ... أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أوْ مَسَاوِيكُ إسْحِلِ

* * *

وعاب عليه الباقلانى قوله :

وجِيدٍ كجيدِ الرئْم لَيْس بفاحِشٍ ... إذا هِىَ نَصَّتْه وَلاَ بِمُعَطَّلِ

فقال « قوله ليس بفاحش فى مدح الأعناق كلام فاحش موضوع منه ، وإذا نظرت فى أشعار العرب رأيت فى وصف الأعناق ما يشبه السحر ، فكيف وقع على هذه الكلمة ودفع إلى هذه اللفظة ، وهلا قال كقول أبى نواس :

مِثْلُ الظباء سَمَتْ إلَى رَوْ ... ضٍ صَوَادِرِ عَنْ غَدِير

ولست أطول عليك فتستثقل ولا أكثر فى ذمه فتستوحش » .

وعندى أيضاً أن البيت معيب عَلَى امرىء القيس وفيه تقصير من جهة أخرى فإنه بعد أن شبه جيدها بجيد الرئم رجع فنفى عنه فحاشة الطول كما نفى عنه العطل وهذا مدح بالسالب وهو إن كان فيه تقييد للتشبيه ليصير الجيد حسناً خالصاً فى الحسن إلا أن هناك ما هو أحسن — وتمعن فى قولى حسن وأحسن — فالحسن نفى الفحاشة وهو المدح بالسالب ، والأحسن هو المدح بالموجب ، فمثلا لو قلت هذا شىء غير ردىء كان المعنى أن فيه نوعا من الحسن ولكنه هابط إلى الحد الأدنى ، بخلاف ما إذا قلت هذا شىء جميل فيكون المعنى أنه بالغ فى الحسن إلى حد أعلى .

وعلى ذلك فلو أن امرأ القيس بعد التشبيه مدح الجيد وأضاف إليه من

صفات المديح الموجبة فوق مدحه سلبياً ، أو لو أنه بعد التشبيه مدحه ابتداء مدحًا إيجابيًا دون تعرض المدح بالسالب لكان البيت حسنًا ولم يكن فيه تقصير ولا قصور ، وأنت لاشك تدرك صواب ما أقول وتقع على الذوق الفني فيه حين أذكر لك بيتاً جاء فيه قائله على ما أبتغى فكان مجيداً أكثر من امرىء القيس وهذا البيت لقيس بن الخطيم ، وهو قوله :

وجيدٍ كجيدِ الرِّئم صافٍ يَزِينُهُ   تَوَقُّدُ ياقوتٍ وَفَصْلُ زَبَرْجَد

* * *

ومما عيب على امرىء القيس قوله :

فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بصلبِه   وأردَفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَل

ألا أيُّها اللّيْلُ الطويلُ ألاَ انْجَلِ   بِصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنْك بأمْثل

قالوا قد انسلخ البيت الأول بوصف الليل من غير أن يذكر ما قال ، وجعله متعلقاً بما بعده وذلك معيب عندهم كما يقولون .

ومثل ذلك العيب عيب عليه قوله فى قصيدة أخرى :

أبَعْدَ الحارثِ الملكِ ابنِ عمرٍو   وبعدَ الخيرِ حُجْرٍ ذِى القِباب

أرَجّى من صُروف الدّهْرِ لِيناً   ولَمْ تَغْفَلَ عن الصُّمِّ الهِضَاب

فإن الاستفهام فى البيت الأول وقد جاء جوابه فى البيت الثانى .

وهناك قوم ممن لايتذوقون حلاوة المجاز والاستعارة عابوا ذلك على امرىء القيس فى قوله .

فقلتُ لَهُ لمّا تَمَطّى بِصُلْبِه   وأرْدَفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَل

ولكن الآمدى دفع عيبهم ورد مأخذهم فقال : « وقد عاب امرأ القيس

بهذا المعنى (أى المجاز والاستعارة) من لم يعرف موضوعات المعانى ولا المجازات ، وهو غاية فى الحسن والجودة والصحة ، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل ، فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهـذا عندى منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته ، وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه ، فلما جعل له وسطا يمتد وأعجازاً رادفة الوسط وصدراً متثاقلا فى نهوضه حسن أن يستعير للوسط اسم الصلب وجعله متمطياً من أجل امتداده ، لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة ، وصلح أن يستعير للصدر اسم الـكلكل من أجل نهوضه وهذه أقرب الاستعارات فى الحقيقة ، وأشد ملاءمة بمعناها لمـا استعيرت له » .

* * *

ومما أخذه ابن رشيق على امرىء القيس تـكرير المعانى فى قوله :

فيالَكَ مِنْ لَيْـلٍ كأنَّ نُجُومَه   بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كأنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها   بأمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

فقال « البيت الأول يغنى عن الثانى والثانى يغنى عن الأول ، ومعناهما واحد لأن النجوم تشتمل الثريا ، كما أن يذبل يشتمل على صم الجندل ، وقوله شدت بكل مغار الفتل مثل قوله علقت بأمراس كتان » .

ويرد على ذلك بأن فى البيتين إطناباً ، وأن ذكر البيت الثانى بعد الأول هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، ومع ذلك فقد جاء فى هذا الشعر رواية أخرى تنقض عيب ابن رشيق وهى بحذف العجز من البيت الأول وحذف الصدر من البيت الثانى فيكون قول امرىء القيس هكذا :

فيالكَ من ليلٍ كأنّ نجومَه بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمٍّ جَنْدل

وهذه الرواية هي التي اختارها الزوزني .

* * *

ومما عابوه عليه في قصيدته الثانية (ألا عم صباحا) تكرير كلمة سلمى في الأبيات الأربعة :

دِيارٌ لسلْمَى عافياتٌ بذِي الخال ألحَّ عليْها كُلُّ أسْحَمَ هَطال

وتحسَب سلْمى لا تَزالُ ترَى طلاً من الوَحْش أوْ بَيْضًا بميْثاء مِحْلال

وتحسَب سلمَى لا تَزال كعَهْدِنا بوادِي الخزمى أوْ عَلَى رأسِ أوْعَال

ليالى سَلمى إذْ تُريك مُنَصَّبًا وجِيداً كجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسٍ بِمِعْطال

وقد رد هذا العيب ابنُ أيوب فقال « إن للتكرير مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها ، فما يحسن تكراره مثل تكرار هذه الأسماء ، وتكرارها على جهة التشوق والاستعذاب ، لأن الموضع موضع غزل وتشبيب ولم يتخلص أحد تخلصه (يعنى امرأ القيس) ولا سلم سلامته » . وقال ابن رشيق في عمدته مثل ذلك القول .

* * *

وعابوا عليه قوله :

كأنّيَ لم أرْكَبْ جَواداً لِلَذّةٍ ولمْ أتبَطّنْ كاعِباً ذاتَ خَلْخال

ولم أسْبَأ الزِّقَ الرَّوِيَّ ولَمْ أقُلْ لخيْلِيَ كُرِّى كرَّةً بعْدَ إجفال

ويقولون كان عليه أن يضع عجز كل بيت منهما في موضع الآخر ، فيكون ترتيب البيتين هكذا :

كأنّىَ لم أرْكَبْ جوَاداً ولمْ أقُلْ لخيْلى كُرِّى كرَّة بعْدَ إجْفال

ولم أسبأَ الزِّقَّ الروِىَّ لِلَذَّةٍ   ولمْ أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خلخال

وهذا خطأٌ منهم لما ينبنى عليه من أن يكون قوله « للذة » حشواً لا غناء فيه ، لأن الزق لا يسبأ إلا للذة بخلاف الخيل فإنها تركب فى السلم والصيد وذلك وقت اللذة ، وتركب فى الحروب أيضاً وهذا وقت شدة .

وشىء آخر فإن امرأ القيس لما ذكر ركوب الخيل وهو لذة من لذات الشباب ناسب أن يذكر معه لذة النساء والاستمتاع بهن ، وبذلك يكون قد أرخى لنفسه العنان ترتع وتمرح بين لذتين ، ثم ذكر بعد ذلك الخمر التى فيها للنفس الشاربة لذة ، فكانت تلك اللذة متصلة بسابقتيها ، ولما كانت الخمر تذهب الخوف والفزع وتجعل شاربها غير هياب ولا وجل ناسب أن يذكر بعدها الكر والفر والقتال وذلك يتصل بالشجاعة والكرم ، ومن ذلك نرى أن المعانى فيما ما أورده امرؤ القيس متسلسلة متصلة آخذ بعضها بحجز بعض ، وقد احتج لصحة ما قلناه أبو الطيب المتنبى فإنه لما أنشد سيف الدولة قصيدته التى مطلعها :

عَلَى قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تَأْتِى الْعَزَائِمُ   وَتَأْتِى عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

ووصل إلى قوله فيها :

وقَفْتَ ومَا فِى الموْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ   كأنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ
تمرُّ بِكَ الأبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً   وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

اعترض عليه سيف الدولة عند إنشاده هذين البيتين ، وقال له : إنى أنتقدهما عليك ، كما انتقد العلماء على امرىء القيس قوله :

كَأَنِّىَ لم أرْكَبْ جواداً لِلَذَّةٍ   ولم أتبطَّن كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَال
ولم أسْبَأ الزِّقَّ الروِىَّ ولم أقُلْ   لخيْلى كرِّى كَرَّةً بَعد إجْفَال

فبيتاك لم يلتئم شطراهما كبيتى امرىء القيس، ووجه الـكلام فى البيتين على ما قاله أهل العلم بالشعر أن يكون عجز البيت الثانى عَلَى صدر الأول ، وعجز الأول على صدر الثانى ، ليـكون ركوب الخيل مع الأمر لها بالـكر ، وسبء الخمر مع تبطن الـكواعب ، فقال أبو الطيب : أدام الله عز مولانا إن صح أن الذى استدرك هذا الأمر على امرىء القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز كما يعرفه الحائك لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفصيله ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تـكون باكية قلت وجهك وضاح وثغرك باسم لأجمع بين الأضداد فى المعنى .

والعرب تضع الشىء أحياناً مع غير نسيبه ليـكون ذلك أطرف له وأدعى لانتباه النفس، وشبيه بهذا قوله تعالى «إنّ لكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيها ولاَ تَعْرَى وإنّكَ لا تَظْمَأُ فِيها ولاَ تَضْحَى» إذ كان المناسب أن يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى والضحو ، ولـكن الأمر جاء على خلاف ذلك وهذا سر بديع من أسرار البلاغة وهو ما يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع والضحو عن الـكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تعدد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلا بشكله لتوهم المعـدودات نعمة واحدة كما يقول الزمخشرى . وكذلك الحال فى بيتى امرىء القيس وفى بيتى المتنبى .

* * *

وعابوا عليه أيضاً قوله فى موضع :

فلوْ أنَّ ما أسْعَى لأدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أطْلُبْ قَلِيلٌ من المال
ولـكنَّما أسْـعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وقَدْ يُدْرِكُ المجْدَ المؤَثَّلَ أمْثالى

ثم قوله فى موضع آخر :

فَتَمْلَأُ بَيْتَنَــــا إِقِطًا وَسَمْنًا وَحَسْبُكَ مَنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيُّ

فقالوا « إن المعنى الأول أفخر ما قيل ، والثانى أنذل ما قيل ، والشاعر قد ناقض نفسه حيث وصفها فى موضع بسمو الهمة وقلة الرضى بدنىء المعيشة وأطرى فى الموضع الآخر القناعة والاكتفاء من الغنى بالشبع والرى » .

وذلك منهم زعم غث فإنه لو تُصفح قول امرىء القيس حق التصفح لم يوجد معنى ناقض معنى ، فالمعنيان فى الشعرين متفقان لا تناقض فيهما فقد قال فى الأول :

فلوْ أنَّ ما أسْعَى لأدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي لَمْ أطْلُبْ قليلٌ مِنَ المَالِ

وهذا موافق لقوله فى الثانى :

وَحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيُّ

ولكن فى المعنى الأول زيادة ليست مناقضة لشىء وهى قوله لكننى لست أسعى لما يكفينى بل أسعى لمجد مؤثل ، فالمعنيان اللذان ينبئان عن اكتفاء الإنسان باليسير متوافقان فى الشعرين ، والزيادة التى ذكرها فى الشعر الأول والتى دل بها على بعد همته ليست تنقض واحداً منهما ولا تنسخه . وأرى أن هذا العائب ظن أن امرأ القيس قال فى أحد الشعرين إن القليل يكفيه وفى الآخر إنه لا يكفيه ، وقد ظهر مما قدمناه أن هذا الشاعر لم يقل شيئاً من ذلك ولا ذهب إليه ولم يخطر له على بال ، ومع ذلك فلو قاله وذهب إليه لم يكن

مخطئًا فإن قدامة يقول « إن مناقضة الشاعر نفسه فى قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئًا وصفًا حسنًا ثم يذمه بعد ذلك ذمًا حسنًا بينًا غير منكر عليه ولا معيب من فعله إذا أحسن المدح والذم ، بل ذلك عندى يدل على قوة الشاعر فى صناعته واقتداره عليها » وقال أيضًا : « الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقًا بل يراد منه إذا أخذ فى معنى من المعانى كائنًا ما كان أن يجيده فى وقته الحاضر لا أن ينسخ ما قاله فى وقت آخر » .

وفوق ما تقدم فإن الشاعر كان متأثراً فى شعره الأول بروح غير التى تأثر بها فى شعره الثانى ، فإن قصيدته (ألا عم صباحا) التى منها الشعر الأول قالها أيام زهوه بخفض العيش وخلو قلبه من هموم الحياة ، ولكن الشعر الثانى الذى فيه وحسبك من غنى شبع ورى . قاله بعد مقتل أبيه حين صار شريداً طريداً عاجزاً بائساً .

* * *

ومما عيب عليه فى قصيدته (أحار بن عمرو كأنى خمر) قوله :

فلمّا دَنَوْتُ تَسَــــدَّيْتُهَا فَثَوْبًا لَبِسْتُ وثوْبًا أجُر

فقد حمل بعضهم قوله (فثوبًا لبست وثوبًا أجر) على أنه تكرار وهذا منهم خطأ بيّن فإن البيت لا تكرار فيه ، وإنما هو كما قال ابن رشيق ترديد بالغ غاية الحسن فقد أتى الشاعر بلفظة ثوب وعلقها بمعنى ثم رددها بعينها متعلقة بمعنى آخر ، والثانى أفاد غير ما أفاده الأول .

وفى عجز البيت رواية أخرى وهى :

فثوبًا نَسِيتُ وثوبًا أجر

وفى هذه الرواية المعنيان الأول والثانى متباعدان جداً .

* * *

وقد يكون للأصمعى حق فيما عابه على امرىء القيس فى قوله :

وأرْكَبُ فى الرَّوْعِ خَيْفَانَةً ... كَسَى وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرْ

يقول الشاعر وأركب فى المخافات فرسًا طويلة خفيفة سريعة ينتشر شعر ناصيتها كالسعف على وجهها ، والخيفانة فى الأصل الجرادة ثم تشبه بها الفرس فى الخفة .

ووجه العيب فى هذا البيت أنه شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريمًا وذلك هو الغمم ، والذى يحمد فى الناصية الجثلة وهى التى لم تفرط فى الكثرة فتكون الفرس غماء والغمم مكروه ولم تفرط فى الخفة فتكون الفرس سفواء والسفا أيضًا مكروه فى الخيل ، والجيد ما قال عبيد :

مُضَـــبَّرٌ خَلْقُهَـا تَضْبِيرَا ... يَنْشَقُّ عَنْ وَجْهِهَا السَّبِيبُ

* * *

وعابوا عليه أيضًا قوله :

لها ذَنَبٌ مِثْلُ ذَيْلِ العَرُوسِ ... تَسُــدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبر

قالوا « فمن أين تسد بذنبها فرجها من قبل ؟ وليس هذا من قول الحذاق ففى البيت حشو » وقالوا أيضاً « إن ذيل العروس يجر على الأرض ولا يصح أن يكون ذنب الفرس طويلا مجروراً ولا قصيراً » ، والصواب قوله فى موضع آخر :

ضليعٌ إذا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَه ... بِضَافٍ فُوَيْقَ الأَرْضِ لَيْسَ بأَعْزَلِ

وجوابنا عن ذلك أن العيب الأول واقع ، أما عن العيب الثانى فنكتفى بما أورده الآمدى فى الرد عليه ، فقد قال : وما أرى العيب لحق امرأ القيس فى هذا ،

لأن العروس إذا كانت تسحب ذيلها وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض فهو عيب . فليس ينكر أن يشبه الذنب به وإن لم يبلغ أن يمس الأرض لأن الشيء إنما يشبه بالشيء إذا قرب منه أو دنا من معناه فإذا أشبهه فى أكثر أحواله فقد صح التشبيه ولاق به . ولأن امرأ القيس لم يقصد من طول الذنب أن يشبهه بطول ذيل العروس فقط ، وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة ، ألا تراه قال تسد به فرجها من دبر ، وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ولا يكون كثيفاً ، بل قد يكون رقيقاً نزر الشعر خفيفاً ، فلا يسد فرج الفرس ، فلما قال تسد به فرجها علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول ، فإنما أشبه الذنب الطويل ذيل العروس من هذه الجهة وكان فى الطول قريباً منه ، فالتشبيه صحيح وليس ذلك بموجب للعيب ولا أن يكون ذنب الفرس من أجل تشبيهه بالذيل مما يحكم على الشاعر أيضاً أنه قصد إلى أن الفرس يسحبه على الأرض ، وإنما العيب فى قول البحترى :

ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عن ... عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَالقِنَاعِ المُسْبَلِ

فأفصح أن الفرس يسحب ذنبه .

* * *

وعاب عليه الأصمعى قوله :

لَهَا مَتْنَتَــانِ خَظَاتَا كَمَا ... أَكَبَّ عَلَى سَاعِدَيْهِ النَّمِر

فقال « إنه أساء فى وصف المتن بكثرة اللحم لأنه يستحب تعريق المتن وتعريق الوجه كما قال طفيل :

معرقة الألحى تلوح متونها

يقول هى معرقة الوجه ويكاد يستبين العصب من قلة اللحم وكذلك المتون .

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى كلمة (خظاتا) فإن فيها رأيين الأول أنها اسم مثنى حذفت منه النون التى هى عوض عن التنوين فى الاسم المفرد والمفرد خظاة أى مكتنزة لحما ، وحذف مثل هذه النون وارد فى كلام العرب ومن ذلك ما قالوه حكاية عن الحجلة التى قالت للقطا (قطا قطا ، قفاك أمعطا بيضك ثنتان وبيضى مائتا) أى مائتان . والرأى الثانى أن تكون خظتا فعلا مثل قضتا ثم أظهر الألف لحركة التاء فقال خظاتا ، ولم تظهر الألف وإنما ألقيت وطرحت فى مثل قضت لسكون التاء منعاً لاجتماع الساكنين ، وقد قال أهل النظر من أهل البصرة إن امرأ القيس لما جاوز فى طيىء علق من لغتهم وهم يقلبون الياء ألفاً يقولون فى رضيت رضاتا ، وكذلك خظاتا كان أصلها خظيتا فقلبت الياء ألفًا .

***

وعيب عليه قوله :

وَعَيْنٌ لَهَا حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ   شُقَّتْ مَآقِيهِمَا مِنْ أُخُرْ

قيل « فى البيت عيب وهو أنه وحد العين ثم رد إليه ضمير الاثنين » ولكن أبا عمرو يجوز هذا فى الاثنين إذا كانا لا يفترقان ، وعلى ذلك فلا عيب فى البيت .

* * *

وعاب أبو سعيد محمد بن هبيرة على امرىء القيس قوله :

ولِلسَّوْطِ فيها مَجَالٌ كَمَا   تَنَزَّلُ ذُو بَرَدٍ مُنْهَمِر

فقال هذا ردىء ما لها وللسوط » ولكن ابن أيوب أراد أن يخلص البيت من العيب فقال « أى لها عن السوط مجال ، ولو أراد الضرب لكانت كسرعة حمار الكساح » .

ولما تنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة الفحل الشعر واحتكما إلى أم جندب زوجة امرىء القيس فضلت علقمة وعابت على زوجها قوله :

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ ولِلسَّاقِ دِرَّةٌ ... ولِلزَّجْرِ مِنْهُوَقْعُ أَهْوَجَ مُنْعَبِ[1]

وقالت له أجهدت فرسك بسوطك فى زجرك ومريته فأتعبته بساقك ، فهو فرس بطىء لأنه يحوج إلى السوط وإلى أن يركض بالرجل ويزجر أما ابن عبدة فإنه قال :

فأَدْرَكَهُنَّ ثانيًا من عِنانه ... يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ المُتَحَلِّبِ

فأدرك فرسه الصيد ثانيًا من عنابه ، ولم يضربه بسوط ولم يتعبه ، وقد ذكر العلماء هذه المفاضلة من غير تعليق ولا تعقيب ، كأنهم يوافقون أم جندب فى نقدها . ولكننا عند التأمل وإنعام النظر نرى أن فرس امرىء القيس لا يقل عن فرس صاحبه فى طلب الصيد وإدراكه وسرعة إلحاقه ، وإن كان فى ذكر امرىء القيس للسوط والساق والزجر شىء من الهجنة والنقص فنحن نرى أنه قد ذكر هذه الأشياء ليدل على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه ، وأن عنده أفانين من الجرى فيعطى راكبه ما يشاء منها ، وقد ألم بهذا المعنى فى غير هذا الموضع إذ يقول :

عَلَى لَاحِقٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ ... أَفَانِينَ جَرْيٍ غَيْرَ كَزٍّ وَلَا وَانِ

على أن امرأ القيس بعد ذلك البيت الذى عابته عليه أم جندب قال :

فأَدْرَكَ لَمْ يُجْهَدْ ولَمْ يَثْنِ شَأْوَهُ ... يَمُرُّ كَخُذْرُوفِ الوَلِيدِ الْمُثَقَّبِ

---

(١) وفى رواية أخرى وقع أخرج مهذب . والأهوج الأحمق ، والمنعب المصاح عليه من النعيب وهو التصويت – والأخرج الظليم والمهذب الشديد العدو .

وهذا البيت يدل على ما يدل عليه بيت علقمة ، بل إنه يزيد عليه حسنًا ومتانة ، ولكن أم جندب كانت ظالمة لامرىء القيس لجارت عليه فى حكومتها ، وذلك لحاجة فى نفسها ، لأنها كانت تكرهه لفركه وكان هواها مع علقمة ، ولذلك فإنه خالف امرأ القيس عليها ، وفى ذلك ما يدل على تحيزها لعلقمة .

وفوق ما تقدم فإن ابن المعتز ينكر أن قصيدة (خليلى مرابى) من شعر امرىء القيس كما أن المفضل يرويها لعلقمة . وابن الجصاص وحماد يرويان القصيدتين لامرىء القيس .

* * *

وقد تتبع النحاة ماظنوه سقطات وأخطاء لدى إمرىء القيس فى شعره . قالوا : إنه أخطأ فى قوله : —

أَرَدْتُ بها فَتْــكا فَلَمْ أَرْتَمِضْ لَهُ ... وَنَهْنَهْتُ نَفْسِى بعْدَ ما كِدْتُ أَفْعلَه

لأنّ « أفعلَه » نصب على تقدير « أنْ » وهو شاذ فى مذهبهم . والحق أنه ليس بشاذ ، لأن « أن » تأتى فى خبر كاد قليلا ، والأكثر حذفها . . ولا يعنى بحذفها على قلة أن ذلك الاستعمال شاذ ، فالقلة لا تعنى الشذوذ البتة . وقال سيبويه فى هذا الصدد : أراد بعد ما كدت أن أفعله ، فحذف « أن » وأبقى عملها ، ولكن الأشمونى لم يرتض أن يحذف العامل ويبقى عمله .

وقال بعض النحاة إنه جزم « أشرب » على غير قاعدة فى قوله : —

فاليَوْمَ أشربْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثماً مِنْ اللهِ ولا وَاغِـــــــل

وأورده بعضهم فى مقام الاحتجاج به — كشاهد — فى جواز تسكين المتحرك لاجتماع الحركات . . . على أن فى البيت رواية أخرى أتت فيها كلمة

« أسْقِى » بدل كلمة « أشرب » ، وليس فى الرواية بكلمة « أسْقى » خروج على قواعد النحو لامتناع ظهور الحركات على الألف المقصورة .

وذكروا كلمات أخرى لم يجئ ضبطها طبقاً للقواعد التى انتهى إلى تقنينها النحاة . قالوا : إنه نصب فعل الأمر « بلّغْ » فى قوله : —

أيا راكباً بلّغَ أخْـــــوانَنا   منْ كانَ مِنْ كِنْدَةَ أوْ وائلِ

وأنه أسقط النون فى كلمة « خظاتان » لغير إضافة ظاهرة فى البيت :

لها مَتْنَتانِ خظَاتَا كمَا   أكبَّ عَلَى ساعِدَيْه النمِرْ

وأن كلمة « هطلاء » جاءت عَلَى غير قياس فى قوله : —

دِيمةٌ هَـطْلاءُ فِيهاَ وَطَفٌ   طَبَّقُ الأرْضِ تحَرّى وتُدِرّ

فلم يسمع فى المذكر سحاب أهطل أو مطر أهطل أو غيث أهطل حتى يكون المؤنث هطلاء . . وإنما سمع سحاب هاطل أو هطال والمؤنث بالتاء هاطلة ، وَهطّالة . .

وقالوا — أيضاً — إن كلمة « مُزَمّلِ » جاءت مجرورة ، وأحقها أن ترفع لأنها وصف لكلمة « كبير » بالرفع فى قوله :

كأنّ ثبيراً فى عَرَانين وَبْلِهِ   كَبيرُ أناسٍ فِي بِجادٍ مُزَمَّلِ

ورفع كلمة « مُزَمَّلُ » يجعل فى البيت إقواء « عيب عروضى » لأن الكسر هو حركة روىّ القصيدة ، فأبقاه النحاة عَلَى الكسر وَتأوّلوه ، فقالوا إن « مزمّلِ » بالكسر مخفوضة عَلَى الجوار مثل قولهم : « هذا جحر ضبٍّ خربٍ » وهو تأويل لا يبرئ امرأ القيس من الوقوع فى ذلك العيب فلقد أقوى مرتين فى قصيدة واحدة فى بيتين متجاورين ، لا يفصل بينهما غير بيت وَاحد فى قوله : —

جَالتْ لِتصرِعنى فقُلْتُ لها اقصِرى ... إنى امْرُؤٌ صَرْعِى عَلَيْكِ حَرَامُ
فَجُزِيتِ خَيْرَ جَزَاء نَاقةِ وَاحدٍ ... وَرَجَعْتِ سَالمةَ القَرَا بِسَلام
وَكأنّما بَذْرٌ وَصِيلُ كُتَيْفَةٍ ... وَكأنَّمَا مِنْ عَاقِلٍ أرْمَامُ

مِنْ قصيدته التى مطلعها :

لِمَنْ الدِّيارُ غَشِيتُها بِسُحَام ... فَعَمايَتَين فَهَضْبُ ذِى أقْدَام

وهى مكسورة الروىّ ..

وَأخذوا عليه فى العروض أنه جاء بالتفعيلة الأخيرة لكل شطر فى بيت مصرَّع من بحر الطويل عَلَى « مفاعيلن » ولم يفعل ذلك غيره مِن الشعراء ، لأن تفعيلة بحر الطويل الأخيرة فى كل شطر إذا صُرِّع تصبح « مفاعلن » وذلك فى قوله : —

ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى ... وَهل يعمن مِنْ كان فى العصر الخالى

وغير ذلك من المآخذ التى تلمسها له النقاد فى النظم أو البلاغة أو النحو . وليس بصحيح لدى الفهم الدقيق والنظر الصادق أن يقال إن امرأ القيس أخطأ فى النحو أو فى البلاغة أو فى العروض لأن شعره وشعر غيره وكلامه وكلام سواه من القدماء هو الذى يحتج به ويعول عليه فى تقعيد القواعد ووضع المقاييس المطردة وغير المطردة مما هو وارد على ألسنتهم وفى محتوى أساليبهم ، فلم يكن لديهم مصطلحات لقواعد نحوية أو صرفية أو عروضية ، فما استساغوه بأذواقهم وجرى على لهواتهم هو الأساس المتين فى البناء اللغوى الصحيح .

* * *

وبعد كل ما سبق فإن أسرف المنتقدون على امرىء القيس فى الذم وبالغوا

عليه بالطعن وتجاوزوا الحد الذى يقف عنده المحتج المناظر إلى مذهب المسقط المغالط ، والمتعصب المتحامل ، فلسنا نمنع أن يكون امرؤ القيس قد وهم فى بعض شعره ، وعدا عن الوجه الأوضح فى شىء من معانيه ... وغير منكر لفكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى بعض الأوقات ، والزلل فى بعض الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه ، وابتدع ابتداعه أن يسامح من سهوه ، ويتجاوز له عن زلله ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ، ولكل شاعر سقطة .

تأثر امرىء القيس بغيره

كانت الحياة الجاهلية على ما تعلم حياة بدوية أولية لا تعقيد فيها ولا تكلف ، وهى على فطرتها حياة خشنة جاسية كل ما فيها شاة وبعير ، وخيام وقباب ، وغيث وكلأ .. تمتزج فى أكثر أحيانها بشظف العيش وكلالة البال مما أدى بهم إلى التدافع على النجعة والتكالب على المرعى ، وكان داعية لقيام العداوة بينهم ومحاربة بعضهم بعضاً .

واللغة ككل أعراض الحياة خاضعة لمزاج أهلها ، فهم الذين يخلعون عليها الخشونة ، أو يزينونها بألوان من الرقة . ولذلك كانت اللغة العربية فى جاهليتها متمشية مع الروح التى سرت إليها من أهلها ، تستعمل فى أغراض معيشتهم وكل مايلائم بيئتهم ويناسب طباعهم ، دون إغراق فى الاستعمال ، ولا غلو فى ترتيب المعانى والأفكار ، بل يرسلون القول لطيته على حسب ماتتخيله نفوسهم ، وتستدعيه بديهتهم ، فيدخلون معنى فى معنى ، وينتقلون اقتضاباً من غرض إلى غرض ، دون تحيل ولا تلطف ، وقد يمهدون لذلك بقولهم دع ذا وعد عن ذا ، أما ألفاظهم وأساليبهم فكانت كما كانت حياتهم وليدة الفطرة والبداوة .. فيها جزالة ، وعلى مخايلها شىء من الوعورة ، ومن مذاهبهم فى قصائدهم أن يفتتحوها بالنسيب وذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وصفة الطلول والدمن والظعائن والحمول تعطيفاً للقلوب واستدعاء للقبول لما فى الطباع من حب الغزل والميل إلى اللهو والنساء . وإن ذلك استدراج إلى ما بعده .

وقد تأثر امرؤ القيس فى كلياته بتلك الروح الغالبة عَلَى عصره ، فقد كان يبدأ قصائده بذكر الأطلال والنسيب ووصف النساء وذكر محاسنهن وديارهن ولهوه معهن ، وينتقل بعد ذلك إلى ما يأخذ فيه من الأغراض التى تستوحيها حياة البادية ، من وصف للفرس ، وخروج للصيد ، ووصف للغيث والكلأ ، وذكر نبله وفتوته ، والافتخار بنجاره إلى غير ذلك . وقد يكون هذا الانتقال طفرة كما انتقل فى معلقته من النسيب إلى وصف الليل فقال :

أَلاَ رُبَّ خَصْمٍ فيكِ أَلْوَى رَدَدْتُه

نصيحٍ عَلَى تَعْذَالِهِ غيرِ مُؤْتَلِ

وليلٍ كموْجِ البحْرِ أَرْخَى سُدُولَه عَلَىَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِى

وقد يكون بقوله دع ذا كما انتقل فى قصيدته (سما لك شوق بعد ما كان أقصرا) إلى وصف الناقة بقوله :

فدَعْ ذا وَسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَّرَا

وقد ظهر أثر البداوة فى شعر امرىء القيس أيضاً فى جفاء عبارته ، ووعورة ألفاظه ، وتجهم معانيه ، وخشونة تشبيهه — أحيانًا — وأنت تدرك ذلك فى قوله:

بَرَهْرَهَةٌ رُودَةٌ رَخْصَةٌ كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ المُنْفَطِرِ (١)

وقوله :

وَأَرْكَبُ فى اللَّهَامِ المَجْرِ حتّى أنال مآكل القُحَمِ الرِّغابِ (٢)

---

(١) البرهرهة الرقيقة الجلد الملساء المترجرجة . والرودة الشابة . والرخصة الناعمة . والخرعوبة الغضة . والبانة قضيب البان . والمنفطر المنشق .

(٢) اللهام الجيش العرمرم . والمجر الثقيل المتئد فى سيره . والقحم البضع الكثيرة من الأموال وغيرها . والرغاب الواسعة .

وقوله :

وَظَلَّ لِصِيرَانِ الصَّرِيمِ غَمَاغِمٌ ... يُدَاعِسُهَا بِالسَّمْهَرِيِّ الْمُعَلَّبِ (١)

فَكَابٍ عَلَى حُرِّ الْجَبِينِ وَمُتَّقٍ ... بِمَدْرِيَةٍ كَأَنَّهَا ذَلْقُ مُشْعَبِ (٢)

فَفِئْنَا إِلَى بَيْتٍ بِعَلْيَاءَ مُرْدَحٍ ... سَمَاوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُعَصَّبِ (٣)

وتقف أيضاً على خشونة تشبيهه فى قوله يصف بنان معشوقته الناعمة :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كَأَنَّهُ ... أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أَوْمَسَاوِيكُ إِسْحَلِ

فقد شبه تلك البنان الرخصة بدود ظبي أو مساويك إسحل ، وكذلك فى قوله يصف شعر معشوقته أيضًا :

وفرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ... أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ

فإنه يشبه شعرها بقنو النخلة .

على أن امرأ القيس كان فى كثير من الأحيان يجنح فى شعره إلى حسن الديباجة ، وبديع المعنى ، ودقيق الوصف ، ورقيق التشبيه ، وسهولة المأخذ وعذوبة النسيب ، وذلك لأنه وإن تأثر بعصره وشاكل من حوله إلا أنه اختط لنفسه طريقا مستقلا ومنزعا خاصًا ، حتى ليخيل إلينا أنه أمة وحده

(١) الصيران جمع صوار وهو الثور الوحشى . والصريم منقطع الرمل . والغماغم الأصوات والخوار . ويداعسها يطاعنها . السمهرى الرمح . والمعلب المقوى بالعلباء وهى عصبة تشد على العصى إذا خافوا أن تنكسر .

(٢) الكابى الساقط على وجهه . وحر الجبين ما ظهر من الوجه . والمدرية القرن . والذلق الحد . والمشعب المخرز .

(٣) فئنا رجعنا . ومردح واسع . وسماوته أعلاه . والأتحمى البرود المحوكة . والمعصب أى المحوكة بعصب اليمن .

لا يستمد من أحد من أهل زمانه ، على حين أنهم ينبوع عقله ومدد بحره ، وذلك سر عظمته مما جعل الشعراء بعده يحتذون حذوه ، وينحا كونه فى تهذيب أشعارهم ، وترقيق معانيهم .

* * *

أما عن تأثر امرىء القيس فى جزئياته . . . فإن الأثر الأول فى ذلك لعبيد بن الأبرص ، والحجة فى ذلك أن عبيداً أكبر من امرىء القيس سنا وأقدم زماناً ، فقد قال أبو حاتم السجستانى فى كتاب المعمرين إن عبيداً عاش زهاء المائتى سنة أخذاً من قوله :

مائَتَىْ زَمانٍ كامِلٍ وَنَصَيِّةٍ   عِشْرينَ عِشْتُ مُعَمَّراً مَحْمُودا
وَشهِدْتُ أَوَّلَ مُلْكِ نَصرٍ ناشِئًا   وَبناءَ شَدَّادٍ وَكانَ أَبِيدَا

وأول ملك بنى نصر كان فى أواخر القرن الثالث ، لأن أول ملوكهم عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو الذى أخذ بثأره من الزباء وتولى الملك بعده . ومهما قيل فى ذلك من التأويل فإنه لابد أن يكون عبيد أكبر من امرئ القيس بزمن طويل قال فيه الشعر وتفنن فيه وامرؤ القيس إما فى عالم الغيب وإما فى عداد الأطفال ، ولايسع المؤرخ أن ينسب مايتوافقان فيه من المعانى والأساليب إلا إلى السابق ولا مرية فى أنه عبيد(١) ويظهر هذا الأثر فى قول عبيد :

عَيْناكَ دَمْعُها سَرُوبُ   كأَنَّ شَأْنَيْهِما شَعِيبُ

---

(١) عبيد فحل من فحول شعراء الجاهلية وهو من أهل السبق والافتنان فى الشعر وإنما أخره عن الطبقة الأولى عندهم أنهم لم يجدوا له كثيرا مثل ما وجدوا لغيره كما أشار إلى ذلك ابن سلام . وقيل إن منيته كانت على يد المنذر بن ماء السماء فى يوم من أيام بؤسه . وله ديوان مطبوع فى أوربا .

فقد أخذه امرؤ القيس فقال :

عَيْناكَ دَمْعُهما سَلسَال كَأنّ شَأنيهِما أوْشالُ

وقال عبيد :

أوْ جَدْولٌ فى ظِلال نَخْل لِلمــاء من تَحْتِه قَسِيبُ

فتبعه امرؤ القيس وقال :

أو جدولٌ فى ظِلالِ نَخْلٍ للمـــاءِ من تَحتِه مَجَال

وقال عبيد :

قَطَعْتهُ غُدْوَةً مُتَيْمنا وصاحِبى بادِنٌ جَنُوب

فقال امرؤ القيس :

قد اقطعُ الأرْضَ وهىَ قَفْرٌ وصاحِبى بازِلٌ شِمْلال

وقال عبيد :

تبصّرْ خَلِيلى هلْ ترَى من ظَعائن سَلَــكْن غُمَيْراً دُونَهُنّ غُمُوض

فتبعه امرؤ القيس فقال :

تبصّر خليلى هلْ ترى من ظَعائِن سَلَــكْن ضُحَيًّا بيْنَ حَزْمَىْ شَعَبْعَبِ

وتبعه الشعراء بعده كزهير إذ يقول :

تبصّر خَلِيلى هلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ تَحمَّلْنَ بالْعَلْياء مِن فَوْقِ جُرْثُمِ

وقال عبيد :

كأنّ رِيقَتَها بعدَ الــكَرَى أغْبقَت صَهْباء صافِيَة بالمسك مَخْتُومة

فقال امرؤ القيس :

كأنَّ المدَام وصَوْب الغَمامِ ... وريحُ الخُزامَى ونَشْرُ القُطُرِ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أنيابِها ... إذا طَرَّبَ الطائِرُ المُسْتَحِرْ

وتابعهما فى ذلك شاعر آخر فقال :

لَوْ ذُقْتَ فاهَا بعْدَ نَوْمِ المُدْلِجِ ... والصُّبْحُ لَمَّا هَمَّ بالتَّبَلُّجِ
قلتَ جَنَا النَّحْلِ بِماءِ الحَشْرَجِ ... يُخَالُ مَثْلُوجًا وإنْ لَمْ يُثْلَجِ

وقال عبيد :

حَبَسْتُ فيها صِحَابِى كَىْ أُسَائِلُهَا ... والدَّمْعُ قَدْ بَلَّ مِنِّى جَيْبَ سِرْبالى

ويقول امرؤ القيس :

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّى صَبابَةً ... عَلَى النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دَمْعِىَ مِحْمَلى

واقتفى أثرهما فى ذلك النابغة حيث يقول :

فَكَفْكَفْتُ مِنِّى عَبْرَةً فَرَدَدْتُها ... عَلَى النَّحْرِ مِنْها مُسْتَهِلٌّ وَدَامِعِ

ويقول عبيد :

زعَمَتْ أنَّنِى كَبِرْتُ وَأَنِّى ... قَلَّ مَالِى وَضَنَّ عَنِّى المَوَالِى
وصحَا بَاطِلِى وَأَصْبَحْتُ كَهْلاً ... لا يُوَاتِى أَمْثَالَهَا أَمْثَالِى

فيقول امرؤ القيس :

ألاَ زعمت بسباسةُ اليومَ أننى ... كبِرْتُ وألاَّ يُحْسِنُ السِّرَّ أمْثالى

وقال عبيد :

كأنَّ أظعانَهُم نَخْلٌ مُسَوَّقَةٌ ... سُودٌ ذَوَائِبُها بالحَمْلِ مَكْمُومَة

فقال امرؤ القيس :

أوَ ما ترَى أظعانهنّ بَواكرا ... كالنخل من شَوْكَانَ حين صِرَام

وقال عبيد :

وبيْتِ عذارَى يرتمين بخِدْرِه ... دَخلْتُ وَفِيهِ عانِسٌ وَمَرِيض

فقال امرؤ القيس :

وبيتِ عذارى يومَ دَجْنٍ وَلِجْتُهُ ... يُطُفْنَ بجُبّاء المَرافِق مِكْسَال

وغير ذلك كثير مما يظهر عند قراءة ديوانيهما .

ومما يدل أيضاً على تأثير عبيد فى امرىء القيس تلك المحاجاة التى كانت بينهما ، فإنها عندنا مثال من أمثلة التمرين الذى يعمله غالباً الأكبر للأصغر ليختبره . إذ يقول له عبيد ما معرفتك بالأوابد فيقول امرؤ القيس قل ماشئت تجدنى كما أحببت ، فيقول عبيد :

ما حَيّة مَيْتَة قامَتْ بِميتَتِها ... دَرْدَاء ما أنْبَتَتْ سِنًّا وأضْرَاسا

فيقول امرؤ القيس :

تلك الشّعِيرةُ تسْقَى فى سَنا بِلها ... فأخْرَجَتْ بعدَ طولِ المُكْث أكْداسا

وهكذا ظل عبيد سائلا وامرؤ القيس مسئولا مجيباً حتى انتهيا . ولقد كان عبيد يقول الشعر مفتخراً على امرىء القيس ، ومن ذلك قصيدته التى يقول فيها :

يا ذا المُخَوِّفُنا بِقَتْلِ أبِيهِ إذْلالاً وَحَيْنَا

وقد تقدمت .

ومن ذلك أيضاً قصيدته التي يقول فيها :

أَمِنْ رُسُومٌ نَأيُها رَاحِل ... ومن دِيارٍ دَمْعُكَ الهَامِل
أجالت الرِّيحُ بها ذَيْلَهَا ... عَامًا وجَوْنٌ مُسْبِلٌ هَاطِل

وفيها يقول أيضاً :

يا أيُّهَا السّائلُ عَنْ مَجْدِنَا ... إِنَّكَ عَنْ مَسْعَاتِنَا جَاهِل
إِنْ كُنْتَ لمْ تَسْمَعْ بِآبَائِنَا ... فَسَلْ تُنَبَّأْ أيُّهَا السَّائِل
سائل بنا حُجراً غَدَاة الوغَى ... يومَ تَولى جمعُه الحافل
يَوْمَ لَقُوا سَعْداً عَلَى مَاقِطٍ ... وَحَاوَلَتْ مِنْ دُونِهِ كَاهِل
فأوْرَدُوا سِرْباً لهُ ذُبَّلاً ... كَأنَّهُنَّ اللّهَبُ الشّاعِلُ
وعَامِرًا أنْ كَيْفَ يَعْلُوهُمْ ... إذا الْتَقَيْنَا المُرْهَفُ النَّاهِل
قَوْمِي بَنُو دُودَانَ أَهْلُ الحِجَى ... يَوْمًا إذا أَلْقَحَتْ الحائل
كَمْ فِيهِمُ مِنْ سَيِّدٍ أيِّدٍ ... ذِي نَفَحَاتٍ ، قَائِلٌ فَاعِلُ
مَنْ قَوْلُهُ قَوْلٌ ومَنْ فِعْلُهُ ... فِعْلٌ وَمَنْ نَائِلُهُ نَائِلُ
القائلُ القولَ الذي مِثْلُه ... يُمْرِعُ منه البَلَدُ المَاحِل
لا يُحْرِمُ السَّائِلَ إنْ جَاءَهُ ... ولا يعَنِّي سَيْبَه العَاذِل
الطاعِنُ الطَّعْنَةَ يَوْمَ الوَغَى ... يذْهَلُ مِنه البَطَلُ البَاسِل

وهذه القصيدة نشا كل قصيدة امرىء القيس التي مطلعها :

يا دَارَ مَاوِيَّةَ بالحَائل ... فالسّهب فالخبْتَيْنِ من عاقل

وقد تقدمت :

وإذا وازنا بين القصيدتين نجد أن عبيداً أشعر الرجلين حتى لكأنه قلب بامرىء القيس الأرض أو طبق عليه السماء كما قدّمنا فى موضع آخر .

وامرؤ القيس وإن تأثر بعبيد فمن المعقول أيضاً أن يكون عبيد متأثراً بامرىء القيس كذلك .

ولئن صح ما قاله ابن رشيق من أن امرأ القيس كان يتوكأ على أبى دواد الإيادى ويروى شعره ليكونن متأثرًا به ولا سيما أن أبا دواد — كما ذكر صاحب الأغانى — كان وصّافاً للخيل ، وأكثر أشعاره فى وصفها . وقد قال ابن الأعرابى أيضاً : لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبى دواد . وقد فتشت كثيراً فيما وقع لى من كتب الأدب علنى أعثر على شعر لأبى دواد أستطيع معه أن أبين أثره فى امرىء القيس فلم أوفق ولم أعثر له إلا على بعض مقطعات فى كتاب الأغانى ومهذبه لا تسد حاجتنا ولا تفى بغرضنا ، ولكن فيها بعض ما نود وهى :

من قوله فى وصف الفرس :

وَلَقَدْ أغتَدِى يُدَافِعُ رُكْنِى ... أحْوَذِىّ ذو مَيْعَةٍ إضْرِيجُ
مِخلَطٌ مُزَيَّلٌ مِكَرٌّ مِفَرٌّ ... مُنفَحٌ مُطَرَّحٌ سَبوحٌ خَروجُ
سَلْهَبٌ سَرْحَبٌ كأنّ رِمَاحًا ... حَمَلَتْه وفى السّراة دُمُوجُ

ويظهر أثر هذا الشعر فى قول امرىء القيس .

وقد أغتَدِى والطّيرُ فى وُكُناتها ... بمنجرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

وما شاكل ذلك .

وفى قوله :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا كَجُلْمود صَخْرٍ حَطّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وما شاكله أيضاً :

ومن شعر أبى دواد أيضاً ما قاله لزوجته أم حبتر ، وقد عاتبته على سماحته بماله ، فلم يعتبها ، فصرمته ، قال :

حاولتِ حينَ صَرَمْتِنى والمرْءُ يَعْجَزُ لا مَحالة

والدهرُ يلعَبُ بالفتىَ والدهر أرْوَغُ مِنْ ثُعَالة

والمرءُ يكسِبُ مالَه والشّح يُورِثُه الكَلالة

والعبْدُ يُقْرَع بالعصَا والحرُّ تَكْفيه المقالة

والسّكْتُ خيرٌ للفَتىَ فالحَيْنُ من بعْضِ المقَالة

وندرك شيئاً من تأثر امرىء القيس بهذا الشعر حين يقول أبو دواد :

والدّهرُ يَلْعَبُ بالفتى والدّهر أرْوَغُ من ثُعالة

فيقول امرؤ القيس :

ألَمْ أخبرْكِ أنّ الدهرَ غُولٌ خَتُورُ الْعَهْدِ يَلْتَهِمُ الرِّجَالا

وحين يقول أبو دواد :

والعَبْدُ يُقْرَعُ بالعَصاَ وَالحرُّ تَكْفِيهِ المقَالة

فيقول امرؤ القيس :

قولاَ لِدُودَانَ عبيدِ العصاَ مَا غَرَّكم بالأَسَدِ البَاسِلِ

ومِنْ شعر أبى دواد قوله يصف ثوراً خارجا مِنْ أجمة :

وَبَدَتْ لهُ أذُنٌ توَجّسُ حرّة وَأحَمُّ وَارِدُ

وَقَوائمٌ عُوجٌ لهـا مِنْ خـلْفِها زُمَعٌ زَوائدْ
كـقَاعِدِ الرُّقَبَاءِ للـضَّرَباءِ أيدِيهِمْ نَوَاهِـدْ

وقوله يمدح الحارث بن همام بن مرة ويذكر ناقته الزباء ، وكان الحـارث قد جاوره فأحمد جواره .

فإلى ابنِ همَّامِ بنِ مرَّةَ أصْعَدت ظعن الخليط بهم فقَلَّ زيالُها
أنعمْتَ نِعمَةَ ماجدٍ ذى مِنَّةٍ نُصبت عليكَ من العلا أظلالُها
وَجَعلْتَنا دُونَ الوَلىِّ فأصبحَتْ زَبَّاء مُنْقَطِعاً إليكَ عِقالُها

ومِمَّا قاله لزوجته أم حبتر أيضاً :

فى ثلاثينَ زَعْزَعتها حُقوقٌ أصبحَتْ أمّ حبترٍ تَشْكونى
زعمَتْ لى بأنَّنِي أفسُدُ المـاَ لَ وَأزْويهِ عنْ قضاءِ دُيونى
أمَّلتْ أنْ أكونَ عبداً لمـالى وَيُهنّـا بها معَ المـالِ دُونى

وهو القائل أيضاً :

لا أعُدّ الإقْتارَ عُدْماً وَلـكِنْ فَقْدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الإعْدام
من رجالٍ مِنَ الأقارب بادُوا منْ حذاقٍ همُ الرءوس العِظام
فهـمُ للمُـلاينـين أناةٌ وَعُـرَامٌ إذا يُراد الـعُرام
وسِمـاحٌ لدَى الـسـنين إذا ما قَحَط القَطرُ وَاستَقَلّ الرِّهام
ورجال أبوهُم وأبى عمْـ ـرو وَكَعْبٌ بيضُ الوجوهُ جِسام
وَشبابٌ كأنهمْ أسْدُ غيْل خالطت فرد حـدّهم أحْلام
وَكهـولٌ بَـنَى لهمْ أوّلُوهُمْ مأثُرات يَهابُهـا الأقوام
سُلِّط الدهرُ وَالمنون عليهم فلَهُمْ فى صَدَى المقابرِ هَامُ

وكذاكمُ مصير كلِّ أناسٍ   سوف حقًّا تبليهمُ الأيامُ
فعلى إثرهم تساقطُ نفسى   حسراتٍ وذكرُهمْ لى سقام

ومن قوله أيضاً :

يا عديًّا لقلبك المهتاج   إنْ عفا رسمُ منزلٍ بالنّباج
غيّرته الصَّبا وكلُّ مُلِثٍّ   دائم الودْق ذى أهاضيب داج
وحملنا غلامنا ثمّ قلنا   هاجرُ العيسِ ليس منك بناج
فانتحى مثلَ ما انتحى بازُ دجنٍ   جوَّعتهُ القنّاص للدرّاج

ومن شعر أبى دواد الذى يبدو منه تأثر امرئ القيس به فى وصف الفرس ، قوله : —

ومحجّلٍ خضبتْ قوائمهُ   وتراً ، وليسَ لشفعها خضبُ
إحدَى اليدين بها طلاقتُها   والغابراتُ نواصعٌ غرُبُ (١)
والمرفقانِ لهُ بما احتملا   كدعائمٍ عُرضت لها الخُشُبُ
وحماتهُ فى الساق آرزةٌ   وصلتْهما الرّبلاتُ والكعبُ (٢)
ونأتْ من الشمراخ رُثمتهُ   قدْرَ الرواجب بينها رتبُ (٣)

---

(١) الطلاقة المطلقة هى القائمة من الفرس ليس فيها بياض . الغابرات الباقيات .

(٢) الحماة اللحم المجتمع فى وسط الساقين من ظاهرها . آرزة شديدة مجتمع بعضها إلى بعض . الربلات الأفخاذ .

(٣) الشمراخ الغرة فى الفرس إذا دقت فى الجبهة وعلى قصبة الأنف . الرثمة كل بياض أصاب الجحفلة العليا أو أكثر . الرواجب قصب الأصابع . الرتب مقدار الفرق بين الخنصر والبنصر .

كَالسِّيد ما استقبلته وَإذا وَلىّ تقول : مُلَمْلَمٌ ضَرِبُ (١)
لأْمٌ إذا استعرضْتَه وَمشى متتابعاً ما خانهُ عَقْبُ (٢)
يمشِي كَمَشْي نعامةٍ تَبِعت أخرَى إذا هِىَ راعَها خَطْبُ

وَقد كان أبو دواد يقوم برعاية خيل المنذر ويسهر على خدمتها وهو المسئول عنها ولذلك نجده يحسن وصفها ، ويضمن شعره الكثير من تجاربه معها ، فيقول : —

قدْ بِتُّ رَبَّ الخيْل يوْمَ أَقُصُّها بمجامع الفيْفاء يُلْقِينَ الحَصَى
يُذْرِينَ جَنْدَل حائرٍ لجنوبها فكأنما تُذْكِى سَنَا بِكُها حُبَى (٣)
ولقد صَمَمْنَ فما يُجِبْنَ مُؤَيِّهاً ولقد نخلْنَ من القيادِ عَلَى الوَجَى (٤)
فى كل منزلةٍ وكل مُعَرسٍ سَخْلٌ تنَاجله الزَّجاجُ من الصَّلا (٥)
مُهْرٌ يُؤَبّنَ هالكاً أوْ مُهْرةٌ
كالفَلْقِ سُلَّ مِن القِراب ، قد انتَحَى (٦)
وكأن أسلاء الجيادِ شقائقٌ أو عُتْرُفانٌ قد تحشَّشَ لِلْبلَى (٧)

(١) السيد الذئب . ململم مجتمع الخلق . ضرب أى خفيف اللحم .
(٢) اللأم الشديد . عقب جرى بعد جرى .
(٣) يذرين يطرن . الحائر المكان المطمئن .
(٤) المؤيه الذى يصوت للخيل .
(٥) معرس منزل إقامة . الصلا استرخاء الصلوين وهما على جانبى الذنب لقرب نتاج الفرس .
(٦) الفلق الكسرة من الشىء ، ومن معانيه السهم .
(٧) الإسلاء جمع سلى ، الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا .

بكرتْ بأيديهم توجسُ حُرّةً نُفَساء شاخِصَةٌ تَلفَّعُ بالسَّلَى
يقفونهـا بالزاد وهى أثيرَةٌ
معصوبة الحِقْوَيْنِ من حَذَرِ الخَوَى[1]

ومن قوله فيها وفى غذائها .

دافَع المحلَ والشتاء ويبْس الـ ـعُودِ عنـه قَناعِسٌ أظْآرُ[2]
رَهِلاتٌ ضَرّاتهُنَّ مَهارِيـ ـسُ جلادٌ إذا شَتَوْن غِزارُ[3]
فقَصَرْن الشتاء بعـدُ عليـه هو للذوْدِ أنْ يُقسَّمْنَ جارُ

ومن قوله يصف سلامة بدنه من الأمراض وأنه ليس فى حاجة إلى طبيب بيطرى : —

أَيِّدُ القُصْرَيَيْنِ ما قِيدَ يوْما فيُعْنَى بصَرْعه بِبيطارُ[4]

أما غير عبيد وأبى دواد ممن تأثر بهم امرؤ القيس فقد قيل إن خاله المهلهل هو الذى علمه القريض ، وقد قدمنا أن امرأ القيس تأثر به من جهة الوراثة . والمعهود إلى عصرنا هذا أيضاً أن كل شاعر يستقى الشعر من الطبقة التى تحيط به ، ويتأثر بشعراء زمنه أو المتقدمين عليه ، ونحن نعلم أن امرأ القيس لقى التوأم اليشكرى وكانت بينهما مماتنة شعرية ، ولقى علقمة الفحل أيضاً والسموءل وصحب عمرو بن قميئة وجابر بن حنى وكانا يكبرانه سنا ، ومن

(١) الخوى خلو بطن الفرس عندما تلد .
(٢) قناعس نوق طويلة سنمة . أظآر ذوات ولد .
(٣) المهاريس من الإبل الشداد منها .
(٤) القصريان ضلعان يليان الترقوتين .

شعراء عصره ممن لم نعرف لقاءهم به الحارث بن عباد والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر وذو الأصبع العدوانى وهم أكبر منه سنًّا وأبعد زمنا ، ومنهم أيضاً سعد بن مالك جد طرفة ، وزهير بن جناب الكلبى ، ومن أقرانه طرفة والمتلمس . وغير هؤلاء من فحول شعراء الجاهلية ممن ذكرنا وممن لم نذكر ممن هو أكبر من امرىء القيس سنا ومات قبله أو غبر بعده أو أصغر منه ومات فى عهده أو بقى بعده ، وكلهم شاعر مفطور تبدو شاعريته ولو فى القليل من كلامه . على أن امرأ القيس وإن تأثر بمعاصريه فى أنحاء القول فإن هذا الأثر عندنا لا يعدو ارتفاع العقل ونضج الملكة ، وهو إن تأثر بهم فإنه والحق يقال ؛ له أثر كبير فيهم ، فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه ومؤثر فيه .

اثر امرىء القيس فى غيره

لا نرى العرب القدامى أعجبوا بشاعر إعجابهم بامرىء القيس فى جودة معانيه ، وابتداع الكثير منها ، وسلوكه فى زمانه مذهب المجددين المخترعين فى الأساليب . ولذلك فقد تأثر به الشعراء فى الكليات والجزئيات . أما أثره فى الكليات فقد قال العلماء إنه سبق الشعراء جميعاً إلى أشياء ابتدعها واستحسنها غيره من الشعراء واتبعوه فيها ، فهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وشبه النساء بالبيض والظباء والمها ، والخيل بالعقبان والعصى . وهو أول من قيد الأوابد ، وأول من رقق النسيب ، وفرق بين الغزل وغيره من فنون الشعر وهو أول من اخترع هذا الضرب من التشبيه المعروف عند علماء البلاغة بالتشبيه الملفوف فى مثل قوله :

كأَنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويابسًا　　لدَى وكْرِها العُنَّابُ والحشَفُ البالى

وهو أول من اخترع الاستعارة — كما قال ابن وكيع — فى قوله :

وليلٍ كموْجِ البحْرِ أرْخَى سُدولَه　　عَلَىَّ بأَنْواعِ الهمُومِ ليَبْتلى

فقلتُ له لماَّ تمطَّى بصُلْبِهِ　　وأرْدَفَ أعْجازا ونَاءَ بِكَلْكَلِ

فاستعار لليل سدولا يرخيها ، وصلباً يتمطى به ، وأعجازاً يردفها ، وكلكلا ينوء به

وهو أول من ابتكر هذا النوع من الاستعارة المعروف بالمماثلة أو التمثيل فى مثل قوله :

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاّ لِتَضْرِبِى　　بِسَهْمَيْكِ فى أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

فقد مثل عينيها بسهمي الميسر ، يعني المعلى وله سبعة أنصباء والرقيب وله ثلاثة أنصباء فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل .

وهو أول من اخترع التشبيه الوهمي في قوله :

أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيّ مُضَاجِعِي وَمسْنونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيَابِ أغْوَالِ

وهو أول من اخترع التشبيه المؤكد المحذوف الأداة ، وكان التشبيه قبله مع دخول الكاف وأمثالها أوْ كأنّ وما شاكلها .

وهو كما قال ابن رشيق أول من فتح باب تشبيه أربعة بأربعة والتشبيه بالإضافة في قوله :

له أيطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعامَةٍ وَإرْخاءُ سِرحان وَتَقْرِيبُ تَتفُلِ

وهو أول من استعمل هذا النوع المعروف بالتتبع في مثل قوله :

وتُضْحِي فتيتُ المسك فوْقَ فِراشها نَؤُوم الضّحَى لمْ تَنْتَطِق عنْ تَفضُّل

وقوله :

أمَرْخٌ خيامُهُم أمْ عُشُر أم القلْبُ في إثْرِهم مُنْحَدِرْ

وهو أيضاً أول من ابتكر هذا النوع المعروف بالإيغال في مثل قوله :

إذا ماجَرَى شأْوَيْن وابتَلّ عِطْفُه تقَول هَزيز الريح مرّت بأثاب

* * *

أما أثر امرىء القيس في الجزئيات فهذا باب واسع نأتى منه بما يتسع له المقام :

قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيهم   يقولون لا تَهْلك أَسًى وتجمل

فقال طرفة :

وقوفا بها صحبي عَلَيّ مطيهم   يقولون لا تهلِك أسى وتجلد

وقال امرؤ القيس يصف فرسه :

ويخطو عَلَى صمٍّ صِلابٍ كأنها   حجارةُ غيل وَارِساَتٌ بطحلب

فقال النابغة :

كأنَّ حوامِيَه مُدْبرا   خَضِبْنَ وَإنْ كَانَ لَمْ يُخْضب
حجارة غَيْل برَضْرَاضَة   كُسِين طِلاء من الطحلب

وَقال امرؤ القيس يصف الليل :

وَليلٍ كموْج البحر أرخَى سُدوله   عَلَيَّ بأنواعِ الهمُومِ ليبْتَلى
فقلتُ له لمَّا تمطَّى بصُلبِه   وَأَرْدَفَ أعْجازا وَنَاء بكَلْكَلَ
ألاَ أيُّها اللَّيْل الطوِيل ألا انجلِ   بصُبح وَما الإصْباحُ مِنْك بأمْثل
فيا لَكَ من لَيْلٍ كأَنَّ نُجُومه   بكلِّ مُغار الفَتْل شدَّتْ بِيَذْبُل
كأَنّ الثريا عُلقتْ فى مُصامِها   بأمْراس كَتَّان إلى صمِّ جَنْدل

وتابعه فى ذلك الوصف النابغة فقال :

كِليني لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ   وليلٍ أقاسِيهِ بطىء الكَواكِب
تطاوَل حتىَّ قلْتُ لَيس بمنقَضٍ   وَلَيس الذى يَرْعَى النجُومَ بآئِب
وَصدرٍ أراحَ اللَّيْلُ عازبَ همِّهِ   تضاعَفَ فيه الحزْن من كلِّ جانب

وقد اختلف الوليد بن عبد الملك مع أخيه مسلمة فى أى الشعرين أحسن فى وصف الليل ، أشعر إمرىء القيس أم شعر النابغة ؟ واحتكما إلى الشعبى فقضى لامرىء القيس .

ويظهر معنى بيت امرىء القيس :

كأَنّ الثريا عُلقت فى مُصامها ... بأمْراس كَتّان إلى صمّ جَندل

فى قول الأرّجانى :

يُخَيل لى أنْ سُمِّر الشهْبُ فى الدُّجا ... وشدّتْ بأهْدَابى إليْهن أجْفَانى

ومن مخترعات امرىء القيس المتنازعة فى الحسن قوله :

سَمَوْت إليها بعدَ ما نام أهْلُها ... سموّ حَباب الماء حَالا عَلَى حَال

وقد قلده فيه شاعر متأخر فقال :

أدُبّ إليها دَبيبَ الكرَى ... وأسْمو إليها سمُوّ النفس

وتابعه فيه أيضاً وضّاح اليمن فولد منه معنى مليحاً قال :

فاسْقُطْ علَيْنا كسُقوط الندّى ... ليلةَ لا ناهٍ ولا زَاجِرُ

وقلده فيه أبو تمام بعد أن عدل به إلى وجه المديح فقال : —

سَمَا للعُلا من جانبَيْه كِلَيْهما ... سموّ حَباب الماء جَاشَتْ غَوارِبه

وما قيل فى إخفاء الحركة والدبيب أبلغ ولا أبرع من بيت امرىء القيس وهو أول من طرق هذا المعنى فيه وابتكره .

ومن البديع قول امرىء القيس فى أذنى الفرس :

وسامِعَتان يعْرُف العِتْقُ فِيهما ... كسامِعَتَىْ مَذْعُورة وَسْطَ رَبْرب

اتبعه طرفة فقال فيه : —

وسامعتان يُعرَف العتق فيهما كسامعتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَد

ومثله قول امرىء القيس فى وصف الفرس : —

وعينان كالماوِيّتَيْنِ ومِحْجَر إلى سـنَدٍ مثلِ الصفيحِ المنَصّب

فقال طرفة فى وصف عينى ناقته : —

وعينان كالماوِيّتَيْنِ استكَنّتا بكَهْفَىْ حِجاجَىْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ

وقال امرؤ القيس : —

إذا ما الثريّا فى السّماء تعرّضَت تعرّضَ أثناء الوِشاحِ المفصّـل

فاتبعه ابن الطثرية وقال :

إذا ما الثريا فى السماء كأنّهـــا جمانٌ وَهَى من سِلْكه فتَبَدّدا

وقال امرؤ القيس :

فلو أنّها نفسٌ تموتُ جميعــةً ولـكنّها نفسٌ تَســاقَطُ أنْفُسا

فأخذه ابن الرومى وقال : —

فيالَكِ من نَفْسٍ تَساقَطُ أنفُسًا تَساقُطَ دُرٍّ من نِظَامٍ بلاَ عِقْد

وقال امرؤ القيس :

كبِكْرِ المُقاناةِ البياضِ بصُفْرةٍ غذاها نَميرُ المـــاء غيرُ المحَلّل

فتبعه فيه غيلان ذو الرمة فقال : —

نجلاء فى برَجٍ ، صَفْرَاء فى نَعَجٍ كأنّها فِضّـــةٌ قدْ مَسّها ذَهَبُ

واتبعه فيه أمير الشعر فى العصر الحديث (شوقى بك) فقال :

حَفّ كأسَهـــا الحَبَبُ فهْىَ فِضّــــــــةٌ ذَهَب

وقال امرؤ القيس :

كأنّيَ لم أركب جوادا للذةٍ ولم أتبطَّن كاعباً ذاتَ خلخال
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولمْ أقُلْ لخيليَ كُرِّى كرّةً بعدَ إجفال

فأخذه عبد يغوث وقال :

كأنيَ لم أركبْ جواداً ولم أقُلْ لخيليَ كُرِّى نفِّسِى عنْ رجاليا
ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولَمْ أقُلْ لأيسار صدقٍ عظّمُوا ضوءَ ناريا

وقال امرؤ القيس :

تنوَّرْتُها من أذرعاتَ وأهلُها بيثرب أدنى دارها نظرٌ عال(١)

فأخذه الحارث بن حلزة وقال :

فتنوَّرْتُ نارها من بعيـــدٍ بخزّان هيهاتَ منكَ الصِّلاء

ومثله أيضاً قول الآخر :

أليسَ بصيراً من رأى وهو قاعدٌ بمكّة أهل الشّام يختبرُون

وقال امرؤ القيس فى وصف الناقة :

وعُنْسٍ كألواحِ الأرانِ نسأتُها على لاحبٍ كالبُرْدِ ذِى الحبرَات

---

(١) قال الوزير أبو بكر قد فوضل بين غلو امرىء القيس فى هذا البيت وغلو مهلهل فى قوله :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

وبين حجر وهى قصبة اليمامة وبين مكان الواقعة عشرة أيام فقيل هو أشد غلوا من امرىء القيس لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد إدراكا .

فقلده طرفة وقال :

وعُنس كألواحِ الأران نَسَأتُها عَلَى لاَحِبٍ كأنّه ظَهْر بُرْجُدِ

وقال امرؤ القيس فى طباع النساء :

أَرَاهُنّ لا يُحْبِبْنَ مَنْ قَلّ مالُهُ ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فيهِ وَقَوّسَا

فاتبعه علقمة وقال :

فإنْ تَسْألونى بالنِّسَاءِ فإنّنى خَبيرٌ بأدْواءِ النِّسَاءِ طَبيبُ

إذا شابَ رأسُ المرْء أو قَلّ مَالُهُ فلَيْسَ لَهُ فى وُدّهنّ نَصِيب

يُرِدْنَ ثراء المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ وشرخُ الشّبابِ عِنْدَهنّ عجيب

وقال امرؤ القيس :

يضىء الفِراش وجْهُها لضَجِيعها كمصباحِ زيْتٍ فى قناديل ذُبّال

فتعاورت الشعراء هذا البيت وزادت فيه ، قال أبو الطيب المتنبى :

أمِنَ ازْدِيارَكَ فى الدّجا الرُّقباءُ إذْ حَيْثُ كُنْتَ من الظّلام ضِيَاء

ومثل قول امرىء القيس :

قِفا نبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومَنْزِلِ بِسَقْطِ اللّوَى بَيْن الدخُول فحَوْمَل

قول البحترى :

لَمَا مَنْزِلٌ بيْنَ الدّخُول فتوُضَح متَى تَرَه عيْن المتيّم تَسْفَح

وقال امرؤ القيس :

إذا مَا الضّجيعُ ابتزّها من ثيابها تَميل عليْه هُونَةً غير مجْبال

وقال أيضاً :

فلما تنازَعْنا الحديثَ وأسْمَحَتْ هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذِى شَمارِيخَ مَيّال

فتابعه النابغة الجعدى في بعض ألفاظ البيت الأول ، وفي معنى البيت الثانى ، فقال :

إذا ما الضَّجِيعُ ثَنى عِطْفَهــا تثنت عليه فكانَتْ لِباســا

وقال امرؤ القيس :

كَأَنَّ الحصَى من خَلفِها وأمَامَها إذا نجلَتْه رِجْلُها حذفُ أعْسَرَا

فأخذه الشماخ وقال :

لها مِنسمٌ مثلُ الحِجارَة جَفَّة كأن الحصا من خلفه حذفُ أعسرا

وقال امرؤ القيس :

كُمَيْت يزلُّ اللّبْدُ عنْ حالِ مَتْنِه كما زَلَّتْ الصَّــفْوَاءُ بالمتَنزَّل

فقاله أوس بن حجر : —

يزل قُتود الرَّحْل عن دأْيَاتِها كما زلّ عنْ عظم الشجيح المُحارِف

وقال امرؤ القيس يصف الفرس :

سليمُ الشَّظا عَبْل الشَّوى شَنِجُ النَّسا لَهُ حَجَبَاتٌ مُشْرِفَاتٌ عَلَى الْفَالِ

فتابعه كعب بن زهير وقال :

سليم الشظا عبْل الشَّوى شنج النسا كأنَّ مكانَ الرِّدْفِ مِنْ ظَهرِه قَصْرُ

وقال امرؤ القيس فى الخمر : —

فلمَّا استَطابوا صُبَّ فى الصَّحْنِ نِصفُهُ وشُجَّت بماء غيرِ طَرْق ولا كَدِرِ

بماء سحابٍ زَلَّ عنْ مَتْن صَخْرَةٍ إلى بَطْنِ أخْرَى طيّبٍ ماؤها خَصِر

فأخذه كعب وقال : —

شُجَّتْ بذِى شَبَمٍ منْ ماءِ مَحْنِيَةٍ صافٍ بأَبْطَحَ أضحَى وهْوَ مَشْمُولِ

تَنْفِى الرِّيَاحُ القَذَى عَنْهُ وأفْرَطه منْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بيضٌ يَعَالِيل

ويشاكل معنى البيت الأول من بيتي امرىء القيس قول أبي نواس : —

قَرَارَتُها كِسْرَى وفِي جَنَبَاتِها مَهًى تَدَّرِيها بالقسِيِّ الْفَوارِسُ
فلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُها ولِلماء ما دَارَتْ عَلَيْه الْقَلاَنِس

وقال امرؤ القيس :

وما المرْء ما دامَتْ حُشَاشَةُ نفسه بمدرِكِ أطرَافِ الخطُوبِ ولاَ آلى

فقلده فيه شاعر آخر فقال : —

نروحُ ونَغْـــدو لحاجَاتِنا وحَاجَةُ مَنْ عاشَ لا تَنْقَضِى

وقال غيره : —

تموتُ مع المـــرْء حَاجاتُه وتَبْقى لَهُ حاجَـــةٌ ما بَقِى

وإن من يقرأ قصيدة امرىء القيس وقصيدة علقمة اللتين احتكما فيهما إلى أم جندب يرى فيهما أبياتاً كثيرة مشتركة فى ألفاظها ومعانيها مثل قول امرىء القيس : —

وعيْنٍ كمرآةِ الصَّـــنَاع يديرُها بمحجَرَها من النَّصيفِ المثقب

وقول علقمة :

بعين كمرْآة الصــناع يديرها بمحجرها من النّصيف المثقب

ومثل قول امرىء القيس :

بمنجردٍ قيْـدِ الأوابدِ لاَحهُ طِرادُ الْهوَادِى كلَّ شأوٍ مغَرَّب

قاله علقمة بهذا اللفظ عينه أيضاً :

ومثل قول امرىء القيس :

كأنّ عيونَ الْوَحْشِ حوْلَ خبَائِنا وأرْحُلُنا الجزْعُ الذى لَمْ يُثقّب

وقوله أيضاً :

وقد اغتدِى والطّير فى وَكَناتِها ... وماءُ النّدَى يجرِى علَى كُلّ مِذنب

قالها علقمة بلفظهما أيضاً :

وكقول امرىء القيس :

فعادَى عِداء بينَ ثوْر ونعجةٍ ... وبين شَبُوبٍ كالقَضِيمَة قَرْهَب

قاله علقمة :

وعادَى عداء بين ثورٍ ونعْجة ... وتيسٍ شَبُوبٍ كالهشِيمَة قَرْهَب

وغير ذلك من المعانى والألفاظ المشتركة التى يجلوها على القارىء تصفح القصيدتين وهما فى ديوان كل منهما فى كتاب العقد الثمين وفى مهذب الأغانى أيضاً :

وقال امرؤ القيس :

فأدْركهُنّ ثانيـا من عِنانه ... كغيْث العشِىّ الأقهَب المتوَدِّق

ومثله قول علقمة .

فأدْرَكهنّ ثانيًا من عِنانه ... يمـرُّ كمرّ الرائح المتحَلِّب

وقال امرؤ القيس :

لهَا ذَنَبٌ مثْـلُ ذيلِ العَروس ... تسُدّ بِهِ فَرْجَهـا مِنْ دُبرْ

فقلده خداش بن زهير وقال :

لهـا ذنَب مثـل ذَيْل الهَدِىّ ... إلى جُـؤْجُـؤ أيْدِ الزّافِر

وقال امرؤ القيس :

ولوْ أنّ ما أسْعى لأدْنى معيشةٍ ... كَفانى ولمْ أطْلُبْ قليلٌ من المال

ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثّل وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤثّلَ أمثالى.

وقد أخذ هذين البيتين وبسط معناهما خفاف بن غضين البرجمى فقال :

ولو أنّ ما أسعَى لنفْسِي وَحْدَها لزادٍ يَسِيرٍ أوْ ثِيابٍ على جِلْدِى

لهانَ على نفسِي وبَلّغَ حَاجَتى منَ المالِ مالٌ دونَ بَعْضِ الذى عِندى.

ولكنّما أسْعَى لمَجْدٍ مؤَثّلٍ وكان أبى نالَ المكارِمَ عَنْ جَدِّى.

وقال امرؤ القيس :

وقدْ اغتَدى والطيْرُ فى وَكَناتِها بمنجَرِدٍ قيدِ الأوَابِدِ هَيْكل

فاقتدى به الناس واتبعه الشعراء وولدوا من قوله قيد الأوابد معانى أخرى ، فقيل قيد النواظر ، وقيد الألحاظ ، وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان . قال الأسود بن يعفر :

بمقلّصٍ عتِدٍ جَهِيرٍ شَدُّهُ قيْدِ الأوَابِدِ والرِّهانِ جوادِ

وقال أبو تمام :

لها مَنْظَرٌ قَيْدُ النواظر لم يزَلْ يَروحُ ويغدُو فى خَفارَته الُحبّ

وقال آخر :

ألحاظُه قَيْدُ عُيُونِ الوَرَى فلَيْسَ طرْفٌ يتَعَدّاه

وقال آخر :

قَيّدَ الُحسْنُ عليْه الحدَقان

وكذلك قول أبى الطيب :

أجْلُ الظّليم وربِقَةُ السِّرحان

وقال امرؤ القيس :

وإنّ شِفائى عَبْرةٌ مُهْراقَة   فهلْ عِندَ رَسْمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوّل

فتابعه ذو الرمة وقال :

لعل انْحِدار الدّمْع يُعقِبُ رَاحَةً   من الوَجْد أوْ يَشْفِى نجِيَّ البَلاَبِل

وتابعه أيضًا الحسن بن وهب وقال :

إبْكِ فما أكْثَرَ نَفْعَ البُكَا   والحُبّ إشْفاق وتعْليل

وهْوَ إذا أنْتَ تَأمَّلْتَه   حُزْن على الخدينْ مَحْلُول

وتابعه الفرزدق فقال :

فقُلْتُ لها إنّ البُكاء لرَاحَةٌ   بهِ يُشْتَفَى مَنْ ظَنّ أنْ لاَ تَلاَقِيا

وقلده أبو تمام أيضاً فقال :

واقِعًا بالخدودِ والبرْدُ مِنْهُ   واقعٌ بالقُلوبِ والأكْبَادِ

وقال امرؤ القيس :

ألاَ أيّها اللّيْلُ الطّوِيلُ ألاَ انْجَلِ   بصبحٍ وما الإصْباحُ مِنْك بأمْثل

فأخذه الطرماح بن حكيم الطائى ، وقاله بلفظه ومعناه فى مطلع قصيدة له :

ألاَ أيّها اللّيْل الطويل ألاَ اصْبِحِ   بِيَمٍّ وما الإصْباح فِيكَ بأرْوَح

وأخذه ابن عيينة أيضًا ، وجعله فى الشوق إلى الوطن فقال :

طالَ من ذِكره بجُرْجان ليلِى   ونهَارِى علىّ كاللّيْل داجِى

وقال امرؤ القيس :

إذا رَكِبُوا الخيْلَ واسْتَلأَمُوا   تحرّقتْ الأرضُ واليومُ قرّ

فأخذه نهشل وقال :

وَيوم ٍ كأنَّ المصْطَلِينَ بِحرّه وإنْ لَمْ يكُنْ حرٌّ قِيامٌ عَلَى جَمْرِ

ومثله قول الطائى :

ويوم ٍ يَظَلّ العِزُّ يحفَظُ وَسْطَه إِسِرّ العَوَالى والنُّفوس مُضَيّعُ
مَصيفٌ من الهيْجَا ومنْ جَمْرَةِ الوَغَا
ولكِنهُ مِنْ وَابِلِ الدَّمْعِ مَرْتَعُ

وقال امرؤ القيس :

وسالِفَةٌ كَسَحُوقِ الليـــا نِ أضْرَمَ فيها الْغَوِىّ السُّعُرْ

ومثله لطفيل :

كأنّ على أعرافِهِ ولِجامِهِ سناَ ضَرَمٍ من عرْفج مَتَلَهّبِ

ومثله للعجاج :

سَفْوَاء سَرْخَاء تُبارِى مُغْلِجا كأنّما يَسْتَضْرِمَان العلفَجا

وقال امرؤ القيس :

ألَمْ تَرَايَانِى كلما جِئْتُ طَارِقًا وجَدْتُ بِها طِيباً وإنْ لَمْ تَطَيّبِ

فقلده فيه أبو الطيب المتنبى وأجاد فيه فقال :

أَتَتْ زائِراً ماخَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَها وكالمِسْك فى أرْدَانِها يَتضَوَّعُ

وقال امرؤ القيس :

وإنّكَ لَمْ يَفْخَر عَلَيْكَ كَفاخِرٍ ضَعِيفٍ ولَمْ يَغلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

أخذه أبو تمام فقال :

وضَعِيفَةٍ إذْ أمْكَنتْ عَنْ قُدْرَةٍ قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعفاء

وقال امرؤ القيس :

تراهنّ من تحتِ الغبار نواصلا ويخرجن من تحت الثرى متنصّب

فتابعه طفيل وقال :

إذا هبطت سهلا حسبت غباره بجانبه الأقصى دواخن تنصب

وقال امرؤ القيس :

من القاصرات الطّرف لو دبّ محوِلٌ
من الذّرّ فوقَ الإتبِ منها لأثّرا

فقال أبو الطيب مقلداً هذا المعنى :

وخصرٍ تثبتُ الأبصارُ فيهِ كأنّ عليهِ من حدقٍ نطاقا

وقلده حميد بن ثور أيضاً فقال :

منعّمة بيضاء لو دبّ محوِلٌ على جلدِها بضّتْ مدارجُه دما

وقال امرؤ القيس :

فبعضَ اللّوم عاذلتي فإنّي ستكفيني التّجاربُ وانتسابي

ومثله قول لبيد :

فإنْ أنتَ لم ينفعْك علمُك فانتسِب
لعلّكَ تهديكَ القرُونُ الأوائل
فإنْ لمْ تجدْ من دونِ عدْنان والدًا
ودُونَ معدٍّ فلتدعْك العوَاذِل

وقال امرؤ القيس :

وباتَ إلى أرْطاةِ حِقفٍ كأنّها إذا ألثقتْها غبيةٌ بيتُ مُعرِسِ

ومثله قول ذى الرمة :

إذا استهلّت عليه غَبْيَةٌ أرَجَت مَرَابِض العِير حتَّى مازَجَ الخَشَب

كأنّهُ بَيْتُ عَطَّارٍ يُضَمِّنُه لَطائِمَ المِسْك يَحْوِيها ويَنْتَهب

وقال امرؤ القيس :

وشمـائِلِي ما قَدْ علِمْت وما نَبَحت كلابُك طارِقاً مِثْلِي

فقلده عنترة وقال :

وكما علِمْتِ شمائلى وتَكرُّمِى

ويظهر أثر امرىء القيس فى قصيدة لبيد التى مطلعها « ألم تلم على الدمن الخوالى » التى يقول فيها :

أصاح ترَى بُرَيْقا هبّ وهْنًا كمصْباح الشَّعِيلَةِ فى الذُّبال

أرِقْتُ لَهُ وأنجَدَ بعْدَ هَدْءٍ وأصْحَابى عَلَى شُعَبِ الرِّحالِ

يُضِىءُ رَبابُهُ بالمزْنِ حِبْشاً قِيَاماً بالحِرَاب وباللآلِ

وأصبَحَ رَاسياً برُضَام دَهْرٍ وسالَ بِهِ الخمائِلُ فى الرِّمال

وحطَّ وُحوشَ صَاحَةَ من ذَرَاها كأنَّ وُعُولَهَا رَمْك الجِمال

على الأعْراض أيْمَنُ جَانِبيْه وأيْسَرُه عَلَى كُورَىْ أثال

أقُولُ وصَوْبُهُ مِنِّى بَعِيدٌ يَحُطُّ الشَّثَّ مِنْ قُلَلِ الجِبال

سقَى قَوْمى بَنِى مَجْدٍ وأسْقَى نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلَال

وقد تبع امرأ القيس فى غزله ودبيبه وتعرّضه عمرُ بن أبى ربيعة . ويظهر أثر ذلك فى قصيدته التى مطلعها :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ غَدَاةَ غَدٍ أمْ رَائِحٌ فمُهَجِّر

وأيضًا فى قصيدته التى مطلعها :

أَلَمْ تَسْأَلِ الأَطْلَالَ فالمتَرَبّعا ببطن خليّاتٍ دَوَارِسَ بَلْقَعا

ومن أحسن معانى امرىء القيس عند اليأس من الحب والهوى ذلك المعنى الذى اتبعه الشعراء فيه ولا يزالون يتبعونه إلى عصرنا هذا وهو قوله :

أماوِىّ هلْ لِى عِنْدَكُم مِنْ مُعَرّس
أم الصرْم تختَارِينَ بالوَصْل نَيْأَسِ

أبِينِى لنَا إن الصريمة رَاحة من الشّك ذِى المخْلُوجَةِ المتَلَبّسِ

قلده فيه ابن ميادة فقال :

فلاَ صَرْمُه يَبْدُو وفِى الْيَأْسِ رَاحَةٌ
ولاَ وَصْلُهُ يَصْفُو لنَا فَنُكَارِمُه

وقال شاعر ناشىء « المؤلف » :

لوَ انَّ هــذا الصدودَ هَجْرٌ لـكُنْتُ أرتاحُ مِنْ شُجُونى

ومن مخترعات امرىء القيس أيضًا قوله فى عرفان الأطلال الدارسة بما فى نفسه من الشغف إليها :

لمن طَلَلٌ دَارِسٌ آيهُ أضَرّ بِهِ سَالِفُ الأحرُسِ
تُنْـكِرُهُ الْعَيْنُ مِنْ جَانبٍ ويَعْرِفُهُ شَغَفُ الأنفُسِ

وقد قلده فيه أبو نواس فقال :

ألاَ لاَ أرَى مِثْلِي امْتَرَى الْيَوْمَ فِى رَسْمٍ
تُغَصّ به عَيْـــنِى ويَلْفِظُـه وَهْمِى

أتَتْ صُوَرُ الأشيَاء بَيْنِى وبينَهُ فظنّى كلاَ ظَنٍّ وعِلْمِى كَلاَ عِلْمِ

وقد قلده فيه أيضاً شاعر قرشي فقال :

لَوْ بُدِّلَتْ أعْـــلَى مَنَازِلِها سُفْلاً وأَصْبَحَ سُفْلُهَا يَعْـلُو
لعَرَفْتُ مَغْنَاها بِمَا احْتَمَلَتْ مِنِّي الضُّـــلُوعُ لأَهْلِهَا قَبْلُ

وقد سمع بعض النقاد منشداً ينشد بيتي القرشي فقال ما بقي على هذا إلا أن يدعو على ديار صاحبته بحجارة من سجيل تجعل عاليها سافلها .

وأخذ المعنى من امرىء القيس أيضاً شاعر آخر فأحسن وأجاد وجعل الحديث عن هداية راحلته فقال :

لا تَقِفْها عَلَى السَّبيل ودَعْها يَهْدِها شَوْقُ من عَلَيْهَا السَّبِيلا

هذا ما وسعه المقام من التنبيه على بعض معاني امرىء القيس التي سلكها في شعره والتي قلده فيها شعراء عصره ومن أتى بعده .

من معين القرآن الكريم
استعمالات لفظية وصور فنية
فى شعر امرئ القيس

لما كان القرآن الكريم قرآنا عربياً غير ذى عوج ، نزل بلسان مبين ، فيه مثل مافى كلام العرب من اللفظ المختلف ، ومجاز المعانى ، فنحن نذكر هنا بعضاً من أشعار امرئ القيس التى توافق فيها مع القرآن الكريم من حيث الألفاظ ومعانيها ، ومن حيث الاستعمال اللغوى ، فمن ذلك قول امرئ القيس :

قِفَا نَسْأَلِ الأَطْلاَلَ عن أمِّ مالكٍ وهلْ تُخْـبِرِ الأطْلالُ غيرَ التّهالكِ

فقد علم أن الأطلال لا تجيب إذا سئلت ، إنما معناه قفا نسأل أهل الأطلال وقال تعالى : (واسْأَلِ الْقَرْيَةَ التى كُنَّا فِيهَا) يعنى أهل القرية .

ومثل ذلك قول امرئ القيس أيضاً : —

أَبَتْ أَجَاً أَنْ تُسْلِمِ العامَ جَارها فمن شاء فلْيَنْهَضْ لها مِن مُقاتلِ

أى أبَتْ القبيلة التى تحل أجأ

وقال امرؤ القيس : —

وتَبرَّجَتْ لَتَرُوعَنَا فَوَجَدْتُ نَفْسِى لَمْ تُرَعِ

وقال تعالى : (غَيْر مُتَبرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) والتبرج هو أن تبدى المرأة زينتها .

وقال امرؤ القيس :—

وماء آسِنٍ بَرَكَتْ عَلَيْه كأنَّ مناخَها مَلْقَى لِجَامِ

والآسن المتغير قال تعالى (فِيهَا أَنْهارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِنٍ) أى غير متغير

وقال امرؤ القيس : —

أَلاَ زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ الْيَوْمَ أَنَّنِي
كَـبِرْتُ وَأَلاَّ يُحْسِنُ السِّرَّ أَمْثَالى

والسر النكاح . قال تعالى : (ولَـكِن لا تُوَاعِدُوهِنَّ سِرًّا)

وقال امرؤ القيس : —

أَرَانا مُوضِعِين لأَمْرِ غَيْبٍ ونُسْحَر بالطعَامِ وبالشَّرَاب

وقال تعالى : (وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَـكُمْ يَبْغُونَـكُمْ الْفِتْنَة) والإيضاع ضرب من السير .

وقال امرؤ القيس : —

خَفَاهُنَّ من أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّب

خفاهن يعنى أظهرهن . قال تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها) أى أظهرها .

وقال امرؤ القيس : —

أَيَا هِنْد لا تَنـكِحِي بُوهَةً عليـهِ عَقِيقَتَه أَحْسَبَا

والنـكاح الزواج قال تعالى : (فانـكِحُوا مَا طَاب لَـكُمْ مِنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاع) أى تزوجوا .

وقال امرؤ القيس : —

وأَضْحَى يَسِحُّ الماء حَوْلَ كَتِيفَةٍ يكُبُّ عَلَى الأَذْقَانِ دَوْحَ الْـكَنَهْبَل

وقال تعالى : (يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا) والأذقان جمع ذقن وهى مجتمع اللحيين ، وقال الوزير أبو بكر الأذقان الوجوه .

وقال امرؤ القيس : —

أَلَمْ أُنضِ المَطِىَّ بِكُلِّ خَرْقٍ أَمَقِّ الطُّولِ لَمَّاعِ السَّرَابِ

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) والسراب مايبدو للمسافر وقت الظهيرة فى الصحراء كأنه ماء وذلك بتأثير انعكاسات الضوء فى الطبقات الجوية .

وقال امرؤ القيس : —

فَمَا دَافَعُوا عَنْ رَبِّهِمْ وَرَبِيبِهِمْ وَلاَ آذَنُوا جَاراً فَيَظْعَنُ سَالِمَا

والرب السيد قال تعالى (ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ) أى سيدك .

وقال امرؤ القيس : —

تَظَلُّ الطَّيْرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ وَتَنْتَزِعُ الحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

والعاكف المقيم قال تعالى : (سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ)

وقال امرؤ القيس : —

وَلِلسَّوْطِ فِيهَا مَجَالٌ كَمَا تَنَزَّلَ ذُو بَرَدٍ مُنْهَمِرِ

والمنهمر السائل المنصب قال تعالى : (بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)

وقال امرؤ القيس : —

فيا رُبَّ مَكْرُوبٍ كَرَرْتُ وَرَاءَهُ

وعانٍ فَكَكْتُ الْغُلَّ عَنْهُ فَفَدَّانِي

والثانى الذليل الخاضع المهطع المقنع ، قال تعالى (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ) أى خضعت وذلت . والغل وثاق يوضع فى العنق أو اليد قال تعالى (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا) .

وقال امرؤ القيس : —

وَلَمْ يَرَنَا كَالِىءٌ كَاشِحٌ   وَلَمْ يُفْشَ مِنَّا لَدَى الْبَيْتِ سِرّ

والكالىء الحافظ والمراقب قال تعالى (قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ)

وقال الجرجانى فى قول امرىء القيس (ما حديث الرواحل) من قوله :

دَعْ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فى حُجُرَاتِهِ

وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

تفخيم وتهويل مثل قوله تعالى (الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ)

قال نافع ابن الأزرق لعبدالله بن عباس : أرأيت قِيلَ عزَّ وجلّ : «واللّيلِ إذا عَسْعَسَ » ما معناه ؟ فقال ابن عباس : عسعس أقبلت ظلمته ، فقال له نافع فهل كانت العرب تعرف هذا ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

عَسْعَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ ادَّنَى   وَكَانَ لَهُ مِنْ نَارِهِ مُقْبِسُ

وقد امتن على امرىء القيس رجل من طيىء بمنة فقال يعاتبه :

أفسَدْتَ بالمنِّ ما أوْليتَ مِنْ نعم   ليْس الكريمُ إذا أسْدَى بِمَنَّانِ

وهذا فى معنى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بالمنِّ وَالأَذَى » .

ويقول امرؤ القيس :

وَبيضَةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤُها   تمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غَيْرَ مُعْجَلِ

ويقول أيضاً :

من القاصِراتِ الطرفِ لوْ دَبَّ مُحْول مِنَ الذَّرِّ فوْقَ الإتْب منها لأثَّرا

ويقول الله تعالى فى مثل ذلك (وَعِنْدَهُم قاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِين كأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُون) .

ومثل هذه الاستعمالات التى وردت على لسان امرئ القيس من معين القرآن الكريم ، ما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنه كان على المنبر يوماً . فقرأ قوله تعالى : « أوْ يأْخُذَهُم عَلَى تَخَوُّفٍ » ثم سأل عن معنى التَّخَوُّف ، فقال له رجل مِنْ هذيل : التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشده قول الشاعر : —

تخوّف الرَّحْل منها تامِكاً قَرِداً كما تخوّف عُودَ النبعة السَّفَنُ (١)

* * *

وغير ذلك كثير وكثير مِن الاستعمالات الواردة فى شعر امرىء القيس وأضرابه ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، وخير الزاد ما بلغك المحل .

(١) التامك السنام العظيم . والقرد بوزن نمر الكثير القردان جمع قرادة ، وهى دويبة تعلق بالبعير ونحوه من الدواب . والنبعة الشجرة التى تتخذ من غصونها السهام والقسى . والسفن بوزن سبب الحديدة التى يبرى بها خشب القوس .

حكم امرىء القيس وأمثاله

من ذلك قوله :

أَلاَ إِنَّ بَعْدَ العُدْمِ لِلمَرْءِ قُنْوَةً ... وَبَعْدَ المَشِيبِ طُولُ عُمْرٍ وَمَلْبَسَا

كَذَلِكَ جَدِّى ما أُصَاحِبُ صَاحِبًا ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَانَنِى وَتَغَيَّرا

فاقْصِرْ إِلَيْكَ من الوَعيد فإنّنى ... مِمّا أُلاَقِى لا أَشُدُّ حِزامِى

لا حِمْيَرِىٌّ وَفَى وَلا عَدَسٌ ... وَلا اسْتُ عَيْرٍ يَحُكُّها الثَّفَر

أَرَى المرءَ ذا الأَذْوَاد يُصبِح مُحرِضا ... كإحْرَاضِ بِكرٍ فى الديارِ مَرِيضِ
كَأَنَّ الفتى لم يغْنَ فى الناسِ ساعةً ... إذا اختلفَ اللَّحْيَانِ عند الجرِيضِ

وَمِن الطريقَةِ جائِرٌ وهُدى ... قصدُ السَّبيل ومِنْهُ ذو دَخَلِ

الخيْرُ ما طَلَعَتْ شمسٌ ولا غربَتْ ... مُطَلَّبٌ بنواصى الخيل معْصُوبُ

فلو أَنَّها نفسٌ تموتُ جميعةً ... ولكنّها نفسٌ تَسَاقَطُ أَنفُسا

وكلّ مكارمِ الأخلاقِ صارَتْ ... إليه هِمَّتِى وبهِ اكْتِسَابِى

دعْ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فى حُجُراته ... ولكِنْ حديثًا ما حديثُ الرَّواحل

أَرَاهُنَّ لا يُحبِبْنَ من قلَّ مالهُ ... ولا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيبَ فيه وقوَّسا

فإنكَ لمْ يفخرْ عليكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يَغلبكَ غيرُ مُغلَّب

ألاَ إنّما الدهرُ ليالٍ وأعْصُرُ وليسَ على شئ قويمٍ بمُستمِرّ

وقدْ طوّفتُ في الآفاقِ حتى رَضِيت من الغنيمة بالإياب

وقاهُمْ جدُّهم ببنى أبيهم وبالأشقين ما كانَ العَذابُ

وما المرء ما دَامتْ حُشاشَة نَفْسِه بمدْرِك أطرافِ الخطوبِ ولا آلى

أرانا مُوضِعِين لأمْرِ غَيبٍ ونُسحَر بالطّعام وبالشّراب
عصافيرٌ وذبّان ودُود وأجْرأ من مُجلَّحَة الذّئاب

واللهُ أنجحُ ما طلبتَ بِه والبِرّ خيرُ حقيبةِ الرّجل

إلى عِرْق الثرى وَشَجتْ عُرُوقى وهذا الموْت يَسْلبنى شَبابى
ونَفسى سَوْفَ يَسلبها وَجرْمى فيلْحِقُنى وشيكاً بالتراب
وأعْلمُ أننى عمّا قليلٍ سأنشب فِي شبا ظُفْرٍ ونَاب

إذا المَرْءُ لم يخزُن عليه لِسانهُ فليْسَ عَلَى شَيء سِواهُ بخزّان

أقامَتْ على مابيننا مِنْ مَوَدَّةٍ أمَيمَةُ أمْ صَارتْ لقوْل المخبب

َرُبَّ رامٍ مِنْ بنى ثُعلٍ مُتلِجٍ كفيه فى قُتَره

َتهوَ لا تَنْمى رَمِيّتُه مالَه لا عُدّ مِنْ نفَره
مُطعمٌ للصَّيْدِ ليسَ لَهُ غيرَها كَسبٌ على كِبرَه
وخليل قدْ أفارقُه ثمّ لا أبكى عَلَى أثره

وابن عمٍّ قدْ تركْتُ لهُ   صفوماءِالحوْضِ عَنْ كدرِهْ

ونَصْرُكَ للفريد أعزُّ نصر

إن الكريم للكريم محلٌ

هُمُ كانُوا الشِّفاء فلمْ يُصابوا

وحَسْبُك مِنْ غنىً شِبَعٌ وريٌّ

وَيْحَكَ ألحقْتَ شرًّا بِشرٍّ

إنّ الشقاء على الأشْقَيْن مَصْبُوب

ولَوْ أدرَكتْهُ صَفِرَ الوطَابُ

ستكْفيني التَّجارِبُ وانْتِسابي

فيالكِ مِنْ نُعْمَى تحوّلْن أبْؤُسَا

ويَعْدُو عَلَى المَرْءِ ما يأتمِرَ

إذا مَا لَمْ تَكُنْ إبلٌ فَمِعْزَى

اليومَ خمْرٌ وغَداً أمْرٌ

الأمْرُ سَلْكَى ولَيْس بمَخْلُوجَة

أخذاً من قوله :

نَطْعَنُهمْ سَلْكَى ومَخْلُوجَة

وغير ذلك منْ حكمه وأمثاله التي تستفاد من شعره وأقواله .

ما لزمه امرؤ القيس

فى شعره

كان امرؤ القيس يكرر المعنى الواحد واللفظ الواحد فى قصائد متعددة مثل قوله (تبصر خليلى هل ترى) .

قال :

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ   سَوَالِكَ نَقْباً بين حَزْمَيْ شَعَبْعَبِ

وقال أيضاً :

تبصر خليلى هل تَرَى ضَوْءَ بارقٍ   يضيء الدُّجَى بالّليل عن سَرْوِ حِمْيرا

ومثل قوله (وَقَدْ أَغْتَدِي والطَّيْرُ فى وَكَناتها)

قال :

وقد أغتدِي والطيرُ فى وَكَناتها   بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوَابِدِ هَيْكل

وقال أيضاً :

وقد أغتدى والطيرُ فى وَكَناتها   بمنجرِد عَبْلِ اليَدَيْن قَبِيص

وقال أيضاً :

وقدْ أغتدى والطيرُ فى وكناتها   وماء النّدَى يَجْرِى عَلَى كُلِّ مُذْنب

وقال أيضاً :

وقد أغتدي والطيرُ فى وكناتها   بمُنْجَرِدٍ عبْلِ اليَدين قَبِيض

وقال أيضاً :

وقد أغتدى والطيرُ فى وكناتها لِغَيْثٍ من الوَسْمِىِّ رائِدُه خَالِ

وقد جاء قوله (وقد أغتدى) فى قصائد أخرى

قال :

وقد أغتدى قبلَ الشرُوع بسَابح أقبّ كيَعْفورِ الفَلاةِ مُحَنَّبِ

وقال أيضاً :

وقد أغتدى ومعِى القانصان وكلٌّ بمرْبأةٍ مُقْتَفِر

وقال أيضاً :

وقد أغتدى قبل العُطاسِ بهيْكَلٍ شديدِ مَشَكِّ الجنبِ فعْمِ المُنطَّقِ

ومثل قوله (له أيْطلاَ ظبى وساقا نَعامَةٍ)

قال : —

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعَامةٍ وصَهْوةُ عَيْرٍ قائِمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ

وقال أيضاً : —

لهُ أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرْخاء سِرْحان وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وقال أيضاً : —

له قُصْرَيا عيرٍ وساقا نعامة كفَحْلِ الهِجانِ يَنتحِى للعَضِيض

ومثل قوله (كأن دماءَ الهاديات بنحْرِه عصارَةُ حناء بشَيبٍ)

قال : —

كأنّ دماءَ الهادياتِ بنَحْرِه عُصارَةُ حِنّاءٍ بِشَيبٍ مُخَضَّب

وقال أيضاً : —

كأنّ دماء الهاديات بنحره عصارةُ حنــاء بشيب مُفَرّقِ

وقال أيضاً : —

كأنّ دماء الهاديات بنحره عُصارة حِناء بشيب مُرَجّل

ومثل قوله (ضَلِيعٍ إذا اسْتَدْبَرْتَه سدَّ فرْجَه بضافٍ فُوَيْقَ الأرْضِ)

قال : —

ضليعٍ إذا اسْتَدْبَرْتَه سَدَّ فَرْجَهُ بضافٍ فُوَيْقَ الأرْضِ لَيْسَ بأصْهَب

وقال أيضاً : —

ضَليعٍ إذا استدبرْته سدّ فرجه بضاف فوَيْق الأرض ليس بأعْزَل

ومثل قوله (عَلَى الأينِ جَيّاشٍ)

قال : —

عَلَى الأيْن جيَّاشٍ كأنّ سَرَاتَهُ على الضَّمْرِ والتّعْداءِ سَرْحَةُ مَرْقَبِ

وقال أيضاً :—

عَلَى الأيْن جيَّاش كأنّ اهتزامَهُ إذا جاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ

ومثل قوله (فعادى عِداء بيْنَ ثوْرٍ ونعْجَةٍ)

قال : —

فعادى عِداءً بيْنَ ثوْرٍ و نَعْجَةٍ وَبيْنَ شَبُوبٍ كالْقَضِيمَةِ قَرْهَب

وقال أيضاً : —

فعادَى عداء بين ثورٍ ونعجة دِرَاكاً ولم يَنْضَحْ بماء فيُغْسَل

وقال أيضًا : —

فعادَيْتُ منه بَيْنَ ثور ونعجةٍ وكانَ عِدائى إذْ رَكِبْتُ عَلَى بَالِى

ومثل قوله (فدَعْ ذا وسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ)

قال :—

فدَعِ ذا وسَلِّ الهمَّ عنكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهارُ وهَجَّرا

وقال أيضًا : —

فدع ذا وسلِّ الهم عنك بجسْرَةٍ مُدَاخِلَةٍ صمِّ العِظَام أَصُوصِ

ومثل قوله (بمنجَردٍ قيدِ الأوابد)

قال :—

بمنجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ

وقال أيضًا : —

بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ لاحَهُ طِرَادُ الهَوَادِى كل شأْوٍ مُغَرِّب

وقد جاء قوله (بمنجَرِدٍ) فى مواضع أُخرى

قال : —

بمنجرد عَبْلِ اليَدَيْن قَبِيض

وقال أيضًا :

بمنجرد عَبْل اليدين قَبِيصِ

ومثل قوله (أَلاَ رُبَّ يوم)

قال :—

أَلا رُبَّ يوم صَالِحٍ قدْ شَهِدْتُه بتَاذِفَ ذاتِ التَّلِّ من فَوْق طَرْطَرا

وقال أيضاً :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

ومثل قوله (إذا قامتا تضوع المسك منهما)

قال : —

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقال أيضاً : —

إذا قامتا تضوع المسك منهما برائحة من اللطيمة والقطر

ومثل قوله (ألا عم صباحا)

قال :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقال أيضاً :

ألا عم صباحا أيها الربع فانطق

وحدث حديث الركب إن شئت فاصدق

ومثل قوله (فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد)

قال :

فادبرن كالجزع المفصل بينه بجيد الغلام ذى القميص المطوق

وقال أيضاً :

فادبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول

ومثل قوله (قفا نبك من ذكرى حبيب)

قال :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال أيضاً :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعِرفان　　ورسمٍ خلتْ آياته مُنذُ أزمان

ومثل قوله (وواد كجوف العير قفر)

قال :

وَوَادٍ كجوفِ العيرِ قفرٍ مَضَلَّةٍ　　قطعتُ بسامٍ ساهمِ الوجه حُسّانِ

وقال أيضاً :

وواد كجوفِ العَير قَفرٍ قطعتُه　　به الذئب يَعوِى كالخليع المعيّل

ومثل قوله (وأضحى يسح الماء)

قال :

وأضحَى يَسُحُّ الماء حَوْل كتيفةٍ　　يُكِب عَلَى الأذقان دَوحَ الكنهبَل

وقال أيضاً :

فأضحَى يَسُحُّ الماء عنْ كلِّ فيقةٍ　　يَحُوزُ الضِّبابَ فى صَفَاصِفَ بيض

ومثل قوله (ذعرت به سربا نقيًّا جلوده)

قال :

ذعَرْتُ به سِرباً نَقيّا جَلُودُه　　كما ذَعَرَ السِّرحانُ جَنْبَ الرَّبيض

وقال أيضاً :

ذعَرْتُ به سِرْباً نَقِيّا جُلُودُه　　وأكرُعُه وشْىُ البُرُود مِنَ الخال

ومثل قوله (مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً)

قال :

مِـكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِـلٍ مُدْبِرٍ معاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وقال أيضاً :

مِـكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِـلٍ مُدْبِرٍ معاً كَتَيْسِ ظِبَـاءِ الْحُلَّبِ العَدَوان

ومثل قوله (فيا رب مكروب كررت وراءه)

قال :

فيا رُبَّ مكروبٍ كَرَرْتُ وَرَاءه وطَاعَنْتُ عَنْهُ الْخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسَا

وقال أيضاً :

فيا رب مكروب كَرَرْتُ وَرَاءه وعانٍ فَـكَكْتُ الغُلَّ عَنه فَفَدَّانِي

ولعل هذا وأشباهه مما أعجب به امرؤ القيس أو انفرد به وكان له فيه سابقة الابتداع ، فهو ما يزال يردده فى قصائده ويلح عليه بالاستعمال ويستقصى فى استخراج صور متعددة منه حتى يثبته و يقرره .

الدكتور طه حسين وامرؤ القيس

نتعرض فى هذا الباب للرد على عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فيما تناول به امرأ القيس فى كتابه الشعر الجاهلى . أما ما عدا ذلك من مباحثه فليس له دخل معنا فى بحثنا ولا يمس موضوعنا فى شىء وعلى ذلك فنحن لا نتصدى للدكتور إلا من ناحية امرىء القيس وحدها .

وأول ما بدأ به الدكتور كلامه عن امرىء القيس قوله « من امرؤ القيس ؟ أما الرواة فلا يختلفون فى أنه رجل من كندة ، ولكن من كندة ؟ لا يختلف الرواة فى أنها قبيلة من قحطان ، وهم يختلفون بعض الاختلاف فى نسبها وتفسير اسمها وفى أخبار سادتها ، ولكنهم على كل حال يتفقون على أنها قبيلة يمانية ، وعلى أن امرأ القيس منها » ثم حام الدكتور بعد ذلك حول اختلاف الرواة فى نسب قبيلة كندة ، وفى تعدد أسماء امرىء القيس وألقابه وكنياته وأسماء أبيه وأمه وألقابهما ، وزيادة بعض الأسماء فى سلسلة نسبه أو سقوطها . حام حول ذلك ليجعله سبيلا موصلا لتأييده فيما وصل إليه من التشكك والتظنن . ولكن ابن خلدون قد كفانا الرد عن هذه الوقيعة التاريخية فإنه عقد فصلا خاصاً فى مقدمته تحت عنوان « فصل فى اختلاف الأنساب كيف يقع » ذكر فيه أن بعضًا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء ... فيدعى بنسب هؤلاء ويعد منهم ... ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمن ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر ، وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ، ويلتحم قوم بآخرين فى الجاهلية والإسلام والعجم ، وانظر خلاف

الناس فى نسب آل المنذر وغيرهم يتبين لك شىء من ذلك ... ومثل هذا كثير لهذا العهد ولما قبله من العهود .

أما تعدد الأسماء والألقاب لشخص واحد فهذا كثير الوقوع فى كل عصر وزمن . ومهما يكن من أمر الدكتور فإنه لم يمكنه أن ينكر وجود امرىء القيس ولم يشك فى هذا ، بل إنه رجح ثم أيقن أن ذلك الشاعر قد وجد حقًا ، فإنه قال « ولعل هذا وأشباهه من الخلط فى حياة امرىء القيس أوضح دليل على ما نذهب إليه من أن امرأ القيس إن يكن قد وجد حقًا ونحن نرجح ونكاد نوقن به (أى بوجوده) ... » وأيقن أيضًا أن امرأ القيس عاش ووجد فى الجزيرة العربية أيام الجاهلية ، فإنه قال « امرؤ القيس الذى مهما يتأخر فقد مات قبل النبى ، والذى نرى نحن أنه عاش قبل القرن السادس وربما عاش قبل القرن الخامس أيضًا » وفى هذا اعتراف صريح من الدكتور بأن امرأ القيس وجد فى الجزيرة العربية ، وضرب على أقدامه فيها ، واستنشى نسيم الحياة بين ربوعها ومعالمها . أما عن نقطة الشك فى تاريخ ميلاده فإن فى قول رينان « إن امرأ القيس أقدم شعراء المعلقات ولد حوالى سنة ٥٠٠ م » وفى قول لويس شيخو صاحب شعراء النصرانية إنه ولد سنة ٥٢٠ م وفى قول بعض المؤرخين إنه مات سنة ٥٦٥ م[1] ، فى كل ذلك ما يكفى لإثبات أن امرأ القيس ولد فى أوائل القرن السادس وعاش فيه ، ويبطل ما ذهب إليه الدكتور من أن امرأ القيس ربما عاش قبل القرن الخامس ، ويؤيدنا فى ذلك أيضًا ما ذكره الأستاذ نولدكى

دائرة المعارف البريطانية ، فإنه قال « أقدم شعراء المعلقات على الأرجح امرؤ القيس المحسوب أمير الشعر العربى ، ولا يعلم زمانه بالتحديد ، ولكنه كان

---

(١) ويقول نيكلسون إنه مات سنة ٥٤٠ م .

فى النصف الأول من القرن السادس ، وهو من بنى كندة الذين زال ملكهم بموت الملك الحارث بن عمرو سنة ٥٢٩ ميلادية » .

واعترف أستاذنا الدكتور طه أيضًا بأن له أثراً فيما يروى من شعره قال: « فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصى والعقبان وما إلى ذلك ، وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شىء من ريح امرىء القيس » .

وقال أيضًا « ولعل أحق الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان .

الأولى قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .

والثانية ألا انعم صباحًا أيها الطلل البالى .

فأما ما عدا هاتين القصيدتين فالضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بين والتكلف والإسفاف يكادان يلمسان باليد » .

فالدكتور يسلم بصحة نسبة هاتين القصيدتين إلى امرىء القيس ، لأنه خصهما بالعناية ، وقال إن ما عداهما من شعره ظاهر الضعف والاضطراب والتكلف ، ومعنى هذا أن هاتين القصيدتين لاضعف فيهما ولا اضطراب ولا تكلف ، وإذا كانتا كذلك فالمعنى أن نسبتهما صحيحة إلى امرىء القيس ونحن نسجل على الدكتور الاعتراف بهاتين القصيدتين من شعر ذلك الشاعر وإن كان قد حاول بعد ذلك أن يدخلهما ضمن دائرة شكه ، أما عن قول الأستاذ الدكتور إن ما عداهما ظاهر الضعف والاضطراب فإن الدكتور لو تفكر قليلا لرأى أن هناك ما يدعو أن يكون بعض ما عداهما ضعيفاً مضطربا ، وقد رأيت أيها القارىء رأينا فى ذلك عند الكلام على شعر امرىء القيس ، فقد قسمناه إلى طورين طور الشباب وهو فيه أبلغ ما يكون وقد مثل ذلك

الطور شعر المعلقة والقصيدة الثانية (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى) وطوره بعد مقتل أبيه وقد عرت شاعريته فى هذا الطور فتور وضعف وقد بينا سبب ذلك فى حينه وفى موضعه من هذا الكتاب .

وقد عرج أستاذنا الجليل فى حديثه على كثرة الآراء النيابية ونظرية كروية الأرض فى موضع الكلام على الترجيح بالكثرة فيما لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق الرواة ، واطمأن إلى أن الكثرة فى العلم لا تغنى شيئاً ، وتناسى الدكتور أن المعلوم ينقسم إلى معقول كالمسائل الرياضية وهذه لا يمكن إدراكها إلا من طريق العقل ، وقسم آخر من أقسام المعلوم وهو المشاهد كالألوان . والمعقول يكتسب بالأدلة النظرية فلا يترجح فيه رأى الأكثرية على الأقلية ، وفى بعض الأحيان تكون الأقلية على حق والأكثرية على باطل . أما المشاهد الذى يدرك بالحواس فإن كان المخبر به جمعاً كثيراً استوفوا شرط التواتر فإن العلم الحاصل من خبرهم يكون يقيناً ويسقط بجانبه خبر الأقلية بلا نزاع ، فإن كانت الأكثرية لم تستوف شرط التواتر ترجح خبر أصدقهما وأنبههما حتى ولو كانت الأقلية ، فإن لم يستوف الفريقان شرط التواتر وتساويا صدقاً ونباهة فالأكثرية هى الراجحة ، ومسألة امرىء القيس داخلة فى المشاهد ، وقد تواترت الروايات على أنه وجد حقاً ، وأنه قال شعراً وتحدث الرواة بذلك الشعر وبينوا ما هو مصنوع منحول منه وما لاشك فيه ولا انتحال ... ونحب أن نقول للدكتور أيضاً إنه تناسى فى هذه النقطه نفسها أن الحقائق تنقسم إلى قسمين حقيقة مجردة وحقيقة تاريخية ، فالحقيقة المجردة صادقة فى نفسها وكنهها ، ولا يمكن أن يتطرق الكذب إليها ولا أن تتحمله بحال من الأحوال ، فهى بعيدة كل البعد عن الشك ولا يمكننا إلا التسليم بها على أنها صادقة واضحة ، ومثالها « الواحد نصف الاثنين » والحقيقة التاريخية فى نفسها صادقة لأنها ظهرت

فى عالم الوجود وتحدث بها الناس ودونها التاريخ ، وقد تكون هذه الحقيقة كاذبة الكنه وقد تكون صادقة الكنه ، فالكاذبة كإنكار كروية الأرض فتلك النظرية حقيقة تاريخية قال بها قوم فى عصر من العصور وحدثنا التاريخ عنها ، فهى من هذه الناحية صادقة ، ولكنها فى كنهها باطلة كاذبة إذ ثبت أن الأرض كروية خلافاً لزعم المنكرين . أما الحقيقة التاريخية الصادقة الكنه فهى كوجود امرىء القيس ، فقد تحدث التاريخ عن وجود هذا الشاعر فى الجزيرة العربية ، وقد وجد هذا الشاعر حقاً ، واعترف الدكتور بذلك ، ومثل تلك الحقيقة الأخيرة حقيقة وجود امرىء القيس يمكن إدخالها ضمن دائرة الحقيقة المجردة ، لأنها لا تحتمل الكذب لا فى نفسها ولا فى كنهها ، فلا معنى لأن يسوى أستاذنا الدكتور بين الحقيقة المجردة وغيرها ابتغاء أن يصل إلى إنكار شعر امرىء القيس وقصته التاريخية .

أما ما أراد أن يستند إليه الدكتور فى إنكار قصة امرىء القيس فهو تعرضه لذكر أسرة الأشعث بن قيس ، فقد قال « وهنا يحسن أن نلاحظ أن الكثرة من هذه الأساطير والأحاديث لم تشع بين الناس إلا فى عصر متأخر ، فى عصر الرواة المدونين والقصاص ؛ فأكبر الظن إذاً أنها نشأت فى هذا العصر ولم تورث عن العصر الجاهلى حقاً ، وأكبر الظن أن الذى أنشأ هذه القصة ونماها إنما هو هذا المكان الذى احتلته قبيلة كندة فى الحياة الإسلامية منذ تمت للنبى السيطرة عَلَى البلاد العربية إلى أواخر القرن الأول للهجرة . فنحن نعلم أن وفداً من كندة وفد عَلَى النبى وعلى رأسه الأشعث بن قيس ، ونحن نعلم أن هذا الوفد طلب — فيما تقول السيرة — إلى النبى أن يرسل معهم مفقهاً يعلمهم الدين ، ونحن نعلم أن كندة ارتدت بعد موت النبى ، وأن عامل أبى بكر حاصرها فى النجير وأنزلها على حكمه وقتل منها

خلقاً كثيراً ، وأوفد منها طائفة إلى أبى بكر فيها الأشعث بن قيس الذى تاب وأناب وأصهر إلى أبى بكر ، فتزوج أخته أم فروة وخرج — فيما يزعم الرواة — إلى سوق الإبل فى المدينة فاستل سيفه ومضى فى إبل السوق عقراً ونحراً ، حتى ظن الناس به الجنون ، ولكنه دعا أهل المدينة إلى الطعام وأدى إلى أصحاب الإبل أموالهم ، وكانت هذه المجزرة الفاحشة وليمة عرسه ، ونحن نعلم أن هذا الرجل قد اشترك فى فتح الشام ، وشهد مواقع المسلمين فى حرب الفرس وحسن بلاؤه فى هذا كله ، وتولى عملا لعثمان ، وظاهر عليًّا عَلَى معاوية ، وأكره عليًّا عَلَى قبول التحكيم فى صفين ، ونحن نعلم أن ابنه محمد بن الأشعث كان سيداً من سادة الكوفة ، عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدى الكندى ، ونحن نعلم أن قصة حجر بن عدى هذا وقتل معاوية إياه فى نفر من أصحابه قد تركت فى نفوس المسلمين عامة واليمنيين خاصة أثراً قويًّا عميقًا مثّل هذا الرجل فى صورة الشهيد ، ثم نحن نعلم أن حفيد الأشعث ابن قيس وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد ثار بالحجاج وخلع عبد الملك وعرّض ملك آل مروان للزوال . وكان سببًا فى إراقة دماء المسلمين من أهل العراق والشام ، وكان الذين قتلوا فى حروبه يحصون فيبلغون عشرات الألوف ، ثم انهزم فلجأ إلى ملك الترك ، ثم أعاد الكرة فتنقل فى مدن فارس ، ثم استيأس فعاد إلى ملك الترك ، ثم غدر به هذا الملك فأسلمه إلى عامل الحجاج ، ثم قتل نفسه فى طريقه إلى العراق ؛ ثم احتز رأسه وطوّف به فى العراق والشام ومصر .

أفتظن أن أسرة كهذه الأسرة الكندية تنزل هذه المنزلة فى الحياة الإسلامية وتؤثر هذه الآثار فى تاريخ المسلمين لا تصطنع القصص ، ولا تأجر القصاص لينشروا لها الدعوة ويذيعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها

ويبعد صوتها ؟ بلى ! ويحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن بن الأشعث اتخذ القصاص وأجرهم ، كما اتخذ الشعراء وأجزل صلتهم ، كان له قاص يقال له عمر ابن ذر ، وكان شاعره أعشى همدان .

فما يروى من أخبار كندة فى الجاهلية متأثر من غير شك بعمل هؤلاء القصاص الذين كانوا يعملون لآل الأشعث ، وقصة امرىء القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن بن الأشعث ، فهى تمثل لنا امرأ القيس مطالباً بثأر أبيه . وهل ثار عبد الرحمن عند الذين يفهمون التاريخ إلا منتقماً لحجر بن عدى ، وهى تمثل لنا امرأ القيس طامعاً فى الملك وقد كان عبدالرحمن بن الأشعث يرى أنه ليس أقل من بنى أمية استئهالا للملك وكان يطالب به ، وهى تمثل لنا امرأ القيس متنقلا فى قبائل العرب وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث متنقلا فى مدن فارس والعراق ، وهى تمثل امرأ القيس لاجئاً إلى قيصر مستعينا به وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث لاجئا إلى ملك الترك مستعيناً به ، وهى تمثل لنا أخيراً امرأ القيس وقد غدر به قيصر بعد أن كاد له أسدىّ فى القصر ، وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد له رسل الحجاج ، وهى تمثل لنا بعد هذا وذاك امرأ القيس وقدمات فى طريقه عائداً من بلاد الروم وقد مات عبد الرحمن فى طريقه عائداً من بلاد الترك .

أليس من اليسير أن نفترض بل أن نرجح أن حياة امرىء القيس كما يتحدث بها الرواة ليست إلا لونا من التمثيل لحياة عبد الرحمن ، استحدثه القصاص إرضاء لهوى الشعوب اليمنية فى العراق ، واستعاروا له اسم الملك الضليل اتقاء لعمال بنى أمية من ناحية واستغلالا لطائفة يسيرة من الأخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضليل من ناحية أخرى » اهـ بنصه .

ونلاحظ على الدكتور فيما سبق أن التاريخ حدثه بقصة امرىء القيس وحدثه

بقصة عبد الرحمن بن الأشعث فآمن بالثانية وجعل الأولى لوناً من التمثيل لحياة عبد الرحمن ، ولا ندرى السبب الذى حفز الدكتور إلى هذا فجعله يكذب التاريخ حينا ويصدقه حينا آخر ، وفات الدكتور حين ظن اختلاق قصة امرىء القيس أن التاريخ كثيراً ما يعيد نفسه ، وأنه كله حوادث متشابهة ، وقد وقع للدكتور فيما قاله شىء من التحوير فإنه ذكر أن الأشعث بن قيس هو الذى أكره عليا على قبول التحكيم ، والحقيقة غير ذلك فإن الأشعث وإن كان قد تكلم مع على بشأن قبول التحكيم إلا أن الذى أكرهه على ذلك هم القراء الذين كانوا معه حين انخدعوا برفع المصاحف من جيش معاوية ، ويقول الدكتور أيضا : إن محمد ابن الأشعث عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدى الكندى ، وزياد بن أبى سفيان لم يعتمد على محمد بن الأشعث فى أخذ حجر بن عدى ، كما يقول الدكتور بل قال لمحمد : والله لتأتينى بحجر أو لا أدع لك نخلة إلا قطعتها ، ولاداراً إلا هدمتها ، ثم لا تسلم منى حتى أقطعك إربا ، إربا ، ثم أمهله ثلاثا وأرسله إلى السجن ، فخرج محمد منتقع اللون يتل تليلا عنيفا (يسحب من عنقه) أفمثل هذا الرجل يقول فيه أستاذنا الدكتور « عليه وحده اعتمد زياد » ؟ أم هى سنة العرب فى أخذ سيد بسيد والاستقادة من رجل برجل ؟ استفزازاً للحمية والإباء فى نفس من يفوتهم هربًا لكيلا يظلم فيه غيره ، فإنه إذا عرف من أخذ به أسلم نفسه .

والدكتور بعد أن قال: إن زياداً اعتمد على محمد بن الأشعث فى أخذ حجر ابن عدى يقول بعد ذلك : هل ثار عبد الرحمن بن محمد عند من يفقهون التاريخ إلا منتقماً لحجر ؟ أفليس الأقرب إلى الصواب أن يثور عبد الرحمن منتقماً لإهانة والده ؟

ويقول الدكتور أيضاً : إن كندة اصطنعت القصاص لينشروا لها الدعوة ، ويدعى أن الرواة أنفسهم يحدثوننا أن عبد الرحمن اتخذ القصاص وكان له قاص اسمه عمر بن ذر . ونحن نريد أن نعلم من مِن الرواة تحدث بذلك ؟ ولعل الأستاذ الدكتور اطلع على ما قاله الطبرى فى تاريخه فتأول فيه ، فقد قال الطبرى « قال أبو مخنف : حدثنى عمرو بن ذر القاص أن أباه كان معه هناك (فى بلاد الترك) وأن ابن محمد (عبد الرحمن) كان ضربه وحبسه لانقطاعه إلى أخيه القاسم ، فلما كان من أمره الذى كان من الخلاف (أى الثورة على الحجاج وخلع عبد الملك) دعاه فحمله وكساه وأعطاه ، فأقبل فيمن أقبل ، وكان قاصاً خطيباً » فالعبارة صريحة فى أن عمراً (لا كما يقول الدكتور عمر) كان قاصاً وأن أباه كان قاصاً خطيباً وأنهما كانا فى بلاد الترك يقاتلان كما يقاتل قراء البصرة والكوفة — حتى أن أقوى كتائب عبد الرحمن كانت كتيبة كل جندها من القراء والعلماء ، وأن عبد الرحمن كان ضرب ذرًّا وحبسه لانقطاعه إلى أخيه القاسم فلما احتاج إلى المقاتلة دعاه فحمله ، يعنى فأركبه وجعله من فرسانه لا من قصاصه ، فمن أين يؤخذ أن عمراً بن ذر أو أباه ذرًّا كان قاصا لعبد الرحمن بن الأشعث اتخذه وأجره ليضع له ولأسرته الأخبار كقصة امرىء القيس ، وبخاصة إذا علمنا أن الأب منهما ضرب وحبس .

ولقد عقد الدكتور مشابهة بين امرىء القيس وعبد الرحمن بن الأشعث وادعى أن عبد الرحمن ثار منتقما لحجر بن عدى ، كما أن امرأ القيس قام مطالباً بثأر أبيه ، وذكر فى وجه الشبه أن كلاً منهما طامع فى الملك متنقل فى البلاد يستعين بملك ، امرؤ القيس بقيصر وعبد الرحمن بملك الترك ، وأن كلا منهما غدر به الملك الذى التجأ إليه .

ونحن نلقى عليك قصة عبد الرحمن بن الأشعث فى حدود الاختصار

والإيجاز مع عدم الإخلال لتعلم أن بينها وبين قصة امرىء القيس فرقاً كبيراً وأمداً بعيداً .

يذكر المؤرخون أن الحجاج كان يبغض عبد الرحمن بن الأشعث ويقول : ما رأيته قط إلا أردت قتله ، وكان عبد الرحمن يعرف هذه السريرة من الحجاج ويقول: أنا أزيله عن سلطانه. وكان الحجاج والياً على العراق وخراسان وسجستان فجهز جيشاً لغزو بلاد رتبيل ملك الترك وبعثه تحت راية عبد الرحمن . فسار عبد الرحمن بالجيش حتى دخل فى طرف من بلاد رتبيل ، ثم عقد الرأى مع الجيش على أن يرجئوا التوغل فى البلاد إلى العام المقبل ، وبلغ الحجاج ماعزم عليه عبد الرحمن من هذا التأخير فأمره بالمضى فى سبيل الفتح وهدده بالعزل إذا لم يفعل ، فائتمر عبد الرحمن والجيش الذى تحت قيادته بخلع الحجاج ، ثم نادوا بخلع عبد الملك أيضاً ، وبايعوا عبد الرحمن وأقبلوا إلى العراق . ثم دارت رحى الحرب بين عبد الرحمن والحجاج ، وكانت عاقبتها أن انقلب عبد الرحمن منهزماً إلى سجستان ولحق بكرمان ، فلقى بها من عامله عليها نزلا مهيئاً ، ثم رحل إلى زرنج فتنكر له عامله هنالك ، وأغلق باب المدينة دونه ، فانصرف إلى بست ، وكان عامله عليها عياض بن هميان فاستقبله ، ثم أوثقه فى غفلة من قومه لينال به عند الحجاج قرباً وسلاما ، وكان رتبيل قد ركب لاستقبال عبد الرحمن فنزل على بست وهدد عياضاً فأطلق سبيل عبد الرحمن وحمله رتبيل إلى بلاده ، وأنزله فى جواره وأكرم مثواه ، ولكن الحجاج تتابعت كتبه ورسائله إلى رتبيل كى يبعث إليه بعبد الرحمن ، وكان من أثر هذه الكتب وما تحمله من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد أن بعث رتبيل بعبد الرحمن مقيداً إلى عمارة بن تميم ليضعه فى يد الحجاج ، فرمى عبد الرحمن بنفسه من سطح قصر فهلك ، أو مات مسلولا ، واجتز رأسه بعد ذلك وأرسله عمارة إلى الحجاج .

وإنا لنرى فى عرض هذه القصة على وجهها التاريخى ما يكفى لنقض مايدعيه أستاذنا الدكتور طه من المشابهة بينها وبين قصة امرىء القيس ومن أن قصة امرىء القيس موضوعة رمزاً لها .

وأول ما يخطر لنا أن عبد الرحمن بن الأشعث لم يقم للأخذ بثأر حجر ابن عدى ، ونستبعد ما يدعيه الدكتور من قيام عبد الرحمن مطالبًا بثأر حجر لأن القرابة بينهما لم تكن من الشدة بحيث تحمل عبد الرحمن على الخوض فى محاربة دولة ذات شوكة انتقامًا منها لتلك القرابة ، فإن عبد الرحمن إنما يلتقى بحجر فى الأب الخامس وهو معاوية بن جبلة ، ويضاف إلى هذا أن القاتل لحجر معاوية ابن أبى سفيان وصاحب الدولة يوم ثورة عبد الرحمن إنما هو عبد الملك ابن مروان ، ويزاد على هذا أن قتل معاوية لحجر كان فى سنة ٥١ هـ وثورة عبد الرحمن على عبد الملك كانت فى سنة ٨١ هـ . وثلاثون سنة تمر على الحادثة من شأنها أن تخفف من تغيظ النفس لها إلى حد ألاّ يبقى فيها من أثر الغيظ ما يدفع إلى اقتحام الأهوال والمخاطرة بالحياة فى فتنة عمياء .

ويبدو لنا بعد هذا أن ابن الأشعث إنما طلب الملك بالجيش الذى كان تحت قيادته ، ولم يستعن على طلبه بملك كما يقول الدكتور ، وكل الذى وقع من رتبيل أنه استقبله بعد عودته مهزومًا يائسًا من الملك الذى طمع فيه ولم يرج منه ابن الأشعث أكثر من أن يحميه ويؤامنه من سطوة الحجاج ، ثم إن ابن الأشعث إن طلب الملك فإنما هو طامع فيه يطلبه ظلمًا وعدوانًا ، ولكن امرأ القيس ما كان مغتصبًا ولا ظالمًا ، وإنما كان يطلب ميراث أبيه وعرش أجداده . وابن الأشعث أيضًا ليس شاعراً ، ولا ابن ملك ، ولا قتل أبوه فخرج يطلب ثأره ، خلافًا لامرىء القيس الذى كان شاعراً وابن ملك وقتل أبوه فقام يطالب بدمه وملكه . وابن الأشعث لم يكن فى سيرته متفحشًا ولا متعهراً

كامرىء القيس ، فإذا قابله القصاص برجل فلن يكون هذا الرجل امرأ القيس في تبطله وفحشه . وابن الأشعث لم يكد له رسل الحجاج عند ملك الترك كما ادعى الدكتور ، ولئن كان أحد قد كاد له عند هذا الملك فإنما هو رجل تميمى من بطانة ابن الأشعث نفسه ، ولكن امرأ القيس كاد له رسول الأسديين عند قيصر وما كان هذا الواشى من بطانة امرىء القيس. وابن الأشعث لم ينتقل في مدن فارس والعراق مستنصراً مستجيشاً كما فعل امرؤ القيس في قبائل العرب التي تناوحت بركابه أحياؤها ، بل كان عبد الرحمن بن الأشعث محاربا يرحل بالجيش وينزل بالجيش . وابن الأشعث إما أنه مات منتحراً أو مسلولا واجتز رأسه خلافاً لامرىء القيس الذي تقرّح بدنه من حلة قيصر أو من الجدرى — وهو الصحيح عندى — ولم يجتز رأسه . وابن الأشعث طوف بجثته في الآفاق بعد موته ومثل بها ، وامرؤ القيس دفن مهيبًا محترمًا وأمر قيصر بإقامة تمثال له ينصب على قبره .. فأين إذا ابن الأشعث من امرىء القيس ، وما دخل هذا في ذاك . فضلا عن أنه ليس من الفخر لكندة أن تختلق قصة امرىء القيس الذى كان طريداً شريداً فاحشًا عاجزاً ضائعًا ضليلا ، ولو كان الحديث منتحلا اصطنعه الكاذبون الوضاع الذين يريدون مجداً وسيادة لكان هناك ما يدعو هؤلاء الكاذبين إلى اختراع قصة من أولها إلى خاتمتها تعطى صاحبها وقومها شرفًا ومجداً وسيادة لا أن تكون لهم عجزاً وسبة .

ثم كيف يخاف القصاص من عمال بنى أمية ؟ فيحملهم هذا الخوف على أن ينتحلوا قصة امرىء القيس ويضعوها رمزاً لقصة ابن الأشعث ويلفقوا هذا التلفيق البعيد ، ويضعوا هذه القصة المخزية التي لم تكسبهم شرفاً بل زادتهم سبة وعجزاً ، على أنهم يرون المؤرخين ، يذكرون خبر ابن الأشعث ويقصون حروبه ، وهل كانت دولة بنى أمية من الضعف بالمنزلة التي تخاف فيها ابن

الأشعث ميتاً ! وهى التى كسرته حياً ثائراً فى مائة ألف مقاتل . ولو قد خاف القصاص عمال بنى أمية لخافوهم فى الحسين بن على وفى عبد الله ابن الزبير اللذين كانا يطلبان الخلافة ، ولو قد خافوهم لخافهم المؤرخون أيضا ولما وصلت إلينا قصة ابن الأشعث ، وإن كان القصاص قد وضعوا قصة امرىء القيس إرضاء لهوى الشعوب اليمنية فأين كانت أسد وكنانة وتغلب وبكر ! وكل هؤلاء لم يكن يهمهم أن يمالئوا كندة فى الإسلام على ما اخترعت من قصة فيها نيل كبير مِنْ أنفسهم ومساس بعصبيتهم ، تلك العصبية التى استند إليها الدكتور فيما ذهب إليه من أن كندة اخترعت قصة امرىء القيس وما يتصل بها من الشعر ، فهل كان لليمنيين عصبية يختلقون لها القصص التى لها مساس بعصبية غيرهم ولم يكن لسواهم عصبية يدافعون عنها . نحن نرى أن قصة امرىء القيس لو لم تكن حقا يعرفها الناس ويحفظها الرواة قبل أن يولد ابن الأشعث والحجاج لقام بنو أسد وبنو كنانة وكذبوا كندة فى قصتها ورموها بالإفك والاختلاق .

وبعد أن خرج الدكتور مِن قصة ابن الأشعث ومقابلتها بقصة امرىء القيس قال « ستقول وشعر امرىء القيس ما شأنه وما تأويله ! » وذكر أن شأنه يسير ، وتأويله أيسر ، وقسم ذلك الشعر إلى قسمين أحدهما يتصل بالقصة التى أشار إليها وشأنه شأنها مِنْ الانتحال ، وثانيهما لا يتصل بتلك القصة وإنما يتناول فنوناً من القول مستقلة منَ الأهواءِ السياسية والحزبية .

وقد رددنا فيما مضى رأى الدكتور فى انتحال القصة ، وقد تضافرت آراء المؤرخين على وجود شاعر جاهلى فى الجزيرة العربية اسمه امرؤ القيس ابن حجر وأن له شعراً يدور على ألسنة الرواة ، والدكتور نفسه اعترف

وأيقن بوجوده التاريخي . أما هذا الشعر المضاف إلى امرىء القيس فقد نقده العلماء وبينوا ما هو منحول مصنوع ، وارتابوا في قصائد بجملتها فردوها ونبهوا عليها ، ويكفي أن نطلع عَلَى ديوانه في كتاب العقد الثمين لنرى القصائد والأشعار التي نبه على انتحالها وَاصطناعها ، وَلنرى أيضاً القصائد التي سلمت له وصحت نسبتها إليه . وفي الحق أن الأقدمين نقدوا شعر امرىء القيس وغيره مِن شعراء الجاهلية جهد المستطاع فردوا ما قام الدليل عَلَى اصطناعه وكفوا عن البقية لأنها جاءت عن طريق الثقاة ، ولقد روى شعر امرىء القيس أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وخالد بن كلثوم ومحمد ابن حبيب ثم جاء أبو سعيد السكري وربط جميع هذه الروايات وضبطها . وأعاد مراجعته وضبطه بعد سعيد راويتان هما العباس الأحول وابن السكيت ورواه أيضا أَبو عبيدة ، وكل هؤلاء مِنْ ثقاة الرواة الذين لا يمكن الطعن عليهم وَلا تجريحهم ، وهم فوق ذلك أذكياء وجدًّا أذكياء لا تخفى عليهم خافية في نقد الشعر وبيان المنحول منه مِنْ غير المنحول ، فإن جاز عند إنسان أن يشك في شيء من أشعار الجاهلية ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق إليهم الشك أو تتصل بحياتهم التهمة .

والدكتور قد افترض أن هذا الشعر شأنه شأن القصة ، وقد علمنا مقدار ما ذهب إليه الدكتور ورددنا ادعاءه في انتحال القصة ، وبما أنه اعتبر انتحال هذه القصة مقدمة لرفض الشعر المتعلق بها فإذا كانت المقدمة باطلة غير واقعة كانت النتيجة أيضاً باطلة غير صحيحة ، فالقصة صحيحة والشعر المتعلق بها صحيح النسبة إلى امرىء القيس كذلك . أما عن ذهاب امرىء القيس إلى قيصر فليست الروايات العربية وحدها تذهب إلى أن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية

مستنجداً بملك الروم على بنى أسد فإن مؤرخى الروم أنفسهم ذكروا أحاديث هذا الشاعر فى كتبهم ، ونحن ننقل لك عن كتاب شعراء النصرانية فإنه قال « وقد جاء ذكر امرىء القيس فى تواريخ الروم مثل نونوز وبروكور وغيرهما ، وهم يسمونه قيساً ، وقد ذكروا أنه قبل وروده على قيصر يوستنيان أرسل إليه وفداً يطلب منه النجدة على بنى أسد وعلى المنذر ملك العراق » ثم قال ناقلا عن هؤلاء المؤرخين الرومانيين أيضاً « إن امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه إلى القسطنطينية فرغبه قيصر ووعده ، وقد ذكر نونوز المؤرخ أن يوستنيان قلده إمرة فلسطين إلا أنه لم يسع فى إصلاح أمره وإعادته إلى ملكه ، فخرج امرؤ القيس وعاد إلى بلده وكانت وفاته سنة ٥٦٥ م أصابه مرض كالجدرى فى طريقه كان سبب موته »

وقال الأستاذ نيكلسون فى كتابه تاريخ آداب العرب « كان حجر أبو امرىء القيس ملكا على بنى أسد فى أواسط بلاد العرب ، لكنهم عصوا عليه وقتلوه ، ولم يستطع امرؤ القيس أن يأخذ بثأره منهم لأن الملك المنذر انتصر لهم ، فتوجه امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، وأكرم الإمبراطور يوستنيانوس وفادته ، لأنه كان يود أن يعيد مملكة كندة لتكون شوكا فى جنب الفرس ، وجعله أميراً على فلسطين ، ولكنه توفى بأنقرة وهو ذاهب إليها وكان ذلك سنة ٥٤٠ م. » .

أما عن عجب الدكتور من أن امرأ القيس لم يؤثر عنه شىء فى وصف القسطنطينية فإذا لم يكن يكفيه قوله :

تَذَكَّرْتُ هِنْداً وأَتْرَابَها فَأَصْبَحْتُ أَزْمَعْتُ مِنْها صُدُودا
ونادَمْتُ قَيْصَرَ فى مُلْكِه فَأَوْجَهَنِي ورَكِبْتُ البَرِيدا

أو قوله حين توجه إلى قيصر :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا
وإني زعيم إن رجعت مملكا بسير ترى منه الفرانق أزورا
لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

إن لم يكن يكفي الدكتور هذا الشعر وما جاء فيه ويأبى إلا أن يصف امرؤ القيس القسطنطينية وصفاً جغرافيا مفصلا فنحن نحتج عليه بحادثة من هذا النوع ، فإن المتنبي جاء إلى مصر ، وعاش فيها ، وخالط أهلها ، ومع ذلك فهو لم يصفها في شعره ، ولم يذكر شيئا عن قبابها وحصونها ومدنها وأهرامها وما زاد إلا على أن ذكر في شعره لفظ « الهرمين » فقط في قوله : « أين الذى الهرمان من بنيانه . . » كما ذكر امرؤ القيس لفظ « قيصر » فهذا من ذاك . وفضلا عن هذا فإن امرأ القيس لم يعش طويلا بعد أن ورد القسطنطينية ، ولم يكن مع خيبة أمله بالذي يتفرغ لقول الشعر ووصف مظاهر الروم ، ولو كان الأمر راجعا إلى القصاص كما يفترض الدكتور وهم الذين قالوا هذا الشعر كله لو كان الأمر كذلك ما عجزوا عن أن يقولوا أبياتا يسدون بها هذا النقص الذي تخيله الدكتور .

وشبيه بهذا العجب عجبه أيضاً من أنه لم يؤثر عن امرىء القيس شيء فيما كان بين خاله مهلهل التغلبي وبين قبائل بكر من الوقائع ، وليس في هذا مايدعو إلى العجب ، فقد قال الدكتور في موضع من كتابه « الأدب الجاهلي » إنه مقتنع بأن كثيراً من الشعر العربي الجاهلي قد ضاع ، واستند في ذلك إلى قول أبي عمرو بن العلاء « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ونحن نوافق الدكتور فيما استند إليه من قول

أبي عمرو بن العلاء ، و فى هذا القول ما يتخذ حجة عليه ، فإنه من الجائز أن يكون امرؤ القيس قد قال فى ذلك شعراً ولكنه ذهب بقتل الرواة الذين قتلوا فى حروب الردة والفتن والفتوح ، زد على ذلك أن تلك الوقائع لم يشهدها هو بنفسه وليس لعصبيته فيها من أثر فمن اليسير أن نفهم أنه لا يهتم بأن يقول فيها شيئاً .

وتعرض الدكتور أيضاً للغة امرىء القيس فقال « كيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ، بل فى لغة قريش خاصة . ستقول : نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكا على بنى أسد ، وكانت أمه من بنى تغلب وكان مهلهل خاله ، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان ، ويعدل عن لغة اليمن ولكننا نجهل هذا كله ، ولا نستطيع أن نثبته إلا عن طريق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرىء القيس ، ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منتحل » ونحن قد أبطلنا للدكتور رأيه فى أن هذا الشعر منحول ، وأقمنا الأدلة على أنه لامرىء القيس ، وإذاً يثبت من هذا الشعر أن لغة ذلك الشاعر هى لغة البلاد التى نشأ فيها ، وهذا ما يقره العقل ، ويدل عليه النقل . ومما يؤخذ على الدكتور طه أنه صدق الرواة وكذبهم فى آن واحد ، وليس ذلك بمستساغ ولا مقبول فالنقيضان أو شبههما لا يجتمعان ، فإما أن يصدق الدكتور الرواة فى أن امرأ القيس يمانى النسب نزارى الدار والمنشأ وإما أن يكذبهم فى الأمرين جميعاً ، أما أنه يقسم قولهم إلى شطرين ثم يصدقهم فى شطر ويكذبهم فى شطر فذلك ما لا نقره عليه ، يقول له الرواة هو يمانى نشأ فى نجد فيؤمن لهم الدكتور بأنه يمنى ، ويأبى أن يقبل أنه نشأ فى نجد ، فهو يقول الرواة صادقون ولا صادقون أى كاذبون فى آن واحد وهذا نوع من المغالطة والإجحاف المنطقى الذى أخذ به الدكتور لحاجة فى نفسه ، والأستاذ فى هذا الموضع قد وقع

له شيء من التردد والتحوير أيضًا فإنه بعد أن قال « إن امرأ القيس يمنى . . وشعره قرشي اللغة لا فرق بينه وبين لغة القرآن فى لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، ونحن نعلم . . أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ؟ بل فى لغة قريش خاصة ؟ » واسترسل فى كلامه إلى أن قال « وإذاً فكيف نظم امرؤ القيس اليمنى شعره فى لغة القرآن مع أن هذه اللغة لم تكن سائدة فى هذا العصر الذى عاش فيه امرؤ القيس؟ وأعجب من هذا أنك لا تجد مطلقًا فى شعر امرىء القيس لفظًا أو أسلوبًا أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يمنى » وكأنى بالدكتور فى قوله هذا لا يريد أن يتبين قول الرواة إن امرأ القيس يمنى النسب ، نزارى الدار والمنشأ .

ويا ترى لو جئنا إلى الدكتور بطفل أعجمى وتركناه ينشأ ويترعرع فى بيئة عربية ألا يحس الدكتور بأن هذا الفتى لا يتكلم إلا اللغة العربية ، وأن لغة جنسيته تمحى من نفسه محواً تامًا ، ولا يظهر لها أثر فى كلامه . ولا يخفى على الدكتور أن العامل الأول فى تكوين اللغة المحاكاة والتلقين ، فلا يأخذه العجب بعد ذلك إن وجد امرأ القيس ينشد شعره بلغة حجازية لأنها هى البيئة التى عاش فيها والتى تلقى على يديها لغته .

فقد استرضع فى بنى دارم ونشأ وترعرع فى بنى أسد والبراجم . وقد ذكر هو فى شعره أنه كان ربيبهم ومسترضعاً فيهم وذلك فى قوله ينعى على البراجم ويربوع ودارم وآل مجاشع خذلانهم عمه شرحبيل من قبل وخذلانهم إياه من بعد :

فما قاتلوا عن رَبِّهم ورَبِيبِهِم ولاَ آذنُوا جاراً فيظْعَن سالما

فقد عنى بربهم عمه شرحبيل وعنى بربيبهم نفسه لأنه نشأ فى كنفهم وكان مسترضعاً فيهم .

ومهما يكن من قيمة ما مضى من قول الدكتور فإنه حين تناول فى بحثه أبياتاً من معلقة امرىء القيس رفض بعضها وقبل البعض الآخر مع العلم بأن الأبيات التى رفضها والتى قبلها عدنانية قرشية — وهذا هو وجه المآخذة والضعف فى آرائه — رفض مثلا هذين البيتين :

وليلٍ كموجِ البحر أرخَى سُدوله ... علىّ بأنواع الهُمومِ ليبتَلى
فقلتُ له لمّا تمطّى بصُلْبه ... وأرْدَف أعْجازاً وناء بكلْكَل

وقبل البيت الذى يتلوهما ورضى أن يكون صحيح النسبة إلى امرىء القيس ، وهو :

ألاَ أيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألاَ انْجَلِ ... بِصُبْحٍ وما الإصْبَاحُ مِنْك بأمْثَل

فلماذا قبل الدكتور هذا البيت ورفض الأولين ؟ أهو يمنى اللغة وهما قرشيان؟ أفيه شيء يخالف لغة عدنان وقريش التى نزل بها القرآن من حيث اللفظ والأسلوب وما يتصل بذلك من قواعد الكلام ، أم وقعت المعجزة وبلغ تأثر الشاعر بلغة عدنان أن محيت لغته اليمنية من نفسه محواً تاماً فى هذا البيت فقط ؟ أم كان قبول الدكتور لهذا البيت فلتة لم يردها لأن فى قبوله إياها نقضاً لما قاله أولاً . ونأخذ على الدكتور قوله : إن لغة القرآن — أى اللغة القرشية — لم تكن سائدة فى العصر الذى عاش فيه امرؤ القيس . ولعل هذا التوهم خالج الدكتور حين ظن أن امرأ القيس ربما عاش فى القرن الخامس ولا ندرى مقدار هذه القَبْلِيَّة عند الدكتور أهى عام أم أعوام وقرون ؟ ولكننا قد أثبتنا أن امرأ القيس عاش فى القرن السادس . وبعد هذا فنحن نلفت الدكتور إلى

الأسواق التى كانت تقام فى الجاهلية فى أنحاء الجزيرة العربية ، والتى كانت تجتمع فيها العرب للبيع والشراء ولتناشد الأشعار وإلقاء الخطب والمفاخرات والمنافرات وكل ما يتعلق بفنون القول ، نلفته إلى ذلك وإلى أن اللغة التى اتخذت فى تلك الأسواق هى لغة قريش ، وقد أجمع المؤرخون جميعاً على ذلك والسبب فى هذا — أن قريشاً فى مكة وهى حاضرة العرب ، وطبيعى أن يكون سكان الأمصار أدنى إلى منازع المدنية من غيرهم من أهل البدو ومن سكان الريف من القرى ، وأن يكونوا أيضاً ألطف أذهاناً وأرق حاشية من هؤلاء وهؤلاء ، وأنهم لهذا ولما خصهم الله به من كثير من المواهب كانوا على استعداد قوى لإصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم فى مواسم الحج وفى هذه الأسواق الأدبية المطيفة بمكة حتى عذب أسلوبهم ، ورقت حواشى لغتهم ، وكانوا أهل بيت تعظمه العرب وتحج إليه وتقيم فيه بين أظهرهم الأيام الطوال ، وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت والحكومة بين العرب مع ما كانوا فيه من بسطة الغنى وثروة التجارة ، وقد أدى ذلك إلى تظاهر هذه الأسباب القوية لسيادة قريش التى بسطتها على العرب قبل الإسلام بعدة قرون ، وكان طبيعياً أن تنتقل هذه العذوبة القرشية إلى ألسنة القبائل المختلفة بحكم ما فى الإنسان من الميل إلى تقليد الأكمل ، ونزوعه إلى التقرب من مظاهر الحضارة ، وكانت تجارة قريش فى بلاد اليمن والشام وغيرها وإذعان أهل هذه البلاد لما انبسط من نفوذ قريش ولما قوى من سيادتها ؛ مما قد دعا أيضاً إلى تسرب هذا الأسلوب المهذب إلى تلك القبائل اليمنية بعد اندثار ملكهم ، وبعد ما عظم من أمر قريش . وظهر الإسلام والعرب كافة فى وحدة لسانية لا يشوبها إلا ما كان باقياً من الخلاف فى اللهجات وصور النطق بالكلام .

وإذن فاللغة القرشية كانت لها السيادة على الجزيرة العربية ولو لم تكن لها السيادة قبل نزول القرآن لما تهيأت عقول العرب لقبوله وفهم أسراره وإعجازه .

وقد عاد الدكتور بعد ذلك فقال « وهذا البحث ينتهى بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف لامرىء القيس ليس من امرىء القيس فى شىء » ومعنى هذا أن أقل الشعر الذى يضاف لامرىء القيس هو من امرىء القيس فى شىء ، وعلى ذلك يكون الدكتور قد ناقض نفسه فبينما هو ينكر شعر امرىء القيس جملة فيما سبق من أقواله إذا به يعترف هنا ببعض منه قليل .

ثم أخذ الدكتور يذكر رأيه فى المعلقة وادعى أنه لا يعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهر فى هذه القصيدة ، وذكر الدكتور أن القدماء يشكون فى صحة هذين البيتين : —

ترَى بَعَرَ الآرام فى عَرَصاتها وقِيعَانِها كأنَّهُ حبُّ فُلْفُل
كأنِّى غَداةَ البَيْنِ يوْمَ تحمَّلُوا لدَى سَمُرَاتِ الحىِّ نَاقِفُ حَنْظَل

وأنهم يشكون فى هذه الأبيات : —

وقِرْبةِ أقوام جَعَلْتُ عِصَامَهَا عَلَى كَاهِلٍ مِنِّى ذَلولٍ مُرَحَّل
وَوَادٍ كجوْفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُه بِهِ الذئْبُ يَعْوِى كالخَلِيعِ المعيَّل
فقلتُ لهُ لمّا عَوَى إنَّ شأْنَنَا قليلُ الغنَى إنْ كُنْتَ لمّا تَموَّل
كِلانا إذا مَا نَال شَيْئًا أفَاتَه ومنْ يَحترِث حَرْثِى وحَرْثَكَ يَهزُل

ونحن نقول للدكتور إن نقد الرواة للقصيدة وتمييز هذه الأبيات الستة بالنحلة يدل على أن أصلها ثابت النسبة لامرىء القيس أكثر مما يدل على انتحالها . وقال الدكتور « وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كبيراً فى رواية القصيدة فى ألفاظها وفى ترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظة وبيتاً مكان بيت ،

وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله ، وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا عَلَى الشك فى قيمة هذا الشعر ، وهو اختلاف قد أعطى المستشرقين صورة سيئة كاذبة عن الشعر العربى، فخيل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة أيضًا »

وعندنا أن ما يقول به الأستاذ الدكتور دليل على عدم انتحال هذا الشعر فى الإسلام ؛ فما الذى اضطر المنتحلين إلى اصطناع ذلك الشعر بلا وحدة فيه ولا شخصية على خلاف ما ألفوا من قول الشعر ؟ أما كان المعقول والقريب إلى النفس أن يفتعلوه على نحو ما كانوا يقولون ؟ وإذا كانت قصـــيدة امرىء القيس منتحلة فقد اصطنعت على رأى الدكتور فى الوقت الذى دون فيه الشعر فى الصحف ، والذى اصطنعها لا بد أن يكون من المهرة القادرين على قول الشعر وإنشاده ، أفما كان من الواضح أن يدونها ويذيعها فى الناس واضحة جلية ، يرددونها عنـه مدونة فلا يكون فيهـا بيت مختلَف فيه ، ولا اضطراب فى ترتيب أبياتها . نحن لا ننكر أن فى بعض الشعر الجاهلى اضطراباً ، ولـكن هذا الاضطراب لا ينهض حجة على انتحال هذا الشعر ، وقد رد هذه الشبهة المستشرق « تشارلس لايل » فى مقدمة المفضليات فقال « إن فى كثير من هذه الأشعار كلمات أو أشطار أبيات منقولة عن محالها وهذا شىء طبيعى فى أشعار لم تدون قط ، بل كانت مروية حفظاً ، ينقلها المتأخر عن المتقدم ، وليس فى هذا التعبير معنى للتزوير ، ونجد فى آخر بعض القصائد أبياتا — يقصد بذلك أن الراوى لم يمكنه أن يعرف محلها من القصيدة فوضعها فى آخرها — وهذا أيضاً لا يدل على الاختلاق بحال » .

أما سبب اختلاف الرواة فى ألفاظ الشعر ومواضع الأبيات فهو كما قال أستاذنا الكبير السيد (مصطفى صادق الرافعى) أنهم كانوا قوما لا يكتبون

ولا يدونون ، وكان اعتمادهم على الحفظ ، ومع الحفظ النسيان ، فإذا نسى أحدهم كلة فى بيت مِن الشعر وضع مكانها كلة غيرها تؤدى معناها أو تقاربها ، وما كانوا يرون فى هذا بأسا ما دام الغرض الذى يرمى إليه الشاعر قائما ، ثم يكون غيره لا ينسى فيروى الشعر على أصله فتجتمع روايتان ، فإذا كانوا ثلاثة فتكون الروايات ثلاث كل منها بلفظ غير الآخر وهلم جرا . وقد يحفظ أحدهم القصيدة فإذا قرأها يوماً على غيره قدم وأخر فى بعض أبياتها كما تتفق له حالة الذاكرة فى ساعته تلك لا كما حفظها من قبل إذ ليس عنده أصل مكتوب يعارض عليه .. ويصنع غيره مثل هذا الصنيع بضرب آخر مِنَ التقديم والتأخير كما يتهيأ لذاكرته ، ثم يكون غيرهما قد رواها وتثبت فى حفظه .. فيأتى فى القصيدة الواحدة ثلاث روايات متعارضة وإذا كثرت أبياتها كثرت رواياتها على حسب ذلك .. وقد فصل الأستاذ الرافعى فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية أسباب هذا الاختلاف ..

ونريد أن نبين للدكتور أن قصيدة امرىء القيس لم تخل من الوحدة والشخصية ، أما عن الوحدة فإن امرأ القيس ساق القصيدة كلها لغرض واحد ذلك الغرض هو العبث واللهو الذى تفنن فيه امرؤ القيس وجعله أشكالاً وأنواعا فى تلك القصيدة ، فليس التشبيب بالنساء وركوب الجياد وذكر محاسنها ووصف الطبيعة واستجلاء مظاهرها ليس هذا كله إلا لذة للنفس ولهواً وعبثاً ، وعلى ذلك فالوحدة فى قصيدة امرىء القيس ظاهرة ظهوراً جليا لا ينبغى أن تخفى على الدكتور وهو عميد الأدب وتاريخه . وأما عن الشخصية فإنا نعلم مِنْ تاريخ امرىء القيس أنه كان فى حياته الأولى أخا صبوات وصنو لذات وخدين خلاعة ولهو ، وليس أدل على تلك الشخصية الماجنة — شخصية امرىء القيس فى شبابه قبل مقتل أبيه — من هذه القصيدة .. وعلى ذلك

يكون قول الدكتور إن القصيدة خلت من الوحدة والشخصية أمر لم يقم عليه دليل ، وما رأى الدكتور فى قول نيكلسون عن تلك القصيدة « أما معلقة امرىء القيس فقد تسابق النقاد الأوربيون إلى التغنى بجمال تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها وحلاوة أبياتها وسحر تمثيلها المنوع ، ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بأفراح الحياة وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابة ومبانيها البالغة أعلى درجات الفصاحة » .

وقال الدكتور « ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين قلقان فى القصيدة وهما :

وَليلٍ كموج البحر أرْخَى سدُولهُ ... علىّ بأنواعِ الهُموم ليبتلىِ

فَقُلْتُ لَهُ لمَّا تمطَّى بصلْبِهِ ... وَارْدَفَ أعْجَازاً وَناءَ بِكلْكل

فقد وُضع هذان البيتان للدخول على البيت الذى يليهما وهو :

ألاَ أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألاَ انْجلِ ... بصبح وَما الإصباحُ مِنْك بأمْثَل

« وهذان البيتان أشبه بتكلف المشطر والمخمس منهما بأى شىء آخر »

ونحن نستدل على براءتهما من هذا القلق وهذا التكلف الذى يدعيه الدكتور بأنهما مرا على فصحاء العرب ونقاد الأدب الذين لم يكن أمهر منهم فى معرفة الفصيح وغير الفصيح .. والمتكلف والمطبوع .. والضعيف وغير الضعيف . وهم مع ذلك لم يحسوا فى هذين البيتين شيئا مما يرميهما به الدكتور ، وكل ما عابوه على امرىء القيس فى هذه الأبيات أن قوله :

فَقُلْت لَهُ لمَّا تَمَطَّى بصلْبهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجازاً وَناءَ بِكلْكل

قد انسلخ بوصف الليل من غير أن يذكر مقول القول ، وجعل هذا البيت متعلقا بالبيت الذى يليه ، وهو قوله :

أَلاَ أَيُّها اللَّيْل الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِ بِصُبْحٍ ومَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وهناك فريق لم يتذوق حلاوة المجاز والاستعارة لأن له ذوقا غليظا فى الأدب قد عاب قول امرئ القيس : ـ

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجازًا ونَاءَ بِكَلْكَلِ

لكن الآمدى آجره الله ردهم إلى محجة الصواب وسفه رأيهم . وبعد هذا فإن شيوخ الأدب والمتأدبين ساقوا فى كتبهم ما يشهد بأن هذه الأبيات التى وصف بها امرؤ القيس الليل كانت تقع منهم موقع الإعجاب ، ويضربون لها أرجلهم طربا ، كما حكى المرزبانى فى كتابه الموشح أن الوليد بن عبد الملك وأخاه مسلمة تشاجرا على شعر امرئ القيس والنابغة الذبيانى فى وصف الليل أيهما أجود فرضيا بالشعبى أن يكون حكما بينهما ولما حضر أنشده الوليد : ـ

كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ ولَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ
تطاوَلَ حتّى قلتُ ليس بِمُنْقَضٍ وليس الذى يَرْعَى النجُومَ بآئِبِ
وصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيلُ عازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فيهِ الحُزْنُ مِنْ كُلِّ جانِبِ

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس : ـ

ولَيْلٍ كمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ علَيَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِى
فقلتُ له لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وأَرْدَفَ أَعْجَازًا ونَاءَ بكَلْكَلِ
أَلاَ أَيُّها اللَّيْلُ الطوِيلُ أَلاَ انْجَلِ بِصُبْحٍ ومَا الإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فيا لَكَ من لَيْلٍ كأنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ
كأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِهَا بأمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ

فضرب الوليد برجله طربا فقال الشعبي بانت القضية .

ولا نعني بما قدمناه أن يكف المحدثون عن نقد الشعر الذي وقع تحت نظر القدماء ولم يتعرضوا له بالنقد وإلا كنا جامدين ، فمن الجائز أنهم لا ينتقدون البيت حتى يلوح لهم ما فيه من مغمز خفي ، ومن الجائز أن يلوح لهم هذا المغمز ولكنهم يستهينون به فلا يذكرونه ، ومن المحتمل أن يذكروه ولكنه لم يصل إلينا في هذه الكتب التي بقيت مما تركوا . وإنما نقصد أن ما ذهب إليه الدكتور في هذه الأبيات لا يمكن أن ينهض دليلا على أن هذين البيتين قلقان في القصيدة .

بعد هذا ذكر الدكتور أن ما في القصيدة من لهو وفحش أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق ، وأن ما فيها من وصف امرىء القيس لخليلته وزيارته إياها وتجشمه ما تجشم للوصول إليها وتخوفها الفضيحة حين رأته وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من لهو كل هذا أشبه بشعر عمر ابن أبي ربيعة ، قال « ولنسرع القول بأن وصف اللهو مع العذارى وما فيه من فحش أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهليا . فالرواة يحدثوننا أن الفرزدق خرج في يوم مطير إلى ضاحية البصرة فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير ، وإذا فيه نساء يستحممن فقال : ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ، وولى منصرفا فصاح النساء به : يا صاحب البغلة ، فعاد إليهن ، فسألنه ، وعزمن عليه ليحدثهن بحديث دارة جلجل ، فقص عليهن قصة امرىء القيس وأنشدهن قوله :

ألا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صالحٍ ولاَ سِيَّمَا يَوْمٌ بدَارَةِ جُلْجُل
(الأبيات)

والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته وأنه قد ليم على

هذا الفحش وعلى هذه الغلظة لا يجدون مشقة فى أن يضيفوا إليه هذه الأبيات فهى بشعره أشبه . وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء وهم ينتحلونها من عند أنفسهم ، ومهما يكن من شىء فلغة هذه الأبيات كلغة القصيدة كلها عدنانية قرشية يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامى اتخذ لغة القرآن لغة أدبية .

أما وصف امرىء القيس لخليلته وزيارته إياها وتجشمه ما تجشم للوصول إليها وتخوفها الفضيحة حين رأته وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شىء آخر. فهذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة ، قد احتكره احتكاراً ولم ينازعه فيه أحد . ولقد يكون غريباً حقّا أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرىء القيس مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرىء القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف ، فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشىء هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة والذى كون شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ولا يعرف له ذلك ؟

وأنت إذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم تكد تشك فى أن هذا الفن فنه ابتكره ابتكاراً واستغله استغلالا قويًّا . وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا فى هذا القصص الغرامى الذي تجده فى قصيدة امرىء القيس الأخرى : « ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى » ففى هذا القصص الفاحش فن ابن أبى ربيعة وروح الفرزدق . « ونحن نرجح إذاً أن هذا النوع

من الغزل إنما أضيف إلى امرىء القيس ، أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين » اهـ بنصه .

ونحن نأخذ على أستاذنا الدكتور طه أنه أنكر الوحدة والشخصية فى القصيدة ، ثم عاد فقال إن ما فيها من فحش وغرام هما للفرزدق وعمر ابن أبى ربيعة ، وهما شاعران إسلاميان يظهر فى شعرهما الوحدة والشخصية لأنهما من شعراء الإسلام الذين قال الدكتور عن شعرهم إنه يتحدى أىّ ناقد أن يعبث به أقل عبث دون أن يفسده ، وقال إن وحدة القصيدة فيه بينة ، وإن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهوراً منها فى أى شعر أجنبي . ونحب أن نسائل الدكتور بعد هذا الذى ذهب إليه من أن قصيدة امرىء القيس إسلامية لا جاهلية . نحب أن نسأله عن قوله إن القصيدة خلت من الوحدة والشخصية ، أين ذهبت هذه الوحدة وتلك الشخصية ؟ أتبخرت على مر السنين أم سلطت عليها قوة سحرية وأشار إليها الشياطين بعصيهم فاختفت تحت الأرض ؟ أم أن الأستاذ الدكتور يعدل عن رأيه فيعترف بأن الوحدة والشخصية ظاهرتان فى القصيدة . وإنا لنعجب أيضاً من أن تكون تلك القصيدة شركة بين ثلاثة من الشعراء وكلهم جليل الخطر فى شعره ولا يخبرنا النقاد والرواة بهذا وهم هؤلاء الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة فى الشعر إلا ردوها إلى صاحبها . وإذا كان الفرزدق قد عرف بنحو من الشعر فهل يجب أن يكون له مبتدعاً لم يسبقه به امرؤ القيس ، ألا إن الدكتور لا يستند فى هذا الظن إلا إلى أن هذا الفحش أشبه بفحش الفرزدق ، وذلك شىء عجيب فإن تشابه الشعرين لا يمكن أن يقوم دليلا على أن هذا الشعر للفرزدق ، لا سيما وأنا نعلم أن الفرزدق كان مشهوراً بسرقة الشعراء يغير عليهم وينهب شعرهم وينسبه إلى نفسه ويجعله من شعره غير مبال أن يعرف الرواة عنه ذلك ، أو أن يكون الشاعر المسلوب حياً أو ميتاً ، وقد شهد عليه

الأصمعى وغيره بأنه كان لصاً ماهراً فى سرقة الشعر يسرقه عنوة واقتداراً وقد جاء فى الموشح وخزانة الأدب الكبرى أن الفرزدق سرق من ابن ميادة قوله :

لَوَ انَّ جَمِيعَ الناسِ كَانُوا بتَلْعَةٍ   وجِئْتُ بِجَدِّى ظالِمٍ وابْنِ ظَالِم

لظلَّتْ رِقَابُ الناسِ خَاضِعَةً لنَا   سُجُوداً عَلَى أَعْقَابِنَا بالجَمَاجِمِ

فأدخلهما الفرزدق فى شعره وقال :

لَوَ انَّ جَمِيعَ النّاسِ كانُوا بتَلْعَة   وجئت بجدّى دَارِمٍ وابنِ دَارِم

لظلّتْ رِقابُ الناس خاضعةً لَنا   سجوداً علَى أعْقَابِنا بالجَمَاجِم

وفى الأغانى والموشح أيضاً أنه سرق من ذى الرمة قوله :

أحِينَ أَعَاذَتْ بى تَمِيمٌ نِسَاءها   وجُرِّدْتُ تَجْرِيدَ الْيَمَانِى مِنَ الْغِمْد

ومَدَّتْ بِضَبْعَىَّ الرِّبابُ ومَالك   وعمرٌ وشَالَتْ من وَرَائى بنُو سَعْدْ

ومِنْ آلِ يَرْبُوعٍ زُهاءٌ كأنّهُ   دُجَى اللّيْلِ مَحْمُودُ النِّكَايَةِ والوِرْدِ

وكُنّا إذَا الجَبّارُ صَعّر خَدّهُ   ضَرَبْنَاهُ فَوْقَ الأُنْثَيَيْنِ على الكَرْدِ

وسرق من الراعى قوله :

كَمْ مِن أبٍ لى يا جَرِير كأَنَّه   قَمَرُ المجرّة أوْ سِراج نَهار

لنْ تُدْرِكوا كَرَمِى بِلُؤْم أبِيكُمُ   وأوَابِدِى بتَنَحُّـل الأشْعَار

وسرق من جميل قوله :

تَرَى الناسَ ما سِرْنا يَسِيرون خَلْفَنَا   وإنْ نَحْنُ أوْمَأْنا إلى النَّاسِ وقَفُوا

وفى الموشح أيضاً أن الفرزدق سرق من الأعلم العبدى تسعة أبيات وأدخلها فى قصيدته « عَزَفْتَ بِأَعْشاشٍ وما كِدْتَ تَعْزِفُ »

وسرق من النابغة الجعدى :

وصَهباءَ لا تُخْفِى القَذَى وَهْىَ دُونَه تصفّق فى رَاوُوقِهـا ثُمّ تقْطَب
تمزّزتُها والديكُ يدْعُو صباحَه إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فتَصَوَّبُوا

أَخَذَه الفَرَزْدَق نسخاً فقال :

وإجّانَةٍ ريَّا الشّروب كأنّهـا إذا صفّقَتْ فيها الزُّجَاجَة كَوْكب
تمزّزتُها والدّيكُ يدْعُو صبَاحَه إذا مَا بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فتَصَوّبوا

ولقى الفرزدق أبا عمرو بن العلاء فى المربد فسأله أبو عمرو هل أحدثت شيئاً يا أبا فراس ؟ فقال نعم ثم أنشده

كَمْ دُون مَيَّةَ مِنْ مُسْتَعْمَلٍ قَذِفٍ ومن فَلَاةٍ بهـا تُسْتَوْدَعُ العِيسُ

فقال له أبو عمرو هذا للمتلمس ، فقال اكتمها فى نفسك فلضوال الشعر أحب إلى من ضوال الإبل ، وخير السرقة ما لم تقطع فيه اليد .

فشاعر كهذا كثير السرقات يرغب فى انتحال شعر غيره ويدعية لنفسه لا يمكن بحال من الأحوال أن يقول شعراً ثم ينحله سواه . فلا يمكن أن يكون الفرزدق هو الذى صنع هذا الشعر وأسنده إلى امرىء القيس ، وكل ما فى الأمر أن الفرزدق تأثر بامرىء القيس لأنه كان تلميذاً له ، فقد كان من رواته بشهادة ابن عبد ربه ، فإنه قال فى العقد الفريد « كان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرىء القيس وأشعاره ، وذلك أن امرأ القيس رأى من أبيه جفوة فلحق بعمه شرحبيل بن الحرث وكان مسترضعاً فى بنى دارم فأقام فيهم وهم رهط الفرزدق » والذى نأخذه على الدكتور أيضاً أنه مع جنوحه إلى رفض القصص المنحولة يتقبل قصة الفرزدق وإن كانت أشبه بالمنحول منها بأن تكون حقيقة ، ونعنى بها القصة التى قيل فيها إن الفرزدق

خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة وتتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير فيه نساء فقال ما أشبه اليوم بدارة جلجل — إلى آخر ما جاء عن تلك القصة التى ذكرها الدكتور فى كلامه .

أما عن اللهو الذى جاء فى القصيدة ويدعيه الدكتور لعمر بن أبى ربيعة فهو عنده لم يخرج عن دائرة الشك ولم يُقِم دليلا على دعواه . على أن الأقدمين قالوا إن امرأ القيس سبق إلى أشياء ابتدعها واتبعه فيها الشعراء منها : استيقاف صحبه ، والبكاء على الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وتشبيه النساء بالظباء والبيض وما إلى ذلك مما ذكره ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء . وبهذا تقدم امرؤ القيس الشعراء لأنهم اتبعوه فيها ولم يتبع هو أحدا فيها . وفن ابن أبى ربيعة واللهو الذى جاء فى القصيدة (وادعى الدكتور أنه لعمر بن أبى ربيعة) كل هذا داخل فى رقة النسيب التى سبق إليها امرؤ القيس قبل سائر الشعراء وقبل أن يولد ابن أبى ربيعة ، فإذا كان ابن أبى ربيعة قد استحسن أسلوبا من أساليب امرىء القيس فى النسيب فأكثر منه واستنفد منه جانبا من شعره فليس معنى هذا أنه اخترع هذا الفن واحتكره ، ولو كان هذا الغزل واللهو من مبتكرات ابن أبى ربيعة لما فات هذا رواة الأدب ونقاده ولذكروا ذلك وجعلوا الفخر كل الفخر فيه لابن أبى ربيعة ، ولكن الرواة جميعاً متفقون على أن امرأ القيس هو السابق إلى النسيب ورقته وإلى أشياء أخرى ، ومتفقون أيضا على أن ما فى المعلقة وما فى القصيدة الثانية (ألا انعم صباحا أيها الطلل البالى) من لهو وعبث وغيره هو من شعر امرىء القيس ، فإذا كان بينه وبين شعر ابن أبى ربيعة تشابه واضح فمن مقتضيات هذا أن نعترف بأن امرأ القيس كان أستاذاً لعمر بن أبى ربيعة فى هذا الفن . أما سكوت الرواة وعدم إشارتهم إلى أثر امرىء القيس فى عمر بن أبى ربيعة كما

قال الدكتور فإنه — إن صح — لا ينهض دليلا على أن هذا الشعر لابن أبي ربيعة ، بيد أنّ في قول الرواة إن امرأ القيس سبق الشعراء إلى أشياء ابتدعها واتبعوه فيها كرقة النسيب ... دليلا على أثر امرىء القيس في ابن أبي ربيعة ؛ لأنه من شعراء الغزل ، ولأنه لاحق لامرىء القيس ، وانظر إلى ما قاله صاحب شرح شواهد الكشاف عند إيراده لشيء من قصيدة امرىء القيس (ألا انعم صباحا) فإنه ذكر أن قصيدة عمر بن أبي ربيعة (أمن آل نعم) مشابهة لقصيدة امرىء القيس بمعناها مشابهة اليوم للأمس ، ومطابقة لها مطابقة الخمس بالخمس . وننتهي إلى أن امرأ القيس هو الذي سن الغزل لابن أبي ربيعة ، وسن الفحش للفرزدق ، وسن فنونا من القول لسائر الشعراء بعده .

ثم تحدث الدكتور عن الوصف الذي جاء في القصيدة ، فقال « بقي الوصف ولا سيما وصف الفرس والصيد . ولكننا نقف فيه موقف التردد أيضاً ، واللغة هي التي تضطرنا إلى هذا الموقف . فالظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ في وصف الخيل والصيد والسيل والمطر ، والظاهر أنه قد استحدث في ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل . ولكن أقال هذه الأشياء في هذا الشعر الذي بين أيدينا أم قالها في شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ولم يبق منه إلا الذكر والإجمل مقتضبة أخذها الرواة فنظموها في شعر محدث نسقوه ولفقوه وأضافوه إلى شاعرنا القديم ؟ هذا مذهبنا الذي نرجحه فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصي والعقبان ، وما إلى ذلك ، ولكننا نشك أعظم الشك في أن يكون قد قال هذه الأبيات التي يرويها الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذي نجده في المعلقة وفي اللامية الأخرى فيه شيء من ريح امرىء القيس ، ولكن من ريحه ليس غير » ونحن نعجب للدكتور فإن الرواة حدثوه بأن امرأ القيس هو أول من قيد

الأوابد وشبه الخيل بالعصى والعقبان ووصف الصيد والسيل والمطر وأجاد فى هذا الوصف ونبغ فيه، يقول له الرواة ذلك فيؤمن الدكتور على كلامهم، ويقول صدقوا . ثم يقول الرواة هذا شعره الذى يظهر فيه وصفه وروحه فيقول الدكتور لم يصدقوا . وذلك لعمرى منطق غير مستقيم يجمع الدكتور فيه بين النقيضين ، فالرواة عند الدكتور صادقون كاذبون معاً . وإذا كان الدكتور لم يعتمد على الرواة فى أن امرأ القيس وصف الخيل والسيل فليقل لنا من أين جاء هذا العلم ؟ هل تنزل به وحى السماء ؟ كلا ولكن الدكتور يأخذ عن الرواة ما يصادف هوى فى نفسه ويرفض مالا يتفق مع نزعاته ولا عجب فى ذلك ولا غرابة فإن الدكتور يلح عليه الشك ، ثم يلح عليه الشك فلا يضبط مقدماته ولا نتائجه فيلتوى عليه السبيل ولا يعرف إلى أى غاية يسير .

ثم عرج الدكتور بعد هذا على القصيدة التى يروى أن امرأ القيس قالها فى منازعة شعرية بينه وبين علقمة ، فقال « هناك قصيدة ثالثة نجزم نحن بأنها منتحلة انتحالا ، وهى القصيدة البائية التى يقال إن امرأ القيس أنشأها يخاصم بها علقمة بن عبدة الفحل ، وإن أم جندب زوج امرىء القيس قد غلبت علقمة على زوجها ، وأنت تجد القصيدتين فى ديوان امرىء القيس وديوان علقمة . فأما قصيدة امرىء القيس فمطلعها : —

خَلِيلَىّ مُرَّابِى عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ   لِنَقْضِ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

وأما قصيدة علقمة فمطلعها :

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ فى كلِّ مَذْهَبٍ   ولم يَكُ حقًّا كلُّ هذا التَّجَنُّبِ

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين لتحس فيهما رقة إسلامية ظاهرة ،

على أن هذين الشاعرين قد تواردا على معان كثيرة ، بل على ألفاظ كثيرة ، بل على أبيات كثيرة تجدها بنصها فى القصيدتين معاً ، وعلى أن البيت الذى يضاف إلى علقمة وبه ربح القضية يروى لامرىء القيس ، وهو :

فأدْرَكَهُنّ ثانياً مِنْ عِنانِهِ يَمُرّ كَمَرّ الرائحِ المتحلّب

والبيت الذى خسر به امرؤ القيس القضية يروى لعلقمة وهو : —

فلِلسَّوْطِ أُلْهوبٌ وللِسّاقِ دِرّةٌ وللزّجْرِ منه وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ

وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيهما فرقا بين شخصية الشاعرين ، بل أنت لا تجد فيهما شخصية ما ، وإنما تحس أنك تقرأ كلاما غريبا منظوما فى جمع ما يمكن جمعه من وصف الفرس جملة وتفصيلا ، وأكبر الظن أن علقمة لم يفاخر امرأ القيس ، وأن أم جندب لم تحكم بينهما ، وأن القصيدتين ليستا من الجاهلية فى شىء » جزم الدكتور بأن هذه القصيدة منتحلة انتحالا لأن فيها رقة إسلامية ، ولو تدبر قليلا لرأى فى شعر بعض شعراء الإسلام غرابة يعسر فهمها كرؤبة والعجاج ، ولرأى أيضا فى شعر بعض شعراء الجاهلية سهولة ورقة ونحن لا نحتج عليه لهذه السهولة بأكثر من الشعر الذى سلمه لعلقمة كقوله : —

فإنْ تَسْأَلونِى بالنِّساء فإنّنِى خَبِيرٌ بأَدْوَاء النساء طَبِيبُ

إذا شَاب رَأْسُ المرْءِ أو قَلّ ماله فلَيْس لَهُ فى وُدِّهنّ نَصِيبُ

يُرِدْنَ ثَراءَ المَال حَيْثُ عَلِمْنَه وشَرْخُ الشّبابِ عِنْدَهُنّ عَجِيب

وإنى ما رددت دليل الدكتور إلا لأبين المآخذ على براهينه ، ولكنى لا أذهب مع ذلك إلى أن القصيدة قد سلمت لامرىء القيس ، فإن هناك طائفة من الرواة القدامى قد سبقوا الدكتور وأنكروا هذه القصيدة فقد ذكر

المرزبانى فى الموشح حين ساق منازعة امرىء القيس وعلقمة واحتكامهما إلى أم جندب بعد أن ذكر ذلك قال « وقد روى هذا الحديث أيضاً ابن الكلبى ورواه أيضاً عبد الله بن المعتز وذكره فيما أنكر من شعر امرىء القيس » وكان حماد يروى القصيدتين لامرىء القيس وكان المفضل يرويهما لعلقمة .

وإلى هنا ينتهى بنا نقد ما تعرضنا له من آراء أستاذنا الدكتور طه ونخرج من ذلك على أن امرأ القيس وجد حقا ، وأن القصة التى ذكرها المؤرخون والرواة عنه هى قصته حقا ، وأن الشعر الذى يضاف إليه هو شعره حقا ، وأن الدكتور كان فى بحثه متجنيا على امرىء القيس وقصته وشعره ، وأنه لم يكن فى تظننه وتشككه موفقا . والحمد لله أولا وآخراً .

مصادر البحث

من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في استقاء مباحث هذا الكتاب، ما يأتي : —

طبقات الشعراء لابن سلام

الشعر والشعراء لابن قتيبة

الفهرست لابن النديم

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى

مهذب الأغانى للخضرى

أمثال الميدانى

المزهر للسيوطى

شرح القصائد العشر للتبريزى

شرح المعلقات السبع للزوزنى

شعراء النصرانية للأب لويس شيخو

العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين

العقد الفريد لابن عبد ربه

العمدة لابن رشيق

الكامل لابن الأثير

جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى

خزانة الأدب للبغدادى

مذكراتى الخاصة

معجم البلدان

معجم ما استعجم

وصف جزيرة العرب للهمدانى

نقد الشعر لقدامة

رجال المعلقات العشر للغلاييني

تاريخ آداب العرب لجورجى زيدان

إعجاز القرآن للباقلانى

الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة

الوسيلة الأدبية للمرصفى

تاريخ الطبرى

تاريخ ابن خلدون

النفحة المسكية فى أحوال الأمة العربية الجاهلية للقلوصينى

المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطى

تحت راية القرآن للرافعى

معاهد التنصيص للعباسى

مجلة المقتطف

مجلة المشرق

نقض الشعر الجاهلى للخضر حسين

فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين

نقد الشعر الجاهلى للخضرى

أدبيات اللغة العربية لعاطف باشا بركات

الوسيط للاسكندرى

نهاية الأرب للنويرى

شرح ديوان امرىء القيس للوزير ابن أيوب

شرح ديوان امرىء القيس لأبى الحسن الطوسى

تاريخ العرب وآدابهم للمستشرق فانديك

أديان العرب فى الجاهلية والإسلام

دائرة المعارف للبستانى

المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها

تاريخ العزب قبل الإسلام جورجي زيدان

تاريخ التمدن الإسلامى جورجي زيدان

محاضرات التاريخ الإسلامى للخضرى

عيون الأخبار لابن قتيبة

الملل والنحل للشهرستانى

فجر الإسلام لأحمد أمين

بدائع البدائه لابن ظافر

نزهة ذوي الكيس في شعر امرىء القيس

رياض الفيض

المواهب الفتحية لحمزة فتح الله

البيان والتبيين للجاحظ

تاريخ آداب العرب للرافعي

الموازنة للآمدي

الموشح للمرزباني

تزيين الأسواق للأنطاكي

الروض الأنف (السيرة) لابن هشام

وثمة كتب ومراجع أخرى ورد ذكرها في ثنايا موضوعات الكتاب ومباحثه



صورة المؤلف عندما الف هذا الكتاب فى عامه الثانى والعشرين
فى سنة ١٩٢٩

المؤلف فى سطور



نقلا عن تقويم دار العلوم الذى وضعه المغفور له الأستاذ محمد عبد الجواد الأستاذ بكلية دار العلوم (سابقاً) — وقد اشتمل على تاريخ الدار، وتناول ذكر الخريجين ونبذاً من تاريخ بعضهم منذ عام ١٨٧٢ حتى عام ١٩٥١ .

صورة المؤلف فى سنة ١٩٧٣

وقد كان وزير المعارف وقت إصدار هذا التقويم المغفور له الدكتور طه حسين، وكان رئيس جماعة دار العلوم آنئذ المغفور له الأستاذ سعد اللبان ... وقد صدر ذلك الكتاب « التقويم » عن دار المعارف سنة ١٩٥١ فى العيد الماسى لدار العلوم لمضى ٧٥ عاماً عليها منذ إنشائها

وقد جاء فى صفحة ٤٧٢ منه عن المؤلف ما يأتى : —

(محمد صالح سمك)

١ — تخرج سنة ١٩٣١ .

٢ — اشتغل محرراً بجريدة المقطم ومجلة المقتطف من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٥

٣ — أحد المؤسسين لجمعية نهضة القرى لمحو الأمية سنة ١٩٣٣ برياسة الدكتور (على باشا إبراهيم) .

٤ — له نشاط فى المجال السياسى فهو من الطلائع المؤسسين لحزب الفلاح

الاشتراكى سنة ١٩٤٦ — وهو الآن (فى عام ١٩٥١) السكرتير العام لهذا الحزب .

ومن مؤلفاته حتى الآن (أى سنة ١٩٥١) : —

١ — أمير الشعر فى العصر القديم (امرؤ القيس) وضع مقدمته المغفور له نابغة الأدب العربى السيد مصطفى صادق الرافعى — طبع سنة ١٩٣٢ بمطبعة العلوم ثم بمطبعة نهضة مصر(١) .

٢ — تاريخ الأدب العربى ، وضع مقدمته الأستاذ السيد محب الدين الخطيب وقد طبع سنة ١٩٣٣ بالمطبعة السلفية .

٣ — الموجز فى الأدب العربى للمدارس الثانوية — طبع بمطبعة العلوم سنة ١٩٣٦ .

٤ — تأريخ وتطور الترجمة والتعريب فى اللغة العربية — طبع بمطبعة العلوم سنة ١٩٤٦ .

---

(١) التأريخ لهذا الكتاب

عثر المؤلف — مطالع الشباب فى الثانية والعشرين من عمره — على صاحبه « امرىء القيس » فى نفسه ، وهو يومئذ طالب بدار العلوم . . فأخرجه للناس كتاباً يقرءونه ، وقدمه للقراء نابغة الأدب العربى المغفور له الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى صيف ١٩٢٩ ، وقد ذكرت هذه المقدمة بالجزء الثالث من كتابه « وحى القلم » . . كما نشرت بعض فصول ومباحث « أمير الشعر » بمجلة المقتطف فى عامى ١٩٣٠ و١٩٣١ ، وقد صدرت الطبعة الأولى منه فى عام ١٩٣٢ . . وتلقاه المستشرقون والباحثون والنقاد والأدباء بالتقدير والاهتمام ، كما نوهت به الصحف المصرية وأثنت عليه وعلى مؤلفه . . وهذه هى أحدث طبعة منه صدرت فى أواخر عام ١٩٧٣ .

٥ — منهج جديد للتعريف بالأدباء الأحياء .. وهو المنهج الذى قدم به إلى القراء ديوان « أغاريد السحر » لصديقه الحميم الشاعر البارع ، الأستاذ على الجندى — طبع بدار الفكر العربى سنة ١٩٤٧ .

٦ — مهمة المدرسة الاشتراكية فى النهوض بالحياة الاجتماعية — طبع بمطبعة العلوم سنة ١٩٤٨ .

٧ — سلسلة المراجعة فى دروس اللغة العربية — بالاشتراك مع زملائه وأصدقائه الأساتذة : حسن علوان ، وعلى الجندى ، ومحمد برانق ... ستة أجزاء لتلاميذ وطلبة التعليم العام — طبع سنة ١٩٥٠ بمطبعة نهضة مصر .

وهو الآن مدرس بمعهد المعلمين بالزيتون (٥٠١ هـ)

ومن مؤلفاته بعد ذلك أيضاً :

٨ — طرق تدريس اللغة القومية والدين لطلبة الدراسات العليا بتخصص التدريس بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر — طبع سنة ١٩٥٦ بمطبعة نهضة مصر .

٩ — الطرق الخاصة بتدريس اللغة العربية لدور المعلمين والمعلمات ، وهو الكتاب الذى فاز على سواه فى مسابقة وزارة التربية والتعليم ، وقررته الوزارة على الطلبة والطالبات بمعاهد المعلمين والمعلمات — منذ سنة ١٩٦١ حتى الآن .

١٠ — فن التدريس للغة العربية وانطباعاتها المسلكية لطلبة كليات التربية — والناشر مكتبة الأنجلو المصرية — طبع بالمطبعة الفنية سنة ١٩٦٩ .

١١ — فن التدريس للتربية الدينية وارتباطاتها النفسية وأنماطها السلوكية ، لطلبة كليات التربية — والناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، طبع بالمطبعة الفنية سنة ١٩٧٣ .

١٢ — تأريخ الكتابة الخطية .

١٣ — القومية العربية في معتركها السياسي ، ومجالها الأدبي — جزءان .

١٤ — فن الوصف وروائعه فى الأدب العربى — ثلاثة أجزاء .

١٥ — القصص الدينى المقارن فى الكتب المقدسة — ثلاثة أجزاء .

١٦ — دراسات منهجية فى المواد القومية (المجتمع ، والثورة ، والاشتراكية) ثلاثة أجزاء .

١٧ — الفرعونيات فى شعر شوقى .

١٨ — الساسة الأدباء فى الحياة العربية الإسلامية — جزءان .

١٩ — بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة .

٢٠ — جولة فى الريف — جزءان :

وغير ذلك .

ومن آثاره الأدبية بالاشتراك مع صديقه الحبيب الشاعر — المغفور له — الأستاذ على الجندى عميد دار العلوم (سابقاً) ما يأتى :—

(١) أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام — طبع منه جزءان بمطبعة الرسالة سنة ١٩٥٩ — والناشر مكتبة الأنجلو .

(٢) ديوان القومية العربية — أربعة أجزاء .

وآخر عمل فى حياة المؤلف الوظيفية الرسمية رئيس لقسم الدراسات العربية والقومية بالمعهد العالى للاقتصاد المنزلى ، وقد أحيل للمعاش فى الدرجة الأولى سنة ١٩٦٧ .

وهو يعمل الآن أستاذاً منتدباً (غ . م) للطرق الخاصة بتدريس اللغة والدين فى قسم المناهج بكلية التربية بجامعة الأزهر ..

وبعد . . . ؟!

يا امرأ القيس . . .

أى شاعرى العظيم ... حامل لواء الشعر فى الدّارين : الأولى والآخرة .

أبيت اللعن ...

نحنُ لِلمقادِير صيدٌ .. أىّ صَيْدٍ ؟! تحتَوِينا بِنَحْسٍ ، أوْ تجتبِينا لِسَعْدِ

أنت عربىّ قحطانى من كندة ، وأنا عربى عدنانىّ من تميم .. جمعنى معك ما حاق بنا من عبر الأيام : فى أهوائها وأهوالها ومحنها ومتعباتها وآلامها وآمالها وأفاويق لذاذاتها ومتعها وتجاربها وخبْراتها ... وربطتنى بك أرومة العروبة العريقة ، وآصرة المحبة الخالصة العتيدة .

أحببتك منذ صباى — على علاتك وعلاتى — وسأبقى ما حييت على ودّى لك ، وتوثُّقِى فيك .

ولعلّى بهذا العمل الأدبىّ الذى قرنت فيه شخصىَ الضعيف بشخصك العظيم القوى ، وطابت به نفسى ، وقرّت عينى ... حتى غدوْتُ أنعت بصاحب امرىء القيس ، أمير الشعر ... لعلّى أكون قد أدّت واجباً حيالك ؛ تقديراً لفنك ، وتقديساً لعبقريتك ، وتمجيداً لموهبتك ، ومواساة لى ولك فى رحلة الحياة الشاقة من المهد إلى اللحد .

ودعائى — وأنت نصرانىّ من أهل الفترة — أن يغفر الله لك خطاياك ، ويغفر لى خطيئتى .. يوم الدين .. فهو أكرم الأكرمين ، وذو الفضل العظيم .

وسلامه عليك ورحمته إليك . المؤلف

المحتوى

الموضوع	صفحة

الموضوع | الصفحة

اعتذار

نستميح القارىء الكريم العذر — التماساً لصفحه عما ندّ عنه النظر — من بعض الأخطاء المطبعية الهيّنة التى قد تجىء فى ثنايا الكتاب ، وليس بعسير عليه إدراكها وتصويبها .

الفراغ من طبع هذا الكتاب

قد انتهى طبع الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب العربى بالقاهرة ، وكان الفراغ من طبعه فى يوم السبت الموافق ٢١ من شهر ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ — و ١٥ من شهر ديسمبر سنة ١٩٧٣ م

والحمد لله أولاً وأخيراً .

رئيس مجلس الإدارة
دكتور محمود الشنيطى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٣٢/١٩٧٤